

الموسوعة العربية العالمية

من كتابات الأمير الحسن

الجزء الثاني

(المعرفة)

بطاقة فهرسة

مصدر الفهرسة: IQ-KaPLI ara IQ-KaPLI rda

رقم تصنيف LC: BP41.7.R33 M3 2018

المؤلف الشخصي: رضواني، علي أصغر، مؤلف.

العنوان: الموسوعة العلمية من كلمات الإمام الحسين عليه السلام / الجزء الثاني (المعرفة).

بيان المسؤولية: تأليف: الأستاذ علي أصغر رضواني، وجمع من الفضلاء؛ ترجمة: د. محمد صالح الحلفي.

بيانات الطبع: الطبعة الأولى.

بيانات النشر: النجف، العراق: العتبة الحسينية المقدّسة، مؤسسة وارث الأنبياء للدراسات

التخصصية في النهضة الحسينية، ٢٠١٨ / ١٤٣٩ للهجرة.

الوصف المادي: ٥٧٨ صفحة؛ ٢٤ سم.

سلسلة النشر: (العتبة الحسينية المقدّسة؛ ٤٤٥).

سلسلة النشر: (مؤسسة وارث الأنبياء للدراسات التخصصية في النهضة الحسينية؛).

تبصرة ببليوجرافية: يتضمن هوامش، لائحة المصادر الصفحات (٥٣٧-٥٥٣).

موضوع شخصي: الحسين بن علي الشهيد عليه السلام، الإمام الثالث، ٤-٦١ للهجرة - أحداث.

موضوع شخصي: الحسين بن علي الشهيد عليه السلام، الإمام الثالث، ٤-٦١ للهجرة - كلمات قصار.

موضوع شخصي: الحسين بن علي الشهيد عليه السلام، الإمام الثالث، ٤-٦١ للهجرة - نظرية المعرفة.

موضوع شخصي: الحسين بن علي الشهيد عليه السلام، الإمام الثالث، ٤-٦١ للهجرة - التعددية.

مصطلح موضوعي: التعددية في مجال نظرية المعرفة

مصطلح موضوعي: مخالفة القرآن للتعددية الدينية.

مؤلف اضافي: جمع من الفضلاء.

اسم هيئة اضافي: العتبة الحسينية المقدّسة (النجف، العراق). مؤسسة وارث الأنبياء للدراسات

التخصصية في النهضة الحسينية.

تمت الفهرسة قبل النشر في مكتبة العتبة الحسينية المقدّسة

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٢٠٤٧) لسنة (٢٠١٨م)

الموسى وعترته العالمية
من كلمات الامام الحسين

الجزء الثاني
(المعرفة)

تأليف
الأستاذ علي اصغر الرضواني
وجمع من الفضلاء

ترجمة
د. محمد صالح الحلفي

الإشراف العليي
مؤسسة وارث الانبياء
للدراسات التخصصية في نهضة الحسينية



جميع الحقوق محفوظة
للجنة الحسينية المقدسية

الطبعة الأولى

١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١ م

إصدار

مؤسسة نورش الانبياء
للدراسات والبحوث المتخصصة في الحسينية

اللجنة العلمية في مؤسسة وارث الأنبياء

١. الشيخ باقر الساعدي
٢. د. السيد حاتم البخاتي
٣. الشيخ حيدر الاسدي
٤. الشيخ عباس الحمداوي
٥. الشيخ صباح الساعدي
٦. د. الشيخ رافد التميمي

لجنة التأليف

١. الأستاذ علي اصغر الرضواني
٢. د. الشيخ عمار الجويدراوي
٣. الأستاذ مهدي الرضواني

اللجنة الفنية

١. الشيخ حسين المالكي
٢. السيد صادق الحيدري
٣. السيد مهدي المعلمي
٤. محمد صادق الرضواني

بطاقة إيداع

٢٣٩ / ٨

ر ٦٩٢ رضواني، علي أصغر.

الموسوعة العلمية من كلمات الإمام الحسين عليه السلام / الأستاذ علي أصغر رضواني... وآخرون. ترجمة: محمد الحلفي. قم، دار المؤمن، ٢٠٢١.
ج ٢ (٥٧٨ ص)، ٢٤ سم.

١ - الحسين بن علي (الإمام الثالث) - أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله. ٢ - موسوعات.

م. و. أ - العنوان.

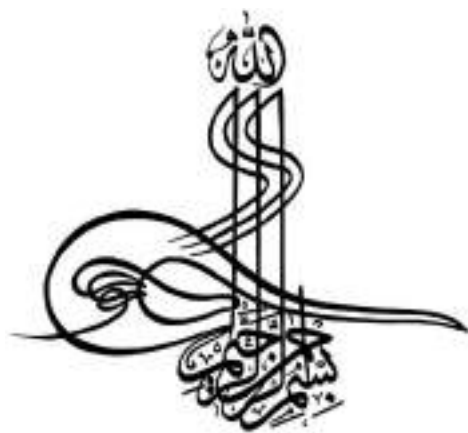
٢٠٢١ / ٧٢٤

المكتبة الوطنية / الفهرسة أثناء النشر

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٧٢٤) لسنة ٢٠٢١

هوية الكتاب

- عنوان الكتاب الموسوعة العلمية من كلمات الإمام الحسين عليه السلام الجزء الثاني (المعرفة)
- المؤلف الأستاذ علي أصغر الرضواني وجمع من الفضلاء
- المترجم د. محمد صالح الحلفي
- الإشراف العلمي اللجنة العلمية في مؤسسة وارث الأنبياء
- الإخراج الفني حسين المالكي
- الطبعة الأولى
- المطبعة دار المؤمن
- سنة الطبع ١٤٤٢ هـ - ٢٠٢٠ م



توطئة

يعود تاريخ طرح هذه المسألة العلمية - نظرية المعرفة - ومناقشتها من قبل العلماء والمفكرين إلى ما قبل ميلاد المسيح ﷺ، ومنذ ذلك الوقت وحتى اليوم مرّت بفترات ازدهار وفترات أفول.

وبما أنّ الصبغة العقلية هي التي اصطبغ بها منهج وأسلوب دراستها لاقت عناية خاصّة من قبل علماء المنطق والفلسفة والعقائد، فامتدت أبحاثها وتعددت مسائلها بمرور الزمن حتى تحوّل في العقود الأخيرة إلى علم مستقل.

كما أنّنا وبعد ملاحظتنا للنصوص الدينية سواء القرآن الكريم أم السنّة النبوية وأحاديث الأئمة المعصومين ﷺ ومنهم الإمام الحسين ﷺ خرجنا بنتيجة مفادها أنّ النصّ الديني قد تطرّق لهذه النظرية وفصّل بعض جوانبها ونواحيها والمسائل الهامة فيها، بحيث يسهل على الباحث التوصل إلى معالم هذا الموضوع وأطره فيما لو أمعن النظر في ذلك، ويمكن تقديمها من بعد للمجتمع ليعتمدها وينتفع بها إذا أدخلنا في الحساب دورها كركائز أساسية في العلوم الإسلامية، وهذا ما نحن بصدد القيام به في هذا المجلد، وما سنسعى إلى القيام به في المجلدات اللاحقة بحسب موضوعاتها وعناوينها.

وانطلاقاً من ضرورة الإشارة إلى عناوين البحث في التوطئة، تأتي على استعراض إجمالي للمسائل بعناوينها التي سنسلط الضوء عليها في هذا المجلد، وهي مرتبة كالتالي: تعريف المعرفة، ونظرية المعرفة، وموضوعها والغاية منها، ونبذة مختصرة حول تاريخ هذه المسألة وخطوطها العامّة، ثمّ نلج في بيان أحاديث الإمام الحسين ﷺ المتعلقة بهذا الموضوع ومسائله مثل: المعرفة والمعارف الإلهية،

ومصادر المعرفة وأدواتها كالوحي والإلهام والعقل والحكمة والتجربة والتاريخ والفطرة والمكاشفة والطبيعة والحس والهداية والفكر والبصيرة وتزكية النفس، ودرجات المعرفة وهي العلم واليقين، وما يمهد لها كالتقوى والإيمان، ثم بيان أنواعها كالإشراقية والبصرية وآثارها وسبلها، والموانع منها كعبادة الهوى والجهل والشك والشبهة والذنوب والخيال والسفه والضلالة والغفلة وحب الدنيا. ولم نترك بعض الموضوعات ذات الصلة بنظرية المعرفة إذ دار الحديث عنها أيضاً مثل: الحق والباطل، والتعددية الدينية، والتعددية المذهبية، والهرمنيوطيقا، والحسن والقبح العقليين.

وحتىّ يكتمل البحث العلمي في كل موضوع من الموضوعات الآتية الذكر، سنورد خلاله ما يصلح أن يكون مؤيداً له من النصوص الدينية.

المقدمة

مفهوم المعرفة

قبل الدخول في بيان معالم هذه المفردة وتعريفها نشير إلى أنّ لها معاني واستخدامات عديدة، وأعمها وأوسعها مفهوماً ما يتطابق ومعنى مطلق العلم، وأحياناً قد تختص بإدراك المعاني الجزئية، وتأتي أحياناً أخرى بمعنى التمييز والتشخيص، كما تأتي أيضاً بمعنى العلم اليقيني المطابق للواقع. وقد دارت الأبحاث لغوياً حول جذر هذه المفردة وما يقابلها في اللغات الأخرى، ممّا لا نجد ضرورة في ذكرها هنا.

فإذا لوحظت المعرفة باعتبارها موضوعاً للعلم، فإنّها قد تصدق على كل واحد من المعاني أعلاه أو على بعض منها، وفي الواقع يعود هذا الأمر إلى التعهد والتوافق، ولما كان هدفنا من دراسة مسائل المعرفة غير مختص بمعنى محدد منها نرى من الأفضل إطلاق المعنى العام عليها والذي يساوي مطلق العلم.

أمّا مفهوم العلم والذي هو من أوضح المفاهيم وأكثرها بدهاة، لا يحتاج إلى تعريف وحسب، وإنّما يصعب بل يستحيل ذلك لعدم وجود مفهوم أوضح منه يقوم بدور المعرف له، والتعريفات التي أوردت له في كتب المنطق والفلسفة ليست تعاريف حقيقة، وإنّما يراد بذكرها تارة تعيين المصداق في علم خاص أو مبحث معين، كما جاء على ألسنة المنطقيين حين تعريفهم العلم بأنّه: (حصول صورة الشيء في الذهن) إذ كانت الغاية من وراء ذلك هي تعيين المصداق، وهو (العلم الحسولي)، وتارة أخرى إشارة إلى النظرية التي يعتقد بها صاحب التعريف حول

بعض المسائل المتعلقة بالوجود، كما فعل بعض الفلاسفة حيث قام بتعريف العلم بأنه عبارة عن: (حضور مجرد عند مجرد آخر) أو (حضور شيء عند موجود مجرد) من أجل أن يثبت بسهولة الفكرة التي يقول بها من تجرد العلم والعالم. فإذا رمنا توضيح العلم والمعرفة نرى من الأفضل أن نعبر عن ذلك بقولنا: العلم عبارة عن حضور نفس الشيء أو صورته الجزئية أو مفهومه الكلي لدى موجود مجرد^(١).

وتبعاً لصدر المتألمين صرح العلامة الطباطبائي بخصوص تعريف العلم قائلاً: «فقد تحصل بما تقدم أنّ الصورة العلمية كيفما كانت مجردة من المادة خالية عن القوة، وإذ كانت كذلك فهي أقوى وجوداً من المعلوم المادّي الذي يقع عليه الحس، وينتهي إليه التخيل والتعقل ولها آثار وجودها المجرد. وأمّا آثار وجودها الخارجي المادّي التي نحسبها متعلّقة للإدراك فليست آثاراً للمعلوم بالحقيقة الذي يحضر عند المدرك حتّى تترتب عليه أو لا تترتب، وإنّما هو الوهم يوهم للمدرك أنّ الحاضر عنده حال الإدراك هو الصورة المتعلّقة بالمادّة خارجاً فيطلب آثارها الخارجية فلا يجدها معها فيحكم بأنّ المعلوم هو الماهية بدون ترتب الآثار الخارجية.

فالمعلوم عند العلم الحسولي بأمر له نوع تعلق بالمادّة هو موجود مجرد هو مبدأ فاعلي لذلك الأمر، واجد لما هو كماله يحضر بوجودها الخارجي للمدرك وهو علم حضوري، ويتعقبه انتقال المدرك إلى ما لذلك الأمر من الماهية والآثار المترتبة عليه في الخارج، وبتعبير آخر: العلم الحسولي اعتبار عقلي يضطر إليه العقل مأخوذ من معلوم حضوري هو موجود مجرد مثالي أو عقلي حاضر بوجوده الخارجي للمدرك وإن كان مدركاً من بعيد.

(١) مصباح اليزدي، محمد تقي، آموزش فلسفه (تعليم الفلسفة) (مشكات): ج ١، ص ١٥٠-١٥١.

ولنرجع إلى ما كتنا بصدده من الكلام في تعريف العلم فنقول: حصول العلم ووجوده للعالم ممّا لا ريب فيه، وليس كل حصول كيف كان، بل حصول أمر هو بالفعل فعلية محضة لا قوة فيه لشيء أصلاً، فإننا نجد بالوجدان أنّ الصورة العلمية من حيث هي لا تقوى على صورة أخرى ولا تقبل التغيّر عما هو عليه من الفعلية، فهو حصول المجرد من المادّة عار من نواقص القوة ونسبى ذلك حضوراً.

فحضور شيء لشيء حصوله له بحيث يكون تام الفعلية غير متعلق بالمادّة بحيث يكون ناقصاً من جهة بعض كمالاته التي في القوة.

ومقتضى حضور العلم للعالم أن يكون العالم أيضاً تاماً ذا فعلية في نفسه غير ناقص من حيث بعض كمالاته الممكنة له وهو كونه مجرداً من المادّة خالياً عن القوة. فالعلم حصول أمر مجرد من المادّة لأمر مجرد، وإن شئت قلت: حضور شيء لشيء^(١).

المعرفة الحقيقية

يقول الشهيد مطهري في تعريفه لـ(المعرفة الحقيقية):

«إنّ المعرفة الحقيقية هي تلك المعرفة المطابقة للواقع، وبتعبير آخر: مطابقة ما هو في الذهن لما هو في الواقع. ولم يتردد العلماء والفلاسفة القدماء في قبول هذا التعريف، وأمّا ما أورد عليه من الإشكالات فقد أجابوا عنها جميعاً»^(٢).

إمكان المعرفة الحقيقية

إمكان المعرفة الحقيقية واستحالتها من الأبحاث التي كانت محط سجالات ونقاش منذ زمن بعيد وحتى اليوم، وها هو التاريخ يحدّثنا بظهور تيارات وفرق في

(١) الطباطبائي، محمد حسين، نهاية الحكمة: ص ٢٣٩-٢٤٠.

(٢) مطهري، مرتضى، مجموعه آثار استاد شهيد مطهري (مجموعة آثار الأستاذ الشهيد مطهري): ج ١٣، ص ٤٤٦-٤٤٧.

أوربا بلغ بها الأمر إلى أن تنكر أصل المعرفة لدى البشر، وهؤلاء يمكن تقسيمهم إلى الطوائف أدناه:

١. السفسطائية^(١)

وهم طائفة أنكروا وجود عالم خارج عن الذهن، ونفوا حتى إمكانية العلم به على نحو القضية السالبة بانتفاء الموضوع؛ لأنه لا يمكن تحصيل العلم به ما دام لا وجود ولا تحقق له.

المناقشة

من الواضح أنه لا يوجد إنسان عاقل ينكر العالم من أصله، وهذا ما يرجح كفة عدم القبول بالقول الذي يرى أن هناك مدرسة تحمل هذه الرؤية رغم ما نقلته لنا كتب تاريخ الفلسفة من نشوء هكذا فرقة في بدايات ظهور الفلسفة اليونانية أو عند قيام النهضة العلمية في الغرب، ولعل شكهم لم يكن في أصل وجود العالم الخارجي وإنما في إمكان الإدراك الصحيح له من قبل الإنسان. وكيفما كان فإن التاريخ يؤكد وجود فرقة كان يطلق عليها اسم السفسطائية ظهرت خلال القرن الخامس قبل الميلاد^(٢).

وهذه الطائفة بما أثمرها واجهت تيارات مخالفة لها ولم تستطع الوقوف على ما تضمنته أفكارها من تناقضات، لجأت إلى الإنكار أو التشكيك في صحة أفكارها حتى بلغ بها الحال إلى أن تنكر أو تشكك حتى بالأمور الحسية والبدئية أيضاً.

(1) Sophism.

(2) فروغي، محمد علي، سير حكمت در اروپا (مسار الحكمة في أوروبا): ج ١، ص ١٣.

فرييس هذه الطائفة وهو شخص باسم «غورغياس»^(١) (٤٨٣-٣٧٥ ق. م) قد ادعى: «أولاً: لا يوجد شيء، وثانياً: إن وجد شيء فلا يمكن إدراكه، وثالثاً: إذا أمكن إدراك شيء فلا يمكن نقله إلى الغير»^(٢).

لقد مثل رواج هذه الأفكار ضربة قاسمة للحضارة اليونانية، ولولا وقوف العلماء من أمثال «سقراط»^(٣) (٤٧٠-٣٩٩ ق. م) و«أفلاطون»^(٤) (٤٢٧-٣٤٧ ق. م) بوجهها لهيمنت على مساحة واسعة من العالم آنذاك. وقد أثبت «أرسطو»^(٥) (٣٨٤-٣٢٢ ق. م) واقعية المحسوسات وجانباً من معقولات الإنسان من خلال تدوينه المنطق وسوقه الأدلة الواضحة، وللإنسان أن يدرك المجهولات عبر محسوساته ومعقولاته الأولى.

٢. الشكوكية^(٦)

وهم طائفة أخرى ممن أنكر معرفة الخارج، فهؤلاء رغم عدم إنكارهم للواقع الخارجي لكنهم ينكرون إدراكه. فرغم ما أبداه الفلاسفة اليونان من مواقف مؤثرة في مواجهة التيار السفسطائي والتي جففت منابع السفسطة والمثالية والذاتية إلا أنه ما انتقضت فترة

(1) Gorgias.

(٢) كابلستون، فردريك چارلز، تاريخ فلسفه (تاريخ الفلسفة)، ترجمة: جلال الدين مجتبوي: ج ١، ص ١١٢.

(3) Socrates.

(4) Plato.

(5) Aristotle.

(6) Skepticism.

من الزمن حتّى ظهر تيار جديد أطلق عليه الشكوكية أو اللاأدرية على يد «بيررو»^(١) (٢٧٠-٣٦٠ ق. م) يهدف إلى إيجاد حالة وسطية بين من أنكر الواقع الخارجي للأشياء وهم السفسطائيون، ومن قطع بوجوده ودافع عنه كسقراط وأفلاطون وأرسطو.

فهو ينزع إلى التردد بين الإثبات والنفي، وتحمله هذه النزعة على التوقف عن الحكم؛ لأنّه لا سبيل إلى إدراك الحقائق ولا إلى معرفتها معرفة يقينية.

وفي محاولة من ابن سينا لمعالجة هذه الأفكار والرد على أصحابها يقول:

«فينبغي أن يكلف شروع النار، إذ النار واللاتار واحد، وأن يؤلم ضرباً، إذ الوجود واللاوجود واحد، وأن يمنع الطعام والشراب، إذ الأكل والشرب وتركهما واحد»^(٢).

وحينها يبرز ثمة سؤال جذري لا بدّ من توجيهه لمن يشكون في كل شيء وهو: هل أنتم على يقين من زعمكم هذا أو على شك منه أيضاً؟! فإن جاءت الإجابة نحن على يقين منه كان هذا نقضاً لما ذهبوا إليه، وإن أجابوا على شك أيضاً، فهذا إقرار باحتمال وجود معرفة يقينية، وبهذا أبطل قوله.

وهناك سؤال آخر في هذا الشأن لمن يدعي عدم إمكان العلم واليقين، وهو: هل أنت تعلم بشكك هذا أم لا تعلم؟ فإن أجاب: أعلم بأنّ لدي شكاً كان ذلك اعترافاً منه لا بإمكان المعرفة اليقينية وحسب، بل وبوقوعها أيضاً. وإن أجاب: أشك في شكّي فلا ينبغي مناقشته والحال هذه؛ لأنّه مختل.

وحول (إمكان المعرفة القطعية) يقول الشهيد مطهري:

«مع أنّ الكثير من العلماء يرون استحالة المعرفة الجازمة، وبناء عليه فإنّ الإنسان محكوم بالجهل ولا يمكنه إدراك حقائق هذا العالم المحيطة به، وبالتالي فإنّ اليقين

(١) Pyrrho.

(٢) ابن سينا، حسين بن عبد الله، الشفاء (الإلهيات): ج ١، ص ٥٣.

- العلم الجازم المطابق للواقع - يعدّ أمراً محالاً، إلا أنّ القرآن الكريم ردّ هذه الفكرة وسفّرها من خلال دعوته لمعرفة الله سبحانه والعالم والإنسان والتاريخ، وبما ورد في قصة أبي البشر آدم عليه السلام التي تكشف بوضوح عن قدرة الإنسان على تعلّم جميع الأسماء الإلهية، أي حقائق عالم الوجود. وإضافة إلى ما تقدّم فإنّ الله سبحانه بقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾^(١) جعل علم الإنسان وإحاطته ببعض الأشياء من علم الله تعالى والذي هو عين الحقيقة^(٢).

نظرية المعرفة

نظرية المعرفة^(٣) هي أحد فروع الفلسفة التي تهتم بمجالات وطبيعة المعرفة العلميّة لدى الإنسان وحدودها وأسسها وأدواتها ومبادئها القريبة والبعيدة، ومقدار الوثوق بها^(٤).

موضوع نظرية المعرفة

بالنظر لما تقدّمت الإشارة إليه في التعريف أعلاه يمكن الادّعاء بأنّ موضوعها هو العلم والمعرفة^(٥).

الغاية من نظرية المعرفة

إنّ الغاية القصوى التي تتوخاها (نظرية المعرفة) هي بيان السبل الكفيلة لبلوغ

(١) البقرة: آية ٢٥٥.

(٢) مطهري، مرتضى، مجموعه آثار استاد شهيد مطهري (مجموعة آثار الأستاذ الشهيد مطهري): ج٢، ص٢٢٩.

(3) Epistemology.

(٤) معلّمي، حسن، معرفت شناسي (نظرية المعرفة): ص١٥.

(٥) المصدر السابق: ص١٦.

المعرفة الواقعية بحقائق الأشياء، وهذا ما يدفع طالب الحقيقة نحو الجد والاجتهاد في دراسة المعارف البشرية بأنواعها ويدقق في أدلتها ليتوصل إلى المعلومات والحقائق التي تبني على الأدلة الأقوى.

ومقتضى هذا أن الباحث لو انتهى به بحثه إلى حالة الشك، فإنّه بذلك لم يبلغ الغاية والهدف من المعرفة^(١).

أهمية البحث حول نظرية المعرفة

قال الشهيد مطهري في هذا الصدد:

«إنّ مسألة المعرفة أو ما يعبر عنه العلماء العرب اليوم بـ(نظرية المعرفة) قد نالت أهمية كبيرة في عصرنا الراهن، بحيث صار من النادر أن يصل الاهتمام بمسألة من المسائل المتعلقة بالمعرفة إلى ما وصلت إليه هذه المسألة اليوم»^(٢).
وقال أيضاً:

«الدينيا، دنيا الأفكار والأيدولوجيات، وهي جميعها تنطلق من رؤية كونية، والرؤية الكونية تقوم على أساس المعرفة، وهذا ما جعل الإنسان يدرك أهمية مسألة المعرفة، فمثلاً الأيدولوجية التي تنطلق من رؤية كونية مادية لا بدّ أن تنطلق من نظرية معيّنة في باب المعرفة، وهكذا الأيدولوجية الأخرى سنجدها تقوم على رؤية كونية تبني على أساس نظرية أخرى في المعرفة، وهذا ما يدفعنا إلى البتّ أولاً في مسألة المعرفة قبل الدخول إلى ما يستتبعها من أبحاث الأيدولوجيات والآراء الفكرية والرؤى الكونية.

وكما ذكرت سابقاً فإنّ العالم أمس لم يدرك أهمية هذه المسألة بمقدار ما أصبحت

(١) فعالي، محمّد تقى، درآمدي بر معرفت‌شناسي ديني ومعاصر (مدخل للمعرفة الدينية والمعاصرة): ص ٣١.

(٢) مطهري، مرتضى، مجموعه آثار استاد شهيد مطهري (مجموعة آثار الأستاذ الشهيد مطهري): ج ١٣، ص ٣٣٩.

عليه اليوم، فمع أنّها من المسائل القديمة جداً إذ قد يعود عمرها إلى أكثر من ألفي سنة إلا أنّنا لا نجد باباً تحت عنوان: (نظرية المعرفة) لا في الفلسفة ولا في الحكمة الإسلامية، وأغلب مسائل هذا الباب مبعثرة هنا وهناك، فمنها ما يبحث في ضمن المسائل المتعلقة بالعلم والإدراك والعقل والمعقول، أو المتعلقة بالوجود الذهني أو النفس والكيفيات النفسانية. وعليه فإدراك أهمية هذه المسألة لم يكن وليد اليوم، ويكمن الفرق في أنّ الفلسفات المعاصرة في العالم الحديث تدور أكثر أبحاثها حول أطراف نظرية المعرفة^(١).

إطالة تاريخية حول نظرية المعرفة

هناك من يعتقد أنّ الفلاسفة الإسلاميين لا يختلفون كثيراً عن الفلاسفة الغربيين، حيث إنهم قد تعرّضوا لبعض مسائل نظرية المعرفة ولكن بصورة متفرقة أيضاً.

أ) نظرية المعرفة في اليونان القديمة

طبقاً لمؤرخي الفلسفة أنّ أوّل من جدّ الخطى باتجاه نظرية المعرفة هو «بارمينيدس»^(٢) (٥٤٠-٤٨٠ ق. م) حيث يعتقد بأنّ طريق الحق يعتمد على البرهان، أي على العقل، والعقل هو ملاك الحقيقة، وشدد على ذلك خلافاً لها عليه «هيراقليتوس»^(٣) (٤٧٥-٥٣٥ ق. م) حيث ركز على الحس. وفي مقابل ذلك برز تيار «الفسطائيين» وكانوا أوّل من أنكر وجود العلم المطابق للواقع، نتيجة لخطأ الحواس والتعارض بين الأحكام العقلية حسب اعتقادهم.

(١) المصدر السابق: ج ١٣، ص ٣٤٢.

(2) Parmenides.

(3) Heraclitus.

ثم جاء «سقراط» وهو أول فيلسوف جاء بعد «السنسطينيين» اعتمد أسلوب الاستقراء والتعريف سعياً منه للوصول إلى حقيقة كل شيء، وما كان يرى نسبة الحقيقة، تماماً كما درج عليه تلميذه «أفلاطون» الذي كان أول من تناول مسائل نظرية المعرفة بشكل جاد، إضافة إلى أنه كان يعتقد بأن الحواس لا تخطأ وما نظنه من الخطأ في الحواس إنما هو خطأ يقع أثناء عملية تطبيق المفاهيم الموجودة في الذهن على الأمور المحسوسة.

واهتم «أرسطو» تلميذ «أفلاطون» كثيراً في وصف العلم وتوضيح أصوله، ولم يكن بصدد بيان الوجوه على إمكانه، فهو يرى أن الذهن في تصوّره للكليات يقوم بالتجريد والانتزاع خلافاً لأفلاطون الذي يراه إدراكاً للمثّل.

«الرواقيون»^(١)، وهم مدرسة حسية ترى أن المعرفة الحقيقية هي معرفة الأشياء الجزئية، ولا يقبلون الكلي مطلقاً سواء كان كلياً مفهوماً كما عند أرسطو أو بحسب المثّل الأفلاطونية، فهم يقولون بشكل ما بأصالة العقل، ويعتقدون بالحس كملاك للصدق.

ولم يسلك «ابيقور»^(٢) (٣٤١-٢٧٠ ق. م) طريقاً بعيداً عنهم حيث يعتقد بأن الحس هو أساس المعرفة، والعلم الحاصل عن طريقه هو أشدها يقيناً.

أمّا «الشكوكيون» فهؤلاء يرون عدم صحة الاعتماد على الحواس والعقل، ودليلهم على ذلك وقوع الخطأ فيهما، ومنهم من ينفي اليقين مطلقاً، بل وهناك جماعة منهم ترى استحالته^(٣).

(1) Stoicism.

(2) Epicurus.

(٣) معلمي، حسن، معرفت شناسي (نظرية المعرفة): ص ٢٤-٢٧.

(ب) نظرية المعرفة في القرون الوسطى

تتمصت النظرية في هذه الفترة الصبغة السكولاستية، أي المدرسية، وكان من أبرز الشخصيات التي كان لها دور مؤثر خلال هذه الفترة في عالم الفلسفة «أفلوطين»^(١) (٢٠٥-٢٧٠م) وجدد الفكر الأفلاطوني بل كان رائده، حيث قدم آراء نافعة بخصوص المعرفة ومنها تصنيفه الإدراك إلى ثلاثة مستويات هي: الإحساس والفهم والعقل.

وعدّ «روجر باكون»^(٢) (١٢١٤-١٢٩٤م) التجربة هي الوسيلة الوحيدة المؤدّية لليقين، وحصر أدوات المعرفة بالنقل والاستدلال والتجربة. وأما «توما الأكويني»^(٣) (١٢٢٥-١٢٧٤م) فهو يرى أنّ التعقل والإدراك العقلي يتوقف على الإحساس^(٤).

(ج) نظرية المعرفة في الفلسفة الحديثة

ارتكزت الفلسفة الحديثة التي أبدعها «رينيه ديكارت»^(٥) (١٥٩٦-١٦٥٠م) منذ بدايتها على نظرية المعرفة، حيث كان يعتقد بالإدراك الفطري، إذ احتل هذا النوع من الإدراك مكانة خاصّة في فلسفته، وطبقاً له يرى أنّ مفاهيم مثل: الله والزمان والنفس مفاهيم فطرية، أي أنّها كامنة في نفس الإنسان بالقوة، وتخرج إلى الفعلية تدريجياً ولها شأن كبير في تحقيق المعرفة.

(1) Plotinus.

(2) Roger Bacon.

(3) Thomas Aquinas.

(٤) معلّمي، حسن، معرفت شناسي (نظرية المعرفة): ص ٢٨-٣٠.

(5) René Descartes.

إلا أنه ينكر «التجريبيون»^(١) الفطريات العقلية التي يعتني بها «العقلانيون»^(٢) كـ«ديكارت»، ويرجعوا جميع التصورات للحس والتجربة بنحو من الأنحاء.
أمّا «جون لوك»^(٣) (١٦٣٢-١٧٠٤م) فهو من التجريبيين، وكان يرى البحث في قدرة العقل للوصول إلى المعارف وتعيين حدود وثغور ومبدأ ومنشأ العلم واليقين ضرورياً ومقدماً على أيّ بحث آخر، ولم ينكر استعداد الإنسان وقدرته على بلوغ جميع المعارف، ولكنه ينكر في الوقت ذاته وجود أيّة مفاهيم بالفعل في صقع النفس والذهن، ويرى أنّ مبدأ جميع العلوم هو الحس الظاهري والباطني، ولا يرى مبدأ آخر للتصورات، ويعتقد أنّ جميع المدركات المتعلقة بعالم الخارج تتحصل بواسطة الحواس الظاهرية والمتعلقة بعالم الداخل بواسطة الحواس الباطنية والعلوم الحضورية^(٤).

(د) نظرية المعرفة في الفلسفة الإسلامية

ثمّ تشابه بين الفلاسفة الإسلاميين يظهر لنا عندما نسلط الضوء على آرائهم، فأولهم وهو «يعقوب بن إسحاق الكندي» (١٨٥-٢٥٦هـ) نراه يعدّ العقل والحس من أدوات المعرفة، ويعتقد بتحقيق المعرفة الحسية بواسطة الحواس، وبالحس تدرك الجزئيات، وبالعقل تدرك الكلّيات، ولكليهما - الحس والعقل - إدراكات بديهية، وللعقل القدرة والقابلية على الوصول للواقع.

كما عمد «أبو نصر الفارابي» (٢٦٠-٣٣٩هـ) إلى تقسيم المعرفة إلى حسية وعقلية، ويذهب للقول بأنّ الحس هو المبدأ الذي يشكل الأرضية التي تؤسس

(1) Empiricism.

(2) Rationalism.

(3) John Locke.

(٤) معلمي، حسن، معرفت شناسي (نظرية المعرفة): ص ٣٣-٣٩.

لتحقق المعقولات، كما أن «ابن سينا» (٣٧٠-٤٢٧هـ) يعتقد بأن أدوات الإدراك هي عبارة عن العقل والحس، وقسم الحس إلى ظاهري وباطني، ويرى أن الحس مبدأ المعرفة.

أمّا «أبو حامد الغزالي» (٤٥٠-٥٠٥هـ) فإنه يرى أن أفضل طريق يوصل للحقيقة هو الكشف والشهود العيني وطريقة العرفاء، وهذا لا يعني أنه لا يرى شيئاً للطرق الأخرى ولذا يعتقد بأن طريق المنطق والعقل موصل للواقع أيضاً متى ما روعيت الشروط والضوابط.

ولم يختلف «الفخر الرازي» (٥٤٤-٦٠٦هـ) عمّن سبقه من الفلاسفة في اعتبار الحس والعقل أداتين موصلتين للعلم، ولأنه يقول بوقوع خطأ الحواس أحياناً ذهب إلى أن العقل هو المعيار في تشخيص خطأ الحس.

وأمّا «شهاب الدين السهروردي» (٥٤٩-٥٧٨هـ) فبعد إيمانه بأن العقل والحس من أدوات الإدراك والمعرفة، يرى أن البرهان والشهود العرفاني هما طريقتان معتبران للوصول إلى الحق.

و«الخواجه نصير الدين الطوسي» (٥٧٩-٦٥٣هـ) أيضاً كـ«ابن سينا» يعتقد بالبدييات الأولى وأنها مبدأ العلم، وأن الحس والعقل هما أداتا الوصول للمعارف الحقة، ويعدّ الحس هو مبدأ المعارف البشرية.

ثم أقدم «العلامة الطباطبائي» (١٣٢١-١٤٠٢هـ) كأول فيلسوف على بحث نظرية المعرفة بصورة مستقلة نتيجة كثرة ما طرح حولها من شبهات، فكانت له خلال بحثه إفادات وإشارات إلى نقاط هامة ومطالب رفيعة في هذا الإطار، وأصبح ذلك كخطوة أولى تمهيداً لما ستتبعها من خطوات أخرى من قبل تلامذته.

فهو لم يخالف من سبقه من الفلاسفة في اعتبار الحس والعقل أداتين للعلم، ويرى من الخواص الذاتية للعلم كاشفيته للخارج، بحيث يستحيل افتراض وجود علم غير كاشف.

كما يذهب إلى أنّ العلوم الحضورية لا تقبل الخطأ لعدم الوساطة بين العالم والمعلوم، فالواقع بنفسه يكون حاضراً عند العالم. وإنّ جميع معلومات البشر تنتهي عنده إلى الحواس، وكل المعلومات والمفاهيم التصورية - العلوم الحسولية - إمّا أن تكون منبثقة من الإحساس الداخلي أو المفاهيم الذهنية.

وعرّف «الشهيد مطهري» العلم بأنّه الصورة الحاصلة من الشيء، وقسمه إلى العلم الحسي والخيالي والعقلي، واعتبر الحس ضرورياً ولازماً للعلم، لكنه غير كاف، ولا بدّ من وجود قوة أخرى وظيفتها التجريد والتعميم والتحليل والتركيب ولنسمها القوة العاقلة^(١).

علاقة نظرية المعرفة بالعلوم الأخرى

تركب ماهية كل علم بشكل عام من جنبتين: إثباتية وسلبية، وتبرز الأولى في تعريف العلم وموضوعه، ومنهجه وغايته وهيكليته، وأمّا الثانية فتتناول حدود العلم وأطره التي تميزه عن غيره من العلوم، ويبحث علاقة نظرية المعرفة بالعلوم الأخرى تندرج تحت هذه الجنبية حيث سيكون لها تأثير واضح في الإحاطة التامة بالحقيقة ونظرية المعرفة، ونشير هنا إلى مجموعة من العلوم القريبة من نظرية المعرفة، مثل: المنطق وعلم النفس وفلسفة الأخلاق وفلسفة الدين واختلافها عن نظرية المعرفة.

١- رغم أنّ الكثير من مسائل علم المنطق القديم صارت تبحث اليوم في نظرية المعرفة إلّا أنّ ذلك لا يعني الاتحاد وعدم التقاطع بين العلمين، إذ نجد اختلافاً كبيراً بين علم المنطق الحديث ونظرية المعرفة المعاصرة، ولا يعدو الاشتراك بينهما

(١) المصدر السابق: ص ٤٧-٥٦.

مسائل قليلة، كما أنّ عملية انتقال مسألة من علم إلى آخر لم تكن يوماً من الأيام دليلاً على الوحدة بين العلمين، حيث إنّ التمايز على أساس اللحاظ ووجهات النظر يستلزم تمايز العلوم فيما بينها، ولذا يمكن القول بشكل عام: المنطق علم صوري يبحث في القواعد الحاكمة على الاستدلال المعتبر، بينما نظرية المعرفة هي أحد فروع الفلسفة التي تهتم بماهية المعرفة، والبحث في إمكانها ومصادرها ومناهجها، ومدى قدرة هذه المناهج على ضمان سلامة التحصيل المعرفي.

٢- إنّ نقطة نشوء العلاقة بين نظرية المعرفة وعلم النفس تعود لتناول علماء النفس سلسلة من المسائل المعرفية كالإحساس، والحافظة، والتخيل والمفهوم، ولكن ذلك لم يستلزم إدغامهما معاً، فعلم النفس وخصوصاً علم النفس الإدراكي هو علم يهتم بشرح وتوضيح عملية الإدراك، لاسيما الإحساس، وبتعبير آخر ينظر إلى الإدراك كأمر وجودي، بينما نظرية المعرفة تنظر للإدراك والإحساس من حيث الرجوع لعالم الخارج والقدرة على إثبات العالم الخارجي.

٣- تظهر العلاقة بين نظرية المعرفة وفلسفة الأخلاق في مثل آراء بعض الفلاسفة مثل: «رودريك تشيشولم»^(١) (١٩١٦-١٩٩٩م) حيث قال: إنّ المصطلحات المعرفية يمكن بيانها من خلال المصطلحات الأخلاقية، وفي هذه الصورة ستصبح الأبحاث المعرفية فرعاً من فروع فلسفة الأخلاق التي تتمحور أبحاثها في الواقع حول أفعال الإنسان الإرادية، لكنه لا يغيّر من حقيقة أنّ الموضوع في نظرية المعرفة ومسائله يدور رحاه حول أساس المعرفة نفسها.

٤- هناك علاقة وطيدة بين نظرية المعرفة وفلسفة الدين، فمن باب المثال تناقش نظرية المعرفة مسائل من قبيل: حقيقة المعرفة، حقيقة الإيمان، نظرية المطابقة

(1) Roderick Chisholm.

أو الانسجام في باب الصدق، ونظرية أصالة المبنى أو أصالة الانسجام في باب التبرير التي لها دور كبير ومؤثر في أبحاث فلسفة الدين.

واليوم قد أدرك الكثير من فلاسفة الدين ضرورة ذلك، فمنهم من تخصص بداية بفلسفة الدين وانطلاقاً منها توجهوا بعد ذلك نحو علم المعرفة وأبحاثها، حتى أصبحوا فيما بعد من أشهر مفكري هذا العلم مثل: «ألفين بلانتينغا»^(١) و«وليام ألتون»^(٢)، ومنهم من كان يميل في البداية لنظرية المعرفة، ثم اتخذها منصة انطلاق في سماء فلسفة الدين، وبعدها أوغل فيها صار من ذوي الآراء والمنظرين في هذا العلم، ومن هؤلاء المفكرين: «رودريك نينيان سمارت»^(٣).

بعد ما قدمناه حول نظرية المعرفة وعلاقتها بالعلوم الأخرى نرى لزاماً علينا أن نرسم ملامح إطار دراستنا، وقد حان الوقت لملاحظة النصوص، إذ إن مراجعة سريعة يقوم بها الإنسان لمصادر النص الإسلامي المتمثلة بالقرآن الكريم والأحاديث الشريفة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته المعصومين عليهم السلام ولا سيما أحاديث الإمام الحسين عليه السلام - التي نحن بصدد جمعها وتنظيمها وتصنيفها - ستوقفه على مدى ما أشير له في تلك النصوص الشريفة من تفاصيل تتعلق بالمعرفة. وسيتمحور البحث في هذا المجلد من الموسوعة الموسوم بالمعرفة حول ما جاء في أحاديث سيّد الشهداء عليه السلام بخصوص المعرفة ومسائلها، ولربما تأتي في طيها بما يؤيد ذلك من الآيات وروايات المعصومين الآخرين عليهم السلام إتماماً للفائدة.

(1) Alvin Plantinga.

(2) William Alston.

(3) Roderick Ninian Smart.

(٤) فعالي، محمد تقى، درآمدي بر معرفت شناسي ديني ومعاصر (مدخل للمعرفة الدينية والمعاصرة): ص ٣٧-٤٤.



الأول : حقيقة المعرفة

المعرفة هي الهدف من التغيير والتبدل في العالم

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال في دعاء عرفة مناجياً رب العزة والجلالة:
«إِلَهِي عَلِمْتُ بِاخْتِلَافِ الْأَنْوَارِ وَتَنْقُلَاتِ الْأَطْوَارِ أَنَّ مُرَادَكَ مِنِّي أَنْ تَتَعَرَّفَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى لَا أَجْهَلَكَ فِي شَيْءٍ»^(١).

ويبدو من مضمون هذا الدعاء أن الهدف من هذا التبدل والتحول في الكون هو التعرف إلى الله سبحانه.

وبهذا الخصوص قال آية الله سعادته پرور في شرحه لهذه الفقرة:

«إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمَوْجُودَاتِ بِأَسْرَافِهَا وَمَحِيطٌ بِهَا لَا إِلَى جَوَارِهَا، وَظُهُورَاتِ الْمَظَاهِرِ أَيْضاً
برزت بأسمائه وصفاته، الأسماء والصفات التي هي عين ذاته والتي لا سبيل للكثرة
إليها كمظاهرها، والدليل على ذلك الكتاب والسنة النبوية - المتضمنة للأحاديث
والخطب والأدعية المأثورة - والعقل وشهود العرفاء بالله سبحانه، وبناء عليه فإن أراد
الله أن يتعرف لعباده - كما هو متحقق - بأدنى مستويات ومراتب المعرفة وهي مرتبة
معرفة المؤثر عن طريق أثره، أو بأعلى مراتبها وهي أن يعرف الله به، فلا بد أن ينتقل من
المجاز إلى الحقيقة ومن الملك إلى الملكوت، لا التخيل فقط لأنه لا يكون إلا وهماً.
والنقطة الأخرى هي أن خلق البشر لم يكن دون جدوى، وإنما الغرض والغاية منه
عبوديته سبحانه ومعرفته، ويشهد عليه الآيات والمأثور النبوي والعقل والشهود...»

بعد هذه المقدمة فإننا إذا ألقينا نظرة على كلام سيد الشهداء عليه السلام نجد أنه يشير في هذه
الفقرة من الدعاء إلى حقيقة قد عاشها وشاهدها بأعلى درجاتها، وهي مشاهدة
ملكوت الأشياء ونفس أمرها، ولذا يقول: (أَنْ تَتَعَرَّفَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ) ويلفت نظر

(١) ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال: ج ١، ص ٣٤٨.

الآخرين أيضاً بهذا البيان إلى الكيفية الضرورية لمعرفة الحق سبحانه، ويعلم منه أن الشخص متى ما لم يصل إلى هكذا معرفة فإنه مبتلى بالنقص المعرفي بالله تعالى حيث يقول: (حَتَّى لَا أَجْهَلَكَ فِي شَيْءٍ). بعدما قدمناه من توضيح نجد بعد مراجعتنا الآيات الكريمة أن ما أعرب عليه السلام عنه في هذه العبارات منشأه الآيات الشريفة، فالله تعالى يقول في كتابه:

- ﴿إِنِّي فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَأَيِّتٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(١).

ويقول أيضاً:

- ﴿إِنَّ فِي أُخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَأَيِّتٌ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾^(٢).

وقال أيضاً:

- ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَأَيِّتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ❀ ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ❀ ﴿وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَنَصْرَفِ الرِّيحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(٣).

وقال كذلك:

- ﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ❀ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ءَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾^(٤) ﴿٥﴾.

(١) آل عمران: آية ١٩٠.

(٢) يونس: آية ٦.

(٣) الجاثية: آية ٣-٥.

(٤) فصلت: آية ٥٣-٥٤.

(٥) سعادت پرور، علي، نور هدايت (نور الهداية): ج ٣، ص ٢١٢-٢١٤.

الفرق بين العلم والمعرفة

روي عن الإمام الحسين عليه السلام قوله:

«ذَرَأَ اللَّهُ الْعِلْمَ لِقَاحِ الْمَعْرِفَةِ، وَطُولَ التَّجَارِبِ زِيَادَةً فِي الْعَقْلِ»^(١).

يفهم من مضمون الجملة الأولى من الحديث أن هناك فرقاً بين العلم والمعرفة.

وكتب أبو هلال العسكري في ذلك:

«إنَّ المعرفة أخص من العلم؛ لأنَّها علم بعين الشيء مفصلاً عما سواه، والعلم

يكون مجملاً ومفصلاً»^(٢).

معرفة الصفات بأضدادها

روي عن الإمام الحسين عليه السلام قوله مناجياً ربَّ الجلالة:

«هَا أَنَا أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِفَقْرِي إِلَيْكَ»^(٣).

والاستدلال بهذا الحديث يتم عبر ملاحظة أن الفقر والغنى من المعاني المتضادة،

ومقتضى إحساس الإنسان وعلمه الحضورى بفقره يعرفه في الوقت ذاته بغنى الحق

تعالى، كما أنه بهذا البيان يمكن معرفة الربِّ تعالى عن طريق معرفة النفس.

وفي بيان ذلك قال الإمام الحسين عليه السلام:

«إِنَّ الْمُؤْمِنَ اتَّخَذَ اللَّهُ عِضْمَتَهُ، وَقَوْلَهُ مِرَاتَهُ، فَمَرَّةً يَنْظُرُ فِي نَعْتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَارَةً يَنْظُرُ

فِي وَصْفِ الْمُتَجَبِّرِينَ، فَهُوَ مِنْهُ فِي لَطَائِفَ، وَمِنْ نَفْسِهِ فِي تَعَارَفَ، وَمِنْ فِطْنَتِهِ فِي يَقِينَ،

وَمِنْ قُدْسِهِ عَلَى تَمَكِينٍ»^(٤).

(١) الحلواني، الحسين بن محمد، نزهة الناظر وتنبية الخاطر: ص ٨٨.

(٢) العسكري، الحسن بن عبدالله، الجزائرى، نور الدين، معجم الفروق اللغوية: ص ٥٠٠.

(٣) ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال: ج ١، ص ٣٤٨.

(٤) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٤٨.

يفترض الإمام عليه السلام هنا حال المؤمن في سعيه لمعرفة صفات المؤمنين وصفات المتجبرين حيث يتعرف من خلال ذلك على صفات غير المؤمنين وغير المتجبرين كما في معرفة النور عن طريق الظلمة.

ومن باب المثال على ذلك قال تعالى في قرآنه الكريم في سورة التوبة:

﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيهِمْ إِنَّا الْمُنْفِقِينَ هُمْ الْفٰسِقُونَ﴾^(١).

وقال تعالى في آية أخرى:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٢).

وعند مقارنة الآيتين أعلاه مع بعضها نستكشف الصفات المتضادة مع بعضها ونتعرف إليها.

وقال الإمام علي عليه السلام:

«وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَعْرِفُوا الرُّشْدَ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي تَرَكَهُ، وَلَنْ تَأْخُذُوا بِمِثَاقِ الْكِتَابِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَقَضَهُ، وَلَنْ تَمْسُكُوا بِهِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَبَذَهُ»^(٣).

(١) التوبة: آية ٦٧.

(٢) التوبة: آية ٧١.

(٣) علي بن أبي طالب عليه السلام، نهج البلاغة: خطبة ١٤٧.

وقد شرح الشهيد مطهري هذه المسألة بصورة مفصلة حيث قال:
 «المقصود من هذه العبارة الشائعة على ألسن العلماء: (تُعرف الأشياء بأضدادها)
 أنّ الإنسان يمكنه معرفة الأشياء عن طريق معرفة أضدادها.

وبالطبع ليس المراد من المعرفة هنا التعريف الاصطلاحي في المنطق؛ لأنه قد ثبت
 هناك عدم إمكان تعريف الأشياء بأضدادها، كما لا ينحصر الضد هنا بالاصطلاحي
 أيضاً الذي يختلف عن النقيض في الفلسفة، وإنّما المقصود هنا من الضد مطلق النقطة
 المقابلة، ومن المعرفة مطلقها كذلك، ورغم أنّه لم ترد أداة حصر من قبيل إلّا وإنّما لكن
 الجملة تحكي عن نوع من الحصر، فمتى ما لم يكن هناك شيء في مقابل الأول لا يقدر
 البشر على إدراكه ولو لم يكن خفياً وكان في جلاء ووضوح، وهذا في الواقع يكشف
 عن نقص في جهاز الإدراك البشري.

فمثلاً النور والظلمة يعرف البشر أحدهما بالآخر، فلو غمر النور هذا العالم،
 وكان الكون سابحاً في نور كليّ لا يحجبه ساتر ولا حائل، بحيث ينتشر في جميع الأنحاء
 بدرجة متساوية، لعجز الإنسان عن إدراك هذا النور، ولما علم بأنّ رؤيته للأشياء إنّما
 يعود الفضل فيها إليه، فلولا حلول الظلام لما عرف الإنسان النور ولكان خفياً عليه.

إذن هذا النور الذي هو أظهر وأوضح كلّ شيء، بل هو مُظهر الأشياء، فإنّ
 ظهوره لا يكفي ليدركه الإنسان، وإنّما يدركه لأنّه يأفل ويزول ويحلّ الظلام المقابل له
 محله، وهذا النقص يرجع إلينا لا إلى النور.

وكذا لو عمّت الظلمة ولم يغمرها النور يوماً لما كنّا لنذكر أنّنا في ظلمة أبداً؛
 فإدراكنا للنور والظلام هو بالمقابلة بينهما.

هكذا حال من يعيش بشكل دائم ومستمر في محيطٍ طيّب الرائحة، أو خبيثها،
 بحيث لا يخرج من هذا المحيط أبداً، فإنّه لن يشمّ تلك الرائحة أبداً، أو من يعيش عمره
 لا يطرق سمعه سوى نغمة واحدة، فإنّه يفقد الإحساس بها...

يقول أحد العلماء القدامى ولعله فيثاغورس: إنَّ هناك موسيقى رتبية تنبعث دائماً من حركة الأفلاك، ولكن بما أنَّ النَّاسَ يسمعونها بلا انقطاع فإنَّهم لا يسمعونها أبداً. وللسبب عينه يفقد الأغنياء إحساسهم بالذائد، والفقراء شعورهم بالآلام... وسبق في هذا المجال جميع الأمثلة: القدرة والعجز، العلم والجهل، الخير والشر...»^(١).

المعرفة شيء لطيف

روي أنَّ أهل البصرة كتبوا إلى الحسين بن علي عليه السلام، يسألونه عن الصمد، فقال في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾:

«﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ لَمْ يَتَوَلَّدْ مِنْ شَيْءٍ، وَلَمْ يَخْرُجْ مِنْ شَيْءٍ، كَمَا يَخْرُجُ الْأَشْيَاءُ الْكَثِيفَةُ مِنْ عَنَاصِرِهَا، كَالشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ، وَالذَّابَّةُ مِنَ الذَّابَّةِ، وَالنَّبَاتُ مِنَ الْأَرْضِ، وَالْمَاءُ مِنَ الْيَنْبِيعِ، وَالشَّارِ مِنَ الْأَشْجَارِ، وَلَا كَمَا يَخْرُجُ الْأَشْيَاءُ اللَّطِيفَةُ مِنْ مَرَاكِزِهَا، كَالْبَصْرِ مِنَ الْعَيْنِ، وَالسَّمْعُ مِنَ الْأُذُنِ، وَالشَّمُّ مِنَ الْأَنْفِ، وَالذُّوقُ مِنَ الْقَمِّ، وَالْكَلامُ مِنَ اللِّسَانِ، وَالْمَعْرِفَةُ وَالْتَمَيُّزُ مِنَ الْقَلْبِ، وَكَالنَّارِ مِنَ الْحَجَرِ»^(٢).

فيتضح من كلام الإمام بصورة جلية أنَّ العلم والمعرفة من الأشياء اللطيفة.

والإمام علي عليه السلام يشير إلى ما ذكرناه في وصفه لله سبحانه وتعالى بقوله:

«وَكُلُّ بَصِيرٍ غَيْرُهُ يَعْمَى عَنْ خَفِيِّ الْأَلْوَانِ وَلَطِيفِ الْأَجْسَامِ»^(٣).

وبما أنَّ المعرفة بحسب كلام الإمام الحسين عليه السلام هي شيء لطيف ستندرج تحت عبارة «لطيف الأجسام» الواردة في حديث أمير المؤمنين عليه السلام، والمقصود من عمى كل بصير عن فهمها هو درك كنه حقيقتها التي هي من مختصات الباري عز وجل.

(١) مطهري، مرتضى، مجموعه آثار استاد شهيد مطهري (مجموعة آثار الأستاذ الشهيد مطهري):

ج ٣، ص ١٢١-١٢٣.

(٢) ابن بابويه، محمد بن علي، التوحيد: ص ٩٠-٩١، حديث ٥.

(٣) نهج البلاغة: خطبة ٦٥.

وعُرف الجسم اللطيف بآته:

«الجسم الذي لا يحجب الأبصار عما وراءه أو الذي لا يمنع من نفوذ النور من خلاله وتعديه لما بعده مثل: الأفلاك والأجرام السماوية الأخرى»^(١).

وفي بيان معناه قال ابن ميثم:

«واللطيف قد يكون بمعنى عديم اللون كما في الهواء، وقد يكون بمعنى رقيق القوام كالجوهر الفرد عند المتكلمين، وكالدرة، واللطيف بالمعنيين غير مدرك للحيوان»^(٢).

وقال الجرجاني:

«إنّ اللطافة تطلق بالاشتراك على معان أربعة: الأول: رقة القوام وهي المتضمنة لسهولة قبول الإشكال وتركها، الثاني: قبول الانقسام إلى أجزاء صغيرة جداً، الثالث: سرعة التأثير عن الملاقى، الرابع: الشفافية والكثافة تطلق على مقابلات هذه المعاني»^(٣).

القلب مركز المعرفة

يتضح أيضاً من خلال الحديث الأخير للإمام الحسين عليه السلام، أنّ القلب هو مركز المعرفة بالنسبة للإنسان.

وذكر الطبرسي هذا المعنى فيما رواه عن الإمام الحسين عليه السلام:

«رُويَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ يَخْطُبُ النَّاسَ عَلَى مَنِيرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرَ فِي خُطْبَتِهِ: أَنَّهُ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ.

فَقَالَ لَهُ الْحُسَيْنُ عليه السلام مِنْ نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ: انزِلْ أَيُّهَا الْكُذَّابُ عَنْ مَنِيرِ أَبِي رَسُولِ اللَّهِ لَا

(١) سجادي، جعفر، فرهنگ معارف اسلامي (معجم المعارف الاسلامية): ج ١، ص ٦٤٠.

(٢) ابن ميثم، ميثم بن علي، شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ١٧٣.

(٣) الجرجاني، علي بن محمد، شرح المواقف: ج ٥، ص ١٨٨.

[إِلَى مِنْبَرِ أَبِيكَ.

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَمِنْبَرُ أَبِيكَ لِعَمْرِي يَا حُسَيْنُ، لَا مِنْبَرُ أَبِي، مَنْ عَلَّمَكَ هَذَا؟! أَبُوكَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟!

فَقَالَ لَهُ الْحُسَيْنُ عليه السلام: إِنْ أُطِعَ أَبِي فِيمَا أَمَرَنِي فَلِعَمْرِي إِنَّهُ هَادٍ وَأَنَا مُهْتَدٍ بِهِ، وَلَهُ فِي رِقَابِ النَّاسِ الْبَيْعَةُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ، نَزَلَ بِهَا جَبْرَائِيلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، لَا يُنْكِرُهَا إِلَّا جَا حِدٌ بِالْكِتَابِ، قَدْ عَرَفَهَا النَّاسُ بِقُلُوبِهِمْ، وَأَنْكَرُوهَا بِأَلْسِنَتِهِمْ، وَوَيْلٌ لِلْمُنْكَرِينَ حَقَّتْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ، مَاذَا يَلْقَاهُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله مِنْ إِدَامَةِ الْغَضَبِ وَشِدَّةِ الْعَذَابِ»^(١).

وتعبير «قَدْ عَرَفَهَا النَّاسُ بِقُلُوبِهِمْ» تدل على موضع المعرفة، وأنه القلب لا غير. يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾^(٢).

وروي عن الإمام علي عليه السلام أنه يقول:

«قُلُوبُ الْعِبَادِ الطَّاهِرَةِ مَوَاضِعُ نَظَرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَمَنْ طَهَّرَ قَلْبَهُ نَظَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ»^(٣).

وعنه عليه السلام أيضاً:

«الْحِكْمَةُ شَجَرَةٌ تَنْبُتُ فِي الْقَلْبِ وَتُثْمِرُ عَلَى اللِّسَانِ»^(٤).

ونقل عنه عليه السلام كذلك قوله:

«الْقَلْبُ يَنْبُوعُ الْحِكْمَةِ وَالْأُذُنُ مَغِيضُهَا»^(٥).

(١) الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج ٢، ص ٢٩٢.

(٢) ق: آية ٣٧.

(٣) الآمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٥٠١، حديث ٦٥.

(٤) المصدر السابق: ص ١١٠-١١١، حديث ٢٠١٥.

(٥) المصدر السابق: ص ١١٤، حديث ٢٠٦٨.

وأيضاً نقل عنه عليه السلام:

«... وَفَرَضَ عَلَى الْقَلْبِ وَهُوَ أَمِيرُ الْجَوَارِحِ الَّذِي بِهِ تَعْقِلُ وَتَفْهَمُ وَتَصُدُرُ عَنْ أَمْرِهِ وَرَأْيِهِ...»^(١).

بعد ملاحظة الروايات أعلاه وغيرها نصل إلى النتيجة القائلة أن كلمة قلب تطلق على معان أربعة وهي عبارة عن: مركز ضخ الدم، والعقل، ومركز المعرفة الشهودية، والروح.

والمعنى الرابع هو مبدأ جميع الإدراكات الإنسانية.

وهذا ما ذكره العلامة الطباطبائي:

«إِنَّ الْمُرَادَ بِالْقَلْبِ هُوَ الْإِنْسَانُ بِمَعْنَى النَّفْسِ وَالرُّوحِ، فَإِنَّ التَّعْقِلَ وَالتَّفَكْرَ وَالحُبَّ وَالبَغْضَ وَالحُوفَ وَأَمْثَالَ ذَلِكَ وَإِنْ أَمَكْنَ أَنْ يَنْسَبَهُ أَحَدٌ إِلَى الْقَلْبِ بِاعْتِقَادِ أَنَّهُ الْعَضْوُ الْمُدْرِكُ فِي الْبَدَنِ عَلَى مَا رُبِمَا يَعْتَقِدُهُ الْعَامَّةُ كَمَا يَنْسَبُ السَّمْعَ إِلَى الْأَذْنِ وَالْإِبْصَارَ إِلَى الْعَيْنِ وَالدُّوقَ إِلَى اللِّسَانِ، لَكِنْ الْكَسْبُ وَالْاِكْتِسَابُ مِمَّا لَا يَنْسَبُ إِلَّا إِلَى الْإِنْسَانِ الْبَتَّةِ.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ عَزَايِمُ قَلْبُهُ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ

مُنِيْبٍ﴾^(٣).

والظاهر أن الإنسان لما شاهد نفسه وسائر أصناف الحيوان وتأمل فيها ورأى أن الشعور والإدراك ربما بطل أو غاب عن الحيوان بإغماء أو صرع أو نحوهما، والحياة المدلول عليها بحركة القلب ونبضانه باقية بخلاف القلب قطع على أن مبدأ الحياة هو القلب، أي أن الروح التي يعتقدونها في الحيوان أول تعلقها بالقلب وإن سرت منه إلى جميع أعضاء الحياة، وأن الآثار والخواص الروحية كالأحاساس الوجدانية مثل

(١) ابن بابويه، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه: ج ٢، ص ٦٢٧.

(٢) البقرة: آية ٢٨٣.

(٣) ق: آية ٣٣.

الشعور والإرادة والحب والبغض والرجاء والخوف وأمثال ذلك كلها للقلب بعناية أنه أول متعلق للروح، وهذا لا ينافي كون كل عضو من الأعضاء مبدأً لفعله الذي يختص به كالدماع للفكر والعين للإبصار والسمع للوعي والرئة للتنفس ونحو ذلك، فإنها جميعاً بمنزلة الآلات التي يفعل بها الأفعال المحتاجة إلى توسيط الآلة.

وربما يؤيد هذا النظر: ما وجدته التجارب العلمي أن الطيور لا تموت بفقد الدماغ إلا أنها تفقد الإدراك ولا تشعر بشيء وتبقى على تلك الحال حتى تموت بفقد المواد الغذائية ووقوف القلب عن ضربانه.

وربما أيدته أيضاً: أن الأبحاث العلمية الطبيعية لم توفق حتى اليوم لتشخيص المصدر الذي يصدر عنه الأحكام البدنية، أعني عرش الأوامر التي يمثلها الأعضاء الفعالة في البدن الإنساني، إذ لا ريب أنها في عين التثنت والتفرق من حيث أنفسها وأفعالها مجتمعة تحت لواء واحد منقاداً لأمير واحد وحدة حقيقية»^(١).

المعارف المطمئنة لقلب الإنسان

قال التلمساني في كتابه الجوهرية:

«وَمَا تُؤْفَى الْحَسَنُ عليه السلام أَدْخَلَهُ قَبْرَهُ الْحَسَيْنُ وَمُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَيْبَةِ وَعَبِيدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، ثُمَّ وَقَفَ عَلَى قَبْرِهِ وَقَدْ اغْرُورَقَتْ عَيْنَاهُ فَقَالَ: رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ أبا مُحَمَّدٍ، فَلَمَّ عَزَّتْ حَيَاتُكَ لَقَدْ هَدَّتْ وَفَاتِكَ، وَلِنِعْمِ الرُّوحُ رُوحٌ تَضَمَّنَهُ بَدْنُكَ، وَلِنِعْمِ الْجَسَدُ جَسَدٌ تَضَمَّنَهُ كَفْنُكَ، وَلِنِعْمِ الْكَفَنُ كَفَنٌ تَضَمَّنَهُ لِحُدُكِ، وَكَيْفَ لَا تَكُونُ كَذَلِكَ وَأَنْتَ حَلَفَ التَّقِيُّ وَجَدُّكَ النَّبِيُّ الْمُصْطَفَى وَأَبُوكَ عَلِيُّ الْمُرْتَضَى وَأُمُّكَ فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءِ وَعَمُّكَ جَعْفَرُ الطَّيَّارِ فِي جَنَّةِ الْمَأْوَى؟ غَدَّتْكَ أَكْفُ الْحَقِّ، وَرُبِّيتَ فِي حِجْرِ الْإِسْلَامِ، وَرَضَعْتَ ثَدْيِ الْإِيْمَانِ، فَطَبَّتْ حَيًّا وَمَيِّتًا، فَلَمَّ كَانَتْ الْأَنْفُسُ غَيْرَ طَيِّبَةٍ بِفِرَاقِكَ فَإِنَّهَا غَيْرُ شَاكَّةٍ أَنَّهُ قَدْ

(١) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ٢، ص ٢٢٣-٢٢٤.

خَيْرَ لَكَ، وَإِنَّكَ وَأَخَاكَ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَعَلَيْكَ السَّلَامُ مِنَّا»^(١).

ويفهم من هذه الجملة «...وَإِنَّكَ وَأَخَاكَ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ» التي قالها الإمام تذكيراً وتسليّةً أثناء دفنه لأخيه التأثير الكبير لاعتقاد الإنسان بكونه من أهل الجنة وما يضيفه على قلبه من الشعور بالاطمئنان والسكينة عندما تمرّ عليه الشدائد؛ لأنّه من الثابت في موضعه أنّ لذكر فضائل الإنسان ومكانته ومنزلته ولو في يوم القيامة أثره البالغ في بعث السكينة في النفوس في لحظات مواجهتها للمتاعب والصعاب.

وفي ذلك قال تعالى:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٠١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٠٢﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا نَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٣﴾﴾.

المعارف تُعرف بالله

نقل ابن شعبة الحرّاني في «تحف العقول» عن الإمام الحسين عليه السلام في وصفه الله تعالى قوله:

«يُصِيبُ الْفِكْرُ مِنْهُ الْإِيمَانَ بِهِ مَوْجُوداً، وَوُجُودَ الْإِيمَانِ لَا وَجُودَ صِفَةٍ، بِهِ تُوصَفُ الصِّفَاتُ لَا بِهَا يُوصَفُ، وَبِهِ تُعْرَفُ الْمَعَارِفُ لَا بِهَا يُعْرَفُ، فَذَلِكَ اللَّهُ لَا سَمِيَّ لَهُ سُبْحَانَهُ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ»^(٣).

إذ تدل جملة «وَبِهِ تُعْرَفُ الْمَعَارِفُ لَا بِهَا يُعْرَفُ» على أنّ المعارف تعرف بالله

(١) التلمساني، محمّد بن أبي بكر، الجوهرة في نسب الإمام علي وآله عليهم السلام: ص ٣٥.

(٢) يونس: آية ٦٢-٦٤.

(٣) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٤٥.

سبحانه، ويتمكن الإنسان من التوصل لحقائق المعارف الإلهية من خلال الرجوع للكتاب والسنة، وما يطلبه الإنسان من معلومات بعقله المحض لا يمكن القطع بصحته إلا ما كان قائماً على البديهيات العقلية.

وقال القاضي سعيد القمي في شرح هذه الجملة:

«(وبه) أي بالله (تعرف المعارف لا بها) أي لا بالمعارف (يعرف) أي يصير معروفاً. فالمصنوع إنما يدل على الصانع وذلك هو الإثبات، وأما المعرفة فإنها هي بالله وبنوره الكاشف عن الحقائق، وفرق ما بينهما»^(١).

ونقل عن أبي أسامة أنه قال:

«كُنْتُ عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام وَعِنْدَهُ رَجُلٌ مِنَ الْمَغِيرِيِّ، فَسُئِلَ عَنْ شَيْءٍ مِنَ السُّنَنِ، فَقَالَ: مَا مِنْ شَيْءٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ وَوُلْدُ آدَمَ إِلَّا وَقَدْ خَرَجَتْ فِيهِ السُّنَّةُ مِنَ اللَّهِ وَمِنْ رَسُولِهِ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ مَا احْتَجَّ، فَقَالَ الْمَغِيرِيُّ: وَبِمَا احْتَجَّ؟ فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: قَوْلُهُ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾»^(٢).

ضرورة إزالة حجب الغفلة عن القلب

روي عن الإمام الحسين عليه السلام قوله:

مَا يَصْنَعُ اللَّهُ مِنْ	مَا يَحْفَظُ اللَّهُ يُصْنَعُ
لَهُ الزَّمَانُ إِنْ حُشِنَ	مَنْ يَسْعِدِ اللَّهُ يَلِينُ
كَيْفَ تَرَى صَرْفَ الزَّمَنِ	أَخِي اعْتَبِرْ لَا تَغْتَرِرْ

(١) القاضي سعيد القمي، محمد سعيد بن محمد مفيد، شرح الأربعين: ص ٤٢٢.

(٢) الصفار، محمد بن الحسن، بصائر الدرجات في فضائل آل محمد (صلوات الله عليهم أجمعين):

يَجْزِي بِمَا أُوتِيَ مِنْ فِعْلٍ قَبِيحٍ أَوْ حَسَنِ

أَفْلَحَ عَبْدٌ كُشِفَ الْ غِطَاءُ عَنْهُ فَفَطَنَ^(١).

حيث يستفاد من البيت الخامس أن انكشاف الحجب عن قلب العبد يسبب فطنته ونباهته وهذا ما يوجب فلاحه، وفيه دلالة ضمنية على لزوم سعي الإنسان في إزالة حجب الغفلة عن قلبه.

وفي ذلك قال الإمام علي عليه السلام:

«فَأَفْقُ أَيُّهَا السَّامِعُ مِنْ سَكْرَتِكَ، وَاسْتَيْقِظْ مِنْ غَفْلَتِكَ، وَاخْتَصِرْ مِنْ عَجَلَتِكَ»^(٢).

وقال في موضع آخر:

«إِنَّ مِنْ أَحَبِّ عِبَادِ اللَّهِ إِلَيْهِ عَبْدًا أَعَانَهُ اللَّهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَاسْتَشَعَرَ الْحُزْنَ وَتَجَلَّبَبَ الْخَوْفَ، فَزَهَرَ مِصْبَاحُ الْهُدَى فِي قَلْبِهِ، وَأَعَدَّ الْقَرَى لِيَوْمِهِ النَّازِلِ بِهِ، فَقَرَّبَ عَلَى نَفْسِهِ الْبَعِيدَ، وَهَوَّنَ الشَّدِيدَ»^(٣).

(١) الإربلي، علي بن عيسى، كشف الغمة في معرفة الأئمة: ج ٢، ص ٣٦.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ١٥٣.

(٣) المصدر السابق: خطبة ٨٧.

A decorative frame with intricate Islamic geometric patterns in the corners and along the sides, surrounding a central white rectangular area.

الثاني : المعارف الإلهية

وجوب المعرفة الإلهية

لقد جاء على لسان الإمام الحسين عليه السلام خلال دعاء عرفة مناجياً المولى تعالى:
«أَوْجِبْتَ عَلَيَّ حُجَّتَكَ بِأَنْ أَلْهَمْتَنِي مَعْرِفَتَكَ»^(١).

ويستفاد من مضمون هذا المقطع وجوب معرفة الله عز وجل على الجميع لا سيما أوليائه؛ لأن الأمر الذي ثبت به حجة الله يجب تحصيله.
وقال الإمام الصادق عليه السلام:

«لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي فَضْلِ مَعْرِفَةِ اللَّهِ عز وجل مَا مَدُّوا أَعْيُنَهُمْ إِلَى مَا مَتَعَ اللَّهُ بِهِ الْأَعْدَاءَ مِنْ زَهْرَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَعِيمِهَا، وَكَانَتْ دُنْيَاهُمْ أَقْلَ عِنْدَهُمْ مِمَّا يَطْوُونَهُ بِأَرْجُلِهِمْ، وَلِنُعْمُوا بِمَعْرِفَةِ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ، وَتَلَذُّوا بِهَا تَلَذُّدَ مَنْ لَمْ يَزَلْ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَانِ مَعَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ. إِنَّ مَعْرِفَةَ اللَّهِ عز وجل أَنْسٌ مِنْ كُلِّ وَحْشَةٍ، وَصَاحِبٌ مِنْ كُلِّ وَحْدَةٍ، وَنُورٌ مِنْ كُلِّ ظُلْمَةٍ، وَقُوَّةٌ مِنْ كُلِّ ضَعْفٍ، وَشِفَاءٌ مِنْ كُلِّ سُقْمٍ»^(٢).

وقال أيضاً:

«إِنَّ أَفْضَلَ الْفَرَائِضِ وَأَوْجِبَهَا عَلَى الْإِنْسَانِ مَعْرِفَةُ الرَّبِّ وَالْإِقْرَارُ لَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ»^(٣).

أنوار المعرفة الإلهية

مما ورد في الرواية الواردة عن الإمام الحسين عليه السلام وهي دعاؤه:
«إِلَهِي أَمَرْتُ بِالرُّجُوعِ إِلَى الْأَثَارِ فَأَرْجِعْنِي إِلَيْكَ بِكِسْوَةِ الْأَنْوَارِ...»^(٤).

(١) الكفعمي، إبراهيم بن علي، البلد الأمين: ص ٢٥١.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٨، ص ٢٤٧، حديث ٣٤٧.

(٣) الخزاز الرازي، علي بن محمد، كفاية الأثر في النص على الأئمة الاثني عشر: ص ٢٦٢.

(٤) ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال: ج ١، ص ٣٤٩.

قد يستفاد أن الإنسان يمكنه أن يكتسب المعرفة بالله سبحانه عن طريق تأمله بالآثار ونظرته إليها آلياً، الأمر الذي يخلق نوراً معنوياً في القلب، ومن باب المثال: قد ينفذ إلى قلب الإنسان نور معرفة الله فيما إذا نظر إلى الأزهار نظرة ارتباطية آلية باعتبارها من مخلوقات الله تعالى.

ويشهد لهذا المعنى ما ورد عن الإمام الحسين عليه السلام أيضاً حيث قال:

«أَنْتَ الَّذِي أَشْرَقْتَ الْأَنْوَارَ فِي قُلُوبِ أَوْلِيَائِكَ حَتَّى عَرَفُوكَ وَوَحَّدُوكَ»^(١).

وعلى ما يبدو أن النور الذي أشرق على قلب ولي الله هو نور المعرفة؛ لهذا ناسب ذكر التوحيد بعد المعرفة.

وأيضاً عنه عليه السلام داعياً المولى القدير:

«فَاهْدِنِي بِنُورِكَ إِلَيْكَ»^(٢).

والمقصود من «النور» هنا هو نور المعرفة بالله تعالى.

وقال الإمام علي عليه السلام في ذلك:

«وَمَضَيْتُ بِنُورِ اللَّهِ حِينَ وَقَفُوا»^(٣).

وجاء التعبير في الدعاء الخامس من الصحيفة السجادية بهذه الصورة:

«وَأَتَمَّا يَهْتَدُونَ بِنُورِ وَجْهِكَ»^(٤).

(١) المصدر السابق: ج ١، ص ٣٤٩.

(٢) المصدر السابق: ج ١، ص ٣٤٩.

(٣) نهج البلاغة: خطبة ٣٧.

(٤) الصحيفة السجادية: ص ٤٦.

ضرورة المعرفة بالله سبحانه

نقل الشيخ الصدوق بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام قوله:

«خَرَجَ الْحَسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ جَلَّ ذِكْرُهُ مَا خَلَقَ الْعِبَادَ إِلَّا لِيَعْرِفُوهُ فَإِذَا عَرَفُوهُ عَبَدُوهُ فَإِذَا عَبَدُوهُ اسْتَعْنَوْا بِعِبَادَتِهِ عَنْ عِبَادَةِ مَنْ سِوَاهُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي فَمَا مَعْرِفَةُ اللَّهِ؟ قَالَ: مَعْرِفَةُ أَهْلِ كُلِّ زَمَانٍ إِمَامَهُمُ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِمْ طَاعَتُهُ»^(١).

ويستفاد من هذا الحديث لزوم معرفة الله سبحانه ووجوبها على الجميع.

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ، وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصَدِيقُ بِهِ، وَكَمَالُ التَّصَدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ»^(٢).

وتوضيحاً لما تقدّم قال الشهيد مطهري:

«إضافة إلى أن القرآن رسمياً يدعو بني آدم للمعرفة، وكل هذه الأوامر القرآنية تدعو بالتأمل والتفكير والتدبر، والتعبير بمثل قوله: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٣) إنما تعني: قل لهؤلاء الناس أن يتفكروا ويعرفوا ماذا في السماوات والأرض، فالقرآن يطلب منا أن نتأمل في السماوات والأرض، ونتعرّف إلى كل الموجودات فيها، يا أيها الإنسان تعرّف إلى نفسك إلى عالمك إلى إلهك إلى زمانك إلى مجتمعك وتاريخك»^(٤).

(١) ابن بابويه، محمد بن علي، علل الشرائع: ج ١، ص ٩، حديث ١.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ١.

(٣) يونس: آية ١٠١.

(٤) مطهري، مرتضى، مجموعه آثار استاد شهيد مطهري (مجموعة آثار الأستاذ الشهيد مطهري):

ج ١٣، ص ٣٥٢.

علة الخلق هي معرفة الله

يشير الحديث الأخير للإمام الحسين عليه السلام إلى أن الهدف من خلق العباد هو معرفتهم به عز وجل.

يقول سبحانه وتعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١).

وفي ذيل هذه الآية هناك من فسر كلمة «يعبدون» بـ«يعرفون»^(٢).
وقال العلامة الطباطبائي:

«فحقيقة العبادة نصب العبد نفسه في مقام الذلة والعبودية وتوجيه وجهه إلى مقام ربه، وهذا هو مراد من فسر العبادة بالمعرفة، يعني المعرفة الحاصلة بالعبادة»^(٣).

عبادة الله علة معرفته

إذا عدنا إلى الحديث المتقدم المروي عن الإمام الحسين عليه السلام سنجد فيه دلالة واضحة على أن الهدف من معرفة الله عز وجل هو عبادته الصحيحة.

يؤيده ما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله من أنه قال:

«وَلَا عِبَادَةَ إِلَّا بَيِّقِينَ»^(٤).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قوله:

«وَلَا خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لَيْسَ فِيهَا تَفَقُّهُ»^(٥).

(١) الذاريات: آية ٥٦.

(٢) الفخر الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير: ج ٢٨، ص ١٩٤؛ ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم: ج ٧، ص ٣٩٦.

(٣) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١٨، ص ٣٨٨.

(٤) الكراچكي، محمد بن علي، كنز الفوائد: ج ١، ص ٥٥.

(٥) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٠٤.

يعرف الله بمعرفة الإمام المفترض الطاعة

حينما نتأمل في حديث الإمام الحسين عليه السلام المتقدم الذكر، ندرك إمكان معرفة الله سبحانه عن طريق معرفة الإمام الذي تجب معرفته؛ لأنه مظهر الصفات الكمالية لله تعالى.

يؤيده ما نقل عن الإمام الباقر عليه السلام:

«إِنَّمَا يَعْرِفُ اللَّهُ عز وجل وَيَعْبُدُهُ مَنْ عَرَفَ اللَّهَ وَعَرَفَ إِمَامَهُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ، وَمَنْ لَا يَعْرِفُ اللَّهَ عز وجل وَلَا [يَعْرِفُ] الْإِمَامَ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ فَإِنَّمَا يَعْرِفُ وَيَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ هَكَذَا وَاللَّهُ ضَلَالًا»^(١).

معرفة الإمام الواقعية بالله تعالى

يدل على هذا المعنى ما روي من أن الإمام الحسين عليه السلام خاطب نافع بن الأزرق قائلاً:

«أَصِفُ إِلَهِي بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَأَعْرِفُهُ بِمَا عَرَفَ بِهِ نَفْسَهُ: لَا يُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ، وَلَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ، فَهُوَ قَرِيبٌ غَيْرٌ مُلْتَصِقٌ، وَبَعِيدٌ غَيْرٌ مُتَقَصِّصٌ، يُوَحِّدُ وَلَا يُبَعَّضُ، مَعْرُوفٌ بِالْآيَاتِ، مَوْصُوفٌ بِالْعَلَامَاتِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ»^(٢).

فمن خلال قدرة الإمام عليه السلام على وصف الله سبحانه بما وصف به نفسه يُستدل على أن معرفته بالله تعالى واقعية حقيقية.

وحكي عن علي بن عقبة أنه قال:

«سُئِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: بِمَا عَرَفَنِي نَفْسَهُ، قِيلَ: وَكَيْفَ عَرَفَكَ نَفْسَهُ؟ قَالَ: لَا يُشْبِهُهُ صُورَةٌ وَلَا يُحَسُّ بِالْحَوَاسِّ وَلَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ، قَرِيبٌ فِي

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ١٨١، حديث ٤.

(٢) ابن بابويه، محمد بن علي، التوحيد: ص ٧٩-٨٠، حديث ٣٥.

بُعْدِهِ، بَعِيدٌ فِي قُرْبِهِ، فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا يُقَالُ شَيْءٌ فَوْقَهُ، أَمَامَ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا يُقَالُ لَهُ أَمَامٌ، دَاخِلٌ فِي الْأَشْيَاءِ لَا كَثِيئٌ دَاخِلٌ فِي شَيْءٍ، وَخَارِجٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ لَا كَثِيئٌ خَارِجٌ مِنْ شَيْءٍ، سُبْحَانَ مَنْ هُوَ هَكَذَا وَلَا هَكَذَا غَيْرُهُ وَلِكُلِّ شَيْءٍ مُبْتَدَأٌ^(١).

ونقل الشيخ الصدوق بسنده عن ابن أبي يعفور أن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إِنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ أَحَدٌ مُتَوَحَّدٌ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، مُتَفَرِّدٌ بِأَمْرِهِ، خَلَقَ خَلْقًا فَفَوَّضَ إِلَيْهِمْ أَمْرَ دِينِهِ، فَتَحَنَّنُ هُمْ يَا بْنَ أَبِي يَعْفُورِ، نَحْنُ حُجَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ، وَشَهِدَاؤُهُ عَلَى خَلْقِهِ، وَأَمْنَاؤُهُ عَلَى وَحْيِهِ، وَخُرَّاتُهُ عَلَى عِلْمِهِ، وَوَجْهُهُ الَّذِي يُؤْتَى مِنْهُ، وَعَيْنُهُ فِي بَرِّيَّتِهِ، وَلِسَانُهُ النَّاطِقُ، وَقَلْبُهُ الْوَاعِي، وَبَابُهُ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ، وَنَحْنُ الْعَامِلُونَ بِأَمْرِهِ، وَالِدَاعُونَ إِلَى سَبِيلِهِ، بِنَا عِرْفَ اللَّهِ، وَبِنَا عِبِدَ اللَّهِ، نَحْنُ الْأَدِلَاءُ عَلَى اللَّهِ، وَلَوْلَا مَا عِبَدَ اللَّهُ»^(٢).

وظيفة الإنسان تجاه المعارف الإلهية

من دعاء الإمام الحسين عليه السلام الذي كان يدعو به قائلاً:

«اللَّهُمَّ وَإِنِّي مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ عَائِدٌ بِكَ، لَا يُدُّ بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ، رَاضٍ بِحُكْمِكَ الَّذِي سُقْتَهُ إِلَيَّ فِي عِلْمِكَ، جَارٍ بِحَيْثُ أَجْرَيْتَنِي، قَاصِدٌ مَا أَمْتَنْتَنِي، غَيْرُ ضَنِينٌ بِنَفْسِي فِيمَا يُرْضِيكَ عَنِّي؛ إِذْ بِهِ قَدْ رَضَيْتَنِي، وَلَا قَاصِرٌ بِجُهْدِي عَمَّا إِلَيْهِ نَدَبْتَنِي، مُسَارِعٌ لِمَا عَرَّفْتَنِي»^(٣).

يستفاد أن هناك وظيفة تترتب على الإنسان تجاه المعارف الإلهية وضرورة

الإسراع في القيام بها.

وهذا الشأن هناك وصف رواه ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله:

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٨٥-٨٦، حديث ٢.

(٢) ابن بابويه، محمد بن علي، التوحيد: ص ١٥٢، حديث ٩.

(٣) ابن طاووس، علي بن موسى، مهج الدعوات ومنهج العبادات: ص ٤٨.

«أَنَّهُ تَلَا: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾^(١) حَتَّى بَلَغَ قَوْلَهُ: ﴿إِيَّاكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(٢)، ثُمَّ قَالَ: إِيَّاكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا فَهُوَ أَحْسَنُ عَقْلاً، وَأَوْرَعُ عَنِ مَحَارِمِ اللَّهِ، وَأَسْرَعُهُمْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى»^(٣).

فمن يمتلك أرقى العقول لا بد أن يصل إلى أفضل المعارف وبالنتيجة سيكون الإسراع في إطاعة الأوامر الإلهية.

ما يجب على الجميع معرفته من الحقائق

روى الشيخ الصدوق بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«خَرَجَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ جَلَّ ذِكْرُهُ مَا خَلَقَ الْعِبَادَ إِلَّا لِيَعْرِفُوهُ فَإِذَا عَرَفُوهُ عَبْدُوهُ فَإِذَا عَبْدُوهُ اسْتَعْنَوْا بِعِبَادَتِهِ عَنْ عِبَادَةِ مَنْ سِوَاهُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا بْنَ رَسُولِ اللَّهِ، بَأَيِّ أَنْتَ وَأُمِّي فَمَا مَعْرِفَةُ اللَّهِ؟ قَالَ: مَعْرِفَةُ أَهْلِ كُلِّ زَمَانٍ إِمَامَهُمُ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِمْ طَاعَتُهُ»^(٤).

ومن توجيه الإمام الخطاب إلى «الناس» تتحصل مجموعة من الحقائق التي لا يختص العلم بها بالمؤمنين والمسلمين وإنما يجب على الجميع. والحقائق التي تمت الإشارة إليها في هذه الخطبة عبارة عن:

١- معرفة الله:

يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«إِنَّ أَفْضَلَ الْفَرَائِضِ وَأَوْجَبَهَا عَلَى الْإِنْسَانِ مَعْرِفَةُ الرَّبِّ وَالْإِقْرَارُ لَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ»^(٥).

(١) الملك: آية ١.

(٢) هود: آية ٧.

(٣) الناطق بالحق، يحيى بن الحسين، تيسير المطالب في أمالي أبي طالب: ص ٥١١، حديث ٦٨٨.

(٤) ابن بابويه، محمد بن علي، علل الشرائع: ج ١، ص ٩، حديث ١.

(٥) الخزاز الرازي، علي بن محمد، كفاية الأثر في النص على الأئمة الاثني عشر: ص ٢٦٢.

٢- عبادة الله:

يقول تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١).

٣- الغنى عن عبادة غير الله:

يقول تعالى:

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا آتِجُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَبِينَ﴾^(٢).

٤- معرفة الإمام المفترض الطاعة:

نقل عن النبي صلى الله عليه وآله قوله:

«مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَعْرِفْ إِمَامَ زَمَانِهِ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»^(٣).

إنكار الناس للمعارف الإلهية أحياناً

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه حكى ما جرى مع أبيه عليه السلام:

«فَتَسَلَّمَ الْإِمَارَةَ لِإِقَامَةِ حُدُودِ عَطَلَتْ، وَالِدَلَّالَةِ عَلَى مَعَارِفَ أَنْكَرَتْ وَجُهِلَتْ، وَانْفَتَقَتْ عَلَيْهِ أَعْلَامُ النَّفَاقِ وَرَايَاتُ الشَّقَاقِ، وَ... الدُّنْيَا، وَتَزَيَّنَتْ بِأَحْسَنِ زِينَتِهَا، فَلَمْ يَزَلْ يَفْتُقُّ مَا رَتَقُوا، وَيَرْتُقُّ مَا فَتَقُوا حَتَّى قَبَضَهُ اللَّهُ عَلَى خَيْرِ حَالَاتِهِ وَأَفْضَلِ سَاعَاتِهِ»^(٤).

وعند التأمل نجد أن جملة «وَالِدَلَّالَةِ عَلَى مَعَارِفَ أَنْكَرَتْ» تشير إلى إنكار بعض المعارف الإلهية في المجتمع.

(١) الذاريات: آية ٥٦.

(٢) الأنعام: آية ٥٦.

(٣) التفتازاني، مسعود بن عمر، شرح المقاصد: ج ٥، ص ٢٣٩.

(٤) ابن طاووس، علي بن موسى، التشریف بالمنن في التعريف بالفتن: ص ٣٦٣.

يقول تعالى:

﴿وَإِذْ أَنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا أَفْكٌ مُمْتَرٍ ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١﴾﴾

الإنسان مختار في اكتساب المعارف الإلهية

في الحديث المتقدم للإمام الحسين عليه السلام دلالة على أن الإنسان قد خلق مختاراً في تعلمه للمعارف الإلهية؛ لأن الإرشاد كان هو الإجراء الإلهي الوحيد لهداية البشرية نحو اكتساب المعارف لا الإجبار.

يقول تعالى:

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣١﴾﴾

ويقول أيضاً:

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾

جهل الناس بالمعارف الإلهية أحياناً

وهذا المعنى يستفاد أيضاً من جملة الإمام الحسين عليه السلام «وَالدَّلَالَةُ عَلَىٰ مَعَارِفِ أَنْكَرَتْ وَجُهَلَتْ» الواردة في الحديث الأخير له عليه السلام والتي تدل ضمناً بجهل الناس بالمعارف الإلهية.

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام في وصيته لعبدالله بن جندب أنه قال:

«يَا بْنَ جُنْدَبٍ، قَدِيمًا عَمَرَ الْجَهْلُ وَقَوِيَ أَسَاسُهُ، وَذَلِكَ لِاتِّخَاذِهِمْ دِينَ اللَّهِ لِعِبَاءٍ

(١) سبأ: آية ٤٣.

(٢) الإنسان: آية ٣.

(٣) الإنسان: آية ٢٩.

حَتَّى لَقَدْ كَانَ الْمُتَقَرَّبُ مِنْهُمْ إِلَى اللَّهِ بِعِلْمِهِ يُرِيدُ سِوَاهُ، أَوْلَيْكَ هُمُ الظَّالِمُونَ»^(١).

رفع الجهل عن المعارف الإلهية من أبرز مهام الحاكم

وهذا المعنى تدل عليه نفس الجملة المتقدمة الذكر عن الإمام الحسين عليه السلام «وَالدَّلَالَةَ عَلَى مَعَارِفِ أَنْكَرَتْ وَجْهَلَتْ» حيث يفهم منها أنّ من المهام والوظائف ذات الأولوية للحاكم رفع الجهالة عن المعارف الإلهية.

وها هو الإمام علي عليه السلام يقول في كتابه لقثم بن عباس والي مكة:
«أَمَّا بَعْدُ، فَأَقِمْ لِلنَّاسِ الْحَجَّ، وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ، وَاجْلِسْ لَهُمُ الْعَصْرَيْنِ فَأَقْتِ
الْمُسْتَفْتِيَّ، وَعَلِّمِ الْجَاهِلَ...»^(٢).

الحكومات المخالفة للمعارف الإلهية

في نفس الجملة المتقدمة «وَالدَّلَالَةَ عَلَى مَعَارِفِ أَنْكَرَتْ وَجْهَلَتْ» هناك إشارة إلى حال الحكومات غير الإلهية التي ترفض الانصياع لأوامر الله وامتهالها، حيث إنّها تعتمد إلى إنكار المعارف الإلهية وتغيبها عن الناس وتمهد الأرضية للتعمية عليهم.

ومن الشواهد على ذلك ما قاله الإمام علي عليه السلام بشأن فتنة بني أمية:
«...فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذَ الْبَاطِلُ مَاخِذَهُ، وَرَكِبَ الْجَهْلُ مَرَاقِبَهُ، وَعَظُمَتِ الطَّاعِيَةُ،
وَقَلَّتِ الدَّاعِيَةُ، وَصَالَ الدَّهْرُ صِيَالِ السَّبْعِ الْعُقُورِ، وَهَدَرَ فَنِيْقُ الْبَاطِلِ بَعْدَ كُظُومِ،
وَتَوَاحَى النَّاسُ عَلَى الْفُجُورِ، وَتَهَاجَرُوا عَلَى الدِّينِ، وَتَحَابُّوا عَلَى الْكُذْبِ، وَتَبَاغَضُوا
عَلَى الصِّدْقِ.

فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَانَ الْوَلَدُ غَيْظًا، وَالْمَطْرُ قَيْظًا، وَتَفِيضُ اللَّئَامِ فَيْضًا، وَتَغِيْبُ الْكِرَامِ

(١) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٣٠١-٣٠٢.

(٢) نهج البلاغة: رسالة ٦٧.

غَيْضاً، وَكَانَ أَهْلُ ذَلِكَ الزَّمَانِ ذِتَاباً، وَسَلَّطِيْنُهُ سِبَاعاً، وَأَوْسَاطُهُ أُكَّالاً [أَكَّالاً]،
وَقُفْرَآؤُهُ أَمْوَاتاً، وَعَارَ الصِّدْقِ، وَفَاضَ الكَذِبِ، وَاسْتُعْمِلَتِ المَوَدَّةُ بِاللِّسَانِ، وَتَشَاجَرَ
النَّاسُ بِالقُلُوبِ، وَصَارَ الفُسُوقُ نَسْباً، وَالعَفَافُ عَجَباً، وَلَيْسَ الإِسْلَامُ لُبْسَ الفِرْوِ
مَقْلُوباً^(١).

حرمة إنكار المعارف الإلهية والجهل بها

تدل الجملة الآنفة الذكر «وَالدَّلَالَةُ عَلَى مَعَارِفِ أَنْكَرَتْ وَجَهَلَتْ» ضمناً على
حرمة وقبح إنكار المعارف الإلهية والجهل بها؛ لأنَّ سيِّد الشهداء عليه السلام كان في مقام
انتقاد بعض الحكام والأمراء الذي قاموا بمثل تلك الإجراءات.

فيقول تعالى:

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٢).

(١) المصدر السابق: خطبة ١٠٨.

(٢) الأعراف: آية ٣٦.



الثالث : مصادر المعرفة وأدواتها

نُقل عن الإمام الحسين عليه السلام أنه دعا في القنوت مخاطباً رب العزة والجلالة:
 «اللَّهُمَّ وَإِنِّي مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ عَائِدٌ بِكَ، لَا تُدِّ بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ، رَاضٍ بِحُكْمِكَ الَّذِي
 سَقَيْتَهُ إِلَيَّ فِي عِلْمِكَ، جَارٍ بِحَيْثُ أُجْرِيْتَنِي، قَاصِدٌ مَا أَمْتَنِي، غَيْرُ ضَنِينٍ بِنَفْسِي فِيمَا
 يُرْضِيكَ عَنِّي؛ إِذْ بِهِ قَدْ رَضَيْتَنِي، وَلَا قَاصِرٍ بِجُهْدِي عَمَّا إِلَيْهِ نَدَبْتَنِي، مُسَارِعٌ لِمَا
 عَرَفْتَنِي، شَارِعٌ فِيمَا أَشْرَعْتَنِي»^(١).

إذ يتحصل من صدر وذيل هذا الدعاء أن الله سبحانه وتعالى قد وضع أساساً
 منهجياً للمعرفة يسلك بالنفس الإنسانية إلى الكمال، ولا بد أن يكون مؤطراً ومحاطاً
 بعلائم ودلالات إرشادية، وسنسلط الضوء عليها فيما يأتي.

وللشاهد مطهري إشارة للمصادر المعرفية في قوله:

«إنّ مصادر المعرفة من وجهة نظر الإسلام عبارة عن الطبيعة أو الآيات الآفاقية،
 والإنسان أو الآيات الأنفسية، وتاريخ الأمم والشعوب وسيرتهم الاجتماعية، والعقل
 أو الأصول والمبادئ الأولية الفطرية، والقلب بمقدار صفائه وتزكيته، وما خلفه لنا
 السابقون من نتاجات علمية ومؤلفات.

فالقرآن الكريم لطالما دعا إلى النظر والتأمل في الطبيعة والأرض والسموات
 كقوله:

﴿ قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾^(٢).

كما يدعو إلى التعقل والتفكير في تاريخ الأمم السابقة لأخذ العبرة والاعتبار منها:
 ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾^(٣).

(١) ابن طاووس، علي بن موسى، مهج الدعوات ومنهج العبادات: ص ٤٨.

(٢) يونس: آية ١٠١.

(٣) الحج: آية ٤٦.

كما أنّ العقل والمبادئ الفطرية تعدّ ذات قيمة نفيسة حتّى اعتمدت في الاستدلالات القرآنية كما في الآية:

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(١).

وهذا ما يعبر عنه برهان التمانع، فلو كانت هناك آلهة غير الله تعالى لفسد نظام الأرض والسماء، ولما استقام كما هو عليه، وهذا ما يثبت أنّه ليس هناك إلا إله واحد وهو الله عز وجل.

ويقول في آية أخرى:

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾^(٢).

والدليل الذي يستدل به من هذه الآية، يطلق عليه برهان الانسجام ووحدة الهدف.

كما أشار القرآن الكريم إلى القلب وكونه مركز الإلهام والإلقاءات الإلهية.

فكل إنسان مستعد لتقبل الإفاضة والإلهام بمقدار تطهيره لقلبه وتمهيدته وترزكيته وتغذيته معنوياً من خلال الإخلاص والعبودية، ومنه الوحي بالنسبة للأنبياء، بل يعدّ الدرجة العليا لهذا النوع من المعرفة.

وقد أشار القرآن كذلك إلى قيمة القلم والقرطاس عدّة مرات، وقد أقسم في

بعض آياته بهما كما في: ﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾^(٣) «^(٤)».

(١) الأنبياء: آية ٢٢.

(٢) المؤمنون: آية ٩١.

(٣) القلم: آية ١.

(٤) مطهري، مرتضى، مجموعه آثار استاد شهيد مطهري (مجموعة آثار الأستاذ الشهيد مطهري):

أ) الوحي

يمثل «الوحي» مصدراً من مصادر وسبل العلم والمعرفة والذي يتأتى بواسطة الأنبياء، وقد سلطت الروايات الشريفة الضوء عليه في الكثير من المواضع. وحول «المعرفة المسندة للوحي» قال العلامة محمد تقي الجعفري:

«الوحي في الاصطلاح الديني عبارة عن: الإلقاء المباشر للحقيقة من المقام الإلهي الشامخ في روع من لديه القابلية على استلامها. ويدعى الأشخاص الذين يتمتعون بهذه الإمكانية (الأنبياء والرسل)، أمّا في اللغة فيطلق (الوحي) على مطلق الإلقاء. وجاء الوحي بمعناه اللغوي في الآية أدناه: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَؤْمِنَ إِلَىٰ آيَاتِهِمْ لِيُجَدِّ لَكُمْ﴾^(١).

ومن الممكن تحليل المعرفة المتحققة عن طريق الوحي إلى عدة أركان هي:

أ) الموحى، وينحصر بحسب الاصطلاح الديني برّب العزة والجلالة، فهو من يلقي تلك الحقائق في روع الأنبياء.

ب) الموحى إليه، وهم من بلغوا الغاية القصوى والدرجة العليا في تزكية نفوسهم وتصفيتها حتى أصبحت بواطنهم مهياً لاستلام الوحي واستقباله.

ج) ما يوحى، وهو عبارة عن تلك الحقائق والواقعات ذات الارتباط بمسألة الإرشاد والهداية نحو (الحياة المعقولة) للبشرية بواسطة أنبياء الله تعالى.

وقبل الولوج في بيان الأركان المتعلقة بالوحي نرى من الضروري الإتيان بتعريف إجمالي للوحي: فالوحي عبارة عن إعلام النبي بالواقع سواء مباشرة بها من الله به عليه

(١) الأنعام: آية ١٢١.

من وعى وتلقّى خاص أو بواسطة ملك مأمور بإيصال الوحي ليلتلقاه النبي بما لديه من قابلية واستعداد.

فإذا ما كان باستطاعتنا أن ندرك حقيقة هذه المعرفة مفهوماً بشكل كامل وننتفع منها بصورة مباشرة، فإنّه يصبح بإمكاننا من خلال البحث ودراسة المعارف الأسهل والأوضح كالإشراق والكشف والشهود والإلهام، أن نقرب إلى حد ما من معرفة حقيقة الوحي.

تلك المعارف المتقدمة ذكرها قد أقرت من قبل علم النفس والعلوم الإنسانية الأخرى والفلسفة بأنواعها، وعبر عنها بعبارات واصطلاحات متنوعة. لكن الوحي يختلف عنها لخصوصية فيه، وهي أنّه يكشف الواقع وما فيه صلاح الإنسان (الحياة المعقولة) بصورة قطعية لا يشوبها شك، والشخص اللائق لتلقي الوحي قد حاز على تلك القابلية نتيجة ما بذله من جهد حثيث وسعي متواصل في تنقية باطنه وتزكيته إلى درجة يصعب على الإنسان العادي تصورها، إذ إنّ رأسمال تلك التزكية والتنقية ما كان إلاّ بعناية من الحق سبحانه قد خص بها بعض عباده، وهذا ما تبينه الآية الشريفة: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾^(١).

ومن مختصات الوحي أنّه لا يشوبه أيّ شك أو تردد، والحقائق التي يكشفها للأنبياء هي الأوضح والأقوى مشاهدة بحيث إنّها تمازج نفوسهم. ونسبة المعرفة المتأتية من الوحي لله تعالى أكمل وأوضح من أيّ معرفة أخرى. ومن المختصات الأخرى للوحي أنّ ما يوحى به إلى نبي من الأنبياء لا يتعارض مع أيّ وحي قد نزل على الأنبياء الآخرين ولا يختلف عنه، سوى الاختلاف الذي عادة ما ينشأ من تفاوت الظروف الشخصية المحيطة بكل نبي على حدة.

(١) الأنعام: آية ١٢٤.

كما يبدو أنّ المعرفة الناشئة من الوحي هي حقيقة قد تتنوع بلحاظ مستلمي الوحي، وقد ذكر القرآن المجيد أنواعاً لمتلقي الوحي تضمنت حتى الجهادات. وفي النهاية، فإنّ الوحي الذي أنزل على الأنبياء هو أسمى وأعظم أنواع الوحي نظراً لعظمتهم وعظمة الهدف المنشود من الوحي والذي هو عبارة عن ازدهار الإنسان في جميع أبعاد حياته، وإيصاله لمشارف (الحياة المعقولة)»^(١).

وسنفضّل الكلام حول الوحي في مبحث «النبوة» الذي سيُخصّص له مجلد مستقل في ضمن هذه الموسوعة.

تحقق الإيمان بسماع الحقائق الوحيانية

قال يحيى بن يعمن (نعمان):

«كُنْتُ عِنْدَ الْحَسَنِ ع إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ مُتَلَمِّحًا أَسْمَرُ شَدِيدُ السُّمْرِ، فَسَلَّمَ وَرَدَّ الْحَسِنُ ع، فَقَالَ: يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ مَسْأَلَةٌ، قَالَ: هَاتِ، قَالَ: كَمْ بَيْنَ الْإِيْمَانِ وَالْيَقِينِ؟ قَالَ: أَرْبَعُ أَصَابِعَ، قَالَ: كَيْفَ؟ قَالَ: الْإِيْمَانُ مَا سَمِعْنَاهُ وَالْيَقِينُ مَا رَأَيْنَاهُ وَبَيْنَ السَّمْعِ وَالْبَصْرِ أَرْبَعُ أَصَابِعَ. قَالَ: فَكَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟ قَالَ: دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ. قَالَ: فَكَمْ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ؟ قَالَ: مَسِيرَةٌ يَوْمٍ لِلشَّمْسِ. قَالَ: فَمَا عِزُّ الْمَرْءِ؟ قَالَ: اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ»^(٢).

إذ تدلنا جملة «الْإِيْمَانُ مَا سَمِعْنَاهُ» على حصول الإيْمان للإنسان أو زيادته إثر سماع الحقائق الدينية المتلقاة قرآنيّاً أو روائياً، و«الْإِيْمَانِ» المشار إليه هنا هو أولى مراتبه المرادفة للعلم بقريينة المقابلة مع «اليقين» في الحديث.

(١) الجعفري التبريزي، محمّد تقي، معرفت شناسي (نظرية المعرفة)، مجموعة آثار، العدد: ص ٢٥٤-٢٥٥.

(٢) الخزاز الرازي، علي بن محمّد، كفاية الأثر في النص على الأئمة الاثني عشر: ص ٢٣٢-٢٣٣.

وعن الإمام علي عليه السلام قال:

«ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ نُورًا لَا تُطْفَأُ مَصَابِيحُهُ، وَسِرَاجًا لَا يُجْبُو تَوْقُدُهُ، وَبَحْرًا لَا يُدْرِكُ قَعْرَهُ، وَمِنْهَا جَا لَا يُضِلُّ مَهْجُهُ، وَشِعَاعًا لَا يُظْلِمُ ضَوْؤُهُ، وَفُرْقَانًا لَا يُحْمَدُ بَرَهَانُهُ، وَبَيِّنَاتًا لَا تَهْدِمُ أَرْكَانُهُ، وَشِفَاءً لَا تُخْشَى أَسْقَامُهُ، وَعِزًّا لَا تُهْزَمُ أَنْصَارُهُ، وَحَقًّا لَا تُخَذَلُ أَعْوَانُهُ، فَهَوَ مَعْدِنُ الْإِيْمَانِ وَبُحْبُوحَتُهُ، وَيَنَابِيعُ الْعِلْمِ وَبُحُورُهُ، وَرِيَاضُ الْعَدْلِ وَعُدْرَانُهُ، وَأَنْبِيَاءُ الْإِسْلَامِ وَبَيِّنَاتُهُ»^(١).

ما ينبغي تبليغه وحيًا

نقل القاضي النعمان المغربي بسنده قال:

«سُئِلَ عَنْ قَوْلِ النَّاسِ فِي الْأَذَانِ أَنَّ السَّبَبَ كَانَ فِيهِ رُؤْيَا رَأَاهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدٍ فَأَخْبَرَ بِهَا النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله فَأَمَرَ بِالْأَذَانِ، فَقَالَ الْحَسِينُ عليه السلام: الْوَحْيُ يَنْزِلُ عَلَى نَبِيِّكُمْ، وَتَرَعُمُونَ أَنَّهُ أَخَذَ الْأَذَانَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ وَالْأَذَانُ وَجْهُ دِينِكُمْ، وَعَظَبَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: بَلْ سَمِعْتُ أَبِي عَالِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ يَقُولُ: أَهْبَطَ اللَّهُ عز وجل مَلَكًا حَتَّى عَرَجَ بِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله، وَذَكَرَ حَدِيثَ الْإِسْرَاءِ بِطَوْلِهِ اخْتَصَرْنَا نَحْنُ هَاهُنَا قَالَ فِيهِ: وَبَعَثَ اللَّهُ مَلَكًا لَمْ يَرِ فِي السَّمَاءِ قَبْلَ ذَلِكَ الْوَقْتِ وَلَا بَعْدَهُ، فَأَذَّنَ مَثْنَى وَأَقَامَ مَثْنَى، وَذَكَرَ كَيْفِيَّةَ الْأَذَانِ، وَقَالَ جَبْرِئِيلُ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وآله: يَا مُحَمَّدُ، هَكَذَا أَدِّنْ لِلصَّلَاةِ»^(٢).

إذ يتضح من ردة فعل الإمام ورضبه عليه السلام لزوم تبليغ المسائل الدينية عن طريق الوحي المنزل من الحق سبحانه وتعالى على نبيه حتى يقوم هو فيما بعد بإيصالها وإبلاغها للناس.

(١) نهج البلاغة: خطبة ١٩٨.

(٢) ابن حيون، النعمان بن محمد، دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام: ج ١، ص ١٤٢.

وقال ربّ العزة والجلالة:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فِرْجَالَ أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمْنُكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾^(١).

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله:

«إِنَّ اللَّهَ عز وجل أَنْزَلَ فِي الْقُرْآنِ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى وَاللَّهِ مَا تَرَكَ شَيْئًا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْعَبْدُ، حَتَّى وَاللَّهِ مَا يَسْتَطِيعُ عَبْدٌ أَنْ يَقُولَ: لَوْ كَانَ فِي الْقُرْآنِ هَذَا، إِلَّا وَقَدْ أَنْزَلَهُ اللَّهُ فِيهِ»^(٢).

ضرورة معرفة الله عن طريق الوحي

روى ابن شعبة الحرّاني في «تحف العقول» أنّ الإمام الحسين عليه السلام قال واصفاً الباري عز وجل:

«يُصِيبُ الْفِكْرُ مِنْهُ الْإِيمَانَ بِهِ مَوْجُودًا، وَوُجُودَ الْإِيمَانِ لَا وَجُودَ صِفَةٍ، بِهِ تُوصَفُ الصِّفَاتُ لَا بِهَا يُوصَفُ، وَبِهِ تُعْرَفُ الْمَعَارِفُ لَا بِهَا يُعْرَفُ، فَذَلِكَ اللَّهُ لَا سَمِيَّ لَهُ سُبْحَانَهُ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ»^(٣).

فإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أنّ الأدلاء الحقيقيين على الله سبحانه هم أولياؤه - ومن جملتهم سيّد الشهداء عليه السلام - عندئذ سيلزم على جميع الناس التعرف إلى الله عن طريقهم، وما يؤكد ذلك تعبير الإمام حين قال: «فَذَلِكَ اللَّهُ...»، لا ما يخامر ذهن الإنسان وخياله، وينقدح في ذهنه من تخيلات وتصورات.

(١) البقرة: آية ٢٣٩.

(٢) البرقي، أحمد بن محمد، المحاسن: ج ١، ص ٢٦٧، حديث ٣٥٢.

(٣) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٤٥.

وفي الزيارة الجامعة الكبيرة تصريح بذلك حيث جاء فيها:
 «مَنْ أَرَادَ اللَّهُ بَدَأَ بِكُمْ، وَمَنْ وَحَدَّهُ قَبْلَ عَنكُمْ، وَمَنْ قَصَدَهُ تَوَجَّهَ بِكُمْ»^(١).

وصفُ الله سبحانه نفسه بالوحي

عند التأمل في كلمة «بِهِ» الواردة في الحديث السابق للإمام الحسين عليه السلام - حيث إنَّ الضمير يعود لله تعالى، ويراد به كلامه عز وجل الذي تجلّى في قالب الوحي - نصل إلى ما مفاده أنّ أسمى كمال للإنسان في مضمار التعرف إلى الله جل وعلا هو ما يتأتى عبر كلامه هو سبحانه عن نفسه، وإن كان الجميع مكلفين بداية بمعرفته جل وعلا عن طريق آثاره.

والقاضي سعيد القمي في شرحه لهذه الجملة قال:

«ثمَّ إِنَّهُ عليه السلام بَيَّنَّ تَعَالِيَهُ عَنِ هَذِهِ الصِّفَةِ وَعَنِ سَائِرِ الصِّفَاتِ وَأَنَّ كِمَالَهُ سَبْحَانَهُ بِذَاتِهِ الَّتِي بِهَا تَصِيرُ الصِّفَةُ صِفَةً وَالذَّوَاتُ ذَوَاتًا فَقَالَ عليه السلام: (به) أَيُّ بِاللَّهِ (تُوصَفُ الصِّفَاتُ) أَيُّ تَصِيرُ صِفَاتًا؛ لِأَنَّهُ جَلَّ شَأْنُهُ جَاعِلُ الذَّوَاتِ وَالصِّفَاتِ جَعْلًا بَسِيطًا (لَا بِهَا يُوصَفُ) أَيُّ لَا هُوَ سَبْحَانَهُ بَتَلْكَ الصِّفَاتِ يُوصَفُ فَتَجْعَلُهُ ذَا صِفَةٍ وَذَا كِمَالَاتٍ، بَلْ كِمَالَهُ بِذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي هِيَ مَصْدَرُ كُلِّ صِفَةٍ كِمَالِيَّةٍ وَمَرْجِعُ جَمِيعِ الْمُحَامِدِ الْإِلَهِيَّةِ وَإِنَّمَا هِيَ أَشْعَى أَنْوَارِ جَمَالِهِ وَأَظْلَى عَكُوسِ جَلَالِهِ، وَكَذَا كُلُّ شَيْءٍ يَتَعَلَّقُ بِهِ الْمَعْرِفَةُ مِنْ أَيِّ عَارِفٍ كَانَتْ فَهُوَ بِاللَّهِ صَارَ مَعْرُوفًا. وَقَدْ حَقَّقْنَا ذَلِكَ فِي شَرْحِ الْخَبَرِ الْمَشْهُورِ: (اعْرِفُوا اللَّهَ بِاللَّهِ) وَبَيَّنَّا أَنَّ الْمَعْرِفَةَ بِاللَّهِ وَبِمَخْلُوقَاتِهِ إِنَّمَا هُوَ بِاللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ إِلَّا مَنْ بَصَّرَهُ اللَّهُ بِنُورِ الْإِيمَانِ، وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ عليه السلام: (وَبِهِ) أَيُّ بِاللَّهِ (تَعْرِفُ الْمَعَارِفَ لَا بِهَا) أَيُّ لَا بِالْمَعَارِفِ (يَعْرِفُ) أَيُّ يَصِيرُ مَعْرُوفًا. فَالْمَصْنُوعُ إِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى الصَّانِعِ وَذَلِكَ هُوَ الْإِثْبَاتُ، وَأَمَّا الْمَعْرِفَةُ فَإِنَّمَا هِيَ بِاللَّهِ وَبِنُورِهِ الْكَاشِفِ عَنِ الْحَقَائِقِ، وَفَرَقَ مَا بَيْنَهُمَا.

(١) ابن بابويه، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه: ج ٢، ص ٦١٥.

ولمّا أبطل الإمام عليه السلام في الكلمات السابقة أقوال الملحدّين والمشبّهين وأرشد إلى ما هو الحقّ في طريق المعرفة قال: (فذلك) أي الذي ذكرنا بعض كمالاته العليا وسماته الحسنى هو (الله) الذي يستحقّ الألوهيّة و(لا سميّ له) في الوجدانيّة (سبحانه) عمّا يقول المشبّهون والعادلون (وهو السميع البصير) على ما في ظلمات البرّ والبحر، ولا تخفى عليه خافية في السماوات والأرض، لا تعرضه سنة ولا نوم، ولا يشغله شيء، يسمع بذاته ويبصر بذاته»^(١).

وقال الإمام علي عليه السلام:

«هُوَ الدَّالُّ بِالدَّلِيلِ عَلَيْهِ، وَالْمُوَدِّيُّ بِالمَعْرِفَةِ إِلَيْهِ»^(٢).

ويخاطب الإمام السجاد عليه السلام الحقّ سبحانه في الدعاء المعروف بدعاء أبي حمزة

الشمالي بقوله:

«بِكَ عَرَفْتُكَ وَأَنْتَ دَلَلْتَنِي عَلَيْكَ وَدَعَوْتَنِي إِلَيْكَ، وَلَوْ لَا أَنْتَ لَمْ أَدْرِ مَا أَنْتَ»^(٣).

(١) القاضي سعيد القمي، محمّد سعيد بن محمّد مفيد، شرح الأربعين: ص ٤٢١-٤٢٢.

(٢) الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج ١، ص ٢٠١.

(٣) ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال: ج ١، ص ٦٧.

ب) الإلهام

«الإلهام» هو الآخر يعدّ عاملاً وطريقاً للمعرفة ومصدراً من مصادرها، وكان له حظ مما أشارت إليه الروايات أيضاً.

وكلمة «الإلهام» مأخوذة من مادة «هَم» وتأتي في اللغة بمعنى ابتلاع شيء ما^(١).

وقال الراغب الإصفهاني:

«الإلهام: إلقاء الشيء في الروح، ويختص ذلك بما كان من جهة الله تعالى وجهة الملاء الأعلى، قال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾^(٢)»^(٣).

وعن ذلك عبّر العلامة الطباطبائي في تفسيره للآية ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ بقوله:

«والإلهام: الإلقاء في الروح، وهو إفاضته تعالى الصور العلمية من تصور أو تصديق على النفس...»

وتفريع الإلهام على التسوية في قوله: ﴿وَمَا سَوَّاهَا﴾^(٤) ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾^(٥) إلخ للإشارة إلى أنّ إلهام الفجور والتقوى وهو العقل العملي من تكميل تسوية النفس فهو من نعوت خلقتها، كما قال تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيُّمُ﴾^(٤)»^(٥).

(١) ابن فارس، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة: ج ٥، ص ٢١٧.

(٢) الشمس: آية ٨.

(٣) الراغب الإصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن: ص ٧٤٨.

(٤) الروم: آية ٣٠.

(٥) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ٢٠، ص ٢٩٧-٢٩٨.

وذكر السيّد نورالدين الجزائري في التفاوت بين «الإلهام والوحي» ما نصه:
 «قيل: الإلهام يحصل من الحق تعالى من غير واسطة الملك. والوحي من خواص
 الرسالة، والإلهام من خواص الولاية. وأيضاً الوحي مشروط بالتبليغ، كما قال تعالى:
 ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلَّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾^(١) دون الإلهام.
 ومنهم من جعل الإلهام نوعاً من الوحي، وقال في الغريب: (يقال لما يقع في النفس
 من عمل الخير: إلهام، ولما يقع من الشر وما لا خير فيه: وسواس، ولما يقع من الخوف:
 إيحاش، ولما يقع من تقدير نيل الخير: أمل، ولما يقع من التقدير الذي لا على الإنسان
 ولا له: خاطر) انتهى.

وقال بعض المحققين: (الوحي: فيضان العلم من الله إلى النبي بواسطة الملك.
 والإلهام: الإلقاء في قلبه ابتداءً. والأول يختص بالأنبياء عليهم السلام، وبينه قوله سبحانه: ﴿قُلْ
 إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾^(٢)، فإنّ الجملة الأخيرة إنّما سبقت لبيان المايز، وأنّ المماثلة
 التي دلّت عليها الجملة الأولى ليست في الصفات الجسمانية والنفسانية معاً، بل في
 الأولى خاصّة) انتهى.

أقول: وقد يطلق الوحي على الإلهام، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى
 الْحَوَارِيِّينَ﴾^(٣)، فإنّهم لم يكونوا أنبياء، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾^(٤)، وقوله:
 ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾^(٥)، وهذا الإطلاق إنّما بحسب اللغة أو على سبيل التجوز^(٦).

(١) المائدة: آية ٦٧.

(٢) فصلت: آية ٦.

(٣) المائدة: آية ١١١.

(٤) القصص: آية ٧.

(٥) النحل: آية ٦٨.

(٦) العسكري، الحسن بن عبدالله، الجزائري، نور الدين، معجم الفروق اللغوية: ص ٦٩-٧٠.

المعرفة الإلهية إلهامية

يناجي الإمام الحسين عليه السلام ربّ العزة والجلالة في دعاء عرفة قائلاً:
«أَلْهَمْتَنِي مَعْرِفَتَكَ»^(١).

ومن عبارة الإمام هذه ندرك تماماً أنّ معرفة الله سبحانه إلهامية.
ويشهد له ما جاء في إجابة الإمام علي عليه السلام للجاثليق حين سأله:

«أَخْبِرْنِي عَرَفْتَ اللَّهَ بِمُحَمَّدٍ أَمْ عَرَفْتَ مُحَمَّدًا بِاللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام:
مَا عَرَفْتُ اللَّهَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَلَكِنْ عَرَفْتُ مُحَمَّدًا بِاللَّهِ ﷺ حِينَ خَلَقَهُ وَأَحَدَتْ فِيهِ الْحُدُودَ
مِنْ طُولٍ وَعَرْضٍ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ مُدَبَّرٌ مَصْنُوعٌ بِاسْتِدْلَالٍ وَإِلْهَامٍ مِنْهُ وَإِرَادَةٍ كَمَا أَلْهَمَ
الْمَلَائِكَةَ طَاعَتَهُ وَعَرَفَهُمْ نَفْسَهُ بِلَا شَبِّهِ وَلَا كَيْفٍ»^(٢).

الإلهامات الإلهية للإنسان

يستدل من مضمون الحديث الأخير للإمام الحسين عليه السلام على أنّ الإلهامات
تفاض من الله سبحانه وتعالى على الإنسان بصورة عامة.

وقد نقل عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال:

«أَحَدَ اللَّهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْحَقِّ وَأَلْهَمَنَا وَإِيَّاكُمْ الصَّبْرَ»^(٣).
وقال عليه السلام أيضاً:

«إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا فَفَقَّهُهُ فِي الدِّينِ وَأَلْهَمَهُ الْيَقِينَ»^(٤).

ونتضرع في الدعاء العشرين من الصحيفة السجادية بقول الإمام زين
العابدين عليه السلام:

(١) الكفعمي، إبراهيم بن علي، البلد الأمين: ص ٢٥١.

(٢) ابن بابويه، محمد بن علي، التوحيد: ص ٢٨٦-٢٨٧، حديث ٤.

(٣) نهج البلاغة: خطبة ٢٠٥.

(٤) الأمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٢٩١، حديث ١٥٩.

«اللَّهُمَّ وَأَنْطِقْنِي بِالْهَدَى، وَأَهْمُنِي التَّقْوَى»^(١).

وجاء في الدعاء الرابع والعشرين من الصحيفة أيضاً:

«وَأَهْمُنِي عِلْمَ مَا يَجِبُ لَهَا عَلَيَّ إِهَاماً»^(٢).

إتمام الحجة على الإنسان بإلهامه معرفته سبحانه

يبتهل الإمام الحسين عليه السلام للحق جل وعلا في دعاء عرفة قائلاً:

«أَوْجِبْتَ عَلَيَّ حُجَّتَكَ بِأَنْ أَهْمَمْتَنِي مَعْرِفَتَكَ»^(٣).

ومن مقتضى تفريع الجملة الثانية على الأولى ندرك أنّ الحجة تتم على الإنسان

نتيجة إلهامه معرفة الله عز وجل.

ويؤيده ما روي عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه قال:

«وَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اخْتَارَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِأُمُورِ عِبَادِهِ شَرَحَ صَدْرَهُ لِدَلِّكَ، وَأَوْدَعَ قَلْبَهُ يَتَابِعَ

الْحِكْمَةَ، وَأَهْمَمَهُ الْعِلْمَ إِهَاماً، فَلَمْ يَعْوَ بَعْدَهُ بِجَوَابٍ وَلَا يُحَيِّرُ فِيهِ عَنِ الصَّوَابِ»^(٤).

إلهام الإنسان المعرفة بالله بعونه سبحانه ولطفه

ورد في دعاء عرفة قول الإمام الحسين عليه السلام متضرعاً:

«أَهْمَمْتَنِي مَعْرِفَتَكَ... وَمَنْنْتَ عَلَيَّ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ بِعَوْنِكَ وَلُطْفِكَ»^(٥).

حيث تدل هذه العبارة على أنّ الله سبحانه وتعالى بعونه ولطفه ألهم الإنسان

المعرفة به جل وعلا.

(١) الصحيفة السجادية: ص ٩٨.

(٢) المصدر السابق: ص ١١٦.

(٣) الكفعمي، إبراهيم بن علي، البلد الأمين: ص ٢٥١.

(٤) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٢٠٢، حديث ١.

(٥) الكفعمي، إبراهيم بن علي، البلد الأمين: ص ٢٥١-٢٥٢.

ويفصّل الإمام الصادق عليه السلام الحديث عن ذلك بقوله:

«لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي فَضْلِ مَعْرِفَةِ اللَّهِ جَزْرًا مَا مَدُّوا أَعْيُنَهُمْ إِلَى مَا مَتَعَ اللَّهُ بِهِ الْأَعْدَاءَ مِنْ زَهْرَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَعِيمِهَا، وَكَانَتْ دُنْيَاهُمْ أَقْلَ عِنْدَهُمْ مِمَّا يَطَّوْنَهُ بِأَرْجُلِهِمْ، وَلَنَعْمُوا بِمَعْرِفَةِ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ، وَتَلَذُّوا بِهَا تَلَذُّ مَنْ لَمْ يَزَلْ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَانِ مَعَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ. إِنَّ مَعْرِفَةَ اللَّهِ جَزْرًا أَنْسَ مِنْ كُلِّ وَحْشَةٍ، وَصَاحِبٌ مِنْ كُلِّ وَحْدَةٍ، وَنُورٌ مِنْ كُلِّ ظُلْمَةٍ، وَقُوَّةٌ مِنْ كُلِّ ضَعْفٍ، وَشِفَاءٌ مِنْ كُلِّ سُقْمٍ»^(١).

لله المنّة على الإنسان بإلهامه معرفته

ويدل عليه مقتضى التفريع المتقدم في حديث الإمام الحسين عليه السلام، فالله سبحانه هو صاحب المنّة على الإنسان بإلهامه معرفته.

والله تبارك وتعالى يقول:

﴿يُؤْمِنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢).

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٨، ص ٢٤٧، حديث ٣٤٧.

(٢) الحجرات: آية ١٧.

ج) العقل

يعدّ «العقل» مصدراً آخر وعاملاً مهماً في تحقق المعرفة، وقد تناولته كثير من الروايات الشريفة الواردة عن المعصومين عليهم السلام.

وقد سلط الشيخ الحر العاملي الضوء على معنى العقل مشيراً إلى بعض زواياه في نهاية باب «وجوب طاعة العقل ومخالفة الجهل» في كتابه «وسائل الشيعة»، فكان ممّا قال:

«العقل يطلق في كلام العلماء والحكماء على معان كثيرة، وبالتبع يعلم أنّه يطلق في الأحاديث على ثلاثة معان:

أحدها: قوة إدراك الخير والشر والتمييز بينهما، ومعرفة أسباب الأمور، ونحو ذلك، وهذا هو مناط التكليف.

وثانيها: حالة وملكة تدعو إلى اختيار الخير والمنافع واجتناب الشر والمضار.

وثالثها: التعقل بمعنى العلم، ولذا يقابل بالجهل لا بالجنون.

وأحاديث هذا الباب وغيره أكثرها محمول على المعنى الثاني والثالث، والله أعلم»^(١).

وقال العلامة المجلسي في بيان معنى العقل:

«إنّ العقل هو تعقل الأشياء وفهمها في أصل اللغة، واصطلاح إطلاقه على أمور:

الأول: هو قوة إدراك الخير والشر والتمييز بينهما والتمكن من معرفة أسباب الأمور

وذوات الأسباب وما يؤدّي إليها وما يمنع منها، والعقل بهذا المعنى مناط التكليف

والثواب والعقاب.

(١) الحر العاملي، محمد بن الحسن، تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة: ج ١٥،

الثاني: ملكة وحالة في النفس تدعو إلى اختيار الخير والنفع واجتناب الشرور والمضار وبها تقوى النفس على زجر الدواعي الشهوانية والغضببية والوساوس الشيطانية»^(١).

لقد بات جلياً للقارئ دور العقل وبقي علينا الإشارة إلى حقيقة العقل، ونذكر إتماماً للفائدة ما بيّنه السيّد أبو الحسن الرفيعي القزويني بهذا الصدد حيث قال:

«الأول: في ماهية العقل، وتعريفه: هو جوهر مجرد عن المادّة والمدّة وعوارض المادّة والرغبات النفسية والتصورات المتعلّقة بعالم الطبيعة، ما يعني أنّه بعيد عنها جميعاً، بل وأفضل منها، وهيمته العُلّيا التصورات الكلية ورعايته المصالح العامّة العائدة للنظام العام دون أيّ ميول نفسية، وفي الواقع أنّ ملحوظه ومقصوده هو رضا الحق في بلوغ المصالح العامّة العقلانية.

الثاني: وجود العقل المجرد، ليس وجوده من سنخ الطبيعيات ولا الأمور المحسوسة، وإنّما وجوده على نحو لا يقع عرضة لتغيرات الدهر وتحولاته، عار عن العوارض الجسمية والمادّية، وبما أنّ وجوده لم يكن من سنخ وجود الأجسام لذا لا يصح السؤال عن مكانه أين هو؛ لأنّ المكان والحيز من لوازم وجود الأجسام والمادّيات وهذا بخلاف أفق وجود العقل الذي هو أفضل من أفق عالم الجسمانيات.

الثالث: فعلية العقل المجرد، عمله هو الإدراك والتعقل، ويحصل الإدراك العقلي بقدرته وقوة وجوده دون الحاجة إلى آلة أو قوة خارجة عنه، فإدراكه ليس كإدراك النفس للأشياء الحسية؛ إذ يحتاج الإدراك الحسي للمسموعات والمبصرات إلى آلة السمع وآلة البصر.

الرابع: مراتب العقل المجرد، وله أربع مراتب وفي كل مرتبة هناك حدّ يمتاز به

(١) المجلسي، محمّد باقر بن محمّد تقي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: ج ١، ص ٩٩.

جوهر العقل عمّا في المرتبة الأخرى، وسنبيّن مراتبه الأربع كالتالي:

المرتبة الأولى: (العقل الهولاني) وهو ذلك الجوهر الذي بلغ الغاية في الشآن والكمال الحيواني، مع فعلية جميع القوى الحيوانية فيه إلاّ أنّه في الكمال الإنساني قوة محضة للإدراك العقلي، ولوازمه خالية عن الفعل ومستعدة لقبول الصور العلمية كلّما توفر تعليم ومتعلم وأستاذ فهو كالصفحة المبرأة عن أيّ رسم مع استعدادها التام للرسوم المختلفة، وبهذا أيّ العقل الهولاني يظهر الفرق بين الحيوان المحض والإنسان، فهو في الحيوان ليس سوى الاستعداد المحض، مع عدم القابلية لأيّ كمال عقلي، وفي الإنسان استعداد محض ليس معه إدراك بالفعل ولكنه مع ذلك مستعد لحصوله، والسر في هذا الأمر - الفرق بين الحيوان والإنسان - يكمن بامتلاك الإنسان لقوة الكمال العقلي وفقدان الحيوان لها، وهذا ما جعل الصورة الحيوانية كالإدراك الحسي وآثاره في الحيوان أقوى بحيث ملأ المادّة، وكل ما كان من استعداد في الحيوان تحوّل فيه إلى بالفعل بتمام المعنى، بخلاف ما في الإنسان فإنّ الصورة الحيوانية والقوى الحيوانية فيه ما تزال ضعيفة، ولم يتحوّل استعداد الإنسان وقوته في الشؤون الحيوانية بشكل كامل؛ لهذا فالإنسان في عين أنّه حيوان بالفعل إلاّ أنّه يضمّر القوة والاستعداد لطلب الكمال الأرفع من الحيوانات. تعمق بصورة صحيحة حتّى تصل إلى غور المطلب!

المرتبة الثانية: (العقل بالملكة) من مراتب العقل والنفس جوهر أقوى وأفضل من جوهر العقل الهولاني؛ لأنّه في هذه المرتبة سيتحول جزء من القوة العقلية المحضة للفعلية شيئاً فشيئاً، بمعنى أن يدرك نفس القضايا الكلية البديهية بصورة عقلية مثل: أنّ النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان، وأنّ لكل حادث علة محدثة، ومع عدم العلة يُعدم المعلول وهكذا، ولكنه ما زال غير قادر على ترتيب القياس والبرهان المنطقي بأن يستخرج المطالب العقلية والفكرية من مقدّماتها الأولى.

وخلاصته عدم حصول القدرة على التفكير وهو الانتقال من المعلومات الحاضرة

عنده لتحصيل المجهول العلمي نظرياً، ولم يتجاوز أكثر الخلق في كمالهم العقلي هذه المرتبة، وإن رأى بعضهم نفسه في عداد الخواص وطبقة النخبة رغم أنّ الوصول إلى هذا المقدار لا يخلو من فائدة بلحاظ تهيئة رأس المال للمرتبة الثالثة وإظهاراً لحسن النية.

المرتبة الثالثة (العقل بالفعل) في هذه المرتبة ستمتلك النفس القدرة على التفكير واستخراج المطالب النظرية المعقدة التي يدور رحي بحثها من قبل العقلاء، ويتمكن بها من تنظيم البراهين والاستدلالات المنطقية الدقيقة ويستخرج المجهولات العلمية من مبادئها البديهية الواضحة، وكلما أراد أن يحل المشكلات عمداً إلى هذه القدرة والقوة وأعملها، ويستعرض بها الصور العقلية العلمية النظرية في مرآة النفس، مثل: إثبات الواجب بالذات سبحانه، أو حل إشكالات وشبهات المذهب المادّي، وإثبات الصفات الكمالية للحق، وإثبات تجرّد النفس الناطقة وبقائها بعد تلف البدن، وكيفية تحولات النفس في ذلك العالم، وإثبات عالم المجردات العقلية والملائكة المقربين ومعرفة النبوة والولاية، والتعرف إلى كيفية نزول الوحي، وإثبات حدوث العالم ونظائر هذه المسائل المهمّة. وصاحب هذه المرتبة يكون قد بلغ الفعلية الكاملة، ومثل هذا الإنسان في الحقيقة لا بدّ أن يوصف بالعالم الحقيقي، ولكنه مع استطاعته على تحويل القوة العقلية إلى فعلية محضة إلا أنّ احتمال الغفلة والوقوع بالخطأ يبقى وارداً، وذلك أنّ غبار العالم الحسي والخيالي لم يُزاح تماماً عن مرآة التفكير، وما يزال تدبير النفس للبدن والانشغال بالعلائق المادّية قائماً لم ينته بعد.

المرتبة الرابعة: (العقل المستفاد) والنفس عندما تصل إلى هذه المرتبة تكون منزهة عما يتصاعد من غبار عالم التفكير وما قد يحدث من الغفلة، وتبلغ في جوهرية العقل حداً من الانغماس في إدراك المعقولات المحضة بحيث تشاهد معقولاتها دائماً، ولا تتمكن أيّ قوة من جذبها إلى العالم الحسي، فإنّها قد أسدلت الستارة على إدراكاتها

العقلية، وهذه نهاية مرتبة الكمال العقلي والفضيلة الإنسانية»^(١).

ليس من الصعب على الإنسان أن يلتفت إلى عمق الحاجة لوسيلة معرفية أخرى حينما يستشعر ضيق قابلية حواس الإنسان وقصرها عن معرفة الكثير من الأشياء التي لا يمكنه التغافل بل الغفلة عنها وليس للحواس سبيل لمعرفة، ومن هنا برزت الضرورة لوجود وسيلة أخرى من شأنها إعطاء القدرة للإنسان وتمكينه من معرفة ما يحيط به بصورة كاملة وبدقة عالية تتلاءم ومتطلباته الحياتية والعقائدية، وتلك الوسيلة هي قوة العقل أو التعقل؛ كي يستطيع من خلالها تعميق إدراكاته الجزئية والسطحية التي تتأتى عادة من الإدراك الحسي بداية إلى إدراكات كلية معمقة، والانتقال من المعرفة المحدودة بالمكانية إلى تلك المعرفة العامة غير المقيدة.

وقد أشار الإمام الصادق عليه السلام إلى تلك الحقيقة أثناء مناظرة له مع «أبي شاعر الديصاني» المعروف بزندقته لما قال:

«قَدْ عَلِمْتَ أَنَّا لَا نَقْبَلُ إِلَّا مَا أَدْرَكْنَاهُ بِأَبْصَارِنَا أَوْ سَمِعْنَاهُ بِأَذَانِنَا أَوْ شَمِمْنَاهُ بِمَنَاخِرِنَا أَوْ ذُقْنَاهُ بِأَفْوَاهِنَا أَوْ لَمَسْنَاهُ بِأَكْفَانَا أَوْ تَصَوَّرَ فِي الْقُلُوبِ بَيَانًا أَوْ اسْتَنْبَطَهُ الرُّوْيَاتُ إِيقَانًا. قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: ذَكَرْتَ الْحَوَاسَّ الْخَمْسَ وَهِيَ لَا تَنْفَعُ شَيْئًا بَعْدَ دَلِيلِ كَمَا لَا يُقَطِّعُ الظُّلْمَةُ بَعْدَ مِصْبَاحٍ»^(٢).

والسبب في ذلك يعود إلى ما امتازت به المعرفة العقلية من خصائص، ومنها إمكانية عقل الإنسان من بلوغ بواطن الأشياء عبر ظواهرها وإدراك حقائقها وواقعيتها.

والآية الكريمة تنبه إلى ذلك في قوله تعالى:

(١) الرفيعي القزويني، أبو الحسن، غوصي در بحر معرفت (غوص في بحر المعرفة): ص ١٢١-١٢٥.

(٢) ابن بابويه، محمد بن علي، التوحيد: ص ٢٩٢-٢٩٣، حديث ١.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ^(١).

وروي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال:

«وَأَيُّهَا الدُّنْيَا مُتَّهَىٰ بَصَرِ الْأَعْمَى لَا يُبْصِرُ مِمَّا وَرَاءَهَا شَيْئًا، وَالْبَصِيرُ يَنْفُذُهَا بَصَرُهُ وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَّارَ وَرَاءَهَا» ^(٢).

ومن الخصائص المعرفية الأخرى للعقل قدرته على تحليل وتجزئة معلوماته؛ إذ يتوصل عن طريق ذلك إلى تركيب واكتشاف صور ذهنية جديدة، ولا تقف خصائص القوة العاقلة عند هذا الحد؛ إذ لها القابلية على التجريد والانتزاع، فمن خلال مشاهدة معنى ما في شخص ما ومشاهدته كذلك في شخص آخر وبعد تكرار تلك المشاهدة واستمرارها ينتزع مفهوماً كلياً يصدق على عدد غير محدود من الأشخاص.

ولو عطفنا إلى دور العقل في المعرفة الدينية متلمسين آثاره فإننا سنجدّه يعدّ من أهم الوسائل لا في إطار المعارف النظرية والعقائدية المرتبطة بالدين وحسب، وإنما في إطار المعارف العملية والأخلاقية كذلك، علاوة على فاعليته بشكل ملحوظ في مسألة الأدلة الإثباتية للدين وفي عملية الاستنباط وبيان الدين وشرح أحكامه ومبادئه.

ففي العلوم والمسائل المثبتة للدين من الممكن أن نشير إلى براهين إثبات وجود الله تعالى، وذلك ممّا يعتمد بصورة رئيسية على القواعد العقلية وإثبات ضرورة الدين والنبوة ودلالة المعاجز على صحة دعاوى الأنبياء وصدقهم حيث نلاحظ

(١) آل عمران: آية ١٩٠-١٩١.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ١٣٣.

الدور المهم والرئيس الذي يلعبه العقل في الاستدلالات والاستنتاجات في جميع تلك المسائل وما يلحق بها.

إضافة إلى الدور المهم الذي يقوم به العقل في عملية استنباط الأحكام الدينية منطلقاً من قاعدة الحسن والقبح العقليين والتي هي عادة ما تبحث في مسائل علم الكلام.

على الرغم من أنّ العقل مصباح وسراج للدين وإلى جوار النقل يعدّ مصدراً للمعرفة البشرية بالدين وكاشفاً عن محتواه العقائدي والأخلاقي وأحكامه الفقهية والحقوقية، ولكن وقع الأشخاص الذين يرون العقل ميزاناً للدين والشريعة بالإفراط بشأن دور العقل في المجال الديني؛ فقد أخرجوا العقل عن حد الاعتدال، وهذا يستلزم نتائج سلبية كثيرة، ومن ثماره المرة التفسير الخاطئ لحاقمية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله؛ إذ بحسب هذا التوجيه الإفراطي لمكانة العقل ودوره يستغنى عن الوحي حينها تصل البشرية لرشدها.

مع أنّ العقل يقرّ بمحدوديته في مجالات واسعة مما يتعلق بالدين حيث لا يطال بعض مسأله، من قبيل إدراك كنه ذات الحق تعالى وصفاته.

ذوو العقول

لقد روي عن الإمام الحسين عليه السلام قوله داعياً الله تبارك وتعالى:
«وَأَنْتَ الَّذِي اسْتَجَبْتَ لِأَيُّوبَ إِذْ نَادَى: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(١)
فَكَشَفْتَ ﴿مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ ضُرِّ﴾^(٢) وَأَتَيْتَهُ ﴿أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ

(١) الأنبياء: آية ٨٣.

(٢) الأنبياء: آية ٨٤.

﴿وَذَكَرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾^(١) (٢).

وكلمة «ألباب» جمع «لب» وفسر بالعقل، ومن خصوصياته التنبيه على بعض الأمور.

وحول مادة «لب» قال العلامة المصطفوي:

«إنَّ الأصل الواحد في المادة: هو ما ينتقى وخلص من شيء، وهذا المعنى يختلف باختلاف الموضوعات.

فلبَّ النخلة قلبها، ولبَّ الجوز واللوز ما يختار من جوفها وخلص من الغشاء، واللبَّ من الإنسان ما ينتقى وخلص من وجوده وهو العقل والفهم الخالص من الشوائب ومرتبة من مراتب الروح إذا صفا وخلص وميز بين المصالح والمفاسد والخير والشر، وبها يتميز الإنسان من سائر أنواع الحيوان، واللبَّ من الأشياء ما خلس منها. وأما الإقامة في مقام، والملازمة بأمر، والمحبة والتعلق بشيء، والإطاعة لشخص، وتعيين محل النحر وموضع القلادة فكلها مأخوذ من الأصل، ويؤخذ فيه مفهوم الانتقاء والاختيار والخلوص.

فلا بدَّ في موارد استعمال المادة ملاحظة القيدين: الانتقاء والخلوص، أي اختيار موضوع أو محل خالص من الشوائب.

﴿وَأَنْقُونِ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾^(٣).

﴿وَمَا يَذَكِّرُ إِلَّا أَوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾^(٤).

﴿لَا يَنْتِ لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾^(٥).

(١) ص: آية ٤٣.

(٢) ابن طاووس، علي بن موسى، جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: ص ٢٧١.

(٣) البقرة: آية ١٩٧.

(٤) آل عمران: آية ٧.

(٥) آل عمران: آية ١٩٠.

﴿عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(١).

﴿هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٢).

فهذه الأمور - الاعتبار والتذكر والاهتداء والانتقاء - إنما تتحصل للذين لهم الانتقاء والخلوص في باطنهم، ولا تتحصل للعقول المشوبة المتحجبة والقلوب غير الخالصة التي في غشاء.

فاللبّ ليس بمعنى مطلق العقل والقلب، وهكذا الأبواب فإنه لا يصح استعماله في مورد مطلق الإقامة في محل.

فاللبّ أخص من العقل، وهكذا الأبواب أخص من الإقامة، فيلاحظ فيها قيد الانتقاء واختيار الخلوص والصفاء^(٣).

وقال الإمام الكاظم عليه السلام موصياً هشام بن الحكم:

«يَا هِشَامُ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾^(٤)

يَعْنِي: عَقْلٌ، وَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ ءَايْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾^(٥)، قَالَ: الْفَهْمُ وَالْعَقْلُ...

يَا هِشَامُ، مَا بَعَثَ اللَّهُ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ إِلَى عِبَادِهِ إِلَّا لِيَعْقِلُوا عَنِ اللَّهِ، فَأَحْسَنَهُمْ اسْتِجَابَةً أَحْسَنَهُمْ مَعْرِفَةً، وَأَعْلَمَهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ أَحْسَنَهُمْ عَقْلاً، وَأَكْمَلَهُمْ عَقْلاً أَرْفَعَهُمْ دَرَجَةً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ...

يَا هِشَامُ، كَيْفَ يَزُكُّو عِنْدَ اللَّهِ عَمَلُكَ وَأَنْتَ قَدْ شَغَلْتَ قَلْبَكَ عَنْ أَمْرِ رَبِّكَ وَأَطَعْتَ هَوَاكَ عَلَى غَلْبَةِ عَقْلِكَ؟!...

(١) يوسف: آية ١١١.

(٢) غافر: آية ٥٤.

(٣) المصطفوي، حسن، التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ج ١٠، ص ١٧٢-١٧٣.

(٤) ق: آية ٣٧.

(٥) لقمان: آية ١٢.

يَا هِشَامُ، نَصَبُ الْحَقِّ لِبَطَاعَةِ اللَّهِ، وَلَا نَجَاةَ إِلَّا بِالطَّاعَةِ، وَالطَّاعَةُ بِالْعِلْمِ، وَالْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَالتَّعَلُّمُ بِالْعَقْلِ يُعْتَقَدُ، وَلَا عِلْمَ إِلَّا مِنْ عَالِمٍ رَبَّانِيٍّ، وَمَعْرِفَةُ الْعِلْمِ بِالْعَقْلِ ...
 إِنَّهُ لَمْ يَخْفِ اللَّهُ مَنْ لَمْ يَعْقِلْ عَنِ اللَّهِ، وَمَنْ لَمْ يَعْقِلْ عَنِ اللَّهِ لَمْ يَعْقِدْ قَلْبَهُ عَلَى مَعْرِفَةِ
 ثَابِتَةٍ يُبَصِّرُهَا وَيَجِدُ حَقِيقَتَهَا فِي قَلْبِهِ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ كَذَلِكَ إِلَّا مَنْ كَانَ قَوْلُهُ لِفِعْلِهِ
 مُصَدِّقًا، وَسِرُّهُ لِعَلَانِيَتِهِ مُوَافِقًا؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ اسْمُهُ لَمْ يَدُلَّ عَلَى الْبَاطِنِ الْخَفِيِّ مِنَ الْعَقْلِ
 إِلَّا بِظَاهِرٍ مِنْهُ، وَنَاطِقٍ عَنْهُ»^(١).

تأثير حوادث الدهر في اعتبار ذوي العقول

عند العود إلى كلام الإمام الحسين عليه السلام الأخير نلاحظ حكاية مضمونه عن
 اعتبار ذوي العقول والفتنة من تقلبات الدهور وتحولاتها.
 ويقول الله تعالى:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ
 مَحِيصٍ ﴿١﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٢﴾﴾.

جعل عقول الأولياء مراكز الأوامر والنواهي الإلهية

روي عن الإمام الحسين عليه السلام دعاؤه في القنوت مخاطباً الله سبحانه:
 «وَجَعَلْتَ عُقُولَهُمْ مَنَاصِبَ أَوَامِرِكَ وَنَوَاهِيكَ»^(٣).
 فمن التعبير بكلمة «جعلت» المنسوبة لله سبحانه يستفاد أنه تعالى قد أفاض
 على عقول أوليائه القابلية في أن تصبح محلاً لإدراك أوامره ونواهيها.

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ١٦-١٨.

(٢) ق: آية ٣٦-٣٧.

(٣) ابن طاووس، علي بن موسى، مهج الدعوات ومنهج العبادات: ص ٤٨.

ويؤيد هذا المعنى قول الإمام الباقر عليه السلام:

«لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْعَقْلَ اسْتَنْطَقَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَقْبِلْ فَأَقْبَلَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَدْبِرْ فَأَدْبَرَ، ثُمَّ قَالَ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي مَا خَلَقْتُ خَلْقًا هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْكَ وَلَا أَكْمَلْتُكَ إِلَّا فِيْمَنْ أُحِبُّ، أَمَا إِنِّي إِيَّاكَ أَمُرُّ، وَإِيَّاكَ أَمْهِي، وَإِيَّاكَ أَعَاقِبُ، وَإِيَّاكَ أُتِيبُ»^(١).

الفرق بين العقل والقلب

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قد دعا في قنوته قائلاً:

«جَعَلْتَ قُلُوبَ أَوْلِيَائِكَ مَسْكِنًا لِمَشِيَّتِكَ، وَمَكْمَنًا لِإِرَادَتِكَ، وَجَعَلْتَ عُقُوبَهُمْ مَنَاصِبَ أَوْامِرِكَ وَنَوَاحِيكَ»^(٢).

مع قليل من الملاحظة نجد أن هناك فرقاً بين كلمتي «القلب» و«العقل» اللتين قد وردتا في الجملتين السابقتين على نحو التفريق الدال على الاختلاف في المعنى، وما يبدو من مضمون الجملتين أن المقصود من القلب هو تلك الروح التي تمثل مركز المعرفة الشهودية، والأساس لجميع إدراكات الإنسان. وما أوضح ما بيّنه أبو العلاء عفيفي بهذا الصدد إذ قال:

«وكما فرّق الصوفيّة بين القلب والعقل من حيث هما أداتان للإدراك ميّزوا كذلك بين نوعي الإدراك الحاصلين منهما، واختصّوا كلاّ منهما باسم، فسّموا إدراك العقل (علماً) وإدراك القلب (معرفة) و(ذوقاً)، وسّموا صاحب النوع الأوّل (علماً) وصاحب النوع الثاني (عارفاً).

والفرق الجوهرى بين المعرفة والعلم أن المعرفة إدراك مباشر للشيء المعروف،

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ١٠، حديث ١.

(٢) ابن طاووس، علي بن موسى، مهج الدعوات ومنهج العبادات: ص ٤٨.

والعلم إدراك حقيقة من الحقائق عن الموضوع المعلوم، والمعرفة (حال) من أحوال النفس، يتحد فيها الذات المدركة والموضوع المدرك، والعلم حال من أحوال العقل يدرك فيها العقل نسبة بين مدركين، سلباً أو إيجاباً، أو يدرك مجموعة متصلة من هذه النسب»^(١).

عقول إلهية

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه كان يدعو في قنوته مبتهلاً:
«وَجَعَلْتَ عُقُولَهُمْ مَنَاصِبَ أَوْامِرِكَ وَنَوَاهِيكَ، فَأَنْتَ إِذَا شِئْتَ مَا تَشَاءُ حَرَكْتَ مِنْ أَسْرَارِهِمْ كَوَامِنَ مَا أَبْطَنْتَ فِيهِمْ، وَأَبْدَأْتَ مِنْ إِرَادَتِكَ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ مَا أَفْهَمْتَهُمْ بِهِ عَنْكَ فِي عُقُودِهِمْ، بِعُقُولٍ تَدْعُوكَ...»^(٢).

حيث يستفاد من الصفة والموصوف «عُقُولٍ تَدْعُوكَ» أنّ هناك عقولاً إلهية ترغب إلى الله وتدعو للتوجه إليه وهي عقول أوليائه؛ لأنّ الله المتعال قد امتحنهم في عوالم أخرى وكانت النتيجة النجاح والفوز والغلبة في الامتحان الإلهي، فغرس في وجودهم الاستعداد على كشف الحقائق عبر سبل كالعقل ليصبحوا قدوة للمجتمع في طريق الوصول للكمال، ولا يخفى أنّ هذا من ضروريات خلق الإنسان.

يقول الله تعالى في كتابه المجيد:

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾^(٣).

ونردد في زيارة آل ياسين القول:

«السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا دَاعِيَ اللَّهِ وَرَبَّنِي آيَاتِهِ»^(٤).

(١) عفيفي، أبو العلاء، التصوف: الثورة الروحية في الإسلام: ص ٢٤٤.

(٢) ابن طاووس، علي بن موسى، مهج الدعوات ومنهج العبادات: ص ٤٨.

(٣) يوسف: آية ١٠٨.

(٤) الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج ٢، ص ٤٩٣.

الحقائق النورية التي تعين العقل على بلوغ مراد الله سبحانه

لقد روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه كان يدعو في قنوته مخاطباً الباري جل وعلا بهذا الدعاء:

«وَجَعَلْتَ عُقُولَهُمْ مَنَاصِبَ أَوْامِرِكَ وَنَوَاهِيكَ، فَأَنْتَ إِذَا شِئْتَ مَا تَشَاءُ حَرَكْتَ مِنْ أَسْرَارِهِمْ كَوَامِنَ مَا أَبْطَنْتَ فِيهِمْ، وَأَبْدَأْتَ مِنْ إِرَادَتِكَ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ مَا أَفْهَمْتَهُمْ بِهِ عَنْكَ فِي عُقُودِهِمْ، بِعُقُولٍ تَدْعُوكَ وَتَدْعُو إِلَيْكَ بِحَقَائِقِ مَا مَنَحْتَهُمْ بِهِ»^(١).

يدلنا مضمون هذه الجملة على أن هناك حقائق نورية تعين عقول أولياء الله في الوصول إلى المراد والمبتغى.

ويأتي كلام الإمام علي عليه السلام بخصوص التربية الخاصة التي تلقاها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أيام طفولته شاهداً على تحقيق ما يماثل ذلك حيث قال:

«وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ صلى الله عليه وآله مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلِكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ، يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ وَمَحَاسِنِ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ لَيْلَهُ وَنَهَارُهُ»^(٢).

ونقل عن أبي بصير أنه قال:

«سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾^(٣)، قَالَ: خَلَقَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله أَعْظَمُ مِنْ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ، كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله يُخْبِرُهُ وَيُسَدِّدُهُ وَهُوَ مَعَ الْأَيْمَةِ مِنْ بَعْدِهِ»^(٤).

(١) ابن طاووس، علي بن موسى، مهج الدعوات ومنهج العبادات: ص ٤٨.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ١٩٢.

(٣) الشورى: سورة ٥٢.

(٤) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٢٧٣، حديث ١.

عدم إمكان تمثيل الحق سبحانه بالعقل

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه يقول في تسيحه وتنزيهه لله تجلت قدرته: «سُبْحَانَ مَنْ عَلَا فَوْقَ الْبَرِّيَّاتِ بِالْإِهْيَةِ، فَلَا عَيْنَ تُدْرِكُهُ، وَلَا عَقْلَ يُمَثِّلُهُ»^(١).

فبما أنّ مجيء النكرة في سياق النفي يدل على العموم، فإنّ المنفي هنا هو عدم إمكان أيّ عقل من تشبيه وتمثيل حقيقة الذات المقدّسة للناس؛ ويعود ذلك إلى أنّ عقل الإنسان محدود بينما الوجود الأقدس لله تعالى غير محدود، ومن المستحيل إحاطة المحدود بغير المحدود، وعلى الرغم من أنّ كل فرد يجب عليه معرفة الله تعالى عن طريق العقل إلا أنّ هذا المقدار المتحقق من المعرفة فيه كفاية.

يقول الإمام علي عليه السلام:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ الْقَائِلُونَ، وَلَا يُحْصِي نِعْمَاءَهُ الْعَادُّونَ، وَلَا يُؤَدِّي حَقَّهُ الْمُجْتَهِدُونَ، الَّذِي لَا يُدْرِكُهُ بَعْدُ الْهَمَمُ، وَلَا يَنَالُهُ عَوْصُ الْفِطَنِ»^(٢).

ويقول أيضاً:

«لَمْ يُطَلِعِ الْعُقُولَ عَلَى تَحْدِيدِ صِفَتِهِ، وَلَمْ يَحْجُبْهَا عَنْ وَاجِبِ مَعْرِفَتِهِ»^(٣).

ويقول أيضاً:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي انْحَسَرَّتِ الْأَوْصَافُ عَنْ كُنْهِ مَعْرِفَتِهِ، وَرَدَعَتْ عَظَمَتُهُ الْعُقُولَ، فَلَمْ تَجِدْ مَسَاغاً إِلَى بُلُوغِ غَايَةِ مَلَكُوتِهِ، هُوَ اللَّهُ الْحَقُّ الْمَبِينُ، أَحَقُّ وَأَبِينُ مِمَّا تَرَى الْعُيُونُ، لَمْ تَبْلُغْهُ الْعُقُولُ بِتَحْدِيدِ فَيَكُونُ مُشَبَّهًا، وَلَمْ تَقْعُ عَلَيْهِ الْأَوْهَامُ بِتَقْدِيرِ فَيَكُونُ مُمَثَّلًا»^(٤).

(١) قطب الدين الراوندي، سعيد بن هبة الله، الدعوات: ص ٩٢.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ١.

(٣) المصدر السابق: خطبة ٤٩.

(٤) المصدر السابق: خطبة ١٥٥.

حيلة العاقل عند الابتلاء الشديد

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال:

«إِذَا وَرَدَتْ عَلَى الْعَاقِلِ لَمَّةٌ قَمَعَ الْحَزْنَ بِالْحَزْمِ، وَقَرَعَ الْعَقْلَ لِلِاخْتِيَالِ»^(١).

وكلمة «لمة» تعني الشدة، و«ملمة» تعني النازلة الشديدة، ويدل مضمون هذا الحديث على الابتلاء الشديد للعاقل أحياناً وبحثه عن المعالجة مستفيداً من عقله في سبيل النجاة والخروج فائزاً.

وما أجمل ما وصف به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العاقل حين قال:

«وَصِفَةُ الْعَاقِلِ أَنْ يَخْلُمَ عَمَّنْ جَهَلَ عَلَيْهِ، وَيَتَجَاوَزَ عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَيَتَوَاضَعَ لِمَنْ هُوَ دُونَهُ، وَيُسَاقِقَ مَنْ فَوْقَهُ فِي طَلَبِ الْبِرِّ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ تَدَبَّرَ؛ فَإِنْ كَانَ خَيْرًا تَكَلَّمَ فَعَنِمَ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا سَكَتَ فَسَلِمَ، وَإِذَا عَرَضَتْ لَهُ فِتْنَةٌ اسْتَعَصَمَ بِاللَّهِ وَأَمْسَكَ يَدَهُ وَلِسَانَهُ، وَإِذَا رَأَى فِضِيلَةً انْتَهَزَ بِهَا، لَا يُفَارِقُهَا الْحَيَاءُ، وَلَا يَبْدُو مِنْهُ الْحِرْصُ، فَتِلْكَ عَشْرُ خِصَالٍ يُعْرَفُ بِهَا الْعَاقِلُ»^(٢).

طريقة مواجهة العقلاء للبلايا

يتضح من الحديث السابق للإمام الحسين عليه السلام الأسلوب الذي يعتمد عليه العقلاء في مواجهة المشكلات؛ إذ يتوسلون ببعده النظر والبحث عن الحلول في مكان من عقولهم.

وفي ذلك قال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«الْحِلْمُ غِطَاءٌ سَاتِرٌ، وَالْعَقْلُ حُسَامٌ قَاطِعٌ، فَاسْتُرْ حَلَلَ خُلُقِكَ بِحِلْمِكَ، وَقَاتِلْ هَوَاكَ بِعَقْلِكَ»^(٣).

(١) الحلواني، الحسين بن محمد، نزهة الناظر وتنبية الخاطر: ص ٨٤، حديث ١٣.

(٢) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٨-٢٩.

(٣) نهج البلاغة: الكلمات القصار ٤٢٤.

بعد نظر العاقل

بما أنّ الحزم لغة يعني ضبط الأمر والأخذ بالثقة فيلازمه بصورة دائمة النظر في عواقب الأمور، وعند ملاحظة حديث الإمام الحسين عليه السلام المتقدم وتفريعه للجملة الأولى على جملة الشرط نخرج بنتيجة مفادها أنّ العاقل يمتاز ببعده النظر.

ويشهد له قول أمير المؤمنين عليه السلام:

«أَعْقَلُ النَّاسِ أَنْظَرُهُمْ فِي الْعَوَاقِبِ»^(١).

وقوله أيضاً:

«لِلْحَازِمِ مِنْ عَقْلِهِ عَن كُلِّ دَنِيَّةٍ زَاجِرٌ»^(٢).

إبعاد العاقل الحزن عن نفسه بالاستفادة من عقله

يفهم من مضمون هذه الجملة الشرطية الواردة في الحديث الأخير للإمام الحسين عليه السلام، أنّ العقلاء يتنفعون من عقولهم في التخلص من حالة الحزن وإبعادها عن نفوسهم، ومنعها من السيطرة على قلوبهم والتمكن منها.

فقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال:

«الْعَقْلُ مُصْلِحٌ كُلِّ أَمْرٍ»^(٣).

إنقاذ العاقل نفسه من البلاء بالاستفادة من عقله

حيث يستفاد من مضمون الحديث المتقدم للإمام الحسين عليه السلام أنّ العقل باستطاعته إنقاذ الإنسان من البلايا متى ما استخدمه وتوسل به في ذلك.

فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال:

(١) الأمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٢١٧، حديث ٥٤٢.

(٢) المصدر السابق: ص ٥٤٦، حديث ٣٣.

(٣) المصدر السابق: ص ٣٢، حديث ٤٥٨.

«تَمَرَةُ الْعَقْلِ الْإِسْتِقَامَةُ»^(١).

وقال أيضاً:

«مَا اسْتَوَدَعَ اللَّهُ أَمْرًا عَقْلًا إِلَّا [لِيَسْتَنْقِذَهُ] اسْتَنْقَذَهُ بِهِ يَوْمًا مَا»^(٢).

درجات العقل

روي عن الإمام الحسين عليه السلام قوله:

«ذَرَأَ اللَّهُ الْعِلْمَ لِقَاحِ الْمَعْرِفَةِ، وَطُولَ التَّجَارِبِ زِيَادَةً فِي الْعَقْلِ»^(٣).

ويتبين من التعبير بـ«زِيَادَةً فِي الْعَقْلِ» أنَّ للعقل درجات، وأنه يتأثر شدة وضعفاً لدى الإنسان نتيجة عوامل وأسباب خاصة.

قال الإمام علي عليه السلام في ذلك:

«إِنَّ الْغُلَامَ إِذَا يَتَغَرَّبُ فِي سَبْعِ سِنِينَ، وَيَحْتَلِمُ فِي أَرْبَعِ عَشْرَةَ سَنَةً، وَيُسْتَكْمَلُ طَوْلُهُ فِي أَرْبَعِ وَعَشْرِينَ، وَيُسْتَكْمَلُ عَقْلُهُ فِي ثَمَانِ وَعَشْرِينَ سَنَةً، فَمَا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ فَإِنَّهَا هُوَ بِالتَّجَارِبِ»^(٤).

وقال الإمام الصادق عليه السلام:

«زَيْدٌ عَقْلُ الرَّجُلِ بَعْدَ الْأَرْبَعِينَ إِلَى خَمْسِينَ وَسِتِّينَ، ثُمَّ يَنْقُصُ عَقْلُهُ بَعْدَ ذَلِكَ»^(٥).

العقل التجريبي

ثمة نقطة أخرى جديرة بالعناية تظهر من عبارة الإمام الحسين عليه السلام السابقة

«وَطُولَ التَّجَارِبِ زِيَادَةً فِي الْعَقْلِ»، وتلك النقطة هي وجود العقل التجريبي.

(١) المصدر السابق: ص ٣٢٦، حديث ٤.

(٢) نهج البلاغة: كلمات قصار ٤٠٧.

(٣) الحلواني، الحسين بن محمد، نزهة الناظر وتنبية الخاطر: ص ٨٨.

(٤) ابن الأشعث، محمد بن محمد، الجعفریات (الأشعثيات): ص ٢١٣.

(٥) المفيد، محمد بن محمد، الاختصاص: ص ٢٤٤.

ويؤيده ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام من قوله:
«الْعَقْلُ عَقْلَانِ: عَقْلُ الطَّبَعِ وَعَقْلُ التَّجْرِبَةِ، وَكِلَاهُمَا يُؤَدِّي إِلَى الْمُنْفَعَةِ»^(١).

ضرورة مجالسة العقلاء

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال:
«مِنْ دَلَائِلِ عِلْمَاتِ الْقُبُولِ الْجُلُوسُ إِلَى أَهْلِ الْعُقُولِ، وَمِنْ عِلْمَاتِ أَسْبَابِ الْجَهْلِ الْمَارَاةُ لِغَيْرِ أَهْلِ الْكُفْرِ، وَمِنْ دَلَائِلِ الْعَالَمِ انْتِقَادُهُ لِحَدِيثِهِ وَعِلْمُهُ بِحَقَائِقِ فُنُونِ النَّظَرِ»^(٢).

يشير الحديث إلى أن المجتمع عادة ما يضم بعض الأفراد المعروفين بعقولهم وحكمتهم، وينبغي على غيرهم مجالستهم ومعاشرتهم عسى أن يستفيدوا شيئاً مما تزخر به عقولهم.

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:
«قَالَتِ الْخَوَارِيزْمِيُّونَ لِعِيسَى: يَا رُوحَ اللَّهِ، مَنْ نُجَالِسُ؟ قَالَ: مَنْ يُدَكِّرْكُمْ اللَّهُ رُؤْيَيْتُهُ، وَيَزِيدُ فِي عِلْمِكُمْ مَنْطِقَهُ، وَيَرْغَبُكُمْ فِي الْآخِرَةِ عَمَلُهُ»^(٣).

العقل منطلق العلم والإدراك

روى ابن شعبة الحرّاني في كتابه «تحف العقول» عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال
 واصفاً الحق جل وعلا:

«لَا تَتَدَاوَلُهُ الْأُمُورُ، وَلَا تَجْرِي عَلَيْهِ الْأَحْوَالُ، وَلَا تَنْزِلُ عَلَيْهِ الْأَحْدَاثُ، وَلَا يَقْدِرُ الْوَاصِفُونَ كُنْهَ عَظَمَتِهِ، وَلَا يَحْطُرُّ عَلَى الْقُلُوبِ مَبْلَغُ جَبْرُوتِهِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِي الْأَشْيَاءِ

(١) المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: ج ٧٥، ص ٦، حديث ٥٨.

(٢) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٤٧-٢٤٨.

(٣) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٣٩، حديث ٣.

عَدِيلٌ، وَلَا تُدْرِكُهُ الْعُلَمَاءُ بِالْبَابِهَا، وَلَا أَهْلُ التَّفَكِيرِ بِتَفْكِيرِهِمْ إِلَّا بِالتَّحْقِيقِ إِيقَانًا بِالْغَيْبِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُوصَفُ بِشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ المَخْلُوقِينَ، وَهُوَ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ، مَا تُصَوَّرُ فِي الْأَوْهَامِ فَهُوَ خِلَافُهُ»^(١).

نظراً لمعنى «ألباب» التي تعني العقول نستكشف دلالة جملة الإمام عليه السلام «وَلَا تُدْرِكُهُ الْعُلَمَاءُ بِالْبَابِهَا» على أنَّ العقل من وسائل تحصيل العلوم وإدراكها؛ رغم أنَّ العلماء لا يستطيعون إدراك كنه وعظمة الذات المقدسة.

وقال الإمام علي عليه السلام في وصاياہ:

«كَفَّاكَ مِنْ عَقْلِكَ مَا أَوْضَحَ لَكَ سُبُلَ عَيْكَ مِنْ رُشْدِكَ»^(٢).

وقال الإمام الصادق عليه السلام في بيان وظائف العقل:

«دِعَامَةُ الْإِنْسَانِ الْعَقْلُ، وَالْعَقْلُ مِنْهُ الْفِطْنَةُ وَالْفَهْمُ وَالْحِفْظُ وَالْعِلْمُ، وَبِالْعَقْلِ يَكْمُلُ، وَهُوَ دَلِيلُهُ وَثُبُصْرُهُ وَمِفْتَاحُ أَمْرِهِ، فَإِذَا كَانَ تَأْيِيدُ عَقْلِهِ مِنَ النُّورِ كَانَ عَالِمًا حَافِظًا ذَاكِرًا فَطِنًا فَهَمًّا، فَعَلِمَ بِذَلِكَ كَيْفَ وَلِمَ وَحَيْثُ، وَعَرَفَ مَنْ نَصَحَهُ وَمَنْ عَشَّهَ، فَإِذَا عَرَفَ ذَلِكَ عَرَفَ جِرَاهُ وَمَوْصُولَهُ وَمَقْصُودَهُ، وَأَخْلَصَ الْوَحْدَانِيَّةَ لِلَّهِ وَالْإِفْرَارَ بِالطَّاعَةِ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ مُسْتَدْرِكًا لِمَا فَاتَ، وَوَارِدًا عَلَى مَا هُوَ آتٍ، يَعْرِفُ مَا هُوَ فِيهِ وَلَا يَشِيءُ هُوَ هَاهُنَا، وَمِنْ أَيْنَ يَأْتِيهِ، وَإِلَى مَا هُوَ صَائِرٌ، وَذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ تَأْيِيدِ الْعَقْلِ»^(٣).

وفي ذلك للعلامة الطباطبائي كلام مفصل نذكره إتماماً للفائدة:

«هل يجوز التعويل على غير الإدراكات الحسية من المعاني العقلية؟ هذه المسألة من معارك الآراء بين المتأخرين من الغربيين، وإن كان المعظم من القدماء وحكماء الإسلام على جواز التعويل على الحس والعقل معاً، بل ذكروا أنَّ البرهان العلمي لا يشمل

(١) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٤٤.

(٢) نهج البلاغة: الكلمات القصار ٤٢١.

(٣) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٢٥، حديث ٢٣.

المحسوس من حيث إنه محسوس، لكن الغربيين مع ذلك اختلفوا في ذلك، والمعظم منهم وخاصة من علماء الطبيعة على عدم الاعتماد على غير الحس، وقد احتجوا على ذلك بأنّ العقليات المحضّة يكثر وقوع الخطأ والغلط فيها مع عدم وجود ما يميز به الصواب من الخطأ وهو الحس والتجربة المماسان للجزئيات بخلاف الإدراكات الحسية فإنّنا إذا أدركنا شيئاً بواحد من الحواس أتبعنا ذلك بالتجربة بتكرار الأمثال، ولا نزال نكرر حتّى نستثبت الخاصّة المطلوبة في الخارج ثمّ لا يقع فيه شك بعد ذلك، والحجة باطلة مدخولة.

أولاً: بأنّ جميع المقدمات المأخوذة فيها عقلية غير حسية فهي حجة على بطلان الاعتماد على المقدمات العقلية بمقدمات عقلية فيلزم من صحة الحجة فسادها.

وثانياً: بأنّ الغلط في الحواس لا يقصر عدداً من الخطأ والغلط في العقليات، كما يرشد إليه الأبحاث التي أوردوها في المبصرات وسائر المحسوسات، فلو كان مجرد وقوع الخطأ في باب موجباً لسدّه وسقوط الاعتماد عليه لكان سدّ باب الحس أوجب وألزم.

وثالثاً: أنّ التمييز بين الخطأ والصواب ممّا لا بدّ منه في جميع المدركات غير أنّ التجربة وهو تكرر الحس ليست آلة لذلك التمييز، بل القضية التجريبية تصير إحدى المقدمات من قياس يحتج به على المطلوب، فإنّنا إذا أدركنا بالحس خاصّة من الخواص ثمّ أتبعناه بالتجربة بتكرار الأمثال تحصل لنا في الحقيقة قياس على هذا الشكل: إنّ هذه الخاصّة دائمي الوجود أو أكثر في الموضوع، ولو كانت خاصّة لغير هذا الموضوع لم يكن بدائمي أو أكثر، لكنه دائمي أو أكثر، وهذا القياس كما ترى يشتمل على مقدمات عقلية غير حسية ولا تجريبية.

ورابعاً: هب أنّ جميع العلوم الحسية مؤيدة بالتجربة في باب العمل لكن من الواضح أنّ نفس التجربة ليس ثبوتها بتجربة أخرى وهكذا إلى غير النهاية، بل العلم

بصحته من طريق غير طريق الحس، فالاعتماد على الحس والتجربة اعتماد على العلم العقلي اضطراراً.

وخامساً: أنّ الحس لا ينال غير الجزئي المتغير والعلوم لا تستنتج ولا تستعمل غير القضايا الكلية وهي غير محسوسة ولا مجرّبة، فإنّ التشريح مثلاً إنّما ينال من الإنسان مثلاً أفراداً معدودين قليلين أو كثيرين، يعطي للحس فيها مشاهدة أنّ لهذا الإنسان قلباً وكبداً مثلاً، ويحصل من تكرارها عدد من المشاهدات يقل أو يكثر وذلك غير الحكم الكلي في قولنا: كل إنسان فله قلب أو كبد، فلو اقتصرنا في الاعتماد والتعويل على ما يستفاد من الحس والتجربة فحسب من غير ركون على العقلية من رأس لم يتمّ لنا إدراك كلي ولا فكر نظري ولا بحث علمي، فكما يمكن التعويل أو يلزم على الحس في مورد يخص به كذلك التعويل فيما يخص بالقوة العقلية، ومرادنا بالعقل هو المبدأ لهذه التصديقات الكلية والمدرك لهذه الأحكام العامة، ولا ريب أنّ الإنسان معه شيء شأنه هذا الشأن، وكيف يتصور أن يوجد ويحصل بالصنع والتكوين شيء شأنه الخطأ في فعله رأساً؟ أو يمكن أن يخطئ في فعله الذي خصه به التكوين؟

والتكوين إنّما يخص موجوداً من الموجودات بفعل من الأفعال بعد تثبيت الرابطة الخارجية بينهما، وكيف يثبت رابطة بين موجود وما ليس بموجود أيّ خطأ وغلط؟ وأما وقوع الخطأ في العلوم أو الحواس فليبيان حقيقة الأمر فيه محل آخر ينبغي الرجوع إليه والله الهادي»^(١).

الفرق بين اللبّ والفكر

يتجلى الفرق بين مفردتي «اللبّ» و«التفكير» في الحديث المتقدم للإمام

(١) الطباطبائي، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١، ص ٤٧-٤٨.

الحسين عليه السلام حيث جاء ذكرهما، فالأول جمع «لب» بمعنى العقل، وهو وسيلة التفكير وآتته، وبه عمل العقل في أمور الفكر ومسائله.

وفي شرح كلمة «العقل» قال العلامة المصطفوي:

«فظهر أن العقل وهو قوة بها يتميز الخير والصلاح مادياً ومعنوياً، ثم توجب الضبط عن الخلاف والتمايل، وفي جهة التشخيص هو أقوى وسيلة في تحصيل السعادة والوصول إلى الكمال...»^(١).

وأفاد في شرحه كلمة «الفكر» قائلاً:

«إنّ الأصل الواحد في المادة: هو تصرف القلب وتأمل منه بالنظر إلى مقدمات ودلائل ليتهدي بها إلى مجهول مطلوب.

وقريب منه ما يقول السبزواري:

الفكر حركة إلى المبادي ومن مبادي إلى المراد

والفكر يكون في المحسوسات وفي المعقولات وفي أمور الآخرة:

ففي المحسوسات كما في:

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢).

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾^(٣).

وفي المعقولات كما في:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٤).

﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٥).

(١) المصطفوي، حسن، التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ج ٨، ص ٢٣٨-٢٣٩.

(٢) آل عمران: آية ١٩١.

(٣) الروم: آية ٨.

(٤) النحل: آية ٤٤.

(٥) الروم: آية ٢١.

وفي عوالم ما وراء المادة كما في:

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ فِيمَا فَعَلْتُمْ فَيُنزِلُ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(١).

وفي مطلق التفكير كما في:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢).

فيراد جولان النظر القلبي في موضوع معين مادياً أو معنوياً ليصل إلى ما هو مطلوب له ويهتدى إليه.

فالتنتيجة المطلوبة الحقة في أيّ موضوع إنما تتحصل بالتفكير، حتى أنّ نزول الآيات والاستنتاج منها متوقفة على التفكير الدقيق:

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾^(٣).

ثمّ النظر بالبصر كما أنّه يتوقف على قوة الباصرة وانتفاء الموانع من الإحساس، كذلك النظر بالقلب وجولانه يحتاج إلى نورانية في البصيرة ووجود قوة الإدراك فيه، وانتفاء الموانع والحجب من تعصب وأغراض نفسانية وأمراض قلبية وكدورات باطنية.

فالتفكير تختلف مراتبه على حسب مراتب البصائر شدة وضعفاً، إلى أن يصل إلى مرتبة تعادل تفكير في ساعة عبادة سنوات.

وفي قبالة تفكير من ختم على قلبه واستولى عليه الهوى واتبع خطوات الشيطان وليس له نور:

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَفَدَّرَ ﴿٤﴾ فَقِيلَ كَيْفَ فَدَّرَ﴾^(٤).

(١) الزمر: آية ٤٢.

(٢) النحل: آية ٤٤.

(٣) البقرة: آية ٢١٩.

(٤) المدثر: آية ١٨-١٩.

فالتفكير الصحيح المنتج يتوقف على مقدمات، يجمعها نور القلب وخلوصه من الأغراض الفاسدة:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بَوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْنَى وَفِرْدَى ثُمَّ نَنْفَكُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ﴾^(١).

فإذا كان التفكير في موضوع الرشد والعقل لشخص يصاحبهم مدة حياته ولم يشاهدوا منه عملاً ضعيفاً يخالف الحق والعقل وهو على صدق وأمانة وحقيقة متوقفاً على الإخلاص والقيام لله وتطهير النظر فكيف في سائر المجهولات والمتشابهات؟! وبهذا يظهر لطف التعبير في مواده بكلمة «لعل»، فإن التفكير في نفسه ومن دون تحقق مقدماته غير ممكنة أو غير منتجة.

هذا حقيقة مفهوم الفكر، وأما اختصاصه بكونه تحت نظر العقل، أو اختصاصه بالإنسان، أو غير ذلك من الاصطلاحات فخارج عن الأصل الحق، فإن للحيوان أيضاً في حدود سعة ذاته وقواه عقلاً واختياراً وإدراكاً وفكراً، فلا يختص الفكر بالإنسان المؤمن العاقل، بل هو عام في كل حيوان. راجع: عقل، علم^(٢).

احتجاب الله عن عقول البشر

لقد نقل ابن شعبة الحرّاني رواية عن الإمام الحسين عليه السلام في كتابه «تحف العقول» يتحدث فيها الإمام عن احتجاب الله سبحانه قائلاً:

«اِحْتَجَبَ عَنِ الْعُقُولِ كَمَا احْتَجَبَ عَنِ الْأَبْصَارِ، وَعَمَّنَ فِي السَّمَاءِ احْتِجَابُهُ كَمَنْ [عَمَّنَ] فِي الْأَرْضِ»^(٣).

حيث يشير حديث الإمام هذا إلى وجود حجاب بين عقول البشر وكنه الذات

(١) سبأ: آية ٤٦.

(٢) المصطفوي، حسن، التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ج ٩، ص ١٣٨-١٤٠.

(٣) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٤٥.

المقدّسة، فلا يمكن لتلك العقول أن تطال حقيقة الذات المقدّسة أبداً بالنظر لمحدودية أطر الإدراك العقلي وضيقها، ولا يتعارض هذا مع الإلزام الموجه للمكلفين بمعرفة الله سبحانه كما تقدّم بيانه سابقاً.

وبين الإمام علي عليه السلام ذلك بقوله داعياً الله تبارك وتعالى:

«فَلَسْنَا نَعْلَمُ كُنْهَ عَظَمَتِكَ، إِلَّا أَنَا نَعْلَمُ أَنَّكَ حَيٌّ قَيُّومٌ لَا تَأْخُذُكَ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ. لَمْ يَنْتَهِ إِلَيْكَ نَظْرٌ، وَلَمْ يُدْرِكْكَ بَصَرٌ، أَدْرَكَتْ الْأَبْصَارَ، وَأَخْصَيْتِ الْأَعْمَالَ، وَأَخَذَتْ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ، وَمَا الَّذِي نَرَى مِنْ خَلْقِكَ، وَنَعَجِبُ لَهُ مِنْ قُدْرَتِكَ، وَنَصِفُهُ مِنْ عَظِيمِ سُلْطَانِكَ، وَمَا تَعَيَّبَ عَنَّا مِنْهُ، وَقَصَّرَتْ أَبْصَارُنَا عَنْهُ، وَانْتَهَتْ عُقُولُنَا دُونَهُ، وَحَالَتْ سُتُورُ الْعُيُوبِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ أَعْظَمُ. فَمَنْ فَرَعَ قَلْبَهُ، وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ، لِيَعْلَمَ كَيْفَ أَقَمْتَ عَرْشَكَ، وَكَيْفَ ذَرَأْتَ خَلْقَكَ، وَكَيْفَ عَلَّقْتَ فِي الْهَوَاءِ سَمَاوَاتِكَ، وَكَيْفَ مَدَدْتَ عَلَى مَوْرِ الْمَاءِ أَرْضَكَ رَجَعَ طَرْفُهُ حَسِيراً، وَعَقَلُهُ مَبْهُوراً، وَسَمِعُهُ وَهْماً، وَفِكْرُهُ حَائِراً»^(١).

عدم إمكان معرفة الله بواسطة المعلومات الفردية

روى ابن شعبة الحرّاني في «تحف العقول» عن الإمام الحسين عليه السلام حديثاً يصف فيه الحق جل علاه قال فيه:

«يُصِيبُ الْفِكْرُ مِنْهُ الْإِيمَانَ بِهِ مَوْجُوداً، وَوُجُودَ الْإِيمَانِ لَا وَجُودَ صِفَةٍ، بِهِ تُوصَفُ الصِّفَاتُ لَا بِهَا يُوصَفُ، وَبِهِ تُعْرَفُ الْمَعَارِفُ لَا بِهَا يُعْرَفُ، فَذَلِكَ اللَّهُ لَا سَمِيَّ لَهُ سُبْحَانَهُ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ»^(٢).

وهنا يدل مضمون هذا الحديث على عدم إمكان معرفة الله سبحانه عن طريق معارفنا وعلومنا الشخصية، ومن المعلوم أنّ هذا لا يسقط وجوب معرفته تعالى

(١) نهج البلاغة: خطبة ١٥٩.

(٢) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٤٥.

على كل مسلم بالاستعانة بالقرآن الكريم وسنة المعصومين الذين بلغوا المعرفة التامة الكاملة بالمعارف الإلهية.

وفي ذلك قال الإمام علي عليه السلام:

«لَمْ يُطْلِعِ الْعُقُولَ عَلَى تَحْدِيدِ صِفَتِهِ، وَلَمْ يَجْجُبْهَا عَنْ وَاجِبِ مَعْرِفَتِهِ»^(١).

وأدلى الخواجة نصير الدين الطوسي في «الفصول النصيرية» بدلوه في هذه المسألة بعد بيانه الصفات والأسماء الإلهية:

«ختم وإرشاد: هذا القدر في معرفة الله تعالى وصفاته - التي هي أعظم أصل من أصول الدين، بل هي أصل الدين - كاف؛ إذ لا يعرف بالعقل أكثر منه، ولا يتيسر في علم الكلام التجاوز عنه، إذ معرفة حقيقة ذاته المقدسة غير مقدورة للأنام، وكمال ألوهيته أعلى من أن تناله أيدي الظنون والأوهام، وربوبيته أعظم من أن تتلوث بالخواطر والأفهام. والذي تعرفه العقول ليس إلا أنه موجود»^(٢).

وقال الملا صدرا:

«وإني لأستغفر الله كثيراً مما ضيعت شطراً من عمري في تتبع آراء المتفلسفة والمجادلين من أهل الكلام، وتدقيقاتهم وتعلم جربزتهم في القول وتفننهم في البحث، حتى تبين لي آخر الأمر بنور الإيمان وتأيد الله المنان أن قياسهم عقيم، وصراطهم غير مستقيم، فألقينا زمام أمرنا إليه، وإلى رسوله النذير المنذر، فكل ما بلغنا منه آمناً به وصدّقناه، ولم نحتمل أن نخيل له وجهاً عقلياً ومسلكاً بحثياً، بل اقتدينا بهداه، وانتهينا بنهيه، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولَ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٣)، حتى فتح الله على قلبنا ما فتح، فأفلح ببركة متابعتة وأنجح»^(٤).

(١) نهج البلاغة: خطبة ٤٩.

(٢) الفاضل المقداد، مقداد بن عبدالله، الأنوار الجلالية في شرح الفصول النصيرية: ص ٩٩.

(٣) الحشر: آية ٧.

(٤) صدر الدين الشيرازي، محمد بن إبراهيم، الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة: ج ١،

وبهذا الصدد يرى العلامة الطباطبائي أن:

«ما يتعلق به علم الإنسان ناشب بوجوده متعلق بواقعيته بأطراف ثم بأطراف أطراف وهكذا كل ذلك في غيب من إدراك الإنسان فلا يتعلق العلم بحقيقة معنى الكلمة بشيء إلا إذا كان متعلقاً بجميع الغيوب في الوجود، ولا يسع ذلك لمخلوق محدود مقدر إنساناً أو غيره إلا الله الواحد القهار الذي عنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١)، فدلّ على أنّ من طبع الإنسان الجهل فلا يرزق من العلم إلا محدوداً مقدرًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾^(٢)، وهو قوله عليه السلام: حيث سئل عن علة احتجاب الله عن خلقه فقال: لأنّه بناهم بنية على الجهل، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾^(٣)، فدلّ على أنّ العلم كله لله، وإنّما يحيط منه الإنسان بما شاء الله، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٤)، فدلّ على أنّ هناك علماً كثيراً لم يؤت الإنسان إلا قليلاً منه»^(٥).

نقصان العقل ابتداءً

ينقل الحلواني:

«قِيلَ: وَتَذَكَّرُوا الْعَقْلَ عِنْدَ مُعَاوِيَةَ، فَقَالَ الْإِمَامُ الشَّهِيدُ الْحَسِينُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام: لَا يَكْمُلُ [الْعَقْلُ] إِلَّا بِاتِّبَاعِ الْحَقِّ.

(١) البقرة: آية ٢١٦.

(٢) الحجر: آية ٢١.

(٣) البقرة: آية ٢٥٥.

(٤) الإسراء: آية ٨٥.

(٥) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ٦، ص ٢٠١.

فَبَسَّمْ مُعَاوِيَةَ [لَهُ]، وَقَالَ: مَا فِي صُدُورِكُمْ إِلَّا شَيْءٌ وَاحِدٌ»^(١).

من تعبير (يكمل العقل) الوارد في الحديث المنقول عن الإمام الحسين عليه السلام يتأتى لنا أن العقل وإن امتلك قوة للكمال والتكامل والازدهار، لكنه في بداية خلقته كان لم يُمس بعد، ومن ثم يترقى وتبدأ استعداداته بالتفتق بمرور الزمان لبلوغ الكمال.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«الْعَقْلُ غَرِيزَةٌ تَزِيدُ بِالْعِلْمِ وَالتَّجَارِبِ»^(٢).

وروي عنه أيضاً أنه قال:

«بِتْرِكِ مَا لَا يَعْنِيكَ يَتِمُّ لَكَ الْعَقْلُ»^(٣).

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله بهذا الشأن:

«كَثْرَةُ النَّظَرِ فِي الْعِلْمِ يَفْتَحُ الْعَقْلَ»^(٤).

إمكان بلوغ العقل للكمال

يستنتج من الحديث المتقدم للإمام الحسين عليه السلام إمكانية وصول العقل إلى كماله المنشود حينما تتوفر الشروط اللازمة لتحقيق ذلك.

فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«قَسَمَ اللَّهُ الْعَقْلَ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ، فَمَنْ كُنَّ فِيهِ كَمَلُ عَقْلِهِ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ فَلَا عَقْلَ لَهُ:

حُسْنُ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ، وَحُسْنُ الطَّاعَةِ لِلَّهِ، وَحُسْنُ الصَّبْرِ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ»^(٥).

(١) الحلواني، الحسين بن محمد، نزهة الناظر وتنبية الخاطر: ص ٨٣، حديث ١٢.

(٢) الأمدى، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٩١، حديث ١٧٤٦.

(٣) المصدر السابق: ص ٣٠٢، حديث ١١٣.

(٤) قطب الدين الراوندي، سعيد بن هبة الله، الدعوات: ص ٢٢١، حديث ٦٠٣.

(٥) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٥٤.

وقال الإمام الصادق عليه السلام بهذا الخصوص:
«كَمَالَ الْعَقْلِ فِي ثَلَاثَةٍ: التَّوَاضُّعِ لِلَّهِ، وَحُسْنِ الْيَقِينِ، وَالصَّمْتِ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ»^(١).

السبيل الوحيد لكمال العقل

ما يبدو من الاستثناء الوارد في الحديث السابق عن الإمام الحسين عليه السلام أن السبيل الوحيد لوصول عقل الإنسان إلى كماله، هو أتباعه للحق.

وهذا ما أكدته قول الإمام علي عليه السلام:

«إِنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ كَانَ الْعَمَلُ بِالْحَقِّ أَحَبَّ إِلَيْهِ، وَإِنْ نَقَصَهُ وَكَرَّهَتْهُ مِنَ الْبَاطِلِ، وَإِنْ جَرَّ إِلَيْهِ فَائِدَةٌ وَزَادَتْ»^(٢).

دور العمل في تكامل عقل الإنسان

ومن الحديث الأخير الذي نقله الحلواني عن الإمام الحسين عليه السلام نرى أن العمل بالحق وأتباعه مؤثر جداً في ازدهار وبلوغ عقل الإنسان كماله.

يشهد له ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام من أنه قال:

«كَمَالَ الْعَقْلِ فِي ثَلَاثَةٍ: التَّوَاضُّعِ لِلَّهِ، وَحُسْنِ الْيَقِينِ، وَالصَّمْتِ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ»^(٣).

نقصان عقول أتباع الباطل

ومن الحديث المتقدم عن الإمام الحسين عليه السلام نستنتج نقصان عقل أتباع الباطل، وبعبارة أخرى: أن أتباع الباطل لا يمكنهم تنمية عقولهم والوصول بها إلى العقل بالفعل فتظل ضعيفة.

(١) المفيد، محمد بن محمد، الاختصاص: ص ٢٤٤.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ١٢٥.

(٣) المفيد، محمد بن محمد، الاختصاص: ص ٢٤٤.

فقد روي عن الإمام علي عليه السلام أنه قال:

«إِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ دَلِيلٌ عَلَى ضَعْفِ عَقْلِهِ»^(١).

وعن الإمام الباقر عليه السلام روي قوله:

«مَا دَخَلَ قَلْبٌ أَمْرِي شَيْءٌ مِنَ الْكِبْرِ إِلَّا نَقَصَ مِنْ عَقْلِهِ مِثْلَ مَا دَخَلَهُ مِنْ ذَلِكَ قَلٌّ أَوْ كَثْرٌ»^(٢).

من علامات الحمق

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال:

يَا أَهْلَ لَدَّةٍ دُنْيَا لَا بَقَاءَ لَهَا إِنَّ اغْتِرَارًا بِظِلِّ زَائِلٍ مُحْمَقٌ^(٣).

يتضح من بيت الشعر هذا أنّ من علامات الحمق والحرق الاغترار بهذه الدنيا والتعلق بها والغفلة عن سرعة زوالها وانقضائها.

فعن الإمام علي عليه السلام نقل أنه قال:

«فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا دَارٌ بِالْبَلَاءِ مُحْفُوفَةٌ وَبِالْعَنَاءِ مَعْرُوفَةٌ وَبِالْغَدْرِ مَوْصُوفَةٌ وَكُلُّ مَا فِيهَا إِلَى زَوَالٍ»^(٤).

من علامات العقلاء

في نقله لواقعة طويلة ذكر ابن شهر آشوب أنّ:

«عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ عُمَيْرٍ وَالْحَاكِمُ وَالْعَبَّاسُ قَالُوا: خَطَبَ الْحَسَنُ عَائِشَةَ بِنْتَ عُمَيْرَانَ،

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٢٧، حديث ٣١.

(٢) الإرزبلي، علي بن عيسى، كشف الغمة في معرفة الأئمة: ج ٢، ص ١٤٧.

(٣) ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب عليهم السلام: ج ٤، ص ٦٩.

(٤) المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: ج ٧٠،

فَقَالَ مَرْوَانُ: أَرَوَّجُهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنِ الرَّبِيعِ، ثُمَّ إِنَّ مُعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَى مَرْوَانَ وَهُوَ عَامِلُهُ عَلَى الْحِجَازِ يَأْمُرُهُ أَنْ يُحْطَبَ أُمُّ كَلْثُومٍ بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ لِابْنِهِ يَزِيدَ، فَأَبَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: إِنَّ أَمْرَهَا لَيْسَ إِلَيَّ إِنَّمَا هُوَ إِلَى سَيِّدِنَا الْحَسَنِ وَهُوَ خَالُهَا، فَأَخْبَرَ الْحَسِنُ بِذَلِكَ فَقَالَ: أَسْتَحِيرُ اللَّهَ تَعَالَى، اللَّهُمَّ وَفَّقْ لِهَذِهِ الْجَارِيَةِ رِضَاكَ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ، فَلَمَّا اجْتَمَعَ النَّاسُ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ أَقْبَلَ مَرْوَانُ حَتَّى جَلَسَ إِلَى الْحَسَنِ عليه السلام وَعِنْدَهُ مِنَ الْجَلَّةِ وَقَالَ: إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمَرَنِي بِذَلِكَ وَأَنْ أَجْعَلَ مَهْرَهَا حُكْمَ أَبِيهَا بِالْغَا مَا بَلَغَ مَعَ صَلَاحِ مَا بَيْنَ هَذَيْنِ الْحَيِّينِ مَعَ قَضَاءِ دَيْنِهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَنْ يَغْبِطُكُمْ بِيَزِيدَ أَكْثَرَ مِمَّنْ يَغْبِطُهُ بِكُمْ، وَالْعَجَبُ كَيْفَ يَسْتَمَهِّرُ يَزِيدَ وَهُوَ كُفُوٌّ مَنْ لَا كُفُوَّ لَهُ، وَبِوَجْهِهِ يُسْتَسْقَى الْعِغَامُ، فَرَدَّ خَيْرًا يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ.

فَقَالَ الْحَسِنُ عليه السلام: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي اخْتَارَنَا لِنَفْسِهِ وَارْتَضَانَا لِدِينِهِ وَاصْطَفَانَا عَلَى خَلْقِهِ، إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مَرْوَانُ، قَدْ قُلْتَ فَسَمِعْنَا، وَأَمَّا قَوْلُكَ: مَهْرُهَا حُكْمُ أَبِيهَا بِالْغَا مَا بَلَغَ، فَلَعَمْرِي لَوْ أَرَدْنَا ذَلِكَ مَا عَدَوْنَا سُنَّةَ رَسُولِ اللَّهِ فِي بَنَاتِهِ وَنَسَائِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ اثْنَتَا عَشْرَةَ أَوْ قِيَّةً يَكُونُ أَرْبَعِمِائَةٍ وَثَمَانِينَ دِرْهَمًا، وَأَمَّا قَوْلُكَ: مَعَ قَضَاءِ دَيْنِ أَبِيهَا، فَمَتَى كُنَّ نِسَاؤُنَا يَقْضِينَ عَنَّا دُيُونَنَا؟! وَأَمَّا صَلَاحِ مَا بَيْنَ هَذَيْنِ الْحَيِّينِ، فَإِنَّا قَوْمٌ عَادِينَاكُمْ فِي اللَّهِ وَلَمْ نَكُنْ نَصَاحِيكُمْ لِلدُّنْيَا، فَلَعَمْرِي فَلَقَدْ أَعْيَى النَّسَبُ فَكَيْفَ السَّبَبُ، وَأَمَّا قَوْلُكَ: الْعَجَبُ لِيَزِيدَ كَيْفَ يَسْتَمَهِّرُ، فَقَدْ اسْتَمَهَّرَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْ يَزِيدَ وَمَنْ أَبِ يَزِيدَ وَمَنْ جَدُّ يَزِيدَ، وَأَمَّا قَوْلُكَ: إِنَّ يَزِيدَ كُفُوٌّ مَنْ لَا كُفُوَّ لَهُ، فَمَنْ كَانَ كُفُوَّهُ قَبْلَ الْيَوْمِ فَهُوَ كُفُوُّ الْيَوْمِ مَا زَادَتْهُ إِمَارَتُهُ فِي الْكِفَاءَةِ شَيْئًا، وَأَمَّا قَوْلُكَ: بِوَجْهِهِ يُسْتَسْقَى الْعِغَامُ، فَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ بِوَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم، وَأَمَّا قَوْلُكَ: مَنْ يَغْبِطُنَا بِهِ أَكْثَرَ مِمَّنْ يَغْبِطُنَا، فَإِنَّمَا يَغْبِطُنَا بِهِ أَهْلُ الْجَهْلِ وَيَغْبِطُهُ بَنَاءُ أَهْلِ الْعَقْلِ. ثُمَّ قَالَ بَعْدَ كَلَامٍ: فَاشْهَدُوا جَمِيعًا أَيُّ قَدْ زَوَّجْتُ أُمَّ كَلْثُومٍ بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ مِنْ ابْنِ عَمَّتِهَا الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرٍ عَلَى أَرْبَعِمِائَةٍ وَثَمَانِينَ دِرْهَمًا وَقَدْ نَحَلْتَهَا صَيِّعَتِي بِالْمَدِينَةِ، أَوْ قَالَ: أَرْضِي بِالْعَقِيقِ، وَإِنَّ غَلَّتَهَا

فِي السَّنَةِ ثَمَانِيَةَ آلَافٍ دِينَارٍ، فَفِيهَا لَهُمَا غِنَى إِنْ شَاءَ اللَّهُ»^(١).

بناء على ملاحظة جملة «وَيَغْبِطُهُ بِنَا أَهْلُ الْعَقْلِ» نتوصل إلى أن العقلاء يغبطون من يتسبب لأولياء الله بلحاظ إمكانية الاستفادة من علومهم وفتحاتهم الروحية. وحول شرف الانتساب للنبي صلى الله عليه وآله قال الإمام السجاد عليه السلام في الدعاء الرابع والعشرين من الصحيفة السجادية:

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ كَمَا شَرَّفْتَنَا بِهِ، وَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ كَمَا أَوْجَبْتَ لَنَا الْحَقَّ عَلَى الْخَلْقِ بِسَبَبِهِ»^(٢).

لزوم الجمع بين العقل والحلم

ذكر الخوارزمي في كتابه (مقتل الحسين):

«وَرُوِيَ: أَنَّ أَعْرَابِيًّا مِنْ الْبَادِيَةِ قَصَدَ الْحُسَيْنَ عليه السلام فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَقَالَ: يَا أَعْرَابِي، فِيمَ قَصَدْتَنَا؟ قَالَ: قَصَدْتُكَ فِي دِيَةِ مُسَلِّمَةٍ إِلَى أَهْلِهَا، قَالَ: أَقْصَدْتَ أَحَدًا قَيْلِي؟ قَالَ: عُتْبَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، فَأَعْطَانِي خَمْسِينَ دِينَارًا فَرَدَدْتُهَا عَلَيْهِ، وَقُلْتُ: لَا أَقْصِدَنَّ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ وَأَكْرَمُ. فَقَالَ عُتْبَةُ: وَمَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي وَأَكْرَمُ لَا أُمَّ لَكَ؟ فَقُلْتُ: إِمَّا الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ وَإِمَّا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَعْفَرٍ، وَقَدْ أَتَيْتُكَ بَدَأًا لِتُقِيمَ بِهَا عُمُودَ ظَهْرِي، وَتَرُدَّنِي إِلَى أَهْلِي.

فَقَالَ الْحُسَيْنُ: وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، وَتَحَلَّى بِالْعِظَمَةِ، مَا فِي مَلِكِ ابْنِ بَنْتِ نَبِيِّكَ إِلَّا مَائَتًا دِينَارٍ فَأَعْطِهِ إِيَّاهَا يَا غَلامُ، وَإِنِّي أَسْأَلُكَ عَنْ ثَلَاثِ خِصَالٍ إِنْ أَنْتَ أَحْبَبْتَنِي عَنْهَا أَتَمَمْتَهَا خَمْسِيئةَ دِينَارٍ، وَإِنْ لَمْ تُحِبَّنِي أَلْحَقْتُكَ فِيمَنْ كَانَ قَيْلِي. فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: أَكُلُّ ذَلِكَ احْتِيَاجًا إِلَى عِلْمِي، أَنْتُمْ أَهْلُ بَيْتِ النَّبُوَّةِ، وَمَعْدِنُ الرَّسَالَةِ، وَتُخْتَلَفُ الْمَلَائِكَةُ؟

(١) ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب عليهم السلام: ج ٤، ص ٣٨-٣٩.

(٢) الصحيفة السجادية: ص ١١٦.

فَقَالَ الْحَسِينُ: لَا، وَلَكِنْ سَمِعْتُ جَدِّي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (أَعْطُوا الْمَعْرُوفَ بِقَدْرِ الْمَعْرِفَةِ)، فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: فَسَلْ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

فَقَالَ الْحَسِينُ: مَا أَنْجَى مَنْ الْهَلَكَةِ؟ فَقَالَ: التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ، فَقَالَ: مَا أَرْوَحُ لِلْمِهِمِّ؟ قَالَ: الثَّقَةُ بِاللَّهِ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ خَيْرٌ لِلْعَبْدِ فِي حَيَاتِهِ؟ قَالَ: عَقْلٌ يَزِينُهُ حِلْمٌ، فَقَالَ: فَإِنْ خَانَ ذَلِكَ؟ قَالَ: مَا لِي يَزِينُهُ سَخَاءٌ وَسَعَةٌ، فَقَالَ: فَإِنْ أَخْطَأَهُ ذَلِكَ؟ قَالَ: الْمَوْتُ وَالْفَنَاءُ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْحَيَاةِ وَالْبَقَاءِ، قَالَ: فَتَأَوَّلَهُ الْحَسِينُ خَائِئُهُ، وَقَالَ: بَعُهُ بِبِئَاتِهِ دِينَارٍ، وَتَأَوَّلَهُ سَيْفُهُ، وَقَالَ: بَعُهُ بِبِئَاتِي دِينَارٍ، وَادَّهَبَ فَقَدْ أَمَّمْتُ لَكَ خَمْسِمِائَةَ دِينَارٍ^(١).

لو أننا نتأمل سؤال الإمام للأعرابي «أَيُّ شَيْءٍ خَيْرٌ لِلْعَبْدِ فِي حَيَاتِهِ؟» وإجابة الأعرابي بامتلاك الإنسان عقل يزينه حلم، مع ضم إقرار الإمام له على تلك الإجابة، لأدركنا حينها ضرورة الجمع بين العلم والحلم.

فقد نقل عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«رَأْسُ الْعَقْلِ بَعْدَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ مَدَارَةُ النَّاسِ فِي غَيْرِ تَرْكِ حَقٍّ»^(٢).

ونقل عن الإمام علي عليه السلام قوله:

«الْحِلْمُ غَطَاءٌ سَاتِرٌ، وَالْعَقْلُ حُسَامٌ قَاطِعٌ، فَاسْتُرْ خَلَلَ خُلُقِكَ بِحِلْمِكَ، وَقَاتِلْ

هَوَاكَ بِعَقْلِكَ»^(٣).

زينة العقل

نظراً لتأييد وإقرار الإمام للعبارة الواردة في الرواية المتقدمة عن الإمام الحسين عليه السلام «عَقْلٌ يَزِينُهُ حِلْمٌ» التي نطق بها الأعرابي في مقام الإجابة عن سؤال

(١) أخطب خوارزم، الموفق بن أحمد، مقتل الحسين عليه السلام: ج ١، ص ٢٢٤-٢٢٥.

(٢) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٤٢.

(٣) نهج البلاغة، الكلمات القصار: ص ٤٢٤.

الإمام نتوصل إلى نتيجة مفادها أن زينة العقل بالحلم.

ويدل عليه كذلك قول الإمام علي عليه السلام:

«مِنْ أَحْسَنِ الْعَقْلِ التَّحَلِّي بِالْحَلْمِ»^(١).

أنواع الزينة

يمكننا من خلال الرجوع للرواية السابقة للإمام الحسين عليه السلام، والتركيز على عبارة «عَقْلٌ يَزِينُهُ حِلْمٌ» التوصل إلى وجود نوعين من الزينة: إحداها معنوية وهي التي أقرها الإمام، والأخرى مادية.

وقد أشار القرآن الكريم إلى النوعين:

فبخصوص الزينة الظاهرية أو المادية يقول جل وعلا:

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(٢).

وفي الزينة المعنوية أو الباطنية يقول رب الجلالة:

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾^(٣).

علامة العقل

روى البرقي بسنده:

«سُئِلَ الْحَسِينُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام عَنِ الْعَقْلِ، قَالَ: التَّجَرُّعُ لِلْغُصَّةِ وَمُدَاهَنَةُ الْأَعْدَاءِ»^(٤).

وكلمة «المداهنة» تعني المداراة، ومن معطيات هذا الحديث يفهم أن علامة

العقل شيئان:

(١) الأمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٦٧٦، حديث ٩٠.

(٢) الكهف: آية ٤٦.

(٣) الحجرات: آية ٧.

(٤) البرقي، أحمد بن محمد، المحاسن: ج ١، ص ١٩٥، حديث ١٨.

١- التجرع للغصص.

فقد روى الصدوق بسنده:

«سُئِلَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقِيلَ لَهُ: مَا الْعَقْلُ؟ فَقَالَ: التَّجْرَعُ لِلْغُصَّةِ حَتَّى تُنَالَ الْفُرْصَةَ»^(١).

وفي بيانه للحديث هذا قال العلامة المجلسي:

«الغصة بالضم: ما يعترض في الحلق وتعسر إساغته، ويطلق مجازاً على الشدائد التي يشق على الإنسان تحملها وهو المراد هنا. وتجرعه كناية عن تحمله وعدم القيام بالانتقام به وتداركه حتى تنال الفرصة، فإن التدارك قبل ذلك لا ينفع سوى الفضيحة وشدّة البلاء وكثرة الهم»^(٢).

٢- مداراة الأعداء.

وهذا ما جاء في رواية عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال فيها:

«أَعْقَلُ النَّاسِ أَشَدُّهُمْ مَدَارَاةً لِلنَّاسِ»^(٣).

عقلانية بعض القوانين الدينيّة

ذكر البلاذري في كتابه:

«قَالُوا: ثُمَّ إِنَّ شِمْرَ بْنَ ذِي الْجَوْشَنِ أَقْبَلَ فِي عَشْرَةِ أَوْ نَحْوِهِمْ مِنْ رِجَالِ أَهْلِ الْكُوفَةِ قَبْلَ مَنْزِلِ الْحَسَنِ الَّذِي فِيهِ ثِقْلُهُ وَعِيَالُهُ، فَمَسَى نَحْوَهُمْ فَحَالُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَحْلِهِ، فَقَالَ لَهُمْ: وَيُحْكُمُ! إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ دِينٌ فَكُونُوا فِي أَمْرِ دُنْيَاكُمْ أَحْرَارًا، ائْتَعُوا أَهْلِي مِنْ طُعْمَانِكُمْ وَسُقْمَانِكُمْ»^(٤).

(١) ابن بابويه، محمد بن علي، معاني الأخبار: ص ٢٤٠، حديث ١.

(٢) المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: ج ١، ص ١١٦، حديث ٩.

(٣) ابن بابويه، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه: ج ٤، ص ٣٩٥.

(٤) البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج ٣، ص ٤٠٧.

ومن ملاحظة جملة «إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ دِينٌ فَكُونُوا فِي أَمْرِ دُنْيَاكُمْ أَحْرَارًا» يمكن الخروج بنتيجة مفادها أن هناك قوانين دنيوية تظهر على شكل عادات وتقاليد منسجمة مع العقل، وإذا أعمل الإنسان عقله فإنه يستطيع تشخيص ما هو حسن منها وما هو سيئ، كما أنه يتمكن من تعيين طريق الحق والسير عليه، وتجنب القبيح من الأعمال كحالات التعرض للنساء والأطفال حين اندلاع الحروب.

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«إِنَّمَا يُدْرِكُ الْخَيْرُ كُلَّهُ بِالْعَقْلِ وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَقْلَ لَهُ»^(١).

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله:

«فَبِالْعَقْلِ عَرَفَ الْعِبَادُ خَالِقَهُمْ... وَعَرَفُوا بِهِ الْحَسَنَ مِنَ الْقَبِيحِ»^(٢).

معرفة ذوي العقول للحق

نقل ابن عربي في كتابه كلاماً للإمام الحسين عليه السلام:

«اِفْتَحَرَ الْحُسَيْنُ عليه السلام يَوْمًا فِي مَجْلِسٍ مُعَاوِيَةَ فِي كَلَامٍ جَرَى، صَرَبْنَا عَنْ ذِكْرِهِ؛ لِأَنَّا قَدْ عَزَمْنَا أَنْ لَا نَذْكُرَ مَا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ مِنْ قَبِيحِ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، لِمَا يَخْضُلُ فِي الْقُلُوبِ الضَّعِيفَةِ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ الْحُسَيْنُ: أَنَا ابْنُ مَاءِ السَّمَاءِ، وَعُرُوقِ الثَّرَى، أَنَا ابْنُ مَنْ سَادَ أَهْلَ الدُّنْيَا بِالْحَسَبِ الثَّاقِبِ، وَالشَّرَفِ الْفَاتِقِ، وَالْقَدِيمِ السَّابِقِ، أَنَا ابْنُ مَنْ رَضَاهُ رَضَى الرَّحْمَنُ، وَسَخَطُهُ سَخَطُ الرَّحْمَنِ، ثُمَّ رَدَّ وَجْهَهُ لِلْخِضْمِ فَقَالَ لَهُ: هَلْ لَكَ أَبٌ كَأَبِي أَوْ قَدِيمٌ كَقَدِيمِي؟ فَإِنْ قُلْتَ: لَا، تُغْلَبُ، وَإِنْ قُلْتَ: نَعَمْ، تُكذَّبُ، فَقَالَ الْخِضْمُ: لَا، تَصْدِيقًا لِقَوْلِكَ. فَقَالَ الْحُسَيْنُ عليه السلام: الْحَقُّ أَبْلَجُ لَا يَزِيغُ سَبِيلَهُ، وَالْحَقُّ يَعْرِفُهُ دَوُو الْأَلْبَابِ»^(٣).

(١) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٥٤.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٢٩، حديث ٣٥.

(٣) ابن عربي، محمد بن علي، محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار في الأدبيات وال نوادر والأخبار: ج ١،

لا يساور أحد الشك في أنّ جملة «وَالْحَقُّ يَعْرِفُهُ ذَوُو الْأَلْبَابِ» تستعرض لنا علامة من علامات ذوي العقول والنهى وهي معرفتهم الحق وتشخيصه.
روي عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال:
«كَفَاكَ مِنْ عَقْلِكَ مَا أَوْضَحَ لَكَ سُبُلَ غَيْبِكَ مِنْ رُشْدِكَ»^(١).

إمكانية بلوغ الحق بواسطة العقل

تدل الجملة المتقدمة في حديث الإمام الحسين عليه السلام «وَالْحَقُّ يَعْرِفُهُ ذَوُو الْأَلْبَابِ» على أنّ العقل بإمكانه معرفة الحق والوصول إليه.
ويؤيده ما روي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من قوله:
«كَيْسَتْ [الرُّؤْيِيَّةُ] الرُّؤْيِيَّةُ كَالْمَعَايِنَةِ مَعَ الْإِبْصَارِ، فَقَدْ تَكْذِبُ الْعُيُونُ أَهْلَهَا، وَلَا يَغُشُّ الْعَقْلُ مَنِ اسْتَنْصَحَهُ»^(٢).

العاقل أهل للعمل

نقل المتقي الهندي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام ونصها:
«عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ خَاتَمَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَانَ مِنْ وَرِقٍ نَقَشَهُ نَعَمُ الْقَادِرُ اللَّهُ، وَكَانَ خَاتَمُ الْحُسَيْنِ عَقَلَتْ فَأَعْمَلُ»^(٣).
حيث تدل جملة «عَقَلَتْ فَأَعْمَلُ» على أنّ الإنسان العاقل من أهل العمل، أي أنّه متى ما عقل الشيء سعى للعمل به.

(١) نهج البلاغة: كلام قصار ٤٢١.

(٢) نهج البلاغة: كلام قصار ٢٨١.

(٣) المتقي الهندي، علي بن حسام الدين، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: ج ٦، ص ٦٨٦، حديث ١٧٤٠٩.

وقال ابن عمر بخصوص النبي صلى الله عليه وآله:

«أَنَّهُ تَلَا: ﴿تَبَرَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾^(١) حَتَّى بَلَغَ قَوْلَهُ: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(٢)، ثُمَّ قَالَ: أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا فَهُوَ أَحْسَنُ عَقْلاً، وَأَوْرَعُ عَنِ مَحَارِمِ اللَّهِ، وَأَسْرَعُهُمْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى»^(٣).

وعن الإمام علي عليه السلام أنه قال:

«الْعَاقِلُ مَنْ صَدَّقَتْ أَقْوَالَهُ أَفْعَالُهُ»^(٤).

المدافعة في حساب العاقل

نستنتج من الجملة «عَقَلْتَ فَاعْمَلْ» أنّ العاقل ستتمّ مساءلته عن جميع أعماله حتى الحسنة منها.

ويدل عليه قول الإمام الباقر عليه السلام:

«إِنَّمَا يُدَاقُّ اللَّهُ الْعِبَادَ فِي الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَدْرِ مَا آتَاهُمْ مِنَ الْعُقُولِ فِي الدُّنْيَا»^(٥).

العقل حجة باطنية

ومن الجملة ذاتها «عَقَلْتَ فَاعْمَلْ» نستنتج ما مفاده أنّ العقل حجة باطنية.

قال الإمام الكاظم عليه السلام مخاطباً هشام:

«يَا هِشَامُ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى النَّاسِ حُجَّتَيْنِ: حُجَّةٌ ظَاهِرَةٌ وَحُجَّةٌ بَاطِنَةٌ، فَأَمَّا الظَّاهِرَةُ فَالرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالْأئِمَّةُ عليهم السلام، وَأَمَّا البَاطِنَةُ فَالْعُقُولُ»^(٦).

(١) الملك: آية ١.

(٢) هود: آية ٧.

(٣) الناطق بالحق، يحيى بن الحسين، تيسير المطالب في أمالي أبي طالب: ص ٥١١، حديث ٦٨٨.

(٤) الأمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٧٤، حديث ١٤٢٩.

(٥) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ١١، حديث ٧.

(٦) المصدر السابق: ج ١، ص ١٦، حديث ١٢.

من علامات العقل

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال:
«الرَّفْقُ لُبٌّ»^(١).

تدل هذه الجملة على أن للعقل واللب علائم ومن بينها مداراة الناس والرفق بهم، ووجودها عند أي شخص فيه دلالة على عقله ولبه وحكمته.
قال الإمام الصادق عليه السلام:

«يَا هِشَامُ، عَلَيْكَ بِالرَّفْقِ، فَإِنَّ الرَّفْقَ يُمْنٌ وَالخَرْقَ سُؤْمٌ، إِنَّ الرَّفْقَ وَالْبِرَّ وَحُسْنَ الخَلْقِ يَعْمُرُ الدِّيَارَ وَيَزِيدُ فِي الرِّزْقِ»^(٢).

الحسن والتقبح العقليان

شغلت قاعدة التحسين والتقبيح العقليين الكثير من المفكرين من أقدم العصور إلى يومنا هذا، إذ قلما يتفق أن يخوض باحث في العلوم الإنسانية دون أن يُشير إليها، لعلاقتها بعلم الكلام والأخلاق، والفقه وأصوله، وبما أن الحديث هنا عما ورد في كلمات الإمام الحسين عليه السلام بهذا الصدد سنقوم بذكر أقوال سيّد الشهداء عليه السلام التي فيها دلالة على ذلك.

حيث ذكر ابن سعد في طبقاته:

«ثُمَّ قَالَ حُسَيْنٌ لِعُمَرَ وَأَصْحَابِهِ: لَا تَعْجَلُوا حَتَّى أُخْبِرَكُمْ خَبْرِي، وَاللَّهِ مَا أَتَيْتُكُمْ حَتَّى أَتَنِّي كُتُبُ أَمَائِلِكُمْ، بَأَنَّ السُّنَّةَ قَدْ أُمِيتَتْ وَالنِّفَاقَ قَدْ نَجَمَ وَالْحُدُودَ قَدْ عَطَلْتُ، فَأَقْدِمْ لَعَلَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُصْلِحَ بِكَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَأَتَيْتُكُمْ، فَإِذَا كَرِهْتُمْ ذَلِكَ فَنَا رَاجِعٌ عَنْكُمْ، وَارْجِعُوا إِلَى أَنْفُسِكُمْ فَاَنْظُرُوا هَلْ يُصْلِحُ لَكُمْ قَتْلِي أَوْ

(١) اليعقوبي، أحمد بن إسحاق، تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ٢٤٦.

(٢) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٣٩٥.

يَحِلُّ لَكُمْ دَمِي؟! أَلَسْتُ ابْنَ بِنْتِ نَبِيِّكُمْ وَابْنَ ابْنِ عَمِّهِ وَابْنَ أَوَّلِ الْمُؤْمِنِينَ إِيْمَانًا؟! أَوْلَيْسَ حَمْرَةَ وَالْعَبَّاسَ وَجَعْفَرَ عُمُومِي؟! أَوْلَمْ يَبْلُغْكُمْ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فِيَّ وَفِي أَخِي: هَذَا ابْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟! فَإِنْ صَدَقْتُمُونِي وَإِلَّا فَاسْأَلُوا جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ وَأَبَا سَعِيدِ الْخَدْرِيِّ وَأَنْسَ بْنَ مَالِكٍ وَزَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ.

فَقَالَ شِمْرُ بْنُ ذِي الْجَوْشَنِ: هُوَ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ إِنْ كَانَ يَدْرِي مَا تَقُولُ^(١).

إنّ عبارة «هَلْ يَصْلُحُ لَكُمْ قَتْلِي...» التي ترشد إلى حكم العقل العملي القطعي تدل في الوقت ذاته على واحد من أحكام العقل العملي والوجداني الثابتة ومدركاته البيّنة وهو قبح قتل من جاء لهداية الناس وإرشادهم بعدما دعوه وأعلنوا نصرتهم له.

ومن الخطاب الذي وجهه الإمام الحسين عليه السلام لمعسكر عمر بن سعد الذي قال فيه: «أَمَّا بَعْدُ، فَانْظُرُوا مَنْ أَنَا، ثُمَّ ارْجِعُوا إِلَى أَنْفُسِكُمْ وَعَايِبُوا، فَانظُرُوا هَلْ يَحِلُّ لَكُمْ قَتْلِي وَأَنْتَهَاكُ حُرْمَتِي؟! أَلَسْتُ ابْنَ بِنْتِ نَبِيِّكُمْ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَابْنَ وَصِيِّهِ وَابْنَ عَمِّهِ، وَأَوَّلِ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَالْمَصْدَقِ لِرَسُولِهِ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ؟! أَوْلَيْسَ حَمْرَةَ سَيِّدِ الشُّهَدَاءِ عَمِّ أَبِي؟! أَوْلَيْسَ جَعْفَرُ الشَّهِيدِ الطَّيَّارُ ذُو الْجَنَاحَيْنِ عَمِّي؟!»^(٢).

يتبين أنّ العقل يستطيع إدراك حسن وقبح الأعمال بصورة مستقلة من قوله: «فَانظُرُوا مَنْ أَنَا».

وقد ذكر الذهبي في كتابه أعلام النبلاء جانباً من كلام الإمام:

«وَقَالَ لِعُمَرَ وَجُنْدِهِ: لَا تَعْجَلُوا، وَاللَّهِ مَا أَتَيْتُمْ حَتَّى أَتَنِّي كُتُبُ أَمَائِكُمْ، بَأَنَّ السُّنَّةَ قَدْ أُمِيتَتْ وَالنَّفَاقَ قَدْ نَجَمَ وَالْحُدُودَ قَدْ عَطَلْتَ، فَأَقْدِمْ لَعَلَّ اللَّهَ يُصَلِّحُ بِكَ الْأُمَّةَ فَأَتَيْتُ، فَإِذْ كَرِهْتُمْ ذَلِكَ فَأَنَا رَاجِعٌ، فَارْجِعُوا إِلَى أَنْفُسِكُمْ هَلْ يَصْلُحُ لَكُمْ قَتْلِي أَوْ يَحِلُّ

(١) ابن سعد، محمد بن سعد، الطبقات الكبرى: الطبقة الخامسة من الصحابة: ج (١)،

ص ٤٦٨-٤٦٩.

(٢) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٥، ص ٤٢٤-٤٢٥.

دَمِي؟! أَلَسْتُ ابْنَ ابْنَتِ نَبِيِّكُمْ وَأَبْنَ ابْنِ عَمِّهِ؟! أَوْلَيْسَ حَمْرَةً وَالْعَبَّاسُ وَجَعْفَرٌ
عُمُومَتِي؟! أَلَمْ يَبْلُغْكُمْ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فِيَّ وَفِي أَخِي: (هَذَا نَسِيدَا
شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ)؟! ^(١)

فَقَالَ شَمْرٌ: هُوَ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ إِنْ كَانَ يَدْرِي مَا يَقُولُ.

فَقَالَ عُمَرُ: لَوْ كَانَ أَمْرُكَ إِلَيَّ لَأَجَبْتُ.

وَقَالَ الْحُسَيْنُ: يَا عُمَرُ، لِيَكُونَنَّ لِمَا تَرَى يَوْمَ يَسُوءُكَ، اللَّهُمَّ إِنَّ أَهْلَ الْعِرَاقِ عَرُوفِي
وَخَدَعُونِي وَصَنَعُوا بِأَخِي مَا صَنَعُوا، اللَّهُمَّ شَتَّتْ عَلَيْهِمُ أَمْرَهُمْ، وَأَحْصَيْهِمْ عَدَدًا» ^(١).

حيث يستفاد ذلك - الحسن والقبح العقليان - ضمناً من قوله: «فَارْجِعُوا إِلَى
أَنْفُسِكُمْ...».

وعبارة الإربلي جاءت هكذا:

«فَصَاحَ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَيُحْكُمُ يَا شَيْعَةَ الشَّيْطَانِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ دِينٌ وَلَا تَخَافُونَ
الْمَعَادَ فَكُونُوا أَحْرَارًا وَارْجِعُوا إِلَى أَنْسَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ أَعْرَابًا كَمَا تَزْعُمُونَ، أَنَا الَّذِي
أَقَاتِلُكُمْ فَكُفُّوا سَفْهَاءَكُمْ وَجَهَالَتَكُمْ عَنِ التَّعَرُّضِ لِحَرَمِي، فَإِنَّ النِّسَاءَ لَمْ يُقَاتِلْنَكُمْ» ^(٢).

وفيها جملة «...فَكُونُوا أَحْرَارًا...» الدالة ضمناً على قدرة عقل الإنسان على
إدراك وفهم بعض الأمور دون حاجة إلى الرجوع للشريعة والدين، كحصانة
الأطفال والنساء عند اندلاع الحروب.

لقد نقل أبو الفرج الإصفهاني عن أحد الرواة أنه:

«قَالَ: وَحَمَلْ شَمْرٌ - لَعَنَهُ اللَّهُ - عَلَى عَسْكَرِ الْحُسَيْنِ، فَجَاءَ إِلَى فُسْطَاطِهِ لِيُنْهَبَهُ، فَقَالَ
لَهُ الْحُسَيْنُ: وَيْلَكُمْ! إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ دِينٌ فَكُونُوا أَحْرَارًا فِي الدُّنْيَا، فَرَحِلِي لَكُمْ عَنْ سَاعَةِ
مُبَاحٍ! قَالَ: فَاسْتَحْيَا وَرَجَعَ» ^(٣).

(١) الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء: ج ٣، ص ٣٠١-٣٠٢.

(٢) الإربلي، علي بن عيسى، كشف الغمة في معرفة الأئمة: ج ٢، ص ٥٠-٥١.

(٣) أبو الفرج الإصفهاني، علي بن الحسين، مقاتل الطالبين: ص ١١٨.

وهذه الجملة «إِنَّ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ دِينٌ فَكُونُوا أَحْرَاراً فِي الدُّنْيَا» واضحة الدلالة على أنّ العقل بإمكانه إدراك الحسن والقبح الذاتيين في بعض الأمور دون دخالة الدين في إتمام تلك العملية العقلية.

وتشير هذه الجملة نفسها إلى أنّ أحد مدركات العقل العملي الامتناع عن الإغارة وتجنيبها، والمراد من العقل العملي ما ينبغي فعله وما لا ينبغي فعله ممّا يرتبط بفعل الإنسان، خلافاً للعقل النظري الذي يرتبط بالاستنتاجات النظرية.

وذكر البلاذري عن جماعة أئمتهم:

«قَالُوا: ثُمَّ إِنَّ شِمْرَ بْنَ ذِي الْجَوْشَنِ أَقْبَلَ فِي عَشْرَةٍ أَوْ نَحْوِهِمْ مِنْ رِجَالِ أَهْلِ الْكُوفَةِ قَبْلَ مَنَزِلِ الْحُسَيْنِ الَّذِي فِيهِ ثِقْلُهُ وَعِيَالُهُ، فَمَشَى نَحْوَهُمْ فَحَالُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَحْلِهِ، فَقَالَ لَهُمْ: وَيْحَكُمْ! إِنَّ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ دِينٌ فَكُونُوا فِي أَمْرِ دُنْيَاكُمْ أَحْرَاراً، ائْتَعُوا أَهْلِي مِنْ طُعْمَاكُمْ وَسُفْهَائِكُمْ»^(١).

وهنا جملة «إِنَّ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ دِينٌ فَكُونُوا فِي أَمْرِ دُنْيَاكُمْ أَحْرَاراً» دالة على أنّ العقل العملي يستطيع إدراك ما تكتنفه بعض الأمور من حسن أو قبح بصورة مستقلة من قبيل: تحرر الإنسان وشهامته، وعدم التعرّض للنساء والأطفال.

وذكر الطبري:

«قَالَ: وَحَمَلَ شِمْرُ بْنُ ذِي الْجَوْشَنِ حَتَّى طَعَنَ فُسْطَاطَ الْحُسَيْنِ بِرُجْحِهِ وَنَادَى: عَلَيَّ بِالنَّارِ حَتَّى أُحْرَقَ هَذَا الْبَيْتِ عَلَى أَهْلِهِ. قَالَ: فَصَاحَ النِّسَاءُ، وَخَرَجْنَ مِنَ الْفُسْطَاطِ. قَالَ: وَصَاحَ بِهِ الْحُسَيْنُ: يَا بَنَ ذِي الْجَوْشَنِ، أَنْتَ تَدْعُو بِالنَّارِ لِتُحْرَقَ بَيْتِي عَلَى أَهْلِي!؟ حَرَّقَكَ اللَّهُ بِالنَّارِ.»

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ: حَدَّثَنِي سُلَيْمَانُ بْنُ أَبِي رَاشِدٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ، قَالَ: قُلْتُ لِشِمْرٍ

(١) البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج ٣، ص ٤٠٧.

بن ذي الجوشن: سُبْحَانَ اللَّهِ! إِنَّ هَذَا لَا يَصْلُحُ لَكَ، أَتُرِيدُ أَنْ تَجْمَعَ عَلَى نَفْسِكَ خَصْلَتَيْنِ: تُعَذِّبُ بِعَذَابِ اللَّهِ، وَتَقْتُلُ الْوَلَدَانَ وَالنِّسَاءَ؟! وَاللَّهِ، إِنَّ فِي قَتْلِكَ الرَّجَالَ لَمَا تُرْضِي بِهِ أَمِيرَكَ.

قَالَ: فَقَالَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا أُخْبِرُكَ مِنْ أَنَا. قَالَ: وَخَشِيتُ وَاللَّهِ أَنْ لَوْ عَرَفَنِي أَنْ يَضُرَّنِي عِنْدَ السُّلْطَانِ.

قَالَ: فَجَاءَهُ رَجُلٌ كَانَ أَطْوَعَ لَهُ مِنِّي، سَبَّتُ بِنُ رُبْعِي، فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ مَقَالاً أَسْوَأَ مِنْ قَوْلِكَ، وَلَا مَوْقِفاً أَقْبَحَ مِنْ مَوْقِفِكَ، أَمْرِعِباً لِلنِّسَاءِ صَرْتٌ؟ قَالَ: فَأَشْهَدُ أَنَّهُ اسْتَحْيَا فَذَهَبَ لِيَصْرِفَ^(١).

لقد احتلت مسألة الحسن والقبح العقليين مكانة خاصة بين المسائل الأساسية والقواعد المهمة في علم الكلام؛ لأنها تمثل الأساس والقوام الرئيس لمسألة العدل الإلهي.

وقد دافع الإمامية والمعتزلة بقوة عن القول بالحسن والقبح العقليين، تبعاً لأهل البيت عليهم السلام الذين هم أئمة المعتقد بالنسبة للإمامية، إذ اعتبروا العقل حجة تامة في المسائل النظرية والعملية.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«فِي الْعَقْلِ عَرَفَ الْعِبَادُ خَالِقَهُمْ... وَعَرَفُوا بِهِ الْحَسَنَ مِنَ الْقَبِيحِ»^(٢).

وفصل الإمام الكاظم عليه السلام لهشام بن الحكم بقوله:

«يَا هِشَامُ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى النَّاسِ حُجَّتَيْنِ: حُجَّةٌ ظَاهِرَةٌ وَحُجَّةٌ بَاطِنَةٌ، فَأَمَّا الظَّاهِرَةُ فَالرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالْأئِمَّةُ عليهم السلام، وَأَمَّا الْبَاطِنَةُ فَالْعُقُولُ»^(٣).

(١) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٥، ص ٤٣٨.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٢٩، حديث ٣٥.

(٣) المصدر السابق: ج ١، ص ١٦، حديث ١٢.

كما صرح مشايخ المعتزلة بأنَّ جذور عقيدتهم في التوحيد والعدل تعود لكلمات الإمام علي عليه السلام^(١).

ويفسر العدلية (الإمامية والمعتزلة) العدل الإلهي على أساس قاعدة الحسن والقبح العقليين، فهم بحسب ما يذهبون إليه يقسمون الأفعال إلى قسمين: قسم من الأفعال - غير الأحكام الشرعية - حسن والقسم الآخر قبيح، ولعقل الإنسان أن يدرك حسن وقبح بعضها، فمن الأفعال الحسنة العدالة والصدق والوفاء بالعهد والأمانة، ومن الأفعال القبيحة نقض العهود والكذب وخيانة الأمانة. وطبقاً لما تقدّم يكون المقصود من العدل الإلهي: فعل الله جل وعلا للحسن وتنزّهه عن فعل القبيح.

وهذا الصدد قال الشيخ المفيد:

«العدل الحكيم هو الذي لا يفعل قبيحاً ولا يخل بواجب»^(٢).

وأوضح القاضي عبد الجبار المعتزلي رأيه في ذلك:

«ونحن إذا وصفنا القديم تعالى بأنه عدل حكيم، فالمراد به أنه لا يفعل القبيح أو

لا يختاره، ولا يخل بما هو واجب عليه، وأن أفعاله كلها حسنة»^(٣).

ولم يقف الأمر عند الإمامية والمعتزلة وحسب، فقد راح أتباع الماتريدية - وهم طائفة من أهل السنّة - إلى الإيثار بهذه القاعدة، وهي أن العقل قادر على إدراك حسن وقبح الأشياء دون توسط الشريعة^(٤).

(١) ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٧.

(٢) المفيد، محمد بن محمد، النكت الاعتقادية: ص ٣٢.

(٣) القاضي عبد الجبار بن أحمد، شرح الأصول الخمسة: ص ٢٠٣.

(٤) الآلوسي، محمود بن عبد الله، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: ج ٩، ص ١٩.

فقد قال التفتازاني:

«ذهب بعض أهل السنة وهم الحنفية إلى أنّ حسن بعض الأشياء وقبحها ممّا يدرك بالعقل كما هو رأي المعتزلة»^(١).

ووقف الأشاعرة في النقطة المقابلة وكانوا من أشدّ المخالفين والمنكرين للحسن والقبح العقليين؛ لاعتقادهم بأنّها من البدع المحدثّة في الإسلام. وقد ذكر ابن خلدون، الأشعري الذي نذر نفسه لفضح بدع المعتزلة وإداعتها وكان على رأس تلك البدع الاعتقاد بالحسن والقبح العقليين^(٢).

وبين هذا وذاك كان للقائلين بالحسن والقبح العقليين أدلة على مدعاهم، أقاموها في مظانها، وللفائدة نذكر أبرز ما استدلووا به على رأيهم:

١- لقد استدل المعتزلة على ذلك بقولهم:

«إنّ الحسن والقبح لو لم يكونا عقليين لجاز الكذب على الله وأنبيائه؛ لأنّ الكذب ليس قبيحاً في ذاته وإنّما صفة القبح ثبتت له بالشرع، وهذا باطل ويترتب عليه فساد الرسالات والأحكام»^(٣).

٢- الماتريدية - وهم من الأحناف - يستدلون على الحسن والقبح العقليين بقولهم:

«إنّ الحسن والقبح لو كانا شرعيين، ولم يكن ذلك وصفاً في الفعل، لكانت الصلاة والصوم والزنى والسرقه وغير ذلك أموراً متساوية قبل ورود الشرع، فجعل الشارع بعضها مأموراً به، والآخر منهيّاً عنه ترجيح لأحد المتساويين دون مرجح»^(٤).

(١) التفتازاني، مسعود بن عمر، شرح المقاصد: ج ٤، ص ٢٩٣.
(٢) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمّد، تاريخ ابن خلدون: ج ١، ص ٥٨٨.
(٣) مذكور، محمّد سلام، مباحث الحكم عند الأصوليين: ج ١، ص ١٧٣.
(٤) المصدر السابق: ج ١، ص ١٧٤.

٣- وأما المرحوم المظفر فقال بهذا الصدد:

«إنه من المسلم عند الطرفين وجوب طاعة الأوامر والنواهي الشرعية، وكذلك وجوب المعرفة، وهذا الوجوب عند الأشاعرة وجوب شرعي حسب دعواهم، فنقول لهم: من أين يثبت هذا الوجوب؟ لا بد أن يثبت بأمر من الشارع، فننقل الكلام إلى هذا الأمر، فنقول لهم: من أين تجب طاعة هذا الأمر؟ فإن كان هذا الوجوب عقلياً فهو المطلوب، وإن كان شرعياً أيضاً فلا بد له من أمر ولا بد له من طاعة فننقل الكلام إليه، وهكذا نمضي إلى غير النهاية، ولا نقف حتى ننتهي إلى طاعة وجوبها عقلي لا نتوقف على أمر الشارع، وهو المطلوب. بل ثبوت الشرائع من أصلها يتوقف على التحسين والتقيح العقليين، ولو كان ثبوتها من طريق شرعي لاستحال ثبوتها؛ لأننا ننقل الكلام إلى هذا الطريق الشرعي فيتسلسل إلى غير النهاية. والنتيجة: أن ثبوت الحسن والقبح شرعاً يتوقف على ثبوتها عقلاً»^(١).

إلى هنا كانت نظرية الشيعة والمعتزلة، أما الأشاعرة فذهبوا للقول:

«ليس للفعل نفسه حسن ولا قبح ذاتيان ولا لصفة توجبها، وإنما حسنه وروده الشرع بالإذن لنا فيه على سبيل الوجوب أو الندب أو الإباحة، وقبحه وروده بحظر من الشارع لنا منه على سبيل التحريم أو الكراهة، وإذا ورد الشرع بإطلاق الفعل لنا أو منعنا منه، فقلنا: إن ما أذن لنا فيه الشارع فحسن وما منعنا عنه فقبيح، فإن هذا الوصف بالنسبة لأفعال المكلفين ليس منشؤه العقل إنما منشؤه حكم الشارع، فمقياس الحسن والقبح عندهم هو الشرع لا العقل.

فالصلاة والصوم وأمثالهما مما أمر الله به حسن، وليس حسنه إلا من جهة أمر الشارع به فقط، والزنى والسرقه والقتل عدواناً بغير حق، وأكل أموال الناس بالباطل،

(١) المظفر، محمد رضا، أصول الفقه: ج ١، ص ٢٣٤.

كل ذلك قبيح لنهي الشارع عنه فقط، فلو لم يكن أمر الشارع بها أمر، ونهي الشارع عما نهى، لما كان حسناً أو قبيحاً^(١).

ولقد تمسكوا لإثبات ما ذهبوا إليه بمجموعة من الأدلة هي:

١- لو كان الحسن والقبح عقليين لوقع الاختلاف في الحكم على الأفعال بالحسن والقبح؛ لأن عقول الناس مختلفة في حكمها بحسن وقبح الأفعال المختلفة، بل نشاهد أحياناً أن العقل له حكمان على فعل واحد، فمرة يحكم عليه بالقبح وأخرى بالحسن^(٢).

وفيه: إن كانت عقول الناس غير متأثرة بالغايات والأهواء النفسية، فإنها حتماً لن تختلف في إطلاقها للأحكام، بيد أن هناك الكثير من القضايا قد انفقت عليها آراء العقلاء مثل: الأوليات كالكل أكبر من الجزء وإدراك حسن النظام وحسن الثبات والاستقامة في السلوك...

٢- إنَّ الحُسْنَ والقُبْحَ لو كانا عقليين لما تغيّرا، أي لما حَسُنَ القبيح ولما قُبِحَ الحسن، والتَّالِي باطل، فإنَّ الكذب مع قبحه لكنه قد يحسن أحياناً^(٣).

وفيه: إنَّ الاستدلال مبني على كون قُبْح الكذب وحُسْن الصدق، كقُبْح الظلم وحُسْن العدل، ذاتيين لا يتغيّران. إلا أن الأفعال بالنسبة إلى الحسن والقبح على أقسام، منها: ما يكون الفعل علّة تامّة لأحدهما، فلا يتغيّر حُسنه ولا قُبْحه بعروض العوارض كحُسْن الإحسان وقُبْح الإساءة، ومنها: ما يكون مقتضياً لأحدهما، فهو موجب للحسن لو لم يعرض عليه عنوان آخر، وهكذا في جانب القبح، وحُسْن الصّدق وقُبْح الكذب من هذا القبيل، ومنها: ما لا يكون علّة ولا مقتضياً لأحدهما كالضرب جزاء أو إيذاءً.

(١) مذكور، محمّد سلام، مباحث الحكم عند الأصوليين: ج ١، ص ١٦٨.

(٢) المصدر السابق: ج ١، ص ١٦٩.

(٣) المصدر السابق: ج ١، ص ١٦٩.

٣- القائلون بالحسن والقبح العقليين يُوجِبُونَ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ مَا يُوجِبُونَ عَلَى الْعَبْدِ وَيَجْرُمُونَ عَلَيْهِ مِنْ جِنْسِ مَا يُجْرِمُونَ عَلَى الْعَبْدِ وَيَسْمُونَ ذَلِكَ الْعَدْلَ وَالْحِكْمَةَ مَعَ قُصُورِ عَقْلِهِمْ عَنِ مَعْرِفَةِ حِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ^(١).

وفيه: وقع في هذا الدليل خلط بين التكليف على الله والتوصل لحكم الله عن طريق دليل العقل القطعي، فالقائل بالملازمة بين حكم العقل القطعي بالحسن والقبح وحكم الشارع لا يحدد الوظيفة الإلهية من قبله لله تعالى، وإنما يكتشف تلك الوظيفة والأحكام اللائقة بالحق جل وعلا عن طريق العقل بصورة قطعية.

٤- إن كان الحسن والقبح عقليين يلزم منه أن يستحق البعض العقوبة على تركهم الحسن وفعلهم القبيح، ولو كان ذلك قبل البعثة. وهذا يخالف صريح القرآن الكريم حيث يقول:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(٢).

وفيه: أولاً: العقول وإن كانت لها القابلية على الإدراك إلا أن ذلك ينحصر في الأمور الكلية ولا يتعداها للأمور الجزئية والتطبيقية، والكليات لا يمكنها تغطية الشريعة بأكملها كما أنها لا تفي في سد الحاجة البشرية.

ثانياً: إن الثواب والعقاب يترتبان على التكليف التي وصلت للإنسان، ومن مجرد إدراك العقل ضرورة وحسن القيام بعمل ما أو ضرورة عدم ذلك لا يمكن اكتشاف رأي الشارع، إلا في صورة اتفاق العقلاء على أمر وكان الشارع من ضمنهم، وإثبات هذا ليس من الأمور البديهية، ولذا يمكن القول: إن التكليف قبل البعثة لم يصل بالنسبة لنوع الناس، ونعلم أن الحجّة تتم متى ما وصل التكليف، والتكليف قبل البيان قبيح، ولهذا لا إشكال بأن نلتزم في بعض الصور

(١) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم، مجموع الفتاوى: ج ٨، ص ٩١.

(٢) الإسراء: آية ١٥.

يادراك العقل للحسن والقبح فيها دون أن يترتب على ذلك عقاب أو ثواب. واللافت للنظر أنّ القرآن الكريم قد أشار إلى مكانة العقل ودوره في إدراك حسن الأشياء وقبحها، وقد أوكل الحكم في ذلك لوجدان الإنسان وضميره، حيث يقول:

﴿أَفَجَعَلُ الْمُتْسِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾^(١).

ويقول أيضاً:

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾^(٢).

وفي ختام البحث حول هذه المسألة نذكر بأنّ لها دوراً بارزاً ومؤثراً في المعارف والعقائد الإسلامية وفي تشريع الأحكام واستنباطها، كما يظهر ذلك بوضوح لمن يمعن النظر في قاعدتي البراءة والاحتياط العقليين في حالات العلم الإجمالي وتأثيرهما في عملية الاستنباط.

(١) القلم: آية ٣٥.

(٢) الرحمن: آية ٦٠.

د) الحكمة

توضع «الحكمة» في مصاف مصادر المعرفة وعواملها وتحتل مكانة هامة بينها، وقد أشير إليها بهذا اللحاظ في عدد من الروايات الشريفة.

قال الراغب الإصفهاني في تعريف «الحكمة»:

«الحكمة: إصابة الحق بالعلم والعقل، فالحكمة من الله تعالى: معرفة الأشياء

وإيجادها على غاية الأحكام، ومن الإنسان: معرفة الموجودات وفعل الخيرات»^(١).

وعرّفها السيّد علي خان المدني بأنّها:

«هي كل مانع من الجهل والقبیح، وأصل الحكم المنع، فكأنّه يمنع الباطل عن

معارضة الحقّ.

وقيل: الحكمة من القول: الكلام النافع المانع من الجهل والسفه، ومنه الحديث:

«إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ نَطَقُوا فَكَانَ نُطْقُهُمْ حِكْمَةً»^(٢).

وقد شرحها العلامة المصطفوي بقوله:

«الحكمة فعلة تدل على نوع خاص من الحكم، وهو ما كان من الأحكام الراجعة

إلى المعارف القطعية والحقائق المتقنة المعقولة»^(٣).

وللعلامة الجعفري بيان حول الحكمة جاء فيه:

«تشمل المعارف المستندة للحكمة - التي جاء ذكرها في القرآن كأحد علل

(١) الراغب الإصفهاني، الحسين بن محمّد، مفردات ألفاظ القرآن: ٢٤٩.

(٢) المدني، علي خان بن أحمد، رياض السالكين في شرح صحيفة سيّد الساجدين (صلوات الله عليه): ج ٦، ص ٣٣٣.

(٣) المصطفوي، حسن، التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ج ٢، ص ٣١٠.

وأَسباب بعثة الأنبياء - جميع المعارف الرفيعة كـ(المعرفة، الحيرة والهام، المعرفة الباطنية).

إنَّ الحكمة واحدة من صفات القدس الإلهي، وتقع في أرفع درجات جميع المعارف، لذا لا يمكن وصف الله تعالى بالمعرفة والعرفان والتحير، فلا يصح القول: (الله عارف، الله متحير)، نعم، الوصف الصحيح هو أن نقول: الله حكيم.

والحكمة عبارة عن المعرفة بأجزاء وعناصر عالم الوجود والعلاقات القائمة بينها ضمن مجموعة متناسقة ترتبط بخالق عالم الوجود. وهذه المعرفة لا يمكن عزلها وفصلها بأيِّ نحو عن (الحركة التكاملية)، كما لا يمكن تحقق القناعة لدى الفرد والاكتفاء بما توصل إليه، ذلك أنَّ الشخص الذي رزق الحكمة يرى أنَّ جميع من ساروا ضمن قافلة البشرية يمدون الخطى في مسير ﴿تَأْتِيهِمْ رِجْعُونَ﴾ ويرى أنَّ سقوط أيِّ شخص وتخلُّفه عن القافلة سقوطاً له إن كان قادراً على إعادة تأهيله من جديد، وبعبارة أخرى: إنَّ الشخص الحكيم بمثابة الممثل عن الله في الأرض وحركته في الصف الذي يلي صف الأنبياء عليهم السلام»^(١).

ينابيع الحكمة

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه كان يقول في دعاء الاستجابة:

«وَأَثْبُتْ فِي قَلْبِي يَنْبِيعَ الْحِكْمَةِ»^(٢).

وكلمة «ينابيع» جمع «ينبوع»، وهي عين الماء التي تتدفق بشدة من باطن الأرض، لينساب ماءؤها على سطح الأرض، وقد تستعمل في الأمور المعنوية مجازاً كقولك: ينبوع العلم والحكمة.

(١) الجعفري التبريزي، محمد تقي، معرفت شناسي (نظرية المعرفة): ص ٢٦١-٢٦٢.

(٢) ابن طاووس، علي بن موسى، جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: ص ٢٧٣.

وقال الإمام الرضا عليه السلام:

«إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اخْتَارَهُ اللَّهُ عز وجل لِأُمُورِ عِبَادِهِ شَرَحَ صَدْرَهُ لِدَلِّكَ، وَأَوْدَعَ قَلْبَهُ يَنَابِيعَ الْحِكْمَةِ، وَأَلْهَمَهُ الْعِلْمَ إلهاماً، فَلَمْ يَعْيَ بَعْدَهُ بِجَوَابٍ وَلَا يُحَيِّرُ فِيهِ عَنِ الصَّوَابِ»^(١).

الحكمة مدعاة لرفي الحياة المعنوية

ما ورد في الحديث المتقدم للإمام الحسين عليه السلام من الاستعارة في كلمة «ينابيع» للحكمة يدل على أن الحكمة كأنتها عين الماء التي تعد مصدر الحياة، غير أن الفارق بينهما يكمن في أن حياة الماء مادية وحياة الحكمة معنوية.

وهذا الخصوص ورد عن النبي صلى الله عليه وآله قوله:

«إِنَّ لِقْمَانَ قَالَ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ، عَلَيْكَ بِمَجَالِسِ الْعُلَمَاءِ، وَاسْتَمِعْ كَلَامَ الْحُكَمَاءِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْقَلْبَ الْمَيِّتَ بِنُورِ الْحِكْمَةِ كَمَا يُحْيِي الْأَرْضَ الْمَيِّتَةَ بِوَابِلِ الْمَطَرِ»^(٢).

وعن الإمام علي عليه السلام قوله:

«أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ، وَأَمْتَهُ بِالزَّهَادَةِ، وَقَوِّهِ بِالْيَقِينِ، وَنَوِّرْهُ بِالْحِكْمَةِ»^(٣).

ضرورة صيانة الحكمة في القلوب

مما تقدّم حول الحديث السابق للإمام الحسين عليه السلام يتبين أن ينابيع الحكمة متى ما تفجّرت في قلب إنسان يتحتم عليه حفظها جارية متدفقة، طالباً العون والمدد من الحق جلّت عظمته في بقاء ذلك ودوامه.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله روي أنه قال:

«كُونُوا يَنَابِيعَ الْحِكْمَةِ، مَصَابِيحَ الْهُدَى، أَحْلَاسَ الْبُيُوتِ، سُرُجَ اللَّيْلِ، جُدُدَ

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٢٠٢.

(٢) الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الكبير: ج ٨، ص ١٩٩، حديث ٧٨١٠.

(٣) نهج البلاغة: رسالة ٣١.

الْقُلُوبِ، خُلِقَانَ الثِّيَابِ، تُعْرَفُونَ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ وَتُخْفُونَ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ»^(١).

تتفجر ينابيع الحكمة من قلب الإنسان أحياناً

هناك دلالة واضحة في حديث الإمام الحسين عليه السلام المتقدم على أن الحكمة تتفجر من قلب الإنسان وتجري على لسانه وتظهر في كلامه كما تتفجر عيون الماء من الأرض وتأخذ بالتدفق حتى ينساب ماؤها على سطح الأرض.

ومثله ما نقله القاضي النعمان المغربي عن الأعمش عن قيس بن غالب الأسدي

قوله:

«وَمَا وَفَدَ النَّاسُ عَلَى يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ لَمَّا اسْتُخْلِفَ، قُلْتُ لِأَهْلِ بَيْتِي: هَلْ أَنْ نَجْعَلَ نَحْنُ وَفَادَتَنَا عَلَى ابْنِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام؟ فَأَجَابُونِي، فَخَرَجْتُ أَنَا، وَأَخِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ غَالِبٍ، وَزُرُّ بْنُ حُبَيْشٍ، وَهَانِي بْنُ عُرْوَةَ، وَعُبَادَةُ بْنُ رَبِيعٍ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ قَوْمِنَا، حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ، فَاتَيْنَا مَنْزِلَ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام فَاسْتَأْذَنَّا عَلَيْهِ، فَخَرَجَتْ إِلَيْنَا جَارِيَةٌ، فَقُلْتُ لَهَا: اسْتَأْذِنِي لَنَا عَلَى ابْنِ رَسُولِ اللَّهِ، وَأَعْلِمِيهِ أَنَّ مَوَالِيَهُ بِالْبَابِ.

فَأَذِنَتْ لَنَا، فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَا أَقْدَمَكُمْ هَذَا الْبَلَدَ فِي غَيْرِ حَجٍّ وَلَا عُمْرَةٍ؟ قُلْنَا: يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ، وَفَدَ النَّاسُ عَلَى يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ، فَأَحْبَبْنَا أَنْ وَفَادَتَنَا عَلَيْكَ، قَالَ: وَاللَّهِ؟ قُلْنَا: وَاللَّهِ.

قَالَ: أَبْشِرُوا - يَقُولُهَا ثَلَاثًا - ثُمَّ قَالَ: أَتَأْذِنُونَ لِي أَنْ أَقُومَ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، فَقَامَ فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ، وَعَادَ إِلَيْنَا.

فَقَالَ ابْنُ رَبِيعٍ: يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ، إِنَّ الْحَوَارِيِّينَ كَانَتْ لَهُمْ عَلَامَاتٌ يُعْرَفُونَ بِهَا، فَهَلْ لَكُمْ عَلَامَاتٌ تُعْرَفُونَ بِهَا؟

(١) الشهيد الثاني، زين الدين بن علي، منية المريد في أدب المفيد والمستفيد: ص ١٣٥.

فَقَالَ لَهُ: يَا عِبَادَةَ، نَحْنُ عَلَامَاتُ الْإِيمَانِ فِي بَيْتِ الْإِيمَانِ، مَنْ أَحَبَّنَا أَحَبَّهُ اللَّهُ، وَنَفَعَهُ
إِيمَانُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيُقْبَلُ مِنْهُ عَمَلُهُ، وَمَنْ أَبْغَضَنَا أَبْغَضَهُ اللَّهُ، وَلَمْ يَنْفَعَهُ إِيمَانُهُ، وَلَمْ يُتَقَبَلْ
عَمَلُهُ.

قَالَ: فَقُلْتُ: وَإِنْ دَابَّ وَنَصَبَ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَصَامَ وَصَلَّى.

ثُمَّ قَالَ: يَا عِبَادَةَ، نَحْنُ يَتَابِعُ الْحِكْمَةِ، وَبِنَا جَرَّتِ النُّبُوَّةُ، وَبِنَا يُفْتَحُ، وَبِنَا يُجْتَمُ لَا
بِعَيْرِنَا»^(١).

حيث تدل جملة «نَحْنُ يَتَابِعُ الْحِكْمَةَ» ضمناً على أن الحكمة تشبه العين حيث
تتفجر ماءً.

فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«مَا أَخْلَصَ عَبْدٌ لِلَّهِ ﷻ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً إِلَّا جَرَّتْ يَتَابِعُ الْحِكْمَةَ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى
لِسَانِهِ»^(٢).

آثار يتابع الحكمة وبركاتها

يتبين من الدعاء المروي عن الإمام الحسين عليه السلام الذي كان يتضرع به إلى
الباري عز وجل، حيث يقول:

«وَأَثْبُتْ فِي قَلْبِي يَتَابِعُ الْحِكْمَةَ الَّتِي تَنْفَعُنِي بِهَا»^(٣).

أنّ هناك آثاراً إيجابية وبركات تستمد من تفجّر يتابع الحكمة في قلب الإنسان
ومن خلالها يوصل الحق سبحانه النفع والخير لذلك الإنسان.

فيقول سبحانه وتعالى:

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾^(٤).

(١) ابن حيون، النعمان بن محمد، شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار: ج ٣، ص ٤٥٦-٤٥٧.

(٢) ابن بابويه، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ٢، ص ٦٩، حديث ٣٢١.

(٣) ابن طاووس، علي بن موسى، جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: ص ٢٧٣.

(٤) البقرة: آية ٢٦٩.

وقال الإمام علي عليه السلام:

«مَنْ ثَبَّتَ لَهُ الْحِكْمَةَ عَرَفَ الْعِبْرَةَ»^(١).

وقال أيضاً:

«أَخِي قَلْبِكَ بِالْمَوْعِظَةِ، وَأَمْتُهُ بِالزَّهَادَةِ، وَقَوِّهِ بِالْيَقِينِ، وَنَوِّزُهُ بِالْحِكْمَةِ»^(٢).

وقال الإمام الصادق عليه السلام:

«كَثْرَةُ النَّظَرِ فِي الْحِكْمَةِ تَلْفَحُ الْعَقْلَ»^(٣).

ترسيخ ينابيع الحكمة في قلوب المرضيين من العباد

يشير قول الإمام الحسين عليه السلام في دعائه متضرعاً إلى رب العزة والجلالة:

«وَأَثْبُتْ فِي قَلْبِي يَنَابِيعَ الْحِكْمَةِ الَّتِي تَنْفَعُنِي بِهَا وَتَنْفَعُ بِهَا مَنْ ارْتَضَيْتَ مِنْ عِبَادِكَ»^(٤).

إلى أن الله سبحانه يوصل النفع لعباده عن طريق تثبيتته ينابيع الحكمة في قلوبهم.

وفي هذا يقول الإمام علي عليه السلام:

«إِنَّ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ لَمْطُوبِيَّةٌ بِالْإِيمَانِ طَيِّبًا، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ إِنْارَةَ مَا فِيهَا فَتَحَهَا بِالْوَحْيِ، فَزَرَعَ فِيهَا الْحِكْمَةَ زَارِعُهَا وَحَاصِدُهَا»^(٥).

□

(١) الأمدى، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٦٤٢، حديث ١١٩٦.

(٢) نهج البلاغة: رسالة ٣١.

(٣) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٣٦٤.

(٤) ابن طاووس، علي بن موسى، جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: ص ٢٧٣-٢٧٤.

(٥) الحميري، عبد الله بن جعفر، قرب الإسناد: ص ٣٥، حديث ١١٢.

تلاؤ نور الهداية بالحكم الحسينية

نُسبت مجموعة من الأشعار للإمام الحسين عليه السلام، ومنها ما نوره أدناه:
سَبَقْتُ الْعَالِينَ إِلَى الْمَعَالِي بِحُسْنِ خَلِيقَةٍ وَعُلُوِّ هَمَّةٍ
وَلَا حَ بِحِكْمَتِي نُورُ الْهَدَى فِي لَيْالٍ فِي الضَّلَالَةِ مُدْهَمَّةٍ
يُرِيدُ الْجَاهِدُونَ لِيُطْفِئُوهُ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتِمَّهُ^(١)

إذ يمكننا أن نلاحظ في دلالة البيت الثاني أن هناك حكمة يتصف بها الإمام عليه السلام يشرق منها نور الهداية متلاًئلاً.

ويؤكد به بيان رسول الله صلى الله عليه وآله حين قال:

«وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ نَبِيًّا إِنَّ الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ فِي السَّمَاءِ أَكْبَرُ مِنْهُ فِي الْأَرْضِ، وَإِنَّهُ لَمَكْتُوبٌ عَنْ يَمِينِ عَرْشِ اللَّهِ عز وجل: مِصْبَاحٌ هُدَى وَسَفِينَةٌ نَجَاةٍ وَإِمَامٌ غَيْرٌ وَهَنْ وَعِزٌّ وَفَخْرٌ وَعِلْمٌ وَذُخْرٌ»^(٢).

(١) ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب عليهم السلام: ج ٤، ص ٧٢-٧٣.

(٢) ابن بابويه، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ١، ص ٦٠، حديث ٢٩.

هـ) التجربة

تعدّ «التجربة» مصدراً آخر من مصادر المعرفة والعلم التي أشارت إليها الروايات أيضاً.

ولنزد هذا الأمر شرحاً من خلال ما أوضحه العلامة محمد تقي الجعفري حول «التجربة» إذ فصل الكلام قائلاً:

«إنّ التجربة ليست حقيقة عينية محضة تقبع في النقطة المقابلة لحواس الإنسان الطبيعية أو الأجهزة المختبرية من أجل أن يرسم صحيحها في الذهن، ومن ثمّ تتمّ الاستفادة من ذلك في التصرفات المناسبة من جميع الجهات موضوعية كانت أم محسوسة، التجربة عبارة عن فعالية تفحصية للبحث عن الحقائق والتي بإمكاننا تحليلها بشكل عام إلى:

أولاً: الشخص المجرّب إنسان يمتلك الحواس الطبيعية كالعين والأذن والأنف والذائقة واللامسة، ولديه دماغ يشتمل على أنواع من القوى والقابليات، ويتمتع بقدرة على استخدام الأجهزة المتنوعة المعدّة لإدراك الحقائق.

ثانياً: هناك أصول وقواعد مسلمة في ذهن المجرّب تدفعه نحو البحث والتجربة مثل: أصل العلية، ولهذا عندما يرى صاحب التجربة ظاهرة ما ويحاول اكتشاف العلة التي تقف وراءها، فإنّ الدافع والمحفز له للقيام بذلك هو هذا الأصل المتقدم الذي ينص على أنّ المعلول لا يمكن أن يتحقق دون علته، مضافاً إلى أنّ اعتقاده الجازم بأنّ أيّ حادثة لا يمكن أن تقع خارجاً عن حدود الزمان يجعله يبحث عن النقطة التي حصلت فيها تلك الحادثة بمجرد رؤيته لها. ولولا وجود هكذا أصول مسبقة في ذهن المجرّب لما كان ليبيدي أيّ ردة فعل أو حركة لإجراء التجربة وانتظار نتائجها.

ثالثاً: الدافع للتجربة، لا شك أنّ العمل على القيام بالتجربة يستلزم دافعاً وحافزاً للقيام بذلك؛ إذ إنّ أيّ عمل يؤتى به على أنّه تجربة مع أنّه خال عن الدافع سيكون بلا فائدة ودون نتيجة تذكر، ولربما يكون هذا الدافع أو الهدف منطلقاً من حب الاستطلاع وليس وراؤه سوى إدراك الواقع وفهمه، أو يكون ناشئاً من الحاجة لسد بعض المتطلبات الماديّة أو المعنوية، أو من أجل غلبة الآخرين في سباق تنافس معهم. وفي هذه المرحلة من التجربة تبرز نقطة هامة جداً قد تتسبب بالضرر العظيم والخسارة الكبيرة إذا ما أغفلت، وهي أنّ التجربة لو كان الدافع لها محض إشباع حب الاستطلاع ومعرفة الواقع لا غير، فإنّ تجدد الأهداف والدوافع سيستمر على امتداد التجربة، وبالنتيجة ففي جميع حالات التجربة التي نبحث فيها عن موضوع ما، فإنّ مسألة الأهداف والغايات ستبقى قائمة.

لا ريب أنّ الحقائق التي تبرز فيها الهدفية ستؤثر في اختيار المقيم للتجربة بحسب قدراته الذهنية ورغباته، ويتجه نحو ذلك الهدف المتأني من وراء أحد أبعاد تلك الحقيقة، وعندها لا يكون مراده ومقصوده كل الحقيقة بجميع أبعادها بحيث يمكنه من خلال النتائج التي سيحصل عليها ادعاء المعرفة بالحقيقة بكل صورها وأبعادها. رابعاً: الظاهرة التي يراد التعرف إليها بواسطة التجربة، لا بدّ أن تتصف بالواقعية لا أن تكون عبارة عن تخيلات مجردة وتصورات باطلة، إذ لا شك أنّ الحقيقة أوسع إطاراً من المحسوسات والملموسات»^(١).

كسب التجربة بالعمل

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنّه قال:

«الْعَمَلُ تَجْرِبَةٌ»^(٢).

(١) الجعفرى التبريزى، محمد تقى، معرفت شناسى (نظرية المعرفة): ص ٢٢٠-٢٢١.

(٢) اليعقوبى، أحمد بن إسحاق، تاريخ اليعقوبى: ج ٢، ص ٢٤٦.

إذ يتضح من قول الإمام عليه السلام أن الإنسان يمكنه اكتساب التجربة عبر قيامه ببعض الأعمال، وذلك أفضل علم. ويشهد له قول الإمام علي عليه السلام: «التَّجَارِبُ عِلْمٌ مُسْتَفَادٌ»^(١).

كثرة التجارب

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال: «ذَرَأَ اللَّهُ الْعِلْمَ لِقَاحِ الْمَعْرِفَةِ، وَطُولِ التَّجَارِبِ زِيَادَةً فِي الْعَقْلِ»^(٢). يدلنا مضمون هذه الفقرة على أن بعض الأفراد يصبحون ذوي تجربة وخبرة نتيجة لكثرة الأعمال.

وجاء في وصية الإمام علي عليه السلام لابنه: «...فَبَادِرْتُكَ بِالْأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُوَ قَلْبُكَ وَيَشْتَغَلَ لُبُّكَ، لِتَسْتَقْبَلَ بِحِدِّ رَأْيِكَ مِنَ الْأَمْرِ مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُغْيَتَهُ وَتَجْرِبَتَهُ، فَتَكُونَ قَدْ كُفَيْتَ مَوْوَنَةَ الطَّلَبِ، وَعُوفِيَتْ مِنْ عِلَاجِ التَّجْرِبَةِ، فَاتَاكَ مِنْ ذَلِكَ مَا قَدْ كُنَّا نَأْتِيهِ، وَاسْتَبَانَ لَكَ مَا رَبَّيْنَا أَظْلَمَ عَلَيْنَا مِنْهُ»^(٣).

اللطف الإلهي في تجربة الإنسان

يتحصل هذا المعنى من عطف جملة «طُولِ التَّجَارِبِ» على ما قبلها في الحديث السابق للإمام الحسين عليه السلام، إذ يشير إلى أن الله سبحانه منّ على الإنسان بالتجربة وبذرها فيه وأمدّها.

(١) الأمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٥٦، حديث ١٠٧٨.

(٢) الحلواني، الحسين بن محمد، نزهة الناظر وتنبيه الخاطر: ص ٨٨.

(٣) نهج البلاغة: رسالة ٣١.

قال الإمام علي عليه السلام:

«الْعَقْلُ عَقْلَانِ: عَقْلُ الطَّبَعِ وَعَقْلُ التَّجْرِبَةِ، وَكِلَاهُمَا يُؤَدِّي إِلَى الْمُنْفَعَةِ. وَالْمَوْثُوقُ بِهِ صَاحِبُ الْعَقْلِ وَالِدِّينِ، وَمَنْ فَاتَهُ الْعَقْلُ وَالْمَرْوَةُ فَرَأْسُ مَالِهِ الْمَعْصِيَةُ»^(١).

تأثير التجربة الطويلة في قوة عقل الإنسان

كما يستفاد من مضمون الحديث الأخير للإمام الحسين عليه السلام أنّ التجربة الطويلة لها بالغ الأثر في تدعيم عقل الإنسان، والتناسب بينهما تناسباً طردياً، فيشتد العقل بكثره التجربة وزيادتها.

قال الإمام علي عليه السلام:

«الْعَقْلُ غَرِيزَةٌ تَزِيدُ بِالْعِلْمِ وَالتَّجَارِبِ»^(٢).

(١) النصيبي الشافعي، محمد بن طلحة، مطالب السؤول في مناقب آل الرسول: ص ١٨٣؛ المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: ج ٧٥، ص ٦، حديث ٥٨.

(٢) الأمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٩١، حديث ١٧٤٦.

(و) التاريخ

يعدّ «التاريخ» مصدراً آخر من مصادر المعرفة، وقد أشارت الروايات الشريفة إليه وألفتت إلى بعض جوانبه وأبعاده.

ويقول الشهيد مطهري:

«مصدر آخر نال اهتماماً كبيراً وعلى الخصوص في العصر الحاضر، كما أولاه القرآن الكريم عناية فائقة هو (التاريخ) فهو في نظر القرآن غير الطبيعة والعقل والقلب وينظر له كمصدر آخر للمعرفة يضاف إلى تلك المصادر. ومن الممكن أن يدعى أنّ ما ذكرته - قبل قليل - من الطبيعة يشتمل كذلك على التاريخ، وهذا المدعى صحيحٌ فالتاريخ يعدّ جزءاً من الطبيعة باعتبار، لكننا لو عقدنا مقارنة بينهما سنخلص إلى أنّ التاريخ يعني المجتمع الإنساني في حال حركته وتطوره، فيمكن دراسة الطبيعة على نوعين وهكذا الحال بالنسبة للمجتمع يمكننا النظر إليه على نحوين.

من الملاحظ أنّه عندما نروم قراءة مجتمع في زمن محدد خلال حالة ثباته مثلاً، فإنّ ذلك يعدّ دراسة اجتماعية بالنسبة إلى شخص غايته كانت جمع معلومات اجتماعية حول مجتمعنا، كما لو أراد دراسة المجتمع الإيراني المعاصر من زوايا مختلفة، ومن ثمّ يقدم نتائجه المستحصلة للآخرين. ولكنه إن حاول دراسة المجتمع نفسه مرة أخرى ولكن هذه المرة كان واضعاً في حسبانته ارتباط هذا المجتمع بالماضي والماضي بماضيه، أي الحاضر مع الماضي والمستقبل، وهنا سينظر إليه كواحد مجموعي، ثمّ يتمّ العمل على تشخيص القانون الذي يحكم حركته هذه.

ويبدو أنّ الفارق الجوهرى بين (فلسفة التاريخ) و(علم الاجتماع) يبرز في أنّ علم الاجتماع يسعى إلى بيان القانون الحاكم في ذلك المجتمع بينما فلسفة التاريخ تعمل على بيان القانون الذي يحكم التطورات التي يعيشها المجتمع وتتمّ وفقاً له، وهنا يأتي الدور

لعامل الزمن في تحقيق المعادلة.

وها هو القرآن نجده يستعرض التاريخ للدراسة بنحو صريح وقاطع، وهذا يقودنا للقول بأنّ التاريخ بنفسه مصدر للمعرفة، وهناك آيات من القرآن الكريم تتحدث عما نحن فيه مثل: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾^(١)، و﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾^(٢) أي اذهبوا ولاحظوا الآثار التاريخية لتلك الأمم وتأملوا في حياة المجتمع البشري ومراحل تطوره وما عاشه من تحولات تاريخية.

ولذا كان للإمام علي عليه السلام في وصيته في (نهج البلاغة) لابنه الإمام الحسن عليه السلام جملة عظيمة ترفع من إيمان الإنسان، فعلي عليه السلام وهو من الرعيل الأوّل في الإسلام يأمر ولده الإمام الحسن عليه السلام بأن يتأمل في أحوال الأمم والملل وحوادثها ويتدبر فيها ويأخذ العبر والدروس منها، ثم أردف قائلاً: (أَيُّ بُنْيٍّ، إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمَرْتُ عُمَرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ، وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ، حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ، بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمَرْتُ مَعَ أَوْلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ)^(٣)؛ إذن طالع التاريخ وتأمل في أخبار الأمم وما جرى عليها من تقلبات حتى تكون كالعين التي تشاهد الدنيا من أولها إلى آخرها. هذا معنى عدّ التاريخ مصدراً للمعرفة بنظر القرآن والروايات^(٤).

(١) الأنعام: آية ١١.

(٢) غافر: آية ٨٢.

(٣) نهج البلاغة: رسالة ٣١.

(٤) مطهري، مرتضى، مجموعه آثار استاد شهيد مطهري (مجموعة آثار الأستاذ الشهيد مطهري):

ج ١٣، ص ٣٨٣-٣٨٤.

الغاية من ذكر حوادث التاريخ المريرة

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه كان يدعو الحق تعالى راجياً الاستجابة بقوله:
 «وَأَنْتَ الَّذِي اسْتَجَبْتَ لِذِي النُّونِ حِينَ نَادَاكَ مِنْ ﴿الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ
 سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾»^(١).

فيها أن القرآن قد ذكر قصة يونس عليه السلام لنبي الإسلام صلى الله عليه وآله ولأمة الإسلام
 أيضاً، بل وانتهج ذلك في بيانه الكثير من الحوادث التاريخية ما كان منها مرراً وما
 كان سعيداً، نستنتج أن هناك غاية وفوائد وأهدافاً وراء هذا النهج المتبع قرآنياً،
 ولربما كان من أبرزها اعتبار الناس بها، ولهذا جاء سيد الشهداء عليه السلام على ذكر هذه
 الحادثة هنا حتى يعتبر بها أيضاً.

قال الله سبحانه:

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٢).

وقال في آية أخرى:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ
 أَمْثَلُهَا﴾^(٣).

وطبقاً لما تقدم يقول الإمام علي عليه السلام:

«وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعِبْرَةً، أَيُّنَ الْعَمَلِقَةَ وَأَبْنَاءَ الْعَمَلِقَةَ؟ أَيُّنَ الْفِرَاعِنَةَ
 وَأَبْنَاءَ الْفِرَاعِنَةَ؟ أَيُّنَ أَصْحَابِ مَدَائِنِ الرَّسِّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيَّ وَأَطْفَوْا سُنَنَ الْمُرْسَلِينَ
 وَأَحْيَوْا سُنَنَ الْجَبَّارِينَ؟ أَيُّنَ الَّذِينَ سَارُوا بِالْجِيُوشِ وَهَزَمُوا [الْأُلُوفَ] بِالْأُلُوفِ
 وَعَسَكُرُوا الْعَسَاكِرَ وَمَدَّنُوا الْمَدَائِنَ؟»^(٤).

(١) ابن طاووس، علي بن موسى، جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: ص ٢٧١.

(٢) يوسف: آية ١١١.

(٣) محمد: آية ١٠.

(٤) نهج البلاغة: خطبة ١٨٢.

ضرورة الاعتبار من الازدراء والولم الإلهي لعلماء اليهود

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال:

«اعْتَبِرُوا أَيُّهَا النَّاسُ بِمَا وَعَظَ اللَّهُ بِهِ أَوْلِيَاءَهُ مِنْ سُوءِ ثَنَائِهِ عَلَى الْأَخْبَارِ إِذْ يَقُولُ: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيْنُونَ وَالْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ﴾^(١)، وَقَالَ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(٢) إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَيْتَسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾^(٣) وَإِنَّمَا عَابَ اللَّهُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَرُونَ مِنَ الظُّلْمَةِ الَّذِينَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمُ الْمُنْكَرَ وَالْفَسَادَ فَلَا يَنْهَوْنَهُمْ عَنْ ذَلِكَ رَغْبَةً فِيمَا كَانُوا يَنَالُونَ مِنْهُمْ وَرَهْبَةً مِمَّا يَخْذَرُونَ وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿فَلَا تَخْشَوْا السَّكَاسَ وَالْأَخْشُونَ﴾^(٤) وَقَالَ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(٥)»^(٦).

من تأمل المرء هذا الخطاب تتضح ضرورة اعتبار الأمة الإسلامية من ازدراء الله سبحانه لعلماء اليهود؛ نتيجة تركهم للنهي عن المنكر، فينبغي على الأمة الإسلامية فرداً فرداً أن يحشدوا الهمم على العمل بهذه الفريضة كي لا يطويها النسيان.

وبهذا الشأن روي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ما يؤكد ذلك، حين قال:

«وَأَعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْتَحِلُّ الْعَامَ مَا اسْتَحَلَّ عَاماً أَوَّلًا، وَيُحْرِمُ الْعَامَ مَا حَرَّمَ عَاماً أَوَّلًا، وَأَنَّ مَا أَحَدَثَ النَّاسُ لَا يُحِلُّ لَكُمْ شَيْئاً مِمَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنَّ الْحَلَالَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، وَالْحَرَامَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ. فَقَدْ جَرَّبْتُمُ الْأُمُورَ وَصَرَّسْتُمُوهَا، وَوَعِظْتُمْ بِمَنْ كَانَ

(١) المائة: آية ٦٣.

(٢) المائة: آية ٧٨.

(٣) المائة: آية ٧٩.

(٤) المائة: آية ٤٤.

(٥) التوبة: آية ٧١.

(٦) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٣٧.

قَبْلَكُمْ، وَضَرَبْتَ الْأَمْثَالَ لَكُمْ، وَدُعَيْتُمْ إِلَى الْأَمْرِ الْوَاضِحِ، فَلَا يَصْمُ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا أَصَمُّ، وَلَا يَعْمَى عَنْ ذَلِكَ إِلَّا أَعْمَى. وَمَنْ لَمْ يَنْفَعَهُ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ وَالتَّجَارِبِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِشَيْءٍ مِنَ الْعِظَةِ، وَأَتَاهُ التَّقْصِيرُ مِنْ أَمَامِهِ، حَتَّى يَعْرِفَ مَا أَنْكَرَ، وَيُنْكِرَ مَا عَرَفَ. [فَإِنَّ النَّاسَ] وَإِنَّمَا النَّاسُ رَجُلَانِ: مُتَّبِعٌ شَرْعَةً، وَمُتَّبِدِعٌ بِدْعَةً، لَيْسَ مَعَهُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بُرْهَانٌ سُنَّةً، وَلَا ضِيَاءٌ حُجَّةً^(١).

ضرورة الاعتبار بالقصص القرآني

يتضح من خلال مراجعة مضمون الحديث المتقدم للإمام الحسين عليه السلام، ما فيه من دلالة على وجوب أخذ العبر والدروس من القصص القرآنية، نظراً لما ورد فيها من لوم وعتاب إلهي ومؤاخذه للأمم السابقة؛ رجاء أن تنتفع الأمة الإسلامية بذلك، وتحت الخطى بوعي وواقعية نحو الخالق تبارك وتعالى.

وقال عز وجل:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾^(٢).

وقال الراغب الإصفهاني مبيناً معنى كلمة (عبر):

«أصل العبر: تجاوز من حال إلى حال... والاعتبار والعبرة: بالحالة التي يتوصل

بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد»^(٣).

(١) نهج البلاغة: خطبة ١٧٦.

(٢) النازعات: آية ٢٦.

(٣) الراغب الإصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن: ص ٥٤٣.

ز) الفطرة

من مصادر المعرفة وسبلها «الفطرة» وتقع في مصاف ما سبقها من المصادر، وهي كذلك كان لها نصيبها وحظها الوافر في الروايات الشريفة حيث كشفت عن بعض أبعادها وزواياها.

وستكون لنا وقفة عريضة مع موضوع الفطرة وتفصيله في مبحث إثبات الفطرة الإلهية، ولذا سنكتفي هنا بذكر بعض الإشارات التي تستشف من الأحاديث المتعلقة بالهداية أو تلك التي تتعلق بالمعرفة الفطرية كعموميتها وشموليتها بحيث تتم بواسطتها الحجة من الله على البشر في إطار إثبات وجود الله سبحانه ومسألة التوحيد والشرك.

من الحقائق التي تشد الانتباه عند التدقيق في الهداية والمعرفة الفطرية هي أنّ لهما مركزين أو بؤرتين في كيان الإنسان ووجوده: أحدهما القلب والروح، والآخر العقل والذهن. فالفطرة التي مركزها القلب والروح تدعى الفطرة العاطفية والغريزية، وأمّا التي مركزها العقل والتعقل يطلق عليها الفطرة العقلية والإدراكية، ومتى ما أمعنا النظر في الهداية والمعرفة الفطرية سندرك أنّ لهما تجليين أحدهما الهداية والمعرفة الشهودية والباطنية.

كما أنّ المعرفة الفطرية عامة وشاملة على خلاف المعرفة القلبية، فإنّها ليست كذلك، وإنّما تؤدّي دور المعد للمعرفة، ونافذة نحو الكمال المطلق في ضوء نور الإيمان وشعاعه، وتصفية الباطن من الرذائل والقبائح^(١).

(١) الرباني الكلپايگاني، علي، معرفت ديني از منظر معرفت شناسي (المعرفة الدينية في مرأى نظرية المعرفة): ص ٣٢-٣٤.

فطرية المعرفة الإلهية

جاء في دعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة قوله:

«حَتَّى إِذَا اكْتَمَلْتُ فِطْرِي وَاعْتَدَلْتُ سَرِيرِي، أَوْجَبْتَ عَلَيَّ حُجَّتَكَ؛ بِأَنْ أَلْهَمْتَنِي مَعْرِفَتَكَ»^(١).

إذ يمكن التوصل من ملاحظة تفریع جملة «بِأَنْ أَلْهَمْتَنِي مَعْرِفَتَكَ» على جملة «حَتَّى إِذَا اكْتَمَلْتُ فِطْرِي» إلى أن معرفة الله جلّت عظمتة فطرية، وستتطرق إلى بيان الفطرة الإنسانية بإسهاب في بحث إثبات وجود الله سبحانه عن طريق الفطرة.

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢).

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، يَعْنِي عَلَى الْمَعْرِفَةِ بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَالِقُهُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^(٣)»^(٤).

كمال فطرة الإنسان بإلهامه المعرفة بالله

يتضح هذا المعنى من النكتة السابقة أيضاً وهي تفریع جملة «بِأَنْ أَلْهَمْتَنِي مَعْرِفَتَكَ» على جملة «حَتَّى إِذَا اكْتَمَلْتُ فِطْرِي» وبيانه: أن فطرة الإنسان تكتمل إذا ما ألهم معرفة الحق سبحانه، وكمالها يتحقق بفعلية الفطرة عند تمكنها من إدراك المعارف التي يمكن أن تنال عبر هذا الطريق.

(١) الكفعمي، إبراهيم بن علي، البلد الأمين: ص ٢٥١.

(٢) الروم: آية ٣٠.

(٣) لقمان: آية ٢٥.

(٤) ابن بابويه، محمد بن علي، التوحيد: ص ٣٣٠-٣٣١، حديث ٩.

روي عن الإمام علي عليه السلام أنه قال:

«فَبَعَثَ فِيهِمْ رَسُولَهُ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ، لِيَسْتَأْذُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ، وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ، وَيُرُوهُمْ آيَاتِ الْمَقْدِرَةِ»^(١).

مكنونات الإنسان بعد اكتمال فطرته واعتدال قواه

من خلال ما جاء على لسان الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة حيث قال:

«حَتَّى إِذَا اكْتَمَلَتْ فِطْرَتِي وَاعْتَدَلَتْ سَرِيرَتِي، أَوْجَبْتَ عَلَيَّ حُجَّتَكَ؛ بِأَنْ أَهْمَمْتَنِي مَعْرِفَتَكَ، وَرَوَّعْتَنِي بِعَجَائِبِ حِكْمَتِكَ، وَأَيَّقَظْتَنِي لِمَا ذَرَأْتَ فِي سَمَائِكَ وَأَرْضِكَ مِنْ بَدَائِعِ خَلْقِكَ، وَنَهَيْتَنِي لِشُكْرِكَ وَذِكْرِكَ، وَأَوْجَبْتَ عَلَيَّ طَاعَتَكَ وَعِبَادَتَكَ، وَفَهَّمْتَنِي مَا جَاءَتْ بِهِ رُسُلُكَ، وَيَسَّرْتَ لِي تَقَبُّلَ مَرْضَاتِكَ»^(٢).

تبيين لنا مجموعة من الأمور التي تتفتق عنها سريرة الإنسان بعد اكتمال فطرته واعتدال قواه، ومن الأمور تلك ما يلي:

- ١- معرفة الله تبارك وتعالى.
- ٢- الإعجاب بروائع الخلق.
- ٣- الاطلاع على بدائع خلق الله.
- ٤- الالتفات إلى لزوم شكر النعم الإلهية.
- ٥- الانتباه إلى لزوم ذكر الله سبحانه.
- ٦- وجوب إطاعة الأوامر الإلهية وامتثالها.
- ٧- وجوب عبادة الله عز وجل.

(١) نهج البلاغة: خطبة ١.

(٢) الكفعمي، إبراهيم بن علي، البلد الأمين: ص ٢٥١-٢٥٢.

٨- فهم التعاليم والأوامر المشتركة التي جاء بها الرسل.

٩- سهولة تقبل أسباب الرضا الإلهي.

روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا أَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ ظَهْرِهِ لِيَأْخُذَ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ بِالرُّبُوبِيَّةِ لَهُ وَبِالنَّبُوءَةِ لِكُلِّ نَبِيٍّ، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ أَخَذَ لَهُ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ بِنَبِيِّتِهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لآدَمَ: انظُرْ مَاذَا تَرَى؟ قَالَ: فَنَظَرَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى ذُرِّيَّتِهِ وَهُمْ ذُرٌّ قَدْ مَلَأُوا السَّمَاءَ، قَالَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا رَبِّ، مَا أَكْثَرَ ذُرِّيَّتِي وَلَأَمْرٍ مَا خَلَقْتَهُمْ؟ فَمَا تُرِيدُ مِنْهُمْ بِأَخْذِكَ الْمِيثَاقَ عَلَيْهِمْ؟ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَيُؤْمِنُونَ بِرُسُلِي وَيَتَّبِعُونَ مَنِّي، قَالَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا رَبِّ، فَمَا لِي أَرَى بَعْضَ الذَّرِّ أَعْظَمَ مِنْ بَعْضٍ وَبَعْضُهُمْ لَهُ نُورٌ كَثِيرٌ وَبَعْضُهُمْ لَهُ نُورٌ قَلِيلٌ وَبَعْضُهُمْ لَيْسَ لَهُ نُورٌ؟ فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: كَذَلِكَ خَلَقْتُهُمْ لِأَبْلُؤَهُمْ فِي كُلِّ حَالَتِهِمْ، قَالَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا رَبِّ فَتَأَذَّنْ لِي فِي الْكَلَامِ فَاتَّكَلَّمْ؟ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: تَكَلَّمْ فَإِنَّ رُوحَكَ مِنْ رُوحِي وَطَبِيعَتَكَ [مِنْ] خِلَافِ كَيْفُونَتِي، قَالَ آدَمُ: يَا رَبِّ، فَلَوْ كُنْتُ خَلَقْتَهُمْ عَلَى مِثَالِ وَاحِدٍ وَقَدَرٍ وَاحِدٍ وَطَبِيعَةٍ وَاحِدَةٍ وَجِبَلَةٍ وَاحِدَةٍ وَالْوَانِ وَاحِدَةٍ وَأَعْتَارٍ وَاحِدَةٍ وَأَرْزَاقٍ سَوَاءٍ لَمْ يَبْغِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ تَحَاسُدٌ وَلَا تَبَاغُضٌ وَلَا اخْتِلَافٌ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا آدَمُ، بِرُوحِي نَطَقْتَ وَبِضَعْفِ طَبِيعَتِكَ تَكَلَّمْتَ مَا لَا عِلْمَ لَكَ بِهِ وَأَنَا الْخَالِقُ الْعَالِمُ، بَعِلْمِي خَالَفْتُ بَيْنَ خَلْقِهِمْ وَبِمَشِيئَتِي يَمْضِي فِيهِمْ أَمْرِي وَإِلَى تَدْبِيرِي وَتَقْدِيرِي صَائِرُونَ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِي، إِنَّمَا خَلَقْتُ الْجَنَّةَ وَالْإِنْسَ لِيَعْبُدُونِ، وَخَلَقْتُ الْجَنَّةَ لِمَنْ أَطَاعَنِي وَعَبَدَنِي مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ رُسُلِي وَلَا أُبَالِي، وَخَلَقْتُ النَّارَ لِمَنْ كَفَرَ بِي وَعَصَانِي وَلَمْ يَتَّبِعْ رُسُلِي وَلَا أُبَالِي، وَخَلَقْتُكَ وَخَلَقْتُ ذُرِّيَّتَكَ مِنْ غَيْرِ فَاقَةٍ بِي إِلَيْكَ وَإِلَيْهِمْ، وَإِنَّمَا خَلَقْتُكَ وَخَلَقْتُهُمْ لِأَبْلُوكَ وَأَبْلُؤَهُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا فِي دَارِ الدُّنْيَا فِي حَيَاتِكُمْ وَقَبْلَ مَمَاتِكُمْ فَلِذَلِكَ خَلَقْتُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ

وَالْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ وَالطَّاعَةَ وَالْمَعْصِيَةَ وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ وَكَذَلِكَ أَرَدْتُ فِي تَقْدِيرِي وَتَدْبِيرِي،
وَبِعِلْمِي النَّافِذِ فِيهِمْ خَالَفْتُ بَيْنَ صُورِهِمْ وَأَجْسَامِهِمْ وَأَلْوَانِهِمْ وَأَعْمَارِهِمْ وَأَرْزَاقِهِمْ
وَطَاعَتِهِمْ وَمَعْصِيَتِهِمْ، فَجَعَلْتُ مِنْهُمْ الشَّقِيَّ وَالسَّعِيدَ وَالْبَصِيرَ وَالْأَعْمَى وَالْقَصِيرَ
وَالطَّوِيلَ وَالْجَمِيلَ وَالذَّمِيمَ وَالْعَالِمَ وَالْجَاهِلَ وَالْغَنِيَّ وَالْفَقِيرَ وَالْمَطِيعَ وَالْعَاصِيَّ
وَالصَّحِيحَ وَالسَّقِيمَ وَمَنْ بِهِ الزَّمَانَةُ وَمَنْ لَا عَاهَةَ بِهِ، فَيَنْظُرُ الصَّحِيحُ إِلَى الَّذِي بِهِ الْعَاهَةُ
فَيَحْمَدُنِي عَلَى عَافِيَتِهِ، وَيَنْظُرُ الَّذِي بِهِ الْعَاهَةُ إِلَى الصَّحِيحِ فَيَدْعُونِي وَيَسْأَلْنِي أَنْ أُعَافِيَهُ
وَيَصْبِرُ عَلَى بَلَائِي فَأُثْبِتُهُ جَزِيلَ عَطَائِي، وَيَنْظُرُ الْغَنِيُّ إِلَى الْفَقِيرِ فَيَحْمَدُنِي وَيَشْكُرُنِي،
وَيَنْظُرُ الْفَقِيرُ إِلَى الْغَنِيِّ فَيَدْعُونِي وَيَسْأَلْنِي، وَيَنْظُرُ الْمُؤْمِنُ إِلَى الْكَافِرِ فَيَحْمَدُنِي عَلَى مَا
هَدَيْتُهُ، فَلِذَلِكَ خَلَقْتُهُمْ لِأَبْلُوهُمْ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَفِيمَا أُعَافِيَهُمْ وَفِيمَا أَبْتَلِيَهُمْ وَفِيمَا
أُعْطِيَهُمْ وَفِيمَا أَمْنَعُهُمْ وَأَنَا اللَّهُ الْمَلِكُ الْقَادِرُ، وَلِي أَنْ أَمْضِيَ جَمِيعَ مَا قَدَرْتُ عَلَى مَا دَبَّرْتُ،
وَلِي أَنْ أُغَيِّرَ مِنْ ذَلِكَ مَا شِئْتُ إِلَى مَا شِئْتُ وَأُقَدِّمَ مِنْ ذَلِكَ مَا أَخَّرْتُ وَأُؤَخِّرَ مِنْ ذَلِكَ
مَا قَدَّمْتُ، وَأَنَا اللَّهُ الْفَعَّالُ لِمَا أُرِيدُ لَا أُسْأَلُ عَمَّا أَفْعَلُ وَأَنَا أَسْأَلُ خَلْقِي عَمَّا هُمْ
فَاعِلُونَ»^(١).

فطرية التدين

روي أن الإمام الحسين عليه السلام كان يناجي رب العزة والجلالة في دعاء عرفه قائلاً:
«وَبَرَأْتَنِي مِنْ أَوَّلِ الْعُمُرِ مِنَ الْإِغْنَاءِ مِنَ الْفَقْرِ، وَكَشَفَ الضَّرَّ، وَتَسَبَّبَ الْيُسْرَ،
وَدَفَعَ الْعُسْرَ، وَتَفَرَّجَ الْكُرْبَ، وَالْعَافِيَةَ فِي الْبَدَنِ، وَالسَّلَامَةَ فِي الدِّينِ»^(٢).

حيث يستفاد من مضمون هذه الجملة أن التدين فطري حاله حال فطرية
سلامة دين الإنسان؛ لأن كلمة (برأتني) تعني (خلقتني)، وما دامت بداية عمر

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٨-١٠، حديث ٢.

(٢) الكفعمي، إبراهيم بن علي، البلد الأمين: ص ٢٥٦.

الإنسان قائمة على سلامة من دينه، فإن تدينه كذلك سيسهل جزءاً من فطرته منذ صغره ونعومة أظفاره، ويتأكد هذا المعنى بلا شك في أولياء الله سبحانه.

قال إسماعيل بن قتيبة:

«دَخَلْتُ أَنَا وَعِيسَى سَلْقَانَ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام فَأَبْتَدَأْنَا فَقَالَ: عَجَباً لِأَقْوَامٍ يَدْعُونَ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام مَا لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ قَطُّ، حَظَبَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام النَّاسَ بِالْكُوفَةِ فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَلْهُمِ عِبَادَهُ حَمْدَهُ وَقَاطِرِهِمْ عَلَى مَعْرِفَةِ رُبُوبِيَّتِهِ، الدَّلَالُ عَلَى وُجُودِهِ بِخَلْقِهِ وَيَحْدُوثِ خَلْقِهِ عَلَى أَرْزَلِهِ وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَا شِبْهَ لَهُ، الْمُسْتَشْهِدِ بِآيَاتِهِ عَلَى قُدْرَتِهِ، الْمُتَنَبِّئَةِ مِنَ الصِّفَاتِ ذَاتَهُ وَمِنَ الْأَبْصَارِ رُؤْيَيْتَهُ وَمِنَ الْأَوْهَامِ الْإِحَاطَةَ بِهِ، لَا أَمَدَ لِكَوْنِهِ وَلَا غَايَةَ لِبَقَائِهِ، لَا تَشْمُلُهُ الْمَشَاعِرُ وَلَا تَحْجُبُهُ الْحُجُبُ، وَالْحِجَابُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ خَلْقُهُ إِيَّاهُمْ لِامْتِنَاعِهِ بِمَا يُمَكِّنُ فِي دَوَاتِهِمْ وَلِإِمْكَانِ بِمَا يَمْتَنِعُ مِنْهُ، وَلَا فَرِاقَ الصَّانِعِ مِنَ الْمَصْنُوعِ، وَالْحَادِ مِنَ الْمَحْدُودِ، وَالرَّبِّ مِنَ الرُّبُوبِ، الْوَاحِدِ بِلَا تَأْوِيلٍ عَدَدٍ وَالْخَالِقِ لَا بِمَعْنَى حَرَكَةٍ وَالْبَصِيرِ لَا بِأَدَاةٍ وَالسَّمِيعِ لَا بِتَفْرِيقِ آلَةٍ وَالشَّاهِدِ لَا بِمِمَّاسَةٍ وَالْبَاطِنِ لَا بِاجْتِنَانِ وَالظَّاهِرِ الْبَائِنِ لَا بِتَرَاخِي مَسَافَةٍ، أَرْزَلُهُ نُهْبَةً لِمَجَاوِلِ الْأَفْكَارِ وَدَوَامُهُ رَدْعٌ لَطَائِحَاتِ الْعُقُولِ قَدْ حَسَرَ كُنْهَهُ نَوَافِدُ الْأَبْصَارِ وَقَمَعَ وُجُودَهُ جَوَائِلُ الْأَوْهَامِ، فَمَنْ وَصَفَ اللَّهَ فَقَدْ حَدَّهُ وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ وَمَنْ عَدَّهُ فَقَدْ أَبْطَلَ أَرْزَلَهُ وَمَنْ قَالَ: أَيْنَ؟ فَقَدْ غَيَّاهُ وَمَنْ قَالَ: عَلَامَ؟ فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ وَمَنْ قَالَ: فِيمَ؟ فَقَدْ ضَمَّنَهُ»^(١).

تنوع الحقائق في مكنون ضمير الإنسان

ابتهل الإمام الحسين عليه السلام لرب العزة في دعاء عرفه قائلاً:

«يَا مَنْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ إِغْمَاضُ الْجُفُونِ وَلَا لِحْظُ الْعُيُونِ وَلَا مَا اسْتَقَرَّ فِي الْمَكْنُونِ»^(٢).

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ١٣٩-١٤٠، حديث ٥.

(٢) الكفعمي، إبراهيم بن علي، البلد الأمين: ص ٢٥٨.

إذا أخذنا بالحسبان أن المقصود بكلمة «المكنون» ضمير الإنسان المستور تسنى لنا أن نخرج بنتيجة مفادها أن الحقائق المستورة في ضمائر الناس على أنواع، منها ما هو مستقر ومنها ما ليس كذلك، وأما إن كان المقصود بـ«المكنون» ما هو مستور من الأمور، عندها يراد من هذه الجملة الأمور والأشياء المستقرة في الموجودات. ولو أننا عدنا إلى بداية دعاء عرفة ولاحظنا ما ورد فيها من عبارة مشابهة لهذه الفقرة سيقوى الاحتمال الأول، حيث جاءت بهذا اللفظ:

«وَبَاطِنِ مَكْنُونِ ضَمِيرِي»^(١).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام:

«بَلِ اَنْدَجْتُ عَلَى مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لَاضْطَرَبْتُمْ اضْطِرَابَ الْأَرْشِيِّةِ فِي الطَّوِيِّ الْبَعِيدَةِ»^(٢).

الهداية الفطرية للإنسان من الله تبارك وتعالى

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه دعا في قنوته:

«وَأَجْعَلْ عَلَى الْبَصِيرَةِ مَدْرَجَتِي، وَعَلَى الْهَدَايَةِ مَحَجَّتِي»^(٣).

يبدو أن المقصود من الهداية في دعاء الإمام هي الهداية الفطرية التي خلق الله الإنسان وفقاً لها، وفي هذه الفقرة كأنما سيّد الشهداء عليه السلام يطلب من الله العزيز أن تكون حجته طبقاً للهداية الفطرية التي لا تفارق الحق.

قال الله عز وجل في قرآنه المجيد:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٤).

(١) المصدر السابق: ص ٢٥٢.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ٥.

(٣) ابن طاووس، علي بن موسى، مهج الدعوات ومنهج العبادات: ص ٤٩.

(٤) الروم: آية ٣٠.

ونقل الكليني بسنده عن زرارة عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:
 «سَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾^(١)، قَالَ: الْحَنِيفِيَّةُ مِنَ الْفِطْرَةِ
 الَّتِي فَطَرَ اللَّهُ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ، قَالَ: فَطَرَهُمْ عَلَى الْمَعْرِفَةِ بِهِ»^(٢).

بعثة النبي صلَّى الله عليه وآله على الفطرة

حكي عن عمران بن ميثم أنه قال:

«دَخَلْتُ أَنَا وَعَبَايَةُ الْأَسَدِيُّ عَلَى امْرَأَةٍ مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهَا: حَبَابَةُ الْوَالِبِيَّةِ، فَقَالَ
 لَهَا عَبَايَةُ: تَدْرِينَ مَنْ هَذَا الشَّابُّ الَّذِي مَعِيَ؟ قَالَتْ: لَا، قَالَ: مَهْ ابْنُ أُخِيكَ مَيْثَمٌ،
 قَالَتْ: إِي وَاللَّهِ إِي وَاللَّهِ، ثُمَّ قَالَتْ: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ بِحَدِيثٍ سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْحَسَنِ
 ابْنِ عَلِيٍّ عليهما السلام؟ قُلْنَا: بَلَى، قَالَتْ: سَمِعْتُ الْحَسِينَ بْنَ عَلِيٍّ عليهما السلام يَقُولُ: نَحْنُ وَشِيعَتُنَا عَلَى
 الْفِطْرَةِ الَّتِي بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهَا مُحَمَّدًا صلَّى الله عليه وآله، وَسَائِرُ النَّاسِ مِنْهَا بَرَاءٌ»^(٣).

والعبارة واضحة الدلالة على أن النبي الأكرم صلَّى الله عليه وآله قد بعث من الله سبحانه
 بدين ينسجم تماماً مع الفطرة ويتلائم بصورة كاملة مع أبعادها المختلفة.
 ويؤكد هذا المعنى كلام الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام الذي يقول فيه:
 «فَبَعَثَ فِيهِمْ رَسُولَهُ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ، لِيَسْتَأْذُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ
 مَنَسِبِي نِعْمَتِهِ»^(٤).

(١) الحج: آية ٣١.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ١٢-١٣، حديث ٤.

(٣) الطوسي، محمد بن الحسن، اختيار معرفة الرجال المعروف برجال الكشي: ص ١١٤،

حديث ١٨٢.

(٤) نهج البلاغة: خطبة ١.

ولاية أهل البيت عليهم السلام من مقتضى الفطرة

هناك حقيقة تستخلص من ملاحظة الحديث المتقدم عن الإمام الحسين عليه السلام وهي أنّ ولاية المعصومين عليهم السلام متطابقة مع الفطرة ومقتضياتها.

قال الإمام علي عليه السلام:

«أَمَّا إِنَّهُ سَيُظْهِرُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي رَجُلٌ رَحْبُ الْبُلْعُومِ، مُنْدَحِقُ الْبَطْنِ، يَأْكُلُ مَا يَجِدُ، وَيَطْلُبُ مَا لَا يَجِدُ، فَاقْتُلُوهُ وَلَنْ تَقْتُلُوهُ، أَلَا وَإِنَّهُ سَيَأْمُرُكُمْ بِسَبِّي وَالْبَرَاءَةِ مِنِّي؛ فَأَمَّا السَّبُّ فَسُبُّونِي، فَإِنَّهُ لِي زَكَاةٌ، وَلَكُمْ نَجَاةٌ؛ وَأَمَّا الْبَرَاءَةُ فَلَا تَتَبَرَّؤُوا مِنِّي؛ فَإِنِّي وُلِدْتُ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَسَبَقْتُ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْهَجْرَةِ»^(١).

(١) المصدر السابق: خطبة ٥٧.

ح) الكشف والشهود

من طرق المعرفة ومصادرها «الكشف والشهود»، وقد تمت الإشارة إليه في الروايات الشريفة، ويراد بالكشف: الشهود القلبي والباطني والوجداني الذي يتحقق عبر السلوك المعنوي الملازم للإيمان بالقرآن والسنة والعمل طبقاً لهما.

وورد عن القيصري في معنى الكشف قوله:

«إنَّ الكشف لغة رفع الحجاب، يقال: كشفت المرأة وجهها، أي رفعت نقابها. واصطلاحاً هو الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية والأمور الحقيقية وجوداً أو شهوداً»^(١).

وتوضيحه: بحسب الرؤية الكونية الإسلامية يعدّ «القلب» من أدوات المعرفة ووسائلها. وليس المقصود من «القلب» هنا هو القلب الصنوبري، وإنما المراد به العقل الذي أشارت إليه الآية الشريفة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾^(٢) حيث جاء في التفسير: أي من كان له عقل^(٣)، أو هو مركز العواطف والإحساسات وما لا يمكن إدراكه عن طريق الحس والعقل، كما في الآية ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لَفَقَّرْنَا بِكَ لَافْتًا مِّنْ حَوْلِكَ﴾^(٤) التي تشير لهذا المعنى.

يعتقد الكثير من العرفاء وأهل الإشراف من الفلاسفة الإسلاميين وبعض

(١) القيصري، داود بن محمود، شرح فصوص الحكم: ص ١٠٧.

(٢) ق: آية ٣٧.

(٣) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ١٦.

(٤) آل عمران: آية ١٥٩.

فلاسفة الغرب مثل: «هنري برغسون»^(١) أنّ الوسيلة الوحيدة للمعرفة هي الإلهام، وتقف هذه النظرية في النقطة المقابلة للنظرية المادّية التي تنكر من الأساس حصول حالة كهذه لدى الإنسان. فلا يرى العرفاء طريقاً موصلاً للحقائق سوى تزكية النفس وصفاء الباطن، ولا يعتقدون بصحة غيره من الطرق كالحس والعقل، ويلزمه بطلان الاستدلالات العقلية، بينما الفلاسفة يقفون في الجهة المعاكسة لهم ويعتبرون ما عليه العرفاء ضرباً من الانفعالات والعواطف، وأنّ الطريق الموصل للحقائق هو الحس والتعقل لا غير، خالفهم في ذلك الفلاسفة الإسلاميون باعتبارهم طريق تزكية النفس وطهارة الباطن المستلهم من الكتاب والسنة أحد طرق المعرفة أيضاً؛ غاية الأمر أنّه طريق موصل لتلك المعارف التي لا يستطيع الحس والعقل بلوغها^(٢).

فقد روي عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قوله:

«... وَمَنْ يَرْغَبِ فِي الدُّنْيَا فَطَالَ فِيهَا أَمَلُهُ أَعْمَى اللهُ قَلْبَهُ عَلَى قَدْرِ رَغْبَتِهِ فِيهَا، وَمَنْ زَهَدَ فِيهَا فَقَصَّرَ فِيهَا أَمَلُهُ أَعْطَاهُ اللهُ عِلْماً بَغَيْرِ تَعَلُّمٍ وَهُدًى بَغَيْرِ هِدَايَةٍ فَأَذْهَبَ عَنْهُ الْعَمَى وَجَعَلَهُ بَصِيراً...»^(٣).

وروي أيضاً أنّه صلى الله عليه وآله قال:

«مَا أَخْلَصَ عَبْدٌ لِللَّهِ عز وجل أَرْبَعِينَ صَبَاحاً إِلَّا جَرَتْ يَتَابِعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ»^(٤).

(1) Henri Bergson.

(2) إبراهيميان، حسين، معرفت شناسي از دیدگاه برنخي از فلاسفه اسلامي وغربي (نظرية المعرفة في آراء بعض الفلاسفة الإسلاميين والغربيين): ص ١٩٣-٢٠٠.

(3) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٥٩-٦٠.

(4) ابن بابويه، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ٢، ص ٦٩، حديث ٣٢١.

وقال الإمام الصادق عليه السلام مخاطباً عنوان البصري:
 «لَيْسَ الْعِلْمُ بِالْتَّعَلُّمِ إِنَّمَا هُوَ نُورٌ يَقَعُ فِي قَلْبٍ مَنْ يُرِيدُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ
 يَهْدِيَهُ»^(١).

الحاجة إلى التمييز بين الحق والباطل في المكاشفات

هناك عاملان مؤثران جداً وهما الشيطان والنفس في إيهاام الإنسان وخلط الأمور وتلبيسها عليه حتى تغدو عنده الأمور الباطلة حقائق صادقة، بحيث يصبح من الصعب عليه تمييز بطلان أكثرها، رغم علمه ببطلان الطريق الذي سلكه للوصول إليها، كالرياضات الباطلة أو العلوم والأوهام والمغالطات التي حشدها في مخيلته وصدّق بها تدريجياً حتى أصبحت إثر تكرارها من الثوابت عنده حاله في ذلك حال أكثر أئمة الباطل الذين عادة ما يعتقدون بصحة وصواب ما توصلوا إليه في بعض مراحل سيرهم الباطل. هذا الأمر يحتم علينا التنبه وأخذ الحيطه والحذر لكثرة المكاشفات الوهمية، إذ الكشف قد يحصل تارة نتيجة التلقينات المتكررة وانحراف الذهن والفكر عن جادة الصواب، وتارة أخرى نتيجة الإلقاءات الشيطانية متمثلاً في ذهن الإنسان على شكل صور وحوادث لا تمت للواقع بصلة. وقد أشارت الآيات القرآنية الكريمة إلى تفاصيل هامة جداً حول دور هذين العاملين، فمن الآيات الشريفة ما تناول دور الشيطان كما في الآيات أدناه:

- ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِرُحُونَِ إِلَىٰ آيَاتِهِمْ لِيُجَدِّدُ لَكُمْ﴾^(٢).
 - ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّيَ الْفَى الشَّيْطَانُ فِي أَمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقِ

(١) المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: ج ١،

ص ٢٢٥، حديث ١٧.

(٢) الأنعام: آية ١٢١.

بَعِيدٌ ﴿١﴾.

- ﴿إِنَّمَا التَّجَوَّىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِخَشْيَتِكَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٢﴾.

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُرْتَدُوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ﴾ ﴿٣﴾.

- ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿٤﴾.

تقودنا ملاحظة الآيات أعلاه إلى استنتاج هو أن دخالة الشيطان تقع على أنحاء، من قبيل: الإلقاء في الذهن والقلب، والتدخل في النوايا والأمانى والعقائد الباطلة وغيرها مما يضع غير المعصوم في دائرة القلق بشأن الاطمئنان من توفر وثبات الوقاية والحصانة مائة بالمائة من ذلك؛ لذا يجب محاكمة جميع الخواطر والإلقاءات والمكاشفات والأمور الشهودية عن طريق مقارنتها دائماً مع كشف ومشاهدات المعصومين الحقة وعرضها على العقل القطعي.

وأما العامل الثاني - وهو النفس - فما أكثر الآيات التي بينت دوره وخطره، إذ بينت حقيقة تأثير نفس الإنسان وسهمها الوافر في خلق الأوهام والتخيلات، وطبعاً المراد بها هنا النفس الأمارة حيث تلبس على صاحبها أحياناً وتريه الباطل حقاً^(٥).

(١) الحج: آية ٥٢-٥٣.

(٢) المجادلة: آية ١٠.

(٣) محمد: آية ٢٥.

(٤) الأنعام: آية ١١٢.

(٥) معلمي، حسن، «معيار سنجش وتمييز شهود رحماني از شهود شيطاني» (معيار مقارنة وتمييز الشهود الرحماني عن الشهود الشيطاني)، مجلة مطالعات معنوي (دراسات معنوية): العدد ٤، و٥،

١٣٩١ هـ. ش، ص ١٣٦-١٣٧.

المعياري في تمييز المكاشفات الرحمانية عن الإلقاءات الشيطانية

بما أنّ العقل والوحي حجتان إلهيتان للإنسان اقتضى ذلك أن يتخذهما الإنسان معياراً لتمييز الحق عن الباطل بصورة مطلقة، وخصوصاً فيما نحن فيه؛ لأنّ غير المعصوم دائماً ما يكون على مشارف الابتلاء بالإلقاءات الشيطانية والأوهام النفسانية، والمغالطات الاستدلالية واحتمال الوقوع فيها، وهذا ما يفرض إجراء تقييم شامل لجميع مشاهدات العرفاء بواسطة هذين المعيارين دون استثناء لأيّ أحد سوى المعصوم. وعندها لن تكون هناك أية قيمة معرفية لمكاشفات الأستاذ أو القطب أو المراد ما لم تعرض للتقييم وفق هذين المعيارين والخروج بنتائج إيجابية، وحتى ما ذكره من علامات لتشخيص الكشف الصحيح من قبيل سكون القلب والاطمئنان النفسي لا يشذ عن هذه القاعدة لعدم معرفة المنشأ؛ نظراً لوجود الكثير من الرياضات غير المشروعة أو نتيجة للإرشادات التي تأمر بها بعض الديانات غير الإبراهيمية والتي تبعث نوعاً ما على حالة من الاطمئنان النفسي والسكينة، إضافة إلى علمنا بضرورة أن تكون النتيجة والطريق المؤدّي لها ممّا شرعته الأديان الحقة.

وبالتالي لا الآثار التي عددها الكتب العرفانية حجة ولا ما طرحه الأستاذ أو القطب سيحل المشكلة ويوصلنا للحقائق، وما يقطع بحجّيته فقط هو عبارة عن: اليقين والقطع (البدييات وما يقرب منها)، والنقل القطعي والنقل الظني الذي قام عليه دليل قطعي أيضاً^(١).

إمكان معرفة الله عن طريق الغيب

روى ابن شعبة الحرّاني في «تحف العقول» عن الإمام الحسين عليه السلام أنّه قال واصفاً الله تعالى:

(١) المصدر السابق: ص ١٣٧-١٣٨.

«لَا تَتَدَاوَلُهُ الْأُمُورُ، وَلَا تَجْرِي عَلَيْهِ الْأَحْوَالُ، وَلَا تَنْزِلُ عَلَيْهِ الْأَحْدَاثُ، وَلَا يَقْدِرُ الْوَاصِفُونَ كُنْهَ عَظَمَتِهِ، وَلَا يَحْطُرُّ عَلَى الْقُلُوبِ مَبْلَغُ جَبَرُوتِهِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِي الْأَشْيَاءِ عَدِيلٌ، وَلَا تُدْرِكُهُ الْعُلَمَاءُ بِالْبَابِهَا، وَلَا أَهْلُ التَّفَكِيرِ بِتَفْكِيرِهِمْ إِلَّا بِالتَّحْقِيقِ إِيقَانًا بِالْغَيْبِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُوصَفُ بِشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ، وَهُوَ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ، مَا تُصَوَّرُ فِي الْأَوْهَامِ فَهُوَ خِلَافُهُ»^(١).

إذ يفهم من عبارة «...إِلَّا بِالتَّحْقِيقِ إِيقَانًا بِالْغَيْبِ» أَنَّ الْحَقَّ تَعَالَى لَا يَدْرِكُ وَلَا يَعْرِفُ عَنْ طَرِيقِ التَّعْقُلِ وَالتَّأَمُّلِ، وَإِنَّمَا يَدْرِكُ وَيَعْرِفُ إِيمَانًا بِالْغَيْبِ وَفَقَّ مَا ذَكَرْتَهُ الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ وَرَوَايَاتُ الْمُعْصَمِينَ عليهم السلام الَّتِي تَخْبِرُ عَنْهُ سَبْحَانَهُ. وَأَمَّا طَرِيقُ الشُّهُودِ الْوَجْدَانِيِّ وَالكَشْفِ الْبَاطِنِيِّ فَلَهُ شُرُوطُهُ الْخَاصَّةُ، وَمِنْ بَابِ الْإِحَاطَةِ بِجَوَانِبِهِ وَزَوَايَاهُ سَنَفَرِدُ لَهُ كِتَابًا مُسْتَقِلًّا ضَمَّنَ هَذِهِ الْمَوْسُوعَةَ تَحْتَ عُنْوَانِ «الْعِرْفَانِ الْحُسَيْنِيِّ».

قال الإمام علي عليه السلام في وصف الله تعالى:

«لَا تَنَالُهُ الْأَوْهَامُ فَتُقَدَّرُهُ، وَلَا تَتَوَهَّمُهُ الْفُطُنُ فَتُصَوَّرُهُ، وَلَا تُدْرِكُهُ الْحَوَاسُّ فَتُحَسِّنُهُ، وَلَا تَلْمَسُهُ الْأَيْدِي فَتَمَسُّهُ، وَلَا يَتَغَيَّرُ بِحَالٍ، وَلَا يَتَبَدَّلُ فِي الْأَحْوَالِ، وَلَا تُبْلِيهِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامُ، وَلَا يُغَيِّرُهُ الضِّيَاءُ وَالظَّلَامُ، وَلَا يُوصَفُ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَجْزَاءِ، وَلَا بِالْجَوَارِحِ وَالْأَعْضَاءِ، وَلَا بَعَرَضٍ مِنَ الْأَعْرَاضِ، وَلَا بِالْغَيْرِيَّةِ وَالْأَبْعَاضِ، وَلَا يُقَالُ لَهُ حَدٌّ وَلَا نِهَآيَةٌ، وَلَا انْقِطَاعٌ وَلَا غَايَةٌ»^(٢).

وقال الإمام السجاد عليه السلام:

«أَلَا إِنَّ لِلْعَبِيدِ أَرْبَعَ أَعْيُنٍ: عَيْنَانِ يُبْصِرُ بِهِمَا أَمْرَ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَعَيْنَانِ يُبْصِرُ بِهِمَا أَمْرَ آخِرَتِهِ، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا فَتَحَّ لَهُ الْعَيْنَيْنِ اللَّتَيْنِ فِي قَلْبِهِ، فَأَبْصَرَ بِهِمَا الْغَيْبَ فِي أَمْرِ

(١) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٤٤.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ١٨٦.

آخِرَتِهِ، وَإِذَا أَرَادَ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ تَرَكَ الْقَلْبَ بِمَا فِيهِ»^(١).

وقال الإمام الصادق عليه السلام:

«كُشِطَ لِإِبْرَاهِيمَ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ حَتَّى نَظَرَ إِلَى مَا فَوْقَ الْعَرْشِ، وَكُشِطَ لَهُ الْأَرْضُ حَتَّى رَأَى مَا فِي الْهَوَاءِ، وَفَعَلَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ ذَلِكَ...»^(٢).

ونقل الشيخ الصدوق بسنده عن محمد بن فضيل أنه قال:

«سَأَلْتُ أَبَا الْحَسَنِ عليه السلام هَلْ رَأَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، بِقَلْبِهِ رَأَاهُ، أَمَا سَمِعْتَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾^(٣)، أَي لَمْ يَرَهُ بِالْبَصْرِ وَلَكِنْ رَأَاهُ بِالْفُؤَادِ»^(٤).

المعارف النفسانية للمؤمن

قال الإمام الحسين عليه السلام:

«إِنَّ الْمُؤْمِنَ اتَّخَذَ اللَّهُ عِصْمَتَهُ، وَقَوْلُهُ مِرَاتُهُ، فَمَرَّةً يَنْظُرُ فِي نَعْتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَارَةً يَنْظُرُ فِي وَصْفِ الْمُتَجَرِّبِينَ، فَهُوَ مِنْهُ فِي لَطَائِفَ، وَمِنْ نَفْسِهِ فِي تَعَارُفٍ، وَمِنْ فِطْنَتِهِ فِي يَقِينٍ، وَمِنْ قُدْسِهِ عَلَى تَمَكِينٍ»^(٥).

فمن عبارة «وَمِنْ نَفْسِهِ فِي تَعَارُفٍ» يتبين لنا أن المؤمن يكتسب معارف نفسانية

(١) ابن بابويه، محمد بن علي، الخصال: ج ١، ص ٢٤٠، حديث ٩٠؛ المجلسي، محمد باقر بن محمد

تقي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: ج ٦٧، ص ٥٣، حديث ١٦.

(٢) الصفار، محمد بن الحسن، بصائر الدرجات في فضائل آل محمد (صلوات الله عليهم أجمعين):

ص ١٠٧، حديث ٢.

(٣) النجم: آية ١١.

(٤) ابن بابويه، محمد بن علي، التوحيد: ص ١١٦، حديث ١٧؛ المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي،

بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: ج ٤، ص ٤٣، حديث ١٩.

(٥) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٤٨.

بتأمله في الآيات القرآنية، وهو مقتضى تفريع الإمام عليه السلام هذا الحكم على عنوان المؤمن.

يقول عز وجل:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾.

ويقول أيضاً:

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ^(١).

ويقول كذلك:

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ ^(٢).

ونقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«الإيمان في عشرة: المعرفة والطاعة والعلم والعمل والورع والاجتهاد والصبر واليقين والرضا والتسليم، فأَيُّهَا فَقَدْ صَاحِبُهُ بَطَلَ نِظَامُهُ» ^(٣).

ووصف أمير المؤمنين عليه السلام حال السالك إلى الله سبحانه بقوله:

«قَدْ أَحْبَبَىٰ عَقْلُهُ، وَأَمَاتَ نَفْسُهُ، حَتَّىٰ دَقَّ جَلِيلُهُ، وَلَطْفَ غَلِيظُهُ، وَبَرَقَ لَهُ لَامِعٌ كَثِيرٌ الْبَرَقِ، فَأَبَانَ لَهُ الطَّرِيقَ، وَسَلَكَ بِهِ السَّبِيلَ، وَتَدَافَعَتَهُ الْأَبْوَابُ إِلَىٰ بَابِ السَّلَامَةِ، وَدَارَ الْإِقَامَةِ، وَثَبَّتَتْ رِجْلَاهُ بِطُمَأْنِينَةٍ بَدَنِهِ فِي قَرَارِ الْأَمْنِ وَالرَّاحَةِ، بِمَا اسْتَعْمَلَ قَلْبُهُ، وَأَرْضَىٰ رَبَّهُ» ^(٤).

(١) الأنفال: آية ٢-٤.

(٢) العنكبوت: آية ٦٩.

(٣) الأنعام: آية ٧٥.

(٤) الكراچكي، محمد بن علي، كنز الفوائد: ج ٢، ص ١١.

(٥) نهج البلاغة: خطبة ٢٢٠.

وقال أيضاً في موضع آخر:

«إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ الذِّكْرَ جِلَاءً لِلْقُلُوبِ، تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرَةِ، وَتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَةِ، وَتَنْقَادُ بِهِ بَعْدَ الْمَعَانِدَةِ، وَمَا بَرِحَ اللَّهُ عَزَّتْ أَلَاؤُهُ فِي الْبُرْهَةِ بَعْدَ الْبُرْهَةِ، وَفِي أَرْمَانِ الْفَتَرَاتِ، عِبَادًا نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ، وَكَلَّمَهُمْ فِي ذَاتِ عَقُولِهِمْ»^(١).

المعرفة الإشرافية

روي عن الإمام الحسين عليه السلام قوله مبتهلاً لرب العزة والجلالة:

«أَنْتَ الَّذِي أَشْرَقْتَ الْأَنْوَارَ فِي قُلُوبِ أَوْلِيَائِكَ حَتَّى عَرَفُوكَ وَوَحَّدُوكَ»^(٢).

إذ يستفاد من مضمون هذه العبارة أنّ هناك أنواعاً للمعرفة، ومنها المعرفة الإشرافية التي تتحصل عن طريق تهذيب النفس وتزكيته، والمعرفة المشائية التي تعدّ نوعاً آخر للمعرفة يعتمد العقل والفكر في الوصول إلى الحقائق.

من أبرز المعطيات المتاحة عندنا أنّ الإنسان العارف - في المعرفة الإشرافية - يصبح محلاً لإشراق المعارف الإلهية وإفاضتها بعدما يهيئ قلبه عبر تهذيب نفسه وسلوكه الباطني، فيعلم علماً حضورياً بالله سبحانه ومن ثمّ يصل إلى الله تعالى بعد تكشف الحجب وازمحلها بأنواعها المختلفة.

والإشراق إنّما هو نوع خاص ومميز من الإلهام، رغم أنّ الإلهام يستعمل في غير الحقائق الإلهية أيضاً، مثل الإلهام الذي يحدث عند العلماء التجريبيين من أجل الوصول إلى حقائق الأشياء، وسيأتي بحثها في القسم التالي.

لقد شرح آية الله سعادت پرور هذه العبارة الأنفة الذكر من الدعاء مفصلاً الكلام فيها بقوله:

«أبرز ما يخرج به المرء عندما يتدبّر هذه الفقرة من الدعاء النقاط التالية:

(١) المصدر السابق: خطبة ٢٢٢.

(٢) ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال: ج ١، ص ٣٤٩.

١- قال الإمام: (أَشْرَقَتْ) ولم يقل: (جَعَلَتْ)؛ نظراً لما يشتمل عليه الإشراق من وهج وشعاع غير متوفر بالجعل.

٢- جاءت كلمة (أنوار) بصيغة الجمع ولم تأت بصيغة المفرد، وفي ذلك دلالة على سعة المعنى أكثر مما لو كان النور قد استعمل مفرداً.

٣- وقال عليه السلام: (فِي قُلُوبِ)، ولم يقل: (فِي أَفْكَارِ) أو (فِي عَقُولِ)، وفيه إشارة إلى لحاظ خصوصية ما يشتمل عليها القلب دون الفكر والعقل.

٤- إنَّ الإمام عليه السلام عبّر بكلمة (أَوْلِيَاءِكَ) ولم يعبر بـ(أهل الفكر) أو (أهل العقل)، ومنه يعلم وجود خصوصية في الأولياء لا يمتلكها غيرهم.

٥- وقال عليه السلام: (حَتَّى عَرَفُوكَ) ولم يقل: (حَتَّى عِلْمُوكَ)، ومعناه أنَّ هناك خصوصية في العرفان لا يعثر عليها في العلم.

٦- قال عليه السلام: (وَوَحَّدُوكَ) وما قال: (عَلِمُوا أَوْ عَقَلُوا وَحَدَانِيَّتِكَ)؛ لما تضمنته معرفته سبحانه وتعالى من دقة لن تتحقق في العلم والتعقل^(١).

وفي تمة البحث قال:

«من خلال ضمّ ظواهر العبارات المتقدمة ندرك أنَّ الأولياء يعدّون كذلك متى ما أشرقت أنوار الأسماء وصفات الذات على قلوبهم، ولم تبق أدنى ظلمة في شهود معرفة الحق ووحدانيته.

وربما الجمل أعلاه هي نفسها المطالب التي أشير إليها في المناجاة الشعبانية، حيث يقول الداعي:

(إِلْهِى هَبْ لِي كِمَالَ الْإِنْقِطَاعِ إِلَيْكَ، وَأَنْزِرْ أَبْصَارَ قُلُوبِنَا بَضِيَاءَ نَظَرِهَا إِلَيْكَ، حَتَّى

(١) سعادت پرور، علي، نور هدايت (نور الهداية): ج ٣، ص ٢٣٣.

تَحْرِقُ أَبْصَارَ الْقُلُوبِ حُجْبَ النُّورِ، فَتَصِلَ إِلَى مَعْدِنِ الْعُظْمَةِ، وَتَصِيرَ أَرْوَاحَنَا مُعَلَّقَةً
بِعِزِّ قُدْسِكَ).

ويقول:

(إلهي وألحقتني بنور عزك الأبهج، فأكون لك عارفاً، وعن سواك منحرفاً، ومنك
خائفاً مراقباً)^(١).

وفي دعاء الجوشن الكبير جاء التعبير:

«يَا مَنْ لَا يَبْعُدُ عَن قُلُوبِ الْعَارِفِينَ»^(٢).

وعن يونس بن ظبيان قال:

«دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: أَرَأَيْتَ اللَّهُ حِينَ عَبَدْتَهُ؟

قَالَ: مَا كُنْتُ أَعْبُدُ شَيْئاً لَمْ أَرَهُ.

قَالَ: فَكَيْفَ رَأَيْتَهُ؟

قَالَ: لَمْ تَرَهُ الْأَبْصَارُ بِمُشَاهَدَةِ الْعِيَانِ، وَلَكِنْ رَأَتْهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ، لَا يُدْرِكُ

بِالْحَوَاسِّ، وَلَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ، مَعْرُوفٌ بِغَيْرِ تَشْبِيهِ»^(٣).

(١) المصدر السابق: ج ٣، ص ٢٣٣-٢٣٤.

(٢) الكفعمي، إبراهيم بن علي، مصباح الكفعمي: ص ٢٥٥.

(٣) الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج ٢، ص ٣٣٦.

ط) الطبيعة

تعدّ «الطبيعة» وما هي عليه من النظام مصدراً آخر من مصادر العلم والمعرفة للإنسان، وقد ألفت لها الروايات الشريفة وأشارت إلى جوانب مما يتعلق بها. قال الشهيد مطهري:

«الطبيعة أحد مصادر المعرفة، ويقصد بها العالم الجسماني، عالم الزمان والمكان، عالم الحركة، هذا العالم الذي نعيش فيه ونتعاطى معه بواسطة حواسنا. ومن النادر جداً أن تكون هناك مدرسة فكرية لا تعتقد بأنّ الطبيعة مصدر معرفي، إلاّ أنّه قد ذهب إلى هذا الرأي الشاذ علماء منهم من عاش في قديم الأزمان ومنهم من يعيش في العصر الحالي، ومن الأمثلة على ذلك أفلاطون فإنّه لا يرى أنّ الطبيعة تشكل مصدراً للمعرفة بتاتاً؛ لأنّ ارتباط الإنسان بالطبيعة يتمّ بواسطة الحواس، وبهذا سيكون ارتباطه جزئياً، والجزئي لا يدرك الحقيقة، ويعود السبب في ذلك إلى اعتقاده بأنّ مصدر المعرفة هو العقل بنحو من الاستدلال الذي أطلق عليه أفلاطون نفسه اسم (الديالكتيكية).

ولعل ما يثير تعجبك ما عليه ديكارت وكان أحد الفيلسوفين اللذين شقا مسلماً ومنهجاً جديداً للعلم، ورغم أنّه كان فيلسوفاً مادياً، ومن الدعاة لمطالعة الطبيعة إلاّ أنّه لا يرى لها قيمة كمصدر للمعرفة ولا للحواس كأدوات لها أيضاً. فمع أنّه يقول: يجب مطالعة الطبيعة والتعرف إليها ولا بدّ أن يتمّ ذلك عن طريق الحواس، ولكنه يخلص بنتيجة أنّ هذا لا يوصلنا إلى حقيقة، وما ينشأ عن ذلك من العلم ينفعا لكننا لا يمكن أن نثق به تماماً بحيث نظمن بأنّ ما عرفناه هو في الواقع كما عرفناه، وتكون له قيمة عملية لا قيمة نظرية ومعرفية.

إلاّ أنّ هؤلاء قلّة بين أصحاب الرأي، وأما الأكثر فهم على قناعة تامة بأنّ الطبيعة

تعدّ مصدراً معرفياً كغيرها.

والآن نتساءل هل هذا العلم الجديد الذي يراه الإنسان وما بلغه من تطور فنياً وصناعياً وتكنولوجياً، هو كذلك أيضاً بلحاظ المعرفة بمعناها الواقعي؟ أي هل أنّ العالم والواقع العيني كما يعرضهما لنا؟ أو أنّ كلام ديكارت صحيح؛ فيعطينا القدرة والإمكانية وتصبح له قيمة عملية دون أن يشعرنا بالاطمئنان بأنّ علم البشر اليوم يوصلنا للواقع كما هو.

بيرتراند راسل له كتاب باسم (الرؤية العلمية للكون)، حيث تضمن بحثاً جذابة جداً تحت عنوان (خصال المنهاج العلمية) أو (قيود المنهاج العلمية) - وهو في الواقع خدش في القيمة النظرية والمعرفية للمناهج العلمية - إذ يقول بمنتهى الصراحة: العجيب أنّه يوماً بعد آخر تزداد القيمة العملية للعلم المعاصر فهو يرفع من قدرة البشر وتمكنهم وتسلطهم على الطبيعة، ولكن قيمة هذا العالم أيضاً تتناقص كما يعرضه هذا العلم يوماً بعد آخر نظرياً ومعرفياً، بحيث إنّ المسلمات بل وأشدّ المسائل بدهاة لدى العلماء السابقين والناس العاديين، أصبحت أموراً مشكوكة في نظر الفيزيائي. ويقول: إذا تسألني بلغة علمية ما مدى واقعية هذا العالم؟ وهل هناك نظام؟ أجيب: لا أدري، إجمالاً توجد مجموعة نقاط، مجموعة حوادث متفرقة في العالم، لا نظام ولا ضرورة ولا أساس ولا أصل.

فهو يرى أنّ العلم المعاصر لا يستطيع إثبات أيّ شيء، ويجب علينا قبول تلك الأمور على أنّها مفروضة.

ورغم ما في هذا الرأي من تبعات يتداعى لها الفكر الفلسفي للفلاسفة الماديين مثل راسل إلاّ أنّه باعتباره فيلسوفاً يتسم بفكر حر وآراء بعيدة عن الإملاءات كما أسلفت نجده يطرح ما يفهمه ويدركه ولو كان على خلاف مذهبه ومرتكزاته الفكرية. ونحن حالياً لسنا بصدد البحث عن أسباب فقدان العلم المعاصر لقيّمته النظرية

والمعرفة، والتنقيب عن جذور هذه المسألة، خصوصاً وأننا لا نعتقد بهذا الأمر من رأس.

المفترض الآن هو أنّ الطبيعة تعدّ أحد مصادر المعرفة. طبعاً إذا قصدنا بالمعرفة معناها الواسع، أي تلك المعرفة التي تمنحنا القدرة والإمكانية العملية أو المعرفة التي تعرض لنا الواقع كما هو، وعندها لا يبقى أيّ شك أو تردد فيها. فالمادّيون قبلوا ذلك فعلاً سواء منهم المادّيون الأحرار أو المادّيون غير الأحرار أو التابعون لسياسة ما^(١).

إمكان كسب المعرفة عن طريق الآثار

فقد روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنّه قال:

«إِلَهِي أَمَرْتُ بِالرُّجُوعِ إِلَى الْأَثَارِ فَأَرْجِعْنِي إِلَيْكَ بِكِسْوَةِ الْأَنْوَارِ...»^(٢).

وفي مضمون هذا الدعاء دلالة على إمكانية تحصيل المعرفة بالله سبحانه عن طريق الآثار والآيات الآفاقية والأنفسية. ويرشدنا إلى ذلك قوله عليه السلام:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لِآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢﴾﴾^(٣).

(١) مطهري، مرتضى، مجموعه آثار استاد شهيد مطهري (مجموعة آثار الأستاذ الشهيد مطهري):

ج ١٣، ص ٣٧٢-٣٧٤.

(٢) ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال: ج ١، ص ٣٤٩.

(٣) آل عمران: آية ١٩٠-١٩١.

ي) الحس

يعدّ «الحس» من أدوات المعرفة ومصادرها التي قد أشير إليها في الروايات، ويراد به القوى الحسية التي تدرك بها الأمور المحسوسة مثل: القوة الباصرة واللامسة والذائقة والسامعة والشامّة، ويفترق الحس عن التجربة في أنّ التجربة تقوم على أساس الملاحظة المنظمة والمقصودة للظواهر بعد وضع الفروض الملائمة والتحقق منها ومن ثمّ جمع البيانات وتحليلها.

ومّا لا شك فيه أنّ حواس الإنسان في الواقع تمثل أدواته التي بها يتعرف على الجزئيات العائدة لتلك الحاسة والمتعلّقة بأحكام العقل الكلية.

وبالرغم من كون الحس أداة معرفية لكن أفلاطون خالف ذلك ورفضه تماماً وقصر المعارف على ما كان عن طريق التعقل، وعدّ المعقول هو وحده ما قد يعرف، وأمّا الحواس الخمس فلا تعدّ وسيلة للمعرفة الحقيقية أبداً، والطريق الوحيد إلى ذلك هو البراهين العقلية؛ لأنّ الحواس تتعلق بالجزئيات وهي دوماً في حالة تغير وتبدّل في حين أنّ موضوع المعرفة لا بدّ أن يكون كلياً^(١).

أمّا بحسب النصوص الدينية فإنّ حواس الإنسان يمكن عدّها من أدوات العلم والمعرفة وآلياتها، فالله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٢).

(١) ابراهيميان، حسين، معرفت شناسي از دیدگاه برخي از فلاسفه اسلامي وغربي (نظريّة المعرفة في آراء بعض الفلاسفة الإسلاميين والغربيين): ص ١٧٨-١٧٩.

(٢) النحل: آية ٧٨.

ويجدر بنا في الوقت ذاته أن ننبه إلى أن المعرفة الحسية سطحية وهذا ما جعلها متشابهة لا تختلف عند الإنسان والحيوان، ونذكر هنا مجموعة من الخصائص التي تمتاز بها المعرفة الحسية، ومنها:

- ١- عدم إدراكها عمق الظواهر وعدم نفوذها إلى بواطن الأشياء.
- ٢- إنها تقدّم تصوراً جزئياً للأشياء إذ يتعلق الحس بكل شيء على حدة.
- ٣- تكون محدودة بالزمن الحاضر، وليس لها القدرة على تجاوز ذلك والتعرف للأشياء الماضية والمستقبلية.
- ٤- إنها محدودة بمكان خاص فلا تتعداه إلى ما وراء الحدود المكانية.
- ٥- تتأثر الحواس بحالة الإنسان والظروف التي يمر بها على المستوى البدني والنفسي^(١).

إنّ للحواس دورها الهام في المعرفة الدينية، حيث يبرز ذلك مثلاً في الحاسة الباصرة والتي يتمكن الإنسان بواسطتها من مشاهدة الآيات التكوينية وسواء كانت تلك المشاهدات سطحية للظواهر أم مشاهدة علمية دقيقة وعميقة فإنّها على أقل تقدير ستهيئ الأرضية للتفكير والتعقل في منظومة الطبيعة العظيمة، وتكون بمثابة المقدّمة للأدلة على إثبات وجود الله سبحانه وصفاته الكمالية؛ إذ تستنشأ عن طريقها براهين عقلية كبرهان الحدوث والحركة والنظم. ويظهر دور المشاهدة كذلك في إثبات النبوة والإمامة عند مشاهدة المعجزة، علاوة على إثبات أحقية وحقانية الدين والشريعة. وسوف لن يختلف الحال لو انتقلنا إلى حاسة أخرى كالسامعة فسنجد لها كذلك دوراً عميقاً وواسعاً في المعرفة الدينية، وذلك لأنّ

(١) إبراهيميان، حسين، معرفت شناسي از دیدگاه برخي از فلاسفه اسلامي وغربي (نظريّة المعرفة في آراء بعض الفلاسفة الإسلاميين والغربيين): ص ١٧٩-١٨١.

عملية نقل المعارف الدينية تعتمد عليها من الأساس^(١).
من الأبحاث الهامة في نظرية المعرفة، البحث عن منشأ الإدراك البشري، حيث ينطلق البحث فيه للإجابة عن سؤال مؤداه: ما هو منشأ الإدراك لدى البشر؛ أهو الحس أم العقل أم كلاهما؟ وفي مقام الإجابة طرحت ثلاث نظريات، وبيانها كالتالي:

١. النظرية الحسية:

أ) الاتجاه الحسي الإفراطي (الفلسفة الوضعية):

ويرى أصحاب هذا الاتجاه أنّ الحس هو مبدأ جميع الإدراكات والمعارف إضافة إلى إنكارهم أيّ دور لمفاهيم العقل الكلية، وكل مفهوم لا يمكن إرجاعه للحس والمشاهدة لا اعتبار له عندهم بل لا معنى له أساساً.

ب) الاتجاه الحسي المعتدل:

أصحاب هذا الاتجاه مع اعتقادهم بأنّ الحس هو أساس ومنشأ جميع المعارف لكنهم في الوقت ذاته لا ينكرون أن تكون هناك مفاهيم عقلية كلية تنشأ في المرحلة التالية، بتبديل المفاهيم الحسية إلى عقلية، أو بقدرة العقل على تكوين مفاهيم كلية بعد تقرر وظهور صورها الحسية.

٢. النظرية العقلية:

يدعي أصحاب هذه النظرية أنّ هناك تصورات في الأفق المعرفي لا تناولها يد الحس أبداً والعقل وحده هو الذي يمكنه إدراكها، مثل: مفهوم «الله»، و«النفس» باعتبارهما مفاهيم فطرية وغير اكتسابية. ووفقاً لذلك فهي - النظرية العقلية - ترى

(١) الرباني الكليبايگاني، علي، معرفت ديني از منظر معرفت شناسي (المعرفة الدينية في مرأى نظرية المعرفة): ص ٣٠.

تقدّمًا للمفاهيم على الحس، إضافة إلى عدم إنكارها المفاهيم الفطرية. ومن بين الفلاسفة الذي قالوا بهذه النظرية «ديكارت» حيث يعتقد بأن مفهوم الله والنفس من المفاهيم المقدّمة على الحس معرفياً، فهذه المفاهيم بحسب نظره موجودة في أفق النفس بالقوة قبل التجربة، وتصل إلى مرحلة الفعلية والتحقق بعد تهيؤ الأرضية العلمية لتحقيق التجربة، كما هو الحال في بعض الأمراض التي يحملها بعض الأفراد لفترة من الزمن بالقوة وتبدأ أعراضها تظهر تدريجياً متى ما تهيأ الظروف المناسب لها.

٣- نظرية الفلاسفة الإسلاميين:

ذهب الفلاسفة الإسلاميون إلى تقسيم المفاهيم والتصورات إلى جزئية وكلية، ومنشأ جميع المفاهيم الجزئية (الحسيّة والخيالية) هو الحس الأعم من الظاهري والباطني، مثل: البياض والسواد والألم والغم والفرح، ومن ثمّ يتبعها العقل ليتوصل إلى مفاهيمها الكلية^(١).

ونواصل فيما يلي دراسة أدوات الحس ووسائله في أحاديث الإمام الحسين عليه السلام والآيات القرآنية والروايات الأخرى المروية عن غيره من المعصومين عليهم السلام:

الإدراك الناشئ من القوة الباصرة

نقل ابن شعبة الحرّاني في كتابه «تحف العقول» عن الإمام الحسين عليه السلام أنّه قال:
 «أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا هَؤُلَاءِ الْمَارِقَةَ الَّذِينَ يُشْبِهُونَ اللَّهَ بِأَنْفُسِهِمْ، يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بَلْ هُوَ اللَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ»^(٢).

(١) معلّمي، حسن، معرفت شناسي (نظرية المعرفة): ص ١٥٣-١٥٨.

(٢) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٤٤.

من خلال إسناد كلمة «تدرك» لـ«أبصار» يتضح أن أحد سبل إدراك الإنسان وفهمه يرجع للقوة الباصرة وعن طريقها يمكننا التوصل إلى ما اختص بها من الإدراكات.

ويشهد له قول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١).

وقوله أيضاً:

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾^(٢).

ويؤيده قول أمير المؤمنين عليه السلام:

«كَفَى بِإِتْقَانِ الصُّنْعِ لَهَا آيَةً، وَبِمَرَكَبِ الطَّبَعِ عَلَيْهَا دَلَالَةً، وَبِحُدُوثِ الْفِطْرِ عَلَيْهَا قِدْمَةً، وَبِإِحْكَامِ الصَّنْعَةِ لَهَا عِبْرَةً»^(٣).

وقوله أيضاً:

«الْعُيُونُ طَلَائِعُ الْقُلُوبِ»^(٤).

(١) النحل: آية ٧٨.

(٢) ق: آية ٦.

(٣) ابن بابويه، محمد بن علي، التوحيد: ص ٧١، حديث ٢٦.

(٤) الأمدى، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٣٢، حديث ٤٥٩.

ك) الهداية

إنَّ «الهداية» واحدة من الوسائل والأدوات المعرفية التي تطرقت لها الروايات الشريفة وتناولتها بأسهاب وشكل واسع.

وقام بتعريفها السيّد علي خان المدني حيث قال:

«والهدى في الأصل مصدر هداه كالسرى والبكى ومعناه: الدلالة بلطف على ما يوصل إلى البغية، أي ما من شأنه ذلك. وقيل: الدلالة الموصلة إليها بدليل وقوع الضلالة في مقابلته في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾^(١) ولا شك في أنّ عدم الوصول معتبر في مفهوم الضلال فيعتبر الوصول في مفهوم مقابله، ولأنّه لا يقال مهدي إلا لمن اهتدى إلى المطلوب»^(٢).

وفي موضع آخر قام بتقسيم الهداية إلى قسمين:

«وهو يطلق على معنيين:

أحدهما: أن يكون بمعنى الهداية، وهي الدلالة بلطف على ما يوصل إلى المطلوب، ويوصف بالمتعدّي، وهو مضاف إلى الله تعالى.

والثاني: أن يكون بمعنى التوجّه إلى ما يوصل إلى المطلوب، ويوصف باللازم، وهو مضاف إلى العبد»^(٣).

وجاء في شرح العلامة المصطفوي لكلمة «الهداية» ما نصه:

(١) البقرة: آية ١٦.

(٢) المدني، علي خان بن أحمد، رياض السالكين في شرح صحيفة سيّد الساجدين (صلوات الله عليه): ج ٢، ص ٩٢.

(٣) المصدر السابق: ج ٣، ص ٣٠٧.

«إِنَّ الْأَصْلَ الْوَاحِدَ فِي الْمَادَّةِ: هُوَ بَيَانُ طَرِيقِ الرُّشْدِ وَالتَّمَكُّنِ مِنَ الْوَصُولِ إِلَى الشَّيْءِ، أَيْ دَلَالَةِ إِلَيْهِ.

فالهداية يقابله الضلالة، والرشاد يقابله الغي وهو الدلالة إلى الشر والفساد، كما أَنَّ الرِّشَادَ هُوَ الْإِهْتِدَاءُ إِلَى الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ.

والهداية يكون في مادي أو معنوي، وفي خير أو شر.

فالهداية المادية كما في:

﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَرَ سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(١).

أي في معاشهم الدنيوية وأسفارهم، ثم يقول:

﴿وَعَلَّمْتِ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾^(٢).

ويمكن أن يراد مطلق الاهتداء، فإنَّ الاهتداء في السبل بتلك الآيات والعلامات الظاهرية يرشد إلى توجه واهتداء معنوي.

والاهتداء المعنوي كما في:

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾^(٣).

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٤).

والهداية إلى الشر كما في:

﴿كُذِّبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مِنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾^(٥) «^(٦).

(١) النحل: آية ١٥.

(٢) النحل: آية ١٦.

(٣) الأنبياء: آية ٧٣.

(٤) البقرة: آية ١٢٠.

(٥) الحج: آية ٤.

(٦) المصطفوي، حسن، التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ج ١١، ص ٢٦٩-٢٧٠.

هداية الله المعنوية للإنسان

روي عن الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفته قوله:

«يَا مَنْ هَدَانِي لِلْإِيمَانِ»^(١).

بما أنّ الإيمان من الأمور المعنوية وما كان هذا شأنه يتطلب الهداية الإلهية إليه، ووفقاً لهذا المعنى جاء دعاء الإمام مشيراً إلى أنّ الحق جل وعلا يمنّ على عباده بالهداية للأمر المعنوية.

وقريب من ذلك ما جاء في الدعاء العشرين من الصحيفة السجادية:

«وَلَا أَضِلُّنَّ وَقَدْ أَمَكَّتَكَ هِدَايَتِي»^(٢).

الله تعالى هو الهادي الحقيقي

جاء قول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفته متضرعاً إلى الله تبارك وتعالى هكذا:

«أَنْتَ الَّذِي هَدَيْتَ»^(٣).

فمن خلال التعبير بـ«أَنْتَ الَّذِي» يفهم أنّ الله سبحانه وتعالى هو وحده الهادي الحقيقي والواقعي في العالم، والهداة الآخرين من ملائكة وأنبياء وأوصياء وكتب إنّما يهدون الناس إليه، وهذا هو معنى التوحيد في الهداية.

فالله عز وجل يقول:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(٤).

ويقول في آية أخرى:

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾^(٥).

(١) الكفعمي، إبراهيم بن علي، البلد الأمين: ص ٢٥٥.

(٢) الصحيفة السجادية: ص ٩٨.

(٣) الكفعمي، إبراهيم بن علي، البلد الأمين: ص ٢٥٥.

(٤) القصص: آية ٥٦.

(٥) الحج: آية ١٦.

وللقرطبي تعليقة في ذيل هذه الآية نصها:
«علّق وجود الهداية بإرادته، فهو الهادي لا هادي سواه»^(١).

الهداية الإلهية بأسبابها

إذ دعا الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة بقوله:
«وَنُورٍ تَهْدِي بِهِ»^(٢).

وروي عنه عليه السلام كذلك أنّه قال في دعاء آخر:
«فَأَهْدِنِي بِنُورِكَ إِلَيْكَ»^(٣).

وبما أنّ الـ«باء» هنا في كلا الجملتين جاءت للسببية نستنتج أنّ الهداية من الله
جل وعلا تتحقق وتتمّ بالأسباب.
وربّ العزة يقول:

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٤).

البصيرة منشأ الهداية

مما جاء في دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام قوله:

«إِلَهِي أَمَرْتُ بِالرُّجُوعِ إِلَى الْآثَارِ فَأَرْجِعْنِي إِلَيْكَ بِكِسْوَةِ الْأَنْوَارِ وَهَدَايَةِ
الْإِسْتِبْصَارِ»^(٥).

-
- (١) القرطبي، محمّد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن: ج ١٢، ص ٢٢.
(٢) الكفعمي، إبراهيم بن علي، البلد الأمين: ص ٢٥٧.
(٣) ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال: ج ١، ص ٣٤٩.
(٤) المائدة: آية ١٦.
(٥) ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال: ج ١، ص ٣٤٩.

فمن خلال ملاحظتنا لإضافة كلمة «الهداية» لـ«الاستبصار» يتبين لنا أن البصيرة تمثل نوعاً رفيعاً ودرجة سامية من الهداية.

وقال الإمام علي عليه السلام في ذلك:

«إِنَّ مِنْ أَحَبِّ عِبَادِ اللَّهِ إِلَيْهِ عَبْدًا أَعَانَهُ اللَّهُ عَلَى نَفْسِهِ... قَدْ أَبْصَرَ طَرِيقَهُ، وَسَلَكَ سَبِيلَهُ، وَعَرَفَ مَنَارَهُ، وَقَطَعَ غَمَارَهُ، وَاسْتَمْسَكَ مِنَ الْعُرَى بِأَوْثِقِهَا، وَمِنَ الْحَبَالِ بِأَمْتِنِهَا، فَهُوَ مِنَ الْيَقِينِ عَلَى مِثْلِ ضَوْءِ الشَّمْسِ»^(١).

الهداية بالرجوع إلى الآثار

من التأمل في مضمون هذا الدعاء يتبين أن الإنسان يمكنه الاهتداء إلى الله سبحانه وذلك بالرجوع إلى الآثار والآيات الآفاقية والآنفسية.

قال الإمام علي عليه السلام:

«بِضَنْعِ اللَّهِ يُسْتَدَلُّ عَلَيْهِ، وَبِالْعُقُولِ تُعْتَقَدُ مَعْرِفَتُهُ، وَبِالْفِكْرَةِ تَثْبُتُ حُجَّتُهُ»^(٢).

حاجة الإنسان لهداية الله في الوصول إليه

لقد روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه توسل برب العزة والجلالة بقوله:

«فَاهْدِنِي بِنُورِكَ إِلَيْكَ»^(٣).

إذ يبدو من مضمون هذا الدعاء مدى الحاجة الملحة لدى الإنسان للهداية الإلهية حتى يصل إلى الله سبحانه ويقترّب منه.

ومما تضرع به الإمام السجاد عليه السلام لله جوجل قوله:

«وَبِحَبْلِ مَنْ أَعْتَصِمُ إِنْ قَطَعْتَ حَبْلَكَ عَنِّي»^(٤).

(١) نهج البلاغة: خطبة ٨٧.

(٢) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٦٢.

(٣) ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال: ج ١، ص ٣٤٩.

(٤) ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب عليهم السلام: ج ٤، ص ١٥١.

أنواع النور

بما أنّ المقصود من كلمة «النور» في الحديث الأخير للإمام الحسين عليه السلام، النور المعنوي دلّ ذلك على أنّ للنور أكثر من نوع؛ إذ يقابل النور المعنوي النور المادّي، واللذان قد يعبر عنها أيضاً بالمجازي والحقيقي.

وبخصوص النور المادّي جاء التعبير قرآنيّاً هكذا:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾^(١).

وبخصوص النور المعنوي جاء بهذه الصيغة:

﴿أَمَّنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ، لِإِسْلَامِهِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾^(٢).

نور الهداية المعنوي

عوداً على الحديث الأخير للإمام الحسين عليه السلام، حيث تمت الإشارة فيه إلى الهداية المعنوية، ومن ذلك يستنتج أنّ بعض الأنوار معنوية ومن بينها نور الهداية.

وجاء في الدعاء الثاني والأربعين من الصحيفة السجادية:

«وَجَعَلْتَهُ نُورًا نَهْتَدِي مِنْ ظُلْمِ الضَّلَالَةِ وَالْجَهَالَةِ بِاتِّبَاعِهِ، وَشَفَاءً لِمَنْ أَنْصَتَ بِفَهْمِ التَّصَدِيقِ إِلَى اسْتِمَاعِهِ، وَمِيزَانَ قِسْطٍ لَا يَحِيفُ عَنِ الْحَقِّ لِسَانُهُ، وَنُورَ هُدًى لَا يَطْفَأُ عَنِ الشَّاهِدِينَ بِرُهَانِهِ»^(٣).

ونقل السيّد علي خان المدني عن المحققين قولهم في ذلك:

«وقال المحققون: إنّ الكمالات والخيرات كلّها أنوار وأكمل الأنوار معرفة الله

سبحانه»^(٤).

(١) يونس: آية ٥.

(٢) الزمر: آية ٢٢.

(٣) الصحيفة السجادية: ص ١٧٦.

(٤) المدني، علي خان بن أحمد، رياض السالكين في شرح صحيفة سيّد الساجدين (صلوات الله عليه): ج ٧، ص ٩٨.

أنواع النور الإلهي

قال الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة متضرعاً إلى الله سبحانه وتعالى:
«فَجْعَلْ لَنَا اللَّهْمَّ فِي هَذِهِ الْعَشِيَّةِ نَصِيباً مِنْ كُلِّ خَيْرٍ تَقْسِمُهُ بَيْنَ عِبَادِكَ وَنُورٍ تَهْدِي بِهِ»^(١).

فإذا ما دققنا في وصف النور بالهداية ندرك أنّ هناك أنواعاً من النور الإلهي، ومنها النوع الذي يهدي به الله سبحانه الناس، كما قد يستفاد ذلك أيضاً من عطف النور على ما قبله.

وللراغب الإصفهاني تفصيل لافت جاء فيه:

«النُّور: الضُّوء المنتشر الذي يعين على الإبصار، وذلك ضربان: دنيوي وأخروي؛ فالدنيوي ضربان: ضرب معقول بعين البصيرة، وهو ما انتشر من الأمور الإلهية كنور العقل ونور القرآن، ومحسوس بعين البصر، وهو ما انتشر من الأجسام النيرة كالقمرين والنجوم والنيرات.

فمن النور الإلهي قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾^(٢)، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾^(٣)، وقال: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلْكَتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ دَشَاءَ مِنْ عِبَادِنَا﴾^(٤) وقال: ﴿أَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾^(٥)،

(١) الكفعمي، إبراهيم بن علي، البلد الأمين: ص ٢٥٧.

(٢) المائدة: آية ١٥.

(٣) الأنعام: آية ١٢٢.

(٤) الشورى: آية ٥٢.

(٥) الزمر: آية ٢٢.

وقال: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾^(١)، ومن المحسوس الذي بعين البصر نحو قوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾^(٢) وتخصيص الشمس بالضوء، والقمر بالنور من حيث إنَّ الضَّوْءَ أَخَصُّ مِنَ النُّورِ، قال: ﴿وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾^(٣)، أي ذا نور. ومما هو عامٌّ فيهما قوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾^(٤)، وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾^(٥)، ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾^(٦) ومن النور الأخرى قوله: ﴿يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾^(٧)، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا﴾^(٨)، ﴿انظُرُوا نَفْسٍ مِن نُّورِكُمْ﴾^(٩)، ﴿فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾^(١٠)،^(١١).

هداية الناس باستبانة المعالم

لقد روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه دعا البارئ عز وجل بقوله:

﴿وَأَنْتَ الَّذِي هَدَيْتَهُمْ حَيْثُ اسْتَبَانَتْ لَهُمُ الْمَعَالِمُ﴾^(١٢).

إذ من خلال ملاحظة ما تضمنته هذه الجملة نخرج بما مؤداه أن هداية الإنسان

تتحقق حينما تظهر له علائم الحقيقة ومعالمها من قبل الله تعالى.

(١) النور: آية ٣٥.

(٢) يونس: آية ٥.

(٣) الفرقان: آية ٦١.

(٤) الأنعام: آية ١.

(٥) الحديد: آية ٢٨.

(٦) الزمر: آية ٦٩.

(٧) الحديد: آية ١٢.

(٨) التحريم: آية ٨.

(٩) الحديد: آية ١٣.

(١٠) الحديد: آية ١٣.

(١١) الراغب الإصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن: ص ٨٢٧-٨٢٨.

(١٢) ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال: ج ١، ص ٣٤٩.

ويقول تعالى في كتابه العزيز:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾^(١).

فبحسب التفريع لكلمة «الهداية» في هذه الآية على ما قبلها يمكننا الخروج بنتيجة مؤداها أن هداية الإنسان تتحقق وتتحصل بجعل الإمام من قبل الله تعالى وإظهاره على المجتمع، ولكن هناك شرط على الإنسان الالتزام به وهو أن يحوّل وجهه نحو الإمام راجياً إفاضاته الجليلة.

ويقول جل علاه أيضاً:

﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿١﴾ وَلِسَانًا وَشَفْهَيْنِ ﴿٢﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿٣﴾﴾^(٢).

ومن ملاحظة تفريع كلمة «الهداية» في هذه الآية على ما قبلها كذلك يمكننا التوصل إلى أنّ هداية الإنسان تتحصل عن طريق المعارف والمعلومات المكتسبة بواسطة العين والأذن واللسان.

إمكان هداية الإنسان للكمال

تضرع الإمام الحسين عليه السلام في دعاء العشرات إلى الله سبحانه بقوله:

«اللَّهُمَّ بِنُورِكَ اهْتَدَيْتُ»^(٣).

حيث تشير هذه الفقرة إلى أنّ الإنسان بإمكانه أن يهتدي إلى كماله والهدف المنشود الذي خلق من أجله.

قال الإمام علي عليه السلام بهذا الشأن:

«قَدْ بَصُرْتُمْ إِنْ أَبْصَرْتُمْ، وَقَدْ هُدَيْتُمْ إِنْ اهْتَدَيْتُمْ، وَأُسْمِعْتُمْ إِنْ اسْتَمَعْتُمْ»^(٤).

(١) السجدة: آية ٢٤.

(٢) البلد: آية ٨-١٠.

(٣) ابن طاووس، علي بن موسى، مهج الدعوات ومنهج العبادات: ص ١٥٠.

(٤) نهج البلاغة، الكلمات القصار: ص ١٥٧.

اهتداء الإنسان بنور الهداية الإلهية

حيث يشير ورود «الباء» المستفاد منها السببية في الحديث المتقدم للإمام الحسين عليه السلام إلى أن البشر يهتدون بنور الهداية الإلهية.

ويؤيده ما ورد في الدعاء الخامس من الصحيفة السجادية:

«إِنَّمَا يَهْتَدِي الْمُهْتَدُونَ بِنُورِ وَجْهِكَ، فَصَلِّ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاهْدِنَا»^(١).

إرشاد الله يتم بأوامره سبحانه

روي عن الإمام الحسين عليه السلام قوله في دعاء المظلوم متضرعاً للباري تعالى:
«وَأَنَا فَاعِلٌ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ لَا مَنَّا عَلَيْكَ، وَكَيْفَ أَمْنٌ بِهِ وَأَنْتَ عَلَيْهِ دَلَّيْتَنِي، فَصَلِّ
عَلَيَّ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ»^(٢).

فيتحصل من هذا الحديث أن الله سبحانه يرشد عباده ويدهم بأوامره ونواهيه
على الطريق الصحيح.

فقد قال عز وجل في كتابه:

﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ﴾^(٣).

حزن الأولياء لعدم اهتداء البشر

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه جاء في دعائه:

«وَنَادَاكَ نُوحٌ فَاسْتَجَبْتَ لَهُ وَنَجَّيْتَهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ»^(٤).

(١) الصحيفة السجادية: ص ٤٦.

(٢) ابن طاووس، علي بن موسى، مهج الدعوات ومنهج العبادات: ص ٢٦٩.

(٣) الأنعام: آية ١٦١.

(٤) ابن طاووس، علي بن موسى، جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: ص ٢٧١.

فيظهر من المضمون الدلالي لهذه الفقرة مدى الحزن الذي يعيشه أولياء الله عندما يرون ضلالة البشر وعدم انبعاثهم وقبولهم للهداية، وليس هناك من هو القادر على رفع ذلك الحزن والكرب عن قلوبهم ونفوسهم الطاهرة غير الله سبحانه، إذ إن ما يشعرون به ناشئ من اهتمامهم الشديد وحرصهم البالغ على دعوة الناس إليه أملاً في امتثالهم لأوامره. وتعدّ هذه المسألة بالنسبة لهم من أعظم الكربات وأشدّ الهموم.

ولذا يخاطب الله جل وعلا نبيه الكريم ﷺ بهذه الآية:

﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾^(١).

النجاة من نار جهنم بالإرشاد الإلهي

لقد روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال مخاطباً رب العزة والجلالة:

«وَيَا زُشَادِكَ نَجَا النَّاجُونَ مِنْ نَارِكَ»^(٢).

مما تقدّم في الفقرة يتبيّن لنا أنّ للإرشاد دوراً هاماً في إنقاذ الناس من نار جهنم والخلاص من لهواتها، وذلك بالإرشاد الإلهي عن طريق الأنبياء والأوصياء والعلماء.

والله تعالى يقول:

﴿وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾^(٣).

وتقول السيّدة الزهراء عليها السلام:

«وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ مَذْقَةَ الشَّارِبِ، وَنَهْرَةَ الطَّامِعِ، وَقَبْسَةَ الْعَجْلَانِ،

(١) الكهف: آية ٦.

(٢) ابن طاووس، علي بن موسى، جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: ص ٢٧٤.

(٣) آل عمران: آية ١٠٣.

وَمَوْطِئَ الْأَقْدَامِ، تَشْرَبُونَ الطَّرْقَ، وَتَقْتَاتُونَ الْقَدَّ، أَدِلَّةٌ خَاسِئِينَ، تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمْ النَّاسُ مِنْ حَوْلِكُمْ، فَأَنْقَذَكُمْ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(١).

حاجة النفس لمعرفة هداها

ورد في رواية عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال في دعاء الاستجابة:

«اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَهَا هُدَاهَا»^(٢).

إنَّ المتحصل من مغزى هذه الفقرة شدة حاجة النفس لمعرفة هداها حتى يتم تحركها وفقاً للخطة المرسومة لها نحو كمالها المنشود وصولاً لمرتبة النفس المطمئنة.

وقال في ذلك عز من قائل:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾^(٣).

الهداية هي الهدف من خلق الإنسان

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه كان يدعو أثناء قنوته بقوله:

«وَأَجْعَلْ عَلَيَّ الْبَصِيرَةَ مَدْرَجَتِي، وَعَلَيَّ الْهُدَايَةَ مَحَجَّتِي»^(٤).

وللمرء أن يستتج من مضمون هذا الدعاء أنَّ الهدف الكامن وراء خلق الإنسان هو هدايته لكمالها؛ ولذا يتحتم عليه أن يسلك جادة الهداية حتى يبلغ هذا الهدف.

قال الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى﴾^(٥).

(١) الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج ١، ص ١٠٠.

(٢) ابن طاووس، علي بن موسى، جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: ص ٢٧٤.

(٣) الشمس: آية ٨٧.

(٤) ابن طاووس، علي بن موسى، مهج الدعوات ومنهج العبادات: ص ٤٩.

(٥) طه: آية ٥٠.

هداية الأولياء من قبل الله سبحانه

يتضح من طلب الإمام في الحديث السابق أن الله سبحانه هو الذي يسلك بأوليائه طريق الهداية، وهذا ما يزيدنا رغبة في أن نرجو من الله جل وعلا مثل هذا الطلب.

يقول الله سبحانه:

﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾^(١).

ضرورة سلوك طريق الهداية

فقد روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه كان يدعو الله سبحانه في قنوته بقوله: «وَأَجْعَلْ عَلَيَّ الْبَصِيرَةَ مَدْرَجَتِي، وَعَلَيَّ الْهَدَايَةَ مَحَجَّتِي، وَعَلَيَّ الرَّشَادَ مَسْلَكِي»^(٢). من كلمة «مسلك» التي تعني الطريق والجادة والصراف وكلمة «الرشاد» التي تعني الهداية والاستقامة والصواب، نستجلي دلالة هذه الفقرة على ضرورة أن يسمي سلوك الإنسان وتصرفاته وجميع أفعاله مطابقة لموازين الرشد والصواب والهداية.

وهذا ما جعل الإمام علي عليه السلام يترحم على مثل هذا الإنسان بقوله:

«رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ حُكْمًا فَوَعَى، وَدُعِيَ إِلَى رَشَادٍ فَدَنَا»^(٣).

قال السيّد علي خان المدني في بيانه:

«والرشاد: اسم من رشد يرشد رشدًا - من باب تعب - ورشد يرشد - من باب

(١) الزمر: آية ١٧-١٨.

(٢) ابن طاووس، علي بن موسى، مهج الدعوات ومنهج العبادات: ص ٤٩.

(٣) نهج البلاغة: خطبة ٧٦.

قتل - : إذا اهتدى وعرف الصواب»^(١).

وقال الراغب الإصفهاني:

«والرشد: عناية إلهية تعين الإنسان عند توجهه في أموره فتقويه على ما فيه صلاحه وتُفتره عما فيه فساد، وأكثر ما يكون ذلك من الباطن نحو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾^(٢) وكثيراً ما يكون ذلك بتقوية العزم أو بفسخه وإليه توجه قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾^(٣)»^(٤).

ضرورة طلب الهداية إلى الحق

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه طلب في دعاء التوفيق من الله سبحانه أن يمنّ عليه بالتوفيق لبلوغ الحق حيث قال:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ تَوْفِيقَ أَهْلِ الْهُدَى»^(٥).

من المضمون الدلالي لهذا الدعاء يتحصل أنّ معرفة الحق والحقيقة وبلوغ الشريعة الإسلامية واجبة على الجميع، كما طلب الإمام عليه السلام ذلك لنفسه، ونحن بدورنا يلزمنا أن نتخذه قدوة لنا في ذلك ونطلب من الله سبحانه نفس ما طلبه عليه السلام.

فقال الإمام علي عليه السلام:

«إِنَّ اللَّهَ [تَعَالَى] سُبْحَانَهُ أَنْزَلَ كِتَابًا هَادِيًا بَيَّنَّ فِيهِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ، فَخُذُوا مَهَجَ الْخَيْرِ تَهْتَدُوا، وَاصْدِفُوا عَنِ سَمْتِ الشَّرِّ تَقْصِدُوا. الْفَرَائِضَ الْفَرَائِضَ، أَدُّوْهَا إِلَى اللَّهِ تُؤَدِّكُمْ

(١) المدني، علي خان بن أحمد، رياض السالكين في شرح صحيفة سيّد الساجدين (صلوات الله

عليه): ج ٣، ص ٣٩٦.

(٢) الأنبياء: آية ٥١.

(٣) الأنفال: آية ٢٤.

(٤) الراغب الإصفهاني، الحسين بن محمد، الذريعة إلى مكارم الشريعة: ص ١٢٠.

(٥) ابن طاووس، علي بن موسى، مهج الدعوات ومنهج العبادات: ص ١٥٧.

إِلَى الْجَنَّةِ. إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ حَرَامًا غَيْرَ مَجْهُولٍ، وَأَحَلَّ حَلَالًا غَيْرَ مَدْخُولٍ، وَفَضَّلَ حُرْمَةً الْمُسْلِمِ عَلَى الْحَرَمِ كُلِّهَا، وَشَدَّ بِالْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ حُقُوقَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعَاقِدِهَا»^(١).

أهل الهدى

من إضافة كلمة «أهل» لكلمة «هدى» الواردة في الحديث السابق للإمام الحسين عليه السلام، ندرك أن هناك عدّة يوصفون بهذا الوصف (أهل الهدى).
وتحدد لنا الزيارة الجامعة الكبيرة من هم أهل الهدى، مبيّنة أنهم أولئك الذين تمسكوا بأهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام، فهناك قال الإمام الهادي عليه السلام:
«وَهْدِي مَنْ اعْتَصَمَ بِكُمْ»^(٢).

وجاء في شرح الشيخ جواد الكربلائي لهذه الفقرة:

«وَأَمَّا قَوْلُهُ عليه السلام: (وهدي من اعتصم بكم)، أي إلى طريق النجاة، ولعله إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾^(٣)، وقد ورد أنّ المراد بالحبل الأئمة عليهم السلام، فمن اعتصم بهم فقد اعتصم بحبل الله، وهدى إلى الهداية الإلهية، وإلى كل خير في الدنيا والآخرة.

ثم إن حقيقة الهداية عامة شاملة لجميع مصاديقها من الوصول إلى أقصى الغايات، التي هي معرفته تبارك وتعالى، وهذه تترتب على كمية الاعتصام وكيفيةها، فمن كان اعتصامه بهم عليهم السلام أشدّ وأقوى، كانت هدايته أحسن وأبلغ إلى جميع مراتبها، رزقنا الله تعالى حقيقة الاعتصام بهم بمحمد وآله الطاهرين»^(٤).

(١) نهج البلاغة: خطبة ١٦٧.

(٢) ابن بابويه، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه: ج ٢، ص ٦١٣.

(٣) آل عمران: آية ١٠٣.

(٤) الكربلائي، جواد بن عباس، الأنوار الساطعة في شرح الزيارة الجامعة: ج ٤، ص ٢١٧.

كما أنّ هذه الزيارة وصفت أهل البيت عليه السلام بأئمة الهدى، حيث قال الإمام الهادي عليه السلام:

«السَّلَامُ عَلَى أئِمَّةِ الْهُدَى»^(١).

كما أنّ التأمل في عباراتها يقودنا أيضاً إلى القول بأنّ أهل البيت عليه السلام ما وصفوا بأئمة الهدى إلاّ بعدما بلغوا الهداية، ولهذا عبّر الإمام الهادي عليه السلام فيها بقوله:

«وَالْقَادَةَ الْهُدَاةَ»^(٢).

توفيق أهل الهدى

إنّ النتيجة الحتمية المستقاة من النظر في مضمون الحديث المتقدم للإمام الحسين عليه السلام هي أنّ أهل الهداية قد نالوا التوفيق وحصلوا عليه.

والإمام السجاد عليه السلام في الدعاء السابع والثلاثين من الصحيفة السجادية يقول:

«فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَهَبْ لِي أَمَلِي، وَزِدْنِي مِنْ هُدَاكَ مَا أَصِلُ بِهِ إِلَى التَّوْفِيقِ فِي عَمَلِي، إِنَّكَ مَنَّانٌ كَرِيمٌ»^(٣).

تأثير الهداية في التوفيق

عند التأمل في دلالات مضمون الحديث المتقدم للإمام الحسين عليه السلام يتحصل أنّ للهداية تأثيراً كبيراً في التوفيق ونيل النجاح.

وبهذا دعا الإمام السجاد عليه السلام في الدعاء السابع والثلاثين من الصحيفة السجادية:

«وَزِدْنِي مِنْ هُدَاكَ مَا أَصِلُ بِهِ إِلَى التَّوْفِيقِ فِي عَمَلِي»^(٤).

وحقيق بهذه الجملة أن تلفت إلى عظيم تأثير الهداية في إنجاح العمل والموفيقية

(١) ابن بابويه، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه: ج ٢، ص ٦١٠.

(٢) المصدر السابق: ج ٢، ص ٦١٠.

(٣) الصحيفة السجادية: ص ١٦٦.

(٤) المصدر السابق: ص ١٦٦.

فيه، بل وفي توفيق الإنسان للطاعات وأعمال الخير بصورة عامة.

وجاء في الزيارة الجامعة:

«وَوَفَّقَنِي لِطَاعَتِكُمْ»^(١).

ونقل الشيخ الصدوق بسنده عن عبدالله بن الفضل الهاشمي أنه قال:

«سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾^(٢)، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُضِلُّ الظَّالِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ دَارِ كَرَامَتِهِ وَيَهْدِي أَهْلَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ إِلَى جَنَّتِهِ، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾^(٣) وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ^(٤)، وَقَالَ ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّذِيذَ أَعْمَلُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِذْنِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾^(٥). قَالَ: فَقُلْتُ: قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾^(٦)، وَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾^(٧)، فَقَالَ: إِذَا فَعَلَ الْعَبْدُ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ ﷻ بِهِ مِنَ الطَّاعَةِ كَانَ فِعْلُهُ وَفَقًا لِأَمْرِ اللَّهِ ﷻ وَسُمِّيَ الْعَبْدُ بِهِ مُوَفَّقًا، وَإِذَا أَرَادَ الْعَبْدُ أَنْ يَدْخُلَ فِي شَيْءٍ مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ فَحَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ تِلْكَ الْمَعْصِيَةِ فَتَرَكَهَا كَانَ تَرْكُهُ لَهَا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ، وَمَتَى حَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ تِلْكَ الْمَعْصِيَةِ فَلَمْ يَحُلْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا حَتَّى يَرْتَكِبَهَا فَقَدْ خَذَلَهُ وَلَمْ يَنْصُرْهُ وَلَمْ يُوَفِّقْهُ»^(٨).

وأيضاً نقل عن جابر بن يزيد الجعفي سؤاله لأبي جعفر محمد بن علي

الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث قال:

(١) ابن بابويه، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه: ج ٢، ص ٦١٥.

(٢) الكهف: آية ١٧.

(٣) إبراهيم: آية ٢٧.

(٤) يونس: آية ٩.

(٥) هود: آية ٨٨.

(٦) آل عمران: آية ١٦٠.

(٧) ابن بابويه، محمد بن علي، التوحيد: ص ٢٤١-٢٤٢، حديث ١.

«سَأَلْتُهُ عَنْ مَعْنَى (لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ)، فَقَالَ: مَعْنَاهُ لَا حَوْلَ لَنَا عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ إِلَّا بِعَوْنِ اللَّهِ، وَلَا قُوَّةَ لَنَا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ إِلَّا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ عز وجل»^(١).

اكتمال التوفيق عند أهل الهدى

من الممكن عند ملاحظة الحديث السابق للإمام الحسين عليه السلام أن نستشف حقيقة وهي أن كمال الإنسان بتوفيقه ولا سيما توفيق أهل الهدى؛ وهذا ما جعل الإمام عليه السلام يسأله من الله تعالى.

وحول مكانة ومنزلة التوفيق روى الشيخ الصدوق بسنده عن محمد بن مسلم ومحمد بن مروان عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«مَا عَلِمَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله أَنَّ جَبْرئِيلَ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ عز وجل إِلَّا بِالتَّوْفِيقِ»^(٢).

وبسنده أيضاً عن حمدان بن سليمان النيسابوري قال:

«سَأَلْتُ أَبَا الْحَسَنِ عَلِيَّ بْنَ مُوسَى الرَّضَا عليه السلام [بِنِسَابِ بَوْر] عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عز وجل: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾^(٣)، قَالَ: مَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ بِإِيمَانِهِ فِي الدُّنْيَا إِلَى جَنَّتِهِ وَدَارِ كَرَامَتِهِ فِي الْآخِرَةِ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلتَّسْلِيمِ لِلَّهِ وَالثَّقَةِ بِهِ وَالسُّكُونِ إِلَى مَا وَعَدَهُ مِنْ ثَوَابِهِ حَتَّى يَطْمَئِنَّ إِلَيْهِ، ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ﴾ عَنْ جَنَّتِهِ وَدَارِ كَرَامَتِهِ فِي الْآخِرَةِ لِكُفْرِهِ بِهِ وَعِصْيَانِهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ حَتَّى يَشْكَّ فِي كُفْرِهِ وَيَضْطَرِبَ مِنْ اعْتِقَادِهِ قَلْبُهُ حَتَّى يَصِيرَ ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الدِّينِ لَا يُؤْمِنُونَ»^(٤).

(١) المصدر السابق: ص ٢٤٢، حديث ٣.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٤٢، حديث ٢.

(٣) الأنعام: آية ١٢٥.

(٤) ابن بابويه، محمد بن علي، التوحيد: ص ٢٤٢-٢٤٣، حديث ٤.

الهداية للإسلام من الله ﷻ

نقل الطبراني بسنده عن أبي مجلز عن الحسين بن علي عليه السلام قال:
 «أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا رَكِبَ دَابَّةً فَقَالَ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾، فَقَالَ لَهُ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام: وَبِهَذَا أُمِرْتُ؟ قَالَ: فَكَيْفَ أَقُولُ؟ قَالَ: تَقُولُ:
 الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ عَلَيَّ بِمُحَمَّدٍ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، فَهَذِهِ النُّعْمَةُ، فَقَالَ: تَبْدَأُ بِهَذَا لِقَوْلِهِ عليه السلام: ﴿ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾^(١)»^(٢).
 إذ تدلل جملة «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ» على أَنَّ الله سبحانه هو من هدى الناس للإسلام؛ وهذا ما يستوجب منا الشكر الجزيل.

ويشير إلى تلك الحقيقة قوله تعالى:

﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ آسَلُمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُمُوهُمْ لِلْإِيمَانِ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٣).

نعمة الهداية

مضافاً لما تقدّم من إشارة في الحديث السابق يتبيّن لنا كذلك من تفريع قوله «هَذِهِ النُّعْمَةُ» على ما قبلها أَنَّ هداية الناس للإسلام إنّما هي نعمة من النعم المعنوية.
 قال تبارك وتعالى:

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا مِنَّا بِالْحَقِّ﴾^(٤).

(١) الزخرف: آية ١٣.

(٢) الطبراني، سليمان بن أحمد، الدعاء: ص ٢٤٦-٢٤٧، حديث ٧٧٥.

(٣) الحجرات: آية ١٧.

(٤) الأعراف: آية ٤٣.

حسن الاستشهاد بالقرآن والأحاديث للهداية من الضلال

عن إسماعيل بن رجاء وعمرو بن شعيب نقلاً:

«أَنَّ مَرَّ الْحَسَيْنِ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى أَحَبِّ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَى أَهْلِ السَّمَاءِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا الْمُجْتَازِ، وَمَا كَلَّمْتُهُ مُنْذُ لَيْلِي صِفِّينَ، فَأَتَى بِهِ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ إِلَى الْحَسَيْنِ عليه السلام، فَقَالَ الْحَسَيْنُ: أَتَعَلَّمُ أَنِّي أَحَبُّ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَى أَهْلِ السَّمَاءِ وَتُقَاتِلُنِي وَأَبِي يَوْمَ صِفِّينَ؟! وَاللَّهِ إِنَّ أَبِي لَخَيْرٌ مِنِّي. فَاسْتَعَذَرَ وَقَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله قَالَ لِي: اطَّعْ أَبَاكَ، فَقَالَ لَهُ الْحَسَيْنُ عليه السلام: أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾^(١) وَقَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: «إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ، وَقَوْلُهُ: لَا طَاعَةَ لِلْمَخْلُوقِ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ»^(٢).

من ملاحظة هذه الطريقة في الاستدلال نكتشف أهمية حسن الاستشهاد بالآيات القرآنية الكريمة والأحاديث الشريفة أحياناً، وذلك عندما يصب الاستشهاد في سبيل هداية المسلمين وإنقاذهم من الضلالة.

وقد نقل الطبري بسنده عن أبي الديلم:

«لَمَّا جِيَءَ بِعَلِيِّ بْنِ الْحَسَنِ عليه السلام أُسِيرًا، فَأَقِيمَ عَلَى دَرَجِ دِمَشْقَ، قَامَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَتَلَكُمُ وَأَسْتَأْصَلَكُمُ، وَقَطَعَ قُرْبَى الْفِتْنَةِ. فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ عليه السلام: أَقْرَأْتَ الْقُرْآنَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: أَقْرَأْتَ آلَ حَم؟ قَالَ: قَرَأْتُ الْقُرْآنَ وَلَمْ أَقْرَأْ آلَ حَم. قَالَ: مَا قَرَأْتَ ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^(٣)؟ قَالَ: وَإِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ هُمْ؟ قَالَ: نَعَمْ»^(٤).

(١) لقمان: آية ١٥.

(٢) ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب عليه السلام: ج ٤، ص ٧٣.

(٣) الشورى: آية ٢٣.

(٤) الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تفسير القرآن: ج ٢٥، ص ١٦.

علم الإمام بهدأيته

نقل في رواية:

«إِنَّ رَجُلًا قَالَ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام: اجْلِسْ حَتَّى نَتَنَاظَرَ فِي الدِّينِ. فَقَالَ: يَا هَذَا، أَنَا بَصِيرٌ بِدِينِي مَكْشُوفٌ عَلَيَّ هُدَايَ، فَإِنْ كُنْتَ جَاهِلًا بِدِينِكَ فَادْهَبْ فَاطْلُبْهُ، مَا لِي وَلِلْمَمَارَةِ؟ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُوسِسُ لِلرَّجُلِ وَيُنَاجِيهِ وَيَقُولُ: نَاطِرِ النَّاسَ لِيَأْخُذَ بِظُنُونِكَ الْعَجْزَ وَالْجَهْلَ»^(١).

من الحقائق التي يقودنا إليها إقرار الإمام واعترافه هذا هي أن هدى المعصومين ومن جملتهم سيّد الشهداء عليه السلام مكشوف لهم كالشمس في رابعة النهار، بل ولديهم علم حضوري به.

قال العزيز القدير في كتابه المجيد:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾^(٢).

قبح الجدال والنزاع عند أهل الهدى

ثمة نقاط تستشف من المضمون الدلالي للحديث السابق للإمام الحسين عليه السلام منها شدة قبح وضحالة الجدال والشجار مع الجهلة والسفلة، وكثرة ما يترتب عليه من أضرار، وعلى الخصوص إذا صدر من أهل البصيرة؛ وهذا ما جعل سيّد الشهداء عليه السلام يمتنع عن جدال ذلك الشخص؛ لأنّ الإطار الذي يتضمن مثل هذه الأبحاث يعدّ من التشكيك في الدين، ولا شك في دخول هذا النحو من التشكيك في الباطل إن وقع بعد وصول الإنسان لدرجة اليقين وتمام البصيرة.

(١) الشهيد الثاني، زين الدين بن علي، منية المريد في أدب المفيد والمستفيد: ص ١٧١.

(٢) السجدة: آية ٢٤.

يقول تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ، مَحْنُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾^(١).

وفي هذا الشأن قال الإمام الرضا عليه السلام:

«يَا عَبْدَ الْعَظِيمِ، أَبْلُغْ عَنِّي أَوْلِيَائِي السَّلَامَ، وَقُلْ لَهُمْ: أَنْ لَا يَجْعَلُوا لِلشَّيْطَانِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ سَبِيلًا، وَمُرَّهُمْ بِالصَّدَقِ فِي الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَمُرَّهُمْ بِالسُّكُوتِ وَتَرْكِ الْجِدَالِ فِيمَا لَا يَغْنِيهِمْ»^(٢).

أنمة الهدى

وفي «الأمالي» نقل الشيخ الصدوق:

«فَسَارَ الْحُسَيْنُ عليه السلام وَأَصْحَابُهُ، فَلَمَّا نَزَلُوا الثَّعْلَبِيَّةَ، وَرَدَّ عَلَيْهِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: بِشْرُ بْنُ غَالِبٍ، فَقَالَ: يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله، أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عز وجل: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِمْ﴾^(٣). قَالَ: إِمَامٌ دَعَا إِلَى هُدًى فَأَجَابُوهُ إِلَيْهِ، وَإِمَامٌ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ فَأَجَابُوهُ إِلَيْهَا، هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ، وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ، وَهُوَ قَوْلُهُ عز وجل: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾^(٤)»^(٥).

يرشدنا تفسير الإمام إلى أن هناك قادة للأمة مهتدون بأنفسهم ودعاة للهداية بالنسبة لغيرهم.

(١) الشورى: آية ١٦.

(٢) المفيد، محمد بن محمد، الاختصاص: ص ٢٤٧.

(٣) الإسراء: آية ٧١.

(٤) الشورى: آية ٧.

(٥) ابن بابويه، محمد بن علي، الأمالي: ص ٢١٧-٢١٨.

ونقل أبو بصير عن الإمام الصادق عليه السلام قوله:

«إِنَّ الدُّنْيَا لَا تَكُونُ إِلَّا وَفِيهَا إِمَامَانِ بَرٌّ وَفَاجِرٌ، فَالْبَرُّ الَّذِي قَالَ اللهُ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾^(١) وَأَمَّا الْفَاجِرُ فَالَّذِي قَالَ اللهُ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكْفُرُونَ﴾^(٢) إِلَى التَّكَاثُرِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَنْصُرُونَ»^(٣).

قال تبارك وتعالى:

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾^(٤).

وهناك عدة روايات قد تناولت شأن نزول هذه الآية، بل وقامت بتطبيقها على

أهل البيت الأطهار عليهم السلام وعلى رأسهم أمير المؤمنين عليه السلام.

فقد نقل عن ابن عباس أنه قال:

«لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ وَضَعَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَدَهُ عَلَى صَدْرِهِ، فَقَالَ: (أَنَا الْمُنذِرُ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)، وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى مَنْكِبِ عَلِيٍّ، فَقَالَ: (أَنْتَ الْهَادِي يَا عَلِيُّ، بِكَ يَهْتَدِي الْمُهْتَدُونَ بَعْدِي)»^(٥).

وفي حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام حول تفسير قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ

مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال:

«رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله الْمُنذِرُ وَلِكُلِّ زَمَانٍ مِّنَّا هَادٍ يَهْدِيهِمْ إِلَى مَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّ اللهِ صلى الله عليه وآله، ثُمَّ الْهَدَاةُ مِنْ بَعْدِهِ عَلِيُّ، ثُمَّ الْأَوْصِيَاءُ وَاحِدٌ بَعْدَ وَاحِدٍ»^(٦).

(١) الأنبياء: آية ٧٣.

(٢) القصص: آية ٤١.

(٣) الصفار، محمد بن الحسن، بصائر الدرجات في فضائل آل محمد (صلوات الله عليهم أجمعين): ص ٣٢، حديث ٣.

(٤) الرعد: آية ٧.

(٥) الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تفسير القرآن: ج ١٣، ص ٧٢.

(٦) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ج ١، ص ١٩١-١٩٢: حديث ٢.

ضرورة امتثال دعوة أنمة الهدى

عندما نلقي نظرة متأملة على التفسير المتقدم للإمام الحسين عليه السلام، يتضح لنا جلياً وجوب إطاعة أوامر الأئمة الهداة المهديين من قبل الناس وامتثالها، ونتيجة هذا الانقياد هي أن يصبح الإنسان بعد ذلك من أهل الجنة والرضوان.

فقد روي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام تفصيل ذلك حيث قال:

«حَقَّ عَلَى الْإِمَامِ أَنْ يَحْكُمَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَأَنْ يُؤَدِّيَ الْأَمَانَةَ، فَإِذَا فَعَلَ فَحَقُّ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَسْمَعُوا لَهُ وَأَنْ يُطِيعُوا، وَأَنْ يُجِيبُوا إِذَا دُعُوا»^(١).

حجب الهداية عن المستضعفين من قبل الأعداء

حول هذه المسألة جاء في التفسير المنسوب للإمام الحسن العسكري عليه السلام قوله:

«وَقَالَ الْحَسِينُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام لِرَجُلٍ: أَيُّهَا أَحَبُّ إِلَيْكَ، رَجُلٌ يَرُومُ قَتْلَ مَسْكِينٍ قَدْ ضَعُفَ، تُنْقِذُهُ مِنْ يَدِهِ؟ أَوْ نَاصِبٌ يُرِيدُ إِضْلَالَ مَسْكِينٍ [مُؤْمِنٍ] مِنْ ضَعْفَاءِ شِيعَتِنَا تَفْتَحُ عَلَيْهِ مَا يَمْتَنِعُ [الْمَسْكِينُ] بِهِ مِنْهُ وَيُفْحِمُهُ وَيَكْسِرُهُ بِحُجَجِ اللَّهِ تَعَالَى؟

قَالَ: بَلْ إِنْ قَاذَ هَذَا الْمَسْكِينِ الْمُؤْمِنِ مِنْ يَدِ هَذَا النَّاصِبِ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾^(٢) [أَي] وَمَنْ أَحْيَاهَا وَأَرْشَدَهَا مِنْ كُفْرٍ إِلَى إِيْمَانٍ، فَكَأَنَّمَا أَحْيَى النَّاسَ جَمِيعًا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَقْتُلَهُمْ بِسُيُوفِ الْحَدِيدِ»^(٣).

إذ يتبين من خلال إمعان النظر في كلمة «تفتح» دلالتها تضمناً على ما يفعله الأعداء من سدّهم أبواب الهداية ومدخلها وجميع منافذها في وجوه الناس الضعفاء عقائدياً، وهذا يحتم على علماء الدين العمل بما رزقهم الله من علم، على

(١) المتقي الهندي، علي بن حسام الدين، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: ج ٥، ص ٧٦٤، حديث ١٤٣١٣.

(٢) المائة: آية ٣٢.

(٣) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام: ص ٣٤٨، حديث ٢٣١.

فتحتها وإزالة ما يعترضها من حواجز وعوائق اصطنعها الأعداء، آخذين في الحسبان حال أولئك المستضعفين عسى أن يتمكنوا من سلوك طريق الهداية والنجاح.

وقد أشار تعالى إلى فعل الأعداء بقوله:

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾^(١).

عدم الاهتداء بغير الإمام الحق

ذكر الحسين بن محمد الحلواني:

«وَقِيلَ: مَرَّ الْمُنْذِرُ بْنُ الْجَارُودِ بِالْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: كَيْفَ أَصْبَحْتَ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ

يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ؟

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: [أَصْبَحْنَا وَ] أَصْبَحَتِ الْعَرَبُ تَعْتَدُ عَلَى الْعَجَمِ بِأَنَّ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْهَا، وَأَصْبَحَتِ الْعَجَمُ مُقِرَّةً لَهَا بِذَلِكَ، وَأَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَتْ قُرَيْشٌ يَعْرِفُونَ فَضْلَنَا وَلَا يَرُونَ ذَلِكَ لَنَا، وَمِنَ الْبَلَاءِ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ أَنَّا إِذَا دَعَوْنَاهُمْ لَمْ يُجِيبُونَا، وَإِذَا تَرَكْنَاهُمْ لَمْ يَهْتَدُوا بغيرنا»^(٢).

عند ملاحظة عبارة الإمام الأخيرة نجدها تشير إلى مسألة جوهرية وهي أن كل من تمرد على الإمام الحق ولم يتبعه ولم يهتد بهداه فإنه لن يهتدي بغيره لا محالة.

ونقل الترمذي بسنده عن جابر بن عبد الله أنه قال:

«رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فِي حَجَّتِهِ يَوْمَ عَرَفَةَ، وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ الْقَصْوَاءِ يَخْطُبُ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا كِتَابَ اللَّهِ وَعِزَّتِي أَهْلَ بَيْتِي»^(٣).

(١) طه: آية ٧٩.

(٢) الحلواني، الحسين بن محمد، نزهة الناظر وتنبية الخاطر: ص ٨٥، حديث ٢٠.

(٣) الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي: ج ٥، ص ٦٦٢، حديث ٣٧٨٦.

نقل الحاكم النيسابوري بسنده عن حنش الكناني أنه قال:

«سَمِعْتُ أَبَا ذَرٍّ يَقُولُ وَهُوَ آخِذٌ بِبَابِ الْكَعْبَةِ: أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ عَرَفَنِي فَأَنَا مَنْ عَرَفْتُمْ، وَمَنْ أَنْكَرَنِي فَأَنَا أَبُو ذَرٍّ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي مَثَلُ سَفِينَةِ نُوحٍ مَنْ رَكِبَهَا نَجَا، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ»^(١).

عدم شمول الهداية الإلهية لاتباع الشيطان

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال في إحدى خطبه:

«... فَأَطِيعُونَا فَإِنَّ طَاعَتَنَا مَقْرُوضَةٌ، أَنْ كَانَتْ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مَقْرُوضَةً. قَالَ اللَّهُ عز وجل: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾^(٢)، وَقَالَ: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٣)»^(٤).

من الواضح لمن يتأمل قليلاً في استشهاد الإمام بالآيات أن يتوصل إلى أن الذين يتبعون أوامر الشيطان لن تشملهم الهداية الإلهية، وهذا الاستنتاج يتطابق مع ما يقتضيه مضمون الآية الثانية التي يفيد تفريع اتباع الشيطان على عدم الشمول بالفضل الإلهي المتمثل بالعلم الناشئ من الرجوع للرسول وأولي الأمر. والحاصل أن السير على خطى الشيطان سيؤدي بالإنسان إلى البعد عن العلم ومجانبة الهداية.

(١) الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله، المستدرک علی الصحیحین: ج ٢، ص ٣٧٣،

حدیث ٣٣١٢.

(٢) النساء: آية ٥٩.

(٣) النساء: آية ٨٣.

(٤) الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج ٢، ص ٢٩٩.

وقد جاء في كتاب الله العزيز:

﴿وَجَدْتُنَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾^(١).

تجلي الهداية الإلهية في السنة النبوية

ذكر البلاذري في كتابه:

«وَكَتَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَى الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام: أَمَا بَعْدُ، فَقَدِ انْتَهَتْ إِلَيَّ عَنْكَ أُمُورٌ أَرَعْبُ بِكَ عَنْهَا، فَإِنْ كَانَتْ حَقًّا لَمْ أَقَارِكْ عَلَيْهَا، وَلَعَمْرِي إِنْ مَنْ أَعْطَى صَفْقَةً يَمِينِهِ وَعَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ لِحَرِيٍّ بِالْوَفَاءِ، وَإِنْ كَانَتْ بَاطِلًا فَأَنْتَ أَسْعُدُ النَّاسَ بِدَلِّكَ، وَبِحِظِّ نَفْسِكَ تَبْدَأُ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ تُوفِي، فَلَا تَحْمِلْنِي عَلَى قَطِيعَتِكَ وَالْإِسَاءَةِ بِكَ، فَإِنِّي مَتَى أَنْكَرَكَ تُنْكَرُنِي، وَمَتَى تَكِدُنِي أَكِدُكَ، فَاتَّقِ شَقَّ عَصَا هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَنْ يَرَجِعُوا عَلَى يَدِكَ إِلَى الْفِتْنَةِ، فَقَدْ جَرَّبْتَ النَّاسَ وَبَلَّوْتَهُمْ، وَأَبُوكَ كَانَ أَفْضَلَ مِنْكَ، وَقَدْ كَانَ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ رَأْيُ الَّذِينَ يَلُودُونَ بِكَ، وَلَا أَظُنُّهُ يَصْلُحُ لَكَ مِنْهُمْ مَا كَانَ فَسَدَ عَلَيْهِ، فَاَنْظُرْ لِنَفْسِكَ وَدِينِكَ ﴿وَلَا يَسْتَخْفَنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾^(٢).

فَكَتَبَ إِلَيْهِ الْحُسَيْنُ: أَمَا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي كِتَابُكَ تَذَكُّرًا أَنَّهُ بَلَغَتْكَ عَنِّي أُمُورٌ تَرَعْبُ عَنْهَا، فَإِنْ كَانَتْ حَقًّا لَمْ تُقَارِنِي عَلَيْهَا، وَلَنْ يَهْدِيَ إِلَى الْحَسَنَاتِ وَيُسَدِّدَ لَهَا إِلَّا اللَّهُ. فَأَمَّا مَا نُمِّيَ إِلَيْكَ فَإِنَّمَا رَفَاهُ الْمَلَأُونَ الْمَشَاوُونَ بِالنَّائِمِ، الْمَفْرُقُونَ بَيْنَ الْجَمِيعِ، وَمَا أُرِيدُ حَرْبًا لَكَ وَلَا خِلَافًا عَلَيْكَ، وَأَيْمُ اللَّهِ لَقَدْ تَرَكْتُ ذَلِكَ وَأَنَا أَخَافُ اللَّهَ فِي تَرْكِهِ، وَمَا أَظُنُّ اللَّهَ رَاضِيًا عَنِّي بِتَرْكِ مُحَاكَمَتِكَ إِلَيْهِ، وَلَا عَاذِرِي دُونَ الْإِعْذَارِ إِلَيْهِ فِيكَ وَفِي أَوْلِيَائِكَ الْقَاسِطِينَ الْمَلْحِدِينَ، حِزْبِ الظَّالِمِينَ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيَاطِينِ، أَلَسْتَ قَاتِلَ حُجْرِ بْنِ عَدِيٍّ وَأَصْحَابِهِ

(١) النمل: آية ٢٤.

(٢) الروم: آية ٦٠.

المصليين العابدين، الذين يُنكرون الظلم ويستعظمون البدع ولا يخافون في الله لومة لائم ظلماً وعدواناً بعد إعطائهم الأمان بالمواثيق والأيمان المغلظة؟! أولست قاتل عمرو ابن الحمق صاحب رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، الذي أبنته العبادة وصفرت لونه وأنحلت جسمه؟! أولست المدعي زياد بن سميّة المولود على فراش عبيد عبداً ثقيفاً، وزعمت أنه ابن أبيك، وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (الولد للفراش وللعاهر الحجر)، فتركت سنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وخالفت أمره متعمداً، وتبعت هواك مكذباً بغير هدى من الله؟!»^(١).

وهنا تتجلى الهداية الإلهية بصورة واضحة في اتباع السنة النبوية ويتحصل ذلك من خلال ملاحظة تفريع جملة «بغير هدى من الله» على ما قبلها.

قال سبحانه:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾^(٢).

أنواع الرايات

روى بكر بن أيمن عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال:

«إِنَّا وَبَيْنِي أُمَّيَّةٌ تَعَادَيْنَا فِي اللَّهِ، فَنَحْنُ وَهُمْ كَذَلِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَجَاءَ جَبْرَيْلُ عليه السلام بِرَأْيَةِ الْحَقِّ فَرَكَّزَهَا بَيْنَ أَظْهُرِنَا، وَجَاءَ إِبْلِيسُ بِرَأْيَةِ الْبَاطِلِ فَرَكَّزَهَا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ...»^(٣).

حيث يتبين من الحديث أن هناك رايتين: إحداهما للحق وأخرى للباطل، وهناك من يحملها.

(١) البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج ٥، ص ١٢٨-١٢٩.

(٢) الفتح: آية ٢٨.

(٣) المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: ج ٣١، ص ٣٠٨.

وورد عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قوله:

«مَعَنَا رَايَةُ الْحَقِّ، مَنْ تَبِعَهَا لِحَقٍّ، وَمَنْ تَأَخَّرَ عَنْهَا غَرِقَ، أَلَا وَبِنَا تُدْرِكُ تِرَةً كُلِّ مُؤْمِنٍ، وَبِنَا تُخْلَعُ رِبْقَةُ الذُّلِّ مِنْ أَعْنَاقِكُمْ، وَبِنَا فُتِحَ لَا بِكُمْ، وَبِنَا يُخْتَمُ لَا بِكُمْ»^(١).

إمكان الهداية بالرجوع للنفس

نقل ابن سعد في طبقاته:

«ثُمَّ قَالَ حُسَيْنٌ لِعُمَرَ وَأَصْحَابِهِ: لَا تَعْجَلُوا حَتَّى أُخْبِرَكُمْ خَبْرِي، وَاللَّهِ مَا أَتَيْتُكُمْ حَتَّى أَتَنِّي كُتُبُ أَمَانِيكُمْ، بِأَنَّ السُّنَّةَ قَدْ أُمِيتَتْ وَالنَّفَاقَ قَدْ نُجِمَ وَالْحُدُودَ قَدْ عَطَلْتُ، فَأَقْدِمْ لَعَلَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُصْلِحَ بِكَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَاتَيْتُكُمْ، فَإِذَا كَرِهْتُمْ ذَلِكَ فَنَا رَاجِعٌ عَنْكُمْ، وَارْجِعُوا إِلَى أَنْفُسِكُمْ فَانظُرُوا هَلْ يَصْلِحُ لَكُمْ قَتْلِي أَوْ يَحِلُّ لَكُمْ دَمِي؟! أَلَسْتُ ابْنَ بِنْتِ نَبِيِّكُمْ وَابْنَ ابْنِ عَمِّهِ وَابْنَ أَوَّلِ الْمُؤْمِنِينَ إِيْمَانًا؟! أَوْلَيْسَ حَمْرَةَ وَالْعَبَّاسُ وَجَعْفَرٌ عُمُومَتِي؟! أَوْلَمْ يَبْلُغْكُمْ قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فِي وَفِي أَخِي: هَذَا ابْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟! فَإِنْ صَدَقْتُمُونِي وَإِلَّا فَاسْأَلُوا جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ وَأَبَا سَعِيدِ الْخَدْرِيِّ وَأَنْسَ بْنَ مَالِكٍ وَزَيْدَ بْنَ أَرْقَمٍ.

فَقَالَ شِمْرُ بْنُ ذِي الْجَوْشَنِ: هُوَ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ إِنْ كَانَ يَدْرِي مَا تَقُولُ»^(٢).

يكشف طلب الإمام عليه السلام منهم بالرجوع إلى أنفسهم عن إمكانية الهداية وأن

باب التوبة ما زال مفتوحاً حين عودة الإنسان عن غيه بمراجعة نفسه.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ»^(٣).

(١) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد: ج ١، ص ٢٤٠.

(٢) ابن سعد، محمد بن سعد، الطبقات الكبرى: الطبقة الخامسة من الصحابة: ج ١، ص ٤٦٨-٤٦٩.

(٣) المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: ج ٢، ص ٣٢، حديث ٢٢.

حرمة قتل الدعاة للهدى

يتأتى من العبارة المتقدمة «هَلْ يَصْلُحُ لَكُمْ قَتْلِي...» الواردة في الحديث السابق للإمام الحسين عليه السلام، أنّ هناك حقيقة لا بدّ من الالتفات لها، وهي شدة الضرر الذي سيطال الأمة الإسلامية بسبب قتل الدعاة للهداية والصلاح، وهذا ما جعل قتل الإمام الحسين عليه السلام بهذه الحرمة والشناعة خصوصاً إذا ما لوحظ أنّ هناك من دعاه ليهتدي به إلى طريق الصلاح، إلا أنّ أعداء الدين عدوا عليه وقتلوه. والحرمة مضاعفة هنا؛ لأنّ الضرر الذي سيلحق بالأمة في قتل أولياء الله سيكون أعظم وأشد، إذ من الثواب الشرعية وحتى العقلائية شدة قبح وحرمة من يقتل إنساناً دون سبب، فيكون الأمر هناك أعظم بقياس الأولوية.

قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾^(١).

هداية أفراد المجتمع بقبولهم دعوة أولياء الله

قال الدينوري:

«وَقَدْ كَانَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام كَتَبَ كِتَابًا إِلَى شَيْعَتِهِ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ مَعَ مَوْلَى لَهُ يُسَمَّى (سَلْمَانَ)، نُسَخَتْهُ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ إِلَى مَالِكِ بْنِ مِسْمَعٍ، وَالْأَخْنَفِ بْنِ قَيْسٍ، وَالْمُنْذِرِ بْنِ الْجَارُودِ، وَمَسْعُودِ بْنِ عَمْرٍو، وَقَيْسِ بْنِ الْهَيْثَمِ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، أَمَّا بَعْدُ،

(١) غافر: آية ٢٨.

فَإِنِّي أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ إِحْيَاءِ مَعَالِمِ الْحَقِّ وَإِمَاتَةِ الْبِدْعِ، فَإِنْ تُجِيبُوا تَهْتَدُوا سُبُلَ الرَّشَادِ،
وَالسَّلَامِ»^(١).

تدلنا الجملة الأخيرة في الرسالة على أن من يرتضي دعوة الأنبياء والرسول والأوصياء والعلماء، ويتلقاها بقبول حسن يكون بذلك قد وضع قدمه على طريق الرشاد وسبيل الهداية، وإذا ما استمر سيره على هذه الطريق فإنه سيصل لا محالة إلى مقصده والهدف الرئيس من خلقته.

ويشهد له قول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٢).

المأيوس من هدايتهم

قال ابن أعثم في (الفتوح):

«فَلَمَّا جَاءَ إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ رضي الله عنه قَالَ: يَا أَخِي، فَدَتَكَ نَفْسِي، أَنْتَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَأَعَزُّهُمْ عَلَيَّ، وَلَسْتُ وَاللَّهِ أَذْخِرُ النَّصِيحَةَ لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ، وَلَيْسَ أَحَدٌ أَحَقَّ بِهَا مِنْكَ، فَإِنَّكَ كَنَفْسِي وَرُوحِي وَكَبِيرُ أَهْلِ بَيْتِي وَمَنْ عَلَيْهِ اعْتِمَادِي وَطَاعَتُهُ فِي عُنُقِي؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قَدْ شَرَّفَكَ وَجَعَلَكَ مِنْ سَادَاتِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُشِيرَ عَلَيْكَ بِرَأْيِي فَاقْبَلْهُ مِنِّي.

فَقَالَ لَهُ الْحَسِينُ: قُلْ مَا بَدَا لَكَ. فَقَالَ: أُشِيرُ عَلَيْكَ أَنْ تَنْجُوَ نَفْسَكَ عَنْ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ وَعَنِ الْأَمْصَارِ مَا اسْتَطَعْتَ، وَأَنْ تَبْعَثَ رُسُلَكَ إِلَى النَّاسِ وَتَدْعُوهُمْ إِلَى بَيْعَتِكَ، فَإِنِّي إِنْ بَايَعَكَ النَّاسُ وَتَابَعُوكَ حَمَدْتُ اللَّهَ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَقُمْتَ فِيهِمْ بِمَا يَقُومُ فِيهِمْ

(١) الدينوري، أحمد بن داود، الأخبار الطوال: ص ٢٣١.

(٢) الأنعام: آية ٤٨.

النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْخُلَفَاءَ الرَّاشِدُونَ الْمَهْدِيِّونَ مِنْ بَعْدِهِ، حَتَّى يَتَوَفَّاكَ اللَّهُ وَهُوَ عَنكَ رَاضٍ، وَالْمُؤْمِنُونَ كَذَلِكَ، كَمَا رَضُوا عَنْ أَبِيكَ وَأَخِيكَ، وَإِنْ أَجْمَعَ النَّاسُ عَلَى غَيْرِكَ حَمَدَتِ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ، وَإِنِّي خَائِفٌ عَلَيْكَ أَنْ تَدْخُلَ مِصْرًا مِنَ الْأَمْصَارِ أَوْ تَأْتِيَ بَجَمَاعَةٍ مِنَ النَّاسِ فَيَقْتُلُونَ فَتَكُونَ طَائِفَةً مِنْهُمْ مَعَكَ وَطَائِفَةٌ عَلَيْكَ فَتَقْتُلُ مِنْهُمْ.

فَقَالَ لَهُ الْحُسَيْنُ: يَا أَخِي، إِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ؟ قَالَ: أَخْرُجْ إِلَى مَكَّةَ، فَإِنْ اطْمَأْنَنْتَ بِكَ الدَّارُ فَذَلِكَ الَّذِي تُحِبُّ وَأُحِبُّ، وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى خَرَجْتَ إِلَى بِلَادِ الْيَمَنِ، فَإِنَّهُمْ أَنْصَارُ جَدِّكَ وَأَخِيكَ وَأَبِيكَ، وَهُمْ أَرْأَفُ النَّاسِ وَأَرْقُهُمْ قُلُوبًا، وَأَوْسَعُ النَّاسِ بِلَادًا، وَأَرْجَحُهُمْ عُقُولًا، فَإِنْ اطْمَأْنَنْتَ بِكَ أَرْضَ الْيَمَنِ وَإِلَّا لَحِقْتُ بِالرَّمَالِ وَشُعُوبِ الْجِبَالِ، وَصَرْتِ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ لَتَنْظُرَ مَا يُؤُولُ إِلَيْهِ أَمْرُ النَّاسِ، وَيُحْكَمَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ.

فَقَالَ لَهُ الْحُسَيْنُ: يَا أَخِي، وَاللَّهِ لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا مَلْجَأٌ وَلَا مَأْوَى لَمَا بَايَعْتُ وَاللَّهِ يَزِيدُ بِنِ مَعَاوِيَةَ أَبَدًا، وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اللَّهُمَّ لَا تُبَارِكْ فِي يَزِيدَ).

قَالَ: فَقَطَعَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ الْكَلَامَ وَبَكَى، فَبَكَى مَعَهُ الْحُسَيْنُ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: جَزَاكَ اللَّهُ - يَا أَخِي - عَنِّي خَيْرًا، وَلَقَدْ نَصَحْتَ وَأَشْرْتَ بِالصَّوَابِ، وَأَنَا أَرْجُو أَنْ يَكُونَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ رَأْيُكَ مُوَفَّقًا مُسَدَّدًا، وَإِنِّي قَدْ عَزَمْتُ عَلَى الْخُرُوجِ إِلَى مَكَّةَ، وَقَدْ تَهَيَّأْتُ لِدَلِّكَ أَنَا وَإِخْوَتِي وَبَنُو إِخْوَتِي وَشِيعَتِي، وَأَمْرُهُمْ أَمْرِي، وَرَأْيُهُمْ رَأْيِي. وَأَمَّا أَنْتَ يَا أَخِي، فَلَا عَلَيْكَ أَنْ تُقِيمَ بِالْمَدِينَةِ فَتَكُونَ لِي عَيْنًا عَلَيْهِمْ، وَلَا تُخْفِ عَلَيَّ شَيْئًا مِنْ أُمُورِهِمْ»^(١).

يتحصل من استشهاد الإمام عليه السلام بحديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشأن يزيد أن هناك عدّة من الناس ملعونين، ولا يوجد أدنى رجاء بهدايتهم، وهذا المعنى لا يلغي قدرتهم على اختيار طريق الهداية؛ لأنّ من لا يروم الهداية من الله سبحانه ولا يسعى لها لن يكون محتاجاً لهدايته الإجمالية أو التشريعية.

(١) ابن أعثم الكوفي، أحمد، الفتوح: ج ٥، ص ٢٠-٢١.

ويصفهم الله جل علاه بقوله:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْغَافِلُونَ﴾^(١).

سلام الله وأوليائه على أتباع الهدى

نقل ابن أعثم:

«وَصِيَّةُ الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَخِيهِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

فَكَتَبَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا مَا أَوْصَى بِهِ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ
لِأَخِيهِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ الْمَعْرُوفِ وَلَدِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ :
إِنَّ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ
وَرَسُولُهُ، جَاءَ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِهِ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ
فِيهَا، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ، وَإِنِّي لَمْ أَخْرُجْ أَشْرًا وَلَا بَطْرًا، وَلَا مُفْسِدًا وَلَا ظَالِمًا،
وَإِنَّمَا خَرَجْتُ لِطَلْبِ النَّجَاحِ وَالصَّلَاحِ فِي أُمَّةٍ جَدِّي مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أُرِيدُ أَنْ أَمُرَ بِالْمَعْرُوفِ
وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَسِيرَ بِسِيرَةِ جَدِّي مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَسِيرَةَ أَبِي عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَسِيرَةَ
الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْدِيِّينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَمَنْ قَبِلَنِي بِقَبُولِ الْحَقِّ فَاللَّهُ أَوْلَى بِالْحَقِّ، وَمَنْ رَدَّ عَلَيَّ
هَذَا أَصْبِرْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَ الْقَوْمِ بِالْحَقِّ، وَيَحْكُمَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ، وَهُوَ خَيْرُ
الْحَاكِمِينَ، هَذِهِ وَصِيَّتِي إِلَيْكَ يَا أَخِي، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ،
وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَعَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهَدَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ»^(٢).

(١) النحل: آية ١٠٨.

(٢) ابن أعثم الكوفي، أحمد، الفتوح: ج ٥، ص ٢١.

يتبين من المقطع قبل الأخير في هذه الوصية أن الله جل وعلا وأولياءه، وسيّد الشهداء عليه السلام منهم بالتأكيد يسلمون على من اتبعوا الهدى وسلكوا طريقه.
وهذا عينه قد صرح به القرآن الكريم بقوله تعالى:
﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾^(١).

طريق الإمام الحسين عليه السلام سبيل الهداية

من الجملة السابقة نفسها التي ختم بها الإمام الحسين عليه السلام وصيته، وهي:
«وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ» يتضح لنا أن الطريق الذي سلكه الإمام الحسين عليه السلام هو طريق الهداية؛ باعتبار أن الإمام عليه السلام قالها لما كان في صدد التعريف بأهدافه وغاياته وما هو مرجو من رحيله وحركته.

نقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ نَبِيًّا إِنَّ الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ فِي السَّمَاءِ أَكْبَرُ مِنْهُ فِي الْأَرْضِ، وَإِنَّهُ لَمَكْتُوبٌ عَن يَمِينِ عَرْشِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: مِصْبَاحُ هُدَىٰ وَسَفِينَةُ نَجَاةٍ وَإِمَامٌ غَيْرٌ وَهَنٌ وَعِزٌّ وَفَخْرٌ وَعِلْمٌ وَذُخْرٌ»^(٢).

وجوب اتباع الهدى

يتضح لنا كذلك من جملة الإمام الحسين عليه السلام المتقدمة «وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ» ضرورة اتباع الهدى، والبحث عن الأسباب الموجبة له ولزومه على الجميع.

(١) طه: آية ٤٧.

(٢) ابن بابويه، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ١، ص ٦٠، حديث ٢٩.

فقد قال الله سبحانه في قرآنه المجيد:

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿١﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢﴾﴾.

وقال أيضاً:

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ أَتْبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٣﴾﴾.

ضرورة هداية الناس إلى طريق الهدى

نقل الخوارزمي بإسناده عن عبدالله بن الحسن أنه قال:

«لَمَّا عَبَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَدْنِيِّ أَصْحَابَهُ لِحَارَبَةِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَرَتَّبَهُمْ فِي مَرَاتِبِهِمْ، وَأَقَامَ الرِّايَاتِ فِي مَوَاضِعِهَا، وَعَبَا الْحُسَيْنُ أَصْحَابَهُ فِي الْمَيْمَنَةِ وَالْمَيْسَرَةِ، فَأَحَاطُوا بِالْحُسَيْنِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ حَتَّى جَعَلُوهُ فِي مِثْلِ الْحَلْقَةِ، خَرَجَ الْحُسَيْنُ مِنْ أَصْحَابِهِ حَتَّى أَتَى النَّاسَ فَاسْتَنْصَتَهُمْ فَأَبَوْا أَنْ يُنصِتُوا، فَقَالَ لَهُمْ: وَيْلَكُمْ! مَا عَلَيْكُمْ أَنْ تُنصِتُوا إِلَيَّ، فَتَسْمَعُوا قَوْلِي، وَإِنَّمَا أَدْعُوكُمْ إِلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ، فَمَنْ أَطَاعَنِي كَانَ مِنَ الْمُرشِدِينَ، وَمَنْ عَصَانِي كَانَ مِنَ الْمُهْلَكِينَ، وَكُلُّكُمْ عَاصٍ لِأَمْرِي، غَيْرَ مُسْتَمِعٍ لِقَوْلِي، قَدْ انْحَزَلَتْ عَطِيَّاتُكُمْ مِنَ الْحَرَامِ، وَمُلِئَتْ بَطُونُكُمْ مِنَ الْحَرَامِ، فَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِكُمْ، وَيْلَكُمْ أَلَا تُنصِتُونَ؟! أَلَا تَسْمَعُونَ؟!» (٣).

فمن قوله: «وَإِنَّمَا أَدْعُوكُمْ إِلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ» يتبين لنا حتمية هداية الناس من قبل القادة الإلهيين ودعوتهم لهم والسير بهم نحو الهدى والرشد والصلاح حتى يبلغون بهم الدرجات العالية.

وهكذا نقل الطبري بسنده عن أبي عثمان النهدي أنه قال:

(١) يس: آية ٢٠-٢١.

(٢) طه: آية ٤٧.

(٣) أخطب خوارزم، الموفق بن أحمد، مقتل الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ٩٨.

«كَتَبَ حُسَيْنٌ مَعَ مَوْلَى لَهُمْ يُقَالُ لَهُ: سُلَيْمَانُ، وَكَتَبَ بِنُسْخَةٍ إِلَى رُوُوسِ الْأَخْمَاسِ بِالْبَصْرَةِ وَإِلَى الْأَشْرَافِ، فَكَتَبَ إِلَى مَالِكِ بْنِ مِسْمَعِ الْبُكْرِيِّ، وَإِلَى الْأَخْنَفِ بْنِ قَيْسٍ، وَإِلَى الْمُنْذِرِ بْنِ الْجَارُودِ، وَإِلَى مَسْعُودِ بْنِ عَمْرٍو، وَإِلَى قَيْسِ بْنِ الْهَيْثَمِ، وَإِلَى عَمْرٍو بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مَعْمَرٍ، فَجَاءَتْ مِنْهُ نُسْخَةٌ وَاحِدَةٌ إِلَى جَمِيعِ أَشْرَافِهَا:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مُحَمَّدًا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عَلَى خَلْقِهِ وَأَكْرَمَهُ بِنُبُوَّتِهِ وَاخْتَارَهُ لِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ قَبَضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَقَدْ نَصَحَ لِعِبَادِهِ وَبَلَّغَ مَا أُرْسِلَ بِهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وَكُنَّا أَهْلُهُ وَأَوْلِيَاءَهُ وَأَوْصِيَاءَهُ وَوَرَثَتَهُ وَأَحَقَّ النَّاسِ بِمَقَامِهِ فِي النَّاسِ، فَاسْتَأْذَنَّا عَلَيْنَا قَوْمَنَا بِذَلِكَ فَرَضِينَا، وَكَرِهْنَا الْفُرْقَةَ، وَأَحْبَبْنَا الْعَاقِبَةَ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّا أَحَقُّ بِذَلِكَ الْحَقِّ الْمُسْتَحَقِّ عَلَيْنَا مِمَّنْ تَوَلَّاهُ، وَقَدْ أَحْسَنُوا وَأَصْلَحُوا وَتَحَرَّوْا الْحَقَّ فَرَحِمَهُمُ اللَّهُ وَغَفَرَ لَنَا وَلَهُمْ، وَقَدْ بَعَثْتُ رَسُولِي إِلَيْكُمْ بِهَذَا الْكِتَابِ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فَإِنَّ السُّنَّةَ قَدْ أُمِيتَتْ، وَإِنَّ الْبِدْعَةَ قَدْ أُحْيِيَتْ، وَإِنْ تَسْمَعُوا قَوْلِي وَتُطِيعُوا أَمْرِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ»^(١).

إنَّ ملاحظة التعبير الأخير للإمام تضع أمامنا ملامح إحدى وظائف القادة الربانيين والمهام الملقاة على عاتقهم، وهي بيانهم طريق الرشاد والكمال ورسم معالمه وهداية الناس إليه.

يستعرض قول الله تبارك وتعالى ذلك في الآية الكريمة:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزَكَّاهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٢).

(١) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٥، ص ٣٥٧.

(٢) آل عمران: آية ١٦٤.

الهداية رهن إطاعة الإمام الحق

يتبين بشكل واضح من ذيل الحديث السابق للإمام الحسين عليه السلام أن هداية الناس مرهونة بطاعة القادة الربانيين، والعمل بأوامرهم وإرشاداتهم.

يقول الله العزيز في كتابه المجيد:

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾^(١).

ويؤكد الإمام علي عليه السلام هذا المعنى ببيانه:

«إِنَّمَا مَثَلِي بَيْنَكُمْ كَمَثَلِ السَّرَاحِ فِي الظُّلْمَةِ، يَسْتَضِيءُ بِهِ مَنْ وَجَّهَهَا، فَاسْمَعُوا أَيُّهَا النَّاسُ وَعُوا، وَأَحْضِرُوا آذَانَ قُلُوبِكُمْ تَفْهَمُوا»^(٢).

الحاجة لإظهار المعجزة أمام العدو لتنبئ به للهدى

استعرض ابن نما ما جرى بهذا الصدد يوم عاشوراء فقال:

«وَجَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: أَيْنَ الْحَسَيْنُ؟ فَقَالَ: هَا أَنَا ذَا، قَالَ: أَبَشِّرُ بِالنَّارِ تَرِدُهَا السَّاعَةَ،

قَالَ: [بَلْ] أَبَشِّرُ بِرَبِّ رَحِيمٍ، وَشَفِيعٍ مُطَاعٍ، مَنْ أَنْتَ؟

قَالَ: أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْأَشْعَثِ.

قَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ عَبْدُكَ كَاذِبًا فَخُذْهُ إِلَى النَّارِ، وَاجْعَلْهُ الْيَوْمَ آيَةً لِأَصْحَابِهِ فَمَا هُوَ

إِلَّا أَنْ تَنَى عَنَانَ فَرَسِهِ فَرَمَى بِهِ وَتَبَّتْ رِجْلُهُ فِي الرِّكَابِ، فَضْرَبَهُ حَتَّى قَطَعَهُ وَوَقَعَتْ

مَدَاكِرُهُ فِي الْأَرْضِ فَوَ اللَّهُ لَقَدْ عَجَبْنَا مِنْ سُرْعَةِ إِجَابَةِ دُعَائِهِ عليه السلام.

ثُمَّ جَاءَ آخَرٌ فَقَالَ: أَيْنَ الْحَسَيْنُ؟ فَقَالَ: هَا أَنَا ذَا، قَالَ: أَبَشِّرُ بِالنَّارِ، قَالَ: أَبَشِّرُ بِرَبِّ

رَحِيمٍ، وَشَفِيعٍ مُطَاعٍ، مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا شَمْرُ بْنُ ذِي الْجَوْشَنِ.

(١) الأنبياء: آية ٧٣.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ١٨٧.

قَالَ الْحُسَيْنُ عليه السلام: اللَّهُ أَكْبَرُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: رَأَيْتُ كَانَ كَلْبًا أَبْقَعَ يَلْبَغُ [فِي] دِمَاءِ أَهْلِ بَيْتِي.

وَقَالَ الْحُسَيْنُ عليه السلام: رَأَيْتُ كَانَ كِلَابًا تَنْهَشُنِي وَكَانَ فِيهَا كَلْبًا أَبْقَعَ كَانَ أَشَدَّهُمْ عَلَيَّ، وَهُوَ أَنْتَ، وَكَانَ أَبْرَصَ^(١).

ولا يخفى ما في دعاء الإمام علي ابن الأشعث والاستجابة السريعة لدعائه وإنزال العقوبة الإلهية به من دلالة على أن الظرف قد يقتضي أحيانا الإتيان بالمعجزة أمام المملأ أو التذكير بمعاجز النبي صلى الله عليه وآله عسى أن يعي ويفطن الآخرون ويتبهبوا إلى ما هم عليه من الضلال، كما يدل عليه ما ورد في القسم الثاني من هذا الحديث وهو قوله: «ثُمَّ جَاءَ آخَرُ».

نقل عن أبي بصير أنه قال:

«قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: لِأَيِّ عِلَّةٍ أَعْطَى اللَّهُ عز وجل أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ وَأَعْطَاكُمْ الْمَعْجِزَةَ؟ فَقَالَ: لِيَكُونَ دَلِيلًا عَلَى صِدْقِ مَنْ آتَى بِهِ، وَالْمَعْجِزَةُ عَلَامَةٌ لِلَّهِ لَا يُعْطِيهَا إِلَّا أَنْبِيَاءُهُ وَرُسُلُهُ وَحُجَجَهُ لِيُعْرَفَ بِهِ صِدْقُ الصَّادِقِ مِنْ كَذِبِ الْكَاذِبِ»^(٢).

هداية الإنسان بيد الله تعالى

نقل أبو يعلى بسنده عن أبي الحوراء أن الحسين بن علي عليه السلام قال:

«عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كَلِمَاتٍ أَقْوَهُنَّ فِي قُنُوتِ الْوَيْلِ: رَبِّ اهْدِنِي فِيْمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيْمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيْمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيْمَا أَعْطَيْتَ، وَفِيْمَا شَرَّ مَا قَضَيْتَ، فَإِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، وَإِنَّكَ لَا تُذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ»^(٣).

(١) ابن نما، جعفر بن محمد، مثير الأحزان: ص ٦٤.

(٢) ابن بابويه، محمد بن علي، علل الشرائع: ج ١، ص ١٢٢، حديث ١.

(٣) أبو يعلى الموصلي، أحمد بن علي، مسند أبي يعلى: ج ١٢، ص ١٥٦، حديث ٦٧٨٦.

وهنا الفقرة الأولى تدل على أن هداية الإنسان بيد الله جلّت آلاؤه، ولهذا ينبغي علينا أن نطلب منه سبحانه الهدى والهداية.

وقال الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفه مخاطباً الله تعالى:
«وَنُورٍ تَهْدِي بِهِ»^(١).

فيدل هذا الدعاء أيضاً على أن هداية الإنسان بيد الله من إسناده «الهداية» لله تبارك وتعالى.

قال جل وعلا:

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٢).

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، وَكُلُّكُمْ فَقِيرٌ إِلَّا مَنْ أَعْنَيْتُهُ، وَكُلُّكُمْ مُذْنِبٌ إِلَّا مَنْ عَصَمْتُهُ»^(٣).

نور الهداية في الحكمة

نسبت هذه الأشعار للإمام الحسين عليه السلام:

سَبَقْتُ الْعَالَمِينَ إِلَى الْمَعَالِي	بِحُسْنِ خَلِيقَةٍ وَعُلُوِّ هِمَّةٍ
وَلَا حِجَابَ بِحِكْمَتِي نُورِ الْهَدَى فِي	لَيْالٍ فِي الضَّلَالَةِ مُدْهَمَّةٍ
يُرِيدُ الْجَاهِدُونَ لِيُطْفِئُوهُ	وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ تُيَمَّمَهُ ^(٤) .

من ملاحظة المدلول التضمني للبيت الثاني يتبين أن نور الهدى يلوح في ثنايا

(١) الكفعمي، إبراهيم بن علي، البلد الأمين: ص ٢٥٧.

(٢) النور: آية ٤٦.

(٣) ابن بابويه، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه: ج ٤، ص ٣٩٧، حديث ٥٨٤٨.

(٤) ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب عليهم السلام: ج ٤، ص ٧٢-٧٣.

الكلام المليء بالحكمة، وبه ينقشع ظلام التيه والضلال.

قال تبارك وتعالى:

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(١).

زوال الضلال بنور هدى الإمام

يتبين لنا كذلك مما تضمنه البيت الثاني أنّ ظلمة الضلال والانحراف واليه

تتبدد بنور هدى الإمام.

نقل عن برّيد أنّه قال:

«سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام يَقُولُ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾^(٢) فَقَالَ: مَيِّتٌ لَا يَعْرِفُ شَيْئًا، وَ﴿نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾: إِمَامًا يُؤْتَمُّ بِهِ، ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ قَالَ: الَّذِي لَا يَعْرِفُ الْإِمَامَ»^(٣).

سعي الجاحدين لإطفاء نور الهداية

عوداً لتلك الأبيات المنسوبة للإمام الحسين عليه السلام، وهذه المرّة للبيت الثالث الذي يحكي حال الجاحدين للدين وأهل الضلال وسعيهم الحثيث لإطفاء أي بصيص لنور الهداية، ولكن تقف بوجه جميع تلك المخططات إرادة الله الحتمية لإتمام نور الهدى.

قال سبحانه وتعالى:

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُنِيرٌ نُورِهِ ۖ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(٤).

(١) البقرة: آية ٢٦٩.

(٢) الأنعام: آية ١٢٢.

(٣) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ١٨٥، حديث ١٣.

(٤) الصف: آية ٨.

هداية الله للحسنات

ذكر ابن عساكر في (تاريخ مدينة دمشق):

«وَكَتَبَ مَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ إِلَى مُعَاوِيَةَ: إِنِّي لَسْتُ آمِنٌ أَنْ يَكُونَ حُسَيْنٌ مُرْصِداً لِلْفِتْنَةِ، وَأُظُنُّ يَوْمَكُمْ مِنْ حُسَيْنٍ طَوِيلاً.

فَكَتَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَى الْحُسَيْنِ: إِنَّ مَنْ أَعْطَى اللَّهُ صَفْقَةَ يَمِينِهِ وَعَهْدَهُ لَجْدِيرٍ بِالْوَفَاءِ، وَقَدْ أُبَيِّنْتُ أَنَّ قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ قَدْ دَعَوْكَ إِلَى الشَّقَاقِ، وَأَهْلُ الْعِرَاقِ مَنْ قَدْ جَرَّبَتْ، قَدْ أَفْسَدُوا عَلَى أَبِيكَ وَأَخِيكَ، فَاتَّقِ اللَّهَ وَادْكُرِ الْمِيثَاقَ، فَإِنَّكَ مَتَى تَكْذِبُنِي أَكْذَكَ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ الْحُسَيْنُ: أَتَانِي كِتَابُكَ وَأَنَا بَغِيرُ الَّذِي بَلَغَكَ عَنِّي جَدِيرٌ، وَالْحَسَنَاتُ لَا يَهْدِي لَهَا إِلَّا اللَّهُ، وَمَا أَرَدْتُ لَكَ مُحَارَبَةً وَلَا عَلَيَّكَ خِلَافًا، وَمَا أَظُنُّ لِي عِنْدَ اللَّهِ عُذْرًا فِي تَرْكِ جِهَادِكَ، وَلَا أَعْلَمُ فِتْنَةً أَعْظَمَ مِنْ وَلَايَتِكَ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ.

فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: إِنْ أَثَرْنَا بِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ إِلَّا أَسَدًا»^(١).

يتحصل من مفاد جملة «والحسنات لا يهدي لها إلا الله» أنّ الله سبحانه هو الذي يهدي الناس للحسنات.

قال جل وعلا:

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾^(٢).

درجات الهداية

مما ذكره ابن شهر آشوب:

«رَوَى أَبُو مُحَمَّدٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ أَنَّهُ صُلِبَ رَأْسُ الْحُسَيْنِ بِالصَّيَارِفِ فِي الْكُوفَةِ، فَتَنَحَّحَ الرَّأْسُ وَقَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُمْ فَتِيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ

(١) ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق: ج ١٤، ص ٢٠٥-٢٠٦.

(٢) النساء: آية ٧٩.

هُدًى ﴿١﴾، فَلَمْ يَزِدْهُمْ ذَلِكَ إِلَّا ضَلَالًا. وَفِي آثَرٍ: أَنَّهُمْ لَمَّا صَلَبُوا رَأْسَهُ عَلَى الشَّجَرَةِ سَمِعَ مِنْهُ: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ ﴿٢﴾، وَسَمِعَ أَيْضًا صَوْتَهُ بِدِمَشْقَ يَقُولُ: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ ﴿٣﴾، وَسَمِعَ أَيْضًا يَقْرَأُ: ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ ﴿٤﴾ فَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ: أَمْرٌكَ أَعْجَبُ يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ ﴿٥﴾.

حينما ندقق في جملة ﴿وَزِدْنَهُمْ هُدًى﴾ يبدو لنا جلياً أن الهداية من المقولات المشككة، أي أنها قابلة للزيادة والنقصان.

قال سبحانه وتعالى:

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ ﴿٦﴾.

الهداية بالإيصال إلى المطلوب

قال ابن الأثير:

«وَخَرَجَ عَمْرُو بْنُ قَرْظَةَ الْأَنْصَارِيُّ وَقَاتَلَ دُونَ الْحَسَنِ فُقُتِلَ، وَكَانَ أَخُوهُ مَعَ عَمْرِ بْنِ سَعْدٍ، فَنَادَى: يَا حَسِينُ، يَا كَذَّابُ ابْنِ الْكُذَّابِ! أَضَلَلْتَ أَحِي وَعَرَّرْتَهُ حَتَّى قَتَلْتَهُ! فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَمْ يُضِلَّ أَحَاكَ بَلْ هَدَاهُ وَأَضَلَّكَ. قَالَ: قَتَلَنِي اللَّهُ إِنْ لَمْ أَقْتُلْكَ أَوْ أَمُوتَ دُونَكَ.

فَحَمَلَ وَاعْتَرَضَهُ نَافِعُ بْنُ هِلَالٍ الْمَرَادِيُّ فَطَعَنَهُ فَصَرَعَهُ، فَحَمَلَهُ أَصْحَابُهُ

(١) الكهف: آية ١٣.

(٢) الشعراء: آية ٢٢٧.

(٣) الكهف: آية ٣٩.

(٤) الكهف: آية ٩.

(٥) ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب عليه السلام: ج ٤، ص ٦١.

(٦) مريم: آية ٧٦.

فَاسْتَقْدُوهُ، فَدُووِي بَعْدُ فَبَرَأً»^(١).

حيث يستتج من جملة «...بَلْ هَدَاهُ» أن الشهداء بنيلهم الشهادة، يكونون قد وصلوا إلى مبتغاهم ومطلوبهم.
قال تبارك وتعالى:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(٢).

الإنسان مخير في اختياره طريق الهدى

نقل الشيخ الصدوق بسنده عن هرثمة بن أبي مسلم أنه قال:

«عَزَوْنَا مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام صَفَيْنَ، فَلَمَّا انْصَرَفْنَا نَزَلَ كَرْبَلَاءَ فَصَلَّى بِهَا الْغَدَاةَ، ثُمَّ رَفَعَ إِلَيْهِ مِنْ تُرْبَتِهَا فَشَمَّهَا، ثُمَّ قَالَ: وَاهَا لَكَ أَيُّهَا التُّرْبَةُ، لِيَحْشَرَنَّ مِنْكَ أَقْوَامٌ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ. فَرَجَعَ هَرْثَمَةُ إِلَى زَوْجَتِهِ، وَكَانَتْ شَيْعَةً لِعَلِيِّ عليه السلام فَقَالَ: أَلَا أُحَدِّثُكَ عَنْ وَلِيِّكَ أَبِي الْحَسَنِ؟ نَزَلَ بِكَرْبَلَاءَ فَصَلَّى، ثُمَّ رَفَعَ إِلَيْهِ مِنْ تُرْبَتِهَا، وَقَالَ: وَاهَا لَكَ أَيُّهَا التُّرْبَةُ، لِيَحْشَرَنَّ مِنْكَ أَقْوَامٌ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ. قَالَتْ: أَيُّهَا الرَّجُلُ، فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ يَقُلْ إِلَّا حَقًّا.

فَلَمَّا قَدِمَ الْحُسَيْنُ عليه السلام قَالَ هَرْثَمَةُ: كُنْتُ فِي الْبَعْثِ الَّذِينَ بَعَثَهُمْ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ، فَلَمَّا رَأَيْتُ الْمَنْزِلَ وَالشَّجَرَ ذَكَرْتُ الْحَدِيثَ، فَجَلَسْتُ عَلَى بَعِيرِي، ثُمَّ صَرْتُ إِلَى الْحُسَيْنِ عليه السلام، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَأَخْبَرْتُهُ بِمَا سَمِعْتُ مِنْ أَبِيهِ فِي ذَلِكَ الْمَنْزِلِ الَّذِي نَزَلَ بِهِ الْحُسَيْنُ عليه السلام، فَقَالَ: مَعَنَا أَنْتَ أُمَّ عَلَيْنَا؟ فَقُلْتُ: لَا مَعَكَ وَلَا عَلَيْنِكَ، خَلَفْتُ صَبِيَّةً أَخَافُ عَلَيْهِمْ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ، قَالَ: فَاْمُضِ حَيْثُ لَا تَرَى لَنَا مَقْتَلًا، وَلَا تَسْمَعُ لَنَا صَوْتًا، فَوَ الَّذِي نَفْسُ الْحُسَيْنِ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ الْيَوْمَ وَاعِينَنَا أَحَدٌ فَلَا يُعِينُنَا إِلَّا كَبَّةُ اللَّهِ لَوْجِهِ فِي جَهَنَّمَ»^(٣).

(١) ابن الأثير، علي بن محمد، الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ١٧٤.

(٢) القصص: آية ٥٦.

(٣) ابن بابويه، محمد بن علي، الأموال: ص ١٩٩-٢٠٠، حديث ٢١٣.

ولو عطفنا تفكيرنا إلى ما في سؤال الإمام لهرثمة من دلالات نخلص بها محصله أنّ الإنسان مختار في سلوكه طريق الهداية وليس هناك أيّ إجبار تكويني، فأفعاله ناشئة من محض الاختيار، رغم الإجبار التشريعي المتمثل بدعوة الشارع الإنسان إلى العمل بأوامره الخاصّة وتوعّده بالعذاب على تركه إياها.

وهكذا نقل الخوارزمي بإسناده عن عبدالله بن الحسن أنّه قال:

«لَمَّا عَبَّأَ عُمَرُ بْنُ سَعْدٍ أَصْحَابَهُ لِمُحَارَبَةِ الْحُسَيْنِ عليه السلام، وَرَتَّبَهُمْ فِي مَرَاتِبِهِمْ، وَأَقَامَ الرِّايَاتِ فِي مَوَاضِعِهَا، وَعَبَّأَ الْحُسَيْنُ أَصْحَابَهُ فِي الْمَيْمَنَةِ وَالْمِيسَرَةِ، فَأَحَاطُوا بِالْحُسَيْنِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ حَتَّى جَعَلُوهُ فِي مِثْلِ الْحَلْقَةِ، خَرَجَ الْحُسَيْنُ مِنْ أَصْحَابِهِ حَتَّى أَتَى النَّاسَ فَاسْتَنْصَتَهُمْ فَأَبَوْا أَنْ يُنصِتُوا، فَقَالَ لَهُمْ: وَيَلِكُمْ! مَا عَلَيْكُمْ أَنْ تُنصِتُوا إِلَيَّ، فَتَسْمَعُوا قَوْلِي، وَإِنَّمَا أَدْعُوكُمْ إِلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ...»^(١).

فمن الواضح دلالة جملة «وَإِنَّمَا أَدْعُوكُمْ إِلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ» على أنّ الإنسان مختار في سلوكه طريق الهدى والرشاد والصلاح، وهنا تبرز وظيفة الأنبياء والأوصياء والهداة في إنارة الطريق وتوضيح مطبّاته ومنعطفاته والتي يعبر عنها بـ«إراءة الطريق».

قال تعالى:

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾^(٢).

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال في تفسير هذه الآية:

«عَرَفْنَاهُ إِمَّا آخِذٌ وَإِمَّا تَارِكٌ»^(٣).

(١) أخطب خوارزم، الموفق بن أحمد، مقتل الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ٩٨-٩٩.

(٢) الإنسان: آية ٣.

(٣) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ١٦٣، حديث ٣.

وجوب الاستماع للدعاة إلى الهدى

يتبين للمرء وجوب وضرورة الاستماع لدعوة قادة الدين إلى الرشد والهدى والصلاح، وإطاعة أوامرهم ووصاياهم وصولاً لنيل هذا الهدف الهام، عند ملاحظته الجملة الواردة في الحديث المتقدم للإمام الحسين عليه السلام، وهي قوله: «فَمَنْ أَطَاعَنِي كَانَ مِنَ الْمُرْشِدِينَ» مع إمعان الفكر بتفريعها على ما قبلها.
قال عز من قائل:

﴿يَقَوْمًا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَعْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(١).

القلوب التي لن تهتدي أبداً

إنَّ إلقاء نظرة على قول الإمام الحسين عليه السلام: «فَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِكُمْ» في الحديث السابق يكشف لنا عمّا تطبعت عليه قلوب أولئك الذين فرحوا بالعطايا المحرمة وصاروا من آكلي الحرام، فإنهم لن يهتدوا أبداً وسيرحلون عن هذه الدنيا على الكفر، ومما قد يصدر من هؤلاء قتلهم الإمام المعصوم عليه السلام؛ لأنَّ في قتلهم الإمام يكونون قد بلغوا أقصى مراتب الجرأة والتجري على الله سبحانه، وبفعلهم هذا يغلقون باب الهداية بأيديهم، دون أيِّ إجبار أو إكراه.

قال سبحانه وتعالى:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ﴾^(٢).

(١) الأحقاف: آية ٣١.

(٢) النحل: آية ١٠٨.

لزوم العمل على أساس الهداية الإلهية

ذكر الطبرسي في (الاحتجاج):

«وَقَالَ عليه السلام فِي جَوَابِ كِتَابِ كَتَبَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةُ عَلَى طَرِيقِ الْإِحْتِجَاجِ:

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي كِتَابُكَ أَنَّهُ بَلَغَكَ عَنِّي أُمُورٌ إِنَّ بِي عَنْهَا غِنَى، وَزَعَمْتَ أَنِّي رَاغِبٌ فِيهَا، وَأَنَا بَغِيْرَهَا عَنْكَ جَدِيْرٌ، أَمَّا مَا رُفِيَ إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّهُ رَقَاهُ إِلَيْكَ الْمَلَأُفُونَ الْمَشَاوُونَ بِالتَّائِمِ، الْمَفْرُقُونَ بَيْنَ الْجَمْعِ، كَذَبَ السَّاعُونَ الْوَأَشُونَ مَا أَرَدْتُ حَرْبَكَ وَلَا خِلَافًا عَلَيْكَ، وَأَيْمُ اللَّهِ إِنِّي لَأَخَافُ اللَّهَ عَزَّ ذِكْرُهُ فِي تَرْكِ ذَلِكَ، وَمَا أَظُنُّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَرِاضٍ عَنِّي بِتَرْكِهِ وَلَا عَازِرِي بَدُونِ الْإِعْتِدَارِ إِلَيْهِ فِيكَ وَفِي أَوْلِيكَ الْقَاسِطِينَ الْمَلِيْبِينَ حِزْبِ الظَّالِمِينَ، بَلْ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ الرَّجِيْمِ.

أَلَسْتُ قَاتِلَ حُجْرِ بْنِ عَدِيٍّ أَخِي كِنْدَةَ وَأَصْحَابِهِ الصَّالِحِينَ الْمُطِيعِينَ الْعَابِدِينَ، كَانُوا يُنْكِرُونَ الظُّلْمَ وَيَسْتَعْظِمُونَ الْمُنْكَرَ وَالْبِدْعَ وَيُؤَثِّرُونَ حُكْمَ الْكِتَابِ وَلَا يَخَافُونَ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ، فَقَتَلْتَهُمْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا بَعْدَ مَا كُنْتَ أَعْطَيْتَهُمُ الْإِيْمَانَ الْمَغْلَظَةَ وَالْمَوَاقِيْقَ الْمَوْكَدَةَ لَا تَأْخُذُهُمْ بِحَدَثٍ كَانَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ وَلَا بِإِحْتِنِئَةٍ مَجْدَهَا فِي صَدْرِكَ عَلَيْهِمْ؟!!

أَوْلَسْتُ قَاتِلَ عَمْرٍو بْنِ الْحَمِيْقِ صَاحِبِ رَسُوْلِ اللَّهِ، الْعَبْدِ الصَّالِحِ الَّذِي أَبْلَتْهُ الْعِبَادَةُ فَصَفَّرَتْ لَوْنَهُ، وَنَحَلَتْ جِسْمَهُ، بَعْدَ أَنْ أَمَنْتَهُ وَأَعْطَيْتَهُ مِنْ عُهُودِ اللَّهِ عز وجل وَمِيثَاقِهِ مَا لَوْ أَعْطَيْتَهُ الْعَصْمَ فَفَهَمْتَهُ لَنَزَلَتْ إِلَيْكَ مِنْ شَعْفِ الْجِبَالِ، ثُمَّ قَتَلْتَهُ جُرْأَةً عَلَى اللَّهِ عز وجل وَاسْتِخْفَافًا بِذَلِكَ الْعَهْدِ؟!!

أَوْلَسْتُ الْمَدْعِيَّ زِيَادَ بْنَ سُمَيَّةَ، الْمَوْلُودَ عَلَى فِرَاشِ عُبَيْدِ عَبْدِ ثَقِيْفٍ، فَزَعَمْتَ أَنَّهُ ابْنُ أَبِيكَ، وَقَدْ قَالَ رَسُوْلُ اللَّهِ: (الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْفِرَاشِ الْحَجْرُ)، فَتَرَكْتَ سُنَّةَ رَسُوْلِ اللَّهِ وَاتَّبَعْتَ هَوَاكَ بَغِيْرِ هُدَى مِنْ اللَّهِ، ثُمَّ سَلَطْتَهُ عَلَى أَهْلِ الْعِرَاقِ فَقَطَعَ أَيْدِي الْمُسْلِمِيْنَ وَأَرْجُلَهُمْ وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ وَصَلَبَهُمْ عَلَى جُدُوعِ النَّخْلِ، كَأَنَّكَ لَسْتَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَلَيْسُوا مِنْكَ؟!!

أَوْلَسْتَ صَاحِبَ الْحَضْرَمِيِّينَ الَّذِينَ كَتَبَ إِلَيْكَ فِيهِمْ ابْنُ سُمَيَّةَ أَنَّهُمْ عَلَى دِينِ عَلِيٍّ
وَرَأْيِهِ، فَكَتَبْتَ إِلَيْهِ أَقْتُلْ كُلَّ مَنْ كَانَ عَلَى دِينِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَأْيِهِ، فَقَتَلْتَهُمْ وَمَثَلَ بِهِمْ
بِأَمْرِكَ؟! وَدِينُ عَلِيٍّ وَاللَّهِ وَابْنِ عَلِيٍّ الَّذِي كَانَ يَضْرِبُ عَلَيْهِ أَبَاكَ، وَهُوَ أَجْلَسَكَ
بِمَجْلِسِكَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَكَانَ أَفْضَلَ شَرَفِكَ وَشَرَفِ أَبِيكَ تَجَشُّمُ
الرَّحْلَتَيْنِ اللَّتَيْنِ بَنَى مَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمُ فَوَضَعَهُمَا عَنْكُمُ.

وَقُلْتَ فِيمَا تَقُولُ: انظُرْ نَفْسَكَ وَلِدِينِكَ وَلَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَاتَّقِ شَقَّ عَصَا هَذِهِ الْأُمَّةِ
وَأَنْ تَرُدَّهُمْ فِي فِتْنَتِهِ، فَلَا أَعْرِفُ فِتْنَةً أَكْبَرَ مِنْ وَلَايَتِكَ عَلَيْهَا، وَلَا أَعْلَمُ نَظْرًا لِنَفْسِي
وَوُلْدِي وَأُمَّةٍ جَدِي أَفْضَلَ مِنْ جِهَادِكَ، فَإِنْ فَعَلْتَهُ فَهُوَ قُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ ﷻ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ
فَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِدُنْبِي وَأَسْأَلُهُ تَوْفِيقِي لِإِرْشَادِ أُمُورِي.

وَقُلْتَ فِيمَا تَقُولُ: إِنْ أَنْجَزَكَ تُنْجِرُنِي وَإِنْ أَكْذَكَ تَكْذِبُنِي، وَهَلْ رَأَيْكَ إِلَّا كَيْدَ
الصَّالِحِينَ مُنْذُ خَلِقْتَ؟! فَكَيْدِي مَا بَدَا لَكَ إِنْ شِئْتَ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ لَا يَضُرَّنِي كَيْدُكَ، وَأَنْ
لَا يَكُونَ عَلَى أَحَدٍ أَضَرُّ مِنْهُ عَلَى نَفْسِكَ، عَلَى أَنَّكَ تَكِيدُ فِتْوَقِظُ عَدُوَّكَ، وَتُوبِقُ نَفْسَكَ،
كَفَعْلِكَ بِهِؤْلَاءِ الَّذِينَ قَتَلْتَهُمْ وَمَثَلْتَ بِهِمْ بَعْدَ الصُّلْحِ وَالْأَيْمَانِ وَالْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ، فَقَتَلْتَهُمْ
مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا قُتِلُوا إِلَّا لِذِكْرِهِمْ فَضَلْنَا، وَتَعْظِيمِهِمْ حَقًّا بِمَا بِهِ شَرَّفْتُ وَعَرِفْتُ،
مَخَافَةَ أَمْرِ لَعَلَّكَ لَوْ لَمْ تَقْتُلْتَهُمْ مَتَّ قَبْلَ أَنْ يَفْعَلُوا، أَوْ مَاتُوا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكُوا.

أَبَشِّرْ يَا مُعَاوِيَةَ بِقِصَاصِي، وَاسْتَعِدَّ لِلْحِسَابِ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ ﷻ كِتَابًا لَا يُغَادِرُ
صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا، وَلَيْسَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِنَاسٍ أَحَدَكَ بِالظَّنَّةِ، وَقَتْلَكَ
أَوْلِيَاءَهُ بِالتَّهْمَةِ، وَنَفْيِكَ إِيَّاهُمْ مِنْ دَارِ الْهَجْرَةِ إِلَى الْعُرْبَةِ وَالْوَحْشَةِ، وَأَخَذَكَ النَّاسَ بِيَعَةِ
ابْنِكَ غَلَامٍ مِنَ الْعِلْمَانِ، يَشْرَبُ الشَّرَابَ، وَيَلْعَبُ بِالْكَعَابِ، لَا أَعْلَمُكَ إِلَّا قَدْ خَسِرْتَ
نَفْسَكَ وَشَرَيْتَ دِينَكَ وَعَشَشْتَ رَعِيَّتَكَ وَأَخْرَيْتَ أَمَانَتَكَ وَسَمِعْتَ مَقَالََةَ السَّفِينَةِ
الْجَاهِلِ وَأَخَفْتَ التَّقِيَّ الْوَرَعَ الْحَلِيمَ»^(١).

(١) الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج ٢، ص ٢٩٧-٢٩٨.

إذ يتحصل من المضمون الدلالي لجملة «وَاتَّبَعْتَ هَوَاكَ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ» أنَّ العمل والإقدام عليه يجب أن يقوم على أساس من الهداية الإلهية.
قال تبارك وتعالى:

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾^(١).

حسن لقاء المنحرفين رجاء هدايتهم

نقل الشيخ المفيد في (الإرشاد):

«وَمَا رَأَى الْحَسْبِيُّ نُرُوزَ الْعَسَاكِرِ مَعَ عُمَرَ بْنِ سَعْدٍ بَيْنَتَوَى وَمَدَدَهُمْ لِقِتَالِهِ أَنْفَذَ إِلَى عُمَرَ بْنِ سَعْدٍ: (أَيُّ أُرِيدُ أَنْ أَلْقَاكَ)، فَاجْتَمَعَا لَيْلًا فَتَنَاجَيَا طَوِيلًا، ثُمَّ رَجَعَ عُمَرُ بْنُ سَعْدٍ إِلَى مَكَانِهِ وَكَتَبَ إِلَى عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَطْفَأَ النَّارَ وَجَمَعَ الْكَلِمَةَ وَأَصْلَحَ أَمْرَ الْأُمَّةِ، هَذَا حُسَيْنٌ قَدْ أَعْطَانِي عَهْدًا أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي أَتَى مِنْهُ، أَوْ أَنْ يَسِيرَ إِلَى ثُعْرٍ مِنَ الثُّغُورِ فَيَكُونَ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، لَهُ مَا لَهُمْ وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْهِمْ، أَوْ أَنْ يَأْتِيَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدَ فَيَضَعَ يَدَهُ فِي يَدِهِ، فَيَرَى فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ رَأْيَهُ، وَفِي هَذَا [لَكُمْ] رِضَى وَلِلْأُمَّةِ صَلَاحٌ»^(٢).

يدل قول الإمام: «أَيُّ أُرِيدُ أَنْ أَلْقَاكَ» على أن هناك أوقاتاً يستحسن فيها اقتراح اللقاء بالمنحرفين رجاء هدايتهم ودعوتهم إلى الله عز وجل.

قال الله سبحانه:

﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبَ ﴿٢﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَنَخَسْ ﴿٣﴾﴾

(١) الشورى: آية ٥٢.

(٢) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد: ج ٢، ص ٨٧.

(٣) النازعات: آية ١٧-١٩.

ضرورة رفع أعلام الله من قبل أوليائه

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال:
 «أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَأَحْذَرُكُمْ أَيَّامَهُ، وَأَرْفَعُ لَكُمْ أَعْلَامَهُ»^(١).
 وطبقاً للحديث المتقدم يلزم على أولياء الله أن يرفعوا أعلام دين الله سبحانه؛
 ليدعوا الناس إلى الهدى وسلوك هذا السبيل وصولاً لهدفهم السامي.
 قال تعالى:

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾^(٢).

حياة الإنسان المعنوية رهن هدايته

جاء في التفسير المنسوب للإمام الحسن العسكري عليه السلام:
 «وَقَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام لِرَجُلٍ: أَيُّهَا أَحَبُّ إِلَيْكَ، رَجُلٌ يَرُومُ قَتْلَ مِسْكِينٍ قَدْ
 ضَعُفَ، تُنْقِذُهُ مِنْ يَدِهِ؟ أَوْ نَاصِبٌ يَرِيدُ إِضْلَالَ مِسْكِينٍ [مُؤْمِنٍ] مِنْ ضُعْفَاءِ شِيعَتِنَا
 تَفْتَحُ عَلَيْهِ مَا يَمْتَنِعُ [الْمَسْكِينُ] بِهِ مِنْهُ وَيُفْحِمُهُ وَيَكْسِرُهُ بِحُجَجِ اللَّهِ تَعَالَى؟
 قَالَ: بَلْ إِنْقَادُ هَذَا الْمَسْكِينِ الْمُؤْمِنِ مِنْ يَدِ هَذَا النَّاصِبِ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَنْ
 أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾^(٣) [أَي] وَمَنْ أَحْيَاهَا وَأَرْشَدَهَا مِنْ كُفْرٍ إِلَى
 إِيْمَانٍ، فَكَأَنَّمَا أَحْيَى النَّاسَ جَمِيعًا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَقْتُلَهُمْ بِسُيُوفِ الْحَدِيدِ»^(٤).
 حيث يتبين من عطف كلمة «أرشدها» على «أحياها» أن الحياة المعنوية
 للإنسان مرتبهة برشده وهداه.
 قال تبارك وتعالى:

(١) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٣٩.

(٢) الحج: آية ٣٢.

(٣) المائدة: آية ٣٢.

(٤) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام: ص ٣٤٨، حديث ٢٣١.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١).

وفي الدعاء الحادي والثلاثين من أدعية الصحيفة السجادية جاء عن الإمام السجاد عليه السلام قوله:

«... حَتَّىٰ إِذَا انْفَتَحَ لَهٗ بَصَرُ الْهَدَىٰ، وَتَقَشَّعَتْ عَنْهُ سَحَابُ الْعَمَىٰ، أَحْصَىٰ مَا ظَلَمَ بِهِ نَفْسَهُ، وَفَكَّرَ فِيهَا خَالَفَ بِهِ رَبَّهُ، فَرَأَىٰ كَبِيرَ عِصْيَانِهِ كَبِيرًا وَجَلِيلَ مُخَالَفَتِهِ جَلِيلًا»^(٢).

يكشف لنا المضمون الدلالي لهذا الدعاء عن مديات العلاقة القائمة بين الحياة المعنوية للإنسان ومشاهداته للحقائق، ومن بينها شعوره بعظمة ذنوبه الكبيرة عند الله سبحانه، وغير خفي على المتأمل أنّ هذه الحقيقة متوقفة ومتفرعة على انفتاح عين الهداية والبصيرة لدى الإنسان.

(١) النحل: آية ٩٧.

(٢) الصحيفة السجادية: ص ١٤٠.

ل) الفكر

يمثّل «الفكر» إحدى وسائل المعرفة وأدواتها التي لم تغفلها النصوص الدينية حيث جاء ذكره بهذا اللحاظ في النصوص الروائية الشريفة.

قال الملا هادي السبزواري في تعريفه للفكر:

الفكر حركة إلى المبادي ومن مبادي إلى المراد^(١)

ومعناه أنّ عملية التفكير هي حركة الذهن بين المقدمات، أي (الصغرى والكبرى في القياس) والخروج منها بالنتيجة النهائية من ذلك القياس. وقال الشهيد مطهري في تعريف «الفكر»:

«التفكير: من الأعمال الذهنية المدهشة لدى البشر، فالذهن يقوم بعدة أعمال سنقوم بسردها مرتبة ليتضح عمل الفكر ويحظى تعريف التفكير بمفهوم محدد في أذهاننا.

١- أوّل عمل يقوم به الذهن هو التقاط الصور من العالم الخارجي، إذ يرتبط الذهن بالأشياء الخارجية عن طريق الحواس ويحتفظ بصورها، فهو في هذه الحالة كآلة التصوير الفوتوغرافي التي تطبع الصور على شريط خاص، فلو فرض أنّنا ذهبنا إلى إصفهان أوّل مرّة وشاهدنا عماراتها التاريخية فستنطبع لها في ذهننا مجموعة من الصور وفي هذه الحالة يكون الذهن مجرد (مستقبل).

٢- وبعد أن تجتمع في الذهن مجموعة من الصور عن طريق الحواس يباشر أعماله، فعمل الذهن لا ينحصر في خزن الصور، بل يقوم في مناسبات معيّنة بإظهار الصور الكامنة في قرارة الذهن على صفحته، ويسمّى هذا العمل (الاستذكار) وليس هذا

(١) السبزواري، هادي بن مهدي، شرح المنظومة: ج ١، ص ٥٧.

بالشيء الهين، فكأنّ الخواطر الذهنية حلقات من سلسلة مرتبط بعضها ببعض، فإذا أخرجت إحدى الحلقات تبعتها ثانية وثالثة وهكذا، وهو ما يسمّى عند علماء النفس بتداعي المعاني، وما سمعته من أنّ (الكلام يجر الكلام) يشير إلى هذه الحقيقة.

٣- العمل الذهني الثالث هو التجزئة والتركيب وذلك بأن يقوم بتجزئة الصور الخاصّة التي نالها من الخارج، أي يقوم بتحليلها وتجزئتها إلى عدّة أجزاء مع أنّها غير مجزأة في الخارج.

والتجزئة الذهنية على نحوين: فهي تارة من قبيل أن تكون للجسم مجموعة من الأجزاء فيقوم الذهن في وعائه بفصل تلك الأجزاء بعضها عن بعض، وقد يربطها أحياناً بشيء آخر، وتارة يجزئ صورة إلى عدّة معاني، من قبيل أن يعرف شخص الخط فيقول: (كمّ متصل ذو بعد واحد) فيجزئ ماهية الخط إلى ثلاثة أجزاء: (الكمية، الاتّصال، البعد الواحد) مع أنّك لا ترى في الخارج ثلاثة أشياء.

ويقوم الذهن أحياناً بالتركيب ولهذا أنحاء أيضاً، منها: أن يقوم بربط عدّة صور بعضها ببعض، كأن يتصور حصاناً له رأس إنسان.

والفيلسوف يعالج تجزئة وتحليل المعاني وتركيبها كما يعالج الشاعر والرسام تجزئة الصور وتركيبها.

٤- التجريد والتعميم، وهي عملية تجريد الصور الذهنية الجزئية التي نالها بوساطة الحواس، فيقوم بفصل الأشياء المجتمعة دائماً في الخارج بعد أن ينالها كذلك، فيلتقط - على سبيل المثال - العدد مع المعدود المادّي، إلّا أنّه يقوم بعد ذلك بتجريده وفصله، فيتصور الأعداد مستقلة عن المعدودات، والأسمى من التجريد: التعميم: وهو أن يؤلف الذهن مفهوماً كلياً من الصور الجزئية التي حصل عليها، فيرى مثلاً بوساطة الحواس أفراداً من قبيل: زيد وعمرو وأحمد وحسن ومحمود فيصنع منها بعد ذلك مفهوماً كلياً عاماً اسمه (الإنسان). ومن البديهي أنّ الذهن لا يدرك الإنسان الكلي بوساطة الحواس،

إلا أنه بعد أن يدرك أفراد الإنسان الجزئية من قبيل: حسن ومحمود وأحمد يعكس لها صورة عامة وكلية.

فالذهن يقوم - في عملية التجزئة والتركيب والتجريد والتعميم - بمعالجة ما ناله من الحواس، فيعالجه تارة بطريقة التجزئة والتركيب، وأخرى بطريقة التجريد والتعميم.

٥- العملية الذهنية الخامسة - وهي المقصودة أساساً من بياننا- هي التفكير والاستدلال، وهو عبارة عن الربط بين عدد من الأمور المعلومة لاكتشاف أمر مجهول، فالتفكير - في الواقع - نوع من التزاوج والتوالد بين الأفكار، وبعبارة أخرى: التفكير نوع من استثمار الأفكار كما تستثمر رؤوس الأموال للحصول على أرباح كثيرة. وإنّ عملية التفكير نوع من التركيبي، إلا أنه تركيب ولود ومنتج خلافاً للتركيبي الشعري والخيالية العقيمة.

وهنا لا بدّ لنا أن نتساءل: هل يستطيع الذهن من خلال التركيبي والتزاوج بين المعلومات، الوصول إلى معلوم جديد وتحويل المجهول بذلك إلى معلوم؟ أو لا يتمكن من ذلك إلا عن طريق الارتباط بالعالم الخارجي مباشرة فيزيدي في معلوماته عن هذا الطريق دون الربط بين المعلومات الذهنية؟

وهنا يكمن الاختلاف في أوجه النظر بين التجريبيين والحسيين من جهة والعقليين من جهة أخرى؛ إذ يرى التجريبيون أنّ الطريق إلى اكتساب المعلومات الجديدة منحصر في الارتباط المباشر بالأشياء الخارجية بوساطة الحواس، فالطريق الصحيح للتحقيق في الأشياء يكمن في (التجربة) فقط، غير أنّ العقليين والقياسيين يدعون أنّ التجربة هي إحدى الطرق إلى ذلك، فيمكن الوصول إلى معلومات جديدة بوساطة الربط بين المعلومات السابقة أيضاً وهو ما يعبر عنه بـ(الحد) و(القياس) أو (البرهان).

إنّ المنطق الأرسطي - ضمن اعتباره التجربة وعدّها من مبادئ القياس ومقدّماته الست - يتكفل ببيان ضوابط وأسس القياس، فإذا انحصر طريق الوصول إلى

المعلومات بالارتباط المباشر بالأشياء المجهولة، وكانت المعلومات غير قادرة على اكتشاف المجهولات، يغدو المنطق الأرسطي بلا موضوع، ويفقد محتواه»^(١).

أهل التفكير

نقل ابن شعبة الحرّاني في «تحف العقول» عن الإمام الحسين عليه السلام قوله واصفاً الحق سبحانه:

«لَا تَتَدَاوَلُهُ الْأُمُورُ، وَلَا تَجْرِي عَلَيْهِ الْأَحْوَالُ، وَلَا تَنْزِلُ عَلَيْهِ الْأَحْدَاثُ، وَلَا يَقْدِرُ الْوَاصِفُونَ كُنْهَ عَظَمَتِهِ، وَلَا يَخْطُرُ عَلَى الْقُلُوبِ مَبْلَغُ جَبْرُوتِهِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِي الْأَشْيَاءِ عَدِيلٌ، وَلَا تُدْرِكُهُ الْعُلَمَاءُ بِالْبَابِهَا، وَلَا أَهْلُ التَّفَكِيرِ بِتَفْكِيرِهِمْ إِلَّا بِالتَّحْقِيقِ إِيقَانًا بِالْغَيْبِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُوصَفُ بِشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ، وَهُوَ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ، مَا تُصَوَّرُ فِي الْأَوْهَامِ فَهُوَ خِلَافُهُ»^(٢).

فيتين من ملاحظة إضافة كلمة «أهل» لـ«التفكير» أن هناك أفراداً يتمتعون بهذا الوصف.

قال تعالى:

﴿إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٠٢﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٠٣﴾﴾

(١) مطهري، مرتضى، مجموعه آثار استاد شهيد مطهري (مجموعه آثار الأستاذ الشهيد مطهري):

ج ٥، ص ٩٩-١٠٢.

(٢) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٤٤.

(٣) آل عمران: آية ١٩٠-١٩١.

الفكر من أدوات الإدراك

حيث يشير الحديث المتقدم من عبارة: «وَلَا تُدْرِكُهُ الْعُلَمَاءُ بِأَلْبَابِهَا، وَلَا أَهْلُ التَّفْكِيرِ بِتَفْكِيرِهِمْ إِلَّا بِالتَّحْقِيقِ إِيقَانًا بِالْغَيْبِ» إلى أنّ الفكر والتفكير أداة لإدراك الحقائق وفهمها ومعرفتها.

ويلفت إلى ذلك ما ورد عن الإمام علي عليه السلام حيث قال:

«فِكْرُ الْمَرْءِ مِرَّةً تُرِيهِ حُسْنَ عَمَلِهِ مِنْ قُبْحِهِ»^(١).

وقال كذلك:

«الْفِكْرُ يَهْدِي إِلَى الرَّشَادِ»^(٢).

قصور الفكر عن فهم الذات الإلهية المقدسة

نقل ابن شعبة الحرّاني في «تحف العقول» عن الإمام الحسين عليه السلام أنّه قال في

وصف الباري عز وجل:

«يُصِيبُ الْفِكْرُ مِنْهُ الْإِيمَانَ بِهِ مَوْجُودًا، وَوُجُودَ الْإِيمَانِ لَا وُجُودَ صِفَةٍ، بِهِ تُوصَفُ الصِّفَاتُ لَا بِهَا يُوصَفُ، وَبِهِ تُعْرَفُ الْمَعَارِفُ لَا بِهَا يُعْرَفُ، فَذَلِكَ اللَّهُ لَا سَمِيَّ لَهُ سُبْحَانَهُ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ»^(٣).

إذ يتضح من الجملة الأولى أنّ الإنسان باستطاعته الاعتقاد والإيمان بوجود الله سبحانه بما وهبه الله من مؤهلات فكرياً وعقلياً دون أن يتعدى ذلك، فلا يتمكن أبداً من فهم الذات الإلهية المقدسة بأيّ حال من الأحوال للقصور في الفاعل.

(١) الآمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٤٨٢، حديث ١٩.

(٢) المصدر السابق: ص ٤١، حديث ٦٩٩.

(٣) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٤٥.

قال القاضي سعيد القمي بهذا الشأن:

«قوله عليه السلام: (ويصيب الفكر منه الإيمان موجوداً): لما نفى عليه السلام وصول الفكر إليه تعالى ومن الضروري في العبودية وفي العبادة معرفة المعبود، والله سبحانه أمر عباده بالتفكير وذم على تركه، بل المقصود من الخلق حصول المعرفة وذلك لا يمكن إلا بالفكر، أرشدنا عليه السلام إلى غاية أفكار المتفكرين وقصارى إصابة أنظار العارفين وهو الإذعان بأنه موجود، أي بأن لعالم الوجود مبدأ من دون معرفة بحقيقة ذلك الوجود الذي نسب إليه بالقياس إلى الممكن، حتى أنه عليه السلام لم يجعله محكوماً عليه بذلك الوجود المقيس إلى الممكنات فجعله حالاً من الضمير المجرور في (به) إشارة إلى أنه ليس محكوماً عليه بذلك الوجود الذي أصاب الفكر منه بالنظر إلى عالم الإمكان، إذ الحكم بالشيء فرع معرفة المحكوم، ولا سبيل إلى معرفة وجوده الخاص به جل شأنه ففي بادئ الفكر يحصل الإيمان الإقراري.

ثم بعد الأنظار العميقة والأفكار الصائبة الدقيقة يظهر للطالب أن ليس وجوده كوجودات الأشياء، فهو موجود لا كالموجودات كما أنه شيء لا كالأشياء وعالم لا كالعلماء، وهكذا في سائر صفاته وكمالاته تعالى شأنه وتقدّست أسماؤه»^(١).

وعبّر الإمام الرضا عليه السلام في وصفه الحق جل وعلا قائلاً:

«... الَّذِي لَا تُدْرِكُهُ أَبْصَارُ النَّاطِرِينَ وَلَا تُحِيطُ بِهِ صِفَةُ الْوَاصِفِينَ»^(٢).

حدود إصابة الفكر

يتضح من الحديث السابق للإمام الحسين عليه السلام أن إصابة الفكر لا تتحقق دائماً وأنها ليست مطلقة، وإنما تقتصر على مجال خاص وهو الإيمان بأصل وجود الله تعالى شأنه.

(١) القاضي سعيد القمي، محمد سعيد بن محمد مفيد، شرح الأربعين: ص ٤٢٠.

(٢) ابن بابويه، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ٢، ص ١٥٤، حديث ٢٣.

جاء في شرح القاضي سعيد القمّي لهذه العبارات:

«ولمّا كان إصابة الفكر بالإيمان بوجوده سبحانه يوهم استلزام اتصافه بذلك الوجود الإيماني وهو منزّه عن قيام هذا الوجود به فضلاً عن عينيته، أبطل عليه السلام هذا الوهم بقوله: (ووجود الإيمان) أي الوجود الذي تسبّب من الإيمان، على أن يكون الإضافة بيانية أو حصول الإيمان بوجوده لا يستلزم تحقّق صفة له تعالى بأن يكون هذا الوجود صفة له عزّ شأنه؛ لأنّه مقدّس عن هذا الوجود المفهوم لنا، متعال عن ذلك؛ ولذا لم يحكم به عليه تعالى كما بينّا.

فوجوده خارج عن درجة إدراك العقول وألباب ذوي الأفكار، بل ذلك محض إقرار لضرورة حكم البرهان على أنّ للممكن لا بدّ من جاعل مخرج إتياء إلى الوجود. وسمّي هذا القدر من المعرفة في أخبار أئمّتنا عليهم السلام بـ(الإيمان الإقرار) كما لا يخفى على من تتبّع الآثار.

فقوله عليه السلام: (وجود الإيمان) مرفوع على الابتداء، خبره قوله: (لا وجود صفة) بالرفع^(١).

وبهذا الصدد قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«لَمْ يُطْلِعِ الْعُقُولَ عَلَى تَحْدِيدِ صِفَتِهِ، وَلَمْ يَجْجِبْهَا عَنْ وَاجِبِ مَعْرِفَتِهِ»^(٢).

استحالة معرفة حقيقة صفات الله جل وعلا

من خلال إلقاء نظرة على الحديث المتقدم للإمام الحسين عليه السلام يتجلى لنا بوضوح استحالة أن يدرك الإنسان حقيقة الصفات الإلهية ويفهم ماهيتها مستعيناً بفكره، ويعود السبب في ذلك إلى قصور فكر الإنسان وتأطره ضمن حدود وقيود

(١) القاضي سعيد القمّي، محمّد سعيد بن محمّد مفيد، شرح الأربعين: ص ٤٢٠-٤٢١.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ٤٩.

معينته، بيد أن صفات الله تعالى مطلقة وغير محدودة، فكيف للمحدود أن يحيط باللامحدود.

قال الإمام علي عليه السلام:

«هُوَ الْقَادِرُ الَّذِي إِذَا ارْتَمَتْ الْأَوْهَامُ لِتُدْرِكَ مُنْقَطِعَ قُدْرَتِهِ، وَحَاوَلَ الْفِكْرُ الْمَبْرَأَ مِنْ [خَطَرِ] خَطَرَاتِ الْوَسَاوِسِ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ فِي عَمِيقَاتِ غُيُوبِ مَلَكُوتِهِ، وَتَوَهَّتِ الْقُلُوبُ إِلَيْهِ لِتَجْرِيَ فِي كَيْفِيَّةِ صِفَاتِهِ، وَعَمَّضَتْ مَدَاخِلَ الْعُقُولِ فِي حَيْثُ لَا تَبْلُغُهُ الصِّفَاتُ لِتَتَأَوَّلَ عِلْمَ ذَاتِهِ رَدَعَهَا»^(١).

تأثير التفكير في تغيير مصير الإنسان

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال:

«يَا بَنَ آدَمَ، تَفَكَّرْ وَقُلْ: أَيْنَ مُلُوكُ الدُّنْيَا وَأَرْبَابُهَا الَّذِينَ عَمَرُوا وَاحْتَفَرُوا أَمْهَارَهَا وَغَرَسُوا أَشْجَارَهَا وَمَدَّنُوا مَدَائِنَهَا، فَارْقُوهَا وَهُمْ كَارِهُونَ، وَوَرِثَهَا قَوْمٌ آخَرُونَ، وَنَحْنُ بِهِمْ عَمَّا قَلِيلٍ لَاحِقُونَ»^(٢).

هناك أمور وإشارات قد تستفاد من دعوة الإمام للتفكير من بينها ضرورة ولزوم سعي الإنسان واستمرار محاولته لتغيير مصيره بمرور الزمان متخذاً التفكير كوسيلة لتحديد السقيم من السليم في قابل الأيام؛ ليؤول أمره فيما بعد إلى التوفيق والنجاح بعد وضعه للخطط والبرامج المحكمة التي تقوده للخير.

وفي ذلك قال الباري تبارك وتعالى:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٣).

(١) المصدر السابق: خطبة ٩١.

(٢) الديلمي، الحسن بن محمد، إرشاد القلوب: ج ١، ص ٢٩-٣٠.

(٣) آل عمران: آية ١٩١.

ونقل عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«إِنَّ التَّفَكُّرَ يَدْعُو إِلَى الْبِرِّ وَالْعَمَلِ بِهِ»^(١).

قال العلامة المجلسي في بيان حقيقة التفكر:

«والتفكر إعمال الفكر فيما يفيد العلم به قوة الإيمان واليقين والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة.

قال الغزالي: حقيقة التفكر طلب علم غير بديهي من مقدمات موصلة إليه، كما إذا تفكر أن الآخرة باقية والدنيا فانية فإنه يحصل له العلم بأن الآخرة خير من الدنيا وهو يبعثه على العمل للآخرة، فالتفكر سبب لهذا العلم، وهذا العمل حالة نفسانية وهو التوجه إلى الآخرة، وهذه الحالة تقتضي العمل لها، وقس على هذا، فالتفكر موجب لتنور القلب وخروجه من الغفلة وأصل لجميع الخيرات.

وقال المحقق الطوسي رحمته الله: التفكر سير الباطن من المبادي إلى المقاصد، وهو قريب من النظر، ولا يرتقي أحد من النقص إلى الكمال إلا بهذا السير، ومبادئه الآفاق والأنفس، بأن يتفكر في أجزاء العالم وذراته، وفي الأجرام العلوية من الأفلاك والكواكب وحركاتها وأوضاعها ومقاديرها واختلافاتها ومقارناتها ومفارقاتها وتأثيراتها وتغييراتها، وفي الأجرام السفلية وترتيبها وتفاعلها وكيفياتها ومركباتها ومعدنياتها وحيواناتها، وفي أجزاء الإنسان وأعضائه من العظام والعضلات والعصبات والعروق وغيرها مما لا يحصى كثرة، ويستدل بها وبما فيها من المصالح والمنافع والحكم والتغيير على كمال الصانع وعظمته وعلمه وقدرته وعدم ثبات ما سواه.

وبالجملة التفكر فيما ذكر ونحوه من حيث الخلق والحكمة والمصالح أثره العلم بوجود الصانع وقدرته وحكمته، ومن حيث تغييره وانقلابه وفنائه بعد وجوده أثره الانقطاع منه والتوجه بالكلية إلى الخالق الحق.

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٥٥، حديث ٥.

ومن هذا القبيل التفكير في أحوال الماضين وانقطاع أيديهم عن الدنيا وما فيها ورجوعهم إلى دار الآخرة، فإنه يوجب قطع المحبة عن غير الله والانقطاع إليه بالتقوى والطاعة، ولذا أمر بهما بعد الأمر بالتفكر، ويمكن تعميم التفكير بحيث يشمل التفكير في معاني الآيات القرآنية والأخبار النبوية والآثار المروية عن الأئمة الأطهار والمسائل الدينية والأحكام الشرعية، وبالجملة كل ما أمر الشارع الصادع بالخوض فيه والعلم به^(١).

وتناول العلامة الطباطبائي ذلك حيث قال:

«مما لا نرتاب فيه أنّ الحياة الإنسانية حياة فكرية لا تتم له إلا بالإدراك الذي نسمّيه فكراً، وكان من لوازم ابتناء الحياة على الفكر أنّ الفكر كلما كان أصح وأتم كانت الحياة أقوم، فالحياة القيمة - بأية سنة من السنن أخذ الإنسان، وفي أيّ طريق من الطرق المسلوكة وغير المسلوكة سلك الإنسان - ترتبط بالفكر القيم وتبني عليه، وبقدر حظها منه يكون حظها من الاستقامة»^(٢).

إمكان بلوغ النتائج المرجوة بالفكر والتأمل

ورد عن الإمام الحسين عليه السلام قوله في خطبته التي ألقاها أمام جيش عمر بن سعد مخاطباً إياهم:

«أَمَّا بَعْدُ، فَانْشُبُونِي فَانظُرُوا مَنْ أَنَا، ثُمَّ ارْجِعُوا إِلَى أَنْفُسِكُمْ وَعَايِبُوهَا، فَانظُرُوا هَلْ يَحِلُّ لَكُمْ قَتْلِي وَانْتِهَاكَ حُرْمَتِي؟! أَلَسْتُ ابْنَ بِنْتِ نَبِيِّكُمْ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَابْنَ وَصِيِّهِ وَابْنَ عَمِّهِ وَأَوَّلِ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَالْمَصْدَقِ لِرَسُولِهِ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ؟! أَوْلَيْسَ حَمْرَةً سَيِّدِ الشُّهَدَاءِ عَمِّي أَبِي؟! أَوْلَيْسَ جَعْفَرُ الشَّهِيدِ الطَّيَّارِ ذُو الْجَنَاحَيْنِ عَمِّي؟!»^(٣).

(١) المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: ج ٦٨، ص ٣١٩-٣٢٠.

(٢) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ٥، ص ٢٥٤.

(٣) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٥، ص ٤٢٤-٤٢٥.

وما تأكيد الإمام ودعوته لجيش ابن سعد بالتأمل والنظر في منزلته ومكانته الرفيعة إلا لأن الفكر يعدّ من السبل والأدوات الموصلة للمعرفة الصحيحة والواقعية.

قال الإمام علي عليه السلام في ذلك:

«الْفِكْرُ يُوجِبُ الْإِعْتِبَارَ وَيُؤَمِّنُ الْعِثَارَ وَيُثْمِرُ الْإِسْتِظْهَارَ»^(١).

وقال أيضاً:

«بِالْفِكْرِ تَنْجَلِي غِيَاهِبُ الْأُمُورِ»^(٢).

دور الفكر في إطفاء نار الضغينة

نقل الإربلي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه أنشد هذه الأبيات:

ذَهَبَ الَّذِينَ أَحْبَبُهُمْ	وَبَقِيَتْ فِيمَنْ لَا أَحِبُّهُ
فِيمَنْ أَرَاهُ يَسُوبُنِي	ظَهَرَ الْمَغِيبِ وَلَا أَسْبُهُ
يُنْغِي فَسَادِي مَا اسْتَطَاعَ	وَأَمْرُهُ مِمَّا أَدْبُهُ
حَنْقًا يَدْبُ إِلَى الضَّرَاءِ	وَذَاكَ مِمَّا لَا أَدْبُهُ
وَيَرَى دُبَابَ الشَّرِّ مَنْ	حَوْلِي يَطْنُ وَلَا يَدْبُهُ
وَإِذَا جَنَّا وَغَرُّ الصُّدُورِ	فَلَا يَزَالُ بِهِ يَشْبُهُ
أَفَلَا يَعِيْجُ بِعَقْلِهِ	أَفَلَا يَتُوبُ إِلَيْهِ لُبُّهُ
أَفَلَا يَرَى أَنَّ فَعْلَهُ	مِمَّا يَسُورُ إِلَيْهِ غِبُّهُ

(١) الأمدى، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ١٢١، حديث ٢١٤٥.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٠٤، حديث ١٤٤.

حَسْبِي بِرَبِّي كَافِيًا مَا أَخْتَشِي وَالْبَغْيِي حَسْبُهُ
وَلَقَلَّ مَنْ يُبَغَى عَلَيْهِ فَمَا كَفَّاهُ اللَّهُ رَبُّهُ^(١)

حيث يلفت مضمون هذه الآيات إلى ما عليه الأعداء من إشعالهم نار الأحقاد والضغائن تجاه رجال الله وما يحمل ذلك في صفحاته من العواقب السيئة والنتائج الخاسرة، الأمر الذي دفع أهل الله وعباده الصالحين على العمل عكسياً فأخذوا بإخماد نيران الضغينة والأحقاد بفكرهم وعقولهم رغم علمهم بأن هذه النار ستحرق من أوقدها فيما بعد.

قال الإمام علي عليه السلام بهذا الصدد:

«اخْتَرِسُوا مِنْ سَوْرَةِ الْجَهْلِ وَالْحَقْدِ وَالْغَضَبِ وَالْحَسَدِ، وَأَعِدُّوا لِكُلِّ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ عُدَّةً مُجَاهِدُونَهُ بِهَا، مِنَ الْفِكْرِ فِي الْعَاقِبَةِ، وَمَنْعِ الرَّذِيلَةِ، وَطَلَبِ الْفُضَيْلَةِ، وَصَلَاحِ الْأَخِرَةِ، وَلِزُومِ الْحِلْمِ»^(٢).

فنون النظر

قال الإمام الحسين عليه السلام:

«مِنْ دَلَائِلِ عِلْمَاتِ الْقَبُولِ الْجُلُوسُ إِلَى أَهْلِ الْعُقُولِ، وَمِنْ عِلْمَاتِ أَسْبَابِ الْجَهْلِ الْمَارَاةُ لِغَيْرِ أَهْلِ الْكُفْرِ، وَمِنْ دَلَائِلِ الْعَالَمِ انْتِقَادُهُ لِحَدِيثِهِ وَعِلْمُهُ بِحَقَائِقِ فُنُونِ النَّظْرِ»^(٣).

يتبين من خلال إضافة كلمة «فنون» إلى كلمة «نظر» في الكلام المتقدم للإمام اشتغال النظر والاستدلال على عدة فنون، أشير إليها في علم المنطق وفن المناظرة مثل: البرهان وأقسامه والخطابة والجدل والمغالطة وأنواع القياس.

(١) الإربلي، علي بن عيسى، كشف الغمة في معرفة الأئمة: ج ٢، ص ٣٤.

(٢) الأمدى، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ١٥٧-١٥٨، حديث ٨٧.

(٣) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٤٧-٢٤٨.

قال محمد جواد مغنية في شرح هذا الكلام:

«العلم بحقائق فنون النظر فهو التمييز بين أسباب المعرفة التي تثبت الحق وتكشف عن الواقع، وبين الأدلة الخطابية الجدلية التي لا تثبت حقاً، ولا تزيل شكاً، وهذا بالذات ما ذهب إليه بعض الفلاسفة الجدد، من أن الفلسفة ليست بشيء سوى البحث عن أسباب المعرفة»^(١).

حقائق فنون النظر

إنّ التأمّل في إضافة كلمة «حقائق» لـ«فنون النظر» في الحديث المتقدم يدفعنا للإذعان بأنّ فنون الاستدلال والنظر توصل إلى حقائق مطابقة للواقع، ولا بدّ من اتّباع ما انتهجته ودرجت عليه تلك الفنون من سبل وأساليب من أجل معرفة الواقع وإدراك حقائقه.

وقام محمد جواد مغنية في موضع آخر بشرح هذه الجملة إذ قال:

«(علمه بحقائق فنون النظر) أي معرفته بأنواع الحقائق والتحديد الكامل لكل حقيقة، والطريق إلى معرفتها، فيستدل على الحقيقة الدينية بنصوص الكتاب والسنة، وعلى الحقيقة الطبيعية بالمشاهدة والتجربة، وعلى الحقيقة الفلسفية بالرؤية الذهنية، وهكذا...»

وقد تخفى عليه الحقيقة، ولا يبصر طريقها ولو تابع النظر، وعندئذ عليه أن يمسك ويتورع عن الحكم وإبداء الرأي...»^(٢).

(١) مغنية، محمد جواد، فضائل الإمام علي عليه السلام: ص ٣٧٦.

(٢) مغنية، محمد جواد، عقليات إسلامية: ج ٢، ص ٥٨٦.

م) البصيرة

تعدّ «البصيرة» عنصراً ومصدراً آخر من مصادر المعرفة وسبلها وأدواتها، وقد أشارت إليها الروايات الشريفة وأوضحت بعض جوانبها وزواياها.

وفي بيانه البصيرة قال الطبرسي في «مجمع البيان»:

«البصيرة: البينة والدلالة التي يبصر بها الشيء على ما هو به»^(١).

وبخصوص «المعرفة الواعية» قال العلامة الجعفري موضحاً:

«لقد أشير في آيات من القرآن المجيد إلى نوع من المعرفة العميقة يدعى بالبصيرة،

مثل:

١- ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ

بِحَفِيفٍ﴾^(٢).

٢- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي ۚ هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ

يُؤْمِنُونَ﴾^(٣).

٣- ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَنَا مِنَ

الْمُشْرِكِينَ﴾^(٤).

٤- ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ بَصِيرَةٌ ۖ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾^(٥).

٥- ﴿وَأَبْصُرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾^(٦).

(١) الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن: ج ٤، ص ٥٣٤.

(٢) الأنعام: آية ١٠٤.

(٣) الأعراف: آية ٢٠٣.

(٤) يوسف: آية ١٠٨.

(٥) القيامة: آية ١٤-١٥.

(٦) الصافات: آية ١٧٥.

نتائج الآيات:

الأولى: هناك إصرار شديد من أنبياء الله والكتب السماوية على تحصيل البصر المستتبع للحرية الهادفة، إذ يعدّ واحداً من نتائج المعرفة الواقعية للنفس، ومن دونها ستبديل جميع صور تعاطينا مع عالم الوجود حسية كانت أم عقلية إلى لمس أعمى لتلك الظواهر التي يدرك وجودها عن طريق اللمس، دون أن نجد منفذاً لمعرفة حقيقتها وواقعها ونعيش الحرمان من الانتفاع بها. وإذا دققنا النظر بصورة أعمق في البصر بمعنى البصيرة فإننا سنرى أنّها تعني البصر والنظر العميق والنافذ المستلزم للمعرفة بحقائق عالم الوجود عن قرب، وتصل بابن آدم إلى الحرية منذ انطلاقتها من داخل نفسه.

أما بخصوص العلاقة القائمة بين الحرية والبصيرة فهي كعلاقة الماء مع العشب والشجر حيث ينفذ ويتخلل إلى جميع أجزائها وفروعها. إنّ تواصلنا وترابطنا وعلاقتنا بحقائق الوجود يتمّ في غالب الأحيان عبر غطاء من آراء الآخرين وعقائدهم وظروفهم النفسية، فبدل أن نرتبط بالواقع مباشرة نتعاطى مع تلك الحجب والستائر والهالات المحيطة بها، ونطلق حينها على مثل تلك العلاقة وذلك التعاطي علماً! والتحرر من تلك الحجب والهالات يمثل الخطوة الأولى في اتجاه البصيرة المتحررة.

الثانية: دعوة القادة الإلهيين للانبعاث نحو أعمال الخير والكمال ناشئة عن بصيرة تامة، إذ من العلامات على بصيرة الأنبياء ونظرتهم الثاقبة بما يقومون به من عمل تصميمهم الناشئ من أعلى درجات اليقين والإخلاص التام الذي لا تشوبه أدنى شائبة، واطلاعهم الكامل بما يدعون إليه، بغض النظر عن مميزات حياتهم المادية (الآيات رقم ٢ و٣). فأولئك ليس لديهم أيّ تردد في أحقيتهم، تاركين المنافع الشخصية وراء ظهورهم، لا يرجون من الناس أجراً ولا ثواباً، واعتادوا أن يكونوا هم أوّل من يضع قدماً على الطريق الذي عبّوه للمجتمعات بأعلى درجات الإخلاص،

والمسؤولية التي يشعرون بها في دواخلهم أقوى وأكثر تأثيراً مما تبرزه حياتهم الشريفة. وهذه البصيرة في نفوسهم ناشئة في الواقع من تلك البصيرة الباطنية التي كشفت لهم عن الحقائق والواجبات والضرورات.

الثالثة: إذا أردنا أن ندرك المعنى الواقعي للبصر بمعنى البصيرة، علينا أن نلتفت إلى البصيرة التي نمتلكها عن أنفسنا (آية رقم ٥)، حيث تعبر الآية: ﴿لَيْلِ الْإِنْسَانِ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۗ بَصِيرَةٌ﴾، حيث إن كل إنسان يتجاوز حالته الطبيعية الابتدائية ويصل إلى رشفه الطبيعي سيشعر عندها بـ(ذاته)، وإذا استطاع مواصلة رشفه والوصول إلى مرحلة (الوعي) فإنه سيطلع على باطنه حتماً، وهذا الاطلاع لا يتحقق بالحواس الطبيعية ولا بالميكروسكوب ولا بالتلسكوب ولا بغيرها من آلات الإبصار الفيزيائية؛ وذلك لأن ما هو مطروح في هذا المقام ليس له أيّ ظهور فيزيائي، فهو عبارة عن (النفس) و(الأنا) و(الشخصية) أو أيّ كلمة ذات دلالة على المدير والمدير للداخل الإنساني. وما بنيت عليه يمثل أقرب الحقائق بالنسبة لنا بحيث لا نحتاج لإدراكه إلى واسطة أو دليل. وهذه البصيرة لما كانت معتدلة غير متأثرة فإنها ستكشف عن واقع (النفس) وخصائصها وتنيرها بما هو أسمى وأرفع من الإنارة الفيزيائية، وبمثل هذه البصيرة المصحوبة بكامل الحرية سيدرك الإنسان: أهو عادل أم ظالم، وفاحص ومستكشف أو راكد ومتوقف، ألدیه ميل للخير والكمالات أم أنه منغمس بالإثرة والأناية، أهو نادم على ما مضى من حياته أم راض، أيحج الحقيقة أم يحب نفسه...

هذه هي البصيرة التي يؤكدها القرآن ويصرّ على أن يعمل الناس على تحصيلها في جميع شؤون حياتهم^(١).



(١) الجعفري التبريزي، محمد تقي، معرفت شناسي (نظرية المعرفة): ص ٤٦٦-٤٦٨.

أسباب البصيرة

مما روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه دعا في قنوته قائلاً:
 «اللَّهُمَّ وَإِيَّيَّ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ عَائِدُ بِكَ، لَا تُذِّبْ بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ، رَاضٍ بِحُكْمِكَ الَّذِي
 سُقْتَهُ إِلَيَّ فِي عِلْمِكَ، جَارٍ بِحَيْثُ أَجْرَيْتَنِي، قَاصِدٌ مَا أَمْتَيْتَنِي، غَيْرُ ضَنِينٍ بِنَفْسِي فِيمَا
 يُرْضِيكَ عَنِّي؛ إِذْ بِهِ قَدْ رَضَيْتَنِي، وَلَا قَاصِرٍ بِجُهْدِي عَمَّا إِلَيْهِ نَدَبْتَنِي، مُسَارِعٌ لِمَا
 عَرَّفْتَنِي، شَارِعٌ فِيمَا أَسْرَعْتَنِي، مُسْتَبَصِّرٌ فِيمَا بَصَّرْتَنِي»^(١).

فيتين من الإتيان بالحرف الموصول «ما» في الجملة الأخيرة أن هناك عناصر
 وأسباباً مؤثرة جداً في تحقق البصيرة.

قال الله تعالى في كتابه المجيد:

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ
 بِحَفِيفٍ﴾^(٢).

ضرورة تحصيل البصيرة من الأسباب المؤدية لها

إن إلقاء نظرة على الحديث المتقدم للإمام يكشف لنا عن وجوب تحصيل
 البصيرة من الأسباب المؤدية لها والتي قد عينها الله تعالى.

قال تعالى في كتابه العزيز:

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنِ الْتَقَاتِ فِيمَا تَقَاتَلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَآفَةٌ
 يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ ۗ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ ۗ مَنْ يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي
 الْأَبْصَارِ﴾^(٣).

(١) ابن طاووس، علي بن موسى، مهج الدعوات ومنهج العبادات: ص ٤٨.

(٢) الأنعام: آية ١٠٤.

(٣) آل عمران: آية ١٣.

سلوك طريق الكمال عن بصيرة

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه دعا في قنوته:

«وَأَجْعَلْ عَلَيَّ الْبَصِيرَةَ مَدْرَجَتِي، وَعَلَى الْهَدَايَةِ مَحَجَّتِي»^(١).

ومنه يفهم أنّ على الإنسان أن يطوي طريق الكمال ويرتقي في سلم درجاته؛ لأنّ السلوك إلى الله سبحانه إن كان عن بصيرة فسيزداد سرعة وتأثيراً.

قال الله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢).

وجوب البصيرة بالدين

روي:

«إِنَّ رَجُلًا قَالَ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام: اجْلِسْ حَتَّى نَتَنَاظَرَ فِي الدِّينِ. فَقَالَ: يَا هَذَا، أَنَا بَصِيرٌ بِدِينِي مَكْشُوفٌ عَلَيَّ هُدَايَ، فَإِنْ كُنْتَ جَاهِلًا بِدِينِكَ فَادْهَبْ فَاطْلُبْهُ، مَا لِي وَلِلْمَمَارَاةِ؟ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَيُوسِسُ لِلرَّجُلِ وَيُنَاجِيهِ وَيَقُولُ: نَاطِرِ النَّاسَ لَيْلًا يَطْنُونَا بِكَ الْعَجَزَ وَالْجَهْلَ»^(٣).

ومن ملاحظة إقرار الإمام هذا تتضح لنا ضرورة امتلاك الإنسان للبصيرة بدينه، ولا سيما أولياء الله جل وعلا.

وفي دعاء أبي حمزة الثمالي يتضرع الإمام السجاد عليه السلام إلى الله تبارك وتعالى قائلاً:

«اللَّهُمَّ أَعْطِنِي بَصِيرَةً فِي دِينِكَ، وَفَهْمًا فِي حُكْمِكَ، وَفَقْهًا فِي عِلْمِكَ»^(٤).

(١) ابن طاووس، علي بن موسى، مهج الدعوات ومنهج العبادات: ص ٤٩.

(٢) يوسف: آية ١٠٨.

(٣) الشهيد الثاني، زين الدين بن علي، منية المريد في أدب المفيد والمستفيد: ص ١٧١.

(٤) الطوسي، محمد بن الحسن، مصباح المتهجد: ج ٢، ص ٥٩٦.

قبح الجدال والشجار من قبل ذوي البصيرة

من الإشارات التي تستوحى من الحديث السابق للإمام الحسين عليه السلام قبح الجدال والنزاع من قبل ذوي البصيرة؛ لأنهم قد لامسوا الحقيقة ببصيرتهم ووصلوا إلى الحق وتيقنوا منه، وفي مثل هذه المرتبة من اليقين لا معنى للمجادلة والمنازعة. و«المهارة» تعني النزاع والجدال بالباطل.

يخاطب الله تعالى نبيه الكريم صلى الله عليه وآله بقوله:

﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهْرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾^(١).

وعرّف السيّد علي خان المدني المهارة بقوله:

«وماراه مماراة ومراء: حاجه فيما فيه مريه، أي تردّد، قال تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا

مِرَاءً ظَهْرًا﴾»^(٢).

وذكر حسن المصطفوي في شرحه لقوله: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾ ما يلي:

«يدلّ على أنّ المراء فيهم وفي أيّ موضوع فيه إبهام وخفاء غير صحيح، سواء كان الإبهام بالنسبة إلى المماري أو بالنسبة إلى المخاطب. فالمرء وهو التردّد والممارسة لاستخراج شيء لنفسه غير مستحسن في نفسه، ولا سيما في موضوع لا علم فيه»^(٣).

اعتبار أولي الأبصار

نقل ابن قتيبة الدينوري خطبة الإمام الحسين عليه السلام التي جاءت ردّاً على خطبة

(١) الكهف: آية ٢٢.

(٢) المدني، علي خان بن أحمد، رياض السالكين في شرح صحيفة سيّد الساجدين (صلوات الله عليه): ج ٦، ص ٣٣٠.

(٣) المصطفوي، حسن، التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ج ١١، ص ٩١.

معاوية حينما أراد أخذ البيعة ليزيد، فقال:

«فَقَامَ الْحَسَيْنُ، فَحَمَدَ اللَّهَ وَصَلَّى عَلَى الرَّسُولِ، ثُمَّ قَالَ:

أَمَا بَعْدُ، يَا مُعَاوِيَةَ! فَلَنْ يُؤَدِّيَ الْقَائِلُ وَإِنْ أَطَبَّ فِي صِفَةِ الرَّسُولِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مِنْ جَمِيعِ جُزْءٍ، وَقَدْ فَهِمْتُ مَا لَبَسْتَ بِهِ الْخَلْفَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ مِنْ إِجْبَازِ الصِّفَةِ، وَالتَّنَكُّبِ عَنِ اسْتِبْلَاحِ النَّعْتِ، وَهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ يَا مُعَاوِيَةَ! فَضَحَ الصُّبْحُ فَحَمَّةَ الدُّجَى، وَبَهَرَتِ الشَّمْسُ أَنْوَارَ الشَّرْحِ، وَلَقَدْ فَضَّلْتَ حَتَّى أَفْرَطْتَ، وَاسْتَأْثَرْتَ حَتَّى أَجْحَفْتَ، وَمَنَعْتَ حَتَّى مَحَلْتَ، وَجُرَزْتَ حَتَّى جَاوَزْتَ، مَا بَدَلْتَ لِيذِي حَقٍّ مِنْ اسْمِ حَقِّهِ بِنَصِيبٍ، حَتَّى أَخَذَ الشَّيْطَانُ حَظَّهُ الْأَوْفَرَ، وَنَصِيبَهُ الْأَكْمَلَ.

وَفَهِمْتُ مَا ذَكَرْتَهُ عَنْ يَزِيدَ مِنْ اكْتِمَالِهِ، وَسِيَّاسَتِهِ لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ، تُرِيدُ أَنْ تُوهِمَ النَّاسَ فِي يَزِيدٍ، كَأَنَّكَ تَصِفُ مَحْجُوبًا، أَوْ تَنْعَتُ غَائِبًا، أَوْ تُخْبِرُ عَمَّا كَانَ بِمَا اِحْتَوَيْتَهُ بِعِلْمِ خَاصٍّ، وَقَدْ دَلَّ يَزِيدٌ مِنْ نَفْسِهِ عَلَى مَوْجِعِ رَأْيِهِ، فَخُذْ لِيَزِيدَ فِيمَا أَخَذَ فِيهِ مِنْ اسْتِقْرَائِهِ الْكِلَابَ الْمَهَارِشَةَ عِنْدَ التَّهَارُشِ، وَالْحَمَامَ السَّبْقِ لِاتِّرَاهِنِ، وَالْقِيَانَ ذَوَاتِ الْمَعَارِفِ، وَضَرْبَ الْمَلَاهِي تَجِدُهُ بَاصِرًا، وَدَعَّ عَنْكَ مَا تُحَاوِلُ، فَمَا أَغْنَاكَ أَنْ تَلْقَى اللَّهَ مِنْ وَزْرِ هَذَا الْخَلْقِ بِأَكْثَرِ مِمَّا أَنْتَ لَاقِيهِ، فَوَاللَّهِ مَا بَرِحْتَ تَفْدُحُ بِاطِلَالٍ فِي جَوْرِ، وَحَقْنًا فِي ظُلْمٍ، حَتَّى مَلَأْتَ الْأَسْقِيَةَ، وَمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْمَوْتِ إِلَّا عَمَضَةٌ، فَتَقْدُمُ عَلَى عَمَلٍ مُحْفُوظٍ فِي يَوْمٍ مَشْهُودٍ، وَوَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ.

وَرَأَيْتَكَ عَرَضْتَ بِنَا بَعْدَ هَذَا الْأَمْرِ، وَمَنَعْتَنَا عَنْ آبَائِنَا تُرَائِنًا، وَلَقَدْ - لَعَمْرُ اللَّهِ - أَوْرَثْنَا الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَوَلَادَةٌ، وَجِئْتَ لَنَا بِهَا، أَمَا حَجَجْتُمْ بِهِ الْقَائِمَ عِنْدَ مَوْتِ الرَّسُولِ، فَأَدْعُنَ لِلْحِجَّةِ بِذَلِكَ، وَرَدَّهُ الْإِيمَانَ إِلَى النَّصْفِ، فَرَكِبْتُمْ الْأَعَالِيلَ، وَفَعَلْتُمْ الْأَفَاعِيلَ، وَقُلْتُمْ: كَانَ وَيَكُونُ، حَتَّى أَتَاكَ الْأَمْرُ يَا مُعَاوِيَةَ! مِنْ طَرِيقِ كَانَ

قَصْدُهَا لِغَيْرِكَ، فَهَتَاكَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الْأَبْصَارِ»^(١).

فيتضح من الجملة «فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الْأَبْصَارِ» التي انتهى بها كلام الإمام عليه السلام أنَّ ذوي البصيرة يتعظون ويأخذون الدروس والعبر مما يطرق أسماعهم من نصائح أولياء الله وما يمر عليهم من أحداث أو ما يسمعون من حوادث تاريخية في الزمن الغابر، فهم بحاجة إلى التذكير في هذا السبيل.

يقول الله تعالى:

﴿يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾^(٢).

ونقل عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«فَاتِمَّا الْبُصَيْرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ، وَنَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَانْتَفَعَ بِالْعِبَرِ، ثُمَّ سَلَكَ جَدَدًا وَاضِحًا يَتَجَنَّبُ فِيهِ الصَّرْعَةَ فِي الْمَهَاوِي وَالضَّلَالَ فِي الْمَغَاوِي»^(٣).

علامة البصيرة

نقل عن الإمام الحسين عليه السلام أنه أنشد:

مَا يَخْفَظُ اللَّهُ يُصَنُّ	مَا يَصْنَعُ اللَّهُ يُهِنُّ
مَنْ يَسْعَدِ اللَّهُ يَلِنُّ	لَهُ الزَّمَانُ إِنْ حَشِنُّ
أَخِي اعْتَبِرْ لَا تَغْتَرِرْ	كَيْفَ تَرَى صَرْفَ الزَّمَنِ
يَجْزِي بِمَا أُوتِيَ مِنْ	فِعْلٍ قَبِيحٍ أَوْ حَسَنِ

(١) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، الإمامة والسياسة: ج ١، ص ٢٠٨-٢٠٩.

(٢) النور: آية ٤٤.

(٣) نهج البلاغة: خطبة ١٥٣.

أَفْلَحَ عَبْدٌ كُشِفَ الْـ _____ غِطَاءُ عَنْهُ فَقَطَّنَ^(١)

إذ يتضح من البيت الخامس أنّ الذين أزالوا حجاب الغفلة عن أعينهم أصبحوا ذوي بصيرة وفطنة، وأمّا الذين ما زالت الغفلة تعمي أعينهم فإنّهم في غيهم يتخبطون.

قال تبارك وتعالى:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^(٢).

(١) الإربلي، علي بن عيسى، كشف الغمة في معرفة الأئمة: ج ٢، ص ٣٦.

(٢) النحل: آية ١٠٧-١٠٨.

ن) تزكية النفس

تعدّ «تزكية النفس» أداة ووسيلة أخرى للعلم والمعرفة تضاف لما تقدّم من وسائل ومصادر، فعن طريق التزكية يتمكن الإنسان من بلوغ وإدراك المعارف. وقد أشير إلى أصل تهذيب النفس في الروايات المنقولة عن الإمام الحسين عليه السلام، أمّا ما ينشأ عن ذلك الأصل من علم ومعرفة، فقد تطرقت له الروايات المنقولة عن الأئمة الآخرين.

قال الشهيد مطهري:

«كما يعدّ القرآن الحواس وقوة التفكير من وسائل المعرفة وأدواتها، كذلك يرى تزكية النفس وتصفيتها والتقوى والصفاء وسيلة أخرى من وسائلها، وقد صُرح بهذا الأمر في الكثير من الآيات:

﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾^(١).

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾^(٢)﴾^(٣).

وقال في موضع آخر:

«إنّ القلب أداة من أدوات المعرفة الأخرى بحسب المصطلح العرفاني لا القرآني، وقد يطلقه القرآن الكريم عليه أحياناً، ولكن هذا الاصطلاح الخاص اصطلاح للعرفاء. ولكنه هل يعتبر القلب وسيلة معرفية؟ ويتوصل الإنسان للمعرفة بواسطته

(١) الأنفال: آية ٢٩.

(٢) الشمس: آية ٧-١٠.

(٣) مطهري، مرتضى، مجموعه آثار استاد شهيد مطهري (مجموعة آثار الأستاذ الشهيد مطهري):

لا بالحس والعقل؟ وهل تتحقق المعرفة عبر هذا الطريق الذي يعني تزكية النفس وتزكية القلب؟

هناك جماعة من العلماء الجدد يعتقدون بأن القلب أداة للمعرفة، مثل العالم الرياضي المعروف باسكال، والنفساني ويليام جيمس، والفيلسوف الأميركي الشهير الكسيس كاريل، وبرغسون - وبرغسون هذا يتقدم الجميع باعتقاده بأن الإنسان لديه وسيلة واحدة فقط للمعرفة وهي القلب - ولا يرون أي دور لا للحواس ولا للعقل. وديكارت مثل أفلاطون يرى أن العقل أداة للمعرفة دون الحس، معتقداً أن الحس ينفع فقط في العمل والحياة كالسيارة بالنسبة للإنسان، ولا يمكنه معرفة أي شيء، وتختص المعرفة فقط فقط بالعقل، وكل ما قاله ديكارت بشأن الحواس قام برغسون بتسريته للعقل، فيقول: أخطأت في عدك العقل أداة للمعرفة، فإله كما جعل الحس وسيلة للحياة لا للمعرفة كذلك العقل جعله وسيلة أخرى للحياة اليومية، فهو ليس وسيلة للمعرفة، وإنما وسيلة المعرفة هي الحس العرفاني الذي يسميه العرفاء بـ «القلب»^(١).

ضرورة السيطرة على النفس

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه كان يبتهل صباحاً ومساءً إلى الله تعالى بقوله:
«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسَلْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ»^(٢).

يتضح من المدلول التضمني لهذه الفقرة لزوم سيطرة الإنسان على نفسه وتحكّمه بها.

قال تبارك وتعالى في ثواب ذلك الإنسان:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾^(٣).

(١) المصدر السابق: ج ١٣، ص ٣٦٤-٣٦٥.

(٢) ابن طاووس، علي بن موسى، مهج الدعوات ومنهج العبادات: ص ١٥٧.

(٣) النزاعات: آية ٤٠-٤١.

ووصف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من يسعى إلى ذلك بقوله:
«رَدُّ النَّفْسِ عَنِ الْهَوَى هُوَ الْجِهَادُ الْأَكْبَرُ»^(١).

حسن مجاهدة النفس

نقل القندوزي عن كتاب «ذخيرة الملوك» للسيد علي الهمداني قال:
«إِنَّ عَلِيًّا (كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ) كَانَ مُعْتَكِفًا فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ، جَاءَ أَعْرَابِيٌّ وَقَتَ
إِفْطَارِهِ فَأَخْرَجَ عَلِيٌّ مِنْ جِرَابِ سَوِيْقٍ شَعِيرٍ فَأَعْطَاهُ مِنْهُ شَيْئًا، فَلَمْ يَأْكُلْهُ الْأَعْرَابِيُّ،
فَعَقَدَهُ فِي طَرْفِ عِمَامَتِهِ، فَجَاءَ إِلَى دَارِ الْحَسَنِينِ عليه السلام فَأَكَلَ مَعَهُمَا، فَقَالَ لَهُمَا: رَأَيْتُمْ شَيْخًا
غَرِيبًا فِي الْمَسْجِدِ لَا يَجِدُ غَيْرَ هَذَا السَّوِيْقِ فَتَرَحَّمْتُ عَلَيْهِ، فَأَحْمِلْ مِنْ هَذَا الطَّعَامِ إِلَيْهِ
لِيَأْكُلَهُ، فَبَكَيَا وَقَالَا: إِنَّهُ أَبُوْنَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ يُجَاهِدُ نَفْسَهُ بِهَذِهِ الرِّيَاضَةِ»^(٢).

ودلالة الجملة الأخيرة على حسن مجاهدة النفس واضحة جلية.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله بهذا الصدد:

«الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي اللَّهِ عز وجل»^(٣).

وقال الإمام علي عليه السلام:

«جَاهِدْ نَفْسَكَ وَقَدِّمْ تَوْبَتَكَ تَفُزْ بِطَاعَةِ رَبِّكَ»^(٤).

حسن ترويض النفس

من الحقائق التي تستوحى أيضاً من الجملة الأخيرة في حديث الإمام عليه السلام
المتقدم حسن ترويض النفس وتدريبها وصولاً لأكملها.
حيث يقول تعالى في كتابه العزيز:

(١) الأمدى، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٣٨٦، حديث ١١.

(٢) القندوزي، سليمان بن إبراهيم، ينابيع المودة لذوي القربى: ج ١، ص ٤٤٨.

(٣) ورام، مسعود بن عيسى، تنبيه الخواطر ونزهة النواظر المعروف بمجموعة ورام: ج ١، ص ٩٦.

(٤) الأمدى، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٣٣٨، حديث ٤٣.

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(١).

وقال تبارك وتعالى أيضاً:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿فَأَلَمَّهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾^(٢).

وعن الإمام علي عليه السلام قال:

«وَأِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا بِالتَّقْوَى لِتَأْتِي آمِنَةً يَوْمَ الخَوْفِ الْأَكْبَرِ، وَتَثْبُتَ عَلَيَّ جَوَانِبِ المَزَلِقِ»^(٣).

(١) الجمعة: آية ٢.

(٢) الشمس: آية ٧-١٠.

(٣) نهج البلاغة: رسالة ٤٥.



الرابع : درجات المعرفة

أ) العلم

إنَّ للمعرفة درجات ومراتب، و«العلم» يمثل واحدة من درجاتها، ولقد أسهبت الروايات في الإشارة إلى حقيقة العلم وما تشتمل عليه.

قال الإمام علي عليه السلام:

«الْعِلْمُ مِصْبَاحُ الْعَقْلِ»^(١).

جاء في (تنبيه الخواطر) أنه:

«سُئِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام عَنِ الْعِلْمِ، فَقَالَ عليه السلام: أَرْبَعُ كَلِمَاتٍ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ بِقَدْرِ حَاجَتِكَ إِلَيْهِ، وَأَنْ تَعْصِيَهُ بِقَدْرِ صَبْرِكَ عَلَى النَّارِ، وَأَنْ تَعْمَلَ لِدُنْيَاكَ بِقَدْرِ عُمْرِكَ فِيهَا، وَأَنْ تَعْمَلَ لِآخِرَتِكَ بِقَدْرِ بَقَائِكَ فِيهَا»^(٢).

وفي ذلك قال الإمام الصادق عليه السلام:

«وَجَدْتُ عِلْمَ النَّاسِ كُلَّهُ فِي أَرْبَعٍ: أَوَّلُهَا: أَنْ تَعْرِفَ رَبَّكَ، وَالثَّانِي: أَنْ تَعْرِفَ مَا صَنَعَ بِكَ، وَالثَّلَاثُ: أَنْ تَعْرِفَ مَا أَرَادَ مِنْكَ، وَالرَّابِعُ: أَنْ تَعْرِفَ مَا يُخْرِجُكَ مِنْ دِينِكَ»^(٣).

وقال أيضاً:

«لَيْسَ الْعِلْمُ بِكَثْرَةِ التَّعْلُمِ، إِنَّمَا هُوَ نُورٌ يَقَعُ فِي قَلْبٍ مَنْ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ، فَإِذَا أَرَدْتَ الْعِلْمَ فَاطْلُبْ أَوَّلًا فِي نَفْسِكَ حَقِيقَةَ الْعُبُودِيَّةِ، وَاطْلُبِ الْعِلْمَ بِاسْتِعْمَالِهِ، وَاسْتَفْهِمِ اللَّهَ يُفْهِمُكَ»^(٤).

(١) الأمدى، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٣٧، حديث ٥٨٩.

(٢) ورام، مسعود بن عيسى، تنبيه الخواطر ونزهة النواظر المعروف بمجموعة ورام: ج ٢، ص ٣٧.

(٣) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٥٠، حديث ١١.

(٤) الشهيد الثاني، زين الدين بن علي، منية المريد في أدب المفيد والمستفيد: ص ١٤٩-٥٠.

هناك توضيح للعلامة الجعفري حول «العلم» لا بأس بذكره قال فيه:
 «إنّ هذه الكلمة التي يمكن أن يقال عنها أنّها الكلمة الشائع إطلاقها في جميع لغات العالم على أقدم محاولة في التاريخ قام بها الإنسان ساعياً وراء إدراك الحقائق فامتلاً تاريخها المتصرم بالحوادث، وإذا ما افترضنا أنّ هذه الكلمة كانت تطلق قبل القرن التاسع عشر على مائة مورد مثلاً فإنّها في مورد واحد منها فقط كان المراد من العلم معناه الخاص، أي انكشاف الواقع مائة بالمائة، وأمّا الموارد الأخرى لإطلاقات العلم فإنّها لا تنسجم مع ما لدينا اليوم من تعريف للعلم.

إنّ القاعدة أو الأساس الذي نشأه أثناء مسار العلم المليء بالحوادث هذا، أنّ العلم عبارة عن الاتصال المطلوب بين ذهن الإنسان والعالم الخارجي، إلّا أنّه مع بدايات القرن العشرين وما تلاه فقد العلم صورته المقدّسة واتخذ وسيلة لنيل الأهداف السلطوية. ومن جهة أخرى نجد أنّ العلم الذي وجد من أجل حلّ الأزمات التي مرّت بها الأسس والقوانين الموضوعية مسبقاً قد فقد مرونته وصلابته، وجاء الإعلان عن إفلاسه بصورة رسمية على لسان (روسو).

بالطبع يجدر بنا الالتفات إلى أنّ العلم لا يهزم أبداً، وما سيؤول حاله إلى الهزيمة هو تلك الغايات والاستعدادات والارتكاز الرومانتيكي على مبادئ محددة مسبقاً.

نعود إلى بيان معنى العلم، فإلى الآن لم يؤت بشرح وتعريف جامع مانع للعلم متفق عليه بين جميع مفكري الشرق والغرب، فبعض المفكرين يرون أنّ المعرفة والعلم ليس سوى انعكاس للحقائق في الذهن البشري.

فهؤلاء يعرفون العلم بأحد عنصريه المهمين جدّاً ويغضون الطرف عن دور الذهن وفعاليته في تحقق العلم والمعرفة، فلكي يتحقق العلم بموضوع أو قضية ما فإنّ الذهن سيقوم بعملية التجريد والانتخاب وجمع المعلومات الثانوية وتجسيدها وربطها بالأصول والقوانين، إضافة إلى الانتباه إلى إمكان ردم الشرح بين تلك الأصول من قبل الاكتشافات الجديدة، يجب أخذ عنصر آخر بعين الاعتبار للعلم والمعرفة من أجل

تقديم تفسير وتبرير لمعرفة علمية. طبعاً بإمكاننا اصطلاحاً أن نطلق على محض انعكاس الموضوعات والحقائق الخارجة عن الذهن في الذهن علماً ولا نسمح لأنفسنا بالمناقشة في المعنى الاصطلاحي، على أن لا يجعلنا هذا المصطلح أن نغض الطرف عن مراتب العلم المختلفة...»^(١).

أنواع العلم

قال الإمام الحسين عليه السلام متضرعاً في دعاء عرفة:

«عَمِلْتُ [عَلِمْتُ] يَقِيناً غَيْرَ ذِي شَكٍّ...»^(٢)

بحسب النسخة التي وردت فيها الكلمة «عَلِمْتُ»، يستفاد أن لـ«العلم» أنواعاً ومراتب، ولكل شخص مرتبة منه، وأن أعلى مراتبه وأسمها مرتبة اليقين.

لقد تناول أبو هلال العسكري الفرق بين العلم واليقين إذ قال:

«إنّ العلم هو اعتقاد الشيء على ما هو به على سبيل الثقة، واليقين هو سكون النفس وثلج الصدر بما علم، ولهذا لا يجوز أن يوصف الله تعالى باليقين»^(٣).

وقال سبحانه وتعالى:

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَيْكَ عَلَىٰ أَنْ تَعْلَمَ مِمَّا عَلَّمْتُ رُسُدًا ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾^(٤).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام:

«بَلِ ائْتَمَرْتُ عَلَىٰ مَكُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لِأَضْطَرَبْتُمْ اضْطِرَابَ الْأُرْشِيَّةِ فِي الطَّوِيِّ

الْبَعِيدَةِ»^(٥).

(١) الجعفري التبريزي، محمد تقي، معرفت شناسي (نظرية المعرفة): ص ١١٧-١١٨.

(٢) ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال: ج ١، ص ٣٤٥.

(٣) العسكري، الحسن بن عبدالله، الجزائر، نور الدين، معجم الفروق اللغوية: ص ٣٧٤.

(٤) الكهف: آية ٦٥-٦٧.

(٥) نهج البلاغة: خطبة ٥.

لا قيمة للعلم العرضي مقارنة بالعلم الذاتي

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال:

«إِلْمِي أَنَا الْجَاهِلُ فِي عِلْمِي»^(١).

حيث يستشف من هذا التعبير أن علم الإنسان العرضي لا قيمة له قياساً بعلم

الله الذاتي.

قال تبارك وتعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ
قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي
وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٠١﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي
وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾

العلوم التي لا تتطابق مع الواقع

بالإمكان أن تشير الجملة المتقدمة إلى علوم الإنسان بلحاظ عدم تناسبها أو

مطابقتها أحياناً للواقع.

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«وَأَخْرُ قَدْ تَسَمَّى عَالِمًا وَلَيْسَ بِهِ، فَاقْتَبَسَ جَهَائِلَ مِنْ جُهَّالٍ، وَأَضَالِيلَ مِنْ ضَلَّالٍ،
وَنَصَبَ لِلنَّاسِ أَشْرَاكًا مِنْ حَبَائِلِ غُرُورٍ، وَقَوْلِ زُورٍ، قَدْ حَمَلَ الْكِتَابَ عَلَى آرَائِهِ،
وَعَطَفَ الْحَقَّ عَلَى أَهْوَائِهِ»^(٣).

(١) ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال: ج ١، ص ٣٤٨.

(٢) المائدة: آية ١١٦-١١٧.

(٣) نهج البلاغة: خطبة ٨٧.

ضرورة عدم تعلق الإنسان بعلومه

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه كان يدعو في القنوت قائلاً:
 «وَجَعَلْتَ عُقُولَهُمْ مَنَاصِبَ أَوْامِرِكَ وَنَوَاهِيكَ، فَأَنْتَ إِذَا شِئْتَ مَا تَشَاءُ حَرَكْتَ مِنْ
 أَسْرَارِهِمْ كَوَامِنَ مَا أَبْطَنْتَ فِيهِمْ، وَأَبْدَأْتَ مِنْ إِرَادَتِكَ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ مَا أَفْهَمْتَهُمْ بِهِ
 عَنْكَ فِي عُقُودِهِمْ، بِعُقُولٍ تَدْعُوكَ وَتَدْعُو إِلَيْكَ بِحَقَائِقِ مَا مَنَحْتَهُمْ بِهِ، وَإِنِّي لَأَعْلَمُ بِمَا
 عَلَّمْتَنِي بِمَا أَنْتَ الْمُشْكُورُ عَلَى مَا مِنْهُ أَرَيْتَنِي وَإِلَيْهِ أَوَيْتَنِي. اللَّهُمَّ وَإِنِّي مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ عَائِذٌ
 بِكَ»^(١).

مع ملاحظة الكلمات الأخيرة في الفقرة مثل كلمة «عائذ» المأخوذة من مادة
 «عوذ» والتي تعني اللجوء والتمسك، وكلمة «ذلك» التي تضمنت الإشارة إلى ما
 قبلها، تتضح لنا ضرورة عدم تعلق الإنسان القلبي بعلومه وعدم صحة عقد
 الآمال عليها.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«مَنْ قَالَ أَنَا عَالِمٌ فَهُوَ جَاهِلٌ»^(٢).

وقال الإمام علي عليه السلام في كتابه لابنه الحسن عليه السلام:

«قَرَعْتُكَ بِأَنْوَاعِ الْجَهَالَاتِ لِئَلَّا تَعُدَّ نَفْسَكَ عَالِمًا، فَإِنْ وَرَدَ عَلَيْكَ شَيْءٌ تَعْرِفُهُ
 أَكْبَرْتَ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْعَالِمَ مَنْ عَرَفَ أَنَّ مَا يَعْلَمُ فِيهَا لَا يَعْلَمُ قَلِيلٌ، فَعَدَّ نَفْسَهُ بِذَلِكَ جَاهِلًا
 فَارْتَدَادَ بِمَا عَرَفَ مِنْ ذَلِكَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ اجْتِهَادًا، فَمَا يَزَالُ لِلْعِلْمِ طَالِبًا، وَفِيهِ رَاغِبًا، وَلَهُ
 مُسْتَفِيدًا، وَلِأَهْلِهِ خَاشِعًا مُهْتَمًّا، وَلِلصَّمْتِ لَازِمًا، وَلِلخَطَا حَازِرًا، وَمِنْهُ مُسْتَحْيِيًا، وَإِنْ
 وَرَدَ عَلَيْهِ مَا لَا يَعْرِفُ لَمْ يُنْكِرْ ذَلِكَ لِمَا قَرَّرَ بِهِ نَفْسَهُ مِنَ الْجَهَالَةِ»^(٣).

(١) ابن طاووس، علي بن موسى، مهج الدعوات ومنهج العبادات: ص ٤٨.

(٢) الشهيد الثاني، زين الدين بن علي، منية المريد في أدب المفيد والمستفيد: ص ١٣٧.

(٣) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٧٣.

لزوم طلب العلم

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه توجه إلى الله سبحانه في دعاء التوفيق قائلاً:
 «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ تَوْفِيقَ أَهْلِ الْهُدَى، وَأَعْمَالَ أَهْلِ التَّقْوَى، وَمُنَاصِحَةَ أَهْلِ التَّوْبَةِ،
 وَعَزْمَ أَهْلِ الصَّبْرِ، وَحَذَرَ أَهْلِ الْخَشْيَةِ، وَطَلَبَ أَهْلِ الْعِلْمِ»^(١).

فيتين من طلب وسؤال الإمام هذا وجوب اكتساب العلم على الجميع.

نقل الكليني بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، أَلَا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ بُغَاةَ

الْعِلْمِ»^(٢).

ونقل أيضاً بسنده عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله:

«أَيُّهَا النَّاسُ، اعْلَمُوا أَنَّ كَمَالَ الدِّينِ طَلَبُ الْعِلْمِ وَالْعَمَلُ بِهِ، أَلَا وَإِنَّ طَلَبَ الْعِلْمِ
 أَوْجِبُ عَلَيْكُمْ مِنْ طَلَبِ الْمَالِ، إِنَّ الْمَالَ مَقْسُومٌ مَضْمُونٌ لَكُمْ، قَدْ قَسَمَهُ عَادِلٌ بَيْنَكُمْ،
 وَضَمِنَهُ وَسَيَفِي لَكُمْ، وَالْعِلْمُ مَخْزُونٌ عِنْدَ أَهْلِهِ، وَقَدْ أَمَرْتُمْ بِطَلْبِهِ مِنْ أَهْلِهِ فَاطْلُبُوهُ»^(٣).

أهل العلم

من خلال إضافة كلمة «علم» إلى ما بعدها في الحديث المتقدم للإمام
 الحسين عليه السلام، يتبين أن هناك عدّة من أهل العلم ولديهم ميول ورغبات، ورغبتهم
 ومطلبهم هو العلم، ونحن أيضاً علينا أن نطلب من الله تبارك وتعالى أن يرزقنا ما
 عليه أهل العلم من حرص وعطش للتعلم.

(١) ابن طاووس، علي بن موسى، مهج الدعوات ومنهج العبادات: ص ١٥٧.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٣٠، حديث ١.

(٣) المصدر السابق: ج ١، ص ٣٠، حديث ٤.

قال الله سبحانه:

﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾^(١).

ما يلزم العلم به

قال الإمام الحسين عليه السلام:

«وَأَعْلَمُوا أَنَّ حَوَائِجَ النَّاسِ إِلَيْكُمْ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، فَلَا تَمَلُّوا النَّعَمَ فَتَحُورَ نِقْمًا»^(٢).

يتضح من صيغة الأمر الواردة في وصية الإمام عليه السلام في قوله: «وَأَعْلَمُوا...» المتضمنة لحكم إرشادي للعقل، أنّ هناك أموراً وعلوماً يجب على الجميع معرفتها وتعلمها، ومنها أنّ حاجة الناس للإنسان من نعم الله تعالى عليه.

قال الإمام الصادق عليه السلام لعثمان بن عمران:

«يَا عُثْمَانُ، إِنَّكَ لَوْ عَلِمْتَ مَا مَنَزَلَهُ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَبِّهِ مَا تَوَانَيْتَ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ أَدْخَلَ عَلَى مُؤْمِنٍ سُرُورًا فَقَدْ أَدْخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَضَاءُ حَاجَةِ الْمُؤْمِنِ يَدْفَعُ الْجُنُونَ وَالْجَذَامَ وَالْبَرَصَ»^(٣).

الأمور التي يحسن تعلمها

قال الإمام الحسين عليه السلام:

«إِعْلَمُوا أَنَّ الْمَعْرُوفَ يُكْسِبُ حَمْدًا وَيُكْسِبُ أَجْرًا، فَلَوْ رَأَيْتُمُ الْمَعْرُوفَ رَجُلًا رَأَيْتُمُوهُ حَسَنًا جَمِيلًا، يَسُرُّ النَّاطِرِينَ وَيَفُوقُ الْعَالِمِينَ، وَلَوْ رَأَيْتُمُ اللَّؤْمَ رَجُلًا رَأَيْتُمُوهُ

(١) طه: آية ١١٤.

(٢) الآبي، منصور بن الحسين، نثر الدر في المحاضرات: ج ١، ص ٢٢٨.

(٣) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٤، ص ٣٤، حديث ٤.

سَمِجاً مُشَوَّهاً، تَنْفِرُ مِنْهُ الْقُلُوبُ وَتُغْضُّ دُونَهُ الْأَبْصَارُ»^(١).

من ملاحظة وصية الإمام عليه السلام يستشف حسن تعلم بعض المعلومات والمسائل كالعلم بحسن القيام بالمعروف وأجره.

قال الإمام الصادق عليه السلام مخاطباً المفضل:

«يَا مُفْضَلُ، إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ أَشَقِيَّ الرَّجُلِ أَمْ سَعِيدٌ، فَانظُرْ سَبِيَّهُ وَمَعْرُوفَهُ إِلَى مَنْ يَصْنَعُهُ، فَإِنْ كَانَ يَصْنَعُهُ إِلَى مَنْ هُوَ أَهْلُهُ فَاعْلَمْ أَنَّهُ إِلَى خَيْرٍ، وَإِنْ كَانَ يَصْنَعُهُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ»^(٢).

أفضلية أهل العلم والمعرفة

ذكر الخوارزمي:

«وَرُويَ: أَنَّ أَعْرَابِيًّا مِنْ الْبَادِيَةِ قَصَدَ الْحَسِينَ عليه السلام فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَقَالَ: يَا أَعْرَابِي، فِيمَ قَصَدْتَنَا؟ قَالَ: قَصَدْتُكَ فِي دِيَةِ مُسَلِّمَةٍ إِلَى أَهْلِهَا، قَالَ: أَقْصَدْتَ أَحَدًا قَيْلِي؟ قَالَ: عْتَبَهُ بِنِ أَبِي سُفْيَانَ، فَأَعْطَانِي خَمْسِينَ دِينَارًا فَرَدَدْتُهَا عَلَيْهِ، وَقُلْتُ: لَا أَقْصِدَنَّ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ وَأَكْرَمُ. فَقَالَ عْتَبَهُ: وَمَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي وَأَكْرَمُ لَا أُمَّ لَكَ؟ فَقُلْتُ: إِمَّا الْحَسِينَ بِنِ عَلِيٍّ وَإِمَّا عَبْدَ اللَّهِ بِنِ جَعْفَرٍ، وَقَدْ أَتَيْتُكَ بَدَاءً لِتَقِيمَ بِهَا عُمُودَ ظَهْرِي، وَتَرُدَّنِي إِلَى أَهْلِي.

فَقَالَ الْحَسِينَ: وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، وَتَحَلَّى بِالْعِظَمَةِ، مَا فِي مَلِكِ ابْنِ بِنْتِ نَبِيِّكَ إِلَّا مَائَتًا دِينَارٍ فَأَعْطِهِ إِيَّاهَا يَا غَلامُ، وَإِنِّي أَسْأَلُكَ عَنْ ثَلَاثِ خِصَالٍ إِنْ أَنْتَ أَحْبَبْتَنِي عَنْهَا أَتَمَمْتُهَا خَمْسِئَةِ دِينَارٍ، وَإِنْ لَمْ تُحِبَّنِي أَلْحَقْتُكَ فِيمَنْ كَانَ قَيْلِي. فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: أَكُلُّ ذَلِكَ احْتِياجاً إِلَى عِلْمِي، أَنْتُمْ أَهْلُ بَيْتِ النَّبُوَّةِ، وَمَعْدِنُ الرَّسَالَةِ، وَتُخْتَلَفُ الْمَلَائِكَةُ؟

(١) الآبي، منصور بن الحسين، نشر الدر في المحاضرات: ج ١، ص ٢٢٨.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٤، ص ٣٠-٣١، حديث ١.

فَقَالَ الْحَسِينُ: لَا، وَلَكِنْ سَمِعْتُ جَدِّي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (أَعْطُوا الْمَعْرُوفَ بِقَدْرِ الْمَعْرِفَةِ). فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: فَسَلْ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

فَقَالَ الْحَسِينُ: مَا أَنْجَى مَنْ الْهَلَكَةِ؟ فَقَالَ: التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ، فَقَالَ: مَا أَرْوَحُ لِلْمِهِمِّ؟ قَالَ: الثِّقَةُ بِاللَّهِ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ خَيْرٌ لِلْعَبْدِ فِي حَيَاتِهِ؟ قَالَ: عَقْلٌ يَزِينُهُ حِلْمٌ، فَقَالَ: فَإِنْ خَانَهُ ذَلِكَ؟ قَالَ: مَا لِي يَزِينُهُ سَخَاءٌ وَسَعَةٌ، فَقَالَ: فَإِنْ أَخْطَأَهُ ذَلِكَ؟ قَالَ: الْمَوْتُ وَالْفَنَاءُ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْحَيَاةِ وَالْبَقَاءِ، قَالَ: فَتَأَوَّلَهُ الْحَسِينُ خَائِئُهُ، وَقَالَ: بَعُهُ بِبِائَةِ دِينَارٍ، وَتَأَوَّلَهُ سَيْفُهُ، وَقَالَ: بَعُهُ بِبِائَتِي دِينَارٍ، وَادْهَبْ فَقَدْ أْتَمَمْتُ لَكَ حَمْسِمِائَةَ دِينَارٍ^(١).

يبدو جلياً من الطريقة التي اتبعتها الإمام في تقديم العطاء أفضلية أهل العلم والمعرفة على أهل الجهل والجهلاء حتى في تقديم الهدية؛ ولذا ينبغي تفضيلهم وإيثارهم عما سواهم بالهدايا كثرة وقيمة.

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«إِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الشَّمْسِ عَلَى الْكُوَاكِبِ، وَفَضْلَ الْعَابِدِ عَلَى غَيْرِ الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى الْكُوَاكِبِ»^(٢).

وروي عنه أيضاً:

«سَاعَةٌ مِنْ عَالِمٍ يَتَكَبَّرُ عَلَى فِرَاشِهِ يَنْظُرُ فِي عَمَلِهِ، خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ الْعَابِدِ سَبْعِينَ عَامًا»^(٣).

المكانة الرفيعة للعلم

عند الرجوع لحديث الإمام الحسين عليه السلام نلاحظ أن الإمام عليه السلام قد أعطى السائل

(١) أخطب خوارزم، الموفق بن أحمد، مقتل الحسين عليه السلام: ج ١، ص ٢٢٤-٢٢٥.

(٢) الصفار، محمد بن الحسن، بصائر الدرجات في فضائل آل محمد (صلوات الله عليهم أجمعين): ص ٨.

(٣) الفتال النيسابوري، محمد بن الحسن، روضة الواعظين: ج ١، ص ١٢.

كل ما كان يمتلك نتيجة مكانته الرفيعة المبنية مما أفيض عليه من علم؛ ولذا ينبغي على المسؤولين إكرام العلم والعلماء واحترامهم وتبجيلهم بشكل خاص.

قال تعالى:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(١).

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ... بِهِ يُطَاعُ الرَّبُّ وَيَعْبُدُ، وَبِهِ تُوَصَّلُ الْأَرْحَامُ، وَيَعْرِفُ الْحَلَالُ مِنَ الْحَرَامِ، الْعِلْمُ إِمَامُ الْعَمَلِ وَالْعَمَلُ تَابِعُهُ، يَلْهَمُ بِهِ السُّعْدَاءَ وَيُجَرِّمُهُ الْأَشْقِيَاءَ»^(٢).

كما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«رَأْسُ الْفَضَائِلِ الْعِلْمُ»^(٣).

حسن التبجيل لأجل العلم

عوداً إلى حديث الإمام الحسين عليه السلام السابق، يتبين لنا من مكافأة الإمام عليه السلام لذلك الأعرابي على أجوبته وجوب تبيين العلم واحترامه، وإن كان هناك من يريد أن يمد يد العون لأحد فمن الأفضل أن يقدم أهل العلم بهدف الحث على العلم وزيادته وتنميته.

قال الإمام علي عليه السلام:

«النَّاسُ أَبْنَاءُ مَا يُحْسِنُونَ، وَقَدْرُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُ، فَتَكَلَّمُوا فِي الْعِلْمِ تَبَيَّنَ أَقْدَارُكُمْ»^(٤).

(١) الزمر: آية ٩.

(٢) الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي: ص ٤٨٧-٤٨٨، حديث ١٠٦٩.

(٣) الأمدى، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٣٧٧، حديث ١٤.

(٤) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٥٠-٥١، حديث ١٤.

لزوم تشجيع العالم

من الإشارات الهامة التي أوضحها الحديث السابق للإمام الحسين عليه السلام، حسن تشجيع العالم وحثه على المواصلة.

وقد نقل ابن شهر آشوب:

«وَقِيلَ: إِنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ عَلَّمَ وَلَدَ الْحُسَيْنِ الْحَمْدُ، فَلَمَّا قَرَأَهَا عَلَى أَبِيهِ أَعْطَاهُ أَلْفَ دِينَارٍ وَأَلْفَ حُلَّةٍ وَحَشَا فَاهُ دُرًّا. فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، قَالَ: وَأَيْنَ يَقَعُ هَذَا مِنْ عَطَائِهِ؟! يَعْني تَعْلِيمَهُ»^(١).

تأثير العلم في المعرفة

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قد قال:

«ذُرًّا اللَّهُ الْعِلْمَ لِقَاحِ الْمَعْرِفَةِ، وَطُولَ التَّجَارِبِ زِيَادَةَ فِي الْعَقْلِ»^(٢).

إذ يتبين من خلال مضمون الجملة الأولى أن للعلم تأثيراً في المعرفة.

قال الإمام علي عليه السلام:

«وَالْعِلْمُ يَزِيدُ الْعَاقِلَ عَقْلاً، وَيُورِثُ مُتَعَلِّمَهُ صِفَاتِ مُحَمَّدٍ»^(٣).

بسط العلم من الله سبحانه

من خلال مراجعة سريعة لحديث الإمام الحسين عليه السلام السابق وملاحظة إسناد الفعل «ذراً» لله جلّت آلاؤه يتبين لنا أن الله تبارك هو من نشر العلم وبسطه في المجتمع.

(١) ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب عليهم السلام: ج ٤، ص ٦٦.

(٢) الحلواني، الحسين بن محمد، نزهة الناظر وتنبية الخاطر: ص ٨٨.

(٣) المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: ج ٧٥، ص

قال عز من قائل:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ
وَأَلْفِيدَةً لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١).

ودلالة الآية على مطلوبنا واضحة إلا أنها أضافت بيان الوسائل التي بها يتم ذلك، حيث وهب الله للإنسان الأذن والعين والعقل ليستعملها في تعلمه وتعليمه.

ضرورة عرض الإنسان آراءه للنقد من قبل العلماء

روي عن الإمام الحسين عليه السلام قوله:

«مِنْ دَلَائِلِ عِلْمَاتِ الْقُبُولِ الْجُلُوسُ إِلَى أَهْلِ الْعُقُولِ، وَمِنْ عِلْمَاتِ أَسْبَابِ
الْجَهْلِ الْمَارَاةُ لِغَيْرِ أَهْلِ الْكُفْرِ، وَمِنْ دَلَائِلِ الْعَالِمِ انْتِقَادُهُ لِحَدِيثِهِ وَعِلْمُهُ بِحَقَائِقِ فُنُونِ
النَّظَرِ»^(٢).

إذا ما لاحظنا الجملة الأخيرة من الحديث الشريف سندرك أن العالم الحقيقي هو من يضع آراءه بين يدي العلماء بغية تهذيبها وتمحيصها دون تعنت وتعصب. و(الانتقاد) من (النقد)، ونقدت الدراهم وانتقدتها: إذا أخرجت منها الزيف. وناقدت فلاناً: إذا ناقشته في الأمر.

قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«مَنْ اسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ هَلَكَ، وَمَنْ شَاوَرَ الرَّجَالَ شَارَكَهَا فِي عُقُولِهَا»^(٣).

ضرورة اطلاع العلماء على فنون النظر والاستدلال

يبدو من ذيل الحديث السابق للإمام الحسين عليه السلام وجوب اطلاع العلماء على

(١) النحل: آية ٧٨.

(٢) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٤٧-٢٤٨.

(٣) نهج البلاغة: الكلمات القصار ١٦١.

فنون النظر والاستدلال ومعرفتهم بها، والتي قد طرحت بشكل مفصل في أبحاث علم المنطق.

كان لعلي الصفائي الحائري توضيح نافع بهذا الصدد وإليك جانباً منه:

«العالم هو الشخص الذي يقوم بتقييم الأعمال الجديدة والمنجزات الحديثة، وهذا يتطلب منه أن يكون على علم ودراية بقواعد التفكير وطرقه المتقنة؛ لأنّ التفكير قد ينطلق من الشك أو السؤال أو الافتراض المسبق والاعتقاد السريع، وأيضاً التفكير بالسؤال من أجل الكشف والخلاص من المواقف المحرجة قد يكون في القضايا الحياتية أو العقلية أو الحضورية.

وكل واحد من هذه المصادر فيه الصافي وفيه الملوث، ومن ملاحظة كلّ ما تقدّم فإنّ التفكير يقع في الأجزاء والمنظومة والعلاقات والتأليف.

وتأصيل أيّ واحد من هذه الأجزاء أو المجموعة وحذف عنصر العلاقة والتأليف قد يقود للتضليل، كما أنّ ملاحظة الظروف والإمكانات لها دور في التقييم، إذن ينبغي أن يحل الانتقاد بدل إنكار الذات، والتقييد يجب رفعه بالإحاطة بطرق التفكير والنظر، حتّى يرافقه التقبل والحكمة، حيث إنّ العمل ينتظم بالنقد والاطلاع على المناهج البحثية، وتتأتى النتائج المتوخاة بصورة صحيحة»^(١).

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«العالمُ بِزَمَانِهِ لَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ اللَّوَابِسُ»^(٢).

(١) الصفائي الحائري، علي، جهل حديث از امام حسين عليه السلام (أربعون حديثاً للإمام الحسين عليه السلام): ص ١٦٥.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٢٧، حديث ٢٩.

اختلاف متعلقي العلم والمعرفة

مما ذكره الشيخ الصدوق في أماليه شارحاً لواقعة عاشوراء:

«فَبَلَغَ الْعَطْشُ مِنَ الْحُسَيْنِ عليه السلام وَأَصْحَابِهِ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ شِيعَتِهِ يُقَالُ لَهُ: بُرَيْرٌ بْنُ خُضَيْرٍ الْهُمْدَانِيُّ... فَقَالَ: يَا بْنَ رَسُولِ اللَّهِ، أَتَأْذُنُ لِي فَأَخْرَجَ إِلَيْهِمْ فَأَكَلَمَهُمْ؟ فَأَذِنَ لَهُ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ النَّاسِ، إِنَّ اللَّهَ عز وجل بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا، وَهَذَا مَاءُ الْفُرَاتِ تَقَعُ فِيهِ خَنَازِيرُ السَّوَادِ وَكِلَابُهَا، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَهُ وَيِنَّ ابْنَهُ. فَقَالُوا: يَا بُرَيْرُ، قَدْ أَكْثَرْتَ الْكَلَامَ فَانْكُفْ، فَوَاللَّهِ لَيُعْطِشُ الْحُسَيْنُ كَمَا عَطِشَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ. فَقَالَ الْحُسَيْنُ: اقْعُدْ يَا بُرَيْرُ.

ثُمَّ وَثَبَ الْحُسَيْنُ عليه السلام مُتَوَكِّئًا عَلَى سَيْفِهِ، فَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ، فَقَالَ: أَنْشُدْكُمْ اللَّهَ، هَلْ تَعْرِفُونِي؟ قَالُوا: نَعَمْ، أَنْتَ ابْنُ رَسُولِ اللَّهِ وَسِبْطُهُ. قَالَ: أَنْشُدْكُمْ اللَّهَ، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ جَدِّي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ...»^(١).

فمن خلال سؤال الإمام عن المعرفة والعلم كل على حدة يكتشف أن متعلقهما مختلف.

وذكر السيد نورالدين الجزائري بهذا الشأن «التفاوت بين المعرفة والعلم» ما نصه:
«قيل: المعرفة إدراك البسائط والجزئيات، والعلم: إدراك المركبات والكيليات، ومن ثم يقال: عرفت الله، ولا يقال: علمته.

وقيل: هي عبارة عن الإدراك التصوري، والعلم هو الإدراك التصديقي. ومن ذهب إلى هذا القول جعل العرفان أعظم رتبة من العلم، قال: لأنّ استناد هذه المحسوسات إلى موجود واجب الوجود أمر معلوم بالضرورة.

وأما تصور حقيقة واجب الوجود فأمر فوق الطاقة البشرية؛ لأنّ الشيء ما لم يعرف لم تطلب ماهيته، فعلى هذا كل عارف عالم من دون عكس، ولذلك كان الرجل

(١) ابن بابويه، محمد بن علي، الأمالي: ص ٢٢٢.

لا يسمّى عارفاً إلا إذا توغل في بحار العلوم ومبانيها، وترقى من مطالعها إلى مقاطعها، ومن مبانيها إلى غاياتها بحسب الطاقة البشرية.

وقيل: المعرفة إدراك الشيء ثانياً بعد توسط نسيانه، لذلك يسمّى الحق - تعالى - بالعالم دون العارف. وهو أشهر الأقوال في تعريف المعرفة.

وقيل: المعرفة قد تقال فيها تدرك آثاره وإن لم يدرك ذاته، والعلم لا يكاد يقال إلا فيما أدرك ذاته، ولذا يقال: فلان يعرف الله، ولا يقال: يعلم الله، لما كانت معرفته - سبحانه - ليست إلا بمعرفة آثاره دون معرفة ذاته. وأيضاً فالمعرفة تقال فيما لم يعرف إلا كونه موجوداً فقط، والعلم أصله فيما يعرف وجوده وجنسه وعلته وكيفيته، ولهذا يقال: الله عالم بكذا، ولا يقال: عارف، لما كان العرفان يستعمل في العلم القاصر. وأيضاً [٢١ / ب] فالمعرفة تقال فيما يتوصل إليه بتفكير وتدبر، والعلم قد يقال في ذلك وفي غيره.

هذا وقد استفاد من كلام الشيخ الرئيس في بعض مصنفاته أنّها مترادفان، وإليه ذهب جماعة من أهل اللغة وأرباب الأصول، ويشهد لذلك قول سيّد الساجدين في الصحيفة الكاملة: (وقد أحصيتهم بمعرفتك)، فإنّه أطلق المعرفة عليه - سبحانه - ويمكن أن يراد بها العلم هنا تجوزاً^(١).

ضرورة مجالسة العلماء

قال الإمام الحسين عليه السلام:

«مَنْ أَنَا لَمْ يَعْدَمْ خَصْلَةٌ مِنْ أَرْبَعٍ: آيَةٌ مُحْكَمَةٌ، وَقَضِيَّةٌ عَادِلَةٌ، وَأَخًا مُسْتَفَادًا، وَمُجَالَسَةَ الْعُلَمَاءِ»^(٢).

يتبيّن لنا مدى ضرورة مجالسة العلماء من مدلول الخصلة الرابعة، لما يجره الجلوس معهم من نفع معنوي.

(١) العسكري، الحسن بن عبدالله، الجزائر، نور الدين، معجم الفروق اللغوية: ص ٥٠١-٥٠٢.

(٢) الآبي، منصور بن الحسين، نشر الدر في المحاضرات: ج ١، ص ٢٣٠.

لقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال:
 «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يَقْعُدُ سَاعَةً عِنْدَ الْعَالَمِ إِلَّا نَادَاهُ رَبُّهُ ﷻ: جَلَسْتَ إِلَى حَبِيبِي، وَعِزَّتِي
 وَجَلَالِي لِأَسْكَنْتَكَ الْجَنَّةَ مَعَهُ وَلَا أُبَالِي»^(١).
 قال الإمام علي عليه السلام:
 «جَالِسِ الْعُلَمَاءَ يَزِدُّ عِلْمَكَ وَيَحْسُنُ أَدَبَكَ وَتَرَكَ نَفْسَكَ»^(٢).

ترك الإنسان العمل بعلمه أحياناً

نقل عن سليم بن قيس الهلالي أن الإمام الحسين عليه السلام قام خطيباً في منى موجهاً
 خطابه لبني هاشم والنخبة في المجتمع الإسلامي، فكان مما قاله:
 «وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكُمْ عَنْ شَيْءٍ، فَإِنْ صَدَقْتُ فَصَدِّقُونِي وَإِنْ كَذَبْتُ فَكَدِّبُونِي.
 أَسْأَلُكُمْ بِحَقِّ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَحَقِّ رَسُولِ اللَّهِ وَحَقِّ قَرَابَتِي مِنْ نَبِيِّكُمْ، لَمَّا سِيرْتُمْ [سَرْتُمْ]
 مَقَامِي هَذَا وَوَصَفْتُمْ مَقَالَتِي وَدَعَوْتُمْ أَجْمَعِينَ فِي أَنْصَارِكُمْ مِنْ قِبَائِلِكُمْ مَنْ أَمِنْتُمْ مِنَ
 النَّاسِ وَوَثِقْتُمْ بِهِ، فَادْعُوهُمْ إِلَى مَا تَعْلَمُونَ مِنْ حَقَّتْنَا، فَإِنِّي أَخَوْفُ أَنْ يَدْرُسَ هَذَا الْأَمْرُ
 وَيَذْهَبَ الْحَقُّ وَيُغْلَبَ ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾».

وَمَا تَرَكَ شَيْئاً مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا تَلَاهُ وَفَسَّرَهُ، وَلَا شَيْئاً مِمَّا قَالَهُ رَسُولُ
 اللَّهِ ﷺ فِي أَبِيهِ وَأَخِيهِ وَأُمَّهِ وَفِي نَفْسِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ إِلَّا رَوَاهُ، وَكُلَّ ذَلِكَ يَقُولُ الصَّحَابَةُ:
 اللَّهُمَّ نَعَمْ قَدْ سَمِعْنَا وَشَهِدْنَا، وَيَقُولُ التَّابِعِيُّ: اللَّهُمَّ قَدْ حَدَّثَنِي بِهِ مَنْ أُصَدِّقُهُ وَأَتَّمِنُهُ
 مِنَ الصَّحَابَةِ. فَقَالَ: أَنْشِدُكُمْ اللَّهَ إِلَّا حَدَّثْتُمْ بِهِ مَنْ تَثْقُونَ بِهِ وَبِدِينِهِ»^(٣).

رغم أن الكثير من الصحابة لديهم اطلاع تام على ما يتطابق ومضمون هذه
 الراوية حول فضائل أهل البيت عليهم السلام وأقروا به إلا أن ملاحظة مجريات الأحداث

(١) ابن بابويه، محمد بن علي، الأمالي: ص ٩١، حديث ٦٤.

(٢) الأمدى، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٣٤١، حديث ٧٠.

(٣) الهلالي، سليم بن قيس، كتاب سليم بن قيس الهلالي: ج ٢، ص ٧٨٩-٧٩٠.

التي وقعت بعد وفاة رسول الله ﷺ تشير إلى أن الإنسان أحياناً لا يعمل بعلمه.

ونقل عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أنه قال:

«سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: إِذَا سَمِعْتُمُ الْعِلْمَ فَاسْتَعْمِلُوهُ، وَتَسْبَعُ قُلُوبُكُمْ، فَإِنَّ الْعِلْمَ إِذَا كَثُرَ فِي قَلْبِ رَجُلٍ لَا يَحْتَمِلُهُ قَدَرُ الشَّيْطَانِ عَلَيْهِ، فَإِذَا خَاصَمَكُمُ الشَّيْطَانُ فَأَقْبِلُوا عَلَيْهِ بِمَا تَعْرِفُونَ، فَإِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا. فَقُلْتُ: وَمَا الَّذِي نَعْرِفُهُ؟ قَالَ: خَاصِمُوهُ بِمَا ظَهَرَ لَكُمْ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(١).

قال الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«إِنَّ رُؤَاةَ الْكِتَابِ كَثِيرٌ، وَإِنَّ رِعَاةَهُ قَلِيلٌ، وَكَمْ مِنْ مُسْتَنْصِحٍ لِلْحَدِيثِ مُسْتَعْشٍ لِلْكِتَابِ، فَالْعُلَمَاءُ يَحْزَمُهُمْ تَرْكُ الرَّعَايَةِ، وَالْجُهَالُ يَحْزَمُهُمْ حِفْظُ الرَّوَايَةِ، فَرَاعٌ يَرَعَى حَيَاتَهُ، وَرَاعٍ يَرَعَى هَلَكَتَهُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ اخْتَلَفَ الرَّاعِيَانِ وَتَغَايَرَ الْفَرِيقَانِ»^(٢).

الطائفة المشهورة بالعلم

خطب الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ قائلاً:

«ثُمَّ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْعِصَابَةُ عِصَابَةٌ بِالْعِلْمِ مَشْهُورَةٌ وَبِالْخَيْرِ مَذْكُورَةٌ وَبِالنَّصِيحَةِ مَعْرُوفَةٌ وَبِاللَّهِ فِي أَنْفُسِ النَّاسِ مَهَابَةٌ، يَهَابُكُمْ الشَّرِيفُ وَيُكْرِمُكُمْ الضَّعِيفُ وَيُؤْثِرُكُمْ مَنْ لَا فَضْلَ لَكُمْ عَلَيْهِ وَلَا يَدَ لَكُمْ عِنْدَهُ، تَشْفَعُونَ فِي الْحَوَائِجِ إِذَا امْتَنَعَتْ مِنْ طُلَابِهَا وَتَمْتَسُونَ فِي الطَّرِيقِ بِهَيْبَةِ الْمُلُوكِ وَكَرَامَةِ الْأَكَابِرِ، أَلَيْسَ كُلُّ ذَلِكَ إِنَّمَا نِلْتُمُوهُ بِمَا يُرْجَى عِنْدَكُمْ مِنَ الْقِيَامِ بِحَقِّ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُمْ عَنْ أَكْثَرِ حَقِّهِ تَقْصُرُونَ فَاسْتَحْفَفْتُمْ بِحَقِّ الْأَيْمَةِ، فَأَمَّا حَقُّ الضُّعَفَاءِ فَضَيَعْتُمْ وَأَمَّا حَقُّكُمْ بِزَعْمِكُمْ فَطَلَبْتُمْ، فَلَا مَالَ بَدَلْتُمُوهُ وَلَا نَفْسًا خَاطَرْتُمْ بِهَا لِلَّذِي خَلَقَهَا وَلَا عَشِيرَةً عَادَيْتُمُوهَا فِي ذَاتِ اللَّهِ، أَنْتُمْ تَتَمَنُونَ عَلَى اللَّهِ جَنَّتَهُ وَجَاوَرَةَ رُسُلِهِ وَأَمَانًا مِنْ عَذَابِهِ، لَقَدْ حَشِيتُ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمَتَمَنُونَ عَلَى اللَّهِ أَنْ تَحُلَّ بِكُمْ نِقْمَةٌ مِنْ نِقْمَاتِهِ؛ لِأَنَّكُمْ بَلَّغْتُمْ مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٤٥، حديث ٧.

(٢) المصدر السابق: ج ١، ص ٤٩، حديث ٦.

مَنْزِلَةٌ فَضَلْتُمْ بِهَا وَمَنْ يُعْرِفُ بِاللَّهِ لَا تُكْرِمُونَ وَأَنْتُمْ بِاللَّهِ فِي عِبَادِهِ تُكْرِمُونَ، وَقَدْ تَرَوْنَ عُهُودَ اللَّهِ مَنْقُوضَةً فَلَا تَفْزَعُونَ وَأَنْتُمْ لِبَعْضِ ذِمِّ آبَائِكُمْ تَفْزَعُونَ وَذِمَّةُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله مُحْتَقِرَةٌ وَالْعُمِّيُّ وَالْبَكْمُ وَالرَّزْمِيُّ فِي الْمَدَائِنِ مُهْمَلَةٌ لَا تُرْحَمُونَ وَلَا فِي مَنَزِلَتِكُمْ تَعْمَلُونَ وَلَا مَنْ عَمِلَ فِيهَا تُعِينُونَ وَبِالْإِذْهَانِ وَالْمَصَانِعَةِ عِنْدَ الظُّلْمَةِ تَأْمِنُونَ، كُلُّ ذَلِكَ مِمَّا أَمَرَكُمُ اللَّهُ بِهِ مِنَ النَّهْيِ وَالتَّنَاهِي وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ، وَأَنْتُمْ أَعْظَمَ النَّاسِ مُصِيبَةً لِمَا غَلِبْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ مَنَازِلِ الْعُلَمَاءِ لَوْ كُنْتُمْ تَشْعُرُونَ»^(١).

و«العصابة» تعني الجماعة، ويتضح من خلال خطاب الإمام عليه السلام أن هناك طائفة من الناس اشتهرت بالعلم وعرفت به رغم أن أفرادها لم يكونوا من أهل العمل بكل ما علموا به وتعلموه.

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«كَفَى بِالْعَالِمِ جَهْلًا أَنْ يُنَافِيَ عِلْمَهُ عَمَلَهُ»^(٢).

عن المسيح عيسى عليه السلام روي قوله:

«وَيْلَكُمْ عُلَمَاءَ السَّوَاءِ، الْأَجْرَةَ تَأْخُذُونَ وَالْعَمَلَ لَا تَصْنَعُونَ! يُوشِكُ رَبُّ الْعَمَلِ أَنْ يَطْلُبَ عَمَلَهُ، وَيُوشِكُ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ الدُّنْيَا إِلَى ظُلْمَةِ الْقَبْرِ، كَيْفَ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَنْ مَصِيرُهُ إِلَى آخِرَتِهِ وَهُوَ مُقْبَلٌ عَلَى دُنْيَاهُ، وَمَا يَضُرُّهُ أَشْهَى إِلَيْهِ مِمَّا يَنْفَعُهُ؟!»^(٣).

العلماء الذين يكرمهم الضعفاء

عند تسليط الضوء على ما ورد في خطاب الإمام الحسين عليه السلام يتبين لنا أن هناك من نال هيبة بين الناس لزعمة الارتباط بالله سبحانه، فتوافد الضعفاء على إكرامه وتبجيله.

(١) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٣٧-٢٣٨.

(٢) الأمدى، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٥٢٢، حديث ٥٦.

(٣) الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي: ص ٢٠٨، حديث ٣٥٦.

قال الإمام السجاد عليه السلام:

«...إِيَّاكَ أَنْ تَرْتَايَسَ بِنَا فَيَضَعَكَ اللَّهُ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَسْتَأْكِلَ بِنَا فَيَزِيدَكَ اللَّهُ فَقْرًا»^(١).

عدم أداء بعض العلماء للكثير من الحقوق الإلهية

عوداً للحديث السابق للإمام الحسين عليه السلام وبدقة إلى ذيل خطابه، سنلاحظ أن الإمام يشير إلى حال بعض من اشتهر بالعلم وصار يلوح باسمه بالخير والذكر الطيب نتيجة ادعائه القرب من الله والارتباط بأوليائه وأتهم في الحقيقة لم يؤدوا الكثير من حقوق الله تعالى.

قال أبو جعفر عليه السلام:

«الْعُلَمَاءُ فِي أَنْفُسِهِمْ خَانَةٌ إِنْ كَتَمُوا النَّصِيحَةَ، إِنْ رَأَوْا تَائِهًا ضَالًّا لَا يَهْدُونَهُ أَوْ مَيِّتًا لَا يُحْيُونَهُ، فَبَسَّ مَا يَصْنَعُونَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ فِي الْكِتَابِ أَنْ يَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَنْ يَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَلَا يَتَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ»^(٢).

خشية الأولياء من أمانى العلماء التي في غير محلها

إذا ما تأملنا في عبارة الإمام الحسين عليه السلام «لَقَدْ خَشِيتُ...» الواردة في الحديث المتقدم، مع ملاحظة السياق الذي جاءت ضمنه، يتضح أن أولياء الله سبحانه ومن بينهم الإمام الحسين عليه السلام يخشون على أولئك الذي اشتهروا بالعلم وحب الخير والارتباط بالله تعالى أن تحل بهم نقمة الله ويشملهم عذابه، بسبب تقصيرهم في أداء الحقوق الإلهية واستخفافهم بحق الأئمة وتضييعهم حقوق المستضعفين، فلم يبذلوا مالاً ولم يخاطروا بالنفس جهاداً في سبيل الله ولم يعادوا عشيرة في ذات الله؛

(١) الطوسي، محمد بن الحسن، اختيار معرفة الرجال المعروف برجال الكشي: ص ١٢٤،

حديث ١٩٦.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٨، ص ٥٤.

لأن هذه الأمور من مسببات حلول العذاب ونزوله.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«وَيْلٌ لِلَّذِينَ يَجْتَلِبُونَ الدُّنْيَا بِالدِّينِ، يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ جُلُودَ الضَّأْنِ مِنْ لَيْنِ أَلْسِنَتِهِمْ، كَلَامُهُمْ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذَّنَابِ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَبِي يَعْتَرُونَ، أَمْ عَلِيٌّ يَجْتَرُونَ؟ فَوَعَزَّتِي وَجَلَالِي، لَا بَعَثَنَّا عَلَيْهِمْ فِتْنَةً تَدْرُ الْحَلِيمَ مِنْهُمْ حَيْرَانَ»^(١).

العلماء بالله

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه خطب قائلاً:

«بِجَارِي الْأُمُورِ وَالْأَحْكَامِ عَلَى أَيْدِي الْعُلَمَاءِ بِاللَّهِ الْأُمْنَاءِ عَلَى حَلَالِهِ وَحَرَامِهِ»^(٢).
فيتحصل من قيد «الْعُلَمَاءِ بِاللَّهِ» أن بعض العلماء إلهيون ويعملون بما أمر الله به.
قال الإمام الصادق عليه السلام:

«إِنَّ أَعْلَمَ النَّاسِ بِاللَّهِ أَخْوَفُهُمْ لِلَّهِ، وَأَخْوَفُهُمْ لَهُ أَعْلَمُهُمْ بِهِ، وَأَعْلَمُهُمْ بِهِ أَرْهَدُهُمْ فِيهَا»^(٣).

العلماء بالله أمناء على حلاله وحرامه

يتبين لنا أيضاً من كلام الإمام السابق أن العلماء بالله هم أمناءه على أحكامه وحلاله وحرامه.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ بِالْجَنَّةِ: بَرِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ الْعِجْلِيُّ وَأَبُو بَصِيرٍ لَيْثُ بْنُ الْبُخَيْرِيِّ الْمَرَادِيُّ وَ مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمٍ وَ زُرَّارَةُ، أَرْبَعَةٌ نُجَبَاءُ أُمْنَاءِ اللَّهِ عَلَى حَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، لَوْلَا هَؤُلَاءِ انْقَطَعَتْ آثَارُ النَّبُوَّةِ وَانْدَرَسَتْ»^(٤).

(١) الديلمي، الحسن بن محمد، أعلام الدين في صفات المؤمنين: ص ٢٩٥.

(٢) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٣٨.

(٣) القمي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي: ٢، ص ١٤٦.

(٤) الطوسي، محمد بن الحسن، اختيار معرفة الرجال المعروف برجال الكشي: ص ١٧٠،

حديث ٢٨٦.

يعزل العلماء عن مرجعيتهم السياسية أحياناً

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال في إحدى خطبه:
 «مَجَارِي الْأُمُورِ وَالْأَحْكَامِ عَلَى أَيْدِي الْعُلَمَاءِ بِاللهِ الْأَمْنَاءِ عَلَى حَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، فَانْتُمْ
 الْمَسْلُوبُونَ تِلْكَ الْمَنْزِلَةَ، وَمَا سُلِّتُمْ ذَلِكَ إِلَّا بِتَفَرُّقِكُمْ عَنِ الْحَقِّ وَاخْتِلَافِكُمْ فِي السُّنَّةِ بَعْدَ
 الْبَيِّنَةِ الْوَاضِحَةِ»^(١).

يدل كلام الإمام على أن العلماء متى فارقوا الحق واختلّفوا في السنّة الواضحة،
 سيسلبون مرجعيتهم السياسية ورياسة تدبير أمور الناس، وذلك يبدو من افتتاح
 الإمام كلامه بعبارة «مَجَارِي الْأُمُورِ».

قال المسيح عيسى عليه السلام:
 «كَيْفَ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَنْ هُوَ فِي مَسِيرِهِ إِلَى آخِرَتِهِ وَهُوَ مُقْبِلٌ عَلَى دُنْيَاهُ، وَمَا
 يَضُرُّهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِمَّا يَنْفَعُهُ؟!»^(٢).

يعزل العلماء عن مرجعيتهم العلمية أحياناً

يأتي الكلام هنا كما تقدّم في العنوان السابق فإنّ العلماء قد يسلبهم الله
 مرجعيتهم الدينية والعلمية بسبب تفرّقهم واختلافهم في السنّة البيّنة بعد
 وضوحها، ويفهم ذلك من عبارة الإمام التي افتتح بها الكلام وهي قوله: «مَجَارِي
 الْأُمُورِ».

قال المسيح عيسى عليه السلام:
 «كَيْفَ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَنْ يَطْلُبُ الْكَلَامَ لِيُخْبِرَ بِهِ، وَلَا يَطْلُبُ لِيَعْمَلَ بِهِ؟!»^(٣).

(١) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٣٨.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٣١٩، حديث ١٣.

(٣) الشهيد الثاني، زين الدين بن علي، منية المرید في أدب المفيد والمستفيد: ص ١٤١.

وجوب الصبر على الأذى من قبل العلماء بالله

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال في إحدى خطبه:

«مَجَارِي الْأُمُورِ وَالْأَحْكَامِ عَلَى أَيْدِي الْعُلَمَاءِ بِاللَّهِ الْأَمْنَاءِ عَلَى حَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، فَأَنْتُمْ الْمَسْلُوبُونَ تِلْكَ الْمَنْزِلَةَ، وَمَا سُلِبْتُمْ ذَلِكَ إِلَّا بِتَفَرُّقِكُمْ عَنِ الْحَقِّ وَاخْتِلَافِكُمْ فِي السُّنَّةِ بَعْدَ الْبَيْتَةِ الْوَاضِحَةِ، وَلَوْ صَبَرْتُمْ عَلَى الْأَذَى وَتَحَمَّلْتُمُ الْمَوْوَنَةَ فِي ذَاتِ اللَّهِ كَانَتْ أُمُورُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ تَرْدٌ وَعَنْكُمْ تَصْدُرٌ وَإِلَيْكُمْ تَرْجِعٌ»^(١).

يستفاد من جملة «وَلَوْ صَبَرْتُمْ عَلَى الْأَذَى...» أن هناك أذى وضرراً سيلحق بالعلماء من قبل الناس وعلى العلماء التحلي بالصبر والأناة.

قال الله سبحانه:

﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَوُذُوا حَتَّىٰ أَنهَضْنَا نَصْرَنَا﴾^(٢).

وقال تعالى على لسان أنبيائه عليهم السلام:

﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾^(٣).

يسلم العلماء الأمور الإلهية للحكام الظلمة أحياناً

روي عن الإمام الحسين عليه السلام قوله في إحدى خطبه:

«مَجَارِي الْأُمُورِ وَالْأَحْكَامِ عَلَى أَيْدِي الْعُلَمَاءِ بِاللَّهِ الْأَمْنَاءِ عَلَى حَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، فَأَنْتُمْ الْمَسْلُوبُونَ تِلْكَ الْمَنْزِلَةَ، وَمَا سُلِبْتُمْ ذَلِكَ إِلَّا بِتَفَرُّقِكُمْ عَنِ الْحَقِّ وَاخْتِلَافِكُمْ فِي السُّنَّةِ بَعْدَ الْبَيْتَةِ الْوَاضِحَةِ، وَلَوْ صَبَرْتُمْ عَلَى الْأَذَى وَتَحَمَّلْتُمُ الْمَوْوَنَةَ فِي ذَاتِ اللَّهِ كَانَتْ أُمُورُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ تَرْدٌ وَعَنْكُمْ تَصْدُرٌ وَإِلَيْكُمْ تَرْجِعٌ»^(١).

(١) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٣٨.

(٢) الأنعام: آية ٣٤.

(٣) إبراهيم: آية ١٢.

عَلَيْكُمْ تَرُدُّ وَعَنْكُمْ تَصُدُّرُ وَإِلَيْكُمْ تَرْجِعُ، وَلَكِنَّكُمْ مَكْتَتُمُ الظَّلْمَةَ مِنْ مَنْزِلَتِكُمْ
وَاسْتَسَلَّمْتُمْ أُمُورَ اللَّهِ فِي أَيْدِيهِمْ، يَعْمَلُونَ بِالشُّبُهَاتِ وَيَسِيرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ، سَلَّطَهُمْ
عَلَى ذَلِكَ فِرَارُكُمْ مِنَ الْمَوْتِ وَإِعْجَابُكُمْ بِالْحَيَاةِ الَّتِي هِيَ مُفَارِقَتُكُمْ، فَأَسَلَّمْتُمْ الضُّعْفَاءَ
فِي أَيْدِيهِمْ فَمَنْ بَيْنَ مُسْتَعْبِدٍ مَقْهُورٍ وَبَيْنَ مُسْتَضْعَفٍ عَلَى مَعِيشَتِهِ مَغْلُوبٍ، يَتَقَلَّبُونَ فِي
الْمُلْكِ بَارَائِهِمْ وَيَسْتَشْعِرُونَ الْخِزْيَ بِأَهْوَائِهِمْ أَقْتِدَاءً بِالْأَشْرَارِ وَجُرْأَةً عَلَى الْجَبَّارِ، فِي كُلِّ
بَلَدٍ مِنْهُمْ عَلَى مِثْرِهِ خَطِيبٌ يَضْفَعُ، فَأَلْأَرْضُ لَهُمْ شَاغِرَةٌ وَأَيْدِيهِمْ فِيهَا مَبْسُوطَةٌ وَالنَّاسُ
لَهُمْ حَوْلٌ لَا يَدْفَعُونَ يَدَ لَامِسٍ، فَمَنْ بَيْنَ جَبَّارٍ عَنِيدٍ وَذِي سَطْوَةٍ عَلَى الضَّعْفَةِ شَدِيدٍ،
مُطَاعٌ لَا يَعْرِفُ الْمُبْدِيَّ الْمَعِيدَ. فَيَا عَجَبًا وَمَا لِي لَا أَعْجَبُ وَالْأَرْضُ مِنْ عَاشٍ غَشُومٍ
وَمُتَّصِدِّ ظُلُومٍ وَعَامِلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ غَيْرِ رَحِيمٍ، فَاللَّهُ الْحَاكِمُ فِيهَا فِيهِ تَنَازَعْنَا
وَالْقَاضِي بِحُكْمِهِ فِيهَا شَجَرَ بَيْنَنَا»^(١).

فتدلنا عبارة الإمام «وَاسْتَسَلَّمْتُمْ أُمُورَ اللَّهِ فِي أَيْدِيهِمْ» على أن بعض العلماء أحياناً
يمكنون الظلمة من أمور الله ويسلمونها لهم؛ وذلك لعدم اصطبارهم على أذى الظلمة
وإساءتهم، علاوة على تخليهم عن مسؤولياتهم الملقاة على عاتقهم تجاه أمور الله جل
وعلا التي يلزمهم القيام بها بأحسن صورة وعدم ترك مقاليدها بيد الظلمة.

قال رسول الله ﷺ:

«الْفُقَهَاءُ أُمَّتَاءُ الرُّسُلِ مَا لَمْ يَدْخُلُوا فِي الدُّنْيَا. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا دُخُوهُمْ فِي
الدُّنْيَا؟ قَالَ: اتِّبَاعُ السُّلْطَانِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ، فَاحْذَرُوهُمْ عَلَى دِينِكُمْ»^(٢).

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«مَلْعُونٌ مَلْعُونٌ عَالِمٌ يَوْمٌ سُلْطَانًا جَائِرًا، مُعِينًا لَهُ عَلَى جَوْرِهِ»^(٣).

(١) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٣٨-٢٣٩.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٤٦، حديث ٥.

(٣) الكراجكي، محمد بن علي، كنز الفوائد: ج ١، ص ١٥٠.

آفات فرار العلماء من الموت

يتبين من المدلول التضمني لجملة «سَلَطَهُمْ عَلَى ذَلِكَ فِرَارُكُمْ مِنَ الْمَوْتِ» أَنَّ بعض العلماء أحياناً يمهدون الأرضية لتسلط الظلمة وتمكينهم من أمور الله بفرارهم من الموت، وهذا ما يستتبع الآفات التي تقدم ذكرها آنفاً.

روي عن المسيح عليه السلام أنه قال:

«كَيْفَ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَنْ دُنِيَاهُ عِنْدَهُ أَثَرٌ مِنْ آخِرَتِهِ وَهُوَ مُقْبِلٌ عَلَى دُنْيَاهُ، وَمَا يَضُرُّهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِمَّا يَنْفَعُهُ؟!»^(١).

وقال السيد جمال الدين الأسد آبادي:

«ينبغي أن يكون أبناء الملة الإسلامية بمقتضى أصول دينهم أبعد الناس عن هذه الصفة الرديئة (الجبين)، فإنها أشد الموانع عن أداء ما يرضي الله وأنهم لا يبتغون إلا رضاه. يعلم قرّاء القرآن أن الله قد جعل حب الموت علامة الإيثار، وامتنحن الله به قلوب المعاندين، ويقول في ذم من ليسوا بمؤمنين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُوا أَيَدِيكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾^(٢). الإقدام في سبيل الحق، وبذل الأموال والأرواح في إعلاء كلمته أو سمة يتسم بها المؤمنون، لم يكتف الكتاب الإلهي بأن تقام الصلاة وتؤتى الزكاة وتكف الأيدي، وعد ذلك مما يشترك فيه المؤمنون والكافرون والمنافقون، بل جعل الدليل الفرد هو بذل الروح في إعلاء كلمة الحق والعدل الإلهي، بل عدّه الركن الوحيد الذي لا يعتدّ بغيره عند فقده، لا يظن ظان أنه يمكن الجمع بين الدين الإسلامي وبين الجبن في قلب واحد، كيف يمكن هذا وكلّ

(١) الشهيد الثاني، زين الدين بن علي، منية المريد في أدب المفيد والمستفيد: ص ١٤١.

(٢) النساء: آية ٧٧.

جزء من هذا الدين يمثّل الشجاعة ويصوّر الإقدام، وأنّ عماده الإخلاص لله والتخلي عن جميع ما سواه لاستحصال رضاه؟! عن جميع ما سواه لاستحصال رضاه؟!

المؤمن من يوقن أنّ الآجال بيد الله يصرّفها كيف يشاء ولا يفيد التباطؤ عن أداء الفروض زيادة في الأجل، ولا ينقصه الإقدام دقيقة منه، المؤمن من لا ينتظر بنفسه إلاّ إحدى الحسنين: إمّا أن يعيش سيّداً عزيزاً، وإمّا أن يموت مقرباً سعيداً، وتصعد روحه إلى أعلى عليين، ويلتحق بالكروبيين والملائكة المقربين.

من يتوهم أنّه يجمع بين الجبن وبين الإيمان بما جاء به محمّد (صلى الله عليه وسلم)، فقد غش نفسه وغرر بعقله ولعب به هوسه وهو ليس من الإيمان في شيء. كلّ آية من القرآن تشهد على الجبان بكسبه في دعوى الإيمان، لهذا نؤمل من ورثة الأنبياء أن يصدعوا بالحق، ويذكروا بآيات الله، وما أودع الله فيها من الأمر بالإقدام لإعلاء كلمته، والنهي عن التباطؤ والتقاعد في أداء ما أوجب الله من ذلك، وفي الظن أنّ العلماء لو قاموا بهذه الفريضة (الأمر بذاك المعروف والنهي عن هذا المنكر) زمنّاً قليلاً ووعظوا الكافة بتبيين معاني القرآن الشريف وإحيائها في أنفس المؤمنين رأينا لذلك أثراً في هذه الملة يبقى ذكره أبد الدهر، وشهدنا لها يوماً تسترجع فيه مجدها في هذه الدنيا وهو مجد الله الأكبر، فالمؤمنون بما ورثوا عن أسلافهم وبما تمكن في أفئدتهم من آثار العقائد لا يحتاجون إلاّ لقليل من التنبيه، ويسير من التذكير، فينهضون نهضة الأسود فيستردوا مفقوداً ويحفظوا موجوداً، وينالوا عند الله مقاماً محموداً^(١).



(١) الحسيني الأفغاني، جمال الدين، عبده، محمّد، العروة الوثقى، الآثار الكاملة: ج ١، ص ٢٢٥-٢٢٦.

آفات تعلق العلماء بالدنيا

عند ملاحظة قول الإمام الحسين عليه السلام: «وَإِعْجَابُكُمْ بِالْحَيَاةِ الَّتِي هِيَ مُفَارِقَتُكُمْ» نجده يكشف لنا عما تسبب به تعلق بعض العلماء بالدنيا وشغفهم بها من الأخطار والآفات المتقدمة الذكر.

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«إِذَا رَأَيْتُمُ الْعَالِمَ مُجَبَّاً لِدُنْيَاهُ فَاتِّمَمُوهُ عَلَى دِينِكُمْ، فَإِنَّ كُلَّ مُحِبِّ لِسْنِيءٍ يَحُوطُ مَا أَحَبَّ»^(١).

وروي عن المسيح عليه السلام أنه قال:

«الدِّينَارُ دَاءُ الدِّينِ، وَالْعَالِمُ طَيْبُ الدِّينِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُ الطَّيِّبَ يَجُرُّ الدَّاءَ إِلَى نَفْسِهِ فَاتِّمَمُوهُ، وَعَلِمُوا أَنَّهُ غَيْرُ نَاصِحٍ لِعَيْرِهِ»^(٢).

تهاون بعض العلماء تجاه مفسد الحكام الظلمة

يتأتى للمتأمل في قول الإمام الحسين عليه السلام: «وَيَسْتَشْعِرُونَ الْخِزْيَ بِأَهْوَائِهِمْ» وسياقه أن بعض العلماء ينسب لهم التقصير عندما نلاحظ انتشار وسطوة الحكام الظلمة ومفسدهم؛ لأنهم ما قاموا بمهامهم بالصورة الصحيحة، فما اضطربوا على أذاهم ولم يتحملوا المسؤولية الإلهية تجاه أفعالهم.

قال الله جل وعلا:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾^(٣).

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٤٦، حديث ٤.

(٢) ابن بابويه، محمد بن علي، الخصال: ج ١، ص ١١٣.

(٣) النساء: آية ٥١-٥٢.

وعاظ البلاط

يتضح هذا المعنى من قول الإمام الحسين عليه السلام: «في كُلِّ بَلَدٍ مِنْهُمْ عَلَى مِنْبَرِهِ حَاطِبٌ يَصْقَعُ»، حيث يشير إلى دور وعاظ السلاطين الذين يسوقون الكلام، حيث يلوون عنقه ليصب في خدمة الظلمة ومصالحهم.

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«وَإِنَّمَا أَتَاكَ بِالْحَدِيثِ أَرْبَعَةٌ رِجَالٍ لَيْسَ لَهُمْ خَامِسٌ: رَجُلٌ مُتَأَفِّقٌ مُظْهِرٌ لِلْإِيمَانِ مُتَصَنِّعٌ بِالْإِسْلَامِ لَا يَتَأَنَّمُ وَلَا يَتَحَرَّجُ، يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَعَمِّدًا، فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّهُ مُتَأَفِّقٌ كَاذِبٌ لَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ وَلَمْ يُصَدِّقُوا قَوْلَهُ، وَلَكِنَّهُمْ قَالُوا: صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَاهُ وَسَمِعَ مِنْهُ وَلَقِفَ عَنْهُ، فَيَأْخُذُونَ بِقَوْلِهِ، وَقَدْ أَخْبَرَكَ اللَّهُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِمَا أَخْبَرَكَ، وَوَصَفَهُمْ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ لَكَ، ثُمَّ بَقُوا بَعْدَهُ فَتَقَرَّبُوا إِلَى أَيْمَةِ الضَّلَالَةِ وَالِدُّعَاةِ إِلَى النَّارِ بِالزُّورِ وَالْبُهْتَانِ، فَوَلَّوهُمْ الْأَعْمَالَ وَجَعَلُوهُمْ حُكَّامًا عَلَى رِقَابِ النَّاسِ، فَأَكَلُوا بِهِمُ الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا النَّاسُ مَعَ الْمُلُوكِ وَالدُّنْيَا إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ، فَهَذَا أَحَدُ الْأَرْبَعَةِ...»^(١).

أثر تهاون بعض العلماء في تسلط الحكام الظلمة

يدلنا تفريع قول الإمام: «فَمِنْ بَيْنِ جَبَّارٍ عَنِيدٍ...» على ما قبله أن مواقف بعض العلماء - كعدم صبرهم وتحملهم لأذى الحكام الظلمة ومضايقاتهم وتخليهم عن مسؤولياتهم تجاه أوامر الله سبحانه وسبيله - كان لها أثر بالغ في ظهور الحكام المتعسفين العصاة الغافلين وتسلطهم على المستضعفين.

قال الإمام السجاد عليه السلام في رسالة لمحمد بن مسلم الزهري:

«...فَانظُرْ أَيَّ رَجُلٍ تَكُونُ غَدًا إِذَا وَقَفْتَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ فَسَأَلَكَ عَنْ نِعْمِهِ عَلَيْكَ كَيْفَ رَعَيْتَهَا وَعَنْ حُجِّجِهِ عَلَيْكَ كَيْفَ قَضَيْتَهَا، وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ قَابِلًا مِنْكَ بِالْعُذِيرِ وَلَا

رَاضِيًا مِنْكَ بِالتَّقْصِيرِ، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لَيْسَ كَذَلِكَ، أَخَذَ عَلَى الْعُلَمَاءِ فِي كِتَابِهِ إِذْ قَالَ: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾، وَاَعْلَمُ أَنَّ أَدْنَى مَا كَتَمْتَ وَأَخْفَّ مَا احْتَمَلْتَ أَنْ آتَسْتَ وَحَشَةَ الظَّالِمِ وَسَهَلْتَ لَهُ طَرِيقَ الْغِيِّ بِدُنُوكَ مِنْهُ حِينَ دَنَوْتَ وَإِجَابَتِكَ لَهُ حِينَ دُعِيتَ، فَمَا أَخَوْفَنِي أَنْ تَكُونَ تَبُوءَ بِإِثْمِكَ عَدَاءً مَعَ الْخَوْنَةِ، وَأَنْ تُسْأَلَ عَمَّا أَخَذْتَ بِإِعَانَتِكَ عَلَى ظَلَمِ الظَّالِمَةِ، إِنَّكَ أَخَذْتَ مَا لَيْسَ لَكَ مِنْ أَعْطَاكَ، وَدَنَوْتَ مِنْ مَنْ لَمْ يَرُدَّ عَلَى أَحَدٍ حَقًّا وَلَمْ تَرُدَّ بَاطِلًا حِينَ أَذْنَاكَ. وَأَحْبَبْتَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ أَوْ لَيْسَ بِدُعَائِهِ إِيَّاكَ حِينَ دَعَاكَ جَعَلُوكَ قُطْبًا أَذَارُوا بِكَ رَحَى مَظَالِمِهِمْ وَجِسْرًا يَعْبُرُونَ عَلَيْكَ إِلَى بَلَايَاهُمْ وَسَلَّمًا إِلَى صَلَاتِهِمْ، دَاعِيًا إِلَى غِيِّهِمْ، سَالِكًا سَبِيلَهُمْ، يُدْخِلُونَ بِكَ الشَّكَّ عَلَى الْعُلَمَاءِ وَيَقْتَادُونَ بِكَ قُلُوبَ الْجَهَالِ إِلَيْهِمْ، فَلَمْ يَبْلُغْ أَحْصُ وَرَرَائِهِمْ وَلَا أَقْوَى أَعْوَانِهِمْ إِلَّا دُونَ مَا بَلَغْتَ مِنْ إِصْلَاحِ فَسَادِهِمْ وَاخْتِلَافِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ إِلَيْهِمْ، فَمَا أَقَلَّ مَا أَعْطُوكَ فِي قَدْرِ مَا أَخَذُوا مِنْكَ، وَمَا أَيْسَرَ مَا عَمَرُوا لَكَ، فَكَيْفَ مَا حَرَّبُوا عَلَيْكَ. فَانظُرْ لِنَفْسِكَ فَإِنَّهُ لَا يَنْظُرُ لَهَا غَيْرُكَ وَحَاسِبَهَا حِسَابَ رَجُلٍ مَسْئُولٍ...»^(١).

قائمة بمهام القادة الدينيين

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه خطب قائلاً:

«اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَا كَانَ مِنَّا تَنَافُسًا فِي سُلْطَانٍ وَلَا التَّيَاسًا مِنْ فُضُولِ الْحَطَامِ، وَلَكِنْ لِنُرِيَ الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ وَنُظْهِرَ الْإِصْلَاحَ فِي بِلَادِكَ وَيَأْمَنَ الْمُظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ وَيَعْمَلَ بِفَرَائِضِكَ وَسُنَنِكَ وَأَحْكَامِكَ، فَإِنْ لَمْ تَنْصُرْنَا وَتَنْصِفُنَا قَوِي الظَّالِمَةَ عَلَيْنَا وَعَمِلُوا فِي إِطْفَاءِ نُورِ نَبِيِّكُمْ. وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْهِ أُنَبْنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ»^(٢).

(١) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٧٥-٢٧٦.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٣٩.

يستعرض لنا هذا المقطع من الخطبة مجموعة من مهام قادة الدين، وهي عبارة عن:

١. إظهار معالم الدين للناس

قال الإمام علي عليه السلام:

«فَإِذَا أَدَّتْ الرَّعِيَّةُ إِلَى الْوَالِي حَقَّهُ، وَآدَى الْوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا، عَزَّ الْحَقُّ بَيْنَهُمْ، وَقَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ، وَاعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ، وَجَرَتْ عَلَى أَذْلَالِهَا السُّنَنُ، فَصَلَحَ بِذَلِكَ الزَّمَانُ، وَطَمَعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ، وَيَسَّتَ مَطَامِعُ الْأَعْدَاءِ»^(١).

٢. إظهار الإصلاح في البلاد

جاء في نهج البلاغة:

«قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: دَخَلْتُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام بِذِي قَارٍ وَهُوَ يَخْصِفُ نَعْلَهُ، فَقَالَ لِي: مَا قِيمَةُ هَذَا النَّعْلِ؟ فَقُلْتُ: لَا قِيمَةَ لَهَا، فَقَالَ عليه السلام: وَاللَّهِ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِمْرَتِكُمْ إِلَّا أَنْ أُقِيمَ حَقًّا أَوْ أَدْفَعَ بَاطِلًا»^(٢).

٣. توفير الأمن لعباد الله

قال الإمام علي عليه السلام:

«فَالْجُنُودُ بِإِذْنِ اللَّهِ حُصُونُ الرَّعِيَّةِ، وَرَيْنُ الْوُلَاةِ، وَعِزُّ الدِّينِ، وَسُبُلُ الْأَمْنِ، وَلَيْسَ تَقْوَمُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِهِمْ، ثُمَّ لَا قِوَامَ لِلْجُنُودِ إِلَّا بِمَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ الَّذِي يَقْوُونَ بِهِ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يُصَلِّحُهُمْ وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ»^(٣).

(١) نهج البلاغة: خطبة ٢١٦.

(٢) المصدر السابق: خطبة ٣٣.

(٣) المصدر السابق: رسالة ٥٣.

٤. العمل بالفرائض والسنن الإلهية

قال الإمام علي عليه السلام:

«فَلَمَّا أَفْضَتْ إِلَيَّ نَظَرْتُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَمَا وَضَعَ لَنَا وَأَمَرَنَا بِالْحُكْمِ بِهِ فَاتَّبَعْتُهُ، وَمَا اسْتَنَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَافْتَدَيْتُهُ»^(١).

مهمة الأولياء في الدعوة إلى سبيل الرشاد

نقل الخوارزمي بإسناده عن عبدالله بن الحسن أنه قال:

«لَمَّا عَبَأَ عُمَرُ بْنُ سَعْدٍ أَصْحَابَهُ لِمُحَارَبَةِ الْحُسَيْنِ عليه السلام، وَرَتَّبَهُمْ فِي مَرَاتِبِهِمْ، وَأَقَامَ الرَّايَاتِ فِي مَوَاضِعِهَا، وَعَبَأَ الْحُسَيْنُ أَصْحَابَهُ فِي الْمَيْمَنَةِ وَالْمِيسَرَةِ، فَأَحَاطُوا بِالْحُسَيْنِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ حَتَّى جَعَلُوهُ فِي مِثْلِ الْحَلْقَةِ، خَرَجَ الْحُسَيْنُ مِنْ أَصْحَابِهِ حَتَّى آتَى النَّاسَ فَاسْتَنْصَتَهُمْ فَأَبَوْا أَنْ يُنْصِتُوا، فَقَالَ لَهُمْ: وَيْلَكُمْ! مَا عَلَيْكُمْ أَنْ تُنْصِتُوا إِلَيَّ، فَتَسْمَعُوا قَوْلِي، وَإِنَّمَا أَدْعُوكُمْ إِلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ...»^(٢).

حيث تشير عبارة «وَإِنَّمَا أَدْعُوكُمْ إِلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ» إلى تحمّل الأولياء الإلهيين دعوة الناس لسبل الهداية والرشد والتكامل، ويساعدون عباد الله في مواصلة مسيرهم هذا.

قال الله تعالى:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٣).

(١) المصدر السابق: خطبة ٢٠٥.

(٢) أخطب خوارزم، الموفق بن أحمد، مقتل الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ٩٨.

(٣) النحل: آية ١٢٥.

إمكان إصابة العالم بالعجب

قال الإمام الحسين عليه السلام:

«لَوْ أَنَّ الْعَالِمَ كُلَّ مَا قَالَ أَحْسَنَ وَأَصَابَ، لَأَوْشَكَ أَنْ يُجَنَّ مِنَ الْعُجْبِ، وَإِنَّمَا الْعَالِمُ مَنْ يَكْثُرُ صَوَابُهُ»^(١).

يشير المدلول التضمني لهذا الحديث إلى إمكان إصابة العلماء بحالة العجب في بعض الأحيان، وذلك عندما تلازم الصحة والإصابة أقواله دائماً.

وروي عن الإمام علي عليه السلام أنه قال:

«حَسْبُكَ مِنَ الْعِلْمِ أَنْ تَخْشَى اللَّهَ، وَحَسْبُكَ مِنَ الْجَهْلِ أَنْ تُعْجَبَ بِعِلْمِكَ»^(٢).

أثر العجب في العالم

يستفاد كذلك مما ورد في الحديث السابق عن الإمام الحسين عليه السلام أنه كلما كانت أقوال العالم وكلماته صحيحة مطابقة للواقع تهيأت الأرضية للإصابة بالعجب، ثم يلبس على عقله فيتشكل حجاب يمنعه من التعقل الصحيح.

قال الإمام علي عليه السلام:

«الْعُجْبُ حَقٌّ»^(٣).

روي عن السيد المسيح عليه السلام أنه قال:

«الدِّينَارُ دَاءٌ الدِّينِ، وَالْعَالِمُ طَبِيبُ الدِّينِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُ الطَّبِيبَ يَجْرُ الدَّاءَ إِلَى نَفْسِهِ فَاتَّهَمُوهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ غَيْرُ نَاصِحٍ لِعَيرِهِ»^(٤).

(١) الراغب الإصفهاني، الحسين بن محمد، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء: ج ١، ص ٧٢.

(٢) الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي: ص ٥٦، حديث ٧٨.

(٣) الأمدى، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ١٩، حديث ٨٣.

(٤) ابن بابويه، محمد بن علي، الخصال: ج ١، ص ١١٣.

معنى العالم

من خلال ما جاء في العبارة التي ختم بها الإمام الحسين عليه السلام حديثه السابق، يتبين لنا أنّ كل شخص كان صوابه كثيراً يطلق عليه عالم، وإن كان يقع في الخطأ أحياناً.

لهذا ورد في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام قوله:
 «أشدُّ النَّاسِ عَدَاباً عَالِمٌ لَا يَنْتَفِعُ مِنْ عِلْمِهِ بِشَيْءٍ»^(١).
 ومن المعلوم لدينا أنّ النكرة في سياق النفي تفيد العموم.

الفرق بين العالم والمعصوم

عند التأمل في الحديث المتقدم للإمام الحسين عليه السلام نستنتج أنّ الفرق بين العالم والمعصوم يكمن في أنّ المعصوم لا يخطأ أبداً بينما العالم صوابه أكثر من خطئه.
 روي عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال:

«وَالْإِمَامُ الْمُسْتَحَقُّ لِلْإِمَامَةِ لَهُ عِلْمَاتٌ فَمِنْهَا: ...الخَامِسُ: الْعِصْمَةُ مِنْ جَمِيعِ الذُّنُوبِ، وَبِذَلِكَ يَتَمَيَّزُ عَنِ الْمَأْمُومِينَ الَّذِينَ هُمْ غَيْرُ مَعْصُومِينَ؛ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مَعْصُوماً لَمْ يُؤْمَنْ عَلَيْهِ أَنْ يَدْخُلَ فِيهَا يَدْخُلُ النَّاسُ فِيهِ مِنْ مُوبِقَاتِ الذُّنُوبِ الْمُهْلِكَاتِ وَالشَّهَوَاتِ وَاللَّذَاتِ...»^(٢).

المكانة الرفيعة لعلم الدين

نقل ابن شهر آشوب:

«وَقِيلَ: إِنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ عَلَّمَ وَلَدَ الْحُسَيْنِ الْحَمْدُ، فَلَمَّا قَرَأَهَا عَلَى أَبِيهِ أَعْطَاهُ

(١) المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: ج ٢، ص ٣٧، حديث ٥٣.

(٢) المصدر السابق: ج ٢٥، ص ١٦٤-١٦٥، حديث ٣٣.

أَلْفَ دِينَارٍ وَأَلْفَ حُلَّةٍ وَحَشَا فَأَهْ دُرًّا. فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، قَالَ: وَأَيْنَ يَقَعُ هَذَا مِنْ عَطَائِهِ؟!
يَعْنِي تَعْلِيمَهُ. وَأَنْشَدَ الْحَسِينُ عليه السلام:

إِذَا جَادَتِ الدُّنْيَا عَلَيْكَ فَجُدْ بِهَا عَلَى النَّاسِ طُرًّا قَبْلَ أَنْ تَنْفَلَتْ
فَلَا الْجُودُ يُفْنِيهَا إِذَا هِيَ أَقْبَلَتْ وَلَا الْبُخْلُ يُبْقِيهَا إِذَا مَا تَوَلَّتْ^(١).

وهذا الموقف من الإمام يكشف عن المكانة السامية والمنزلة الرفيعة للمعلم الديني والتربوي عند أولياء الله، ومنهم الإمام الحسين عليه السلام.
قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«مِنْ حَقِّ الْعَالِمِ عَلَيْكَ أَنْ تُسَلِّمَ عَلَى الْقَوْمِ عَامَّةً وَتُخَصَّهُ دَوْمَهُمُ بِالتَّحِيَّةِ، وَأَنْ تَجْلِسَ
أَمَامَهُ، وَلَا تُشِيرَنَّ عِنْدَهُ بِيَدِكَ، وَلَا تَغْمِزَنَّ بِعَيْنَيْكَ، وَلَا تَقُولَنَّ: (قَالَ فُلَانٌ) خِلَافًا
لِقَوْلِهِ، وَلَا تَغْتَابَنَّ عِنْدَهُ أَحَدًا، وَلَا تُسَارَّ فِي مَجْلِسِهِ، وَلَا تَأْخُذْ بِثَوْبِهِ، وَلَا تَلِجْ عَلَيْهِ إِذَا
مَلَّ، وَلَا تُعْرِضْ مِنْ طَوْلِ صُحْبَتِهِ، فَإِنَّمَا هِيَ بِمَنْزِلَةِ النَّخْلَةِ تَنْتَظِرُ مَتَى يَسْقُطُ عَلَيْكَ مِنْهَا
شَيْءٌ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ الْعَالِمَ لِأَعْظَمِ أَجْرًا مِنَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِذَا مَاتَ
الْعَالِمُ انْتَلَمَّتْ فِي الْإِسْلَامِ ثَلَمَةٌ لَا يَسُدُّهَا شَيْءٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٢).

قال الإمام السجاد عليه السلام:

«وَحَقُّ سَائِسِكَ بِالْعِلْمِ: التَّعْظِيمُ لَهُ، وَالتَّوْقِيرُ لِمَجْلِسِهِ، وَحُسْنُ الْإِسْتِمَاعِ إِلَيْهِ،
وَالإِقْبَالُ عَلَيْهِ، وَأَنْ لَا تَرْفَعَ عَلَيْهِ صَوْتَكَ، وَأَنْ لَا تُجِيبَ أَحَدًا يُسْأَلُهُ عَنْ شَيْءٍ حَتَّى
يَكُونَ هُوَ الَّذِي يُجِيبُ، وَلَا تُحَدِّثْ فِي مَجْلِسِهِ أَحَدًا، وَلَا تَغْتَابَ عِنْدَهُ أَحَدًا، وَأَنْ تَدْفَعَ
عَنَّهُ إِذَا ذُكِرَ عِنْدَكَ بِسُوءٍ، وَأَنْ تَسْتُرَّ عُيُوبَهُ، وَتُظْهِرَ مَنَاقِبَهُ، وَلَا تُجَالِسَ لَهُ عَدُوًّا، وَلَا

(١) ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب عليهم السلام: ج ٤، ص ٦٦.

(٢) المتقي الهندي، علي بن حسام الدين، كنز العمال في سنن الأفعال والأفعال: ج ١٠، ص ٢٥٥،
حديث ٢٩٣٦٣.

تُعَادِي لَهُ وَلِيًّا، فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ شَهِدَ لَكَ مَلَائِكَةُ اللَّهِ بِأَنَّكَ قَصَدْتَهُ وَتَعَلَّمْتَ عِلْمَهُ لِلَّهِ
جَلَّ اسْمُهُ لَا لِلنَّاسِ»^(١).

عدم أداء حق معلم الدين بالأموال

لمن تأمل ردة فعل الإمام الحسين عليه السلام التي أبدأها تجاه المستشكل على ما قدمه
من عطاء أن يدرك عظمة معلم الدين وعلو شأنه ومنزلته حيث تبلغ درجة لا
يمكن فيها أداء حقه ومجازاته بالأموال.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«مَنْ عَلَّمَ أَحَدًا مَسْأَلَةَ مَلِكٍ رِقَّةً. قِيلَ: أَيَّبِعُهُ وَيَشْتَرِيهِ؟ قَالَ: بَلْ يَأْمُرُهُ وَيَنْهَاهُ»^(٢).

حسن احترام معلم الدين وتبجيله

يدلنا الحديث السابق أيضاً على حسن التعامل مع معلم الدين باحترام وإكرام
وتعظيم.

قال الإمام علي عليه السلام:

«أَكْرِمُ ضَيْفَكَ وَإِنْ كَانَ حَقِيرًا، وَقُمْ عَنِ مَجْلِسِكَ لِأَبِيكَ وَمُعَلِّمِكَ وَإِنْ كُنْتَ
أَمِيرًا»^(٣).

الجود على الأستاذ عند إقبال الدنيا على التلميذ

سرعان ما يخطر في ذهن الملاحظ للمدلول التضميني للحديث السابق أن
الإنسان إذا ما أقبلت عليه الدنيا عليه أن يجود بهاله ويقدم الهدايا لمعلميه لا سيما
التربويين والدينيين منهم.

(١) ابن بابويه، محمد بن علي، الخصال: ج ٢، ص ٥٦٧، حديث ١.

(٢) الشهيد الثاني، زين الدين بن علي، منية المرید في أدب المفید والمستفيد: ص ٢٤٣.

(٣) الآمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ١٣٦، حديث ١١٧.

وفي هذا الشأن قال رسول الله ﷺ:

«المَعْلَمُونَ خَيْرُ النَّاسِ، كُلَّمَا أُخْلِقَ الذَّكْرُ جَدَّدُوهُ، أَعْطَوْهُمْ وَلَا تَسْتَأْجِرُوهُمْ
فَتُخْرِجُوهُمْ، فَإِنَّ المَعْلَمَ إِذَا قَالَ لِلصَّبِيِّ: قُلْ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَقَالَ، كَتَبَ اللهُ
بِرَاءَةً لِلصَّبِيِّ وَبِرَاءَةً لِلْمَعْلَمِ وَبِرَاءَةً لِأَبُوهِ مِنَ النَّارِ»^(١).

مسؤولية العلماء تجاه أيتام آل محمد ﷺ

جاء في التفسير المنسوب للإمام الحسن العسكري ﷺ:

«وَقَالَ الحَسِينُ بْنُ عَلِيٍّ ﷺ: مَنْ كَفَلَ لَنَا يَتِيمًا فَطَعَنَهُ عَنَّا مُحْتَنِنًا بِاسْتِئْرَانَا فَوَاسَاهُ مِنْ
عُلُومِنَا الَّتِي سَقَطَتْ إِلَيْهِ حَتَّى أَرْشَدَهُ وَهَدَاهُ، قَالَ اللهُ ﷻ لَهُ: يَا أَيُّهَا العَبْدُ الكَرِيمُ
المَوَاسِي، إِنِّي أَوْلَى بِالكَرَمِ اجْعَلُوا لَهُ يَا مَلَائِكَتِي فِي الجَنَانِ بَعْدَ كُلِّ حَرْفٍ عِلْمَهُ أَلْفَ
أَلْفٍ قَصْرٍ، وَصَمُّوا إِلَيْهَا مَا يَلِيقُ بِهَا مِنْ سَائِرِ النِّعَمِ»^(٢).

يظهر من ملاحظة مضمون هذا الكلام أن على العلماء أن يأخذوا بيد أيتام آل
محمد ﷺ وهم من قصرت أيديهم عن علوم أهل البيت ومعارفهم ﷺ، فيتكفلون
بهم دينياً.

قال رسول الله ﷺ للإمام علي ﷺ:

«لَأَنَّ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النِّعَمِ»^(٣).

وفي التفسير المنسوب للإمام الحسن العسكري ﷺ:

«وَقَالَ الإِمَامُ ﷺ: وَأَشَدُّ مِنْ يُتَمِّمَ هَذَا الِيتِيمِ، يَتِيمٌ [يَنْقَطِعُ] عَنِ إِمَامِهِ لَا يَقْدِرُ عَلَى
الْوُصُولِ إِلَيْهِ، وَلَا يَدْرِي كَيْفَ حُكْمُهُ فِيمَا يُتَلَى بِهِ مِنْ شَرَائِعِ دِينِهِ.

(١) الديلمي، شيرويه بن شهردار، الفردوس بمأثور الخطاب: ج ٤، ص ١٩٣، حديث ٦٥٩٧.

(٢) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن بن علي العسكري ﷺ: ص ٣٤١-٣٤٢، حديث ٢١٨.

(٣) الشهيد الثاني، زين الدين بن علي، منية المريد في أدب المفيد والمستفيد: ص ١٠١.

أَلَا فَمَنْ كَانَ مِنْ شَيْعَتِنَا عَالِمًا بِعُلُومِنَا، وَهَذَا الْجَاهِلُ بِشَرِيعَتِنَا الْمُنْقَطِعُ عَنْ مُشَاهَدَتِنَا
بِتَيْمِّ فِي حَجْرِهِ، أَلَا فَمَنْ هَدَاهُ وَأَرْشَدَهُ وَعَلَّمَهُ شَرِيعَتَنَا كَانَ مَعَنَا فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى. حَدَّثَنِي
بِذَلِكَ أَبِي، عَنْ آبَائِهِ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(١).
وجاء فيه أيضاً:

«وَقَالَ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَكَيْفُهُ وَاحِدٌ يُنْقِذُ تَيْمِيًّا مِنْ أَيْتَامِنَا الْمُنْقَطِعِينَ عَنَّا وَعَنْ
مُشَاهَدَتِنَا بِتَعْلِيمِ مَا هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ، أَشَدُّ عَلَى إِبْلِيسَ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ؛ لِأَنَّ الْعَابِدَ هَمُّهُ ذَاتُ
نَفْسِهِ فَقَطُّ، وَهَذَا هَمُّهُ مَعَ ذَاتِ نَفْسِهِ ذَاتُ عِبَادِ اللَّهِ وَإِمَائِهِ، لِيُنْقِذَهُمْ مِنْ يَدِ إِبْلِيسَ
وَمَرَدَّتِهِ، وَلِذَلِكَ هُوَ أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَلْفِ أَلْفِ عَابِدٍ»^(٢).

إكراه الله تعالى للعلماء

يكشف لنا الحديث السابق للإمام الحسين عليه السلام، بل مجموع كلماته وكلام الله
سبحانه على تكريم الله عز وجل للعلماء والمتكفلين بأيتام آل محمد عليه السلام.
فقد قال الله تبارك وتعالى:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ
أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(٣).

الأجر اللائق للعلماء الواقعيين

من خلال ملاحظة ما جاء في ذيل الحديث السابق للإمام الحسين عليه السلام يتبين لنا
ما سيهبه الله سبحانه لعلماء الدين الواقعيين ومتكفلي أيتام آل محمد عليه السلام من أجر
و ثواب يليق بشأنهم ومنزلتهم.

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام: ص ٣٣٩، حديث ٢١٤.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٤٣، حديث ٢٢٢.

(٣) المجادلة: آية ١١.

روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«مُعَلِّمُ الْخَيْرِ يَسْتَعْفِرُ لَهُ دَوَابُّ الْأَرْضِ، وَحَيْثَانُ الْبُحُورِ، وَكُلُّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَسَمَائِهِ»^(١).

الذين لا يعملون بعلمهم

ذكر الحسين بن محمد الحلواني:

«وَقِيلَ: مَرَّ الْمُنْذِرُ بْنُ الْجَارُودِ بِالْحَسَنِ عليه السلام فَقَالَ: كَيْفَ أَصْبَحْتَ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ؟

فَقَالَ عليه السلام: [أَصْبَحْنَا وَ] أَصْبَحَتِ الْعَرَبُ تَعْتُدُّ عَلَى الْعَجَمِ بِأَنَّ مُحَمَّدًا عليه السلام مِنْهَا، وَأَصْبَحَتِ الْعَجَمُ مُقِرَّةً لَهَا بِذَلِكَ، وَأَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَتْ قُرَيْشٌ يَعْرِفُونَ فَضْلَنَا وَلَا يَرَوْنَ ذَلِكَ لَنَا، وَمِنَ الْبَلَاءِ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ أَنَّا إِذَا دَعَوْنَاهُمْ لَمْ يُجِيبُونَا، وَإِذَا تَرَكَنَاهُمْ لَمْ يَتَّخِذُوا بَعْدَنَا»^(٢).

إنَّ المعنى المستوحى من كلام الإمام عليه السلام أنَّ بعض الناس لا يعملون بعلمهم حبًّا للجاه والمقام.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«يَا أَبَا ذَرٍّ، يَطَّلِعُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَيَقُولُونَ: مَا أَدْخَلَكُمْ النَّارَ وَقَدْ دَخَلْنَا الْجَنَّةَ بِتَأْدِيبِكُمْ وَتَعْلِيمِكُمْ؟! فَيَقُولُونَ: إِنَّا كُنَّا نَأْمُرُ بِالْخَيْرِ وَلَا نَفْعَلُهُ»^(٣).

قال الإمام علي عليه السلام:

«إِنَّمَا زَهَّدَ النَّاسَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ كَثْرَةُ مَا يَرَوْنَ مِنْ قِلَّةِ عَمَلٍ مِّنْ عَمَلٍ بِمَا عَلِمَ»^(٤).

(١) ابن بابويه، محمد بن علي، ثواب الأعمال وعقاب الأعمال: ص ١٣١.

(٢) الحلواني، الحسين بن محمد، نزهة الناظر وتنبيه الخاطر: ص ٨٥، حديث ٢٠.

(٣) الطبرسي، الحسن بن الفضل، مكارم الأخلاق: ص ٤٦٠.

(٤) الأمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٢٧٥، حديث ٣٦.

عظمة العلم

روي عن الإمام العسكري عليه السلام أن الإمام الحسين عليه السلام قال مخاطباً من حضروا في معسكره:

«أَوَلَا أُحَدِّثُكُمْ بِأَوَّلِ أَمْرِنَا وَأَمْرِكُمْ مَعَاشِرَ أَوْلِيَانِنَا وَمُحِبِّينَا وَالْمُعْتَصِمِينَ بِنَا لَيْسَهَلَّ عَلَيْكُمْ أَحْتِمَالٌ مَا أَنْتُمْ لَهُ مُعْرَضُونَ؟
قَالُوا: بَلَى يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ.

قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَا خَلَقَ آدَمَ وَسَوَاهُ وَعَلَّمَهُ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ وَعَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، جَعَلَ مُحَمَّدًا وَعَلِيًّا وَفَاطِمَةَ وَالْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ عليهم السلام أَشْبَاحًا خَمْسَةً فِي ظَهْرِ آدَمَ، وَكَانَتْ أَنْوَارُهُمْ نُضِيءٌ فِي الْأَفَاقِ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْحُجُبِ وَالْجَنَانِ وَالْكَرْسِيِّ وَالْعَرْشِ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ، تَعْظِيمًا لَهُ أَنَّهُ قَدْ فَضَّلَهُ بِأَنْ جَعَلَهُ وَعَاءً لِبَيْتِكَ الْأَشْبَاحِ الَّتِي قَدْ عَمَّ أَنْوَارُهَا الْأَفَاقَ.

فَسَجَدُوا [لِآدَمَ] إِلَّا إِبْلِيسَ أَبِي أَنْ يَتَوَاضَعَ لِجَلَالِ عَظَمَةِ اللَّهِ، وَأَنْ يَتَوَاضَعَ لِأَنْوَارِنَا أَهْلَ الْبَيْتِ، وَقَدْ تَوَاضَعَتْ هَا الْمَلَائِكَةُ كُلُّهَا، وَاسْتَكْبَرَ وَتَرَفَعَ، وَكَانَ بِإِبَائِهِ ذَلِكَ وَتَكْبُرِهِ مِنَ الْكَافِرِينَ»^(١).

يدلنا مضمون هذا الكلام إلى أن سجود ملائكة الله لآدم عليه السلام كان في الواقع لعظمة علمه، وهذا الأمر إن دل على شيء فإنما يدل على سمو العلم وشموحه ومكانته الرفيعة.

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله:

«رَأْسُ الْفَضَائِلِ الْعِلْمُ»^(٢).

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام: ص ٢١٨-٢١٩، حديث ١٠١.

(٢) الآمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٣٧٧، حديث ١٤.

العلم من مظاهر جلال العظمة الإلهية

من ملاحظة صدر وذيل الحديث المتقدم للإمام الحسين عليه السلام نستنتج أن العلم من مظاهر جلال عظمته سبحانه وتعالى.

يقول تبارك وتعالى:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(١).

الفرق بين الفهم والعلم

نقل الخزاز القمي بسنده عن إسماعيل بن عبدالله أن الإمام الحسين عليه السلام قال: «لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾^(٢) سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ تَأْوِيلِهَا، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا عَنَىٰ غَيْرَكُمْ، وَأَنْتُمْ أَوْلُو الْأَرْحَامِ، فَإِذَا مِتُّ فَأَبُوكَ عَلِيٌّ أَوْلَىٰ بِي وَبِمَكَانِي، فَإِذَا مَضَىٰ أَبُوكَ فَأَخُوكَ الْحَسَنُ أَوْلَىٰ بِهِ، فَإِذَا مَضَىٰ الْحَسَنُ فَأَنْتَ أَوْلَىٰ بِهِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَنْ بَعْدِي أَوْلَىٰ بِي؟ فَقَالَ: ابْنُكَ عَلِيُّ أَوْلَىٰ بِكَ مِنْ بَعْدِكَ، فَإِذَا مَضَىٰ فَابْنُهُ مُحَمَّدٌ أَوْلَىٰ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ، فَإِذَا مَضَىٰ فَابْنُهُ جَعْفَرٌ أَوْلَىٰ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ بِمَكَانِهِ، فَإِذَا مَضَىٰ جَعْفَرٌ فَابْنُهُ مُوسَىٰ أَوْلَىٰ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ، فَإِذَا مَضَىٰ مُوسَىٰ فَابْنُهُ عَلِيُّ أَوْلَىٰ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ، فَإِذَا مَضَىٰ عَلِيُّ فَابْنُهُ مُحَمَّدٌ أَوْلَىٰ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ، فَإِذَا مَضَىٰ مُحَمَّدٌ فَابْنُهُ عَلِيُّ أَوْلَىٰ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ، فَإِذَا مَضَىٰ عَلِيُّ فَابْنُهُ الْحَسَنُ أَوْلَىٰ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ، فَإِذَا مَضَىٰ الْحَسَنُ وَقَعَتِ الْعَيْبَةُ فِي النَّاسِ مِنْ وُلْدِكَ، فَهَذِهِ الْأَيُّمَةُ السَّعَةُ مِنْ صُلْبِكَ، أَعْطَاهُمْ عِلْمِي وَفَهْمِي، طَيَّبْتُهُمْ مِنْ طَيِّبِي، مَا لِقَوْمٍ يُؤْذُونِي فِيهِمْ؟! لَا أَنَاهُمْ اللَّهُ شَفَاعَتِي»^(٣).

(١) الحديد، آية ٤.

(٢) الأنفال: آية ٧٥.

(٣) الخزاز الرازي، علي بن محمد، كفاية الأثر في النص على الأئمة الاثني عشر: ص ١٧٥-١٧٦.

إذا لاحظنا العبارات الأخيرة من الحديث نجد أنّها قد ذكرت الفهم والعلم كلا على حدة ما يدل على وجود فرق بين هاتين المفردتين.

وقد ذكر أبو هلال العسكري الفرق بين الفهم والعلم:

«إنّ الفهم هو العلم بمعاني الكلام عند سماعه خاصّة، ولهذا يقال: فلان سيء الفهم إذا كان بطيء العلم بمعنى ما يسمع، ولذلك كان الأعجمي لا يفهم كلام العربي، ولا يجوز أن يوصف الله بالفهم؛ لأنّه عالم بكل شيء على ما هو به فيما لم يزل. وقال بعضهم: لا يستعمل الفهم إلا في الكلام، ألا ترى أنّك تقول: فهمت كلامه، ولا تقول: فهمت ذهابه ومجيئه، كما تقول: علمت ذلك. وقال أبو أحمد بن أبي سلمة عليه السلام: الفهم يكون في الكلام وغيره من البيان كالإشارة، ألا ترى أنّك تقول: فهمت ما قلت وفهمت ما أشرت به إلي. قال الشيخ أبو هلال عليه السلام: الأصل هو الذي تقدّم، وإنّما استعمل الفهم في الإشارة؛ لأنّ الإشارة تجري مجرى الكلام في الدلالة على المعنى»^(١).

وبهذا الصدد قال السيّد نور الدين الجزائري أيضاً:

«قيل: الفهم تصور المعنى من لفظ المخاطب، وقيل: إدراك خفي دقيق، فهو أخص من العلم؛ لأنّ العلم نفس الإدراك سواء كان خفياً أو جلياً، ولهذا قال سبحانه في قصة داود وسليمان عليهما السلام: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَايِنَّا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾^(٢)، خص الفهم بسليمان، وعمم العلم لداود وسليمان»^(٣).

تأثير العلم واليقظة في الابتعاد عن الذنب

قال العلامة المجلسي:

«رُوي: أَنَّ الْحَسِينَ بْنَ عَلِيٍّ عليه السلام جَاءَهُ رَجُلٌ وَقَالَ: أَنَا رَجُلٌ عَاصٍ وَلَا أَصْبِرُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ فَعِظْنِي بِمَوْعِظَةٍ، فَقَالَ: أَفْعَلُ حَمْسَةَ أَشْيَاءَ وَأَذْنِبُ مَا شِئْتُ، فَأَوَّلُ ذَلِكَ: لَا

(١) العسكري، الحسن بن عبدالله، الجزائري، نور الدين، معجم الفروق اللغوية: ص ٤١٤.

(٢) الأنبياء: آية ٧٩.

(٣) العسكري، الحسن بن عبدالله، الجزائري، نور الدين، معجم الفروق اللغوية: ص ٤١٤.

تَأْكُلُ رِزْقَ اللَّهِ وَأَذِنَبَ مَا شِئْتَ، وَالثَّانِي: أَخْرَجَ مِنْ وِلَايَةِ اللَّهِ وَأَذِنَبَ مَا شِئْتَ، وَالثَّلَاثُ: اَطْلُبْ مَوْضِعًا لَا يَرَاكَ اللَّهُ وَأَذِنَبَ مَا شِئْتَ، وَالرَّابِعُ: إِذَا جَاءَ مَلِكُ الْمَوْتِ لِيَقْبِضَ رُوحَكَ فَادْفَعْهُ عَنْ نَفْسِكَ وَأَذِنَبَ مَا شِئْتَ، وَالخَامِسُ: إِذَا أَدْخَلَكَ مَالِكٌ فِي النَّارِ فَلَا تَدْخُلْ فِي النَّارِ وَأَذِنَبَ مَا شِئْتَ»^(١).

يتضح من إجابة الإمام عليه السلام أن علم الإنسان وإحاطته ببعض الأمور له تأثير بالغ في اجتنابه الذنوب، فإذا علم الإنسان هذه الأمور الخمسة، فإنه سيبتعد عن الذنوب ويخلق حاجزاً يفصل بينها وبينه.

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«مَنْ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ يَرَاهُ وَيَسْمَعُ مَا يَقُولُ وَيَعْلَمُ مَا يَعْمَلُهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، فَيَحْجِزُهُ ذَلِكَ عَنِ الْقَبِيحِ مِنَ الْأَعْمَالِ، فَذَلِكَ الَّذِي خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى»^(٢).

تأثير الاطلاع على عواقب الأعمال القبيحة في تركها

الإربلي نقل عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال:

وَبَقِيْتُ فِيمَنْ لَا أَحِبُّهُ	ذَهَبَ الَّذِينَ أَحَبُّهُمْ
ظَهَرَ الْمَغِيبُ وَلَا أَسْبُهُ	فِيمَنْ أَرَاهُ يَسُبُّنِي
وَأَمْرُهُ مِمَّا أَدْبُّهُ	يَبْغِي فَسَادِي مَا اسْتَطَاعَ
وَذَاكَ مِمَّا لَا أَدْبُّهُ	حَتَّى يَدْبُ إِلَى الضَّرَاءِ
حَوْلِي يَطْنُنُّ وَلَا يَدْبُّهُ	وَيَرَى دُبَابَ الشَّرِّ مِنْ

(١) المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: ج ٧٥،

ص ١٢٦، حديث ٧.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٧٠-٧١، حديث ١٠.

وَإِذَا جَنَّا وَعَرُّ الصُّدُورِ فَلَا يَزَالُ بِهِ يَشْبَهُهُ
 أَفَلَا يَعِيْجُ بِعَقْلِهِ أَفَلَا يُتُوبُ إِلَيْهِ لُبُّهُ
 أَفَلَا يَرَى أَنَّ فِعْلَهُ مِمَّا يَسُورُ إِلَيْهِ غُبُّهُ
 حَسْبِي بِرَبِّي كَافِيَاً مَا أَخَشِي وَالْبَغْيُ حَسْبُهُ
 وَلَقَلَّ مَنْ يُبْغِي عَلَيْهِ فَمَا كَفَاهُ اللهُ رَبُّهُ^(١)

حيث يستوحى من هذه الأشعار أنّ الإنسان العاقل إن صار على علم وإحاطة
 وإلمام بعواقب أعماله القبيحة فإنّه لا بدّ وأن يتركها ويقلع عنها لا إلى رجعة أبداً.
 وذكر الكراجكي أيضاً:

«وَمِنْ كَلَامِ الْحُسَيْنِ عليه السلام قَوْلُهُ يَوْمًا لِابْنِ عَبَّاسٍ: يَا بْنَ عَبَّاسٍ، لَا تَكَلِّمَنَّ فِيمَا لَا
 يَعْنِيكَ فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ فِيهِ الْوِزْرَ، وَلَا تَكَلِّمَنَّ فِيمَا يَعْنِيكَ حَتَّى تَرَى لِلْكَلامِ
 مَوْضِعًا، فَرُبَّ مُتَكَلِّمٍ قَدْ تَكَلَّمَ بِالْحَقِّ فَعَيْبٌ، وَلَا تُمَارِينَ حَلِيمًا وَلَا سَفِيهًا، فَإِنَّ الْحَلِيمَ
 يَقْلِيكَ، وَالسَّفِيهَ يُرْدِيكَ، وَلَا تَقُولَنَّ فِي أَخِيكَ الْمُؤْمِنِ إِذَا تَوَارَى عَنكَ إِلَّا [مِثْلَ] مَا مُحِبُّ
 أَنْ يَقُولَ فِيكَ إِذَا تَوَارَيْتَ عَنْهُ، وَاعْمَلْ عَمَلَ رَجُلٍ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَأْخُودٌ بِالْإِجْرَامِ، مَجْزِيٌّ
 بِالْإِحْسَانِ، وَالسَّلَامُ»^(٢).

من المعطيات التي تقود الإنسان إلى ترك فعل القبيح علمه بعواقبه، وما يترتب
 على ذلك من تأثير هام وبالغ، وهذا ما قد يستفاد من الإتيان بالعلم والعمل في هذه
 الجملة، وبالتالي فمتى ما علم الإنسان أنّه سيحاسب يوماً ما على ما يقوم به من
 أعمال، فإنّه سيحذر من الذنوب ويكون على حيطة وحذر دائماً.

(١) الإربلي، علي بن عيسى، كشف الغمة في معرفة الأئمة: ج ٢، ص ٣٤.

(٢) الكراجكي، محمد بن علي، كنز الفوائد: ج ٢، ص ٣٢.

قال الإمام علي عليه السلام:

«رَأْسُ الْعِلْمِ التَّوَاضُّعُ، وَبَصَرُهُ الْبَرَاءَةُ مِنَ الْحَسَدِ، وَسَمْعُهُ الْفَهْمُ، وَلِسَانُهُ الصِّدْقُ، وَقَلْبُهُ حُسْنُ النِّيَّةِ، وَعَقْلُهُ مَعْرِفَةُ أَسْبَابِ الْأُمُورِ، وَمِنْ ثَمَرَاتِهِ: التَّقْوَى، وَاجْتِنَابُ الْهَوَى، وَاتِّبَاعُ الْهَدَى، وَجَنَابَةُ الذُّنُوبِ، وَمَوَدَّةُ الْإِخْوَانِ، وَالِاسْتِغَاغُ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْقَبُولُ مِنْهُمْ، وَمِنْ ثَمَرَاتِهِ: تَرْكُ الْإِنْتِقَامِ عِنْدَ الْقُدْرَةِ، وَاسْتِقْبَاحُ مَقَارِفَةِ الْبَاطِلِ، وَاسْتِحْسَانُ مُتَابَعَةِ الْحَقِّ، وَقَوْلُ الصِّدْقِ، وَالتَّجَافِي عَنِ سُرُورٍ فِي غَفْلَةٍ، وَعَنْ فِعْلِ مَا يُعَقَّبُ نَدَامَةً. وَالْعِلْمُ يَزِيدُ الْعَاقِلَ عَقْلاً، وَيُورِثُ مُتَعَلِّمَهُ صِفَاتِ حَمْدٍ، فَيَجْعَلُ الْحَلِيمَ أَمِيرًا، وَذَا الْمَشُورَةَ وَزِيرًا، وَيَقْمَعُ الْحَرْصَ، وَيَجْلَعُ الْمَكْرَ، وَيُمِيتُ الْبُخْلَ، وَيَجْعَلُ مُطْلَقَ الْوَحْشِ مَأْسُورًا، وَيَعِيدُ السَّدَادَ قَرِيبًا»^(١).

حسن المداخلة في البحث العلمي بين العظماء

نقل شاذان بن جبرئيل القمي:

«قِيلَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله كَانَ جَالِسًا ذَاتَ يَوْمٍ وَعِنْدَهُ الْإِمَامُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام إِذْ دَخَلَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ، فَأَخَذَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وَأَجْلَسَهُ فِي حَجْرِهِ، وَقَبَّلَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَقَبَّلَ شَفَتَيْهِ، وَكَانَ لِلْحُسَيْنِ عليه السلام سِتُّ سِنِينَ، فَقَالَ عَلِيُّ عليه السلام: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتُحِبُّ وَلَدِي الْحُسَيْنَ؟ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله: وَكَيْفَ لَا أُحِبُّهُ وَهُوَ عَضْوٌ مِنْ أَعْضَائِي؟! فَقَالَ عَلِيُّ عليه السلام: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ أَنَا أَمْ الْحُسَيْنُ؟ فَقَالَ الْحُسَيْنُ: يَا أَبَتَا مَنْ كَانَ أَعْلَى شَرَفًا كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وَأَقْرَبَ إِلَيْهِ مَنْزِلَةً، قَالَ عَلِيُّ عليه السلام لَوْلَا لِدِهِ: أَتَفَاخِرُنِي يَا حُسَيْنُ؟ قَالَ: نَعَمْ يَا أَبَتَاهُ إِنْ شِئْتَ...»^(٢).

(١) المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: ج ٧٥،

ص ٦، حديث ٥٧.

(٢) القمي، شاذان بن جبرئيل، الفضائل: ص ٨٣.

يتبين من إجابة الإمام الحسين عليه السلام عن سؤال أبيه لرسول الله صلى الله عليه وآله جواز المداخلة العلمية والمشاركة في أبحاث ذوي العلم والفضل.

قال الإمام علي عليه السلام:

«مَحْضُوا الرَّأْيَ مَحْضَ السَّقَاءِ يُتَّعَجُّ سَدِيدَ الْأَرَاءِ»^(١).

ضرورة تجنب العلماء هتك الحرمات

نقل الكليني بسنده عن محمد بن مسلم قال: سمعت من الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:
 «لَمَّا احْتَضَرَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام قَالَ لِلْحَسَنِ: يَا أَخِي، إِنِّي أَوْصِيكَ بِوَصِيَّةٍ فَاخْضَرْتُهَا، فَإِذَا أَنَا مِتُّ فَهَيِّئْ لِي رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله لِأَحْدِثَ بِهِ عَهْدًا ثُمَّ اضْرِبْنِي إِلَى أُمِّي فَاطِمَةَ عليها السلام ثُمَّ رُدَّنِي فَأَدْفِنْنِي بِالْبَقِيعِ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ سَيُصِيبُنِي مِنَ الْحَمِيرَاءِ مَا يَعْلَمُ النَّاسُ مِنْ صَنِيعِهَا وَعَدَاوَتِهَا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ صلى الله عليه وآله وَعَدَاوَتِهَا لَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ، فَلَمَّا قُبِضَ الْحَسَنُ عليه السلام [و] وَضِعَ عَلَى سَرِيرِهِ فَأَنْطَلَقُوا بِهِ إِلَى مُصَلَّى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله الَّذِي كَانَ يُصَلِّي فِيهِ عَلَى الْجَنَائِزِ فَصَلَّى عَلَى الْحَسَنِ عليه السلام، فَلَمَّا أَنْ صَلَّى عَلَيْهِ حُجِلَ فَأُدْخِلَ الْمَسْجِدَ، فَلَمَّا أُوقِفَ عَلَى قَبْرِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله بَلَغَ عَائِشَةَ الْخَبْرَ وَقِيلَ لَهَا: إِنَّهُمْ قَدْ أَقْبَلُوا بِالْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ لِيُذْفَنَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، فَخَرَجَتْ مُبَادِرَةً عَلَى بَعْلِ بَسْرَجٍ - فَكَانَتْ أَوَّلَ امْرَأَةٍ رَكِبَتْ فِي الْإِسْلَامِ سَرَجًا - فَوَقَفَتْ وَقَالَتْ: نَحُوا ابْنَكُمْ عَنْ بَيْتِي، فَإِنَّهُ لَا يُدْفَنُ فِيهِ شَيْءٌ وَلَا يُهْتَكُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ حِجَابُهُ، فَقَالَ لَهَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا: قَدِيمًا هَتَكْتَ أَنْتِ وَأَبُوكَ حِجَابَ رَسُولِ اللَّهِ وَأَدْخَلْتِ بَيْتَهُ مَنْ لَا يُحِبُّ رَسُولَ اللَّهِ قُرْبَهُ، وَإِنَّ اللَّهَ سَائِلُكَ عَنْ ذَلِكَ يَا عَائِشَةُ، إِنَّ أَخِي أَمَرَنِي أَنْ أُقَرِّبَهُ مِنْ أَبِيهِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله لِیُحْدِثَ بِهِ عَهْدًا. وَاعْلَمِي أَنَّ أَخِي أَعْلَمُ النَّاسَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاعْلَمْ بِتَأْوِيلِ كِتَابِهِ مِنْ أَنْ يَهْتَكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ سِتْرُهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا

(١) الأمدى، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ١٥٨، حديث ٩١.

أَنْتِ يُؤَذِّنُ لَكُمْ ﴿١﴾ وَقَدْ أَدْخَلْتِ أَنْتِ بَيْتَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الرَّجَالَ بِغَيْرِ إِذْنِهِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴿٢﴾ وَلَعَمْرِي لَقَدْ ضَرَبْتَ أَنْتِ لِأَبِيكَ وَفَارُوقِهِ عِنْدَ أُذُنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَاعُولَ، وَقَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَى ﴿٣﴾ وَلَعَمْرِي لَقَدْ أَدْخَلَ أَبُوكَ وَفَارُوقَهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِقُرْبِهِمَا مِنْهُ الْأَذَى، وَمَا رَعِيَا مِنْ حَقِّهِ مَا أَمَرَهُمَا اللَّهُ بِهِ عَلَى لِسَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَمْوَاتًا مَا حَرَّمَ مِنْهُمْ أَحْيَاءَ، وَتَالَهُ يَا عَائِشَةُ لَوْ كَانَ هَذَا الَّذِي كَرِهْتِيهِ مِنْ دَفْنِ الْحَسَنِ عِنْدَ أَبِيهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جَائِزًا فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ اللَّهِ لَعَلِمْتَ أَنَّهُ سَيُدْفَنُ وَإِنْ رَغِمَ مَعْطُسُكَ ﴿٤﴾.

من جملة «...وَأَعْلَمُ بِتَأْوِيلِ كِتَابِهِ مِنْ أَنْ يَهْتِكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سِتْرَهُ» يتحصل أنّ على العلماء الابتعاد عن هتك الحرمات، وهذا الأمر أجدر وأخلق بمن كان منهم أوفر علماً، وبالمقابل يقود عدم العلم والإحساس الكافي إلى هتك الحرمات.
قال تبارك وتعالى:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُوا مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِنْ نِسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥﴾.

تأثير العلم في العمل بأحكام الشريعة

يتبين من ملاحظة قوله ﷺ: «وَأَعْلَمِي أَنْ أَخِي أَعْلَمُ النَّاسِ...» أنّ العلم مؤثر

(١) الأحزاب: آية ٥٣.

(٢) الحجرات: آية ٢.

(٣) الحجرات: آية ٣.

(٤) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٣٠٢-٣٠٣، حديث ٣.

(٥) الحجرات: آية ١١.

في عمل الإنسان، وهذا مدعاة لصاحب العلم الأكثر أن يولي العمل بأحكام الشريعة اهتماماً أوفر.

قال الإمام علي عليه السلام:

«الْعِلْمُ مَقْرُونٌ بِالْعَمَلِ، فَمَنْ عَمِلَ عَمَلًا، وَالْعِلْمُ يَهْتَفُ بِالْعَمَلِ، فَإِنْ [أَجَابَ] أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلَ عَنْهُ»^(١).

ضرورة تبرير العلماء لتصرفاتهم

ذكر الشيخ الصدوق:

«وَرَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمَغِيرَةِ عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: أَوْصَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَحَدَّه، وَأَوْصَى عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ جَمِيعًا، وَكَانَ الْحَسَنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِمَامَهُ، فَدَخَلَ رَجُلٌ يَوْمَ عَرَفَةَ عَلَى الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ يَتَغَدَّى وَالْحُسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ صَائِمٌ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ مَا قُبِضَ الْحَسَنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَدَخَلَ عَلَى الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَوْمَ عَرَفَةَ وَهُوَ يَتَغَدَّى وَعَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ صَائِمٌ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: إِنِّي دَخَلْتُ عَلَى الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ يَتَغَدَّى وَأَنْتَ صَائِمٌ، ثُمَّ دَخَلْتُ عَلَيْكَ وَأَنْتَ مُفْطِرٌ؟! فَقَالَ: إِنَّ الْحَسَنَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ إِمَامًا فَأَفْطَرَ لِنَلَّا يُتَّخَذَ صَوْمُهُ سُنَّةً وَلِيَتَأَسَى بِهِ النَّاسُ، فَلَمَّا أَنْ قُبِضَ كُنْتُ أَنَا الْإِمَامَ فَأَرَدْتُ أَنْ لَا يُتَّخَذَ صَوْمِي سُنَّةً فَيَتَأَسَى النَّاسُ بِي»^(٢).

يستفاد مما قام به الإمام عليه السلام من تبرير لعمله أن على الأعلام وذوي الشأن من العلماء تبرير تصرفاتهم التي تبدو متخالفة للناس دفعاً للظنون والتكهنات.

قال تبارك وتعالى نقلاً لقول عبده العالم (الخضر عليه السلام) مخاطباً النبي موسى عليه السلام:

﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكُمْ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾^(٣).

(١) نهج البلاغة: الكلمات القصصار ٣٦٦.

(٢) ابن بابويه، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه: ج ٢، ص ٨٧-٨٨، حديث ١٨١٠.

(٣) الكهف: آية ٨٢.

لزوم تصحيح أقوال الناس من قبل العلماء

نقل الطبراني بسنده عن أبي مجلز حول الحسين بن علي عليه السلام قال:
 «إِنَّهُ رَأَى رَجُلًا رَكِبَ دَابَّةً فَقَالَ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾، فَقَالَ لَهُ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام: وَبِهَذَا أَمَرْتَ؟ قَالَ: فَكَيْفَ أَقُولُ؟ قَالَ: تَقُولُ:
 الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ وَمَنَّ عَلَيَّ بِمُحَمَّدٍ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، فَهَذِهِ النُّعْمَةُ، فَقَالَ: تَبْدَأُ بِهَذَا لِقَوْلِهِ عليه السلام: ﴿ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾^(١)»^(٢).

تصحيح الإمام لكلام ذلك الراكب يدل على ضرورة قيام المصلحين بنفس
 هذا العمل حينما تصدر عن بعض الأفراد أقوالاً خاطئة أو غير دقيقة.

قال سبحانه وتعالى:

﴿وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

لزوم خضوع قادة الدين علمياً

ذكر ابن أعثم في (الفتوح):

«قَالَ: ثُمَّ أَقْبَلَ ابْنَ عُمَرَ عَلَى الْحُسَيْنِ، فَقَالَ: أَبَا عَبْدِ اللَّهِ! مَهْلًا عَمَّا قَدْ عَزَمْتَ عَلَيْهِ،
 وَارْجِعْ مِنْ هُنَا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَادْخُلْ فِي صَلْحِ الْقَوْمِ، وَلَا تَغِبْ عَن وَطَنِكَ وَحَرَمِ جَدِّكَ
 رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وَلَا تَجْعَلْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ عَلَى نَفْسِكَ
 حُجَّةً وَسَبِيلًا، وَإِنْ أَحْبَبْتَ أَلَّا تُبَايِعَ فَأَنْتَ مَتْرُوكٌ حَتَّى تَرَى بَرَأِيكَ، فَإِنَّ يَزِيدَ بْنَ
 مُعَاوِيَةَ - لَعَنَهُ اللَّهُ - عَسَى أَلَّا يَعِيشَ إِلَّا قَلِيلًا، فَيَكْفِيكَ اللَّهُ أَمْرَهُ.»

(١) الزخرف: آية ١٣.

(٢) الطبراني، سليمان بن أحمد، الدعاء: ص ٢٤٦-٢٤٧، حديث ٧٧٥.

(٣) الذاريات: آية ٥٥.

فَقَالَ الْحَسَيْنُ: أَفْ هَذَا الْكَلَامَ أَبَدًا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، أَسْأَلُكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ، أَنَا عِنْدَكَ عَلَى خَطَا مِنْ أَمْرِي هَذَا؟ فَإِنْ كُنْتُ عِنْدَكَ عَلَى خَطَا فَرُدَّنِي، فَإِنِّي أَخْضَعُ وَأَسْمَعُ وَأَطِيعُ.

فَقَالَ ابْنُ عَمَرَ: اللَّهُمَّ لَا، وَلَمْ يَكُنِ اللَّهُ تَعَالَى يَجْعَلُ ابْنَ بِنْتِ رَسُولِهِ عَلَى خَطَا، وَلَيْسَ مِثْلَكَ مِنْ طَهَارَتِهِ وَصَفْوَتِهِ مِنَ الرَّسُولِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عَلَى مِثْلِ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ - لَعَنَهُ اللَّهُ - بِاسْمِ الْخِلَافَةِ، وَلَكِنْ أَخْشَى أَنْ يُضْرَبَ وَجْهَكَ هَذَا الْحَسَنُ الْجَمِيلُ بِالسُّيُوفِ، وَتَرَى مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ مَا لَا تُحِبُّ، فَارْجِعْ مَعَنَا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَإِنْ لَمْ تُحِبَّ أَنْ تُبَايِعَ، فَلَا تُبَايِعَ أَبَدًا وَاقْعُدْ فِي مَنْزِلِكَ»^(١).

حيث يتوجب على الحكام الإسلاميين وقادة الدين الاستماع إلى آراء الناس والاهتمام بها، وقد دل على ذلك قوله عليه السلام: «فَإِنْ كُنْتُ عِنْدَكَ عَلَى خَطَا...».

قال الإمام علي عليه السلام:

«يَا طَالِبَ الْعِلْمِ إِنَّ الْعِلْمَ دُو فَضَائِلَ كَثِيرَةٍ فَرَأْسُهُ التَّوَّاضُعُ»^(٢).

مسؤولية العالم بالنسبة للنهي عن المنكر

قال الإمام الحسين عليه السلام خلال حركته نحو كربلاء:

«إِنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا قَدْ تَغَيَّرَتْ وَتَنَكَّرَتْ، وَأَدْبَرَ مَعْرُوفُهَا، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الْإِنَاءِ، وَخَسِيسُ عَيْشٍ كَالْمَرْعَى الْوَيْبِلِ، أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ الْحَقَّ لَا يُعْمَلُ بِهِ، وَأَنَّ الْبَاطِلَ لَا يُتَنَاهَى عَنْهُ؟! لِيَرْغَبَ الْمُؤْمِنُ فِي لِقَاءِ اللَّهِ مُحَقَّقًا، فَإِنِّي لَا أَرَى الْمَوْتَ إِلَّا سَعَادَةً، وَلَا الْحَيَاةَ مَعَ الظَّالِمِينَ إِلَّا بَرَمًا. إِنَّ النَّاسَ عَبِيدُ الدُّنْيَا، وَالَّذِينَ لَعِقُوا عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، يَحْوِطُونَهُ مَا دَرَّتْ مَعَايِشُهُمْ، فَإِذَا مُحِّصُوا بِالْبَلَاءِ قَلَّ الدَّيَّانُونَ»^(٣).

(١) ابن أعثم الكوفي، أحمد، الفتوح: ج ٥، ص ٢٥.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٤٨، حديث ٢.

(٣) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٤٥.

إذ يبدو من مضمون قوله عليه السلام: «وَأَنَّ الْبَاطِلَ لَا يُتَنَاهَى عَنْهُ...» أن واحدة من مهام العلماء هي النهي عن المنكر.

نقل عن الحارث بن المغيرة أنه قال:

«لَقِيتَنِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام فِي طَرِيقِ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ: مَنْ ذَا أَحَارِثُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: أَمَا لِأَجْمَلِنَ ذُنُوبَ سُفْهَائِكُمْ عَلَى عُلَمَائِكُمْ. ثُمَّ مَضَى، فَاتَيْتُهُ، فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ، فَدَخَلْتُ فَقُلْتُ: لَقِيتَنِي فَقُلْتَ: لِأَجْمَلِنَ ذُنُوبَ سُفْهَائِكُمْ عَلَى عُلَمَائِكُمْ، فَدَخَلَنِي مِنْ ذَلِكَ أَمْرٌ عَظِيمٌ. فَقَالَ: نَعَمْ، مَا يَمْنَعُكُمْ إِذَا بَلَغَكُمْ عَنِ الرَّجُلِ مِنْكُمْ مَا تَكْرَهُونَ، وَمَا يَدْخُلُ عَلَيْنَا بِهِ الْأَذَى أَنْ تَأْتُوهُ، فَتُوْنَبُوهُ وَتُعَدُّلُوهُ، وَتَقُولُوا لَهُ قَوْلًا بَلِيغًا. فَقُلْتُ [لَهُ]: جَعَلْتُ فِدَاكَ إِذَا لَا يُطِيعُونَا وَلَا يَقْبَلُونَ مِنَّا. فَقَالَ: اهْجُرُوهُمْ وَاجْتَنِبُوا مَجَالِسَهُمْ»^(١).

تأثير العلم في الفرح

نقل ابن قولويه بسنده عن عبد الله بن بكير قال:

«حَجَجْتُ مَعَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام - فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ - فَقُلْتُ: يَا بْنَ رَسُولِ اللَّهِ، لَوْ نَبَشَ قَبْرُ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام هَلْ كَانَ يُصَابُ فِي قَبْرِهِ شَيْءٌ؟ فَقَالَ: يَا بْنَ بَكِيرٍ، مَا أَعْظَمَ مَسَائِلِكَ، إِنَّ الْحَسِينَ عليه السلام مَعَ أَبِيهِ وَأُمِّهِ وَأَخِيهِ فِي مَنْزِلِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وَمَعَهُ يُرْزَقُونَ وَيُحْبَرُونَ، وَإِنَّهُ لَعَنَ يَمِينِ الْعَرْشِ مُتَعَلِّقٌ بِهِ يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، وَإِنَّهُ لَيَنْظُرُ إِلَى زُورَارِهِ، وَإِنَّهُ أَعْرَفُ بِهِمْ وَبِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ وَمَا فِي رِحَالِهِمْ مِنْ أَحَدِهِمْ بَوْلِدِهِ، وَإِنَّهُ لَيَنْظُرُ إِلَى مَنْ يَبْكِيهِ فَيَسْتَغْفِرُ لَهُ وَيَسْأَلُ أَبَاهُ الْإِسْتِغْفَارَ لَهُ، وَيَقُولُ: أَيُّهَا الْبَاكِي، لَوْ عَلِمْتَ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَكَ لَفَرِحْتَ أَكْثَرَ مِمَّا حَزَنْتَ، وَإِنَّهُ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ وَخَطِيئَةٍ»^(٢).

حيث يشير قوله عليه السلام: «لَوْ عَلِمْتَ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَكَ لَفَرِحْتَ...» تضمناً إلى أن

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٨، ص ١٦٢، حديث ١٦٩.

(٢) ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات: ص ١٠٣، حديث ٧.

العلم له تأثير في فرح الإنسان وسروره.

قال تبارك وتعالى:

﴿فَرَّدْنَاهُ إِلَىٰ آمِهِ كَي نَفَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

قال الشهيد مطهري:

«إنَّ السرور يبعث على حالة من السعادة واللذة عند الإنسان تنتج من العلم والاطلاع على تحقق أحد الأهداف والأمنيات أو تحققه فيما بعد، والغم والحزن حالة قاسية مؤلمة تعترى الإنسان نتيجة العلم بعدم تحقق الهدف أو الأمنية. وفي الحقيقة والواقع أنَّ السرور والحزن حالات خاصة من اللذة والألم، وذلك أنَّ اللذة والألم قد تنشآن أحياناً من التعاطي المباشر مع عامل خارجي كما في حالة الهناء الناشئة من تناول الطعام اللذيذ وحالة التوجع الناشئة إثر إصابة عضو من أعضاء الإنسان أو الحيوان، فيعبّر عن هذا النحو من الحالات بـ(اللذة) و(الألم)، ولا يقال لها: (سرور) و(غم)، إذ يتم التعبير بـ(السرور) و(الحزن) فقط عن تلك الحالة الخاصة الناتجة من العلم والاطلاع على السبب الباعث على السعادة أو الاغتمام في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، أي أنَّها تابعان لتصور أسباب اللذة والألم لا حقيقة تلك الأسباب»^(٢).

تأثير العلم في العمل

ابن عبد البر القرطبي قال:

«وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ: كَانَ نَقَشُ خَاتَمِ حُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام: عَلِمْتَ فَاعْمَلْ»^(٣).

(١) الحديد: آية ١٣.

(٢) مطهري، مرتضى، مجموعه آثار استاد شهيد مطهري (مجموعة آثار الأستاذ الشهيد مطهري): ج ٧، ص ٥٨.

(٣) ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله، جامع بيان العلم وفضله: ج ١، ص ٧٠٨، حديث ١٢٨٠.

إذ يتحصل من تفرّيع العلم على العمل أن العلم مؤثر جدّاً في عمل الإنسان.
قال الإمام الصادق عليه السلام:
«الْعِلْمُ مَقْرُونٌ إِلَى الْعَمَلِ، فَمَنْ عَمِلَ عَمِلَ، وَمَنْ عَمِلَ عَمِلَ، وَالْعِلْمُ يَهْتَفُ بِالْعَمَلِ،
فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلَ عَنْهُ»^(١).

ضرورة العمل بالعلم

يتضح كذلك من الحديث السابق للإمام الحسين عليه السلام من قوله: «عَلِمْتُ
فَاعْمَلْ» أن المهمة الأولى المتوجهة للعالم هي أن يعمل بعلمه وما تعلمه.
قال الإمام علي عليه السلام بشأن أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله:
«عَقَلُوا الدِّينَ عَقْلًا وَعَايَةَ وَرِعَايَةَ، لَا عَقْلَ سَمَاعٍ وَرِوَايَةٍ، فَإِنَّ رِوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ،
وَرِعَاتُهُ قَلِيلٌ»^(٢).

تأثير العلم في الصبر

نقل الشيخ عباس القمي في كتابه (نفس المهموم) عن العلامة المجلسي في
(جلاء العيون):

«ثُمَّ وَدَعَ ثَانِيًا أَهْلَ بَيْتِهِ وَأَمَرَهُمْ بِالصَّبْرِ وَوَعَدَهُمْ بِالثَّوَابِ وَالْأَجْرِ وَأَمَرَهُمْ بِلُبْسِ
أَزْرِهِمْ، وَقَالَ لَهُمْ: اسْتَعِدُّوا لِلْبَلَاءِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَافِظُكُمْ وَحَامِيكُمْ
وَسَيُنْجِيكُمْ مِنْ شَرِّ الْأَعْدَاءِ وَيَجْعَلُ عَاقِبَةَ أَمْرِكُمْ إِلَى خَيْرٍ وَيُعَذِّبُ أَعَادِيكُمْ بِأَنْوَاعِ
الْبَلَاءِ وَيَعْوِضُكُمْ اللَّهُ عَنْ هَذِهِ الْبَلِيَّةِ بِأَنْوَاعِ النِّعَمِ وَالْكَرَامَةِ، فَلَا تَشْكُوا وَلَا تَقُولُوا
بِالْسِتِّكُمْ مَا يَنْقُصُ مِنْ قَدْرِكُمْ»^(٣).

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٤٤، حديث ٢.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ٢٣٩.

(٣) القمي، عباس، نفس المهموم في مصيبة سيدنا الحسين المظلوم: ص ٣٢٣-٣٢٤؛ المجلسي، محمد باقر

ابن محمد تقي، جلاء العيون: تاريخ چهارده معصوم (تاريخ الأربعة عشر معصوماً): ص ٦٨٦.

عندما نلاحظ تركيز الإمام عليه السلام في وصيته لأهل بيته عند وداعهم على أن يعلموا بأن الله سبحانه هو حافظهم وحاميهم يتبين لنا أن العلم مؤثر في اشتداد وتعاضم الصبر والاصطبار والتحمل.

وقال الإمام الحسين عليه السلام أيضاً:

«رِضَا اللَّهِ رِضَانَا أَهْلَ الْبَيْتِ، نَصْرُهُ عَلَيَّ بَلَاءُهُ، وَيُوفِّيْنَا أَجُورَ الصَّابِرِينَ»^(١).

دَلٌّ مضمون قول الإمام عليه السلام على أن العلم ذو تأثير بالغ في الصبر على البلياء وتحملها؛ لما له من دور كبير في حصول الرضا بالقضاء الإلهي لدى الإنسان.

قال تعالى:

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۗ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝ وَمَا لَنَا إِلَّا أَنْ نَوَكَّلَ عَلَىٰ اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ۝﴾^(٢).

قال الإمام علي عليه السلام:

«أَصْلُ الصَّبْرِ حُسْنُ الْيَقِينِ بِاللَّهِ»^(٣).

وجوب الشفافية أحياناً عند بيان المصداق

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«نَظَرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الْحَسَنِ فَقَالَ: يَا عَبْرَةَ كُلِّ مُؤْمِنٍ، فَقَالَ: أَنَا يَا أَبْتَاهُ؟

قَالَ: نَعَمْ يَا بُنَيَّ»^(٤).

(١) الآبي، منصور بن الحسين، نثر الدر في المحاضرات: ج ١، ص ٢٢٨.

(٢) إبراهيم: آية ١١-١٢.

(٣) الأمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ١٩٨، حديث ٢٥٨.

(٤) ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات: ص ١٠٨، حديث ١.

تدل عبارة «أَنَا يَا أَبَتَاهُ» ضمناً على ضرورة الشفافية أحياناً عندما يراد بيان المصداق.

نقل ابن قولويه بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام أن الإمام الحسين عليه السلام قال:
 «أَنَا قَتِيلُ الْعَبْرَةِ لَا يَذْكُرُنِي مُؤْمِنٌ إِلَّا اسْتَعْبَرَ»^(١).

الأسرار التي يجب أن لا يطلع عليها أحد

ذكر الشيخ المفيد في (الإرشاد):

«وَصَارَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ إِلَى عَمْرٍو بْنِ سَعِيدٍ فَسَأَلَهُ أَنْ يَكْتُبَ لِلْحَسَنِ بْنِ أَمَانَ
 وَيَمْنِيَهُ لِيَرْجِعَ عَنْ وَجْهِهِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَمْرٍو بْنُ سَعِيدٍ كِتَاباً يَمْنِيهِ فِيهِ الصَّلَاةُ وَيُؤَمِّنُهُ عَلَى
 نَفْسِهِ، وَأَنْفَذَهُ مَعَ أَخِيهِ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، فَلَحِقَهُ يَحْيَى وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ بَعْدَ نَفْوْذِ ابْنَيْهِ
 وَدَفَعَا إِلَيْهِ الْكِتَابَ وَجَهَدَا بِهِ فِي الرَّجُوعِ، فَقَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله فِي الْمَنَامِ،
 وَأَمَرَنِي بِمَا أَنَا مَاضٍ لَهُ، فَقَالَا لَهُ: فَمَا تِلْكَ الرَّؤْيَا؟ قَالَ: مَا حَدَّثْتُ أَحَدًا بِهَا، وَلَا أَنَا
 مُحَمَّدٌ أَحَدًا حَتَّى أَلْقَى رَبِّي جَلَّ وَعَزَّ. فَلَمَّا أَيْسَ مِنْهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ أَمَرَ ابْنَيْهِ عَوْنًا
 وَمُحَمَّدًا بِلُزُومِهِ وَالْمَسِيرِ مَعَهُ وَالْجِهَادِ دُونَهُ، وَرَجَعَ مَعَ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ إِلَى مَكَّةَ»^(٢).

حيث يدل قوله عليه السلام: «مَا حَدَّثْتُ أَحَدًا بِهَا» أن هناك أسراراً ينبغي أن لا يطلع
 عليها أولياء الله أي أحد.

قال تبارك وتعالى:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي
 سَاجِدِينَ ﴿٣٠﴾ قَالَ يَبْنَؤُكَ لَا تَقْضُصْ رُءْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ
 عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٣١﴾﴾^(٣).

(١) المصدر السابق: ص ١٠٨، حديث ٣.

(٢) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد: ج ٢، ص ٦٩.

(٣) يوسف: آية ٤-٥.

روي عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال:

«لَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُ مُؤْمِنًا حَتَّى تَكُونَ فِيهِ ثَلَاثُ خِصَالٍ: سُنَّةٌ مِنْ رَبِّهِ، وَسُنَّةٌ مِنْ نَبِيِّهِ ﷺ، وَسُنَّةٌ مِنْ وَلِيِّهِ عليه السلام».

فَأَمَّا السُّنَّةُ مِنْ رَبِّهِ فَكِتْمَانُ السِّرِّ، وَأَمَّا السُّنَّةُ مِنْ نَبِيِّهِ ﷺ فَمَدَارَاةُ النَّاسِ، وَأَمَّا السُّنَّةُ مِنْ وَلِيِّهِ عليه السلام فَالصَّبْرُ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ»^(١).

نظام الأسباب والمسببات في الأمور المعنوية

روي عن الإمام الحسين عليه السلام قوله:

«ذَرَأَ اللَّهُ الْعِلْمَ لِقَاحِ الْمَعْرِفَةِ، وَطُولَ التَّجَارِبِ زِيَادَةَ فِي الْعَقْلِ»^(٢).

يتضح من تفريع «المعرفة» على «العلم» في الجملة الأولى أنّ نظام الأسباب والمسببات سائد في الأمور المعنوية وحاكم عليها، ولهذا نشر العلم واتساعه مؤثر في بلوغ المعرفة.

قال الإمام علي عليه السلام:

«ثَمَرَةُ الْعِلْمِ مَعْرِفَةُ اللَّهِ»^(٣).



(١) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٤٤٢.

(٢) الحلواني، الحسين بن محمد، نزهة الناظر وتنبيه الخاطر: ص ٨٨.

(٣) الآمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٣٢٦، حديث ١.

ب) اليقين

يمثل «اليقين» مرتبة أخرى من مراتب المعرفة ودرجاتها والتي تحتل مكانة أرفع وأعلى من العلم، وقد تمت الإشارة إليها أيضاً في الروايات والأحاديث.

وحول معنى «اليقين» قال العلامة الجعفري:

«كلمة اليقين لها مفهوم أكثر بريقاً من القطع والجزم والعلم، اليقين هو ذلك العلم بالواقع الذي يجعل الإنسان كأنه يشاهد الحقائق عياناً، بحيث إنّ المتيقن يرى الموضوع بوضوح وبشكل تام مباشرة دون أيّ احتمال يزلزله حتى مع تبدل المواقف. إنّ تأثير اليقين في موضوع ما أشدّ ممّا للقطع والجزم والعلم؛ لهذا إن ظهر للإنسان ما يخالف تلك الظواهر العقلية فإنه لا يصل تأثيره درجة التأثير الذي يحصل عند انكشاف خلاف يقينه، فرغم عدم وجود احتمال الخلاف في القطع والجزم والعلم إلا أنّ الناس الاعتياديين لا تصيبهم الدهشة ولا ينفذ التأثير بشدّة إلى أعماق أنفسهم حينما يكتشفون مخالفة الواقع في تلك الحالات الثلاثة سواء في أنفسهم أو عند الآخرين، بينما إذا انكشف خلاف ما تيقنوا به فإنّ الدهشة والتأثير البالغ سينفذان إلى مستوياتهم النفسية.

وهذا اليقين يُقسم في الدراسات المعرفية بحسب رأي الإسلام إلى ثلاث مراحل:

أ) علم اليقين، وهذه المرحلة تحكي عن الجنبّة المرآئية لليقين حيث يظهر الواقع في غاية الصفاء والشفافية.

ب) حق اليقين، تلك الحالة من انكشاف الموضوع بحيث يجلب انتباه جميع مراتب النفس، أو يحتلها علاوة على ذلك، فإنّ الموضوع المتيقن يصبح في هذه المرحلة كمصدر النور الذي يشرق على جميع الخصائص والعلاقات القائمة حول ذلك الموضوع.

(ج) عين اليقين، في هذه المرحلة يصبح ما تيقن به جزءاً من «الأنا الإنسانية»^(١).

عدم وجود الشك في العلم اليقيني

يقول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة:

«عَمِلْتُ [عَلِمْتُ] يَقِيناً غَيْرَ ذِي شَكٍّ...»^(٢).

طبقاً للنسخة التي جاءت فيها «عَلِمْتُ» تصبح كلمة «غَيْرَ ذِي شَكٍّ» قيداً توضيحياً لليقين والعلم؛ لأنّ الشك ليس له طريق إليهما.

قال الإمام علي عليه السلام:

«إِنَّ مِنْ أَحَبِّ عِبَادِ اللَّهِ إِلَيْهِ عَبْدًا أَعَانَهُ اللَّهُ عَلَى نَفْسِهِ... قَدْ أَبْصَرَ طَرِيقَهُ، وَسَلَكَ سَبِيلَهُ، وَعَرَفَ مَنَارَهُ، وَقَطَعَ غَمَارَهُ، وَاسْتَمْسَكَ مِنَ الْعُرَى بِأَوْثِقِهَا، وَمِنَ الْحَبَالِ بِأَمْتِنِهَا، فَهُوَ مِنَ الْيَقِينِ عَلَى مِثْلِ ضَوْءِ الشَّمْسِ»^(٣).

وذكر أبو هلال العسكري في معجمه:

«وقيل: الموقن العالم بالشيء بعد حيرة الشك، والشاهد أنهم يجعلونه ضدّ الشك، فيقولون: شك ويقين، وقلما يقال: شك وعلم، فاليقين ما يزيل الشك دون غيره من أضداد العلوم»^(٤).

وقال العلامة الطباطبائي:

«اليقين: هو اشتداد الإدراك الذهني بحيث لا يقبل الزوال والوهن»^(٥).

(١) الجعفري التبريزي، محمد تقي، معرفت شناسي (نظرية المعرفة): ص ١٢٣-١٢٤.

(٢) ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال: ج ١، ص ٣٤٥.

(٣) نهج البلاغة: خطبة ٨٧.

(٤) العسكري، الحسن بن عبدالله، الجزائري، نور الدين، معجم الفروق اللغوية: ص ٣٧٤.

(٥) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ٢، ص ٢٤٨.

العمل اليقيني

طبقاً للنسخة التي وردت فيها «عَمِلْتُ» يتبين قيام بعض أعمال الإنسان على أساس اليقين ومأخوذة منه.

قال الإمام علي عليه السلام:

«لَوْ صَحَّ يَقِينُكَ لَمَا اسْتَبَدَلْتَ الْبَاقِيَ بِالْفَانِي، وَلَا بَعْتَ السَّنِيَّ بِالْدَّيِّ»^(١).

حسن اليقين

مما قاله الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة مبتهاً:

«اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَقْبَلْنَا مُوقِنِينَ»^(٢).

والذي يدل مضمونه على أن اليقين من الأمور التي يحسن تحصيلها وبلوغها.

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«اعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّ التَّقْوَى دَارُ حِصْنٍ عَزِيزٍ، وَالْفُجُورَ دَارُ حِصْنٍ ذَلِيلٍ، لَا يَمْنَعُ أَهْلَهُ، وَلَا يُخْرِزُ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ، أَلَا وَبِالتَّقْوَى تُقَطَّعُ حُمَةُ الْخَطَايَا، وَبِاليَقِينِ تُدْرَكُ الْغَايَةُ الْقُصْوَى»^(٣).

وقال السيّد علي خان المدني في شرحه لبعض فقرات الدعاء الحادي والعشرين

من الصحيفة السجادية:

«قوله عليه السلام: (واشغل بطاعتك نفسي) إلى آخره، سأل عليه السلام أن يجعل سبحانه نفسه

مستغرقة في طاعته تعالى، متوجهة بكلّيتها عن كلّ ما يوجب الالتفات عن حضرته

المقدّسة، من الاهتمام بعلائق أحوال الدنيا الواردة عليه من خير وشر؛ ليكون هواه

(١) الأمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ٥٦٧، حديث ٢١.

(٢) ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال: ج ١، ص ٣٤٧.

(٣) نهج البلاغة: خطبة ١٥٧.

وإرادته فيما أَرادَه اللهُ تعالى وقَدَّرَه وقضاه، فلا يَحِبُّ إلا ما أَحَبَّ اللهُ، ولا يَسْخَطُ إلا ما سَخَطَ اللهُ، وهو مقام الرضا بالقضاء. ووجه كون شغل النفس بالطاعة عن كلِّ وارد عليها علةٌ وسبباً للرضا والتسليم: أنَّ النفس إذا كانت مستغرقة في طاعته سبحانه، معرضة عن الالتفات إلى غيره، حصل لها الزهد الحقيقي في الدنيا، فيقرب من الحقِّ فتحصل له مرتبة اليقين بالله وبكَماله وحسن فعاله، واليقين يوجب المحبَّة فيحصل له الرضا؛ لأنَّ الرضا لازم للمحبَّة وتابع لها.

وبالجملة: السالك إذا اشتغل بما يعنيه وترك ما لا يعنيه حقيقة، وصل إلى مقام المشاهدة الذي هو عين اليقين، وإذا وصل إلى هذا المقام استولت على قلبه المحبَّة التامة، وإذا حصلت له المحبَّة ثبت في مقام الرضا، فيرضى بكلِّ ما صدر ويصدر منه تعالى، كما هو شأن المحبِّ مع محبوبه، فلا يَحِبُّ شيئاً ممَّا سَخَطَه، ولا يَسْخَطُ شيئاً ممَّا أَحَبَّه، بل يستقبل أحكامه بالفرح، ولا يكون لنفسه معها مقترح، وأهل الرضا يرون من الرضا أن لا يذمَّ شيئاً ولا يعيبه، ولا يتسَخَّط ما أَرادَه وفجَّر موادَّه، ولا يزرى على ما أبدعَه وخلقَه وصنعه، بل يشاهد الصانع في جميع ما صنعه، بل لا ينبغي أن يقول العبد: هذا يوم شديد الحرِّ، ولا هذا يوم شديد البرد، ولا يقول: الفقر بلاء ومحنة، ولا العيال همَّ وتعب، والاحتراق كدٌّ ونصب، ولا يعقد بقلبه من ذلك ما لا يفوه بلسانه، بل يرضى القلب ويسلِّم اللسان، وتطيب الروح وتسكن النفس، ويستسلم الفعل بوجود حلاوة القضاء والتقدير، واستحسان محكم التدبير^(١).

ضرورة التيقن بالوعود الإلهية

روي عن الإمام الحسين عليه السلام قوله في دعاء المظلوم مخاطباً ربَّ العزة والجلالة:

(١) المدني، علي خان بن أحمد، رياض السالكين في شرح صحيفة سيِّد الساجدين (صلوات الله عليه): ج ٣، ص ٤٧٦.

«وَكَادَ الْقُنُوطُ يَسْتَوِي عَلَيَّ لَوْ لَا الثَّقَةُ بِكَ وَالْيَقِينُ بِوَعْدِكَ»^(١).

ويتضح من مضمون هذه الجملة أن الناس ولا سيما المظلومين يجب أن يتقنوا بالوعد الإلهية بالنصر.

يقول تبارك وتعالى:

﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^(٢).

ما يورث اليقين

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه سأل الله في دعاء الاحتجاب قائلاً:
«إِصْرِفْ عَنِّي أَدِيَّةَ الْعَالَمِينَ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَجْمَعِينَ، بِالْأَشْبَاحِ النُّورَانِيَّةِ،
وَبِالْأَسْمَاءِ السُّرِّيَّاتِيَّةِ، وَبِالْأَقْلَامِ الْيُونَانِيَّةِ، وَبِالْكَلِمَاتِ الْعِبْرَانِيَّةِ، وَبِمَا نَزَلَ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ
يَقِينِ الْإِيضَاحِ»^(٣).

إذ يبدو من إضافة الصفة للموصوف في «يَقِينِ الْإِيضَاحِ» أن المراد هو الإيضاح الموجب لليقين، ويتبين من المعنى الإجمالي لمضمون كلام الإمام عليه السلام أن هناك أموراً تورث اليقين لدى المخاطب، ومنها الوصايا والتعاليم الدينية التي اشتملت عليها الكتب السماوية.

يقول عليه السلام:

﴿أَفَمَنْ سَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ، لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾^(٤).

الفرق بين الإيمان واليقين

ابن العديم روى بسنده عن محمد بن مسعر قال:

«قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام: كَمْ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ؟»

(١) ابن طاووس، علي بن موسى، مهج الدعوات ومنهج العبادات: ص ٢٦٩.

(٢) الحجر: آية ٩٩.

(٣) ابن طاووس، علي بن موسى، مهج الدعوات ومنهج العبادات: ص ٢٩٨.

(٤) الزمر: آية ٢٢.

قَالَ: أَرْبُعُ أَصَابِعَ، قَالَ: بَيِّنْ، قَالَ: الْيَقِينُ مَا رَأَيْتُهُ عَيْنِكَ، وَالْإِيمَانُ مَا سَمِعْتُ أذُنَكَ وَصَدَّقْتَ بِهِ، قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ مِمَّنْ أَنْتَ مِنْهُ، ذُرِّيَّةُ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ^(١).

وروى يحيى بن يعمن قائلًا:

«كُنْتُ عِنْدَ الْحُسَيْنِ عليه السلام إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ مُتَلَمِّمًا أَسْمُرَ شَدِيدَ السُّمْرِ، فَسَلَّمَ وَرَدَّ الْحُسَيْنُ عليه السلام، فَقَالَ: يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ مَسْأَلَةٌ، قَالَ: هَاتِ، قَالَ: كَمْ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ؟ قَالَ: أَرْبُعُ أَصَابِعَ، قَالَ: كَيْفَ؟ قَالَ: الْإِيمَانُ مَا سَمِعْنَاهُ وَالْيَقِينُ مَا رَأَيْنَاهُ وَبَيْنَ السَّمْعِ وَالْبَصْرِ أَرْبُعُ أَصَابِعَ. قَالَ: فَكَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟ قَالَ: دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ. قَالَ: فَكَمْ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ؟ قَالَ: مَسِيرَةٌ يَوْمٍ لِلشَّمْسِ. قَالَ: فَمَا عِزُّ الْمَرْءِ؟ قَالَ: اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ»^(٢).

عند التأمل فيما تقدّم من الروايات نستنتج أنّ هناك فرقاً بين الإيمان واليقين؛ لأن:

١- الإيمان ينشأ من المسموعات التي يتبعها تصديق قلبي.

٢- اليقين ينشأ من المبصرات التي تتم رؤيتها بالعين.

ونقل الكليني بسنده عن الوشاء أنّه سمع أبا الحسن عليه السلام يقول:

«الْإِيمَانُ فَوْقَ الْإِسْلَامِ بِدَرَجَةٍ، وَالتَّقْوَى فَوْقَ الْإِيمَانِ بِدَرَجَةٍ، وَالْيَقِينُ فَوْقَ التَّقْوَى بِدَرَجَةٍ، وَمَا قَسِمَ فِي النَّاسِ شَيْءٌ أَقْلُ مِنَ الْيَقِينِ»^(٣).

تأثير المرئيات في يقين الإنسان

يستفاد أيضاً من قوله عليه السلام: «وَالْيَقِينُ مَا رَأَيْنَاهُ» أنّ المبصرات مؤثرة في إيجاد

اليقين لدى الإنسان.

(١) ابن العديم، عمر بن أحمد، بغية الطلب في تاريخ حلب: ج٦، ص٢٥٨٩.

(٢) الخزاز الرازي، علي بن محمد، كفاية الأثر في النص على الأئمة الاثني عشر: ص٢٣٢-٢٣٣.

(٣) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج٢، ص٥١، حديث ٢.

يقول تبارك وتعالى:

﴿وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَلِيَكُوْنَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ﴾^(١).

اليقين الناشئ من فطنة الإيمان

قال الإمام الحسين عليه السلام:

«إِنَّ الْمُؤْمِنَ اتَّخَذَ اللَّهُ عِصْمَتَهُ، وَقَوْلَهُ مِرَاتَهُ، فَمَرَّةً يَنْظُرُ فِي نَعْتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَارَةً يَنْظُرُ فِي وَصْفِ الْمُتَجَرِّبِينَ، فَهُوَ مِنْهُ فِي لَطَائِفَ، وَمِنْ نَفْسِهِ فِي تَعَارُفٍ، وَمِنْ فِطْنَتِهِ فِي يَقِينٍ، وَمِنْ قُدْسِهِ عَلَى تَمَكِينٍ»^(٢).

من خلال ملاحظة عبارة «وَمِنْ فِطْنَتِهِ فِي يَقِينٍ» التي تتحدث عن المؤمن نتوصل إلى أن الإيمان يبعث على حصافة فكر الإنسان وصوابه، ولهذا يتصف المؤمنون بسلامة الفكر، وهذه الصفة تقودهم لبلوغ درجة اليقين.

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله:

«اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ»^(٣).

المؤمن الواقعي من أهل اليقين

إذا تأملنا في الحديث السابق للإمام الحسين عليه السلام وبالضبط في عبارة «وَمِنْ فِطْنَتِهِ فِي يَقِينٍ» والتي تعدّ من صفات المؤمن، يتبيّن لنا أن المؤمنين من أهل اليقين.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«الْمُؤْمِنُ لَهُ قُوَّةٌ فِي دِينٍ، وَحَزْمٌ فِي لَيْنٍ، وَإِيمَانٌ فِي يَقِينٍ، وَحِرْصٌ فِي فِقْهِ، وَنَشَاطٌ فِي

هُدًى...»^(٤).

(١) الأنعام: آية ٧٥.

(٢) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٤٨.

(٣) الصفار، محمد بن الحسن، بصائر الدرجات في فضائل آل محمد (صلوات الله عليهم أجمعين):

ص ٣٥٥، حديث ٤.

(٤) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٢٣١، حديث ٤.

قال الإمام الباقر عليه السلام:

«الْمُؤْمِنُ أَصْلَبُ مِنَ الْجَبَلِ، الْجَبَلُ يُسْتَقَلُّ مِنْهُ، وَالْمُؤْمِنُ لَا يُسْتَقَلُّ مِنْ دِينِهِ شَيْءٌ»^(١).

معرفة الناس القلبية بلزوم البيعة لأمر المؤمنين عليهم السلام

نقل الطبرسي في الاحتجاج:

«رُوي: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ يَخْطُبُ النَّاسَ عَلَى مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم، فَذَكَرَ فِي خُطْبَتِهِ: أَنَّهُ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ.

فَقَالَ لَهُ الْحُسَيْنُ عليه السلام مِنْ نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ: أَنْزِلْ أَيْهَا الْكُذَّابُ عَنْ مِنْبَرِ أَبِي رَسُولِ اللَّهِ لَا [إِلَى] مِنْبَرِ أَبِيكَ.

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَمَنْبَرُ أَبِيكَ لِعَمْرِي يَا حُسَيْنُ، لَا مِنْبَرُ أَبِي، مَنْ عَلَّمَكَ هَذَا؟! أَبُوكَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟!

فَقَالَ لَهُ الْحُسَيْنُ عليه السلام: إِنْ أَطَعِ أَبِي فِيمَا أَمَرَنِي فَلِعَمْرِي إِنَّهُ هَادٍ وَأَنَا مُهْتَدٍ بِهِ، وَلَهُ فِي رِقَابِ النَّاسِ الْبَيْعَةُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ، نَزَلَ بِهَا جِبْرَائِيلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، لَا يُنْكِرُهَا إِلَّا جَا حِدٌ بِالْكِتَابِ، قَدْ عَرَفَهَا النَّاسُ بِقُلُوبِهِمْ، وَأَنْكَرُوهَا بِأَلْسِنَتِهِمْ، وَوَيْلٌ لِلْمُنْكَرِينَ حَقًّا أَهْلَ الْبَيْتِ، مَاذَا يَلْقَاهُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ إِدَامَةِ الْغَضَبِ وَشِدَّةِ الْعَذَابِ»^(٢).

حيث يستتج من جملة «قَدْ عَرَفَهَا النَّاسُ بِقُلُوبِهِمْ» أَنَّ النَّاسَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ كَانَتْ قُلُوبُهُمْ مُؤَمَّنَةٌ بِوَلَايَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام وَقَرَبِهِ مِنَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَلِزُومِ الْبَيْعَةِ لَهُ، إِلَّا أَنَّ الْكَثِيرَ مِنْهُمْ أَنْكَرُوا ذَلِكَ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَتَنَكَّرُوا لَهُ.

(١) المصدر السابق: ج ٢، ص ٢٤١، حديث ٣٧.

(٢) الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج ٢، ص ٢٩٢.

قال الإمام علي عليه السلام:

«أما والله لقد تَمَمَّصَهَا فَلَانَ [ابنُ أَبِي قُحَافَةَ] وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ حَجَلِي مِنْهَا حَجَلُ الْقُطْبِ مِنْ الرَّحَى، يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ، وَلَا يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ»^(١).

وجوب الاعتقاد القلبي الصحيح

روي عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام بيانه لقوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ثم تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١١﴾، حيث قال:

«قَالَ اللَّهُ عز وجل [لَهُمْ]: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ يَعْنِي تَوَلَّى أَسْلَافُكُمْ ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ عَنِ الْقِيَامِ بِهِ، وَالْوَفَاءِ بِمَا عُوْهُدُوا عَلَيْهِ ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ يَعْنِي عَلَى أَسْلَافِكُمْ، لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِإِمْهَالِهِ إِيَّاهُمْ لِلتَّوْبَةِ، وَإِنْظَارِهِمْ لِحُجُوبِ الْخَطِيئَةِ بِالْإِنَابَةِ ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الْمَغْبُوبِينَ، قَدْ خَسِرْتُمْ الْآخِرَةَ وَالْأُولَى؛ لِأَنَّ الْآخِرَةَ [قَدْ] فَسَدَتْ عَلَيْكُمْ بِكُفْرِكُمْ، وَالْأُولَى كَانَ لَا يَحْصُلُ لَكُمْ نَعِيمُهَا لِاخْتِرَامِنَا لَكُمْ، وَتَبَقِيَ عَلَيْكُمْ حَسْرَاتٌ نُفُوسِكُمْ وَأَمَانِيكُمْ الَّتِي قَدْ اقْتَطَعْتُمْ دُونَهَا.

وَلَكِنَّا أَمْهَلْنَاكُمْ لِلتَّوْبَةِ، وَأَنْظَرْنَاكُمْ لِلْإِنَابَةِ، أَيَّ فَعَلْنَا ذَلِكَ بِأَسْلَافِكُمْ فَتَابَ مَنْ تَابَ مِنْهُمْ، فَسَعِدَ، وَخَرَجَ مِنْ صُلْبِهِ مَنْ قَدَّرَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْهُ الذَّرِيَّةُ الطَّيِّبَةُ الَّتِي تَطَيَّبَ فِي الدُّنْيَا [بِاللَّهِ تَعَالَى] مَعِيشَتِهَا، وَتَشَرَّفَ فِي الْآخِرَةِ - بِطَاعَةِ اللَّهِ - مَرْتَبَتِهَا.

وَقَالَ الْحَسِينُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام: أَمَا إِنَّهُمْ لَوْ كَانُوا دَعَوْا اللَّهَ بِمُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ بِصِدْقٍ مِنْ نِيَّاتِهِمْ، وَصِحَّةِ اعْتِقَادِهِمْ مِنْ قُلُوبِهِمْ أَنْ يَعْصِمَهُمْ حَتَّى لَا يُعَانِدُوهُ بَعْدَ مُشَاهَدَةِ تِلْكَ الْمَعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ، لَفَعَلَ ذَلِكَ بِجُودِهِ وَكَرَمِهِ، وَلَكِنَّهُمْ قَصُرُوا، وَآثَرُوا الْهُوَى بِنَا وَمَضَوْا مَعَ الْهُوَى فِي طَلَبِ لَدَاتِهِمْ»^(٣).

(١) نهج البلاغة: خطبة ٣.

(٢) البقرة: آية ٦٣-٦٤.

(٣) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام: ص ٢٦٧، حديث ١٣٥.

يتحصل من عبارة الإمام عليه السلام «وَصِحَّةَ اعْتِقَادِهِمْ مِنْ قُلُوبِهِمْ» ضرورة أن يكون لدى الإنسان اعتقاد قلبي صحيح بفضل الله سبحانه ورعايته.

قال الإمام الباقر عليه السلام:

«...وَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَا عِلْمَ كَطَلَبِ السَّلَامَةِ، وَلَا سَلَامَةَ كَسَلَامَةِ الْقَلْبِ»^(١).

من الأمور التي لا تقبل الشك

ذكر الخوارزمي في (مقتل الحسين):

«فَقَالَ عُمَرُ بْنُ سَعْدٍ: وَيَلِكُمْ كَلِمُوهُ فَإِنَّهُ ابْنُ أَبِيهِ، وَاللَّهِ، لَوْ وَقَفَ فِيكُمْ هَكَذَا يَوْمًا جَدِيدًا لَمَا قَطَعَ وَلَمَا حَصَرَ، فَكَلِمُوهُ، فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ شِمْرُ بْنُ ذِي الْجَوْشَنِ، فَقَالَ: يَا حُسَيْنُ، مَا هَذَا الَّذِي تَقُولُ؟ أَفَهَمْنَا حَتَّى نَفْهَمَ؟»

فَقَالَ عليه السلام: أَقُولُ لَكُمْ: اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ وَلَا تَقْتُلُونِ، فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكُمْ قَتْلِي وَلَا انْتِهَاكَ حُرْمَتِي، فَإِنِّي ابْنُ بِنْتِ نَبِيِّكُمْ، وَجَدَّتِي خَدِيجَةُ زَوْجَةُ نَبِيِّكُمْ، وَلَعَلَّهُ قَدْ بَلَغَكُمْ قَوْلُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله: الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَا خَلَا النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ، فَإِن صَدَقْتُمُونِي بِمَا أَقُولُ، وَهُوَ الْحَقُّ، فَوَاللَّهِ مَا تَعَمَّدْتُ كَذِبًا مُنْذُ عَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ يَمَقْتُ عَلَيْهِ أَهْلَهُ، وَإِن كَذَّبْتُمُونِي فَإِن فِيكُمْ مِنَ الصَّحَابَةِ مِثْلُ: جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وَسَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، وَزَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ، وَأَنْسِ بْنِ مَالِكٍ، فَاسْأَلُوهُمْ عَنْ هَذَا، فَإِنَّهُمْ يُخْبِرُونَكُمْ أَنَّهُمْ سَمِعُوهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله، فَإِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ أَمْرِي، أَفْتَشْكُونَ أَيُّ ابْنِ بِنْتِ نَبِيِّكُمْ؟! فَوَاللَّهِ، مَا بَيْنَ الْمَشْرِقَيْنِ وَالْمَغْرِبَيْنِ ابْنُ بِنْتِ نَبِيِّ غَيْرِي. وَيَلِكُمْ، أَنْ تَطْلُبُونِي بِدَمِ أَحَدٍ مِنْكُمْ قَتَلْتُهُ، أَوْ بِمَالٍ اسْتَمْلَكْتُهُ، أَوْ بِقِصَاصٍ مِنْ جِرَاحَاتٍ اسْتَهْلَكْتُهُ؟! فَسَكُّنُوا عَنْهُ لَا يُجِيبُونَهُ»^(٢).

فإذا لاحظنا المدلول التضمني لجملة «أَفْتَشْكُونَ أَيُّ ابْنِ بِنْتِ نَبِيِّكُمْ...» نخرج

(١) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليه وسلم): ص ٢٨٦.

(٢) أخطب خوارزم، الموفق بن أحمد، مقتل الحسين عليه السلام: ج ١، ص ٣٥٧-٣٥٨.

بمحصلة طبيعية مفادها أنّ هناك من الأمور ما لا يقبل الشك ولا الارتياب، منها
انتساب الإمام الحسين عليه السلام للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

فقد نقل عن يعلي بن مرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«حُسَيْنٌ مِنِّي وَأَنَا مِنْ حُسَيْنٍ، أَحَبَّ اللَّهُ مَنْ أَحَبَّ حُسَيْنًا»^(١).

(١) الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي: ج ٥، ص ٦٥٨-٦٥٩، حديث ٣٧٧٥؛ ابن ماجه،

محمد بن يزيد، سنن ابن ماجه: ج ١، ص ٥١، حديث ١٤٤.



الخامس : خلفيات المعرفة ومؤهلاتها

أ) التقوى

هناك مجموعة من الأمور التي تهيئ الأرضية وتعدّها لتحقيق المعرفة، ولا نعني بذلك العناصر والعوامل الرئيسة للمعرفة أو أدواتها، وإنما هي ما يمكن أن يعبر عنها بالمعدّات والمؤهلات لها، و«التقوى» واحدة منها، وقد أشارت إلى ذلك مجموعة من الروايات الشريفة.

وقال العلامة الجعفري بشأن التقوى:

«بمقدار ما يوفق الإنسان لتزكية النفس والوصول لمقام التقوى، سيزاد في معرفته بمسائل (الحياة المعقولة) بنفس ذلك المقدار»^(١).

تأثير التقوى في تطور حياة الإنسان

تطرق الإمام الحسين عليه السلام للقيامه وأهوالها، وخلال ذلك قال موصياً:
«... أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ ضَمِنَ لِمَنْ اتَّقَاهُ أَنْ يُحَوِّلَهُ عَمَّا يَكْرَهُ إِلَى مَا يُحِبُّ، وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ...»^(٢).

حيث يستوحى من مضمون هذه الوصية أنّ التقوى ذات تأثير في تطور الجوانب المختلفة في حياة الإنسان وتطورها ومنها المعرفة.

روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«حَصَلَةٌ مَنْ لَزِمَهَا أَطَاعَتْهُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ، وَرَبِحَ الْفَوْزَ بِالْجَنَّةِ، قِيلَ: مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: التَّقْوَى، مَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ أَعَزَّ النَّاسِ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ تَلَا: ﴿وَمَنْ

(١) الجعفري التبريزي، محمد تقي، معرفت شناسي (نظرية المعرفة): ص ٢٨٩.

(٢) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٤٠.

يَتَّقِي اللَّهُ لِيَجْعَلَ لَهُ مَخْرَجًا ﴿١﴾ وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْسَبُ ﴿٢﴾».

تأثير ارتقاء التقوى في سموروح الإنسان

ذكر التلمساني في (الجوهرة):

«وَمَا تُؤْفِي الْحَسَنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَدْخَلَهُ قَبْرَهُ الْحَسَيْنُ وَمُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ وَعُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، ثُمَّ وَقَفَ عَلَى قَبْرِهِ وَقَدْ اغْرُورَقَتْ عَيْنَاهُ فَقَالَ: رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ أَبَا مُحَمَّدٍ، فَلَمَّ عَزَّتْ حَيَاتُكَ لَقَدْ هَدَّتْ وَفَاتِكَ، وَلِنِعْمَ الرُّوحُ رُوحٌ تَضَمَّنَهُ بَدْنُكَ، وَلِنِعْمَ الْجَسَدُ جَسَدٌ تَضَمَّنَهُ كَفْنُكَ، وَلِنِعْمَ الْكَفْنُ كَفْنٌ تَضَمَّنَهُ لِحُدُوكَ، وَكَيْفَ لَا تَكُونُ كَذَلِكَ وَأَنْتَ حَلَفَ التَّقَى؟...»^(٣).

إذ يتحصل من جملة «... وَأَنْتَ حَلَفَ التَّقَى» وسياقها أن لرعاية التقوى وملازمتها تأثير في مباركة روح الإنسان التي هي منشأ معرفته.

فقد روي عن الإمام علي عليه السلام أنه قال:

«مَنْ عَرَسَ أَشْجَارَ التَّقَى جَنَى ثَمَارَ الْهُدَى»^(٤).

وقال أيضاً:

«لِلْمَتَّقِيِّ هُدَى فِي رَشَادٍ، وَتَخْرُجُ عَنْ فَسَادٍ، وَحِرْصٌ فِي إِصْلَاحٍ مَعَادٍ»^(٥).

وقال كذلك:

«أَيْنَ الْعُقُولُ الْمُسْتَضِيحَةُ بِمَصَابِيحِ الْهُدَى، وَالْأَبْصَارُ اللَّامِحَةُ إِلَى مَنَارِ التَّقْوَى؟»^(٦).

(١) الطلاق: آية ٢-٣.

(٢) الكراجكي، محمد بن علي، كنز الفوائد: ج ٢، ص ١٠.

(٣) التلمساني، محمد بن أبي بكر، الجوهرة في نسب الإمام علي وآله عليه السلام: ص ٣٥.

(٤) الكراجكي، محمد بن علي، كنز الفوائد: ج ١، ص ٢٧٩.

(٥) الأمدى، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٥٤٦، حديث ٤٠.

(٦) نهج البلاغة: خطبة ١٤٤.

ب) الإيمان

يعدّ «الإيمان» من الأمور الأخرى المعدّة والمهيئة للمعرفة، وقد أشير إليه في الروايات أيضاً.

قال العلامة الجعفري في ذلك:

«إنّ المعارف التي تبرز بدافع عامل الإيمان هي أشدّ المعارف تهدئة وتحركاً، ونحن سنمر على تعريف الإيمان في هذا المبحث بصورة مجملة ونوكل تفصيله في شرح وتوضيح خطب نهج البلاغة.

يمكن القول في التعريف الإجمالي للإيمان: الإيمان عبارة عن قبول حقيقة ما وجعلها العنصر الأساس والفعال للشخصية، والمفسر والمبرر لجميع أحوالها.

- الإيمان هو ما يضيء درب الإنسان في الزمن الحاضر والمستقبل، وبواسطته يصبح من الممكن الوصول للمستقبل المثالي المطلوب للشخصية.

- الإيمان بحقيقة كالشمس التي تشرق ولا تغرب على جميع زوايا حياة الإنسان المظلمة، فيمنع عن اندثار الشخصية وينجيها من التعدد.

- الإيمان ينظم حياة الإنسان ويجعلها متناسقة مع الأنباط والمعايير الثابتة.

- الإيمان يعطي للحياة نكهة وطعماً إزاء أيّ عمل يصدر من الإنسان وصولاً للمثالية المطلوبة.

إنّ خصائص الإيمان هذه لا يشك فيها أيّ مفكر، بيد أنّ ما يقع فيه اختلاف وجهات النظر والتردد هو ذلك الهدف المطلوب الموجب لظهور الإيمان ورسوخه في سريرة الإنسان وروعه، فإذا ما تقبلنا هذه الحقيقة وهي أنّ الهدف المطلوب يؤدي إلى نشوء الإيمان في الشخصية الإنسانية، لزم اتصافه بدرجة أعلى وأعظم من المحبوبة

والمرغوبة المتوفرة في قضايا الإنسان العابرة، وهكذا إذا ما تقبلنا أنّ الهدف المطلوب هو السبب وراء نشوء الإيمان، وجب إشباع الشعور بالكمال اللامتناهي في الإنسان، ونستنتج من ذلك أنّ موضوع الإيمان يجب أن يكون أعلى من مزايا الطبيعة الممتعة والمتغيرة غير القادرة على توفير الهدف المطلوب والمطلق للإنسان المتعطش للكمال^(١).

معارف المؤمن النفسية

قال الإمام الحسين عليه السلام:

«إِنَّ الْمُؤْمِنَ اتَّخَذَ اللَّهُ عِصْمَتَهُ، وَقَوْلَهُ مِرَاتَهُ، فَمَرَّةً يَنْظُرُ فِي نَعْتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَارَةً يَنْظُرُ فِي وَصْفِ الْمُتَجَرِّبِينَ، فَهُوَ مِنْهُ فِي لَطَائِفٍ، وَمِنْ نَفْسِهِ فِي تَعَارُفٍ، وَمِنْ فِطْنَتِهِ فِي يَقِينٍ، وَمِنْ قُدْسِهِ عَلَى تَمَكِينٍ»^(٢).

يتحصل من عبارة «وَمِنْ نَفْسِهِ فِي تَعَارُفٍ» أنّ المؤمن انطلاقاً من إيمانه سيكتسب معارف نفسية من خلال التدبر بآيات القرآن والتأمل فيها، وقد دلّ عليه تعليق الحكم على الوصف المشعر بالعلوية.

يقول تبارك وتعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٣﴾﴾

(١) الجعفرى التبريزى، محمد تقي، معرفت شناسي (نظرية المعرفة): ص ٦٧.

(٢) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٤٨.

(٣) الأنفال: آية ٢-٤.

اليقين الناشئ من الإيمان

يشير الحديث السابق للإمام الحسين عليه السلام عند التأمل في قوله: «وَمِنْ فِطْنَتِهِ فِي يَقِينٍ» إلى أن الإيمان يبعث على حصافة الإنسان وفطنته، ولهذا اتصف المؤمنون بالفطنة، وهذه الفطنة تقودهم لبلوغ اليقين.

روي عن الإمام علي عليه السلام أنه قال:

«اتَّقُوا ظُنُونَ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ»^(١).

وروي أيضاً عن الإمام الرضا عليه السلام قوله:

«وَمَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَهُ فِرَاسَةٌ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ عَلَى قَدْرِ إِيْمَانِهِ وَمَبْلَغِ اسْتِبْصَارِهِ

وَعِلْمِهِ»^(٢).

(١) نهج البلاغة: الكلمات القصار ٣٠٩.

(٢) ابن بابويه، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ٢، ص ٢٠٠، حديث ١.



السادس : أنواع المعرفة

أنواع المعرفة

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال مخاطباً نافع بن الأزرق:
«أَصِفْ إِيَّاهِي بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَأَعْرِفْهُ بِمَا عَرَفَ بِهِ نَفْسَهُ: لَا يُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ،
وَلَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ، فَهُوَ قَرِيبٌ غَيْرٌ مُلْتَصِقٌ، وَبَعِيدٌ غَيْرٌ مُتَقَصِّصٌ، يُوَحِّدُ وَلَا يُعَضُّ،
مَعْرُوفٌ بِالْآيَاتِ، مَوْصُوفٌ بِالْعَلَامَاتِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ»^(١).
إذ يستفاد من عبارة «مَعْرُوفٌ بِالْآيَاتِ» أنَّ تحصيل المعرفة يقع وفقاً لأساس من
القسمة على نوعين:

١- المعرفة عبر الكلام اللفظي الذي تؤلفه الآيات والروايات:

قال جل وعلا:

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(٢).

٢- المعرفة عبر الكلام الفعلي وهو آيات الله الفعلية وعلائم قدرته:

قال سبحانه:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي
الْأَلْبَابِ ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطُلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٣).

(١) ابن بابويه، محمد بن علي، التوحيد: ص ٧٩-٨٠، حديث ٣٥.

(٢) الحشر: آية ٢٢.

(٣) آل عمران: آية ١٩٠-١٩١.

المعرفة الإشراقية

روي عن الإمام الحسين عليه السلام قوله متضرعاً إلى الله تعالى:
«أَنْتَ الَّذِي أَشْرَقْتَ الْأَنْوَارَ فِي قُلُوبِ أَوْلِيَائِكَ حَتَّى عَرَفُوكَ وَوَحَّدُوكَ»^(١).
حيث يفيد المدلول التضمني لهذه الجملة أن للمعرفة أنواعاً، نوع مشائي يدرك
بالعقل، وآخر إشراقي يتحصل بتهديب النفس وتركيتها، وقد تقدمت الإشارة
إليه.

قال جل وعلا:

﴿مَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾^(٢).

عدم اكتسابية المعرفة الإشراقية

إذ يتبين من إسناد كلمة «إشراق» لله تباركت آلاؤه بأن المعرفة الإشراقية ليست
اكتسابية وإنما إلهامية.

عن فضيل قال:

«قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: ﴿أَوْلِيَايَكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾^(٣) هَلْ لَهُمْ فِيهَا
كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمْ صُنْعٌ؟ قَالَ: «لَا»^(٤).

المدركات عن طريق العين

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه ابتهل إلى الحق سبحانه في دعاء التسبيح قائلاً:

(١) ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال: ج ١، ص ٣٤٩.

(٢) الأنعام: آية ١٢٥.

(٣) المجادلة: آية ٢٢.

(٤) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ١٥، حديث ٢.

«سُبْحَانَ مَنْ عَلَا فَوْقَ الرِّيَّاتِ بِالإِهْيَةِ، فَلَا عَيْنَ تُدْرِكُهُ»^(١).

فيدل مضمون الجملة الأخيرة على أنّ بعض مدركات الإنسان تتحقق بواسطة

العين.

يقول عزّ وجلّ:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ
وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٢).

(١) قطب الدين الراوندي، سعيد بن هبة الله، الدعوات: ص ٩٢.

(٢) النحل: آية ٧٨.



السابع: آثار المعرفة

الرؤية الناشئة عن المعرفة

روي عن الإمام الحسين عليه السلام قوله داعياً:

«أَنْتَ الَّذِي تَعَرَّفْتَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ فَرَأَيْتَكَ ظَاهِرًا فِي كُلِّ شَيْءٍ»^(١).

يقودنا مضمون هذه الجملة إلى أن معرفة الله جل وعلا تبعث على رؤية الحق

بوضوح في كل شيء.

روي عن الإمام السجاد عليه السلام تضرعه في أحد الأدعية:

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الَّذِينَ فَتَقَتْ لَهُمُ رَتْقُ عَظِيمٍ عَوَاشِي
جُفُونٍ حَدَقِ عِيُونَ الْقُلُوبِ حَتَّى نَنْظُرُوا إِلَى تَدْبِيرِ حِكْمَتِكَ وَشَوَاهِدِ حُجَجِ بَيِّنَاتِكَ،
فَعَرَفُوكَ بِمَحْضُولِ فِطْنِ الْقُلُوبِ، وَأَنْتَ فِي عَوَامِرِ سَرَاتِ حُجُبِ الْقُلُوبِ»^(٢).

المعرفة مقدّمة على الطاعة

روي عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام قوله:

«وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام: مَنْ عَرَفَ حَقَّ أَبُوَيْهِ الْأَفْضَلَيْنِ: مُحَمَّدٍ وَعَلِيٍّ عليهما السلام،
وَأَطَاعَهُمَا حَقَّ الطَّاعَةِ قَبْلَ لَهُ: تَبَحَّحَ فِي أَيِّ الْجَنَانِ شَتَّتَ»^(٣).

يتأتى من تفريع كلمة «الطاعة» على «المعرفة» في هذا الحديث أن معرفة

الحقوق مقدّمة على الطاعة، ولهذا فسّرت كلمة «يعبدون» بـ«يعرفون» في بعض

(١) ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال: ج ١، ص ٣٥٠.

(٢) المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: ج ٩١، ص ١٢٨.

(٣) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام: ص ٣٣٠، حديث ١٩٣.

التفاسير^(١)، فهناك يقول عز من قائل:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢).

تأثير العقيدة والمعرفة في سلوك الإنسان

ذكر الخوارزمي في (مقتل الحسين):

«ثُمَّ التَفَّتِ الْحَسِينُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، فَلَمْ يَرِ أَحَدًا مِنَ الرِّجَالِ، فَخَرَجَ عَلَيَّ بِنُ الْحَسِينِ وَهُوَ زَيْنُ الْعَابِدِينَ - وَهُوَ أَصْغَرُ مِنْ أَخِيهِ عَلِيِّ الْقَتِيلِ - وَكَانَ مَرِيضًا، وَهُوَ الَّذِي نَسَلَ آلَ مُحَمَّدٍ عليه السلام، فَكَانَ لَا يَقْدِرُ عَلَى حَمْلِ سَيْفِهِ، وَأُمُّ كُثُومٍ تُنَادِي خَلْفَهُ: يَا بُنَيَّ ارْجِعْ، فَقَالَ: يَا عَمَّتَاهُ، ذَرِينِي أَقَاتِلْ بَيْنَ يَدَيِ ابْنِ رَسُولِ اللَّهِ. فَقَالَ الْحَسِينُ: يَا أُمَّ كُثُومَ، خُذِيهِ وَرُدِّيهِ، لِئَلَّا تَبْقَى الْأَرْضُ خَالِيَةً مِنْ نَسْلِ آلِ مُحَمَّدٍ. وَلَمَّا فَجِعَ بِأَهْلِ بَيْتِهِ وَوَلَدِهِ، وَلَمْ يَبْقَ غَيْرُهُ وَغَيْرُ النِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ وَغَيْرِ وَلَدِهِ الْمَرِيضِ، نَادَى: هَلْ مِنْ ذَابٍّ يَذُبُّ عَن حَرَمِ رَسُولِ اللَّهِ؟ هَلْ مِنْ مُوَحِّدٍ يَخَافُ اللَّهَ فِينَا؟ هَلْ مِنْ مُغِيثٍ يَرْجُو اللَّهَ فِي إِعَاثَتِنَا؟ هَلْ مِنْ مُعِينٍ يَرْجُو مَا عِنْدَ اللَّهِ فِي إِعَاثَتِنَا؟»^(٣).

حيث يتحصل من نحو استغاثة الإمام للناس مقدار ما للعقيدة والمعرفة التوحيدية من تأثير في سلوكيات الإنسان وتصرفاته ومواقفه؛ إذ يمثل الدفاع عن إمامه أحد مصاديقها.

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«لَا يَقْبَلُ اللَّهُ عَمَلًا إِلَّا بِمَعْرِفَةٍ، وَلَا مَعْرِفَةً إِلَّا بِعَمَلٍ، فَمَنْ عَرَفَ دَلَّتْهُ الْمَعْرِفَةُ عَلَى الْعَمَلِ، وَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ فَلَا مَعْرِفَةَ لَهُ، أَلَا إِنَّ الْإِيمَانَ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ»^(٤).

(١) الفخر الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير: ج ٢٨، ص ١٩٤؛ ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم: ج ٧، ص ٣٩٦.

(٢) الذاريات: آية ٥٦.

(٣) أخطب خوارزم، الموفق بن أحمد، مقتل الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ٣٦-٣٧.

(٤) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٤٤، حديث ٢.

تأثير المعرفة في إدراك عظمة بعض الأمور

مما قد ذكره الخوارزمي في مقتله:

«وَقِيلَ: سَأَلَ رَجُلٌ الْحَسِينَ حَاجَةً، فَقَالَ لَهُ: يَا هَذَا، سُؤْلُكَ إِيَّايَ يَعْظُمُ لَدَيَّ، وَمَعْرِفَتِي بِمَا يَجِبُ لَكَ يَكْبُرُ عَلَيَّ، وَيَدِي تَعْجِزُ عَنْ نَيْلِكَ بِمَا أَنْتَ أَهْلُهُ، وَالكَثِيرُ فِي ذَاتِ اللَّهِ قَلِيلٌ، وَمَا فِي مَلِكِي وَفَاءٌ بِشُكْرِكَ، فَإِنْ قَبِلْتَ بِالْمَيْسُورِ، دَفَعْتُ عَنِّي مَرَارَةَ الْإِحْتِيَالِ لَكَ، وَالْإِهْتِمَامِ بِمَا أَتَكَلَّفُ مِنْ وَاجِبِ حَقِّكَ.

فَقَالَ الرَّجُلُ: أَقْبَلُ، يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ الْيَسِيرِ، وَأَشْكُرُ الْعَطِيَّةَ، وَأَعْذِرُ عَلَى الْمَنْعِ. فَدَعَا الْحَسِينَ بِوَكِيلِهِ، وَجَعَلَ يُحَاسِبُهُ عَلَى نَفَقَاتِهِ حَتَّى اسْتَقْصَاهَا، ثُمَّ قَالَ لَهُ: هَاتِ الْفَاضِلَ مِنَ الثَّلَاثِينَ أَلْفَ، فَأَحْضَرَ خَمْسِينَ أَلْفًا، قَالَ: فَمَا فَعَلْتَ الْخَمْسِينَ دِينَارًا؟ قَالَ: هِيَ عِنْدِي، قَالَ: أَحْضَرُهَا، قَالَ: فَدَفَعَ الدَّرَاهِمَ وَالْدَنَانِيرَ إِلَى الرَّجُلِ، وَقَالَ: هَاتِ مَنْ يَحْمِلُ مَعَكَ هَذَا الْمَالَ، فَأَتَاهُ بِالْحَمَلَيْنِ فَدَفَعَ إِلَيْهِمُ الْحَسِينُ رِذَاءَهُ لِكِرَاءِ حَمَلِهِمْ، حَتَّى حَمَلُوهُ مَعَهُ. فَقَالَ مَوْلَى لَهُ: وَاللَّهِ، مَا بَقِيَ عِنْدَنَا دِرْهَمٌ وَاحِدٌ، فَقَالَ: لَكِنِّي أَرْجُو أَنْ يَكُونَ لِي بِفِعْلِي هَذَا أَجْرٌ عَظِيمٌ»^(١).

حيث يشير قوله عليه السلام: «وَمَعْرِفَتِي بِمَا يَجِبُ لَكَ يَكْبُرُ عَلَيَّ» بالدلالة التضمنية إلى أن المعرفة مؤثرة جدًا في فهم وإدراك عظم بعض الأمور ومدى أهميتها. قال الإمام علي عليه السلام:

«يَنْبَغِي لِمَنْ عَرَفَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَنْ لَا يَحْلُوَ قَلْبُهُ مِنْ رَجَائِهِ وَخَوْفِهِ»^(٢).

(١) أخطب خوارزم، الموفق بن أحمد، مقتل الحسين عليه السلام: ج ١، ص ٢٢١-٢٢٢.

(٢) الأمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٧٩٥، حديث ٤.



الثامن : طريق المعرفة

سبيل الرشء والمعرفة

نقل الخوارزمي بإسناده عن عبدالله بن الحسن قال:

«لَمَّا عَبَأَ عُمَرُ بْنُ سَعْدٍ أَصْحَابَهُ لِحَارِبَةِ الْحُسَيْنِ عليه السلام، وَرَتَّبَهُمْ فِي مَرَاتِبِهِمْ، وَأَقَامَ الرِّايَاتِ فِي مَوَاضِعِهَا، وَعَبَأَ الْحُسَيْنُ أَصْحَابَهُ فِي الْمَيْمَنَةِ وَالْمِيسَرَةِ، فَأَحَاطُوا بِالْحُسَيْنِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ حَتَّى جَعَلُوهُ فِي مِثْلِ الْحَلْقَةِ، خَرَجَ الْحُسَيْنُ مِنْ أَصْحَابِهِ حَتَّى آتَى النَّاسَ فَاسْتَنْصَتَهُمْ فَأَبَوْا أَنْ يُنْصِتُوا، فَقَالَ لَهُمْ: وَيَلَكُمْ! مَا عَلَيْكُمْ أَنْ تُنْصِتُوا إِلَيَّ، فَتَسْمَعُوا قَوْلِي، وَإِنَّمَا أَدْعُوكُمْ إِلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ...»^(١).

فدلَّت إضافة كلمة «سبيل» إلى «الرشاد» على أنّ هناك طريقاً ينبغي سلوكه على من يروم الكمال والرشء والمعرفة من البشر، كما أنّ الضلال والانحراف أيضاً له طريقه.

قال عنه:

﴿وَقَالَ الَّذِيءَ أَمَرَ أَنْ يَقَوْمَ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾^(٢).

وللعامة الطباطبائي بيان حول تعريف «الرشء» جاء فيه:

«قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾^(٣)، الإكراه هو الإجمار والحمل على الفعل من غير رضى، والرشء بالضم والضمين: إصابة وجه الأمر ومحجة الطريق ويقابله الغي، فهما أعم من الهدى والضلال، فإنهما إصابة الطريق الموصل وعدمها على ما قيل، والظاهر أنّ استعمال الرشء في إصابة محجة الطريق من باب

(١) أخطب خوارزم، الموفق بن أحمد، مقتل الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ٩٨.

(٢) غافر: آية ٣٨.

(٣) البقرة: آية ٢٥٦.

الانطباق على المصداق، فإنَّ إصابة وجه الأمر من سالك الطريق أن يركب المحجة وسواء السبيل، فلزومه الطريق من مصاديق إصابة وجه الأمر، فالحق أن معنى الرشد والهدى معنيان مختلفان ينطبق أحدهما بعناية خاصّة على مصاديق الآخر وهو ظاهر، قال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَأْتَسْتُمْ مِّنْهُمْ رُّشْدًا﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ﴾^(٢) ﴿٣﴾.

دعوة الإمام لسبيل الرشاد

يتحصل من جملة «وَإِنَّمَا أَدْعُوكُمْ إِلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ» في الحديث السابق للإمام الحسين عليه السلام أن الإمام يدعو الناس للرشد والصلاح. قال تبارك وتعالى:

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٤).

وجاء في الزيارة الجامعة الكبيرة:

«إِلَى اللَّهِ تَدْعُونَ وَعَلَيْهِ تَدُلُّونَ»^(٥).

الإمام المعصوم المعروف الواقعي لله تعالى

قال الإمام الحسين عليه السلام مخاطباً نافع بن الأزرق:

«أَصِفْ إِلَهِي بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَأَعْرِفْهُ بِمَا عَرَفَ بِهِ نَفْسَهُ: لَا يُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ،

(١) النساء: آية ٦.

(٢) الأنبياء: آية ٥١.

(٣) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ٢، ص ٣٤٢.

(٤) يوسف: آية ١٠٨.

(٥) ابن بابويه، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه: ج ٢، ص ٦١٣.

وَلَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ، فَهُوَ قَرِيبٌ غَيْرٌ مُلْتَصِقٌ، وَبَعِيدٌ غَيْرٌ مُتَقَصِّصٌ، يُوَحَّدُ وَلَا يُبَعَّضُ،
مَعْرُوفٌ بِالْآيَاتِ، مُوصُوفٌ بِالْعَلَامَاتِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ»^(١).

فيتحصل من جملة «وَأَعْرَفُهُ بِمَا عَرَفَ بِهِ نَفْسَهُ» أَنَّ الإمام المعصوم عليه السلام معرف حقيقي وواقعي لله تبارك وتعالى لارتباطه بالله وتلقيه منه.

وفي الزيارة الجامعة الكبيرة:

«السَّلَامُ عَلَى مَحَالِّ مَعْرِفَةِ اللَّهِ»^(٢).

وقال المجلسي الأول في شرح هذه العبارة:

«أي: لم يعرف الله حق معرفته إلا هم، وما عرف الله إلا منهم ومن تعريفهم،
فإنهم أكمل مظاهر أسماؤه تعالى وصفاته الحسنی»^(٣).

الإمام المعصوم عليه السلام مبين للمسائل العقائدية

وعن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال:

«كَتَبَ الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ الْبَصْرِيُّ إِلَى الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام يَسْأَلُهُ
عَنِ الْقَدَرِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ: اتَّبِعْ مَا شَرَحْتُ لَكَ فِي الْقَدَرِ بِمَا أَفْضَى إِلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ، فَإِنَّهُ مَنْ
لَمْ يُؤْمِنْ بِالْقَدَرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ فَقَدْ كَفَرَ، وَمَنْ حَمَلَ الْمَعَاصِيَ عَلَى اللَّهِ عز وجل فَقَدْ فَجَرَ وَافْتَرَى
عَلَى اللَّهِ افْتِرَاءً عَظِيمًا، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يُطَاعُ بِإِكْرَاهٍ، وَلَا يُعَصَى بِغَلْبَةٍ، وَلَا يُهْمَلُ
الْعِبَادَ فِي الْهَلَكَةِ، وَلَكِنَّهُ الْمَالِكُ لِمَا مَلَكَهُمْ، وَالْقَادِرُ لِمَا عَلَيْهِ أَقْدَرَهُمْ، فَإِنْ اتَّمَرُوا بِالطَّاعَةِ
لَمْ يَكُنْ لَهُمْ صَادًا عَنْهَا مُبْطِئًا، وَإِنْ اتَّمَرُوا بِالْمَعْصِيَةِ فَشَاءَ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْهِمْ فَيَحُولَ بَيْنَهُمْ

(١) ابن بابويه، محمد بن علي، التوحيد: ص ٧٩-٨٠، حديث ٣٥.

(٢) ابن بابويه، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه: ج ٢، ص ٦١٠.

(٣) المجلسي، محمد تقي بن مقصود علي، روضة المتقين في شرح من لا يحضره الفقيه: ج ٥،

وَيَبْنَ مَا اُتَمَّرُوا بِهِ فَاِنْ فَعَلَ وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلَيْسَ هُوَ حَامِلُهُمْ عَلَيْهِمْ قَسْرًا، وَلَا كَلْفَهُمْ
جَبْرًا بِتَمَكِينِهِ إِيَّاهُمْ بَعْدَ إِعْدَارِهِ وَإِنْدَارِهِ لَهُمْ وَاحْتِجَاجِهِ عَلَيْهِمْ طَوْفَهُمْ وَمَكْنَهُمْ،
وَجَعَلَ لَهُمُ السَّبِيلَ إِلَى أَخْذِ مَا إِلَيْهِ دَعَاهُمْ، وَتَرَكَ مَا عَنْهُ نَهَاهُمْ، جَعَلَهُمْ مُسْتَطِيعِينَ
لِأَخْذِ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنْ شَيْءٍ غَيْرِ آخِذِيهِ، وَلِتَرْكِ مَا نَهَاهُمْ عَنْهُ مِنْ شَيْءٍ غَيْرِ تَارِكِيهِ،
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ عِبَادَهُ أَقْوِيَاءَ لِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ، يَنَالُونَ بِتِلْكَ الْقُوَّةِ وَنَهَاهُمْ عَنْهُ،
وَجَعَلَ الْعُذْرَ لِمَنْ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ السَّبَبَ جَهْدًا مُتَقَبَّلًا^(١).

يتضح من شرح الإمام الحسين عليه السلام لـ «القدر» أنّ الإمام المعصوم عليه السلام مبين
وشارح للمسائل العقائدية.

عن يونس بن يعقوب أنّه قال:

«كُنْتُ عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام فَوَرَدَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ فَقَالَ: إِنِّي رَجُلٌ
صَاحِبُ كَلَامٍ وَفَقِيهِ وَفَرَائِضٍ وَقَدْ جِئْتُ لِمُنَازَرَةِ أَصْحَابِكَ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام:
كَلَامُكَ مِنْ كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله أَوْ مِنْ عِنْدِكَ؟ فَقَالَ: مِنْ كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وَمِنْ
عِنْدِي، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: فَأَنْتَ إِذَا شَرِيكَ رَسُولِ اللَّهِ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَسَمِعْتَ
الْوَحْيَ عَنِ اللَّهِ عز وجل يُخْبِرُكَ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَتَجِبُ طَاعَتَكَ كَمَا تَجِبُ طَاعَةَ رَسُولِ
اللَّهِ صلى الله عليه وآله؟ قَالَ: لَا، فَالْتَمَتَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام إِلَيَّ فَقَالَ: يَا يُونُسُ بْنُ يَعْقُوبَ، هَذَا قَدْ خَصَمَ
نَفْسَهُ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: يَا يُونُسُ، لَوْ كُنْتَ تُحْسِنُ الْكَلَامَ كَلَّمْتَهُ، قَالَ يُونُسُ: فَيَا هَا
مِنْ حَسْرَةٍ، فَقُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ إِنِّي سَمِعْتُكَ تَنْهَى عَنِ الْكَلَامِ وَتَقُولُ: وَيَلُّ لِأَصْحَابِ
الْكَلَامِ يَقُولُونَ: هَذَا يَنْقَادُ وَهَذَا لَا يَنْقَادُ، وَهَذَا يَنْسَاقُ وَهَذَا لَا يَنْسَاقُ، وَهَذَا نَعِيقُهُ
وَهَذَا لَا نَعِيقُهُ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: إِنَّمَا قُلْتُ: فَوَيْلٌ لَهُمْ إِنْ تَرَكُوا مَا أَقُولُ وَدَهَبُوا إِلَيَّ
مَا يُرِيدُونَ.

(١) الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا عليه السلام: ص ٤٠٨-٤٠٩.

ثُمَّ قَالَ لِي: اُخْرُجْ إِلَى الْبَابِ فَانظُرْ مَنْ تَرَى مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ فَأَدْخِلْهُ، قَالَ: فَأَدْخَلْتُ
 مُهْرَانَ بْنَ أَعْيَنَ وَكَانَ يُحْسِنُ الْكَلَامَ، وَأَدْخَلْتُ الْأَحْوَلَ وَكَانَ يُحْسِنُ الْكَلَامَ، وَأَدْخَلْتُ
 هِشَامَ بْنَ سَالِمٍ وَكَانَ يُحْسِنُ الْكَلَامَ، وَأَدْخَلْتُ قَيْسَ بْنَ الْمَاصِرِ وَكَانَ عِنْدِي أَحْسَنَهُمْ
 كَلَامًا، وَكَانَ قَدْ تَعَلَّمَ الْكَلَامَ مِنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليهما السلام، فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِنَا الْمَجْلِسِ - وَكَانَ
 أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَبْلَ الْحَجِّ يَسْتَقِرُّ أَيَّامًا فِي جَبَلٍ فِي طَرْفِ الْحَرَمِ فِي فَارَظَةَ لَهُ مَضْرُوبَةٌ - قَالَ:
 فَأَخْرَجَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام رَأْسَهُ مِنْ فَارَظَتِهِ فَإِذَا هُوَ بِبَعِيرٍ يُحِبُّ فَقَالَ: هِشَامُ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ،
 قَالَ: فَظَنَنَّا أَنَّ هِشَامًا رَجُلٌ مِنْ وُلْدِ عَقِيلٍ كَانَ شَدِيدَ الْمَحَبَّةِ لَهُ.

قَالَ: فَوَرَدَ هِشَامُ بْنُ الْحَكَمِ وَهُوَ أَوَّلُ مَا اخْتَطَّتْ لِحَيْتُهُ، وَلَيْسَ فِيْنَا إِلَّا مَنْ هُوَ أَكْبَرُ
 سِنًا مِنْهُ، قَالَ: فَوَسَّعَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام وَقَالَ: نَاصِرُنَا بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ وَيَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا
 مُهْرَانُ كَلِّمِ الرَّجُلَ، فَكَلَّمَهُ فَظَهَرَ عَلَيْهِ مُهْرَانُ، ثُمَّ قَالَ: يَا طَاقِي كَلِّمَهُ، فَكَلَّمَهُ فَظَهَرَ عَلَيْهِ
 الْأَحْوَلُ، ثُمَّ قَالَ: يَا هِشَامُ بْنُ سَالِمٍ كَلِّمَهُ، فَتَعَارَفَا، ثُمَّ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام لِقَيْسِ الْمَاصِرِ:
 كَلِّمَهُ، فَكَلَّمَهُ، فَأَقْبَلَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام يَضْحَكُ مِنْ كَلَامِهَا مِمَّا قَدْ أَصَابَ الشَّامِيَّ.

فَقَالَ لِلشَّامِيِّ: كَلِّمْ هَذَا الْعُلَامَ - يَعْنِي هِشَامَ بْنَ الْحَكَمِ - فَقَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ لِهِشَامٍ: يَا
 عَلَامُ، سَلْنِي فِي إِمَامَةِ هَذَا، فَغَضِبَ هِشَامٌ حَتَّى ارْتَعَدَ، ثُمَّ قَالَ لِلشَّامِيِّ: يَا هَذَا، أَرَبْتُكَ
 أَنْظُرْ لِحَلْقِهِ أَمْ خَلَقَهُ لِأَنْفُسِهِمْ؟ فَقَالَ الشَّامِيُّ: بَلْ رَبِّي أَنْظَرُ لِحَلْقِهِ، قَالَ: فَفَعَلَ بِنَظَرِهِ لَهُمْ
 مَاذَا؟ قَالَ: أَقَامَ لَهُمْ حُجَّةً وَدَلِيلًا كَيْلَا يَتَشَسَّتُوا أَوْ يَخْتَلِفُوا، يَتَأَلَّفُهُمْ وَيُقِيمُ أَوْدَهُمْ وَيُخْبِرُهُمْ
 بِفَرَضِ رَبِّهِمْ، قَالَ: فَمَنْ هُوَ؟ قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله، قَالَ هِشَامُ: فَبَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله؟ قَالَ:
 الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، قَالَ هِشَامُ: فَهَلْ نَفَعَنَا الْيَوْمَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ فِي رَفْعِ الْإِخْتِلَافِ عَنَّا؟ قَالَ
 الشَّامِيُّ: نَعَمْ، قَالَ: فَلِمَ اخْتَلَفْنَا أَنَا وَأَنْتَ وَصِرْتِ الْإِنَا مِنَ الشَّامِ فِي مُحَالَفَتِنَا إِيَّاكَ؟ قَالَ:
 فَسَكَتَ الشَّامِيُّ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام لِلشَّامِيِّ: مَا لَكَ لَا تَتَكَلَّمُ؟ قَالَ الشَّامِيُّ: إِنَّ قُلْتُ:
 لَمْ نَخْتَلِفْ كَذَبْتُ، وَإِنْ قُلْتُ: إِنَّ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ يَرْفَعَانِ عَنَّا الْإِخْتِلَافَ أَبْطَلْتُ؛ لِأَنَّهَا
 يَحْتَمِلَانِ الْوُجُوهَ، وَإِنْ قُلْتُ: قَدْ اخْتَلَفْنَا وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا يَدْعِي الْحَقَّ فَلَمْ يَنْفَعْنَا إِذِنْ

الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، إِلَّا أَنْ لِي عَلَيْهِ هَذِهِ الْحِجَّةَ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: سَلَهُ تَجِدُهُ مَلِيًّا.
 فَقَالَ الشَّامِيُّ: يَا هَذَا، مَنْ أَنْظَرَ لِلخَلْقِ أَرْبُهِمْ أَوْ أَنْفُسَهُمْ؟ فَقَالَ هِشَامٌ: رَبُّهُمْ أَنْظَرَ
 لَهُمْ مِنْهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ، فَقَالَ الشَّامِيُّ: فَهَلْ أَقَامَ لَهُمْ مَنْ يَجْمَعُ لَهُمْ كَلِمَتَهُمْ وَيُقِيمُ أَوْدَهُمْ
 وَيُجِرُّهُمْ بِحَقِّهِمْ مِنْ بَاطِلِهِمْ؟ قَالَ هِشَامٌ: فِي وَقْتِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله أَوِ السَّاعَةِ؟ قَالَ
 الشَّامِيُّ: فِي وَقْتِ رَسُولِ اللَّهِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وَالسَّاعَةِ مِنْ؟ فَقَالَ هِشَامٌ: هَذَا الْقَاعِدُ الَّذِي
 تُشَدُّ إِلَيْهِ الرَّحَالُ، وَيُجْرِنَا بِأَخْبَارِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَرِائَتِهِ عَنْ أَبِي عَنْ جَدِّ، قَالَ الشَّامِيُّ:
 فَكَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ ذَلِكَ؟ قَالَ هِشَامٌ: سَلَهُ عَمَّا بَدَأَ لَكَ، قَالَ الشَّامِيُّ: قَطَعْتَ عُذْرِي فَعَلِيَّ
 السُّؤَالَ.

فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: يَا شَامِيُّ، أَخْبِرْكَ كَيْفَ كَانَ سَفْرُكَ؟ وَكَيْفَ كَانَ طَرِيقُكَ؟
 كَانَ كَذَا وَكَذَا، فَأَقْبَلَ الشَّامِيُّ يَقُولُ: صَدَقْتَ، أَسَلَمْتُ لِهَذَا السَّاعَةِ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ
 اللَّهِ عليه السلام: بَلْ أَمَنْتَ بِاللَّهِ السَّاعَةَ، إِنَّ الْإِسْلَامَ قَبْلَ الْإِيمَانِ وَعَلَيْهِ يَتَوَارَثُونَ وَيَتَنَاقِحُونَ،
 وَالْإِيمَانُ عَلَيْهِ يُثَابُونَ، فَقَالَ الشَّامِيُّ: صَدَقْتَ فَأَنَا السَّاعَةُ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ
 مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وَأَنَّكَ وَصِيُّ الْأَوْصِيَاءِ.

ثُمَّ التَفَتَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام إِلَى مُحَمَّدَانَ، فَقَالَ: تُجْرِي الْكَلَامَ عَلَى الْأَثَرِ فَتُصِيبُ،
 وَالتَفَتَ إِلَى هِشَامِ بْنِ سَالِمٍ، فَقَالَ: تُرِيدُ الْأَثَرَ وَلَا تَعْرِفُهُ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَى الْأَحْوَلِ، فَقَالَ:
 قِيَاسُ رَوَاعٍ تَكْسِرُ بَاطِلًا بِبَاطِلٍ إِلَّا أَنْ بَاطِلُكَ أَظْهَرُ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَى قَيْسِ الْمَاصِرِ، فَقَالَ:
 تَتَكَلَّمُ وَأَقْرَبُ مَا تَكُونُ مِنَ الْخَبَرِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله أَبَعْدُ مَا تَكُونُ مِنْهُ، تَمْرُجُ الْحَقَّ مَعَ
 الْبَاطِلِ، وَقَلِيلُ الْحَقِّ يَكْفِي عَنْ كَثِيرِ الْبَاطِلِ أَنْتَ وَالْأَحْوَلُ قَفَّازَانِ حَادِقَانِ، قَالَ يُونُسُ:
 فَظَنَنْتُ وَاللَّهِ أَنَّهُ يَقُولُ لِهِشَامٍ قَرِيبًا مِمَّا قَالَ لَهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا هِشَامُ لَا تَكَادُ تَقْعُ، تَلْوِي
 رَجْلَيْكَ إِذَا هَمَمْتَ بِالْأَرْضِ طِرْتَ مِثْلَكَ فَلْيَكَلِّمِ النَّاسَ، فَاتَّقِ الرَّزَّةَ، وَالشَّفَاعَةَ مِنْ
 وَرَائِهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ^(١).

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ١٧١-١٧٣، حديث ٤.

المسائل التي بحاجة لشرح الإمام

يتضح كذلك من شرح الإمام الحسين عليه السلام لمسألة «القدر» أن بعض المسائل العقائدية بحاجة ماسة للشرح والتوضيح من قبل الإمام.

قال الإمام الرضا عليه السلام:

«... أَنَّهُ لَوْ لَمْ يُجْعَلْ لَهُمْ إِمَامًا قَيِّمًا أَمِينًا حَافِظًا مُسْتَوْدَعًا؛ لَدَرَسَتِ الْمَلَّةُ وَذَهَبَ الدِّينُ وَغَيَّرَتِ السُّنَنُ وَالْأَحْكَامُ، وَلَزَادَ فِيهِ الْمُبْتَدِعُونَ وَنَقَصَ مِنْهُ الْمَلْحُدُونَ وَشَبَّهُوا ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، لِأَنَّا وَجَدْنَا الْخَلْقَ مَنْقُوصِينَ مُحْتَاجِينَ غَيْرَ كَامِلِينَ مَعَ اخْتِلَافِهِمْ وَاخْتِلَافِ أَهْوَائِهِمْ، وَتَشْتَّتِ أَنْحَائِهِمْ، فَلَوْ لَمْ يُجْعَلْ لَهُمْ قَيِّمًا حَافِظًا لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَفَسَدُوا عَلَى نَحْوِ مَا بَيَّنَّا، وَغَيَّرَتِ الشَّرَائِعُ وَالسُّنَنُ وَالْأَحْكَامُ وَالْإِيمَانُ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ فَسَادُ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ»^(١).

الطريق الذي خطه الحق سبحانه للوصول إلى هدفه

يتأتى من جملة «وَجَعَلَ لَهُمُ السَّبِيلَ إِلَى أَخْذِ مَا إِلَيْهِ دَعَاَهُمْ» أن الله تعالى قد خط للإنسان طريقاً للوصول إلى الهدف المنشود من خلقه.

يقول عز من قائل:

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(٢).

انتشار العلم بواسطة أهل البيت عليهم السلام

نقل الكليني بسنده عن الحكم بن عتيبة أنه قال:

«لَقِيَ رَجُلٌ الْحَسِينَ بْنَ عَلِيٍّ عليه السلام بِالْتَّعَلُّبِيَّةِ وَهُوَ يُرِيدُ كَرْبَلَاءَ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ فَسَلَّمَ

(١) ابن بابويه، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ٢، ص ١٠١.

(٢) الكهف: آية ١١٠.

عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ الْحَسِينُ عليه السلام: مِنْ أَيِّ الْبِلَادِ أَنْتَ؟ قَالَ: مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ، قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ يَا أَخَا أَهْلِ الْكُوفَةِ لَوْ لَقَيْتَكَ بِالْمَدِينَةِ لَأَرَيْتَكَ أَثَرَ جَبْرَيْلَ عليه السلام مِنْ دَارِنَا وَنُزُولِهِ بِالْوَحْيِ عَلَى جَدِّي، يَا أَخَا أَهْلِ الْكُوفَةِ أَفْمُسْتَقَى النَّاسِ الْعِلْمِ مِنْ عِنْدِنَا فَعَلِمُوا وَجَهَلْنَا؟! هَذَا مَا لَا يَكُونُ»^(١).

فيتحصل من هذا الكلام ما مفاده أن أهل البيت عليهم السلام هم منشأ العلوم النبوية وسبب انتشارها في المجتمع الإسلامي.

نقل الحاكم النيسابوري بسنده عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بِأَبْهَا، فَمَنْ أَرَادَ الْمَدِينَةَ فَلْيَأْتِ الْبَابَ»^(٢).

روى الترمذي بسنده عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«أَنَا دَارُ الْحِكْمَةِ وَعَلِيٌّ بِأَبْهَا»^(٣).

ضرورة تعلم المعارف من أهل البيت عليهم السلام

يتبين مما جاء في الحديث المتقدم للإمام الحسين عليه السلام أن أهل البيت عليهم السلام بما أتهم ينابيع العلم المتدفقة صار لازماً أخذ العلوم والمعارف عنهم.

روي عن الإمام علي عليه السلام أنه قال:

«انظُرُوا أَهْلَ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ، فَالزَّمُوا سَمْتَهُمْ، وَاتَّبِعُوا أَثَرَهُمْ، فَالَنْ يُجْرِجُوكُمْ مِنْ هُدًى، وَلَنْ يُعِيدُوكُمْ فِي رَدًى»^(٤).

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٣٩٨-٣٩٩، حديث ٢.

(٢) الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله، المستدرک على الصحيحين: ج ٣، ص ١٣٧، حديث ٤٦٣٨.

(٣) الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي: ج ٥، ص ٦٣٧، حديث ٣٧٢٣.

(٤) نهج البلاغة: خطبة ٩٧.

معرفة الإمام بالله جل وعلا

نقل الطبري عن الضحاك المَشْرَقِي قوله في وصفه لواقعة عاشوراء:
 «فَلَمَّا سَكَتَنَ حَمْدَ اللَّهِ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَذَكَرَ اللَّهُ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، وَصَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى مَلَائِكَتِهِ وَأَنْبِيَائِهِ، فَذَكَرَ مِنْ ذَلِكَ مَا اللَّهُ أَعْلَمُ وَمَا لَا يُحْصَى ذِكْرُهُ»^(١).
 يفهم من المدلول التضمني لعبارة «وَذَكَرَ اللَّهُ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ» أَنَّ الإِمَامَ المَعصُومَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى مَعْرِفَةِ تَامَةٍ وَكَامِلَةٍ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ:

«بَيْنَمَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَخْطُبُ عَلَى مِنْبَرِ الْكُوفَةِ إِذْ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: ذِعْلِبُّ ذُو لِسَانٍ بَلِيغٍ فِي الْخَطْبِ، شُجَاعُ الْقَلْبِ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: وَيَلَّكَ يَا ذِعْلِبُّ، مَا كُنْتُ أَعْبُدُ رَبًّا لَمْ أَرَهُ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، كَيْفَ رَأَيْتَهُ؟ قَالَ: وَيَلَّكَ يَا ذِعْلِبُّ، لَمْ تَرَهُ الْعَيُونُ بِمُشَاهِدَةِ الْأَبْصَارِ وَلَكِنْ رَأَتْهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ. وَيَلَّكَ يَا ذِعْلِبُّ، إِنَّ رَبِّي لَطِيفُ اللَّطَافَةِ لَا يُوصَفُ بِاللُّطْفِ، عَظِيمُ الْعِظَمَةِ لَا يُوصَفُ بِالْعِظَمِ، كَبِيرُ الْكِبَرِيَاءِ لَا يُوصَفُ بِالْكَبَرِ، جَلِيلُ الْجَلَالَةِ لَا يُوصَفُ بِالْجَلَلِ، قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، لَا يُقَالُ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَبَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ، لَا يُقَالُ لَهُ بَعْدُ، شَاءَ الْأَشْيَاءِ لَا يَهْمَةُ، دَرَاكٌ لَا يَخْدِيعَةُ، فِي الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا غَيْرُ مُتَمَازِجٍ بِهَا، وَلَا بَائِنٌ مِنْهَا، ظَاهِرٌ لَا يَتَأْوِيلُ الْمُبَاشَرَةَ، مُتَجَلٌّ لَا يَسْتَهْلَلُ رُؤْيَهُ، نَاءٌ لَا يَمَسَافَةُ، قَرِيبٌ لَا يَمُدَّانَاةً، لَطِيفٌ لَا يَتَجَسَّمُ، مَوْجُودٌ لَا يَبْعَدُ عَدَمٌ، فَاعِلٌ لَا يَاضْطَرَّارٌ، مُقَدَّرٌ لَا يَحْرَكَةُ، مُرِيدٌ لَا يَهَامَةُ، سَمِيعٌ لَا يَأَلَةُ، بَصِيرٌ لَا يَأْدَاةً، لَا تَحْوِيهِ الْأَمَاكِنُ وَلَا تَضَمَّنُهُ الْأَوْقَاتُ وَلَا تَحُدُّهُ الصِّفَاتُ وَلَا تَأْخُذُهُ السَّنَاتُ، سَبَقَ الْأَوْقَاتُ كَوْنُهُ وَالْعَدَمُ وَجُودُهُ وَالْإِبْتِدَاءُ أَرْزَلُهُ، يَتَسَعَّرُهُ الْمَشَاعِرَ عُرْفَ أَنْ لَا مَشَعَرَ لَهُ، وَيَتَجَهَّرُهُ الْجَوَاهِرَ عُرْفَ أَنْ لَا جَوْهَرَ لَهُ، وَبِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ عُرْفَ أَنْ لَا ضِدَّ

(١) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٥، ص ٤٢٤.

لَهُ، وَبِمَقَارَنَتِهِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لَا قَرِينَ لَهُ، ضَادَّ النُّورِ بِالظُّلْمَةِ وَالْيُسِّ بِالْبَلْبَلِ وَالْحُسَيْنَ بِاللَّيْنِ وَالصَّرْدَ بِالْحُرُورِ، مُؤَلَّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا وَمُفَرَّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا، دَالَّةٌ بِتَفْرِيقِهَا عَلَى مُفَرَّقِهَا وَبِتَأْلِيفِهَا عَلَى مُؤَلَّفِهَا، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رَوْحِينَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(١)، فَفَرَّقَ بَيْنَ قَبْلِ وَبَعْدِ لِيُعْلَمَ أَنْ لَا قَبْلَ لَهُ وَلَا بَعْدَ لَهُ، شَاهِدَةٌ بِغَرَائِزِهَا أَنْ لَا غَرِيزَةَ لِمُغْرِزِهَا، مُحْبَرَةٌ بِتَوْقِيتِهَا أَنْ لَا وَقْتَ لِمَوْقِيتِهَا، حَجَبَ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ لِيُعْلَمَ أَنْ لَا حِجَابَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْفِهِ، كَانَ رَبًّا إِذْ لَا مَرْبُوبَ، وَإِلَهًا إِذْ لَا مَأْلُوهَ، وَعَالِمًا إِذْ لَا مَعْلُومَ، وَسَمِيعًا إِذْ لَا مَسْمُوعَ»^(٢).

اتِّضَاحُ الْمَعَارِفِ بِأَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

نقل القاضي النعمان المغربي عن الأعمش عن قيس بن غالب الأسدي قال:
 «وَلَمَّا وَفَدَ النَّاسُ عَلَى يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ لَمَّا اسْتُخْلِفَ، قُلْتُ لِأَهْلِ بَيْتِي: هَلْ أَنْ نَجْعَلَ نَحْنُ وَفَادَتَنَا عَلَى ابْنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْحَسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ فَجَابُونِي، فَخَرَجْتُ أَنَا، وَأَخِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَلِيٍّ، وَزُرُّ بْنُ حُبَيْشٍ، وَهَانِي بْنُ عُرْوَةَ، وَعَبَادَةُ بْنُ رَبِيعٍ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ قَوْمِنَا، حَتَّى أَنْتَهَيْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ، فَاتَيْنَا مَنْزِلَ الْحَسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَاسْتَأْذَنَّا عَلَيْهِ، فَخَرَجَتْ إِلَيْنَا جَارِيَةٌ، فَقُلْتُ لَهَا: اسْتَأْذِنِي لَنَا عَلَى ابْنِ رَسُولِ اللَّهِ، وَأَعْلِمِيهِ أَنَّ مَوَالِيَهُ بِالْبَابِ. فَأَذِنَتْ لَنَا، فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَا أَقْدَمَكُمْ هَذَا الْبَلَدِ فِي غَيْرِ حَجٍّ وَلَا عُمْرَةٍ؟ قُلْنَا: يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ، وَفَدَ النَّاسُ عَلَى يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ، فَأَحْبَبْنَا أَنْ وَفَادَتَنَا عَلَيْكَ، قَالَ: وَاللَّهِ؟ قُلْنَا: وَاللَّهِ.

قَالَ: أَبْشِرُوا - يَقُولُهَا ثَلَاثًا - ثُمَّ قَالَ: أَتَأْذِنُونَ لِي أَنْ أَقُومَ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، فَقَامَ فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ، وَعَادَ إِلَيْنَا.

(١) الذاريات: آية ٤٩.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ١٣٨-١٣٩، حديث ٤.

فَقَالَ ابْنُ رَبِيعٍ: يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ، إِنَّ الْحَوَارِيَّيْنَ كَانَتْ لَهُمْ عَلَامَاتٌ يُعْرَفُونَ بِهَا، فَهَلْ لَكُمْ عَلَامَاتٌ تُعْرَفُونَ بِهَا؟

فَقَالَ لَهُ: يَا عِبَادَهُ، نَحْنُ عَلَامَاتُ الْإِيمَانِ فِي بَيْتِ الْإِيمَانِ، مَنْ أَحَبَّنَا أَحَبَّهُ اللَّهُ، وَنَفَعَهُ إِيْمَانُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيُقْبَلُ مِنْهُ عَمَلُهُ، وَمَنْ أَبْغَضَنَا أَبْغَضَهُ اللَّهُ، وَلَمْ يَنْفَعَهُ إِيْمَانُهُ، وَلَمْ يُتَقَبَلْ عَمَلُهُ.

قَالَ: فَقُلْتُ: وَإِنْ دَأَبَ وَنَصَبَ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَصَامَ وَصَلَّى.

ثُمَّ قَالَ: يَا عِبَادَهُ، نَحْنُ يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ، وَبِنَا جَرَتْ النُّبُوَّةُ، وَبِنَا يُفْتَحُ، وَبِنَا يُجْتَمُ لَا بَعِيرَنَا^(١).

فيتحصل من قوله: «وَبِنَا يُفْتَحُ» أن الحقائق تتضح وتبين بواسطة أهل البيت عليهم السلام.
روي عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال:

«إِنَّ الْإِمَامَةَ هِيَ مَنْزِلَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِرْثُ الْأَوْصِيَاءِ، إِنَّ الْإِمَامَةَ خِلَافَةُ اللَّهِ وَخِلَافَةُ الرَّسُولِ صلى الله عليه وآله وَمَقَامُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام وَمِيرَاثُ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ عليهما السلام، إِنَّ الْإِمَامَةَ زِمَامُ الدِّينِ، وَنِظَامُ الْمُسْلِمِينَ، وَصَلَاحُ الدُّنْيَا، وَعِزُّ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ الْإِمَامَةَ أَسُّ الْإِسْلَامِ النَّامِي، وَفَرْعُهُ السَّامِي، بِالْإِمَامِ تَمَامُ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْحَجِّ وَالْجِهَادِ، وَتَوْفِيرُ الْفِيءِ وَالصَّدَقَاتِ، وَإِمْضَاءُ الْحُدُودِ وَالْأَحْكَامِ، وَمَنْعُ الثُّغُورِ وَالْأَطْرَافِ.

الْإِمَامُ يُجِلُّ حَلَالَ اللَّهِ، وَيُحَرِّمُ حَرَامَ اللَّهِ، وَيُقِيمُ حُدُودَ اللَّهِ، وَيَذُبُّ عَنِ دِينِ اللَّهِ، وَيَدْعُو إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَالْحِجَّةِ الْبَالِغَةِ. الْإِمَامُ كَالشَّمْسِ الطَّالِعَةِ الْمُجَلَّلَةِ بِنُورِهَا لِلْعَالَمِ وَهِيَ فِي الْأَفْقِ بِحَيْثُ لَا تَنَالُهَا الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارُ.

الْإِمَامُ الْبَدْرُ الْمُنِيرُ، وَالسَّرَاجُ الزَّاهِرُ، وَالنُّورُ السَّاطِعُ، وَالنَّجْمُ الْهَادِي فِي غِيَابِ الدُّجَى، وَأَجْوَاذِ الْبُلْدَانِ وَالْقَفَارِ، وَجُحِ الْبِحَارِ. الْإِمَامُ الْمَاءُ الْعَذْبُ عَلَى الظَّمَا، وَالذَّلُّ عَلَى الْهَدَى، وَالْمُنْجِي مِنَ الرَّدَى. الْإِمَامُ النَّارُ عَلَى الْيَفَاعِ، الْحَارُّ لِمَنْ اضْطَلَّ بِهِ، وَالذَّلِيلُ

(١) ابن حيون، النعمان بن محمد، شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار: ج ٣، ص ٤٥٦-٤٥٧.

فِي الْمَهَالِكِ، مَنْ فَارَقَهُ فَهَالِكٌ. الْإِمَامُ السَّحَابُ الْمَاطِرُ، وَالْغَيْثُ الْهَاطِلُ، وَالشَّمْسُ الْمُضِيئَةُ، وَالسَّمَاءُ الظَّلِيلَةُ، وَالْأَرْضُ البَسِيطَةُ، وَالْعَيْنُ الْغَزِيرَةُ، وَالْغَدِيرُ وَالرَّوَضَةُ»^(١).

وجوب الاستضاءة بنور أمير المؤمنين عليه السلام

نقل عبدالله بن حمزة بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام:

«إِنَّ الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ لِمُعَاوِيَةَ: (أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ نَارَعْتَ عَلِيًّا فَتَوَرَّطْتَ النَّارَ، وَقَارَ بِالْحِجَّةِ، إِنَّ عَلِيًّا - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ - كَانَ عَلَمًا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَكَانَ نُورَ اللَّهِ ﷺ يُسْتَضَاءُ بِهِ مِنْ ظُلْمِ الضَّلَالَةِ، فَكَيْفَ تَرَى فَضَلَ عَلِيٍّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَهُوَ السَّابِقُ إِلَى الْفَضَائِلِ، وَالْمَوْفِيُّ بِالذِّمَّةِ، وَوَصِيُّ نَبِيِّ اللَّهِ - ﷺ - وَأَنْتَ طَلِيقُ ابْنِ طَلِيقٍ؟!)، فَقَامَ الْحَسَنُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَأَخَذَ بِيَدِهِ، وَكَانَ إِذَا أَمَرَهُ الْحَسَنُ اتَّمَرَّ لَهُ، وَأَطَاعَهُ، وَلَمْ يَعْصِهِ»^(٢).

يستفاد من عبارة «...يُسْتَضَاءُ بِهِ مِنْ ظُلْمِ الضَّلَالَةِ» حاجة المؤمنين كافة للاستضاءة بالنور المعنوي لأمر المؤمنين عليه السلام للنجاة من ظلمة الانحراف والضلالة ونيل نور الاستقامة والهداية.

روي عن رسول الله ﷺ قوله:

«عَلِيٌّ نُورُ اللَّهِ فِي بِلَادِهِ، وَحُجَّتُهُ عَلَى عِبَادِهِ، عَلِيٌّ سَيْفُ اللَّهِ عَلَى أَعْدَائِهِ، وَوَارِثُ عِلْمِ أَنْبِيَائِهِ، عَلِيٌّ كَلِمَةُ اللَّهِ الْعُلْيَا، وَكَلِمَةُ أَعْدَائِهِ السُّفْلَى، عَلِيٌّ سَيِّدُ الْأَوْصِيَاءِ، وَوَصِيُّ سَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ، عَلِيٌّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَقَائِدُ الْغُرِّ الْمَحْجَلِينَ، وَإِمَامُ الْمُسْلِمِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ الْإِيْبَانَ إِلَّا بِوَلَايَتِهِ وَطَاعَتِهِ»^(٣).

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٢٠٠، حديث ١.

(٢) المنصور بالله، عبدالله بن حمزة، الشافي: ج ٣، ص ٢٨٥.

(٣) ابن بابويه، محمد بن علي، الأمالي: ص ٦١، حديث ٢٠.

عدم الانحراف في الطريق الشفاف الواضح

قال الإمام الحسين عليه السلام:

«الْحَقُّ أَبْلَجُ لَا يَزِيغُ سَبِيلُهُ، وَالْحَقُّ يَعْرِفُهُ ذُوُّ الْأَلْبَابِ»^(١).

لقد دلّت جملة «لَا يَزِيغُ سَبِيلُهُ» ضمناً على أنّ الطريق متى ما كان شفافاً واضحاً لا غبار عليه لن يعتريه أيّ انحراف أبداً.

يقول جلّت أسماؤه:

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٢﴾﴾^(٢).

ومن أوضح المعطيات المستفادة من مضمون هاتين الآيتين الكريمتين شفافية الصراط المستقيم وخلوه عن أيّ انحراف وضلال.

(١) ابن عربي، محمد بن علي، محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار في الأدبيات والنوادر والأخبار: ج ١،

ص ٢٢٠.

(٢) الفاتحة: آية ٦-٧.



التاسع: الموانع العملية للمعرفة

أ) اتّباع الهوى

إنّ اتّباع هوى النفس الأمارة يعدّ واحداً من موانع المعرفة وآفاتهما، ما يستلزم العمل على تنقية القلب وتصفيته من أجل نيل المعارف الإلهية وبلوغها. وقال العلامة المصطفوي في شرحه لكلمة «هوى»:

«إنّ الأصل الواحد في المادّة: هو تمايل إلى سفلى، وسبق في السفح: أنّ السقوط نزول شيء من العلو دفعة.

ومن مصاديقه: ميل النفس إلى الشهوات والأمور المادّية، وميله إلى جانب سفلى ليأخذ شيئاً، أو يصيد صيداً، أو يذهب إلى جهة سافلة، أو انحدار طبيعي إلى سفلى، ومن ذلك مهواة الجبل...

ثمّ إنّ الميل إلى سفلى أعم من أن يكون في أمر مادّي أو معنوي، وسواء كان الميل إرادياً أو طبيعياً.

﴿وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ عَضْبِي فَقَدْ هَوَى﴾^(١).

فإنّ من يكون مغضوباً عليه من جانب الله فقد انقطع عن لطفه ورحمته وهوى بالطبع وبالقهر.

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾^(٢).

﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ﴾^(٣).

أي ما تميل إليه الأنفس.

ومفهوم الحبّ والتعلق وميل النفس إنّما تكون من هوى يهوي من باب تعب،

(١) طه: آية ٨١.

(٢) النجم: آية ٢٣.

(٣) المائدة: آية ٧٠.

وهذا بخلاف مفهوم السقوط والانحدار إلى السفلى، فيكون من باب ضرب، فإنّ الكسرة تناسب السقوط والانحدار.

مضافاً إلى أنّ هذا الباب بمعنى السقوط والانحدار إنّما هو مأخوذ من العبرية والسريانية...

الأهواء جمع الهوى بمعنى التعلق والتمايل النفساني.

ولا يخفى أنّ التمايل النفساني هو أكبر حاجب وأعظم مانع في قبال التوجه إلى الله عز وجل، سواء كان التمايل إلى الشهوة أو إلى مال أو لذات مادية، وهذا التمايل يبلغ إلى حدّ يكون إلهاً ومعبوداً في قبال الله عز وجل، فيكون من الكافرين بالحقيقة أو من المشركين.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾^(١).

فالتهي عن الهوى أعظم مقدّمة للوصول إلى الجنة^(٢).

اتباع الهوى سبب تكذيب الدين

نقل عن الإمام الحسين عليه السلام أنّه كتب في جواب رسالة معاوية:

«أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي كِتَابُكَ تَذَكُّرٌ أَنَّهُ بَلَغَتْكَ عَنِّي أُمُورٌ تَرَعَّبُ عَنْهَا، فَإِنْ كَانَتْ حَقًّا لَمْ تُقَارِنِي عَلَيْهَا، وَلَنْ يَهْدِيَ إِلَيَّ الْحَسَنَاتِ وَيُسَدِّدَ لَهَا إِلَّا اللَّهُ. فَأَمَّا مَا نَمِّي إِلَيْكَ فَإِنَّهَا رَقَاهُ الْمَلَأُونَ الْمَشَاوُونَ بِالتَّائِمِ، الْمَفْرُقُونَ بَيْنَ الْجَمِيعِ، وَمَا أُرِيدُ حَرْبًا لَكَ وَلَا خِلَافًا عَلَيْكَ، وَأَيْمُ اللَّهِ لَقَدْ تَرَكْتُ ذَلِكَ وَأَنَا أَخَافُ اللَّهَ فِي تَرْكِهِ، وَمَا أَظُنُّ اللَّهَ رَاضِيًا عَنِّي بِتَرْكِ مُحَاكَمَتِكَ إِلَيْهِ، وَلَا عَادِرِي دُونَ الْإِعْذَارِ إِلَيْهِ فِيكَ وَفِي أَوْلِيَائِكَ الْقَاسِطِينَ الْمَلْحِدِينَ، حِزْبِ الظَّالِمِينَ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيَاطِينِ، أَلَسْتَ قَاتِلَ حُجْرِ بْنِ عَدِيٍّ وَأَصْحَابِهِ الْمَصْلِينَ الْعَابِدِينَ، الَّذِينَ يُنْكِرُونَ الظُّلْمَ وَيَسْتَعْظِمُونَ الْبِدْعَ وَلَا يَخَافُونَ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَّا يُمِ ظُلْمًا

(١) النازعات: آية ٤٠-٤١.

(٢) المصطفوي، حسن، التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ج ١، ص ٣٢٨-٣٣٠.

وَعُدُونَا بَعْدَ إِعْطَائِهِمُ الْأَمَانَ بِالْمَوَاقِيقِ وَالْأَيَّانِ الْمَعْلُوظَةِ؟! أَوْلَسْتَ قَاتِلَ عَمْرِو بْنِ الْحَمِقِ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، الَّذِي أَبْلَتْهُ الْعِبَادَةُ وَصَفَّرَتْ لُونَهُ وَأَنْحَلَتْ جِسْمَهُ؟! أَوْلَسْتَ الْمُدَّعِيَّ زِيَادَ بْنَ سُمَيَّةَ الْمَوْلُودَ عَلَى فِرَاشِ عُبَيْدِ عَبْدِ نَقِيفٍ، وَزَعَمْتَ أَنَّهُ ابْنُ أَبِيكَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ)، فَتَرَكْتَ سُنَّةَ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَخَالَفْتَ أَمْرَهُ مُتَعَمِّدًا، وَاتَّبَعْتَ هَوَاكَ مُكْذِبًا بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ؟!»^(١).

من التأمل في عبارة «وَاتَّبَعْتَ هَوَاكَ مُكْذِبًا» يستنتج أن اتباع هوى النفس هو السبب الذي يقف وراء تكذيب الدين والسنة النبوية.

جاء في القرآن الكريم:

﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ إِنَّكَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٢).

(١) البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج ٥، ص ١٢٨-١٢٩.

(٢) القصص: آية ٥٠.

ب) الجهل

يمثل الجهل وعدم الإقلاع عنه أحد الموانع من المعرفة بل ومن آفاتهما، فيتمكن الإنسان من بلوغ المعارف الإلهية حينما يزيح الجهل ويحيط قدمه على سبل المعرفة.

ذكر العلامة المصطفوي في بيان مادة «جهل»:

«إنّ الأصل الواحد في هذه المادّة: هو ما يخالف العلم، وفقدان العلم إمّا بالنسبة إلى المعارف الإلهية أو علوم ظاهرية أو بالنسبة إلى تكاليف شخصية، وكل منها إمّا في موضوع كلي أو جزئي.

وخصوصيات مفهوم الجهالة تختلف باختلاف الصيغ والموارد: يقال: جهل جهالة، وإذا أريد الإشارة إلى إدامة الجهل فيقال: جاهل، وفي مورد أريد قبول جاهل فيقال: تجاهل، وإذا أريد الطلب فيقال: استجهل.

ثمّ إنّ الجهل يلازم الاضطراب، كما أنّ العلم واليقين يلازمان الطمأنينة، فتفسير الجهل بالحركة والاضطراب تفسير باللازم والأثر»^(١).

الفرد الجاهل

مّمّا تضرع به الإمام الحسين عليه السلام إلى الله سبحانه في دعاء عرفة قوله:
«يَا مَنْ دَعَوْتُهُ مَرِيضاً فَشَفَانِي، وَعُرْيَاناً فَكَسَانِي، وَجَائِعاً فَأَشْبَعَنِي، وَعَطْشَاناً فَأَرْوَانِي، وَذَلِيلًا فَأَعَزَّنِي، وَجَاهِلًا فَعَرَّفَنِي»^(٢).

حيث يرشدنا مضمون هذا الدعاء إلى جهل الإنسان ببعض الأمور كما هو

(١) المصطفوي، حسن، التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ج ٢، ص ١٥٤.

(٢) الكفعمي، إبراهيم بن علي، البلد الأمين: ص ٢٥٥.

حاله في بداية خلقاته.

يقول تبارك وتعالى:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ
وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١).

اطلاع الإنسان على جهله أحياناً

يستفاد كذلك من مضمون الحديث السابق للإمام الحسين عليه السلام أنّ الإنسان يكون مطلعاً على جهله عالمياً به في بعض الأحيان.

يقول تعالى:

﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾^(٢).

الله سبحانه يعرف الجاهل

من ملاحظة إسناد فعل «فعرّفني» لله جل وعلا نستنتج أنه هو من يعرف الجاهلين ويعلمهم.

وتضمن الدعاء الذي علّمه الإمام الصادق عليه السلام لزراعة هذا المعنى حيث جاء فيه:

«اللَّهُمَّ عَرِّفْنِي نَفْسَكَ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي نَفْسَكَ لَمْ أَعْرِفْ نَبِيَّكَ، اللَّهُمَّ عَرِّفْنِي
رَسُولَكَ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي رَسُولَكَ لَمْ أَعْرِفْ حُجَّتَكَ، اللَّهُمَّ عَرِّفْنِي حُجَّتَكَ، فَإِنَّكَ
إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي حُجَّتَكَ ضَلَلْتُ عَنْ دِينِي»^(٣).

(١) النحل: آية ٧٨.

(٢) القيامة: آية ١٤.

(٣) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٣٣٧، حديث ٥.

جهالة الإنسان

يقول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة:

«أَنَا الَّذِي جَهَلْتُ»^(١).

يشير مضمون هذه الجملة إلى أن الناس تعتر بهم أنواع من الجهالة.

يقول سبحانه:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾^(٢).

الجهل قبالة المعرفة

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه تضرع للباري عز وجل في مناجاة عرفة قائلاً:

«إِلَهِي عَلِمْتُ بِاخْتِلَافِ الْأَنْبَاءِ وَتَنَقُّلِ الْأَطْوَارِ أَنَّ مُرَادَكَ مِنِّي أَنْ تَتَعَرَّفَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى لَا أَجْهَلَكَ فِي شَيْءٍ»^(٣).

من الإتيان بالـ«جهل» في مقابل الـ«معرفة» ندرك أن الجهل يقابل العلم أحياناً ويقابل العرفان والمعرفة أحياناً أخرى.

وساق الإمام علي عليه السلام كلمة الجهل في مقابل المعرفة في إحدى خطبه قائلاً:

«الْعَالِمُ مَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ، وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلًا أَلَّا يَعْرِفَ قَدْرَهُ»^(٤).

مفارقة الجهل بالله الهدف من الخلق

يستفاد كذلك من مضمون الحديث السابق للإمام الحسين عليه السلام أن الهدف من خلق

(١) الكفعمي، إبراهيم بن علي، البلد الأمين: ص ٢٥٥.

(٢) الأحزاب: آية ٧٢.

(٣) ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال: ج ١، ص ٣٤٨.

(٤) نهج البلاغة: خطبة ١٠٣.

العالم هو إزاحة الجهل بالله سبحانه عن الإنسان وخروجه من الجهالة وحيرة الضلالة.
يقول تبارك وتعالى:

﴿ سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾^(١).

لطف الله على الموجودات لإزالة الجهل عنها

روي عن الإمام الحسين عليه السلام قوله مخاطباً ربّ الجلالة:

«تَعَرَّفَتْ لِكُلِّ شَيْءٍ فَمَا جَهَلَكَ شَيْءٌ»^(٢).

من مضمون هذه الجملة يتضح أن الله جل وعلا قد لطف بجميع الموجودات
وأفاض عليها معرفته.

يقول تعالى:

﴿ إِنَّا فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾
الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيلَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا
خَلَقْتَ هَذَا بَطُلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾^(٣).

إزالة الجهل بالمعرفة

يتضح أيضاً من العبارة الواردة في حديث الإمام الحسين عليه السلام السابق أن جهل
الإنسان يرتفع بالمعرفة.

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي فَضْلِ مَعْرِفَةِ اللَّهِ عز وجل مَا مَدُّوا أَعْيُنَهُمْ إِلَىٰ مَا مَتَعَ اللَّهُ بِهِ الْأَعْدَاءَ

(١) فصلت: آية ٥٣.

(٢) ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال: ج ١، ص ٣٥٠.

(٣) آل عمران: آية ١٩٠-١٩١.

مِنْ زَهْرَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَعِيمِهَا، وَكَانَتْ دُنْيَاهُمْ أَقْلَ عِنْدَهُمْ مِمَّا يَطَّوْنَهُ بِأَرْجُلِهِمْ، وَلِنَعْمُوا بِمَعْرِفَةِ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ، وَتَلَذُّوا بِهَا تَلَذُّدًا مَنْ لَمْ يَزَلْ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَانِ مَعَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ. إِنَّ مَعْرِفَةَ اللَّهِ ﷻ أَنْسَ مِنْ كُلِّ وَحْشَةٍ، وَصَاحِبٌ مِنْ كُلِّ وَحْدَةٍ، وَنُورٌ مِنْ كُلِّ ظُلْمَةٍ، وَقُوَّةٌ مِنْ كُلِّ ضَعْفٍ، وَشِفَاءٌ مِنْ كُلِّ سُقْمٍ^(١).

لزوم إرشاد الجاهل

نقل الطبراني بسنده عن أبي مجلز قال حول الحسين بن علي عليه السلام:

«أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا رَكِبَ دَابَّةً فَقَالَ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾، فَقَالَ لَهُ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام: وَبِهَذَا أُمِرْتُ؟ قَالَ: فَكَيْفَ أَقُولُ؟ قَالَ: تَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ وَمَنَّ عَلَيَّ بِمُحَمَّدٍ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، فَهَذِهِ النِّعْمَةُ، فَقَالَ: تَبَدُّأَ بِهَذَا لِقَوْلِهِ ﷺ: ﴿ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا أُسْتَوِيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقَوْلُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾^(٢)»^(٣).

وهذا النحو من التعليم الذي قام به الإمام يلفت إلى عدم التسامح وغض النظر عما يقع فيه الجهلة من أخطاء، ولا بد من التدخل والقيام بعملية التصحيح والإرشاد إلى ما فيه الهدى والفلاح.

يقول سبحانه وتعالى:

﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(٤).

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٨، ص ٢٤٧، حديث ٣٤٧.

(٢) الزخرف: آية ١٣.

(٣) الطبراني، سليمان بن أحمد، الدعاء: ص ٢٤٦-٢٤٧، حديث ٧٧٥.

(٤) التوبة: آية ١٢٢.

تأثير الحمق في قتل الإمام

ذكر الخوارزمي في (مقتل الحسين):

«ثُمَّ إِنَّهُ عليه السلام دَعَا النَّاسَ إِلَى الْبِرَازِ، فَلَمْ يَزَلْ يَقْتُلُ كُلَّ مَنْ دَنَا إِلَيْهِ مِنْ عُبُودِ الرَّجَالِ، حَتَّى قَتَلَ مِنْهُمْ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً، فَحَالُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَحْلِهِ، فَصَاحَ بِهِمْ: وَيْحَكُمْ يَا شِيعَةَ آلِ أَبِي سُفْيَانَ، إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ دِينٌ وَكُنْتُمْ لَا تَخَافُونَ الْمَعَادَ فَكُونُوا أَحْرَارًا فِي دُنْيَاكُمْ هَذِهِ، وَارْجِعُوا إِلَى أَحْسَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَرَبًا كَمَا تَزْعُمُونَ.

فَنَادَاهُ شِمْرٌ: مَا تَقُولُ يَا حُسَيْنُ؟ فَقَالَ: أَقُولُ: أَنَا الَّذِي أَقَاتِلُكُمْ وَتَقَاتِلُونِي، وَالنِّسَاءَ لَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ، فَاْمْنَعُوا عْتَاتِكُمْ وَطُغَاتِكُمْ وَجَهَالِكُمْ عَنِ التَّعَرُّضِ لِحَرَمِي مَا دُمْتُ حَيًّا. فَقَالَ لَهُ شِمْرٌ: لَكَ ذَلِكَ يَا بَنَ فَاطِمَةَ، ثُمَّ صَاحَ شِمْرٌ بِأَصْحَابِهِ: إِلَيْكُمْ عَن حَرَمِ الرَّجُلِ، وَاقْصِدُوهُ بِنَفْسِهِ، فَلَعَمْرِي هُوَ كُفُوٌ كَرِيمٌ»^(١).

حيث إن التعبير بكلمة «جهال» يضع أيدينا على حقيقة هي أن حماقة والجهل يتسببان بالمشاركة بمقتل الإمام والتعرض للنواميس الإلهية.

قال الإمام علي عليه السلام:

«الجهل أصل كل شر»^(٢).

المتلنون حماقة

قال الإمام الحسين عليه السلام:

«الإخوانُ أَرْبَعَةٌ: فَأَخٌ لَكَ وَلَهُ، وَأَخٌ لَكَ، وَأَخٌ عَلَيْكَ، وَأَخٌ لَكَ وَلَا لَكَ، فَسُئِلَ عَن مَعْنَى ذَلِكَ، فَقَالَ عليه السلام: الْأَخُ الَّذِي هُوَ لَكَ وَلَهُ فَهُوَ الْأَخُ الَّذِي يَطْلُبُ بِإِخَائِهِ بَقَاءَ الْإِخَاءِ، وَلَا يَطْلُبُ بِإِخَائِهِ مَوْتَ الْإِخَاءِ، فَهَذَا لَكَ وَلَهُ؛ لِأَنَّهُ إِذَا تَمَّ الْإِخَاءُ طَابَتْ

(١) أخطب خوارزم، الموفق بن أحمد، مقتل الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ٣٨.

(٢) الأمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٤٨، حديث ٨٦٩.

حَيَاتُهُمَا جَمِيعاً، وَإِذَا دَخَلَ الْإِخَاءُ فِي حَالِ التَّنَاقُضِ بَطَلَ جَمِيعاً. وَالْأَخُ الَّذِي هُوَ لَكَ فَهُوَ الْأَخُ الَّذِي قَدْ خَرَجَ بِنَفْسِهِ عَنْ حَالِ الطَّمَعِ إِلَى حَالِ الرَّغْبَةِ، فَلَمْ يَطْمَعِ فِي الدُّنْيَا إِذَا رَغِبَ فِي الْإِخَاءِ، فَهَذَا مُؤَفَّرٌ عَلَيْكَ بِكُلِّيَّتِهِ. وَالْأَخُ الَّذِي هُوَ عَلَيْكَ فَهُوَ الْأَخُ الَّذِي يَتَرَبَّصُّ بِكَ الدَّوَائِرَ وَيُعْشِي [يُنْفِثِي] السَّرَائِرَ وَيَكْذِبُ عَلَيْكَ بَيْنَ الْعَشَائِرِ وَيَنْظُرُ فِي وَجْهِكَ نَظَرَ الْحَاسِدِ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ الْوَاحِدِ. وَالْأَخُ الَّذِي لَا لَكَ وَلَا لَهُ فَهُوَ الَّذِي قَدْ مَلَأَهُ اللَّهُ حُمُحاً فَأَبْعَدَهُ سُحْقاً فَتَرَاهُ يُؤَثِّرُ نَفْسَهُ عَلَيْكَ وَيَطْلُبُ شُحاً مَا لَدَيْكَ»^(١).

يتضح من ملاحظة ما ورد في وصف الطائفة الرابعة من مدعي الأخوة أن هناك أشخاصاً يزخرون بالحماقة من همامتهم إلى أخمص أقدامهم، وما يدعونه من الأخوة لا نفع فيه لا لهم ولا للآخرين.

سئل المسيح عيسى عليه السلام:

«يَا رُوحَ اللَّهِ، وَمَا الْأَحْمَقُ؟ قَالَ: الْمَعْجَبُ بِرَأْيِهِ وَنَفْسِهِ، الَّذِي يَرَى الْفُضْلَ كُلَّهُ لَهُ لَا عَلَيْهِ، وَيُوجِبُ الْحَقَّ كُلَّهُ لِنَفْسِهِ وَلَا يُوجِبُ عَلَيْهَا حَقّاً، فَذَلِكَ الْأَحْمَقُ الَّذِي لَا حِيلَةَ فِي مُدَاوَاتِهِ»^(٢).

بعد المملوء حماقة عن الله جل وعلا

نظراً لتفريع قوله عليه السلام: «فَأَبْعَدَهُ سُحْقاً» في الحديث المتقدم للإمام الحسين عليه السلام على ما سبقه نستنتج أن الممتلئين حماقة مبعدون عن الرحمة الإلهية، فيعيشون الذلة والهوان، ومثل هؤلاء عادة ما يجعلون مصالحهم ومنافعهم مقدّمة على مصالح غيرهم، ودائماً ما يكونون بصدد سلب أموال الآخرين لما نشأت عليه نفوسهم من بخل، على العكس تماماً من الأشخاص الذين لم يكونوا على هذه الشاكلة فنفعهم كثير ومكرهم قليل والناس منهم في راحة.

(١) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٤٧.

(٢) المفيد، محمد بن محمد، الاختصاص: ص ٢٢١.

ورد في حديث المعراج:

«يَا أَحْمَدُ، إِنَّ أَهْلَ الْخَيْرِ وَأَهْلَ الْآخِرَةِ رَقِيقَةٌ وَجُوهُهُمْ، كَثِيرٌ حَيَاؤُهُمْ، قَلِيلٌ مُحَقُّهُمُ، كَثِيرٌ نَفْعُهُمْ، قَلِيلٌ مَكْرُهُمْ، النَّاسُ مِنْهُمْ فِي رَاحَةٍ، أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي تَعَبٍ»^(١).

أسباب الجهل

قال الإمام الحسين عليه السلام:

«مِنْ دَلَائِلِ عِلْمَاتِ الْقُبُولِ الْجُلُوسُ إِلَى أَهْلِ الْعُقُولِ، وَمِنْ عِلْمَاتِ أَسْبَابِ الْجَهْلِ الْمَاهِرَةُ لِغَيْرِ أَهْلِ الْكُفْرِ، وَمِنْ دَلَائِلِ الْعَالَمِ انْتِقَادُهُ لِحَدِيثِهِ وَعِلْمُهُ بِحَقَائِقِ فُنُونِ النَّظْرِ»^(٢).

إذ يستنتج من إضافة كلمة «أسباب» لكلمة «جهل» أن للجهل أسباباً وعوامل تورثه وتؤدي إليه.

قال الإمام علي عليه السلام:

«كَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلًا أَنْ يَرْتَكِبَ مَا نَهَى عَنْهُ»^(٣).

علامات أسباب الجهل

نظراً لإضافة كلمة «علامات» لـ «أسباب الجهل» في حديث الإمام الحسين عليه السلام المتقدم يستدل على وجود علامات لأسباب الجهل عند الإنسان ومن بينها الجدل والمهارة في غير موضعها.

(١) الدليمي، الحسن بن محمد، إرشاد القلوب: ج ١، ص ٢٠١.

(٢) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٤٧-٢٤٨.

(٣) المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: ج ٧٥، ص ٨، حديث ٦٤.

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«إِنَّ الْجَاهِلَ مَنْ عَدَّ نَفْسَهُ بِمَا جَهَلَ مِنْ مَعْرِفَةِ الْعِلْمِ عَالِمًا، وَبِرَأْيِهِ مُكْتَفِيًا، فَمَا يَزَالُ لِلْعُلَمَاءِ مُبَاعِدًا، وَعَلَيْهِمْ زَارِيًا، وَلَمَنْ خَالَفَهُ مُحْطًا، وَلَمَّا لَمْ يَعْرِفْ مِنَ الْأُمُورِ مُضِلًّا، فَإِذَا وَرَدَ عَلَيْهِ مِنَ الْأُمُورِ مَا لَمْ يَعْرِفْهُ أَنْكَرَهُ وَكَذَّبَ بِهِ وَقَالَ بِجَهَالَتِهِ: مَا أَعْرِفُ هَذَا، وَمَا أَرَاهُ كَانَ، وَمَا أَظُنُّ أَنْ يَكُونَ، وَأَنْى كَانَ؛ وَذَلِكَ لِثِقَتِهِ بِرَأْيِهِ وَقِلَّةِ مَعْرِفَتِهِ بِجَهَالَتِهِ، فَمَا يَنْفُكُ بِمَا يَرَى بِمَا يَلْتَبِسُ عَلَيْهِ رَأْيُهُ بِمَا لَا يَعْرِفُ لِلْجَهْلِ مُسْتَفِيدًا، وَلِلْحَقِّ مُنْكَرًا، وَفِي الْجَهَالَةِ مُتَحِيرًا، وَعَنْ طَلَبِ الْعِلْمِ مُسْتَكْبِرًا»^(١).

طلب الدين من قبل الجهلة

روي:

«إِنَّ رَجُلًا قَالَ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام: اجْلِسْ حَتَّى نَتَنَاظَرَ فِي الدِّينِ. فَقَالَ: يَا هَذَا، أَنَا بَصِيرٌ بِدِينِي مَكْشُوفٌ عَلَيَّ هُدَايَ، فَإِنْ كُنْتَ جَاهِلًا بِدِينِكَ فَادْهَبْ فَاطْلُبْهُ، مَا لِي وَلِلْمَمَارَاةِ؟ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَيُوسِسُ لِلرَّجُلِ وَيُنَاجِيهِ وَيَقُولُ: نَاطِرِ النَّاسَ لَيْئَلًا يَظُنُّوْا بِكَ الْعَجْزَ وَالْجَهْلَ»^(٢).

حيث يستفاد من الطلب أعلاه لزوم دعوة ذوي البصيرة بالدين الأشخاص الجاهلين بدينهم أن يسعوا إلى طلب العلم بدينهم ومعرفته بدلاً من الاهتمام بالمجادلة والممارة.

قال الإمام علي عليه السلام لجابر بن عبد الله الأنصاري:

«يَا جَابِرُ، قَوَامُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا بِأَرْبَعَةٍ: عَالِمٌ [يَسْتَعْمِلُ] مُسْتَعْمِلٌ عِلْمُهُ، وَجَاهِلٌ لَا يَسْتَنْكِفُ أَنْ يَتَعَلَّمَ، وَجَوَادٍ لَا يِيْحُلُ بِمَعْرُوفِهِ، وَفَقِيرٍ لَا يَبِيعُ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ. فَإِذَا ضَيَّعَ الْعَالِمُ

(١) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٧٣-٧٤.

(٢) الشهيد الثاني، زين الدين بن علي، منية المريد في أدب المفيد والمستفيد: ص ١٧١.

عِلْمُهُ اسْتَنْكَفَ الْجَاهِلُ أَنْ يَتَعَلَّمَ، وَإِذَا بَخَلَ الْعَيْبِيُّ بِمَعْرُوفِهِ بَاعَ الْفَقِيرُ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ»^(١).

مناظرة الجاهل من الممارسة

يستفاد كذلك من تعبير الامام عليه السلام بـ«الممارسة» في الحديث السابق للإمام الحسين عليه السلام أنّ مناظرة الجاهل تقود للجدل والنزاع والمشاجرة.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«الْمَرَأُ دَاءٌ رَدِيٌّ وَلَيْسَ لِلْإِنْسَانِ خَصْلَةٌ شَرٌّ مِنْهُ، وَهُوَ خُلِقَ لِإِبْلِيسَ وَنَسَبَتْهُ، فَلَا يُمَارِي فِي أَيِّ حَالٍ كَانَ إِلَّا مَنْ كَانَ جَاهِلًا بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ، مَحْرُومًا مِنْ حَقَائِقِ الدِّينِ»^(٢).

وقال العلامة المصطفوي في شرح هذا الحديث:

«البحث والحوار إن كان طلباً للحقيقة لزم أن يلحظ في عنوانه التعليم أو التعلم، وما كان خارجاً عن هذين العنوانين فلا يمتّ إلى طلب الحقيقة وإنّما للمباهاة والغرور. فطرفا المناظرة والبحث متى ما كانا يريدان الخروج بنتيجة إيجابية مفيدة من حوارهما عليهما أن ينطلقا من أعلى درجات الإخلاص في النية وبفكر حر وصولاً للتعليم والتعلم. المجادلة والمناظرة التي يطلب فيها إثبات رأيه أو من أجل التغلب على الخصم وهزيمته أو للمفاخرة بإظهار العلم والفضيلة فلا يرجى منها أيّ فائدة أو نتيجة وحسب، بل ستؤدّي إلى الغموض وظلمة القلب والتباس الحقيقة ونشوب الخلاف والعداوة بين المتجادلين»^(٣).

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار: ص ٣٧٢.

(٢) المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: ج ٢، ص ١٣٤، حديث ٣١.

(٣) مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة، ترجمة: حسن المصطفوي: ص ٢٠٠.

قبح المنافسة مع الجهلة

يستنتج من الحديث السابق للإمام الحسين عليه السلام أيضاً أن التنافس مع الأشخاص الجهلة أمر قبيح ومنشأ للفساد.

قال الله تبارك وتعالى:

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾^(١).

تشجيع الشيطان على المناظرة مع الجهلة

يستفاد من مضمون الحديث السابق للإمام الحسين عليه السلام أن الشيطان يحث ذوي العلم من الناس إلى مناظرة الجهلة ومجادلتهم ليختلق بذلك الصراع والشجار والمنازعة بينهم.

قال الإمام الرضا عليه السلام:

« يَا عَبْدَ الْعَظِيمِ، أَبْلِغْ عَنِّي أَوْلِيَاءِي السَّلَامَ، وَقُلْ لَهُمْ: أَنْ لَا يَجْعَلُوا لِلشَّيْطَانِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ سَبِيلاً، وَمُرَّهُمْ بِالصِّدْقِ فِي الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَمُرَّهُمْ بِالسُّكُوتِ وَتَرْكِ الْجِدَالِ فِيمَا لَا يَغْنِيهِمْ »^(٢).

المسكين معرفياً

في التفسير المنسوب للإمام الحسن العسكري عليه السلام:

« وَقَالَ الْحَسِينُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام لِرَجُلٍ: أَيُّهُمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ، رَجُلٌ يَرُومُ قَتْلَ مَسْكِينٍ قَدْ ضَعُفَ، تُنْقِذُهُ مِنْ يَدِهِ؟ أَوْ نَاصِبٌ يُرِيدُ إِضْلَالَ مَسْكِينٍ [مُؤْمِنٍ] مِنْ ضَعْفَاءِ شِيَعَتِنَا تَفْتَحُ عَلَيْهِ مَا يَمْتَنِعُ [المسكين] بِهِ مِنْهُ وَيُفْجِمُهُ وَيَكْسِرُهُ بِحُجَجِ اللَّهِ تَعَالَى؟
قَالَ: بَلْ إِنَّقَادُ هَذَا الْمَسْكِينِ الْمُؤْمِنِ مِنْ يَدِ هَذَا النَّاصِبِ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ وَمَنْ

(١) الأعراف: آية ١٩٩.

(٢) المفيد، محمد بن محمد، الاختصاص: ص ٢٤٧.

أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴿١١﴾ [أَي] وَمَنْ أَحْيَاهَا وَأَرْشَدَهَا مِنْ كُفْرٍ إِلَى
إِيمَانٍ، فَكَأَنَّمَا أَحْيَى النَّاسَ جَمِيعًا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَقْتُلَهُمْ بِسُيُوفِ الْحَدِيدِ»^(١).

يبدو واضحاً من إطلاق كلمة «المسكين» في الرواية على الضعيف الذي لا
يقوى على الدفاع عن نفسه والضعيف في معتقده أن هناك أنواعاً للمسكين كالتالي:

١- المسكين مالياً.

٢- المسكين جسماً.

٣- المسكين عقائدياً.

ونقل علي بن سويد عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قال:

«سَأَلْتُهُ عَنِ الضُّعْفَاءِ، فَكَتَبَ إِلَيَّ: الضَّعِيفُ مَنْ لَمْ تُرْفَعْ إِلَيْهِ حُجَّةٌ، وَلَمْ يَعْرِفِ
الِاخْتِلَافَ، فَإِذَا عَرَفَ الْإِخْتِلَافَ فَلَيْسَ بِمُسْتَضْعَفٍ»^(٢).

والمقصود بالـ«مستضعف» في الرواية المسكين العقائدي.

إنقاذ المسكين معرفياً أحب من إنقاذ المستضعف بدنياً

من الحديث الأخير للإمام الحسين عليه السلام يستفاد من إجابته للسؤال أن إنقاذ
المسكين معرفياً من كيد النواصب وإضلالهم يجب أن يكون أحب للإنسان من
إنقاذ المستضعف والمسكين بدنياً.

(١) المائة: آية ٣٢.

(٢) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام: ص ٣٤٨، حديث ٢٣١.

(٣) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٤٠٦، حديث ١١.

قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ حَرَجَ يَطْلُبُ بَاباً مِنْ عِلْمٍ لِيُرَدَّ بِهِ بَاطِلاً إِلَى حَقٍّ أَوْ ضَلَالَةً إِلَى هُدًى، كَانَ عَمَلُهُ ذَلِكَ كَعِبَادَةِ مُتَعَبِّدٍ أَرْبَعِينَ عَاماً»^(١).

ضرورة دعوة العالم للجاهل للانتفاع من علمه

نقل الشيخ الصدوق بسنده عن عكرمة أنه قال:

«بَيْنَمَا ابْنُ عَبَّاسٍ يُحَدِّثُ النَّاسَ إِذْ قَامَ إِلَيْهِ نَافِعُ بْنُ الْأَزْرَقِ، فَقَالَ: يَا بَنَ عَبَّاسٍ، تَفْتِي فِي النَّمَلَةِ وَالْقَمَلَةِ، صِفْ لَنَا إِلَهَكَ الَّذِي تَعْبُدُهُ، فَأَطْرَقَ ابْنُ عَبَّاسٍ إِعْظَاماً لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَانَ الْحَسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا جَالِساً نَاحِيَةً، فَقَالَ: إِلَيَّ يَا بَنَ الْأَزْرَقِ، فَقَالَ: لَسْتُ إِيَّاكَ أَسْأَلُ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَا بَنَ الْأَزْرَقِ، إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ، وَهُمْ وَرَثَةُ الْعِلْمِ، فَأَقْبَلَ نَافِعُ بْنُ الْأَزْرَقِ نَحْوَ الْحَسَيْنِ، فَقَالَ لَهُ الْحَسَيْنُ: يَا نَافِعُ، إِنَّ مَنْ وَضَعَ دِينَهُ عَلَى الْقِيَاسِ لَمْ يَزَلِ الدَّهْرُ فِي الْإِزْتِمَاسِ، مَا تَلَا عَنِ الْمَنَهَاجِ، ظَاعِناً فِي الْإِعْوَاجِ، ضَالًّا عَنِ السَّبِيلِ، قَاتِلاً غَيْرَ الْجَمِيلِ، يَا بَنَ الْأَزْرَقِ، أَصِفْ إِلَهِي بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَأَعْرِفْهُ بِمَا عَرَفَ بِهِ نَفْسَهُ: لَا يُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ وَلَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ، فَهُوَ قَرِيبٌ غَيْرٌ مُلْتَصِقٌ، وَبَعِيدٌ غَيْرٌ مُتَقَصِّرٌ، يُوحَدُ وَلَا يُبَعَّضُ، مَعْرُوفٌ بِالْآيَاتِ، مَوْصُوفٌ بِالْعَلَامَاتِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ»^(٢).

حيث يفهم من جملة «إِلَيَّ يَا بَنَ الْأَزْرَقِ» وجوب دعوة الجاهل من قبل علماء الدين للانتفاع من علومهم، وضرورة هكذا نوع من الدعوات.

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى أَهْلِ الْجَهْلِ أَنْ يَتَعَلَّمُوا حَتَّى أَخَذَ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يُعَلِّمُوا»^(٣).

(١) الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي: ص ٦١٨-٦١٩، حديث ١٢٧٥.

(٢) ابن بابويه، محمد بن علي، التوحيد: ص ٧٩-٨٠، حديث ٣٥.

(٣) نهج البلاغة: كلمات القصار ٤٧٨.

قال الإمام الباقر عليه السلام لسلمة بن كهيل والحكم بن عتيبة:
«شَرِّقَا وَعَرَّبَا لَنْ تَجِدَا عِلْمًا صَحِيحًا إِلَّا شَيْئًا يُخْرُجُ مِنْ عِنْدِنَا أَهْلَ الْبَيْتِ»^(١).
وقال أيضاً مخاطباً الحسن البصري:
«فَلْيَذْهَبِ الْحَسَنُ يَمِينًا وَشِمَالًا فَوَ اللَّهُ مَا يُوجَدُ الْعِلْمُ إِلَّا هَاهُنَا»^(٢).
ومقصوده أهل البيت عليهم السلام.

ضرورة عدم انزعاج العلماء من سوء أدب الجهلاء

حيث يستوحى من تعامل الإمام مع ما بدر من نافع بن الأزرق من قلة أدب
وسوء خلق أن على العلماء التحلي بالحلم وعدم الانزعاج حينما يواجههم الجهلاء
بمثل هذه التصرفات غير المؤدبة.

روي عن الإمام السجاد عليه السلام أنه قال:

«وَأَمَّا حَقُّ رِعْيَتِكَ بِالْعِلْمِ: فَإِنَّ تَعَلَّمَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّمَا جَعَلَكَ قِيَمًا لَهُمْ فِيمَا آتَاكَ مِنَ
الْعِلْمِ، وَفَتَحَ لَكَ مِنْ خَزَائِنِهِ، فَإِنْ أَحْسَنْتَ فِي تَعْلِيمِ النَّاسِ وَلَمْ تَحْرِقْ بِهِمْ وَلَمْ تَضَجِرْ
عَلَيْهِمْ، زَادَكَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَإِنْ أَنْتَ مَنَعْتَ النَّاسَ عِلْمَكَ، أَوْ خَرَقْتَ بِهِمْ عِنْدَ طَلَبِهِمْ
الْعِلْمَ مِنْكَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَسْلُبَكَ الْعِلْمَ وَبِهَاءَهُ، وَيُسْقِطَ مِنَ الْقُلُوبِ مَحَلَّكَ»^(٣).

الجهل سبب عدم المعرفة بالله والإمام

نقل عن يزيد بن رويان أنه قال:

«دَخَلَ نَافِعُ بْنُ الْأَزْرَقِ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَالْحَسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ فِي

(١) الصفار، محمد بن الحسن، بصائر الدرجات في فضائل آل محمد (صلوات الله عليهم أجمعين):
ص ١٠، حديث ٤.

(٢) المصدر السابق: ص ٩، حديث ١.

(٣) ابن بابويه، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه: ج ٢، ص ٦٢١.

الحجر، فجلس إليهما، ثم قال: يا بن عباس، صف لي إلهك الذي تعبدُهُ، فأطرق ابنُ عباسٍ طويلاً مُستبطناً بقوله، فقال له الحسين: إني يا بن الأزرقي المتورط في الضلالة المرتكس في الجهالة، أُجيبك عما سألت عنه، فقال: ما إياك سألت فتجيبني، فقال له ابنُ عباس: مه سل ابن رسول الله فإنه من أهل بيت النبوة ومعه من الحكمة، فقال له: صف لي، فقال: أصفه بما وصف به نفسه، وأعرّفه بما عرّف به نفسه: لا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس، قريبٌ غير مُلزق، وبعيدٌ غير مُتقصص، يوحد ولا يُبعص، لا إله إلا هو الكبير المتعال.

قال: فبكى ابن الأزرقي بكاءً شديداً، فقال له الحسين عليه السلام: ما يبكيك؟ قال: بكيت من حُسن وصفك، قال: يا بن الأزرقي، إني أخبرت أنك تكفر أبي وأخي وتكفري، قال له نافع: لئن قلت ذلك، لقد كنتم الحكام ومعالِم الإسلام، فلما بدلتُم استبدلنا بكم. فقال له الحسين: يا بن الأزرقي، أسألك عن مسألة، فأجِبني عن قول الله لا إله إلا هو: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾^(١) إلى قوله: ﴿كَانَ هُمَا﴾ من حفظ فيهما؟ قال: أبوهما، قال: فأَيُّهما أفضلُ أبوهما أم رسول الله صلى الله عليه وآله وفاطمة؟ قال: لا بل رسول الله وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: فما حفظنا حتى حال بيننا وبين الكفر.

فنهض [ابن الأزرقي] ثم نفّض نوبه، ثم قال: قد نبأنا الله عنكم معشر قريش أنتم قومٌ خصمون^(٢).

من ملاحظة ما تحمله عبارة «المرتكس في الجهالة» التي أطلقها الإمام عليه السلام بشأن نافع بن الأزرقي يستتج أن الجهالة سبب عدم المعرفة بالله سبحانه والإمام.

(١) الكهف: آية ٨٢.

(٢) المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: ج ٣٣، ص ٤٢٣-٤٢٤، حديث ٦٣١.

يقول تعالى:

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

يجب إقحام الجاهل في التفكير أحياناً

نقل الكليني بسنده عن الحكم بن عتيبة قال:

«لَقِيَ رَجُلٌ الْحَسِينَ بْنَ عَلِيٍّ عليه السلام بِالْتَّعَلُّبِيَّةِ وَهُوَ يُرِيدُ كَرْبَلَاءَ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ الْحَسِينُ عليه السلام: مِنْ أَيِّ الْبِلَادِ أَنْتَ؟ قَالَ: مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ، قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ يَا أَخَا أَهْلِ الْكُوفَةِ لَوْ لَقَيْتُكَ بِالْمَدِينَةِ لَأَرَيْتُكَ أَثَرَ جَبْرِئِيلَ عليه السلام مِنْ دَارِنَا وَنَزُولِهِ بِالْوَحْيِ عَلَى جَدِّي، يَا أَخَا أَهْلِ الْكُوفَةِ أَفَمُسْتَقَى النَّاسِ الْعِلْمِ مِنْ عِنْدِنَا فَعَلِمُوا وَجَهَلْنَا؟! هَذَا مَا لَا يَكُونُ»^(٢).

يبدو من الطريقة التي تعامل بها الإمام مع ذلك الرجل الكوفي ضرورة أن يقحم المخاطب بطريقة ما بالتفكير والتأمل أثناء الحديث معه.

نقل ابن عساکر بسنده عن عبيد بن حنين أنه قال:

«حَدَّثَنِي الْحَسِينُ بْنُ عَلِيٍّ، قَالَ: أَتَيْتُ عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَهُوَ عَلَى الْمُنْبَرِ، فَصَعِدْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ: أَنْزِلْ عَنِ مَنْبَرِ أَبِي وَادْهَبْ إِلَى مَنْبَرِ أَبِيكَ، فَقَالَ عُمَرُ: لَمْ يَكُنْ لِأَبِي مَنْبَرٌ، وَأَخَذَنِي وَأَجْلَسَنِي مَعَهُ، فَجَعَلْتُ أَقْلِبُ حَصَى بِيَدِي، فَلَمَّا نَزَلَ انْطَلَقَ بِي إِلَى مَنْزِلِهِ، فَقَالَ لِي: مَنْ عَلَّمَكَ؟ [فَقُلْتُ]: وَاللَّهِ مَا عَلَّمَنِي أَحَدٌ»^(٣).

تضمناً تدلنا عبارة الإمام عليه السلام «انزِلْ عَنِ مَنْبَرِ أَبِي وَادْهَبْ إِلَى مَنْبَرِ أَبِيكَ» على لزوم فرض التفكير والتدبر على الجاهل أحياناً.

(١) الروم: آية ٥٩.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٣٩٨-٣٩٩، حديث ٢.

(٣) ابن عساکر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق: ج ١٤، ص ١٧٦.

نقل عن علي بن منصور قوله:

«قَالَ لِي هِشَامُ بْنُ الْحَكَمِ: كَانَ بِمِصْرَ زَنْدِيقٌ تَبْلُغُهُ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام أَشْيَاءٌ، فَخَرَجَ إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُنَاطِرَهُ فَلَمْ يُصَادِفْهُ بِهَا، وَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُ خَارَجَ بِمَكَّةَ، فَخَرَجَ إِلَى مَكَّةَ وَنَحْنُ مَعَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ، فَصَادَفْنَا وَنَحْنُ مَعَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام فِي الطَّوَافِ، وَكَانَ اسْمُهُ عَبْدَ الْمَلِكِ وَكُنْيَتُهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، فَضَرَبَ كِتْفَهُ كَيْفَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام، فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: مَا اسْمُكَ؟ فَقَالَ: اسْمِي عَبْدُ الْمَلِكِ، قَالَ: فَمَا كُنْيَتُكَ؟ قَالَ: كُنْيَتِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: فَمَنْ هَذَا الْمَلِكُ الَّذِي أَنْتَ عَبْدُهُ؟ أَمِنْ مُلُوكِ الْأَرْضِ أَمْ مِنْ مُلُوكِ السَّمَاءِ؟ وَأَخْبَرَنِي عَنِ ابْنِكَ عَبْدِ اللَّهِ السَّمَاءِ أَمْ عَبْدٌ لِلَّهِ الْأَرْضِ؟ قُلْ مَا شِئْتَ تُخَصِّمُ. قَالَ هِشَامُ بْنُ الْحَكَمِ: فَقُلْتُ لِلزَّنْدِيقِ: أَمَا تَرُدُّ عَلَيْهِ؟ قَالَ: فَقَبِّحْ قَوْلِي. فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: إِذَا فَرَعْتُ مِنَ الطَّوَافِ فَاتَيْنَا، فَلَمَّا فَرَعَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ آتَاهُ الزَّنْدِيقُ فَفَعَدَ بَيْنَ يَدَيَّ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ وَنَحْنُ مُجْتَمِعُونَ عِنْدَهُ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام لِلزَّنْدِيقِ: أَتَعْلَمُ أَنَّ لِلْأَرْضِ نَحْتًا وَفَوْقًا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَدَخَلْتَ نَحْتَهَا؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَمَا يُدْرِيكَ مَا نَحْتَهَا؟ قَالَ: لَا أَدْرِي إِلَّا أَنِّي أَظُنُّ أَنَّ لَيْسَ نَحْتَهَا شَيْءٌ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: فَالظَّنُّ عَجْزٌ، لِمَا لَا تَسْتَيْقِنُ؟ ثُمَّ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: أَفَصَعِدْتَ السَّمَاءَ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: أَتَقْدِرِي مَا فِيهَا؟ قَالَ: لَا، قَالَ: عَجَبًا لَكَ لَمْ تَبْلُغِ الْمَشْرِقَ وَلَمْ تَبْلُغِ الْمَغْرِبَ وَلَمْ تَنْزِلِ الْأَرْضَ وَلَمْ تَصْعِدِ السَّمَاءَ وَلَمْ تَحِزْ هُنَاكَ فَتَعْرِفَ مَا خَلْفَهُنَّ وَأَنْتَ جَاحِدٌ بِمَا فِيهِنَّ وَهَلْ يَحْجِدُ الْعَاقِلُ مَا لَا يَعْرِفُ؟! قَالَ الزَّنْدِيقُ: مَا كَلَّمَنِي بِهَذَا أَحَدٌ غَيْرُكَ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: فَأَنْتَ مِنْ ذَلِكَ فِي شَكٍّ فَلَعَلَّهُ هُوَ وَلَعَلَّهُ لَيْسَ هُوَ؟ فَقَالَ الزَّنْدِيقُ: وَلَعَلَّ ذَلِكَ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: أَيُّهَا الرَّجُلُ، لَيْسَ لِمَنْ لَا يَعْلَمُ حُجَّةً عَلَى مَنْ يَعْلَمُ، وَلَا حُجَّةً لِلْجَاهِلِ. يَا أَخَا أَهْلِ مِصْرَ تَفْهَمُ عَنِّي، فَإِنَّا لَا نَشْكُ فِي اللَّهِ أَبَدًا، أَمَا تَرَى الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَاللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَلْجَانِ فَلَا يَشْتَهَانِ وَيَرِجَعَانِ، قَدْ اضْطَرَّ لَيْسَ لُهُمَا مَكَانٌ إِلَّا مَكَانَهُمَا، فَإِنْ كَانَا يَقْدِرَانِ عَلَى أَنْ يَذْهَبَا فَلِمَ يَرِجَعَانِ؟ وَإِنْ كَانَا غَيْرَ مُضْطَرَّيْنِ فَلِمَ لَا يَصِيرُ اللَّيْلُ نَهَارًا وَالنَّهَارُ لَيْلًا؟ اضْطَرَّ وَاللَّهِ يَا أَخَا أَهْلِ مِصْرَ إِلَى دَوَامِهِمَا، وَالَّذِي اضْطَرَّهُمَا أَحْكَمُ مِنْهُمَا وَأَكْبَرُ، فَقَالَ الزَّنْدِيقُ: صَدَقْتَ، ثُمَّ قَالَ أَبُو

عَبْدُ اللَّهِ عليه السلام: يَا أَخَا أَهْلِ مِصْرَ، إِنَّ الَّذِي تَذْهَبُونَ إِلَيْهِ وَتَنْظُنُونَ أَنَّهُ الدَّهْرُ إِنْ كَانَ الدَّهْرُ يَذْهَبُ بِهِمْ لَمْ لَا يَرُدُّهُمْ؟ وَإِنْ كَانَ يَرُدُّهُمْ لَمْ لَا يَذْهَبُ بِهِمْ؟ الْقَوْمُ مُضْطَرُّونَ يَا أَخَا أَهْلِ مِصْرَ، لِمَ السَّيِّئَ مَرْفُوعَةً وَالْأَرْضَ مَوْضُوعَةً؟ لِمَ لَا يَسْقُطُ السَّيِّئُ عَلَى الْأَرْضِ؟ لِمَ لَا تَنْحَدِرُ الْأَرْضُ فَوْقَ طَبَاقِهَا وَلَا يَتِمَّاسِكَانِ وَلَا يَتِمَّاسِكُ مَنْ عَلَيْهَا؟ قَالَ الزَّنْدِيقُ: أَمْسَكْتُمَا اللَّهُ رَبُّهُمَا وَسَيِّدُهُمَا. قَالَ: فَأَمَّنَ الزَّنْدِيقُ عَلَى يَدَيَّ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام، فَقَالَ لَهُ مُهْرَانُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ إِنْ أَمَنْتِ الزَّنَادِقَةَ عَلَى يَدِكَ فَقَدْ أَمِنَ الْكُفَّارُ عَلَى يَدَيَّ أَبِيكَ، فَقَالَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي أَمِنَ عَلَى يَدَيَّ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: اجْعَلْنِي مِنْ تَلَامِيذِكَ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: يَا هِشَامُ بَنَ الْحَكَمِ، خُذْهُ إِلَيْكَ وَعَلِّمَهُ، فَعَلَّمَهُ هِشَامٌ، فَكَانَ مُعَلِّمَ أَهْلِ الشَّامِ وَأَهْلِ مِصْرَ الْإِيثَانَ، وَحَسَنَتْ طَهَارَتُهُ حَتَّى رَضِيَ بِهَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام ^(١).

من صفات أهل الجهل

ذكر ابن شهر آشوب في مناقبه:

«عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ عُمَيْرٍ، وَالْحَاكِمُ، وَالْعَبَّاسُ قَالُوا: خَطَبَ الْحَسَنُ عَائِشَةَ بِنْتَ عُثْمَانَ، فَقَالَ مَرْوَانُ: أَرْوَجُهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ، ثُمَّ إِنَّ مُعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَى مَرْوَانَ وَهُوَ عَامِلُهُ عَلَى الْحِجَازِ يَأْمُرُهُ أَنْ يُخْطَبَ أُمَّ كُلْثُومِ بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ لِابْنِهِ يَزِيدَ، فَأَبَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: إِنَّ أَمْرَهَا لَيْسَ إِلَيَّ إِنَّمَا هُوَ إِلَى سَيِّدِنَا الْحَسَنِ وَهُوَ خَالُهَا، فَأُخْبِرَ الْحَسَنُ بِذَلِكَ فَقَالَ: أَسْتَحِيرُ اللَّهَ تَعَالَى، اللَّهُمَّ وَفَّقْ لِهَذِهِ الْجَارِيَةِ رِضَاكَ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ، فَلَمَّا اجْتَمَعَ النَّاسُ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ أَقْبَلَ مَرْوَانُ حَتَّى جَلَسَ إِلَى الْحَسَنِ عليه السلام وَعِنْدَهُ مِنَ الْجَلَّةِ وَقَالَ: إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمَرَنِي بِذَلِكَ وَأَنْ أَجْعَلَ مَهْرَهَا حُكْمَ أَبِيهَا بِالْعَامَا مَا بَلَغَ مَعَ صَلَاحِ مَا بَيْنَ هَذَيْنِ الْحَيَيْنِ مَعَ قَضَاءِ دَيْنِهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَنْ يَغِطُّكُمْ بِيَزِيدَ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَغِطُّهُ بِكُمْ، وَالْعَجَبُ كَيْفَ يَسْتَمِيرُ يَزِيدُ وَهُوَ كُفُوٌّ مَنْ لَا كُفُوٌّ لَهُ، وَبَوَجْهِهِ يُسْتَسْقَى الْعِغَامُ، فَرُدَّ خَيْرًا يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام.

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٧٢-٧٤، حديث ١.

فَقَالَ الْحَسِينُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي اخْتَارَنَا لِنَفْسِهِ وَارْتَضَانَا لِدِينِهِ وَاصْطَفَانَا عَلَى خَلْقِهِ، إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مَرْوَانَ، قَدْ قُلْتَ فَسَمِعْنَا، أَمَّا قَوْلُكَ: مَهْرُهَا حُكْمُ أَبِيهَا بِالْعَامِّ مَا بَلَغَ، فَلَعَمْرِي لَوْ أَرَدْنَا ذَلِكَ مَا عَدَوْنَا سُنَّةَ رَسُولِ اللَّهِ فِي بَنَاتِهِ وَنِسَائِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ اثْنَتَا عَشْرَةَ أُوقِيَّةً يَكُونُ أَرْبَعِمِائَةً وَتَمَانِينَ دِرْهَمًا، وَأَمَّا قَوْلُكَ: مَعَ قَضَاءِ دَيْنِ أَبِيهَا، فَمَتَى كُنَّ نِسَاؤُنَا يَقْضِينَ عَنَّا دِيُونَنَا؟! وَأَمَّا صَلْحُ مَا بَيْنَ هَذَيْنِ الْحَيَيْنِ، فَإِنَّا قَوْمٌ عَادِيْنَاكُمْ فِي اللَّهِ وَلَمْ نَكُنْ نَصَاحِيكُمْ لِلدُّنْيَا، فَلَعَمْرِي فَلَقَدْ أَعْيَى النَّسْبُ فَكَيْفَ السَّبَبُ، وَأَمَّا قَوْلُكَ: الْعَجَبُ لِيَزِيدَ كَيْفَ يَسْتَمَهْرُ، فَقَدْ اسْتَمَهَرَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْ يَزِيدَ وَمَنْ أَبِ يَزِيدَ وَمَنْ جَدُّ يَزِيدَ، وَأَمَّا قَوْلُكَ: إِنَّ يَزِيدَ كَفُوٌّ مَنْ لَا كَفُوٌّ لَهُ، فَمَنْ كَانَ كَفُوَّهُ قَبْلَ الْيَوْمِ فَهُوَ كَفُوُّ الْيَوْمِ مَا زَادَتْهُ إِمَارَتُهُ فِي الْكِفَاءَةِ شَيْئًا، وَأَمَّا قَوْلُكَ: بِوَجْهِهِ يُسْتَسْقَى الْعِمَامُ، فَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ بِوَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَمَّا قَوْلُكَ: مَنْ يَغْبِطُنَا بِهِ أَكْثَرَ مَنْ يَغْبِطُهُ بِنَا، فَإِنَّمَا يَغْبِطُنَا بِهِ أَهْلُ الْجَهْلِ وَيَغْبِطُهُ بِنَا أَهْلُ الْعَقْلِ...»^(١).

فيستنتج من قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فَإِنَّمَا يَغْبِطُنَا بِهِ أَهْلُ الْجَهْلِ» أَنَّ وَاحِدَةً مِنْ صِفَاتِ أَهْلِ الْجَهْلِ غِبْطَتُهُمْ لِلْمَقَامِ الدُّنْيَوِيِّ وَالْجَاهِ وَالْأَمْوَالِ.

قال الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«الْجَاهِلُ يَنْظُرُ بِعَيْنَيْهِ وَنَاطِرُهُ»^(٢).

لزوم إرشاد الجاهل في الأمور المادية

نقل قطب الدين الراوندي عن مندل عن هارون بن خارجة عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ عن آبائه الكرام قال:

«إِنَّ الْحَسِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُنْفِدَ غِلْمَانَهُ فِي بَعْضِ أُمُورِهِ قَالَ لَهُمْ: لَا تَخْرُجُوا يَوْمَ

(١) ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: ج ٤، ص ٣٨-٣٩.

(٢) الأمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٦٦، حديث ١٢٨٨.

كَذَّا، وَآخِرُجُوا يَوْمَ كَذَا، فَإِنَّكُمْ إِنْ خَالَفْتُمُونِي قُطِعَ عَلَيْكُمْ.
فَخَالَفُوهُ مَرَّةً وَخَرَجُوا، فَقَتَلَهُمُ اللَّصُوصُ، وَأَخَذُوا مَا مَعَهُمْ، وَاتَّصَلَ الْخَبْرُ
بِالْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: لَقَدْ حَذَرْتُهُمْ فَلَمْ يَقْبَلُوا مِنِّي.
ثُمَّ قَامَ مِنْ سَاعَتِهِ وَدَخَلَ عَلَى الْوَالِي، فَقَالَ الْوَالِي: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، بَلَّغْنِي قَتْلَ غِلْمَانِكَ
فَأَجْرَكَ اللَّهُ فِيهِمْ.

فَقَالَ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَإِنِّي أَذُوكَ عَلَى مَنْ قَتَلَهُمْ فَأَشُدُّ يَدَكَ بِهِمْ.
قَالَ: أَوْتَعَرَفْتُهُمْ يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ؟! قَالَ: نَعَمْ، كَمَا أَعْرِفُكَ، وَهَذَا مِنْهُمْ - وَأَشَارَ
بِيَدِهِ إِلَى رَجُلٍ وَاقِفٍ بَيْنَ يَدَيْ الْوَالِي -.

فَقَالَ الرَّجُلُ: وَمِنْ أَيْنَ قَصَدْتَنِي بِهَذَا؟! وَمِنْ أَيْنَ تَعْرِفُ أَنِّي مِنْهُمْ؟!
فَقَالَ لَهُ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنْ أَنَا صَدَّقْتُكَ تُصَدِّقُنِي؟ فَقَالَ الرَّجُلُ: نَعَمْ، وَاللَّهِ
لَأُصَدِّقَنَّكَ. فَقَالَ: خَرَجْتَ وَمَعَكَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ، وَذَكَرَهُمْ كُلَّهُمْ، فَمِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ مِنْ
مَوَالِي الْمَدِينَةِ وَالْبَاقُونَ مِنْ حُبْشَانَ الْمَدِينَةِ.

فَقَالَ الْوَالِي لِلرَّجُلِ: وَرَبُّ الْقَبْرِ وَالْمَنْبَرِ لَتُصَدِّقُنِي أَوْ لَأَهْرَأَنَّ لِحِمَاكَ بِالسَّيَاطِ.
فَقَالَ الرَّجُلُ: وَاللَّهِ مَا كَذَبَ الْحُسَيْنُ وَقَدْ صَدَّقَ، وَكَأَنَّهُ كَانَ مَعَنَا.
فَجَمَعَهُمُ الْوَالِي جَمِيعًا، فَأَقْرَأُوا جَمِيعًا فَضْرَبَ أَعْنَاقَهُمْ^(١).
فِيَتَيَّنُ مِنْ إِرْشَادِ الْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِعِلْمَانِهِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ أَنْ إِرْشَادَ الْجَاهِلِ أَمْرٌ
لَا زَمَّ حَتَّى فِي الْمَسَائِلِ الْمَادِيَّةِ.

نقل الطبرسي بسنده عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام أنه قال:
«قَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ: فَضْلُ كَافِلِ يَتِيمٍ آلِ مُحَمَّدٍ - الْمُنْقَطِعِ عَنِ مَوَالِيهِ، النَّاشِئِ فِي
رُتْبَةِ الْجَهْلِ، يُخْرِجُهُ مِنْ جَهْلِهِ، وَيُوضِحُ لَهُ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ - عَلَى فَضْلِ كَافِلِ يَتِيمٍ يُطْعِمُهُ
وَيَسْقِيهِ، كَفَضْلِ الشَّمْسِ عَلَى السُّهَاءِ»^(٢).

(١) قطب الدين الراوندي، سعيد بن هبة الله، الخرائج والجرائح: ج ١، ص ٢٤٦-٢٤٨، حديث ٣.

(٢) الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج ١، ص ١٦.

«ناشب» مأخوذ من مادة «نشوب»، ويعني الوقوع في شيء، وبما أن فعله قد استخدم هنا بخصوص الجهل يستنتج أن بعض الناس قد ابتلوا بالجهل ولا بد من العمل على إنقاذهم منه، إذ إن فضل من يسعى لإخراج البعض من جهله ويوضح له الأمور المشتبهة عليه أرفع وأسمى من فضل المتكفل بيتيم يوفر له الطعام والشراب.

الجهل من عوامل ظلم الآخرين

نقل البلاذري عن العتبي أنه قال:

«حَبَبَ الْوَلِيدُ بْنُ عُتْبَةَ أَهْلَ الْعِرَاقِ عَنِ الْحَسَنِ، فَقَالَ الْحَسَنُ: يَا ظَالِمًا لِنَفْسِهِ، عَاصِيًا لِرَبِّهِ، عَلَامَ تَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَ قَوْمٍ عَرَفُوا مِنْ حَقِّي مَا جَهَلْتَهُ أَنْتَ وَعَمَّكَ؟! فَقَالَ الْوَلِيدُ: لَيْتَ حِلْمَنَا عَنْكَ لَا يَدْعُو جَهْلَ غَيْرِنَا إِلَيْكَ، فَحِنَايَةَ لِسَانِكَ مَغْفُورَةٌ لَكَ مَا سَكَنْتَ يَدَكَ، فَلَا تَخْطُرْهَا فَتُخْطِرَ بِكَ، وَلَوْ عَلِمْتَ مَا يَكُونُ بَعْدَنَا لَأَحْبَبْتَنَا كَمَا أَبْغَضْتَنَا»^(١).

دلنا مضمون قوله عليه السلام: «مَا جَهَلْتَهُ أَنْتَ وَعَمَّكَ» على أن من أسباب ظلم الناس إغلاق الطريق أمامهم ومنعهم عن الارتباط بالقادة الإلهيين.

قال النبي عليه السلام:

«صِفَةُ الْجَاهِلِ أَنْ يَظْلِمَ مَنْ خَالَطَهُ، وَيَتَعَدَّى عَلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ، وَيَتَطَاوَلَ عَلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ، كَلَامُهُ بِغَيْرِ تَدَبُّرٍ...»^(٢).

(١) البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج ٣، ص ٣٦٩.

(٢) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٩.

معذورية الجاهل القاصر

ذكر الخوارزمي في (مقتل الحسين):

«فَقَالَ عُمَرُ بْنُ سَعْدٍ: وَيْلَكُمْ كَلَّمُوهُ فَإِنَّهُ ابْنُ أَبِيهِ، وَاللَّهِ، لَوْ وَقَفَ فِيكُمْ هَكَذَا يَوْمًا جَدِيدًا لَمَا قَطَعَ وَلَمَا حَصَرَ، فَكَلَّمُوهُ، فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ شِمْرُ بْنُ ذِي الْجَوْشَنِ، فَقَالَ: يَا حُسَيْنُ، مَا هَذَا الَّذِي تَقُولُ؟ أَفَهَمْنَا حَتَّى نَفْهَمَ؟

فَقَالَ عليه السلام: أَقُولُ لَكُمْ: اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ وَلَا تَقْتُلُونِ، فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكُمْ قِتْلِي وَلَا انْتِهَاكُ حُرْمَتِي، فَإِنَّ ابْنَ بِنْتِ نَبِيِّكُمْ، وَجَدَّتِي خَدِيجَةَ زَوْجَةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَعَلَّهُ قَدْ بَلَغَكُمْ قَوْلُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله: الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَا خَلَا النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ، فَإِنْ صَدَّقْتُمُونِي بِمَا أَقُولُ، وَهُوَ الْحَقُّ، فَوَاللَّهِ مَا تَعَمَّدْتُ كَذِبًا مُنْذُ عَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ يَمُقَّتُ عَلَيْهِ أَهْلُهُ...»^(١).

يتحصل من المدلول التضمني لقوله عليه السلام: «مَا تَعَمَّدْتُ كَذِبًا مُنْذُ عَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ يَمُقَّتُ عَلَيْهِ أَهْلُهُ» أَنَّ الْجَاهِلَ الْقَاصِرَ مَعْذُورٌ، وَكَلَّمَا عِلْمٌ بِحُكْمِ عَمَلٍ مَا وَمَبْغُوضِيَّتِهِ عِنْدَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَجِبَ عَلَيْهِ تَرْكُهُ، وَهَذَا لَا يَرْفَعُ عَنِ عَاتِقِهِ وَجُوبَ تَعَلُّمِ الْأَحْكَامِ وَتَتَبُعِهَا، وَلَكِنَّهُ مَتَى مَا انْتَهَى بَحْثُهُ وَلَمْ يَتَوَصَّلْ إِلَى نَتِيجَةِ وَصَدْرٍ مِنْهُ مَا خَالَفَ بِهِ الْوَاقِعَ سَيَعِدُّ بِذَلِكَ مَعْذُورًا، وَهَذَا مَا يَعْبَرُ عَنْهُ بِالْجَاهِلِ الْقَاصِرِ.

قال النبي صلى الله عليه وآله:

«وُضِعَ عَنِ أُمَّتِي تِسْعُ خِصَالٍ: الْخَطَأُ، وَالنِّسْيَانُ، وَمَا لَا يَعْلَمُونَ، وَمَا لَا يُطِيقُونَ، وَمَا اضْطُرُّوا إِلَيْهِ، وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ، وَالطَّيْرَةُ، وَالْوَسْوَاسَةُ فِي التَّفَكُّرِ فِي الْخَلْقِ، وَالْحَسَدُ مَا لَمْ يُظْهِرْ بِلِسَانٍ أَوْ يَدٍ»^(٢).

(١) أخطب خوارزم، الموفق بن أحمد، مقتل الحسين عليه السلام: ج ١، ص ٣٥٧-٣٥٨.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٤٦٣، حديث ٢.

لزوم إرشاد الجاهل في التمييز

نقل الكليني بسنده عن حبابة الوالبية (اسم امرأة من والبة اليمن) أنها قالت:

«رَأَيْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فِي شُرْطَةِ الْخَمِيسِ وَمَعَهُ دِرَّةٌ لَهَا سَبَابَتَانِ يَضْرِبُ بِهَا بِيَّاعِي الْجَرِيِّ وَالْمَارْمَاهِي وَالزَّمَّارِ وَيَقُولُ لَهُمْ: يَا بِيَّاعِي مُسُوخِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَجُنْدِ بَنِي مَرْوَانَ، فَقَامَ إِلَيْهِ فُرَاتُ بْنُ أَحْنَفَ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَا جُنْدُ بَنِي مَرْوَانَ؟ قَالَ: فَقَالَ لَهُ: أَقْوَامٌ حَلَقُوا اللَّحَى وَفَتَلُوا الشَّوَارِبَ فَمَسَّحُوا، فَلَمْ أَرَ نَاطِقًا أَحْسَنَ نَاطِقًا مِنْهُ، ثُمَّ اتَّبَعْتُهُ فَلَمْ أَزَلْ أَقْفُو أَثْرَهُ حَتَّى قَعَدَ فِي رَحْبَةِ الْمَسْجِدِ فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا دَلَالَةُ الْإِمَامَةِ يَرْحَمُكَ اللَّهُ؟ قَالَتْ: فَقَالَ: أَتَيْتَنِي بِتِلْكَ الْحِصَاةِ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى حِصَاةٍ، فَأَتَيْتُهُ بِهَا، فَطَعَّ لِي فِيهَا بِخَاتَمِهِ، ثُمَّ قَالَ لِي: يَا حَبَابَةُ، إِذَا ادَّعَى مُدَّعِ الْإِمَامَةَ فَقَدَّرَ أَنْ يَطْعَ كَمَا رَأَيْتَ فَأَعْلَمِي أَنَّهُ إِمَامٌ مُفْتَرَضُ الطَّاعَةِ، وَالْإِمَامُ لَا يَعْرُبُ عَنْهُ شَيْءٌ يُرِيدُهُ، قَالَتْ: ثُمَّ انصَرَفْتُ حَتَّى قُبِضَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، فَحِثْتُ إِلَى الْحَسَنِ عليه السلام وَهُوَ فِي مَجْلِسِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام وَالنَّاسُ يَسْأَلُونَهُ فَقَالَ: يَا حَبَابَةُ الْوَالِبِيَّةُ، فَقُلْتُ: نَعَمْ يَا مَوْلَايَ، فَقَالَ: هَاتِي مَا مَعَكَ، قَالَ: فَأَعْطَيْتُهُ، فَطَعَّ فِيهَا كَمَا طَعَّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، قَالَتْ: ثُمَّ أَتَيْتُ الْحَسِينَ عليه السلام وَهُوَ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم فَقَرَّبَ وَرَحَّبَ، ثُمَّ قَالَ لِي: إِنَّ فِي الدَّلَالَةِ دَلِيلًا عَلَى مَا تُرِيدِينَ، أَفْتُرِيدِينَ دَلَالَةَ الْإِمَامَةِ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ يَا سَيِّدِي، فَقَالَ: هَاتِي مَا مَعَكَ، فَنَاوَلْتُهُ الْحِصَاةَ، فَطَعَّ لِي فِيهَا، قَالَتْ: ثُمَّ أَتَيْتُ عَلِيَّ بْنَ الْحَسَنِ عليه السلام، وَقَدْ بَلَغَ بِي الْكِبَرُ إِلَى أَنْ أُرْعِشْتُ وَأَنَا أَعْدُدُ يَوْمئِذٍ مِائَةً وَثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً، فَرَأَيْتُهُ رَاكِعًا وَسَاجِدًا وَمَشْغُولًا بِالْعِبَادَةِ، فَيَسْتُ مِنَ الدَّلَالَةِ، فَأَوْمَأَ إِلَيَّ بِالسَّبَابَةِ فَعَادَ إِلَيَّ شَبَابِي، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا سَيِّدِي، كَمْ مَضَى مِنَ الدُّنْيَا؟ وَكَمْ بَقِيَ؟ فَقَالَ: أَمَّا مَا مَضَى فَنَعَمْ، وَأَمَّا مَا بَقِيَ فَلَا، قَالَتْ: ثُمَّ قَالَ لِي: هَاتِي مَا مَعَكَ، فَأَعْطَيْتُهُ الْحِصَاةَ، فَطَعَّ لِي فِيهَا، ثُمَّ أَتَيْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام فَطَعَّ لِي فِيهَا، ثُمَّ أَتَيْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام فَطَعَّ لِي فِيهَا، ثُمَّ أَتَيْتُ أَبَا الْحَسَنِ عليه السلام فَطَعَّ لِي فِيهَا، ثُمَّ أَتَيْتُ الرِّضَا عليه السلام فَطَعَّ لِي فِيهَا. وَعَاشَتْ حَبَابَةُ بَعْدَ ذَلِكَ

تَسْعَةَ أَشْهُرٍ عَلَى مَا ذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ هِشَامٍ^(١).

من إرشاد الإمام لحبابة الوالدية يستفاد أن على الإمام المعصوم عليه السلام أن يقدم يد المساعدة للناس في التمييز والتشخيص.

قال الإمام علي عليه السلام:

«مَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقًا مِنْ أَهْلِ الْجُهْلِ بِطَلَبِ تَبْيَانِ الْعِلْمِ حَتَّى أَخَذَ مِيثَاقًا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِبَيَانِ الْعِلْمِ لِلْجُهَالِ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ كَانَ قَبْلَ الْجُهْلِ»^(٢).

لزوم المبادرة لإرشاد الجاهل

من خلال مبادرة الإمام بالإجابة عن سؤال حبابة الوالدية قبل أن تنطق به، يتضح وجوب المبادرة أحياناً لإرشاد الجاهل وإجابة سؤاله، وخصوصاً إذا كان السؤال يتعلق بالأمور العقائدية المهمة مثل الإمامة.

روي عن الإمام علي عليه السلام أنه قال:

«إِنَّهُ لَيْسَ عَلَى الْإِمَامِ إِلَّا مَا حُمِّلَ مِنْ أَمْرِ رَبِّهِ: الْإِبْلَاقُ فِي الْمَوْعِظَةِ، وَالْاجْتِهَادُ فِي النَّصِيحَةِ...»^(٣).

مطية الجهل

ذكر الشيخ الطوسي:

«قَالَ الْكُشَيْبِيُّ: وَرَوِي: أَنَّ مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ كَتَبَ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَهُوَ عَامِلُهُ عَلَى الْمَدِينَةِ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ عَمْرَو بْنَ عَثْمَانَ ذَكَرَ أَنَّ رِجَالاً مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَوُجُوهُ أَهْلِ الْحِجَازِ يَخْتَلِفُونَ إِلَى الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ، وَذَكَرَ أَنَّهُ لَا يَأْمَنُ وَثُوبَهُ، وَقَدْ بَحِثْتُ عَنْ ذَلِكَ فَبَلَغَنِي أَنَّهُ

(١) المصدر السابق: ج ١، ص ٣٤٦-٣٤٧، حديث ٣.

(٢) المفيد، محمد بن محمد، الأمالي: ص ٦٦، حديث ١٢.

(٣) نهج البلاغة: خطبة ١٠٥.

لَا يُرِيدُ الْخِلَافَ يَوْمَهُ هَذَا، وَلَسْتُ آمِنٌ أَنْ يَكُونَ هَذَا أَيْضًا لِمَا بَعْدَهُ، فَارْتَبْتُ إِلَيْكَ بِرَأْيِكَ فِي هَذَا، وَالسَّلَامُ.

فَكَتَبَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةَ: أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي كِتَابُكَ وَفَهَمْتُ مَا ذَكَرْتَ فِيهِ مِنْ أَمْرِ الْحُسَيْنِ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَعَرَّضَ لِلْحُسَيْنِ فِي شَيْءٍ، وَأَتْرِكَ حُسَيْنًا مَا تَرَكْتَ، فَإِنَّا لَا نُرِيدُ أَنْ تَعَرَّضَ لَهُ فِي شَيْءٍ مَا وَفَى بِنَبِيِّنَا وَلَمْ يَنْزِعْ عَلَى سُلْطَانِنَا، فَارْتَبْنَا عَنْهُ مَا لَمْ يُبَدِّ لَكَ صَفْحَتَهُ، وَالسَّلَامُ.

وَكَتَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَى الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ انْتَهَتْ إِلَيْكَ أُمُورٌ عَنْكَ إِنْ كَانَتْ حَقًّا فَقَدْ أَظُنُّكَ تَرَكْتَهَا رَغْبَةً فَدَعَاهَا، وَلَعَمْرُ اللَّهِ إِنَّ مَنْ أَعْطَى اللَّهُ عَهْدَهُ وَمِيثَاقَهُ لِحَدِيثٍ بِالْوَفَاءِ، وَإِنْ كَانَ الَّذِي بَلَغَنِي بَاطِلًا فَإِنَّكَ أَنْتَ أَعَزُّ النَّاسِ لِلذِّكْرِ وَعِظُ نَفْسِكَ فَادْكُرْ وَلِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفٍ، فَإِنَّكَ مَتَى تُنْكِرُنِي أَنْكِرَكَ وَمَتَى تَكِيدُنِي أَكِيدُكَ، فَاتَّقِ شَقَّكَ عَصَا هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَنْ يَرُدَّهُمُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْكَ فِي فِتْنَةٍ، فَقَدْ عَرَفْتَ النَّاسَ وَبَلَّوْتَهُمْ، فَانظُرْ لِنَفْسِكَ وَدِينِكَ وَلَا مُمْرَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَلَا يَسْتَحْفَنُكَ السُّفَهَاءُ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ.

فَلَمَّا وَصَلَ الْكِتَابُ إِلَى الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَتَبَ إِلَيْهِ: أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي كِتَابُكَ، تَذَكَّرْتُ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَكَ عَنِّي أُمُورٌ أَنْتَ لِي عَنْهَا رَاغِبٌ وَأَنَا بِغَيْرِهَا عِنْدَكَ جَدِيرٌ، فَإِنَّ الْحَسَنَاتِ لَا يَهْدِي لَهَا وَلَا يُسَدِّدُ إِلَيْهَا إِلَّا اللَّهُ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ أَنَّهُ انْتَهَى إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّهُ إِنَّمَا رَفَاهُ إِلَيْكَ الْمَلَاقُونَ الْمَشَاوُونَ بِالنَّمِيمِ، وَمَا أُرِيدُ لَكَ حَرْبًا وَلَا عَلَيَّ خِلَافًا، وَأَيْمُ اللَّهِ إِنِّي لِحَائِفُ اللَّهِ فِي تَرْكِ ذَلِكَ وَمَا أَظُنُّ اللَّهَ رَاضِيًا بِتَرْكِ ذَلِكَ وَلَا عَازِرًا بِدُونِ الْإِعْذَارِ فِيهِ إِلَيْكَ وَفِي أَوْلِيَانِكَ الْقَاسِطِينَ الْمَلْحِدِينَ حِزْبِ الظُّلْمَةِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيَاطِينِ، أَلَسْتَ الْقَاتِلَ حُجْرَ بْنِ عَدِيٍّ أَحَا كِنْدَةَ وَالْمَصَلِّينَ الْعَابِدِينَ، الَّذِينَ كَانُوا يُنْكِرُونَ الظُّلْمَ وَيَسْتَعْظِمُونَ الْبِدْعَ وَلَا يَخَافُونَ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ، ثُمَّ قَتَلْتَهُمْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا مِنْ بَعْدِ مَا كُنْتُ أَعْطَيْتُهُمُ الْأَيْمَانَ الْمَغْلَظَةَ وَالْمَوَاتِيقَ الْمَوْكَدَةَ لَا تَأْخُذُهُمْ بِحَدِيثِ كَانَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ وَلَا بِإِحْنَةِ تَجِدُهَا فِي نَفْسِكَ؟! أَوْلَسْتَ قَاتِلَ عَمْرٍو بْنِ الْحَمِقِ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْعَبْدِ الصَّالِحِ الَّذِي

أَبْلَتْهُ الْعِبَادَةُ فَحَجَلَ جِسْمُهُ وَاصْفَرَّتْ لَوْنُهُ بَعْدَ مَا آمَنَتْهُ وَأَعْطَيْتَهُ مِنْ عَهْدِ اللَّهِ وَمَوَائِقِهِ
 مَا لَوْ أَعْطَيْتَهُ طَائِرًا لَنَزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَأْسِ الْجَبَلِ، ثُمَّ قَتَلْتَهُ جُرْأَةً عَلَى رَبِّكَ وَاسْتِخْفَافًا
 بِذَلِكَ الْعَهْدِ؟! أَوْلَسْتَ الْمَدْعِيَّ زِيَادَ بْنِ سُمَيَّةَ الْمُؤَلَّدِ عَلَى فِرَاشِ عُبَيْدِ ثَقِيفٍ فَرَعَمْتَ
 أَنَّهُ ابْنُ أَبِيكَ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ، فَتَرَكْتَ سُنَّةَ
 رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله تَعَمُّدًا وَتَبِعْتَ هَوَاكَ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ، ثُمَّ سَأَلْتَهُ عَلَى الْعِرَاقَيْنِ يَقْطَعُ
 أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ وَأَرْجُلَهُمْ وَيَسْمُلُ أَعْيُنَهُمْ وَيُصَلِّبُهُمْ عَلَى جُدُوعِ النَّخْلِ كَأَنَّكَ لَسْتَ مِنْ
 هَذِهِ الْأُمَّةِ وَلَيْسُوا مِنْكَ؟! أَوْلَسْتَ صَاحِبَ الْحَضْرَمِيِّينَ الَّذِينَ كَتَبَ فِيهِمْ ابْنُ سُمَيَّةَ
 أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى دِينِ عَلِيِّ عليه السلام، فَكَتَبْتَ إِلَيْهِ أَنْ أَقْتُلْ كُلَّ مَنْ كَانَ عَلَى دِينِ عَلِيٍّ، فَقَتَلْتَهُمْ
 وَمَثَلَ بِهِمْ بِأَمْرِكَ؟! وَدِينُ عَلِيِّ عليه السلام وَاللَّهِ الَّذِي كَانَ يَضْرِبُ عَلَيْهِ أَبَاكَ وَيَضْرِبُكَ، وَبِهِ
 جَلَسْتَ مَجْلِسَكَ الَّذِي جَلَسْتَ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَكَانَ شَرَفُكَ وَشَرَفُ أَبِيكَ الرَّحْلَتَيْنِ.
 وَقُلْتَ فِيمَا قُلْتَ: انظُرْ لِنَفْسِكَ وَلِدِينِكَ وَالْأُمَّةِ مُحَمَّدٍ وَاتَّقِ شَقَّ عَصَا هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَنْ
 تَرُدَّهُمْ إِلَى فِتْنَةٍ، وَإِنِّي لَا أَعْلَمُ فِتْنَةً أَعْظَمَ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ وَلَايَتِكَ عَلَيْهَا وَلَا أَعْظَمَ
 نَظْرًا لِنَفْسِي وَلِدِينِي وَالْأُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وَعَلَيْنَا أَفْضَلُ مِنْ أَنْ أُجَاهِدَكَ، فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّهُ
 قُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ وَإِنْ تَرَكْتَهُ فَإِنِّي أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِدِينِي وَأَسْأَلُهُ تَوْفِيقَهُ لِإِزْشَادِ أَمْرِي. وَقُلْتَ فِيمَا
 قُلْتَ: إِنِّي إِنْ أَنْكَرْتُكَ تُنَكِّرُنِي وَإِنْ أَكِدَّكَ تُكِدِّنِي، فَكِدِّنِي مَا بَدَا لَكَ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ لَا
 يَضُرَّنِي كَيْدُكَ فِيَّ وَأَنْ لَا يَكُونَ عَلَى أَحَدٍ أَضَرٌّ مِنْهُ عَلَى نَفْسِكَ، عَلَى أَنَّكَ قَدْ رَكِبْتَ
 بِجَهْلِكَ وَتَحَرَّضْتَ عَلَى نَقْضِ عَهْدِكَ، وَلَعَمْرِي مَا وَفَيْتَ بِشَرْطٍ وَلَقَدْ نَقَضْتَ عَهْدَكَ
 بِقَتْلِكَ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ الَّذِينَ قَتَلْتَهُمْ بَعْدَ الصُّلْحِ وَالْإِيمَانِ وَالْعَهْدِ وَالْمَوَائِقِ، فَقَتَلْتَهُمْ مِنْ
 غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا قَاتِلُوا وَقَتَلُوا، وَلَمْ تَفْعَلْ ذَلِكَ بِهِمْ إِلَّا لِذِكْرِهِمْ فَضْلَنَا وَتَعْظِيمِهِمْ حَقًّا،
 فَقَتَلْتَهُمْ خَافَةَ أَمْرٍ لَعَلَّكَ لَوْ لَمْ تَقْتُلْهُمْ مِتَّ قَبْلَ أَنْ يَفْعَلُوا أَوْ مَاتُوا قَبْلَ أَنْ يَدْرِكُوا. فَأَبْشِرْ
 يَا مُعَاوِيَةَ بِالْقِصَاصِ وَاسْتَيْقِنْ بِالْحِسَابِ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كِتَابًا لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا

كَبِيرَةٌ إِلَّا أَحْصَاهَا، وَلَيْسَ اللَّهُ بِنَاسٍ لِأَخْذِكَ بِالظَّنِّ وَقَتْلِكَ أَوْلِيَاءَهُ عَلَى التَّهْمِ وَنَفِيكَ أَوْلِيَاءَهُ مِنْ دُورِهِمْ إِلَى دَارِ الْعُرْبَةِ، وَأَخْذِكَ لِلنَّاسِ بَبَيْعَةِ ابْنِكَ غُلَامٍ حَدَثٍ يَشْرَبُ الْخَمْرَ وَيَلْعَبُ بِالْكِلَابِ، لَا أَعْلَمُكَ إِلَّا وَقَدْ خَسِرْتَ نَفْسَكَ وَتَبَرَّتْ دِينُكَ وَعَشَشْتَ رَعِيَّتَكَ وَأَخْرَبْتَ أَمَانَتَكَ وَسَمِعْتَ مَقَالََةَ السَّفِيهِ الْجَاهِلِ وَأَخَفْتَ الْوَرَعَ التَّقِيَّ لِأَجْلِهِمْ، وَالسَّلَامُ»^(١).

يتأتى هنا من عبارة «أَنْتَ قَدْ رَكِبْتَ بِجَهْلِكَ...» أن «الجاهل» كالفرس الجموح سيلقي بصاحبه من على ظهره إلى الأرض، ومعاوية كان من هذا النوع من الناس.
قال الإمام علي عليه السلام:

«الْجَهْلُ مَطِيَّةٌ شُمُوسٌ مَنْ رَكِبَهَا زَلَّ، وَمَنْ صَحَبَهَا ضَلَّ»^(٢).

جهل الساعي

يتضح مما ورد في قوله عليه السلام: «وَسَمِعْتَ مَقَالََةَ السَّفِيهِ الْجَاهِلِ» تضمناً أن السعاة والوشاة لدى الحكام والذين يعبر عنهم بالجواسيس هم في الواقع جهلة سفهاء.
سأل شخص رسول الله صلى الله عليه وآله:

«فَأَخْبَرَنِي عَنْ أَعْلَامِ الْجَاهِلِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنْ صَحَبْتَهُ عَنَّكَ، وَإِنْ اعْتَرَلْتَهُ شَتَمَكَ، وَإِنْ أَعْطَاكَ مَنْ عَلَيْكَ، وَإِنْ أَعْطَيْتَهُ كَفَرَكَ، وَإِنْ أَسْرَرْتَ إِلَيْهِ خَانَكَ...»^(٣).

قال الإمام علي عليه السلام:

«الْجَهْلُ مَعْدِنُ الشَّرِّ»^(٤).

(١) الطوسي، محمد بن الحسن، اختيار معرفة الرجال المعروف برجال الكشي: ص ٤٧-٥١، حديث ٩٧-٩٩.

(٢) الأمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ١٠٩، حديث ١٩٩٠.

(٣) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ١٨.

(٤) الأمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٤١، حديث ٧٠٩.

حاجة الجهلاء للقُدوة الصحيحة

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال:

«كَانَ أَبِي عَلِمًا لِمَنْ جَهَلَ، مُدَكَّرًا لِمَنْ غَفَلَ، لَا يَلْفِظُ إِلَّا الْحَقَّ وَإِنْ أَمَرَ، وَلَا يُسِيغُ الْبَاطِلَ وَإِنْ حَلَا، شَدَّ عَضُدَهُ، وَجَاهَدَ وَحَدَهُ، وَأَزَرَ أَخَاهُ، وَقَتَلَ عِدَاهُ، وَكَشَفَ عَن وَجْهِهِ الْكُرْبَاتِ، وَخَاصَّ دُونَهُ الْعَمْرَاتِ، فَلَمَّا اخْتَارَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ دَارَ أَنْبِيَائِهِ، كَرِهَتْهُ قُرَيْشٌ، فَأَهْمَلَهُمْ إِهْمَالَ الرَّاعِي لِإِبِلِهِ»^(١).

تدل جملة «كَانَ أَبِي عَلِمًا لِمَنْ جَهَلَ» تضمناً على حاجة الأفراد الجهلة لقُدوة صحيحة ونموذج مثالي من المعصومين.

ورد في دعاء الندبة:

«...وَلَوْ لَا أَنْتَ يَا عَلِيٌّ لَمْ يُعْرِفِ الْمُؤْمِنُونَ بَعْدِي، فَكَانَ بَعْدَهُ هُدًى مِنَ الضَّلَالَةِ، وَنُورًا مِنَ الْعَمَى»^(٢).

تأثير القُدوة في رفع الجهل عن المجتمع

من عبارة الإمام عليه السلام «كَانَ أَبِي عَلِمًا لِمَنْ جَهَلَ» يتحصل بالدلالة التضمنية أن تقديم القُدوة وإعطاء النموذج له تأثيره البالغ والكبير في كشف غطاء الجهل عن المجتمع. وإذا لاحظنا الزيارة الجامعة الكبرى نجدتها تصف الأئمة المعصومين عليهم السلام بهذه العبارة:

«وَأَعْلَامًا لِعِبَادِهِ، وَمَنَارًا فِي بِلَادِهِ، وَأَدِلَّةً عَلَى صِرَاطِهِ»^(٣).

(١) ابن طاووس، علي بن موسى، التشریف بالمنن في التعريف بالفتن: ص ٣٦٣، حديث ٥٣٤.

(٢) ابن المشهدي، محمد بن جعفر، المزار الكبير: ص ٥٧٧.

(٣) ابن بابويه، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه: ج ٢، ص ٦١١.

تأثير الجهل في معاداة الإمام الحق

مما ذكره الإربلي في (كشف الغمة):

«فَصَاحَ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَيَحْكُمُ يَا شَيْعَةَ الشَّيْطَانِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ دِينٌ وَلَا تَخَافُونَ
الْمَعَادَ فَكُونُوا أَحْرَارًا وَارْجِعُوا إِلَى أَنْسَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ أَعْرَابًا كَمَا تَزْعُمُونَ، أَنَا الَّذِي
أُقَاتِلُكُمْ فَكُفُّوا سُفْهَاءَكُمْ وَجَهَّالَكُمْ عَنِ التَّعَرُّضِ لِحَرَمِي، فَإِنَّ النَّسَاءَ لَمْ يَقَاتِلْنَكُمْ»^(١).
حيث يستنتج من جملة «فَكُفُّوا سُفْهَاءَكُمْ وَجَهَّالَكُمْ...» أنّ للجهل تأثيراً في
ارتكاب الذنوب والوقوع في المعاصي ومنها معاداة الإمام الحق والوقوف بوجهه.

الإمام علي عليه السلام:

«الجهل أصل كل شر»^(٢).

الجهل مدعاة للكراهية

ذكر الشيخ المفيد في إرشاده:

«وَكَانَ حِجْيُ الْحَرِّ بْنِ يَزِيدَ مِنَ الْقَادِسِيَّةِ، وَكَانَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ بَعَثَ الْحَصِينَ بْنَ
نُمَيْرٍ وَأَمْرَهُ أَنْ يَنْزِلَ الْقَادِسِيَّةَ، وَتَقَدَّمَ الْحَرُّ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي أَلْفِ فَارِسٍ يَسْتَقْبِلُ بِهِمْ حُسَيْنًا،
فَلَمْ يَزَلِ الْحَرُّ مُوَافِقًا لِلْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى حَضَرَتْ صَلَاةُ الظُّهْرِ، وَأَمَرَ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْحَجَّاجَ
ابْنَ مَسْرُورٍ أَنْ يُؤَدِّنَ، فَلَمَّا حَضَرَتْ الإِقَامَةُ خَرَجَ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي إِزَارٍ وَرِدَاءٍ وَنَعْلَيْنِ،
فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي لَمْ آتِكُمْ حَتَّى أَتْنِي كُتُبُكُمْ وَقَدِمْتُمْ عَلَيَّ
رُسُلَكُمْ: أَنْ أَقْدِمَ عَلَيْنَا فَإِنَّهُ لَيْسَ لَنَا إِمَامٌ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَجْمَعَنَا بِكَ عَلَى الْهَدَى وَالْحَقِّ، فَإِنْ
كُنْتُمْ عَلَى ذَلِكَ فَقَدْ جِئْتُمْ فَأَعْطُونِي مَا أَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ مِنْ عُهُودِكُمْ وَمَوَاقِفِكُمْ، وَإِنْ لَمْ
تَفْعَلُوا وَكُنْتُمْ لِمَقْدَمِي كَارِهِينَ انصَرَفْتُ عَنْكُمْ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي جِئْتُ مِنْهُ إِلَيْكُمْ».

(١) الإربلي، علي بن عيسى، كشف الغمة في معرفة الأئمة: ج ٢، ص ٥٠-٥١.

(٢) الأمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٤٨، حديث ٨٦٩.

فَسَكَتُوا عَنْهُ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِكَلِمَةٍ.

فَقَالَ لِلْمُؤَدِّنِ: أَمِم، فَأَقَامَ الصَّلَاةَ، فَقَالَ لِلْحَرِّ: أَتُرِيدُ أَنْ تُصَلِّيَ بِأَصْحَابِكَ؟ قَالَ: لَا، بَلْ تُصَلِّيْ أَنْتَ وَنُصَلِّي بِصَلَاتِكَ. فَصَلَّى بِهِمُ الْحَسِينُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ دَخَلَ فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ أَصْحَابُهُ، وَانصَرَفَ الْحَرُّ إِلَى مَكَانِهِ الَّذِي كَانَ فِيهِ، فَدَخَلَ حَيْمَةَ قَدْ ضُرِبَتْ لَهُ وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَعَادَ الْبَاقُونَ إِلَى صَفْهِمُ الَّذِي كَانُوا فِيهِ فَأَعَادُوهُ، ثُمَّ أَخَذَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ بَعِنَانِ دَابَّتِهِ وَجَلَسَ فِي ظِلِّهَا.

فَلَمَّا كَانَ وَفَتْ الْعَصْرِ أَمَرَ الْحَسِينُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَتَهَيَّؤُوا لِلرَّحِيلِ فَفَعَلُوا، ثُمَّ أَمَرَ مُنَادِيَهُ فَنَادَى بِالْعَصْرِ وَأَقَامَ، فَاسْتَفَامَ الْحَسِينُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَصَلَّى بِالْقَوْمِ ثُمَّ سَلَّمَ وَانصَرَفَ إِلَيْهِمْ بِوَجْهِهِ، فَحَمِدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّكُمْ إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ وَتَعْرِفُوا الْحَقَّ لِأَهْلِهِ يَكُنْ أَرْضَى اللَّهُ عَنْكُمْ، وَنَحْنُ أَهْلُ بَيْتِ مُحَمَّدٍ، وَأَوْلَى بِوَلَايَةِ هَذَا الْأَمْرِ عَلَيْكُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُدَّعِينَ مَا لَيْسَ لَهُمْ، وَالسَّائِرِينَ فِيكُمْ بِالْجُورِ وَالْعُدْوَانِ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ إِلَّا كِرَاهِيَةً لَنَا وَالْجَهْلَ بِحَقِّنَا، وَكَانَ رَأْيُكُمْ الْآنَ غَيْرَ مَا أَتَيْتَنِي بِهِ كُتُبُكُمْ وَقَدِمْتُمْ بِهِ عَلَيَّ رُسُلُكُمْ، انصَرَفْتُ عَنْكُمْ»^(١).

يستنتج من عبارة «وإن أبئتم إلا كراهية لنا والجهل بحقنا» أن الجهل بحقوق أولياء الله يتسبب بنشوء الكراهية لهم والحقدهم عليهم والامتناع عن طاعتهم.

قال الإمام علي عليه السلام:

«إِنَّ الْجَاهِلَ مَنْ عَدَّ نَفْسَهُ بِمَا جَهَلَ مِنْ مَعْرِفَةِ الْعِلْمِ عَالِمًا، وَبَرَأَيْهِ مُكْتَفِيًا، فَمَا يَزَالُ لِلْعُلَمَاءِ مُبَاعِدًا، وَعَلَيْهِمْ زَارِيًا، وَلَمِنْ خَالَفَهُ مُحْطًا، وَلَمَّا لَمْ يَعْرِفْ مِنَ الْأُمُورِ مُضَلَّلًا، فَإِذَا وَرَدَ عَلَيْهِ مِنَ الْأُمُورِ مَا لَمْ يَعْرِفْهُ أَنْكَرَهُ وَكَذَّبَ بِهِ وَقَالَ بِجَهَالَتِهِ: مَا أَعْرِفُ هَذَا، وَمَا أَرَاهُ كَانَ، وَمَا أَظُنُّ أَنْ يَكُونَ، وَأَنِّي كَانَ؛ وَذَلِكَ لِثِقَتِهِ بِرَأْيِهِ وَقَلَّةِ مَعْرِفَتِهِ بِجَهَالَتِهِ، فَمَا يَنْفَكُ

(١) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد: ج ٢، ص ٧٨-٨٠.

بِمَا يَرَى مِمَّا يَلْتَبِسُ عَلَيْهِ رَأْيُهُ مِمَّا لَا يَعْرِفُ لِلْجَهْلِ مُسْتَفِيداً، وَلِلْحَقِّ مُنْكَرًا، وَفِي الْجَهَالَةِ مُتَحَيِّرًا، وَعَنْ طَلَبِ الْعِلْمِ مُسْتَكْبِرًا^(١).

(١) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٧٣-٧٤.

ج) الشك والشبهة

من الموانع التي تسدّ الطريق على تحقيق المعرفة الشك والشبهة؛ إذ لا يعيش الشخص المبتهل بكثرة الشك ولا ذاك المثير للشبهات استقراراً روحياً واطمئناناً نفسياً أبداً، ولا يتمكننا كذلك من اكتساب المعارف الإلهية وفهمها.

والسؤال الذي يطرح حول منشأ الشكوك والشبهات، هو لماذا يسبر الإنسان الأمور وينقب عنها؟ وما معنى البحث عن الحقيقة؟ نقول بصدد الإجابة: إنّ هناك حساً ومحركاً في باطن الإنسان يصبو إلى معرفة كنه الأشياء والاطلاع عليها، يدفع به نحو العلوم والتعرّف إلى فلسفتها، وهنا يكمن مصدر الشك والشبهة؛ حيث يجد الإنسان نفسه أمام سلسلة من المجهولات التي لا يستطيع حلّها ولا فهمها، ممّا ينتج عنه تمكن حالة الشك والتردد والإبهام والغموض من نفسه واختلاط الأمور والتباسها عليه.

هل أنّ الشك في الدين أمر حسن أم سيئ؟ من المسلمّ به أنّ من يسمع هذا الكلام سيّجيب للوهلة الأولى أنّ الشك في الدين أمر سيء، وعلامة على خبيث الطينة وسواد القلب؛ لأنّ الهدف من العلم والفلسفة والدين هو بلوغ الإنسان درجة اليقين بحيث يعدّ من أصحابه، فالإيمان لا بدّ أن يتواءم مع اليقين، أمّا الشك والشبهة فمعناهما التزلزل وعدم الاطمئنان، ولن تجد دعوة للشك والشبهة من قبل الله سبحانه للناس مهما بحثت في أيّ موضع من آي القرآن الكريم.

نعم، الشك والشبهة قد يحسنان في موضع يكونان فيه قنطرة ومعبراً جيداً للوصول للإيمان واليقين، حيث يروم الإنسان بلوغ اليقين متوسلاً بالتساؤل، فالإيمان واليقين ممّا يجب على الإنسان تحصيله، ويتبادر هنا السؤال عن الإيمان هل

هو مضمر في الإنسان وكامن في داخله بالفعل؟ لا يبلغ الإنسان درجة اليقين ما لم يشك. والشك أمرٌ جيد للبشر على أن لا يكون غرضاً منشوداً ومنزلاً فارهاً، وإنّما معبراً، ما لم يتخطاه الإنسان لا يمكنه الوصول إلى ذلك المقام الرفيع الزاخر باللذة المسمّى باليقين.

وإن لم يدع القرآن للشك بشكل صريح لكنه دعا إلى الابتعاد عن التقليد الأعمى، وهذه في الحقيقة والواقع دعوة للشك ولكن اتخذت أسلوباً آخر، أي تردّد فيما ورثته عن آبائك وأسلافك وبيئتك.

فجاء في القرآن الكريم:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾^(١).

وليس مراد القرآن من وراء الدعوة للتردد إثارة الشك والشبهة، بل تردّد حتى يمكنك التأمل والبحث والتنقيب وصولاً لليقين، وما لا شك فيه أنّ الإنسان متى ما لم يتردد بشأن العادات والتقاليد والأفكار التي ورثها من آبائه وأجداده فإنّه حتماً لا يبادر للبحث والتدبر ولن يهتدي لليقين أبداً.

لم نفكر ولم نتأمل ولو للحظة بفلسفة الألم، ونعتقد أنّ الألم سيء، وهذا تقييم خاطئ، فالأمر ليس كذلك، فالألم وإن كان سيئاً بلحاظ ما، إلا أنّه مستحسن في نفس الوقت؛ ذلك أنّ الإنسان المريض دون شعوره بالألم لا ينتبه إلى حاجته للحماية أو العلاج وتوفير الدواء، فالجوع ألم، لكنه ضروري؛ إذ من دونه لا يسعى الإنسان في طلب الطعام بغية سدّ حاجة الجسم لذلك، وهكذا إن لم يشعر بالعطش الدال على حاجة الجسم للماء فإنّه لن يسعى في طلب الماء.

(١) البقرة: آية ١٧٠.

ولا يخرج الشك حكماً عن هذه القاعدة، فهو يمثل قنطرة موصلة لليقين وألماً نفسياً، وما زال الشعور به مستمراً فهو أمر جيد؛ لأن معناه أن روح الإنسان تطلب الغذاء الروحي متجسداً بالعلم، ويبرز ألمها على شكل حالة من الشك والشبهة تنطلق من داخل الإنسان صارخة: أريد أن أعلم، أريد أن أفهم.

ولكن هذا لا يعني أن تكون جميع الشكوك صحية؛ إذ هناك منها ما هو مرضي، كالوسوسة وشك كثير الشك في الصلاة والوضوء وجميع العبادات والطهارة والنجاسة، فمتى ما خرج الشك عن حالته الطبيعية ومستواه الاعتيادي تحوّل إلى شك مرضي؛ لأنه يشك في موضع يصل فيه الإنسان بطبيعته إلى اليقين. فينبغي على الإنسان تجنب مثل هذه الشكوك المقيتة، حيث تصل الوسوسة وكثرة الشك بالإنسان أحياناً إلى الشك - والعياذ بالله - في أصول الدين، بل لا يبقى شيء منيع دون أن تطاله نيران شكه، ومثل هذا الشك ليس مقدّساً؛ لأنه مدعاة لتهديم جميع المعتقدات الثابتة بالأدلة والبراهين.

يقع الإنسان في الشك والشبهة أحياناً

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال:

«إِلَهِي أَخْرِجْنِي مِنْ دُلِّ نَفْسِي، وَطَهِّرْنِي مِنْ شَكِّي وَشُرْكِي»^(١).

حيث يستفاد من مضمون هذا الدعاء أن الإنسان يقع أحياناً في الشكوك والشبهات.

طبعاً هذا المعنى يتخذ صفة الدفع بالنسبة لشأن الإمام لا الرفع، بمعنى أن الإمام يريد من الله أن يبقى مصوناً محفوظاً من الشك والشبهة والشرك، كما جاء في بعض الأحاديث والأدعية الأخرى ما يماثل ذلك:

(١) ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال: ج ١، ص ٣٤٩.

روي عن الإمام السجاد عليه السلام أنه تضرع إلى الله سبحانه في دعاء السابع والأربعين (دعاء عرفة) من الصحيفة السجادية قائلاً:
«وَأَزِلْ عَنِّي كُلَّ شَكٍّ وَشُبْهَةٍ»^(١).
روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه ابتهل داعياً:
«وَطَهَّرْ قَلْبِي مِنَ الشَّكِّ»^(٢).

نجاسة وقذارة الشك والشبهة

يستتج من مفهوم الحديث السابق للإمام الحسين عليه السلام أن للشك والشبهة قذارة معنوية.

روي عن الإمام الحسن عليه السلام أنه قال:
«أَسْلَمَ الْقُلُوبَ مَا طَهَّرَ مِنَ الشُّبُهَاتِ»^(٣).

ضرورة النقاء من الشك قبل الموت

من مضمون الدعاء المتقدم للإمام حسين عليه السلام يتأتى وجوب تنقية الإنسان لباطنه وتخليته من قذارة الشك وخبثه قبل أن يموت.

قال تبارك وتعالى:

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿١﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٢﴾﴾^(٤).

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال بصدد الآية الأخيرة:
«الْقَلْبُ السَّلِيمُ الَّذِي يَلْقَى رَبَّهُ وَلَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ سِوَاهُ، قَالَ: وَكُلُّ قَلْبٍ فِيهِ شِرْكٌ أَوْ شَكٌّ فَهُوَ سَاقِطٌ»^(٥).

(١) الصحيفة السجادية: ص ٢٣٢.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٥٨٨، حديث ٢٦.

(٣) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٣٥.

(٤) الشعراء: آية ٨٨-٨٩.

(٥) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ١٦، حديث ٥.

ضرورة الإجابة عن أسئلة الناس

قال يحيى بن يعمن:

«كُنْتُ عِنْدَ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ مُتَلَثِّمًا أَسْمُرُ شَدِيدُ السُّمْرِ، فَسَلَّمَ وَرَدَّ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ مَسْأَلَةٌ، قَالَ: هَاتِ، قَالَ: كَمْ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ؟ قَالَ: أَرْبَعُ أَصَابِعَ، قَالَ: كَيْفَ؟ قَالَ: الْإِيمَانُ مَا سَمِعْتَهُ وَالْيَقِينُ مَا رَأَيْتَهُ وَبَيْنَ السَّمْعِ وَالْبَصْرِ أَرْبَعُ أَصَابِعَ. قَالَ: فَكَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟ قَالَ: دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ. قَالَ: فَكَمْ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ؟ قَالَ: مَسِيرَةٌ يَوْمٍ لِلشَّمْسِ. قَالَ: فَمَا عِزُّ الْمَرْءِ؟ قَالَ: اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ»^(١).

حيث يستفاد من طلب الإمام أعلاه ضرورة قيام العلماء بالإجابة عما يوجه إليهم من أسئلة الناس.

قال الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«مَا أَخَذَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى الْجَاهِلِ أَنْ يَتَعَلَّمَ حَتَّى أَخَذَ عَلَى الْعَالِمِ أَنْ يُعَلَّمَ»^(٢).

لزوم محبة الإجابة عن الشبهات

ورد في التفسير المنسوب للإمام الحسن العسكري عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«وَقَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِرَجُلٍ: أَيُّهَا أَحَبُّ إِلَيْكَ، رَجُلٌ يَرُومُ قَتْلَ مَسْكِينٍ قَدْ ضَعُفَ، تُنْقِذُهُ مِنْ يَدِهِ؟ أَوْ نَاصِبٌ يُرِيدُ إِضْلَالَ مَسْكِينٍ [مُؤْمِنٍ] مِنْ ضُعْفَاءِ شِيعَتِنَا تَفْتَحُ عَلَيْهِ مَا يَمْتَنِعُ [المسكين] بِهِ مِنْهُ وَيُنْفِخُهُ وَيَكْسِرُهُ بِحُجَجِ اللَّهِ تَعَالَى؟ قَالَ: بَلْ إِنْقَاذُ هَذَا الْمَسْكِينِ الْمُؤْمِنِ مِنْ يَدِ هَذَا النَّاصِبِ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَنْ

(١) الخزاز الرازي، علي بن محمد، كفاية الأثر في النص على الأئمة الاثني عشر: ص ٢٣٢-٢٣٣.

(٢) الآمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٦٩٥، حديث ١٩٨.

أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴿١﴾ [أَي] وَمَنْ أَحْيَاهَا وَأَرْشَدَهَا مِنْ كُفْرٍ إِلَى إِيْمَانٍ، فَكَأَنَّمَا أَحْيَى النَّاسَ جَمِيعًا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَقْتُلَهُمْ بِسُيُوفِ الْحَدِيدِ ﴿٢﴾.

يستنتج من قوله عليه السلام: «أَيُّهَا أَحَبُّ» ضرورة أن يجب علماء الدين الإجابة عن شبهات المستضعفين الشيعة وإنقاذهم من أيدي أعداء أهل البيت عليهم السلام، وأن يعدّوا ذلك العمل من الضروريات.

عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام قال:

«مَنْ كَانَ مِنْ شِيعَتِنَا عَالِمًا بِشِرِّعَتِنَا فَأَخْرَجَ ضِعْفَاءَ شِيعَتِنَا مِنْ ظُلْمَةِ جَهْلِهِمْ إِلَى نُورِ الْعِلْمِ الَّذِي حَبُونَاهُ بِهِ، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَأْسِهِ تَاجٌ مِنْ نُورٍ يُضِيءُ لِجَمِيعِ أَهْلِ الْعَرَصَاتِ، وَحُلَّةٌ لَا تَقُومُ لِأَقَلِّ سَلَكٍ مِنْهَا الدُّنْيَا بِحَدِّافِيرِهَا، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ: يَا عِبَادَ اللَّهِ، هَذَا عَالِمٌ مِنْ تَلَامِيذَةِ بَعْضِ عُلَمَاءِ آلِ مُحَمَّدٍ ﴿٣﴾».

ضرورة تحصين المستضعف العقائدي ضدّ الشبهات

يستنتج أيضاً من قوله عليه السلام: «مَا يَمْتَنِعُ [المُسْكِينُ] بِهِ مِنْهُ» أن على علماء الدين فتح أبواب الهداية أمام المستضعفين العقائديين من الشيعة بصورة تمنحهم المبررات والأدلة لتعزيز مواقفهم وتقويتها في مقابل ما تنتجه مآكنة الأعداء الإعلامية.

روي عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام أن أمير المؤمنين عليه السلام قال:

«مَنْ قَوَّى مَسْكِينًا فِي دِينِهِ ضَعِيفًا فِي مَعْرِفَتِهِ عَلَى نَاصِبٍ مُحَالِفٍ فَأَفْحَمَهُ، لَقَنَهُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ يُدَلَّى فِي قَبْرِهِ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُ رَبِّي، وَمُحَمَّدٌ نَبِيِّي، وَعَلِيٌّ وَلِيِّي، وَالْكَعْبَةُ قِبْلَتِي، وَالْقُرْآنُ بَهْجَتِي وَعُدَّتِي، وَالْمُؤْمِنُونَ إِخْوَانِي، فَيَقُولُ اللَّهُ: أَذَلَّتْ بِالْحُجَّةِ فَوَجَبَتْ لَكَ

(١) المائدة: آية ٣٢.

(٢) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام: ص ٣٤٨، حديث ٢٣١.

(٣) الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج ١، ص ١٦.

أَعَالِي دَرَجَاتِ الْجَنَّةِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَتَحَوَّلُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ أَنزَهُ رِيَاضِ الْجَنَّةِ»^(١).

هلاك المستضعفين فكراً بشبهات المخالفين

يستفاد من تعبير الإمام الحسين عليه السلام بكلمة «قتل» في ذيل حديثه السابق أنّ المستضعفين فكراً يبتلون بالهلاك المعنوي والروحي نتيجة ما يلقيه أعداء أهل البيت عليهم السلام ومخالفهم من شبهات.

قال الإمام علي عليه السلام:

«إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ رَسُولًا هَادِيًا بِكِتَابٍ نَاطِقٍ وَأَمْرٍ قَائِمٍ لَا يَهْلِكُ عَنْهُ إِلَّا هَالِكٌ، وَإِنَّ الْمُبْتَدِعَاتِ الْمَشَبَّهَاتِ هُنَّ الْمَهْلِكَاتُ إِلَّا مَا حَفِظَ اللَّهُ مِنْهَا، وَإِنَّ فِي سُلْطَانِ اللَّهِ عِصْمَةً لِأَمْرِكُمْ فَأَعْطُوهُ طَاعَتَكُمْ غَيْرَ مُلَوَّمَةٍ وَلَا مُسْتَكْرَهٍ بِهَا»^(٢).

سيف الشبهات القاطع

يتبين أيضاً من الحديث السابق للإمام الحسين عليه السلام أنّ الشبهات كأثمها السيوف الحادة الحديدية، حيث عبّر في مقام وصفه لشبهات المخالفين والنواصب بقوله: «بِسُيُوفِ الْحَدِيدِ».

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«فَاحْذَرِ الشُّبُهَةَ وَاسْتَيْهَامَهَا عَلَى لُبْسَتِهَا، فَإِنَّ الْفِتْنَةَ طَالَمَا أَعْدَفَتْ جَلَابِيئَهَا، وَ[أَعَشَتْ] أَعَشَتْ الْأَبْصَارَ ظَلَمْتُهَا»^(٣).

وروي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«الْوُفُوفُ عِنْدَ الشُّبُهَةِ خَيْرٌ مِنَ الْإِفْتِحَامِ فِي الْهَلَكَةِ»^(٤).

(١) المصدر السابق: ج ١، ص ١٨.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ١٦٩.

(٣) المصدر السابق: رسالة ٦٥.

(٤) الديلمي، الحسن بن محمد، أعلام الدين في صفات المؤمنين: ص ٣٠١.

لزوم عدم التردد في العقائد

نقل شاذان بن جبرئيل القمي:

«قِيلَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ جَالِسًا ذَاتَ يَوْمٍ وَعِنْدَهُ الْإِمَامُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذْ دَخَلَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ، فَأَخَذَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَأَجْلَسَهُ فِي حَجْرِهِ، وَقَبَلَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَقَبَلَ شَفَتَيْهِ، وَكَانَ لِلْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ سِتُّ سِنِينَ، فَقَالَ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتُحِبُّ وَلَدِي الْحُسَيْنَ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَكَيْفَ لَا أُحِبُّهُ وَهُوَ عَضُوٌّ مِنْ أَعْضَائِي؟! فَقَالَ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ أَنَا أَمْ الْحُسَيْنُ؟ فَقَالَ الْحُسَيْنُ: يَا أَبَتَا مَنْ كَانَ أَعْلَى شَرَفًا كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ النَّبِيِّ ﷺ وَأَقْرَبَ إِلَيْهِ مَنْزِلَةً، قَالَ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَوْلَا لِدِهِ: أَتَفَاخِرُنِي يَا حُسَيْنُ؟ قَالَ: نَعَمْ يَا أَبَتَاهُ إِنْ شِئْتَ.

فَقَالَ لَهُ الْإِمَامُ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا حُسَيْنُ، أَنَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، أَنَا لِسَانُ الصَّادِقِينَ، أَنَا وَزِيرُ الْمُصْطَفَى، أَنَا خَازِنُ عِلْمِ اللَّهِ وَمُخْتَارُهُ مِنْ خَلْقِهِ، أَنَا قَائِدُ السَّابِقِينَ إِلَى الْجَنَّةِ، أَنَا قَاضِي الدِّينِ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَا الَّذِي عَمَّهُ سَيِّدُ فِي الْجَنَّةِ، أَنَا الَّذِي أَخُوهُ جَعْفَرُ الطَّيَّارُ فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ، أَنَا قَاضِي الرَّسُولِ، أَنَا آخِذٌ لَهُ بِالْيَمِينِ، أَنَا حَامِلُ سُورَةِ التَّنْزِيلِ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، أَنَا الَّذِي اخْتَارَنِي اللَّهُ تَعَالَى مِنْ خَلْقِهِ، أَنَا حَبْلُ اللَّهِ الْمُتِينُ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَعْصِمُوا بِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾^(١)، أَنَا نَجْمُ اللَّهِ الرَّاهِرُ، أَنَا الَّذِي تَزَوَّرَهُ مَلَائِكَةُ السَّمَاوَاتِ، أَنَا لِسَانُ اللَّهِ النَّاطِقُ، أَنَا حُجَّةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى خَلْقِهِ، أَنَا يَدُ اللَّهِ الْقَوِيَّةُ، أَنَا وَجْهُ اللَّهِ تَعَالَى فِي السَّمَاوَاتِ، أَنَا جَنْبُ اللَّهِ الظَّاهِرُ، أَنَا الَّذِي قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيَّ وَفِي حَقِّي: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ لا يَسْفِقُونَهُ. بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ^(٢)، أَنَا عُرْوَةُ اللَّهِ الْوُثْقَى الَّتِي لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ

(١) آل عمران: آية ١٠٣.

(٢) الأنبياء: آية ٢٦-٢٧.

سَمِعُ عَلِيمٌ، أَنَا بَابُ اللَّهِ الَّذِي يُؤْتَى مِنْهُ، أَنَا عِلْمُ اللَّهِ عَلَى الصِّرَاطِ، أَنَا بَيْتُ اللَّهِ مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا، فَمَنْ تَمَسَّكَ بِوَلَايَتِي وَحَبَّبْتِي أَمِنَ مِنَ النَّارِ، أَنَا قَاتِلُ النَّاكِثِينَ وَالْقَاسِطِينَ وَالْمَارِقِينَ، أَنَا قَاتِلُ الْكَافِرِينَ، أَنَا أَبُو الْيَتَامَى، أَنَا كَهْفُ الْأَرَامِلِ، أَنَا عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنْ وَلَايَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾^(١)، أَنَا نِعْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَى خَلْقِهِ، أَنَا الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي وَفِي حَقِّي: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٢) فَمَنْ أَحْبَبَنِي كَانَ مُسْلِمًا مُؤْمِنًا كَامِلَ الدِّينِ، أَنَا الَّذِي بِي اهْتَدَيْتُمْ، أَنَا الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي وَفِي عَدْوِي: ﴿وَقَفُّهُمْ لِيَوْمِ مَسْئَلَتِهِمْ﴾^(٣)، أَيُّ عَنِّ وَلَايَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَنَا النَّبِيُّ الْعَظِيمُ الَّذِي أَكْمَلَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ الدِّينَ يَوْمَ عَدِيرِ حُمٍّ وَخَيْبَرَ، أَنَا الَّذِي قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي: (مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ)، أَنَا صَلَاةُ الْمُؤْمِنِ، أَنَا حَيٌّ عَلَى الصَّلَاةِ، أَنَا حَيٌّ عَلَى الْفَلَاحِ، أَنَا حَيٌّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ، أَنَا الَّذِي نَزَلَ عَلَى أَعْدَائِي: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾^(٤)، بِمَعْنَى مَنْ أَنْكَرَ وَلَايَتِي وَهُوَ النُّعْمَانُ بْنُ الْحَارِثِ الْيَهُودِيُّ لَعَنَهُ اللَّهُ تَعَالَى، أَنَا دَاعِي الْأَنَامِ إِلَى الْحَوْضِ، فَهَلْ دَاعِي الْمُؤْمِنِينَ غَيْرِي؟ أَنَا أَبُو الْأَيِّمَةِ الطَّاهِرِينَ مِنْ وُلْدِي، أَنَا مِيزَانُ الْقِسْطِ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، أَنَا يَعْسُوبُ الدِّينِ، أَنَا قَائِدُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْخَيْرَاتِ وَالْغُفْرَانِ إِلَى رَبِّي، أَنَا الَّذِي أَصْحَابُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ أَوْلِيَائِي، الْمَبْرُؤُونَ مِنْ أَعْدَائِي، وَعِنْدَ الْمَوْتِ لَا يَخَافُونَ وَلَا يَحْزَنُونَ، وَفِي قُبُورِهِمْ لَا يُعَذَّبُونَ، وَهُمْ الشُّهَدَاءُ وَالصَّادِقُونَ، وَعِنْدَ رَبِّهِمْ يَفْرَحُونَ، أَنَا الَّذِي شِيعَتِي مُتَوَثِّقُونَ أَنْ لَا يُوَادُّوا مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ، أَنَا الَّذِي شِيعَتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ،

(١) التكاثر: آية ٨.

(٢) المائدة: آية ٣.

(٣) الصافات: آية ٢٤.

(٤) المعارج: آية ١-٢.

أَنَا الَّذِي عِنْدِي دِيوَانُ الشَّيْعَةِ بِأَسْمَائِهِمْ، أَنَا عَوْنُ الْمُؤْمِنِينَ، وَشَفِيعُ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَنَا الضَّارِبُ بِالسِّيفِينَ، أَنَا الطَّاعِنُ بِالرُّمْحَيْنِ، أَنَا قَاتِلُ الْكَافِرِينَ يَوْمَ بَدْرٍ وَحُنَيْنٍ، أَنَا مُرْدِي الْكُفَّةِ يَوْمَ أُحُدٍ، أَنَا ضَارِبُ ابْنِ عَبْدِ وَدِّ لَعَنَهُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْأَحْزَابِ، أَنَا قَاتِلُ عَمْرٍو وَمَرْحَبٍ، أَنَا قَاتِلُ فُرْسَانَ خَيْبَرَ، أَنَا الَّذِي قَالَ فِي الْأَمِينِ جَبْرِئِيلَ عليه السلام: (لَا سَيْفَ إِلَّا ذُو الْفُقَارِ، وَلَا فَتَى إِلَّا عَلِيٌّ)، أَنَا صَاحِبُ فَتْحِ مَكَّةَ، أَنَا كَاسِرُ اللَّاتِ وَالْعُزَّى، أَنَا الْهَادِمُ هُبَلِ الْأَعْلَى، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى، أَنَا عَلَوْتُ عَلَى كَتِفِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وَكَسَرْتُ الْأَصْنَامَ، أَنَا الَّذِي كَسَرْتُ يَعُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا، أَنَا الَّذِي قَاتَلْتُ الْكَافِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَنَا الَّذِي تَصَدَّقَ الْخَاتَمَ، أَنَا الَّذِي نِمْتُ عَلَى فِرَاشِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وَوَقَيْتُهُ بِنَفْسِي مِنَ الْمَشْرِكِينَ، أَنَا الَّذِي يَخَافُ الْجَنُّ مِنْ بَأْسِي، أَنَا الَّذِي بِهِ يُعْبَدُ اللَّهُ، أَنَا تَرْجَمَانُ اللَّهِ، أَنَا عَلِمَ اللَّهُ، أَنَا عَيْبَةُ عِلْمِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله، أَنَا قَاتِلُ أَهْلِ الْجَمَلِ وَصَفِينَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ، أَنَا قَسِيمُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَعِنْدَهَا سَكَتَ عَلِيٌّ عليه السلام.

فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله لِلْحُسَيْنِ عليه السلام: أَسَمِعْتَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مَا قَالَهُ أَبُوكَ؟! وَهُوَ عَشْرُ عَشِيرٍ مِعْشَارٍ مَا قَالَهُ مِنْ فَضَائِلِهِ وَمِنْ أَلْفِ أَلْفِ فَضِيلَةٍ، وَهُوَ فَوْقَ ذَلِكَ أَعْلَى.

فَقَالَ الْحُسَيْنُ عليه السلام: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَعَلَى جَمِيعِ الْمَخْلُوقِينَ، وَخَصَّ جَدَّنَا بِالْتَّنْزِيلِ وَالتَّأْوِيلِ وَالصَّدَقِ وَمُنَاجَاةِ الْأَمِينِ جَبْرِئِيلَ عليه السلام، وَجَعَلَنَا خِيَارَ مَنْ اصْطَفَاهُ الْجَلِيلُ، وَرَفَعَنَا عَلَى الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ.

ثُمَّ قَالَ الْحُسَيْنُ عليه السلام: أَمَّا مَا ذَكَرْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَأَنْتَ فِيهِ صَادِقُ أَمِينٍ. فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله: اذْكُرْ أَنْتَ يَا وَلَدِي فَضَائِلَكَ.

فَقَالَ الْحُسَيْنُ عليه السلام: يَا أَبَتِ، أَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام، وَأُمِّي فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، وَجَدِّي مُحَمَّدٌ الْمُصْطَفَى صلى الله عليه وآله سَيِّدُ بَنِي آدَمَ أَجْمَعِينَ، لَا رَبِّبَ فِيهِ، يَا عَلِيُّ أُمِّي أَفْضَلُ مِنْ أُمَّكَ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَجَدِّي خَيْرٌ مِنْ جَدِّكَ وَأَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَأَنَا فِي الْمَهْدِ نَاغِي جَبْرِئِيلُ، وَتَلَقَّانِي إِسْرَافِيلُ، يَا

عَلِيٌّ أَنْتَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى أَفْضَلُ مِنِّي، وَأَنَا أَفْخَرُ مِنْكَ بِالْأَبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ وَالْأَجْدَادِ.
 قَالَ: ثُمَّ إِنَّ الْحَسَيْنَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اعْتَنَقَ أَبَاهُ وَجَعَلَ يُقْبَلُهُ، وَأَقْبَلَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُقْبَلُ وَلَدَهُ الْحَسَيْنَ
 وَهُوَ يَقُولُ: زَادَكَ اللَّهُ تَعَالَى شَرَفًا وَفَخْرًا وَعِلْمًا وَحِلْمًا، وَلَعَنَ اللَّهُ تَعَالَى ظَالِمِيكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ.
 ثُمَّ رَجَعَ الْحَسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ^(١).

من التأمل في كلمة «لَا رَيْبَ فِيهِ» والسياق الذي جاءت فيه يتحصل أن على
 الإنسان عدم السماح للشك بالنفوذ والتغلغل إلى عقيدته بأهل بيت العصمة
 والطهارة ﷺ.

قال الإمام علي عليه السلام:

«انظروا أهل بيت نبينا، فالزموا سمتهم، واتبعوا أثرهم، فلن يخرجوكم من
 هدى، ولن يعيدوكم في ردى، فإن لبّدوا فالبّدوا، وإن نهضوا فانهضوا، ولا تسبقوهم
 فتضلّوا، ولا تتأخروا عنهم فتلهكوا»^(٢).

ضرورة توضيح الأمور المشتبهة على الناس

نقل الطبرسي بسنده عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام أنه قال:

«قَالَ الْحَسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ: فَضَّلْ كَافِلِ يَتِيمِ آلِ مُحَمَّدٍ - الْمُنْقَطِعِ عَنْ مَوَالِيهِ، النَّاشِئِ فِي
 رُبِّيَةِ الْجَهْلِ، يُخْرِجُهُ مِنْ جَهْلِهِ، وَيُوضِحُ لَهُ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ - عَلَى فَضْلِ كَافِلِ يَتِيمِ يُطْعِمُهُ
 وَيَسْقِيهِ، كَفَضْلِ الشَّمْسِ عَلَى السَّهَاءِ»^(٣).

يتحصل من قوله عليه السلام: «ويوضح له ما اشتبه عليه» أن على علماء الأمة أن
 يتكفلوا بأمور الشيعة في عصر الغيبة وأن يبينوا ما اشتبه عليهم من الأمور.

(١) القمي، شاذان بن جبرئيل، الفضائل: ص ٨٣-٨٥.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ٩٧.

(٣) الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج ١، ص ١٦.

قال الإمام علي عليه السلام:

«وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ بِالدِّينِ الْمَشْهُورِ، وَالْعَلَمِ الْمَأْثُورِ، وَالْكِتَابِ الْمَسْطُورِ، وَالنُّورِ السَّاطِعِ، وَالضِّيَاءِ اللَّامِعِ، وَالْأَمْرِ الصَّادِعِ؛ إِزَاحَةً لِلشُّبُهَاتِ، وَاحْتِجَاجًا بِالْبَيِّنَاتِ، وَتَحْذِيرًا بِالْآيَاتِ، وَتَحْوِينًا بِالْمَثَلَاتِ»^(١).

لزوم رفع الإبهام والغموض عن عقائد الناس

قال الشيخ الصدوق:

«وَرَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمَغِيرَةِ عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: أَوْصَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله إِلَى عَلِيِّ عليه السلام وَحَدَّه، وَأَوْصَى عَلِيًّا عليه السلام إِلَى الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ عليه السلام بجميعةً، وَكَانَ الْحَسَنُ عليه السلام إِمَامَهُ، فَدَخَلَ رَجُلٌ يَوْمَ عَرَفَةَ عَلَى الْحَسَنِ عليه السلام وَهُوَ يَتَغَدَّى وَالْحُسَيْنُ عليه السلام صَائِمٌ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ مَا قُبِضَ الْحَسَنُ عليه السلام فَدَخَلَ عَلَى الْحُسَيْنِ عليه السلام يَوْمَ عَرَفَةَ وَهُوَ يَتَغَدَّى وَعَلِيٌّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام صَائِمٌ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: إِنِّي دَخَلْتُ عَلَى الْحَسَنِ عليه السلام وَهُوَ يَتَغَدَّى وَأَنْتَ صَائِمٌ، ثُمَّ دَخَلْتُ عَلَيْكَ وَأَنْتَ مُفْطِرٌ؟! فَقَالَ: إِنَّ الْحَسَنَ عليه السلام كَانَ إِمَامًا فَأَفْطَرَ لِنَلَا يُتَّخَذَ صَوْمُهُ سُنَّةً وَلِيَتَأَسَى بِهِ النَّاسُ، فَلَمَّا أَنْ قُبِضَ كُنْتُ أَنَا الْإِمَامَ فَأَرَدْتُ أَنْ لَا يُتَّخَذَ صَوْمِي سُنَّةً فَيَتَأَسَى النَّاسُ بِي»^(٢).

يشير بيان الإمام عليه السلام إلى أهمية قيام قادة الدين في الأمة بكشف الغموض ورفع الإبهامات التي قد تقع في المنظومة العقائدية للناس أو التي تنشأ نتيجة أفعالهم وتصرفاتهم.

نقل عن معاوية بن عمار أنه قال:

«قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: رَجُلٌ رَاوِيَةٌ لِحَدِيثِكُمْ يَبِثُّ ذَلِكَ فِي النَّاسِ، وَيَشَدِّدُهُ فِي

(١) نهج البلاغة: خطبة ٢.

(٢) ابن بابويه، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه: ج ٢، ص ٨٧-٨٨، حديث ١٨١٠.

قُلُوبِهِمْ، وَقُلُوبِ شِيعَتِكُمْ، وَلَعَلَّ عَابِدًا مِنْ شِيعَتِكُمْ لَيْسَتْ لَهُ هَذِهِ الرَّوَايَةُ، أَيُّهُمَا أَفْضَلُ؟ قَالَ: الرَّوَايَةُ لِحَدِيثِنَا يَشُدُّ بِهِ قُلُوبَ شِيعَتِنَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ»^(١).

قبح الأخذ بالظنّة

نقل عن الإمام حسين عليه السلام أنّه كتب في جواب كتابٍ كتب إليه معاوية على طريق الاحتجاج:

«... أَبْشِرْ يَا مُعَاوِيَةَ بِقِصَاصٍ، وَاسْتَعِدَّ لِلْحِسَابِ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عز وجل كِتَابًا لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا، وَلَيْسَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِنَاسٍ أَخَذَكَ بِالظَّنِّ، وَقَتْلَكَ أَوْلِيَاءَهُ بِالتَّهْمَةِ، وَنَفِيكَ إِيَّاهُمْ مِنْ دَارِ الْهَجْرَةِ إِلَى الْغُرْبَةِ وَالْوَحْشَةِ، وَأَخَذَكَ النَّاسَ بِبَيْعَةِ ابْنِكَ غُلَامٍ مِنَ الْغِلْمَانِ، يَشْرَبُ الشَّرَابَ، وَيَلْعَبُ بِالْكَعَابِ، لَا أَعْلَمُكَ إِلَّا قَدْ خَسَرْتَ نَفْسَكَ وَشَرَيْتَ دِينَكَ وَعَشَشْتَ رَعِيَّتَكَ وَأَخْزَيْتَ أَمَانَتَكَ وَسَمِعْتَ مَقَالَ السَّفِيهِ الْجَاهِلِ وَأَخَفْتَ التَّقِيَّ الْوَرَعَ الْحَلِيمَ»^(٢).

يدل قوله عليه السلام: «وَلَيْسَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِنَاسٍ أَخَذَكَ بِالظَّنِّ» على مدى قبح المؤاخذه اعتماداً على الظن.

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ج ١، ص ٣٣: حديث ٩.

(٢) الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج ٢، ص ٢٩٧-٢٩٨.

قال عز وجل:

﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِتْمٌ﴾^(١).

وأيضاً:

﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ لِلاَظْنَانِ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾^(٢).

(١) الحجرات: آية ١٢.

(٢) يونس: آية ٣٦.

(د) الذنوب

يعدّ ارتكاب الذنوب من موانع المعرفة وآفاتهما؛ لأنّ العلم والمعرفة نور، وكيف للنور أن يجتمع مع الظلمة المتمثلة بالذنوب.

يظهر من الآيات الكريمة والروايات الشريفة أنّ الحرمان من المعرفة وزوالها وانقلابها يعدّ من تبعات الذنوب وآثارها السيئة، حيث يؤدّي الذنب إلى تبدّل المعايير والمقاييس لدى الإنسان وانتكاسها، فيصبح الحسن سيئاً والسيء حسناً، وفعله القبيح جميلاً. وحول عملية الانقلاب هذه التي تحصل في المعرفة نتيجة الذنوب والمعاصي، نستعرض مجموعة من وجهات النظر والآراء المطروحة بهذا الصدد، منها:

أ) الانقلاب نتيجة تدخل الشيطان في الأحاسيس:

ما يفهم من آيات القرآن الكريم أنّ الخطوة الأولى للشيطان تشرع بتدخله في ميول الإنسان وأحاسيسه كالخوف والأمل والأمني والرغبات وغيرها، ثمّ في الإرادة والأفكار المنبثقة عن تلك المشاعر كخطوة ثانية. وبما أنّ إلقاءات الشيطان وتدخلاته لا تتمّ بشكل يشعر به ابن آدم جعله يتقبلها دون تردد وكأّتها أفكاره من رأس، ولا منافاة لتلك التصرفات الطولية مع حقّ الإنسان في الاختيار. فالشيطان بخدعه وحبائله المتنوعة وتمكنه من عقل الإنسان وقلبه ينتج وسيلة معرفية وبواسطتها يعكس معرفة الإنسان، لم لا وهو عدو الإنسان الذي أقسم على إضلاله والذي يتربص به الدوائر ويترصده عن يمينه وشماله ومن خلفه وبين يديه، وهذا ما وعد به حينما طرد من القرب الإلهي:

﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۖ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ۖ وَبِئْسَ الْمَآبُتُ﴾

سَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١١﴾.

فقد روي عن النبي ﷺ قوله:

«لَوْ لَا أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَحْمُومُونَ عَلَى قُلُوبِ بَنِي آدَمَ لَنَظَرُوا إِلَى مَلَكَوَاتِ السَّمَاوَاتِ»^(١).

(ب) الانقلاب نتيجة تبدل الاعتقاد:

إنّ الذنب نتيجة لتبديله عنصر الاعتقاد يؤدّي لقلب المعرفة وتغيير حركتها. فالإنسان بحسب فطرته التي فطره الله عليها وقبل أن يتسلط عليه الشيطان كان يرى الذنب أمراً قبيحاً باطلاً، لكنه متى ما وقع تحت تأثير وساوس الشيطان وإلقاءاته وتلوّث بالذنوب سيتبدّل اعتقاده تدريجياً، فيعمل الشيطان على تزيين الذنب للإنسان عن طريق رغبات النفس وميوهاها، ومن خلال كثرة تلقينها والتزيين لها يتناقص الاعتقاد بقبح الذنب تدريجياً، حتّى يغدو مع مرور الزمن لا يرى فيه قبحاً بل يراه جميلاً، وبذلك ما عاد اعتقاده كما هو بل تحوّل وارتكس رأساً على عقب.

وهذا هو الشيطان يشدد مؤكداً:

﴿لَا زَيْنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾^(٢).

(ج) الانقلاب إثر أسر العقل:

ارتكاب الذنوب والمعاصي والإصرار عليها يؤدّي إلى أسر القوة العاقلة وحبسها خلف قضبان هوى النفس.

(١) الأعراف: آية ١٦-١٧.

(٢) المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: ج ٥٦، ص ١٦٣.

(٣) الحجر: آية ٣٩.

قال الإمام علي عليه السلام:

«كَمْ مِنْ عَقْلٍ أَسِيرٍ تَحْتَ [عِنْدَ] هَوَى أَمِيرٍ»^(١).

في هذه الحالة يتقبل الإنسان ولاية الشيطان ويستسلم لها وتصبح عواطفه ومشاعره وأحاسيسه وقواه الإدراكية ومنها العقل تحت تصرف الشيطان، وتغدو إدارتها جميعاً بيده يوجهها حيث شاء.

الشيطان لا يمكنه تغيير هوية العقل إلى شيء آخر؛ لأنه ﴿لَا بُدَّيْلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾^(٢)، بيد أنه يقوى على الهيمنة والسيطرة عليه بصورة تامة ويتكفل بإدارة أعماله والذي سينتج عنه ضعف العقل تدريجياً وفقدان القدرة على القيام بدوره الهام في الحكم حتى يزاح عن منصبه الرئيس، فلا يجد بعدها ساحة لحكمه أو لا يصغى إلى حكمه. وفي النتيجة ستحل القوة الواهمة والمتخيلة محل العقل ويتلى الإنسان بالمغالطة فكرياً، وإثر ذلك يرى الأمر الباطل الموهوم والخيالي حقاً معقولاً، والحق المعقول باطلاً، وهذا معنى انقلاب المعرفة.

فتمت ما كانت العواطف والأحاسيس تحت إشراف العقل وتديره، فإتّما لن تخرج عن حدّ الاعتدال ويسهل تعيين مسير الحب والبغض، والميل والنفور بصورة صحيحة، ولا يقع الإنسان طعمة للدواعي الزائفة والتوجهات الضالة، أمّا إذا كانت بيد الشيطان وهو من يخطط لها فلا محالة أتمها ستنزلق عن الاعتدال ويقع الانحراف في ميدان الجذب والدفع.

فالشيطان يتصرف من خلال النفوذ إلى ميول البشر وتزيين الأوهام والأعمال والإلقاء في الأمنية والوعود و... بما يبعث على زيادة الرغبة أو إيجاد شوق وشغف

(١) نهج البلاغة: الكلمات القصار ٢١١.

(٢) الروم: آية ٣٠.

كاذب أو إثارة الغضب والحق^(١).

قال الإمام الباقر عليه السلام بصدد الغضب:

«إِنَّ هَذَا الْغَضَبَ جَمْرَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، تُوقَدُ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا غَضِبَ أَحْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَانْتَفَحَتْ أَوْ دَاجَهُ، وَدَخَلَ الشَّيْطَانُ فِيهِ»^(٢).

النفس رهن لكل ذنب

جاء تعبير الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة متضرعاً إلى الله العزيز قائلًا:

«وَفُكِّ رِهَانِي»^(٣).

بما أنّ كلمة «رهان» جاءت بصيغة الجمع في كلام الإمام عليه السلام يستفاد منها أنّ الإنسان مرهون بكل ذنب من الذنوب التي يقترفها، ومتى ما لم يستغفر منها جميعاً ستبقى نفسه أسيرة مكبلة بالقيود الدنيوية والعقوبة الأخروية.

روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال:

«مَا مِنْ شَيْءٍ أَفْسَدَ لِلْقَلْبِ مِنْ خَطِيئَةٍ، إِنَّ الْقَلْبَ لِيُوقِعُ الْخَطِيئَةَ، فَمَا تَزَالَ بِهِ حَتَّى تَغْلِبَ عَلَيْهِ، فَيَصِيرَ أَعْلَاهُ أَسْفَلَهُ»^(٤).

-
- (١) جعفر طيار دهقاني، مصطفي، صادقي، هادي، «تأثير گناه بر معرفت به قبح فعل قبيح از منظر قرآن» (تأثير الذنب في معرفة قبح الفعل القبيح من منظور القرآن)، مجلة پژوهش نامه اخلاق (الأخلاق العلمية): العدد ١٤، ١٣٩٠ هـ. ش، ص ١٠٩-١٢٥.
- (٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٣٠٤-٣٠٥، حديث ١٢.
- (٣) الكفعمي، إبراهيم بن علي، البلد الأمين: ص ٢٥٣.
- (٤) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٢٦٨، حديث ١.

الذنب سبب تسافل الإنسان

تضرع الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة قائلاً:
«أَنَا الَّذِي اعْتَرَفْتُ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَعِنْدِي وَأَبْوَاءُ بِذُنُوبِي»^(١).
من استخدام «باء» السببية في الجملة يستنتج أن الذنب يتسبب في انحطاط الإنسان وتسافله.

وهناك احتمال آخر في معنى قوله عليه السلام: «وَأَبْوَاءُ بِذُنُوبِي» هو تكرار الوقوع بالذنب والإصرار عليه والرجوع إليه من جديد، كما يوجد احتمال ثالث وهو الرجوع إلى الله بالذنوب عسى أن يغفرها لي.

وفي وصف جماعة من مرضى القلوب قال أمير المؤمنين عليه السلام:
«قَدْ خَرَقَتْ الشَّهَوَاتُ عَقْلَهُ، وَأَمَاتَتِ الدُّنْيَا قَلْبَهُ، وَوَلِهَتْ عَلَيْهَا نَفْسَهُ، فَهُوَ عَبْدٌ لَهَا»^(٢).

أولئك الذين هلكوا بذنوبهم

جاء عن الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة قوله راجياً من الله جل جلاله:
«وَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا أَجْمَعِينَ، وَلَا تُهْلِكْنَا مَعَ الْهَالِكِينَ»^(٣).
يستنتج من ملاحظة الجمع المحلى بالألف واللام الدال على الموصول في قوله: «الهالكين» والسياق الذي وردت فيه أن هناك أفراداً هلكوا بذنوبهم، بمقتضى دوران الكلام حول الذنوب.

قال الإمام الصادق عليه السلام:
«مَنْ يَمُوتُ بِالذُّنُوبِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَمُوتُ بِالْأَجَالِ»^(٤).

(١) الكفعمي، إبراهيم بن علي، البلد الأمين: ص ٢٥٥.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ١٠٩.

(٣) الكفعمي، إبراهيم بن علي، البلد الأمين: ص ٢٥٧.

(٤) الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي: ص ٧٠١، حديث ١٤٩٨.

ضرر الذنب على نفس الإنسان

ذكر القندوزي الحنفي في يناييعه:

«وَالْحَرُّ يُسَايِرُ مَعَهُ حَتَّىٰ أَنْتَهَىٰ إِلَىٰ قَصْرِ بَنِي مُقَاتِلٍ، وَإِذَا بَفُسَطَاطٍ مَضْرُوبٍ لِرَجُلٍ يَقْطَعُ الطَّرِيقَ فَقَالَ لَهُ: إِنَّكَ قَدْ عَمِلْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ ذُنُوبًا كَثِيرَةً فَهَلْ لَكَ مِنْ عَمَلٍ تَمْحُو بِهِ ذُنُوبَكَ؟»

قَالَ: بِمَاذَا؟

قَالَ: تَنْصُرُ ابْنَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله.

قَالَ: أُعْطِيكَ فَرَسِي وَسَيْفِي وَأَعْفِيَنِي عَنْ ذَلِكَ.

قَالَ: إِذَا بَحَلْتَ عَلَيْنَا بِنَفْسِكَ فَلَا حَاجَةَ لَنَا بِإِلَّاكَ، وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَخَذُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ عِضْدًا﴾^(١)، ثُمَّ قَالَ: سَمِعْتُ جَدِّي عليه السلام يَقُولُ: (مَنْ سَمِعَ وَأَعْيَبَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ وَلَمْ يُجِبْهُ أَكْبَهُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْخَرِيهِ فِي النَّارِ)^(٢).

حيث يستدل من جملة «إِنَّكَ قَدْ عَمِلْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ ذُنُوبًا كَثِيرَةً» على توجه الضرر إلى النفس ووقوعه عليها بسبب الذنوب، ويظهر ذلك من استخدام حرف «علي».

قال تبارك وتعالى:

﴿أُولَٰئِكَ يَهْدِي لِلَّذِينَ يَرْتُوبُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾^(٣).

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«إِذَا أَذْنَبَ الرَّجُلُ حَرَجَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، فَإِنْ تَابَ انْمَحَتْ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّىٰ تَغْلِبَ عَلَىٰ قَلْبِهِ فَلَا يُفْلِحُ بَعْدَهَا أَبَدًا»^(٤).

(١) الكهف: آية ٥١.

(٢) القندوزي، سليمان بن إبراهيم، يناييع المودة لذوي القربى: ج ٣، ص ٦٣.

(٣) الأعراف: آية ١٠٠.

(٤) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٢٧١، حديث ١٣.

هـ) التخيل والتوهم

يعدّ التخيل والتوهم مانعاً آخر من موانع المعرفة والأمور التي تصدّ عنها، ومتى ما عاش الإنسان محاطاً بالتخيلات والأوهام فإنّه لا يقوى على فهم المعارف الإلهية وإدراكها؛ لأنّ اكتسابها لا يمكن إلاّ بالبرهان واليقينيات لا غير.

إنّ قوة الخيال واحدة من الهبات الإلهية العظيمة التي منّ بها الحقّ تعالى على عبده الإنسان، إذ بها قد استطاعت البشرية من التقدّم والازدهار على جميع الأصعدة المتعددة العلمية والصناعية، والثقافية والفنية وغيرها، وهناك المئات بل الآلاف من الإبداعات العلمية والتقنية يعود الفضل فيها إلى تلك القوة. وقد برزت فلسفة وجود هذه القوة في الإنسان نظراً إلى أبعادها وسعة مجالات فعاليتها، ولكنها مع كل تلك القابليات والمؤهلات الهائلة التي حباها الله بها إلاّ أنّها متى ما استخدمت في الجادة الخطأ كانت عواقبها وخيمة وأضرارها جسيمة أيضاً.

قال الشهيد مطهري بهذا الصدد:

«القوة المتخيلة من أعجب قوانا، وبهذه القوة ينتقل ذهننا في كل لحظة من موضوع إلى موضوع آخر، وهو ما يصطلح عليه تداعي المعاني وتسلسل الخواطر، وهذه القوة ليست تحت تصرفنا وإنّما نحن تحت تصرفها، ولهذا مهما حاولنا تجميع قوانا الذهنية حول موضوع ما دون أن يبعثها شيء لم يتيسر لنا ذلك، إذ إنّ هذه التلقائية في القوة المتخيلة تأخذنا يميناً وشمالاً، ومن الأمثلة عليها محاولتنا أداء الصلاة في حالة من (حضور القلب)، فإنّنا مهما حرصنا أن يحضر هذا التلميذ في صف الصلاة ويثبت فيه لم نستطع حتّى نلتفت أنّ الصلاة قد انتهت وكان هذا التلميذ (غائباً) طوال هذه المدّة.

ولكن هل الإنسان محكوم جبراً واضطراً بأن يبقى فكره دائماً قيد هذه القوة

الغامضة التي تتجول كالعصفور من غصن إلى غصن وتظل حاكمة على وجوده بشكل مطلق أو أنّ محكوميته لقوة الخيال ناتجة عن بساطته وسذاجته، والكمّل وأهل الولاية لديهم القدرة على تذليل هذه القدرة العنيدة؟

الشق الثاني هو الصحيح، فواحدة من وظائف البشر السيطرة على نزوات الخيال، وإلا لما تركت هذه القوة ذات الصفة الشيطانية مجالاً للرفي والرفعة وسلوك صراط القرب ولتعطلت وتلاشت جميع القوى والقابليات الكامنة في وجود الإنسان...»^(١).

تصوّر الموجودات في مخيلة الإنسان

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه ابتهل في دعاء التسيح قائلاً:
 «سُبْحَانَ مَنْ عَلَا فَوْقَ الرِّيَّاتِ بِالْإِلَهِيَّةِ، فَلَا عَيْنٌ تُدْرِكُهُ، وَلَا عَقْلٌ يُمَثِّلُهُ، وَلَا وَهْمٌ يُصَوِّرُهُ»^(٢).

ويتبيّن من مفهوم هذه الجملة أنّ مخيلة الإنسان تقوم بتصوّر الموجودات الخارجية في الذهن.

نقل عن أبي هاشم الجعفري أنّه قال:

«قُلْتُ لِأَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾^(٣)؟ فَقَالَ: يَا أَبَا هَاشِمٍ، أَوْهَامُ الْقُلُوبِ أَدْقُ مِنْ أَبْصَارِ الْعُيُونِ، أَنْتَ قَدْ تُدْرِكُ بِوَهْمِكَ السَّنَدَ وَالْمُهَنْدَ وَالْبُلْدَانَ الَّتِي لَمْ تَدْخُلْهَا وَلَا تُدْرِكُهَا بِبَصَرِكَ، وَأَوْهَامُ الْقُلُوبِ لَا تُدْرِكُهَا فَكَيْفَ أَبْصَارُ

(١) مطهري، مرتضى، مجموعه آثار استاد شهيد مطهري (مجموعة آثار الأستاذ الشهيد مطهري):

ج ٣، ص ٢٩٩-٣٠٠.

(٢) قطب الدين الراوندي، سعيد بن هبة الله، الدعوات: ص ٩٢.

(٣) الأنعام: آية ١٠٣.

الْعُيُونِ؟!»^(١).

عدم إمكان تصور الله بقوة الخيال

يستنتج أيضاً من مضمون الحديث السابق أن قوة الخيال لا يمكنها بأي حال من الأحوال تصوير الحق تبارك وتعالى.

وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله واصفاً الباري عزت آلاؤه:

«... أَنَّهُ لَا جِسْمٌ وَلَا صُورَةٌ، وَلَا يُحَسُّ وَلَا يُحَسُّ، وَلَا يُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ الْخَمْسِ، لَا تُدْرِكُهُ الْأَوْهَامُ، وَلَا تَنْقُصُهُ الدُّهُورُ، وَلَا تُغَيِّرُهُ الْأَزْمَانُ»^(٢).

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٩٩، حديث ١١.

(٢) المصدر السابق: ج ١، ص ٨٣، حديث ٦.

(و) السفاهة

السفه من الموانع والحجب التي تصدّ عن المعرفة، وهذا ما جعل السفهاء في منأى عن إدراك المعارف الإلهية.

سئل الإمام الحسن عليه السلام:

«فَمَا السَّفَهُ؟ قَالَ: اتَّبَاعُ الدُّنَاةِ وَمُصَاحَبَةُ الْعُورَةِ»^(١).

وسئل الإمام الصادق عليه السلام:

«وَمَا السَّفِيهُ؟ فَقَالَ: الَّذِي يَشْتَرِي الدَّرْهَمَ بِأَضْعَافِهِ»^(٢).

ذكر العلامة المصطفوي في تعريف «السفاهة»:

«إِنَّ الْأَصْلَ الْوَاحِدَ فِي هَذِهِ الْمَادَّةِ: هُوَ الْإِخْتِلَالُ، وَأَكْثَرُ اسْتِعْمَالِهِ فِيمَا يُقَابَلُ الْعَقْلَ وَالْحِلْمَ، وَقَدْ يَسْتَعْمَلُ فِي إِخْتِلَالِ الْأُمُورِ الْمَادِّيَةِ...»

ولا يخفى أنّ اختلال العقل أمر باطني معنوي، ويستدلّ عليه بآثاره المشاهدة في الأعمال والأفكار والآراء، وقد يختلف النظر والحكم فيها باختلاف المحيط والتفكير مادياً أو معنوياً، فمن كان برنامج أموره في حياته راجعاً إلى الماديات والحياة الدنيوية والتمايلات النفسانية فهو ضعيف العقل ومختلّ في تعقله وتشخيصه ما يصلحه ويفسده.

هذا بالنسبة إلى الواقع والحقيقة، وأمّا في نظر أهل الدنيا المتوغّلين فيها فهم عاقلون يعملون بما هو صلاح وخير لهم في العاجلة، بل إنهم يسفّهون من يجاهد في تأمين الحياة الروحانية والدار الآجلة الآخرة.

(١) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٢٦.

(٢) الطوسي، محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام: ج ٩، ص ١٨٢، حديث ٧٣١.

فظهر أنّ تشخيص الخير والصلاح من أتم آثار العقل وأكملها، وهذا التشخيص
إنّما يختلف باختلاف مراتب العقل ﴿كُلُّ حَزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.
فالسفيه بالنظر الحقّ الصائب القاطع: هو الذي يميل عن سعادة نفسه وكماله
وصلاحه وحسن عاقبته وتأمين حياته الروحانية.
﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾^(١) «^(٢)».

تأثير السفاهة في العجلة

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنّه قال:
«الْعَجَلَةُ سَفَهٌ»^(٣).

يدلنا مضمون هذه الجملة على أنّ الحماقة لها تأثير كبير في التسرع والعجلة عند
القيام بالمهام والمسؤوليات على العكس ممّن اتصف بالعقل والتدبير فإنّه يترث
حينها يؤدّي مهامه وأعماله، ولهذا يصل إلى الحقيقة.
قال أمير المؤمنين عليه السلام:
«مَعَ الْعَجَلِ يَكْثُرُ الزَّلَلُ»^(٤).

من علائم السفاهة

ذكر البلاذري في (أنساب الأشراف):

«وَكَتَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَى الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ انْتَهَتْ إِلَيَّ عَنْكَ أُمُورٌ
أَرَعْبُ بِكَ عَنْهَا، فَإِنْ كَانَتْ حَقًّا لَمْ أَقَارَكَ عَلَيْهَا، وَلَعَمْرِي إِنَّ مَنْ أَعْطَى صَفْقَةً يَمِينِهِ

(١) البقرة: آية ١٣٠.

(٢) المصطفوي، حسن، التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ج ٥، ص ١٧٨-١٧٩.

(٣) الآبي، منصور بن الحسين، نثر الدر في المحاضرات: ج ١، ص ٢٢٩.

(٤) الآمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٧٠٣، حديث ٢٨.

وَعَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ لِحَرْبِي بِالْوَفَاءِ، وَإِنْ كَانَتْ بَاطِلًا فَأَنْتَ أَسْعَدُ النَّاسِ بِذَلِكَ، وَبِحِظِّ نَفْسِكَ تَبْدَأُ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ تُوفِي، فَلَا تَحْمِلْنِي عَلَى قَطِيعَتِكَ وَالْإِسَاءَةِ بِكَ، فَإِنِّي مَتَى أَنْكَرَكَ تُنْكَرُنِي، وَمَتَى تَكِيدُنِي أَكِيدُكَ، فَاتَّقِ شَقَّ عَصَا هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَنْ يَرْجِعُوا عَلَى يَدِكَ إِلَى الْفِتْنَةِ، فَقَدْ جَرَّبْتَ النَّاسَ وَبَلَّوْتَهُمْ، وَأَبُوكَ كَانَ أَفْضَلَ مِنْكَ، وَقَدْ كَانَ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ رَأْيُ الَّذِينَ يَلُودُونَ بِكَ، وَلَا أَظُنُّهُ يَصْلُحُ لَكَ مِنْهُمْ مَا كَانَ فَسَدَ عَلَيْهِ، فَانظُرْ لِنَفْسِكَ وَدِينِكَ ﴿١﴾ وَلَا يَسْتَحْفَنُكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿١﴾.

فَكَتَبَ إِلَيْهِ الْحَسَنِ: أَمَا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي كِتَابُكَ تَذَكُّرٌ أَنَّهُ بَلَغَتْكَ عَنِّي أُمُورٌ تَرَعَبُ عَنْهَا، فَإِنْ كَانَتْ حَقًّا لَمْ تُقَارِنِي عَلَيْهَا، وَلَنْ يَهْدِيَ إِلَى الْحَسَنَاتِ وَيُسَدِّدَ لَهَا إِلَّا اللَّهُ. فَأَمَّا مَا نُمِّي إِلَيْكَ فَإِتْمَارُ رِقَاةِ الْمَلَاقُونَ الْمَشَاوُونَ بِالتَّمَائِمِ، الْمَفْرُقُونَ بَيْنَ الْجَمِيعِ، وَمَا أُرِيدُ حَرْبًا لَكَ وَلَا خِلَافًا عَلَيْكَ، وَائْتِمُ اللَّهُ لَقَدْ تَرَكْتُ ذَلِكَ وَأَنَا أَخَافُ اللَّهَ فِي تَرْكِهِ، وَمَا أَظُنُّ اللَّهَ رَاضِيًا عَنِّي بِتَرْكِ مُحَاكَمَتِكَ إِلَيْهِ، وَلَا عَازِرِي دُونَ الْأَعْدَارِ إِلَيْهِ فِيكَ وَفِي أَوْلِيَاكَ الْقَاسِطِينَ الْمَلْحِدِينَ، حِزْبِ الظَّالِمِينَ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيَاطِينِ، أَلَسْتَ قَاتِلَ حُجْرِ بْنِ عَدِيٍّ وَأَصْحَابِهِ الْمَصْلِينَ الْعَابِدِينَ، الَّذِينَ يُنْكِرُونَ الظُّلْمَ وَيَسْتَعْظِمُونَ الْبِدْعَ وَلَا يَخَافُونَ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ ظُلْمًا وَعُدُوَانًا بَعْدَ إِعْطَائِهِمُ الْأَمَانَ بِالْمَوَائِقِ وَالْأَبْيَانِ الْمَغْلَظَةِ؟! أَوْلَسْتَ قَاتِلَ عَمْرٍو ابْنِ الْحَمِقِ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، الَّذِي أَبْلَتْهُ الْعِبَادَةُ وَصَفَّرَتْ لُونَهُ وَأَنْهَلَتْ جِسْمَهُ؟! أَوْلَسْتَ الْمَدْعِي زِيَادَ بْنَ سُمَيَّةَ الْمُؤَلَّدَ عَلَى فِرَاشِ عُبَيْدِ عَبْدِ ثَقِيفٍ، وَزَعَمْتَ أَنَّهُ ابْنُ أَبِيكَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ)، فَتَرَكْتَ سُنَّةَ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَخَالَفْتَ أَمْرَهُ مُتَعَمِّدًا، وَاتَّبَعْتَ هَوَاكَ مُكْذِبًا بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ، ثُمَّ سَلَطْتَهُ عَلَى الْعِرَاقَيْنِ فَقَطَعَ أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ وَصَلَبَهُمْ عَلَى جُدُوعِ النَّخْلِ، كَأَنَّكَ لَسْتَ مِنَ الْأُمَّةِ وَكَأَنَّهَا

لَيْسَتْ مِنْكَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنْ أَحَقَّ بِقَوْمٍ نَسَبًا لَيْسَ لَهُمْ فَهُوَ مَلْعُونٌ)؟! أَوْلَسْتَ صَاحِبَ الْحَضْرَمِيِّينَ الَّذِينَ كَتَبَ إِلَيْكَ ابْنُ سُمَيَّةَ أَنَّهُمْ عَلَى دِينِ عَلِيٍّ، فَكَتَبْتَ إِلَيْهِ: أَقْتُلْ مَنْ كَانَ عَلَى دِينِ عَلِيٍّ وَرَأْيِهِ، فَقَتَلْتَهُمْ وَمَثَلَ بِهِمْ بِأَمْرِكَ؟! وَدِينُ عَلِيٍّ دِينُ مُحَمَّدٍ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الَّذِي كَانَ يَضْرِبُ عَلَيْهِ أَبَاكَ، وَالَّذِي انْتَحَالَكَ إِيَّاهُ أَجْلَسَكَ مَجْلِسَكَ هَذَا، وَلَوْلَا هُوَ كَانَ أَفْضَلُ شَرَفِكَ تَجَشَّمِ الرَّحْلَتَيْنِ فِي طَلَبِ الْخُمُورِ. وَقُلْتَ: انْظُرْ لِنَفْسِكَ وَدِينِكَ وَالْأُمَّةِ، وَاتَّقِ شَقَّ عَصَا الْأُلْفَةِ، وَأَنْ تَرُدَّ النَّاسَ إِلَى الْفِتْنَةِ، فَلَا أَعْلَمُ فِتْنَةً عَلَى الْأُمَّةِ أَعْظَمَ مِنْ وِلَايَتِكَ عَلَيْهَا، وَلَا أَعْلَمُ نَظْرًا لِنَفْسِي وَدِينِي أَفْضَلَ مِنْ جِهَادِكَ، فَإِنْ أَفَعَلَهُ فَهُوَ قُرْبَةٌ إِلَى رَبِّي، وَإِنْ أَتْرَكْتَهُ فَدَنْبٌ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْهُ فِي كَثِيرٍ مِنْ تَقْصِيرِي، وَأَسْأَلُ اللَّهَ تَوْفِيقِي لِأَرْشَادِ أُمُورِي. وَأَمَّا كَيْدُكَ إِيَّايَ، فَلَيْسَ يَكُونُ عَلَى أَحَدٍ أَضَرَّ مِنْهُ عَلَيْكَ، كَفِعْلِكَ بِهِؤُلَاءِ النَّفَرِ الَّذِينَ قَتَلْتَهُمْ وَمَثَلْتَ بِهِمْ بَعْدَ الصُّلْحِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا قَاتِلُوكَ وَلَا نَقَضُوا عَهْدَكَ، إِلَّا مَخَافَةَ أَمْرٍ لَوْ لَمْ تَقْتُلْتَهُمْ مَتَّ قَبْلَ أَنْ يَفْعَلُوهُ، أَوْ مَاتُوا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكُوهُ. فَأَبَشِّرْ يَا مُعَاوِيَةَ بِالْقِصَاصِ، وَأَيِّقِنِ بِالْحِسَابِ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ كِتَابًا لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا، وَلَيْسَ اللَّهُ بِنَاسٍ لَكَ أَخَذَكَ بِالظَّنَّةِ، وَقَتَلَكَ أَوْلِيَاءَهُ عَلَى الشُّبْهَةِ وَالتَّهْمَةِ، وَأَخَذَكَ النَّاسَ بِالْبَيْعَةِ لِابْنِكَ غُلَامٍ سَفِيهِ يَشْرَبُ الشَّرَابَ وَيَلْعَبُ بِالْكِلابِ، وَلَا أَعْلَمُكَ إِلَّا خَسِرْتَ نَفْسَكَ وَأَوْبَقْتَ دِينَكَ وَأَكَلْتَ أَمَانَتَكَ وَغَشَشْتَ رَعِيَّتَكَ وَتَبَوَّأْتَ مَقْعَدَكَ مِنَ النَّارِ فَ﴿بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(١)»^(٢).

توحي عبارة الإمام عليه السلام «غلامٍ سَفِيهِ يَشْرَبُ الشَّرَابَ وَيَلْعَبُ بِالْكِلابِ» أَنَّ

شاربي الخمر وملاعببي الكلاب سفهاء.

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله:

(١) هود: آية ٤٤.

(٢) البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج ٥، ص ١٢٨-١٣٠.

«فَرَضَ اللَّهُ... تَرَكَ شُرْبَ الْخَمْرِ تَحْصِينًا لِلْعَقْلِ»^(١).

روي عن الإمام الرضا عليه السلام أنه يقول:

«حَرَّمَ اللَّهُ الْخَمْرَ لِمَا فِيهَا مِنَ الْفَسَادِ، وَمِنْ تَغْيِيرِهَا عُقُولَ شَارِبِيهَا، وَحَمْلِهَا إِيَّاهُمْ عَلَىٰ إِنْكَارِ اللَّهِ عز وجل، وَالْفِرْيَةِ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ رُسُلِهِ، وَسَائِرِ مَا يَكُونُ مِنْهُمْ مِنَ الْفَسَادِ وَالْقَتْلِ وَالْقَذْفِ وَالزَّوْنَاءِ»^(٢).

تأثير السفاهة في محاربة الإمام بالحق

ذكر الإربلي:

«فَصَاحَ الْحُسَيْنُ عليه السلام: وَيُحْكُمُ يَا شَيْعَةَ الشَّيْطَانِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ دِينٌ وَلَا تَخَافُونَ الْمَعَادَ فَكُونُوا أَحْرَارًا وَارْجِعُوا إِلَىٰ أَنْسَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ أَعْرَابًا كَمَا تَزْعُمُونَ، أَنَا الَّذِي أَقَاتِلُكُمْ فَكُفُّوا سُفَهَاءَكُمْ وَجَهَالَتَكُمْ عَنِ التَّعَرُّضِ لِحَرَمِي، فَإِنَّ النَّسَاءَ لَمْ يُقَاتِلْنَكُمْ»^(٣).

يستنتج تضحماً من قول الإمام عليه السلام: «فَكُفُّوا سُفَهَاءَكُمْ...» أن السفاهة لها تأثير

في محاربة الإمام بالحق ومجاهته.

قال أمير المؤمنين عليه السلام مؤنباً أهل البصرة الذين خرجوا لقتاله قبل اشتعال نيران

معركة الجمل:

«أَرَضُكُمْ قَرِيبَةً مِنَ الْمَاءِ، بَعِيدَةً مِنَ السَّمَاءِ، خَفَّتْ عُقُولُكُمْ، وَسَفِهَتْ حُلُومُكُمْ...»^(٤).

(١) نهج البلاغة: الكلمات القصصار ٢٥٢.

(٢) ابن بابويه، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ٢، ص ٩٨، حديث ٢.

(٣) الإربلي، علي بن عيسى، كشف الغمة في معرفة الأئمة: ج ٢، ص ٥٠-٥١.

(٤) نهج البلاغة: خطبة ١٤.

ز الضلال

من موانع المعرفة وحجبها الضلال والانحراف.

ذكر العلامة المصطفوي في تعريف «الضلالة»:

«إنَّ الأصل الواحد في هذه المادّة: هو ما يقابل الاهتداء، فالضلال هو عدم

الاهتداء، والإضلال هو فقدان الهداية، أي جعل شيء ضالاً.

فالضلال: فقدان الرشاد والدلالة إلى المقصود، سواء كان في جهة مادّية أو

معنوية.

ومن لوازم هذا الأصل: الخطأ، الذهاب في غير حقه، العدول عن الطريق،

الضياع، الغيبوبة، وغيرها.

فإنَّ هذه الأمور تتحقق في أثر عدم حصول الاهتداء إلى المقصود، كما أنَّ الدفن

خلاف المسير والحركة إلى المقاصد الدنيوية، وخلط الماء في اللبن على خلاف استمرار

الحالة اللبنية وخلوصها.

وقلنا: إنَّ الضلال هو فقدان الاهتداء إلى المقصود، وهو أعم من أن يكون في حق

أو باطل، فإنَّ مطلوب كل شخص بحسب نظره»^(١).

الضلال سبب الجهالة بالله والإمام

نقل عن يزيد بن رويان أنّه قال:

«دَخَلَ نَافِعُ بْنُ الْأَزْرَقِ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَالْحَسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ فِي

الْحَجْرِ، فَجَلَسَ إِلَيْهِمَا، ثُمَّ قَالَ: يَا بَنَ عَبَّاسٍ، صِفْ لِي إِيَّاهُ الَّذِي تَعْبُدُهُ، فَأَطْرَقَ ابْنُ

(١) المصطفوي، حسن، التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ج٧، ص٤٠.

عَبَّاسٍ طَوِيلًا مُسْتَبْطِنًا بِقَوْلِهِ، فَقَالَ لَهُ الْحَسِينُ: إِلَيَّ يَا بَنَ الْأَزْرَقِ الْمَتَوَرِّطَ فِي الصَّلَاةِ الْمُرْتَكِسَ فِي الْجَهَالَةِ، أُجِيبُكَ عَمَّا سَأَلْتَ عَنْهُ، فَقَالَ: مَا إِيَّاكَ سَأَلْتُ فَتُحِيبَنِي، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَهْ سَلِ ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ فَإِنَّهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ النَّبَوَّةِ وَمَعَهُ مِنَ الْحِكْمَةِ، فَقَالَ لَهُ: صِفْ لِي، فَقَالَ: أَصِفُهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَأَعْرِفُهُ بِمَا عَرَفَ بِهِ نَفْسَهُ: لَا يُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ، وَلَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ، قَرِيبٌ غَيْرُ مُلْزَقٍ، وَبَعِيدٌ غَيْرُ مُتَقَصِّصٍ، يُوَحِّدُ وَلَا يُبَعِّضُ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْكَبِيرُ الْمَتَعَالِ...»^(١).

يستفاد من إطلاق الإمام كلمة «المتورِّط في الصَّلَاةِ» على نافع بن الأزرق أن الضلال يتسبب في عدم المعرفة بالله سبحانه وبالإمام بالحق. قال الحق تبارك وتعالى:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^(٢).

يتعلق القضاء الإلهي بضلالة قوم أحيانا

نقل الخوارزمي في كتابه:

«فَقَالَ عُمَرُ بْنُ سَعْدٍ: وَيَلِكُمْ كَلْمُوهُ فَإِنَّهُ ابْنُ أَبِيهِ، وَاللَّهِ، لَوْ وَقَفَ فِيكُمْ هَكَذَا يَوْمًا جَدِيدًا لَمَا قَطَعَ وَلَمَا حَصَرَ، فَكَلْمُوهُ، فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ شِمْرُ بْنُ ذِي الْجَوْشَنِ، فَقَالَ: يَا حُسَيْنُ، مَا هَذَا الَّذِي تَقُولُ؟ أَفَهَمْنَا حَتَّى نَفْهَمَ؟

فَقَالَ عليه السلام: أَقُولُ لَكُمْ: انْتَقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ وَلَا تَقْتُلُونِ، فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكُمْ قِتْلِي وَلَا انْتِهَاكَ حُرْمَتِي، فَإِنِّي ابْنُ بِنْتِ نَبِيِّكُمْ، وَجَدَّتِي خَدِيجَةُ زَوْجَةُ نَبِيِّكُمْ، وَلَعَلَّهُ قَدْ بَلَغَكُمْ قَوْلَ نَبِيِّكُمْ

(١) المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: ج ٣٣، ص ٤٢٣-٤٢٤، حديث ٦٣١.

(٢) الجاثية: آية ٢٣.

مُحَمَّدٍ ﷺ: الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَا خَلَا النَّبِيَّ وَالْمُرْسَلِينَ، فَإِنْ صَدَقْتُمُونِي بِمَا أَقُولُ، وَهُوَ الْحَقُّ، فَوَاللَّهِ مَا تَعَمَّدْتُ كَذِبًا مُنْذُ عَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ يَمُقَّتْ عَلَيْهِ أَهْلُهُ، وَإِنْ كَذَبْتُمُونِي فَإِنَّ فِيكُمْ مِنَ الصَّحَابَةِ مِثْلَ: جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وَسَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، وَزَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ، وَأَنْسِ بْنِ مَالِكٍ، فَاسْأَلُوهُمْ عَنْ هَذَا، فَإِنَّهُمْ يُخْبِرُونَكُمْ أَنَّهُمْ سَمِعُوهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ أَمْرِي، أَفْتَشْكُونَ أَيْ ابْنُ بِنْتِ نَبِيِّكُمْ؟! فَوَاللَّهِ، مَا بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُغْرِبِينَ ابْنُ بِنْتِ نَبِيِّ غَيْرِي. وَبِلَكُمْ، أَتَطْلُبُونِي بِدَمِ أَحَدٍ مِنْكُمْ قَتَلْتَهُ، أَوْ بِمَالٍ اسْتَمْلَكْتَهُ، أَوْ بِقِصَاصٍ مِنْ جِرَاحَاتٍ اسْتَهْلَكْتَهُ؟! فَسَكْتُوا عَنْهُ لَا يُجِيبُونَهُ.

ثُمَّ قَالَ ﷺ: وَاللَّهِ، لَا أُعْطِيهِمْ يَدِي إِعْطَاءَ الدَّلِيلِ، وَلَا أُفْرُ فِرَارَ الْعَبِيدِ. عِبَادَ اللَّهِ، إِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ، وَأَعُوذُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ.

فَقَالَ لَهُ شِمْرُ بْنُ ذِي الْجَوْشَنِ: يَا حُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ، أَنَا أَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ إِنْ كُنْتُ أَدْرِي مَا تَقُولُ، فَسَكَتَ الْحَسِينُ ﷺ.

فَقَالَ حَبِيبُ بْنُ مُظَاهِرٍ لِلشُّمْرِ: يَا عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّ رَسُولِ اللَّهِ، إِنِّي لَأَظُنُّكَ تَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى سَبْعِينَ حَرْفًا، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّكَ لَا تَدْرِي مَا يَقُولُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ طَبَعَ عَلَى قَلْبِكَ.

فَقَالَ لَهُ الْحَسِينُ ﷺ: حَسْبُكَ يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ، فَقَدْ قُضِيَ الْقَضَاءُ، وَجَفَّ الْقَلَمُ، وَاللَّهُ بَالِغُ أَمْرِهِ، وَاللَّهِ، إِنِّي لَأَشْوَقُ إِلَى جَدِّي وَأَبِي وَأُمِّي وَأَخِي وَأَسْلَافِي مِنْ يَعْقُوبَ إِلَى يُوسُفَ وَأَخِيهِ، وَلِي مَضْرَعٌ أَنَا لَا قِيَهُ^(١).

يستنتج من قول الإمام ﷺ: «فَقَدْ قُضِيَ الْقَضَاءُ...» والسياق الذي وردت فيه أَنَّ الْقَضَاءَ الْإِلَهِيَّ يَتَعَلَّقُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ بِضَلَالَةِ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ، رَغْمَ أَنَّ هَذَا

(١) أخطب خوارزم، الموفق بن أحمد، مقتل الحسين ﷺ: ج ١، ص ٣٥٧-٣٥٨.

القضاء والقدر خال عن الإجبار ويأتي متماشياً مع اختيار تلك الأمة لا يشذ عنه قيد أنملة.

قال الحكيم في كتابه العزيز:

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ وَمِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿١﴾﴾

ظلمات الضلال

عبدالله بن حمزة بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال:

«إِنَّ الْحَسِينَ بْنَ عَلِيٍّ - عليه السلام - قَالَ لِمُعَاوِيَةَ: (أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ نَارَعْتَ عَلِيًّا فَتَوَرَّطْتَ النَّارَ، وَفَارَزَ بِالْجَنَّةِ، إِنَّ عَلِيًّا - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ - كَانَ عَلِمًا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَكَانَ نُورَ اللَّهِ ﷺ يُسْتَضَاءُ بِهِ مِنْ ظُلْمِ الضَّلَالَةِ، فَكَيْفَ تَرَى فَضْلَ عَلِيٍّ - عليه السلام - وَهُوَ السَّابِقُ إِلَى الْفَضَائِلِ، وَالْمَوْفِيُّ بِالذِّمَّةِ، وَوَصِيُّ نَبِيِّ اللَّهِ - ﷺ - وَأَنْتَ طَلِيقُ ابْنِ طَلِيقٍ؟!)، فَقَامَ الْحَسَنُ - عليه السلام - فَأَخَذَ بِيَدِهِ، وَكَانَ إِذَا أَمَرَهُ الْحَسَنُ اتَّمَرَّ لَهُ، وَأَطَاعَهُ، وَلَمْ يَعِصْهُ»^(١).

بما أن كلمة الظلمة جاءت بصيغة الجمع في قوله عليه السلام: «ظلم الضلالة» نستنتج أن ضلال الإنسان يقوده للظلمات.

ورد في دعاء الندبة:

«... وَلَوْ لَا أَنْتَ يَا عَلِيُّ لَمْ يُعْرِفِ الْمُؤْمِنُونَ بَعْدِي، فَكَانَ بَعْدَهُ هُدًى مِنَ الضَّلَالَةِ، وَنُوراً مِنَ الْعَمَى»^(٣).

(١) غافر: آية ٣٤.

(٢) المنصور بالله، عبدالله بن حمزة، الشافي: ج ٣، ص ٢٨٥.

(٣) ابن المشهدي، محمد بن جعفر، المزار الكبير: ص ٥٧٧.

النواصب بصدد إضلال المساكين عقائدياً

جاء في التفسير المنسوب للإمام الحسن العسكري عليه السلام:

«وَقَالَ الْحَسِينُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام لِرَجُلٍ: أَيُّهُمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ، رَجُلٌ يَرُومُ قَتْلَ مَسْكِينٍ قَدْ ضَعُفَ، تُنْفِذُهُ مِنْ يَدِهِ؟ أَوْ نَاصِبٌ يُرِيدُ إِضْلَالَ مَسْكِينٍ [مُؤْمِنٍ] مِنْ ضَعْفَاءِ شِيعَتِنَا تَفْتَحُ عَلَيْهِ مَا يَمْتَنِعُ [الْمَسْكِينُ] بِهِ مِنْهُ وَيُفْجِمُهُ وَيَكْسِرُهُ بِحُجَجِ اللَّهِ تَعَالَى؟ قَالَ: بَلْ إِنْ قَازَ هَذَا الْمَسْكِينِ الْمُؤْمِنِ مِنْ يَدِ هَذَا النَّاصِبِ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾^(١) [أَي] وَمَنْ أَحْيَاهَا وَأَرْشَدَهَا مِنْ كُفْرٍ إِلَى إِيْمَانٍ، فَكَأَنَّمَا أَحْيَى النَّاسَ جَمِيعًا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَقْتُلَهُمْ بِسُيُوفِ الْحَدِيدِ»^(٢).

يتضح من كلام الإمام وسؤاله أن النواصب وأعداء أهل البيت عليهم السلام بصدد إضلال شيعتهم وأتباعهم متخذين شتى أنواع الممارسات والحيل لبلوغ ذلك الهدف، ومن بينها إلقاء الشبهات، وتبرز هنا وظيفة العلماء في إنقاذ أولئك المستضعفين من أيدي النواصب وحمايتهم والعناية بهم.

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«لَيْسَ النَّاصِبُ مَنْ نَصَبَ لَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ؛ لِأَنَّكَ لَمْ تَجِدْ رَجُلًا يَقُولُ: أَنَا النَّاصِبُ [أُبْعِضُ] مُحَمَّدًا وَآلَ مُحَمَّدٍ، وَلَكِنَّ النَّاصِبَ مَنْ نَصَبَ لَكُمْ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّكُمْ تَتَوَلَوْنَا وَأَنَّكُمْ مِنْ شِيعَتِنَا»^(٣).

(١) المائة: آية ٣٢.

(٢) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام: ص ٣٤٨، حديث ٢٣١.

(٣) ابن بابويه، محمد بن علي، ثواب الأعمال وعقاب الأعمال: ص ٢٠٧.

المركوس في الضلالة طوال حياته

روي عن الإمام الحسين عليه السلام قال مخاطباً نافع بن الأزرق:
«يَا نَافِعُ، إِنَّ مَنْ وَضَعَ دِينَهُ عَلَى الْقِيَاسِ لَمْ يَزَلِ الدَّهْرُ فِي الْإِرْتِمَاسِ، مَائِلاً عَنِ
الْمُنْهَاجِ، ظَاعِناً فِي الْإِعْوِجَاجِ، ضَالّاً عَنِ السَّبِيلِ، قَائِلاً غَيْرَ الْجَمِيلِ»^(١).
حيث يستفاد من كلام الامام عليه السلام أن أهل القياس في الدين والعاملين به
منغمسين في الضلال والانحراف طوال حياتهم.

قال الإمام علي عليه السلام:

«مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلْقِيَاسِ لَمْ يَزَلْ دَهْرُهُ فِي التِّيَاسِ، وَمَنْ دَانَ اللَّهَ بِالرَّأْيِ لَمْ يَزَلْ دَهْرُهُ
فِي ارْتِمَاسٍ»^(٢).

وذكر القاضي سعيد القمي في شرحه لتوحيد الصدوق:

«فالقول بالرأي في العلوم والأعمال الدينية يوجب كون القائل تمام عمره في
دخول باب الضلال والوقوع في بحر النكال»^(٣).

(١) ابن بابويه، محمد بن علي، التوحيد: ص ٧٩-٨٠، حديث ٣٥.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٥٧-٥٨، حديث ١٧.

(٣) القاضي سعيد القمي، محمد سعيد بن محمد مفيد، شرح توحيد الصدوق: ج ١، ص ٥٠٤.

ح) الغفلة

الغفلة تعدّ مانعاً آخر من موانع المعرفة وآفاتنا.

وفي تعريفها قال العلامة المصطفوي:

«إِنَّ الْأَصْلَ الْوَاحِدَ فِي الْمَادَّةِ: هُوَ مَا يُقَابَلُ التَّذَكُّرَ، وَقَلْنَا فِي السُّهُوِّ: إِنَّ السُّهُوَّ غَفْلَةٌ عَنِ عَمَلٍ يُقْصَدُهُ وَلَمْ يَكُنْ، سِوَاءَ كَانِ عَنْ ذِكْرٍ أَمْ لَا، وَالْغَفْلَةُ تَكُونُ عَمَّا يَكُونُ، كَمَا أَنَّ النَّسِيَانَ يَكُونُ عَمَّا كَانَ ذَاكِرًا لَهُ، وَأَمَّا مَفَاهِيمُ التَّرِكِّ وَمَا لَا عِلْمَ لَهُ أَوْ لَا حَسَبَ لَهُ وَغَيْرَهَا فَمِنْ أَثَارِهِ»^(١).

وحولها قال العلامة الجعفري مبيّناً:

«تدرج آيات القرآن الغفلة ضمن الأوصاف الوضيعة إلى درجة أنّها وصفت الإنسان الغافل بأنّه أكثر وضاعة من الحيوانات. الغفلة والنسيان يمثلان ذلك الظلام الذهني الناشئ من عدم الاكتراث بقضية ما، وعلى العكس في حالة الاهتمام بها فكأنّ مصباحاً يتلأأ نوراً في ذهن الإنسان، وهناك العديد من الآيات بيّنت وضاعة هذه الصفة ولامت ووبّخت من اتّصف بها، مثل:

١- ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ

كَأَنفَعَمَ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^(٢).

٢- ﴿وَإِذْ ذُكِّرْتَكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ

وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾^(٣).

(١) المصطفوي، حسن، التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ج٧، ص٢٩٩-٣٠٠.

(٢) الأعراف: آية١٧٩.

(٣) الأعراف: آية٢٠٥.

٣- ﴿أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾^(١).

٤- ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^(٢).

معطيات الآيات:

الأول: إنّ الغفلة عن الحقيقة وعن إدراك خصائصها تنشأ نتيجة ركود القلب عن القيام بالأنشطة والفعاليات الحيوية وعن رؤية العين الآيات الإلهية والأذن عن سماع الحقائق، والمراد من ركود تلك الأعضاء وتوقفها عن العمل ليس ما ينجم عن عارض مرضي يؤدّي لبروز خلل طبيعي، وإنّما المراد فقدان التعقل وموت الوجدان والضمير الذي يتسافل بالإنسان حتّى يصل به إلى درجة الحيوانية. فإذا حوّلت هذه القوى إلى غير ما أسست عليه من المبادئ والقوانين الإنسانية فإنّ مسيرتها ستصبح في الطريق إلى تخريب (الحياة المعقولة) لها وللآخرين، مثلاً: القدرة والتي هي من أكبر النعم الإلهية على الإنسان قد تستخدم لما يقودها للانذار والاضمحلال، ومثلها غيرها، وهكذا العلم يتحوّل إلى وسيلة للتجهيل وإبادة الإنسان.

الثاني: إنّ الغفلة ظاهرة تشل قوى الإنسان وتعطل حساباته، دون أن تطرح أيّ مبدأ قانوني ضروري ولا أيّ أساس منطقي لمحاسباتها؛ لأنّ الإنسان الغافل يغط في نوم عميق دائماً، وترى الغفلة أنّ جميع القواعد والقوانين ما لم تصب في خدمتها ميتة...

الثالث: الظواهر والأنشطة الداخلية تجري وفق قوانين ثابتة حالها حال جميع الظواهر والأنشطة الخارجية، وكلاهما من مظاهر المشيئة الإلهية.

تماماً مثل ذلك الاهتمام بالفكر والتعقل والوجدان وإعمالها وتقبّل نتائج ذلك، فإنّه سيقتضي نموها وتطورها بحكم القانون الإلهي، كما أنّ عدم العناية بها وتعطيلها

(١) الأنبياء: آية ١.

(٢) النحل: آية ١٠٨.

وإعاققتها سيؤدّي إلى تدهورها وسقوطها طبقاً للمشيئة الإلهية، ويعبر عنها بكلمات من قبيل: (طَبَعَ اللهُ) و(حَتَمَ اللهُ)»^(١).

الغفلة آفة الحياة

ذكر أبو الفرج ابن الجوزي:

«قِيلَ: كَانَ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا رَأَى الْقُبُورَ قَالَ: مَا أَحْسَنَ ظَوَاهِرَهَا، وَإِنَّمَا الدَّوَاهِي فِي بُطُونِهَا، فَاللَّهُ اللَّهُ عِبَادَ اللَّهِ، لَا تَشْتَغِلُوا بِالدُّنْيَا، فَإِنَّ الْقَبْرَ بَيْتُ الْعَمَلِ، فَاعْمَلُوا وَلَا تَغْفُلُوا، وَأَنْشُدُوا:

يَا مَنْ بِدُنْيَاهُ اشْتَغَلَ وَعَرَّهُ طُورُ الْأَمَلِ
الْمَوْتُ يَأْتِي بَعْتَةً وَالْقَبْرُ صُنْدُوقُ الْعَمَلِ»^(٢).

واحدة من الآفات في حياة البشر الدنيوية غفلة الإنسان عن الحقائق والواقعيات، ومن النماذج على ذلك عدم اكتراثه لنتائج أعماله التي سيجدها حاضرة أمامه في عالم البرزخ ويوم القيامة. يقول تبارك وتعالى:

﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَكُمُ الْيَوْمَ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٣).

روي عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال:

«فِيهَا حَسْرَةٌ عَلَى كُلِّ ذِي غَفْلَةٍ أَنْ يَكُونَ عُمُرُهُ عَلَيْهِ حُجَّةً، وَأَنْ تُؤَدِّيَهُ أَيَّامُهُ إِلَى الشَّقْوَةِ»^(٤).

(١) الجعفري التبريزي، محمد تقي، معرفت شناسي (نظرية المعرفة): ص ٥٩٣-٥٩٤.

(٢) ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، بستان الواعظين ورياض السامعين: ص ١٩٤.

(٣) ق: آية ٢٢.

(٤) نهج البلاغة: خطبة ٦٤.

أولئك الذين أزاخوا حجب الغفلة

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال:

مَا يَخْفَظُ اللَّهُ يُصْنَعُ	مَا يَصْنَعُ اللَّهُ يُهَيَّبُ
مَنْ يَسْعُدِ اللَّهُ يَلِينُ	لَهُ الزَّمَانُ إِنْ حَشُنَ
أَخِي اعْتَبِرْ لَا تَغْتَرِرْ	كَيْفَ تَرَى صَرْفَ الزَّمَنِ
يَجْزِي بِمَا أُوتِيَ مِنْ	فِعْلٍ قَبِيحٍ أَوْ حَسَنِ
أَفْلَحَ عَبْدٌ كُشِفَ الْـ	غِطَاءُ عَنْهُ فَفَطَنَ
وَقَرَّ عَيْنًا مَنْ رَأَى	أَنَّ الْبَلَاءَ فِي اللَّسَنِ
فَمَا زَمِنَ الْفَاطِمَةُ	فِي كُفْلٍ وَقَتٍ وَوَزَنَ
وَخَافَ مِنْ لِسَانِهِ	عَزْبًا حَدِيدًا فَخَزَنَ
وَمَنْ يَكُ مُعْتَصِمًا	بِاللَّهِ ذِي الْعَرْشِ فَلَنْ
يُضَرَّ بِهِ شَيْءٌ وَمَنْ	يُعِدِّي عَلَى اللَّهِ وَمَنْ
مَنْ يَأْمَنُ اللَّهُ يَخْفُ	وَخَائِفُ اللَّهِ أَمِنَ
وَمَا لِمَا يُثْمِرُهُ الْـ	خَوْفُ مَنْ اللَّهُ ثُمَّ نُنْ
يَا عَالِمِ السِّرِّ كَمَا	يَعْلَمُ حَقًّا مَا عَلَنَ
صَلَّ عَلَى جَدِّي أَبِي الْـ	قَاسِمِ ذِي النُّورِ الْمُبِينِ
أَكْرَمَ مَنْ حَيٍّ وَمَنْ	لُفِّفَ مَيْتًا فِي الْكَفَنِ
وَأَمِنُنَّ عَلَيْنَا بِالرِّضَا	فَأَنْتَ أَهْلٌ لِلْمَنَنِ

وَأَعْفَنَّا فِي دِينِنَا مِنْ كُلِّ خَسِرٍ وَعَبِينِ
 مَا خَابَ مَنْ خَابَ كَمَنْ يَوْمًا إِلَى الدُّنْيَا رَكَنَ
 طُوبَى لِعَبْدٍ كُشِفَتْ عَنْهُ غِيَابَاتُ الوَسَنِ
 وَالْمَوْعِدُ اللهُ وَمَا يَقْضِي بِهِ اللهُ يَكُنْ^(١).

جاء في البيت قبل الأخير كلمة «غيابات» وهي جمع «غيابة» بمعنى الأمر المستور عن الإنسان، وكلمة «الوسن» تعني ثقل النوم وتستخدم للإشارة للغفلة أيضاً، ويفهم من البيت الأخير أن الغفلة قد تعرض على الإنسان أحياناً، ويلزمه عندها إزاحة أستار الغفلة وحجبها؛ لأن سعادته تكمن في ذلك.

قال الإمام علي عليه السلام:

«فَأَفِقْ أَيُّهَا السَّامِعُ مِنْ سَكْرَتِكَ، وَاسْتَيْقِظْ مِنْ غَفْلَتِكَ، وَاخْتَصِرْ مِنْ عَجَلَتِكَ»^(٢).

حاجة الغافل للتذكير

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال:

«كَانَ أَبِي عَلِمًا لِمَنْ جَهَلَ، مُدَكِّرًا لِمَنْ غَفَلَ، لَا يَلْفِظُ إِلَّا الْحَقَّ وَإِنْ أَمَرَ، وَلَا يُسِيغُ الْبَاطِلَ وَإِنْ حَلَا، شَدَّ عَضُدَهُ، وَجَاهَدَ وَحَدَّهُ، وَأَزَرَ أَخَاهُ، وَقَتَلَ عِدَاهُ، وَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ الْكُرْبَاتِ، وَخَاضَ دُونَهُ الْغَمْرَاتِ، فَلَمَّا اخْتَارَ اللهُ لِنَبِيِّهِ دَارَ أَنْبِيَائِهِ، كَرِهَتْهُ قُرَيْشٌ، فَأَهْمَلَهُمْ إِهْمَالَ الرَّاعِي لِإِبِلِهِ»^(٣).

(١) الإربلي، علي بن عيسى، كشف الغمة في معرفة الأئمة: ج ٢، ص ٣٦-٣٧.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ١٥٣.

(٣) ابن طاووس، علي بن موسى، التشریف بالمنن في التعريف بالفتن: ص ٣٦٣، حديث ٥٣٤.

الحاصل من مضمون جملة «...مُدَّكَرًّا لِمَنْ عَفَلَ» أن الشخص الغافل بحاجة ماسة لتنبية أولياء الله وتذكيرهم.

يقول تعالى:

﴿مَذَكِّرٍ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾^(١).

ويقول أيضاً:

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

ضرورة تذكير الغافل من قبل القادة الربانيين

يفهم ضمناً من الحديث السابق للإمام الحسين عليه السلام قوله: «...مُدَّكَرًّا لِمَنْ عَفَلَ» أن القادة الربانيين يجب عليهم تنبيه الغافلين وتذكيرهم.

روي عن الإمام علي عليه السلام قوله:

«إِنَّهُ لَيْسَ عَلَى الْإِمَامِ إِلَّا مَا حُمِّلَ مِنْ أَمْرِ رَبِّهِ: الْإِبْلَاحُ فِي الْمَوْعِظَةِ، وَالْإِجْتِهَادُ فِي النَّصِيحَةِ...»^(٣).

(١) الأعلى: آية ٩.

(٢) الذاريات: آية ٥٥.

(٣) نهج البلاغة: خطبة ١٠٥.

(ط) حبّ الدنيا

حبّ الدنيا مانع آخر يصطف إلى جوار موانع المعرفة المتقدمة الذكر وآفاتهما، وذلك بلحاظ الآثار الناجمة عما يحمله القلب في طياته من تعلق بالدنيا وميل شديد لها.

روي عن الإمام الحسين عليه السلام قوله:

يَا أَهْلَ لَذَّةِ دُنْيَا لَا بَقَاءَ لَهَا إِنَّ اغْتِرَارًا بِظُلِّ زَائِلٍ مُهْمَقٌ^(١)

وهذا البيت الشعري ينبه إلى أن الافتتان بالدنيا والوقوع بشراكها من علائم الحماقة والخرق، وعلى الإنسان أن يحذر من إغراءاتها.

ذكر الخوارزمي في (مقتل الحسين):

«ثُمَّ إِنَّهُ عليه السلام دَعَا النَّاسَ إِلَى الْبِرَازِ، فَلَمْ يَزَلْ يَقْتُلُ كُلَّ مَنْ دَنَا إِلَيْهِ مِنْ عِيُونِ الرَّجَالِ، حَتَّى قَتَلَ مِنْهُمْ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً، فَحَالُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَحْلِهِ، فَصَاحَ بِهِمْ: وَيَحْكُمُ يَا شَيْعَةَ آلِ أَبِي سُفْيَانَ، إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ دِينٌ وَكُنْتُمْ لَا تَخَافُونَ الْمَعَادَ فَكُونُوا أَحْرَارًا فِي دُنْيَاكُمْ هَذِهِ، وَارْجِعُوا إِلَى أَحْسَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ عُرَبًا كَمَا تَزْعُمُونَ.

فَنَادَاهُ شِمْرٌ: مَا تَقُولُ يَا حُسَيْنُ؟ فَقَالَ: أَقُولُ: أَنَا الَّذِي أَقَاتِلُكُمْ وَتَقَاتِلُونِي، وَالنِّسَاءَ لَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ، فَاْمْنَعُوا عُنَاتِكُمْ وَطُعَاتِكُمْ وَجَهَالِكُمْ عَنِ التَّعَرُّضِ لِحَرَمِي مَا دُمْتُ حَيًّا. فَقَالَ لَهُ شِمْرٌ: لَكَ ذَلِكَ يَا بَنَ فَاطِمَةَ، ثُمَّ صَاحَ شِمْرٌ بِأَصْحَابِهِ: إِلَيْكُمْ عَنْ حَرَمِ الرَّجُلِ، وَأَفْصِدُوهُ بِنَفْسِهِ، فَلَعَمْرِي هُوَ كُفُوٌ كَرِيمٌ»^(٢).

(١) ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب عليهم السلام: ج ٤، ص ٦٩.

(٢) أخطب خوارزم، الموفق بن أحمد، مقتل الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ٣٨.

من مضمون خطاب الإمام عليه السلام لشيعة آل أبي سفيان يتضح أنّ جيش عمر بن سعد نتيجة لتعلقهم بالدنيا أعرضوا عن القيم الدينية بل وعن الأعراف الإنسانية أيضاً، فتعرضوا للنواميس الإلهية بسعيهم لقتل إمامهم المفترض عليهم طاعته، ويعدّ عمر بن سعد النموذج الأبرز لهذه الحقيقة.

قال سبحانه وتعالى:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^(١).

قال الإمام علي عليه السلام:

«فَارْفُضِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ حُبَّ الدُّنْيَا يُعْمِي وَيُصِمُّ وَيُبْكِمُ وَيُذِلُّ الرَّقَابَ، فَتَدَارِكُ مَا بَقِيَ مِنْ عُمْرِكَ، وَلَا تَقُلْ غَدًا أَوْ بَعْدَ غَدٍ؛ فَإِنَّهَا هَلَكٌ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ بِإِقَامَتِهِمْ عَلَى الْأَمَانِيِّ وَالتَّسْوِيفِ»^(٢).

(١) النحل: آية ١٠٧-١٠٨.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ١٣٦، حديث ٢٣.



العاشر: الموانع النظرية للمعرفة

أ) إمكان معرفة الحق

من الأبحاث التي تحتل مكانة خاصة بين موضوعات نظرية المعرفة ومسائلها، الوقوف على قضية معرفة الحق أهي ممكنة أم لا؟ حيث تشكل هذه المسألة البنية التحتية للتعددية الفكرية والمهرمنيوطيقا، والذين تبّوا هذين المبنيين ينكرون إمكان الوصول إلى الحق المطلق، وهذا ما جعلنا نخصص لها بحثاً مستقلاً.

العلامة الجعفري التبريزي تناول بدوره موضوع «معرفة الحق والباطل» في كتابه (المعرفة) وكان ممّا بيّنه:

«إنّ معرفة الحق والباطل والتمييز فيما بينهما تعدّ مسألة حياتية، ومن دونها لا يمكن لأيّ إنسان أو فئة أو أمة ادّعاء الإنسانية.

لقد بلغت مسألة معرفة الحق والباطل والتفكيك بينهما درجة من الضرورة أن أصبحت كالقانون بالنسبة للحياة، ولربما يقال: إنّ الحياة والقانون من المفاهيم العامة التي ينبغي أن تتبيّن معالمها في الدراسات العلمية بأيّ صورة مناسبة، وهذا ما أوجب أن يلحظ معنى محددًا لهذين المفهومين حتّى تصبح نتيجة البحث أكثر وضوحاً. بشكل عام إنّ حياة الإنسان ظاهرة خاصّة لا يمكن أن يكون لكل شيء فيها تأثير إيجابي وفي شتى الظروف والأوضاع، فبعض الأشياء ذات تأثير إيجابي وبعضها ذات تأثير سلبي، وهناك أشياء على الحياد، بناءً عليه، يمكن وضع ما يواجهه ابن آدم خلال حياته من الظواهر على ثلاثة أنواع:

الأول: الظواهر الإيجابية، بلحاظ بعده الجسماني، مثل: المأكولات والمشروبات والملبس والمسكن، ووسائل الصحة. وبلحاظ بعده المعنوي، مثل: الحقائق الذهنية والنفسية، كالعلم والتفكير وتنظيم الرغبات والإرادة والتعقل.

الثاني: الظواهر السلبية، وتشمل كل ما يتسبب بالأذى لبعده الجسماني كالأمراض، أو بعده الذهني والنفسي كالانحراف الفكري والاضطرابات في الإرادة والجهل والحماسة وفقدان الشخصية ...

الثالث: الظواهر المحايدة، وهي عبارة عن حقائق الحياة التي لا تتوقف عجلة الحياة بفقدانها، كالحالات إلى الفضاء نحو أحد كواكبه، إذ الغاية منه لا تعدو عن إشباع حب الاستطلاع، ومتى ما اتضح الأمر لا تثمر أي نتيجة ملموسة في الحياة.

بالطبع إننا نعلم أنّ كل واحدة من هذه الظواهر الثلاث حقائق ووقائع نسبية لم تكن مطلقة في يوم من الأيام ولا لأيّ أحد. والآن لو أردنا أن نعلم ما هو الحق والباطل بشأن هذه الظواهر الثلاث، وكيف نميّز بينها علينا أن نضع نصب أعيننا الضابطة القائلة: الحق أنّ كل حادثة يمكن تصورها في الحياة الفردية أو الاجتماعية، تنقسم الظواهر الطبيعية والإنسانية بالنسبة إليها بحسب الأنواع الثلاثة الأنفة الذكر، أي إذا قلنا: (إنّ جميع الظواهر الطبيعية والإنسانية إيجابية بالنسبة للحياة في ظرف معيّن) كان كلامنا فارغاً، وهكذا لو قلنا: (جميع تلك الظواهر سلبية للحياة في ذلك الظرف) فهو باطل حتماً، ولا يختلف الأمر لو قلنا: (الظواهر المحايدة لها دخالة إيجابية أو سلبية في الحياة) فهذا مطلب باطل أيضاً. وبالنظر لما تقدّم يصبح جعل كل نوع من الظواهر الثلاث في موضعه المنطقي حق، وهناك معنى آخر للحق أكثر وضوحاً وموضوعية قياساً بمعناه الأولي هذا، وذلك المعنى هو: أنّ كل ظاهرة ذات أثر إيجابي بالنسبة للـ(حياة المعقولة) حق، وهذا يعني أنّ الحق هو الضروري واللائق الذي يكون مفيداً للـ(حياة المعقولة) في جميع أبعادها. مع تعريفنا هذا للحق لا يبقى للظواهر المحايدة في بعض المواقف من (الحياة المعقولة) أثر إيجابي، فهي لا حقّة ولا باطلة، وإنّما أحقيتها وبطلانها يعود إلى الباعث والهدف الذي يرومه الإنسان من وراء الارتباط بتلك الظاهرة.

عند التدقيق في هذه المقدمة المختصرة، يتضح أنّ مسألة معرفة الحق والباطل والتمييز بينهما مسألة نسبية تماماً ومعقدة ومبهما جداً. بيد أنّه في الوقت ذاته لا يمكن ترك (الحياة المعقولة) وسط إبهامات النسبية وتعقيداتهما؛ لأنّ كل لحظة من حياة ابن آدم تمثل ظاهرة محددة ومجسدة يجب أن تمر عبر مسير معيّن بصورة كاملة. في الواقع يحاول البشر بشكل جدّي تحديد الحق والباطل في كل عصر، ولكنه يواجه عدم قابلية إدراك مصادر الحق والباطل وجذورهما بشكل كامل دون إرشاد وتوجيه من قبل الخبراء في الأنتروبولوجيا والرؤية الكونية، وهذا ما جعل حياة ابن آدم تمر اضطراباً وبلا وعي من مسير يحفّه غموض الحق والباطل بما يؤمن له موافقة لا أساس لها.

والله ذارئ الوجود قد حدد مصدرين لمعرفة الحق والباطل من أجل تأمين (الحياة المعقولة) للبشرية وهما:

الأول: الآيات الإلهية التي تمّ إبلاغ الناس بها بواسطة القادة الإلهيين... هذه الآيات الإلهية هي الفارق والمائز بين الحق والباطل. تلکم الآيات من إله هو خالق مصادر الحق والباطل (النور والظلمة) ومناشئها. واصطلاح الفرقان الذي أطلق على القرآن والكتب السماوية الأخرى، مثل: صحف إبراهيم، وتوراة موسى، وإنجيل عيسى عليه السلام يعود لهذا السبب، وهو اشتغالها على التعريف بالحق والباطل والتمييز بينهما بالمشيئة الإلهية.

الثاني: الوجدان والعقل الفطري والنتاج البشري الذي كان وليد البحث والسعي الجاد من أجل معرفة الحق والباطل وتمييزهما عن بعضهما البعض وصولاً للنتيجة المنشودة»^(١).

(١) الجعفري التبريزي، محمد تقي، معرفت شناسي (نظرية المعرفة): ص ٥٠٦-٥٠٨.

علامه الحقيقة

خاطب الإمام الحسين عليه السلام عتبة قائلاً:

«يَا عُتْبَةُ، قَدْ عَلِمْتَ أَنَا أَهْلُ بَيْتِ الْكَرَامَةِ، وَمَعْدِنُ الرَّسَالَةِ، وَأَعْلَامُ الْحَقِّ الَّذِي أَوْدَعَهُ اللَّهُ عز وجل قُلُوبَنَا، وَأَنْطَقَ بِهِ أَلْسِنَتَنَا، فَنَطَقْتُ بِإِذْنِ اللَّهِ عز وجل، وَلَقَدْ سَمِعْتُ جَدِّي رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ: (إِنَّ الْخِلَافَةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى وُلْدِ أَبِي سُفْيَانَ)، وَكَيْفَ أُبَايِعُ أَهْلَ بَيْتِ قَدْ قَالَ فِيهِمْ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله هَذَا؟!»^(١).

«أعلام» جمع «علم» بمعنى العلامة، وبإضافتها لكلمة «الحق» يستتج أن الحق له علائم.

روي عن الإمام الحسين عليه السلام قوله متضرعاً إلى الله سبحانه:

«وَأَنْتَ الَّذِي هَدَيْتَهُمْ حَيْثُ اسْتَبَانَتْ لَهُمُ الْمَعَالِمُ»^(٢).

و«معالم» جمع «معلم» ويعني العلامة، ويستدل من مضمون قول الإمام عليه السلام أن هناك علامات لبلوغ الحقيقة.

قال تعالى:

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٣).

قال الإمام علي عليه السلام:

«فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْضَحَ لَكُمْ سَبِيلَ الْحَقِّ وَأَنَارَ طُرُقَهُ»^(٤).

تظهر علامات الحقيقة لبعض الأفراد أحياناً

كذلك يتبين من الحديث السابق للإمام الحسين عليه السلام أن علامات الحق وعلائمه الحقيقة واضحة لأولياء الله وأحبابه.

(١) ابن بابويه، محمد بن علي، الأمالي: ص ٢١٦.

(٢) ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال: ج ١، ص ٣٤٩.

(٣) النور: آية ٤٦.

(٤) نهج البلاغة: خطبة ١٥٧.

قال الإمام علي عليه السلام:

«إِنَّ مِنْ أَحَبِّ عِبَادِ اللَّهِ إِلَيْهِ عَبْدًا أَعَانَهُ اللَّهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَاسْتَشَعَرَ الْحُزْنَ وَتَجَلَّبَبَ الْخَوْفَ، فَزَهَرَ مُصْبَاحُ الْهُدَى فِي قَلْبِهِ... قَدْ أَبْصَرَ طَرِيقَهُ، وَسَلَكَ سَبِيلَهُ، وَعَرَفَ مَنَارَهُ، وَقَطَعَ غِمَارَهُ، وَاسْتَمْسَكَ مِنَ الْعُرَى بِأَوْثِقِهَا، وَمِنَ الْحَبَالِ بِأَمْتِنِهَا، فَهُوَ مِنَ الْيَقِينِ عَلَى مِثْلِ ضَوْءِ الشَّمْسِ»^(١).

عدم ردّ قول الحق

روي عن الإمام الحسين عليه السلام قوله في دعاء المظلوم متضرعاً إلى الله سبحانه: «فَإِنَّكَ قُلْتَ وَقَوْلُكَ الْحَقُّ الَّذِي لَا يُرَدُّ»^(٢).

من الصفة والموصوف يتحصل أنّ الحق وما ابتنى عليه من الأقوال لا ترد. قال تبارك وتعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَحْيَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ إِنَّكَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ الْنَهْيَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ، فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ﴾^(٣).

عدم تبدل الحق والحقيقة

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال في دعاء المظلوم: «فَإِنَّكَ قُلْتَ وَقَوْلُكَ الْحَقُّ الَّذِي لَا يُرَدُّ وَلَا يُبَدَّلُ»^(٤).

يستفاد من الصفة والموصوف أنّ الحق غير قابل للتبديل والتغيير عما هو عليه أبداً.

(١) المصدر السابق: خطبة ٨٧.

(٢) ابن طاووس، علي بن موسى، مهج الدعوات ومنهج العبادات: ص ٢٦٩.

(٣) المائدة: آية ١١٦.

(٤) ابن طاووس، علي بن موسى، مهج الدعوات ومنهج العبادات: ص ٢٦٩.

يقول تبارك وتعالى:

﴿وَمَتَّ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَتِهِ ۗ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١).

نور الحق لا تطفئه ظلمات الكفر

روي عن الإمام الحسين عليه السلام قوله في دعاء الاستجابة مخاطباً رب العزة والجلالة:
 «وَأَطْفَأَتْ نَارَ نُمْرُودَ عَن خَلِيلِكَ إِبرَاهِيمَ فَجَعَلْتَهَا بَرْدًا وَسَلَامًا»^(٢).
 المعنى المستفاد من هذه الجملة أن نار الكفر والكافر لا يمكنها أن تطفئ نور الحق وصاحبه وأن تنال منه.

قال عز وجل:

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُنِيرٌ نُّورِهِ ۖ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(٣).

ضرورة الصبر والثبات على الحق

نقل أبو حمزة عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:
 «لَمَّا حَضَرَتْ أَبِي عَلِيٍّ بَنَ الْحُسَيْنِ عليه السلام الْوَفَاةُ ضَمَّنِي إِلَى صَدْرِهِ وَقَالَ: يَا بُنَيَّ،
 أَوْصِيكَ بِمَا أَوْصَانِي بِهِ أَبِي حِينَ حَضَرْتَهُ الْوَفَاةُ، وَبِمَا ذَكَرَ أَنَّ أَبَاهُ أَوْصَاهُ بِهِ: (يَا بُنَيَّ،
 اصْبِرْ عَلَى الْحَقِّ وَإِنْ كَانَ مُرًّا)»^(٤).

فيتضح من كلام الإمام عليه السلام أن على الإنسان الثبات على الحق والصبر عليه.

يقول سبحانه وتعالى:

﴿وَأَسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتُ﴾^(٥).

(١) الأنعام: آية ١١٥.

(٢) ابن طاووس، علي بن موسى، جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: ص ٢٧١.

(٣) الصف: آية ٨.

(٤) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٩١، حديث ١٣.

(٥) الشورى: آية ١٥.

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله:

«وَعَوِّدْ نَفْسَكَ [الصَّبْرَ] التَّصَبُّرَ عَلَى المَكْرُوهِ، وَنِعْمَ الخُلُقُ التَّصَبُّرُ فِي الحَقِّ»^(١).

مِظَانُ الحَقِّ

نقل ابن قتيبة:

«قَالَ الحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ عِنْدَ قَبْرِ أَخِيهِ الحَسَنِ: رَحِمَكَ اللهُ أَبَا مُحَمَّدٍ، إِنْ كُنْتَ لَتَبَاصِرُ الحَقِّ مِظَانَهُ، وَتُوَثِّرُ اللهُ عِنْدَ مَدَاحِصِ البَاطِلِ فِي مَوَاطِنِ التَّقِيَّةِ بِحُسْنِ الرِّوَايَةِ، وَتَسْتَشْفُ جَلِيلَ مَعَاظِمِ الدُّنْيَا بَعِيْنَ لَهَا حَاقِرَةَ، وَتُفِيضُ عَلَيْهَا يَدًا طَاهِرَةً الأَطْرَافِ، نَفِيَّةَ الأَسْرَةِ، وَتَرْدَعُ بَادِرَةَ غَرْبِ أَعْدَائِكَ بِأَيْسَرِ المُوَاوَنَةِ عَلَيْكَ، وَلَا غَرْوَ وَأَنْتَ ابْنُ سَلَالَةِ النُّبُوَّةِ وَرَضِيْعِ لِبَانِ الحِكْمَةِ، فَإِلَى رُوحِ وَرِيحَانِ وَجَنَّةِ نَعِيمٍ، أَعْظَمَ اللهُ لَنَا وَلَكُمْ الأَجْرَ عَلَيْهِ، وَوَهَبَ لَنَا وَلَكُمْ السَّلْوَةَ وَحُسْنَ الأَسَى عَنْهُ»^(٢).

يتأتى من مضمون الجملة الأولى أنّ للحق مِظَانًا ينبغي البحث فيها عنه، إذ الناس لديهم ظن بالحق، ويمكن أن يكون المقصود من (مِظَانُ الحَقِّ) مواضع العلم بالحق؛ لأنّ الظن يستخدم أحياناً بمعنى العلم.

وذكر ابن الأثير في «النهاية» حول تفسير كلمة «مِظَانُ»:

«فيه (خير الناس رجل يطلب الموت مِظَانَهُ)، أي معدنه ومكانه المعروف به الذي إذا طلب وجد فيه، واحدهما: مِظَنَةٌ، بالكسر، وهي مفعلة من الظن، أي الموضع الذي يظن به الشيء.»

ويجوز أن يكون من الظن بمعنى العلم، والميم زائدة.

ومنه الحديث (طلبت الدنيا مِظَانُ حلالها)، أي المواضع التي أعلم فيها

الحلال»^(٣).

(١) نهج البلاغة: رسالة ٣١.

(٢) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، عيون الأخبار: ج ٢، ص ٣٣٨-٣٣٩.

(٣) ابن الأثير، المبارك بن محمد، النهاية في غريب الحديث والأثر: ج ٤، ص ٣٤٠-٣٤١.

ضرورة متابعة الحق في مظانه

مما يتبين من مضمون الجملة الأولى في حديث الإمام الحسين عليه السلام أيضاً أن على الإنسان البحث عن الحق والتبصر به في مظانه.

روي عن الإمام الكاظم عليه السلام أنه قال لأحد أشياعه:
 «أَيُّ فُلَانٌ، اتَّقِ اللَّهَ وَقُلِ الْحَقَّ وَإِنْ كَانَ فِيهِ هَلَاكُكَ، فَإِنَّ فِيهِ نَجَاتَكَ. أَيُّ فُلَانٌ، اتَّقِ اللَّهَ وَدَعِ الْبَاطِلَ وَإِنْ كَانَ فِيهِ نَجَاتُكَ، فَإِنَّ فِيهِ هَلَاكُكَ»^(١).

وجوب توظيف الفكر للخلاص من الباطل

عند ملاحظة مضمون الجملة الثانية من الحديث المتقدم للإمام الحسين عليه السلام نستنتج أن على الإنسان عند الابتلاء بموارد التقية أن يوظف فكره ويعمل عقله لئلا يقع بحبائل الباطل وينجو من عواقبه.

قال الإمام علي عليه السلام:
 «إِذَا قَدَّمْتَ الْفِكْرَ فِي أَعْمَالِكَ حَسَنْتَ عَوَاقِبَكَ وَفَعَالِكَ»^(٢).

عوامل هزيمة الحق

عن سليم بن قيس الهلالي قال: خطب الإمام الحسين عليه السلام في أرض منى موجهاً خطابه لبني هاشم والنخبة من المجتمع قائلاً:

«وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكُمْ عَنْ شَيْءٍ، فَإِنْ صَدَقْتُ فَصَدِّقُونِي وَإِنْ كَذَبْتُ فَكَذِّبُونِي. أَسْأَلُكُمْ بِحَقِّ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَحَقِّ رَسُولِ اللَّهِ وَحَقِّ قَرَابَتِي مِنْ نَبِيِّكُمْ، لَمَّا سِيرْتُمْ [سَرْتُمْ] مَقَامِي هَذَا وَوَصَفْتُمْ مَقَالَتِي وَدَعَوْتُمْ أَجْمَعِينَ فِي أَنْصَارِكُمْ مِنْ قِبَائِلِكُمْ مَنْ أَمِنْتُمْ مِنَ النَّاسِ وَوَثِقْتُمْ بِهِ، فَادْعُوهُمْ إِلَى مَا تَعْلَمُونَ مِنْ حَقَّتْنَا، فَإِنِّي أَخْشَوْ أَنْ يَدْرُسَ هَذَا الْأَمْرُ

(١) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٤٠٨.

(٢) الأمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٢٨٨، حديث ١٣١.

وَيَذْهَبَ الْحَقُّ وَيُغْلَبَ ﴿وَاللَّهُ مِتُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

وَمَا تَرَكَ شَيْئاً مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا تَلَاهُ وَفَسَّرَهُ، وَلَا شَيْئاً مِمَّا قَالَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَبِيهِ وَأَخِيهِ وَأُمِّهِ وَفِي نَفْسِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ إِلَّا رَوَاهُ، وَكُلَّ ذَلِكَ يَقُولُ الصَّحَابَةُ: اللَّهُمَّ نَعَمْ قَدْ سَمِعْنَا وَشَهِدْنَا، وَيَقُولُ التَّابِعِيُّ: اللَّهُمَّ قَدْ حَدَّثَنِي بِهِ مَنْ أَصَدَّقُهُ وَأَتَمَّنِيهِ مِنَ الصَّحَابَةِ. فَقَالَ: أَنْشُدْكُمْ اللَّهَ إِلَّا حَدَّثْتُمْ بِهِ مَنْ تَثْقُونَ بِهِ وَبِدِينِهِ»^(١).

المتحصل عند التأمل في كلام الإمام عليه السلام أن الطغاة متى ما تسلطوا على مقدرات المجتمع الإسلامي غلب الحق وقهر وضاع.

قال الإمام علي عليه السلام مخاطباً أهل الكوفة:

«أُنْبِتُ بُسْرًا قَدْ أَطْلَعَ الْيَمْنَ، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَظُنُّ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ سَيُدَلُّونَ مِنْكُمْ بِاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ، وَبِمَعَصِيَتِكُمْ إِمَامَكُمْ فِي الْحَقِّ، وَطَاعَتِهِمْ إِمَامَتِهِمْ فِي الْبَاطِلِ، وَبَادَائِهِمْ الْأَمَانَةَ إِلَى صَاحِبِهِمْ وَخِيَانَتِكُمْ، وَبِصَلَاحِهِمْ فِي بِلَادِهِمْ وَفَسَادِكُمْ، فَلَوْ ائْتَمَنْتُمْ أَحَدَكُمْ عَلَى قَعْبٍ لَخَشِيتُ أَنْ يَذْهَبَ بِعِلَاقَتِهِ. اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلَيْتُهُمْ وَمَلُونِي، وَسَمَّيْتُهُمْ وَسَمَّيْتُونِي، فَأَبْدَلْنِي بِهِمْ خَيْرًا مِنْهُمْ، وَأَبْدِلْهُمْ بِي شَرًّا مِنِّي. اللَّهُمَّ مِتْ قُلُوبُهُمْ كَمَا يَمُوتُ الْمَلْحُ فِي الْمَاءِ»^(٢).

وجوب الاتفاق على الحق

روي عن الإمام الحسين عليه السلام قوله في إحدى خطبه:

«بِحَاثِي الْأُمُورِ وَالْأَحْكَامِ عَلَى أَيْدِي الْعُلَمَاءِ بِاللَّهِ الْأَمْنَاءِ عَلَى حَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، فَأَنْتُمْ الْمَسْلُوبُونَ تِلْكَ الْمَنْزِلَةَ، وَمَا سُلِبْتُمْ ذَلِكَ إِلَّا بِتَفَرُّقِكُمْ عَنِ الْحَقِّ وَاخْتِلَافِكُمْ فِي السُّنَّةِ بَعْدَ الْبَيِّنَةِ الْوَاضِحَةِ»^(٣).

(١) الهالبي، سليم بن قيس، كتاب سليم بن قيس الهالبي: ج ٢، ص ٧٨٩-٧٩٠.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ٢٥.

(٣) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٣٨.

يتضح ضمناً أن العلماء بالله عز وجل تتفق آراؤهم ووجهات نظرهم بالنسبة للحق وتمحور حوله.

قال الإمام علي عليه السلام:

«إِنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ كَانَ الْعَمَلُ بِالْحَقِّ أَحَبَّ إِلَيْهِ، وَإِنْ نَقَصَهُ وَكَرَّهَهُ مِنَ الْبَاطِلِ، وَإِنْ جَرَّ إِلَيْهِ فَائِدَةً وَزَادَهُ»^(١).

وجوب اتباع الحق

نقل الحلواني:

«قِيلَ: وَتَذَاكُرُوا الْعَقْلَ عِنْدَ مُعَاوِيَةَ فَقَالَ الْإِمَامُ الشَّهِيدُ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَا يَكْمُلُ [الْعَقْلُ] إِلَّا بِاتِّبَاعِ الْحَقِّ.

فَتَبَسَّمَ مُعَاوِيَةَ [لَهُ]، وَقَالَ: مَا فِي صُدُورِكُمْ إِلَّا شَيْءٌ وَاحِدٌ»^(٢).

يستنتج من كلام الإمام ضمناً ضرورة ووجوب اتباع الحق ولزومه.

عن رسول الله ﷺ قال:

«اقْبَلِ الْحَقَّ مِمَّنْ آتَاكَ بِهِ مِنْ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ وَإِنْ كَانَ بَغِيضاً أَوْ بَعِيداً، وَارْذُدِ الْبَاطِلَ عَلَى مَنْ جَاءَ بِهِ مِنْ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ وَإِنْ كَانَ حَبِيباً قَرِيباً»^(٣).

لزوم دعوة الضال إلى معرفة الحق

يقول زيد بن علي بن الحسين عليه السلام:

«قَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَنْ دَعَا عَبْدًا مِنْ ضَلَالَةٍ إِلَى مَعْرِفَةِ حَقِّ فَأَجَابَهُ، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ كَعَتَقِ نَسَمَةٍ»^(٤).

(١) نهج البلاغة: خطبة ١٢٥.

(٢) الحلواني، الحسين بن محمد، نزهة الناظر وتنبية الخاطر: ص ٨٣، حديث ١٢.

(٣) الديلمي، شيرويه بن شهردار، الفردوس بمأثور الخطاب: ج ١، ص ٤٣٣، حديث ١٧٦٢.

(٤) البغدادي، عبد العزيز بن إسحاق، مسند الإمام زيد: ص ٣٤٨.

يتحصل من مضمون الجملة الشرطية وجوب دعوة الأشخاص الضالين إلى معرفة الحق ولزومها، ولا ينبغي إجبار أحد على قبوله.

قال الديلمي في (إرشاد القلوب):

«وَرُوِيَ: أَنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَرَجَ مُصْحِرًا مُنْفَرِدًا، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: يَا دَاوُدُ، مَا لِي أَرَاكَ وَحَدَانِيًّا؟ فَقَالَ: إِلَهِي اشْتَدَّ الشُّوقُ مِنِّي إِلَى لِقَائِكَ، فَحَالَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ خَلْقُكَ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَإِنَّكَ إِنْ تَأْتِنِي بِعَبْدٍ أَبَقِ أُثْبِتَكَ فِي اللُّوحِ جَمِيلًا»^(١).

تأثير معرفة الحق في قبوله

يتحصل كذلك من مضمون الجملة الشرطية التي وردت في الحديث السابق للإمام الحسين عليه السلام أن معرفة الحق دوراً وتأثيراً في تقبله.

نقل أبو بكر الهذلي:

«دَخَلَ الْحَارِثُ بْنُ حَوْطِ اللَّيْثِيِّ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا أَرَى طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ وَعَائِشَةَ احْتَجُّوا إِلَّا عَلَى حَقٍّ، فَقَالَ: يَا حَارِثُ، إِنَّكَ إِنْ نَظَرْتَ مَحْتَكَ وَلَمْ تَنْظُرْ فَوْقَكَ جُرْتَ عَنِ الْحَقِّ، إِنَّ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ لَا يُعْرِفَانِ بِالنَّاسِ، وَلَكِنْ اعْرِفِ الْحَقَّ بِاتِّبَاعِ مَنْ اتَّبَعَهُ، وَالْبَاطِلَ بِاجْتِنَابِ مَنْ اجْتَنَبَهُ»^(٢).

قبح الإكراه في قبول الحق

من خلال التأمل في حديث الإمام الحسين عليه السلام وملاحظة الفعل «دعا» ننتهي إلى نتيجة مفادها أن على علماء الدين أن لا يجبروا أحداً على معرفة الحق؛ وذلك لأن وظيفتهم محض الدعوة للحق لا غير.

(١) الديلمي، الحسن بن محمد، إرشاد القلوب: ج ١، ص ١٧١.

(٢) الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي: ص ١٣٤، حديث ٢١٦.

قال تبارك وتعالى:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ بَيَّنَّ الرُّشْدَ مِنَ الْغَيِّ﴾^(١).

إمكان معرفة الحق وبلوغه

كذلك يستفاد من مضمون الحديث السابق للإمام الحسين عليه السلام إمكان معرفة الحق وامتلاك الإنسان القدرة على الوصول إليه.

ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«فَلَا تَنْفَرُوا مِنَ الْحَقِّ نِفَارَ الصَّحِيحِ مِنَ الْأَجْرَبِ، وَالْبَارِي مِنْ ذِي السَّقَمِ،
وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَعْرِفُوا الرُّشْدَ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي تَرَكَهُ»^(٢).

وبهذا الصدد فصل عبّاس علي عميد الزنجاني الكلام، وفيه قال:

«بعدما اعترفنا بحكم الفطرة والمنطق الضروري بوجود حقائق خارج فكرنا
ينقدح السؤال الثاني وهو: هل هناك طريق سديد مرضي لمعرفة تلك الحقائق أو أنّ
البشرية تعيش في عالم من الوهم والخيال والجهل إزاءها وما يدركه يكون بمنأى عن
الحقائق العينية والواقع الخارجي؟»

وللإجابة عن هذا السؤال أيضاً ذهب جماعة من المفكرين (الفسطائيين) بحجة
ما يشاهدونه من التردد والحيرة الناشئة من التعارض الموجود بين الأفكار العلمية
والاستدلالات المنطقية والاستنتاجات الفكرية إلى القول بالانقطاع بين الفكر الإنساني
وعالم الخارج وانسداده، وافترضوا عالم الذهن وعالم الخارج مرحلتين متباينتين.

في الردّ على هذا الرأي أيضاً يجب التذكير بنقطة متفق عليها فلم يقع فيها ريب أو
شك، وهي أنّ اكتشاف الاختلاف والخطأ يشتمل أساساً على التصديق ضمناً بإمكان

(١) البقرة: آية ٢٥٦.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ١٤٧.

الوصول للواقع - ولو بحقيقة الاختلاف والخطأ هذه - وبالاعتراف بهذه الحقيقة الجزئية تُعلم قيمة جزء مما احتوته من معلومات وإدراكات حسية وعقلية.

علاوة على أنه لا ينكر أحد عدم وجود أيّ مفكر يسمح للشك والتردد بأن ينفذ إلى نفسه في الأمور المحسوسة والبدئية، ومنها أصل الاعتراف بالواقع الذي شئنا أم أبينا يحتم علينا أن نتقبل وجود الارتباط بين الحقيقة والواقع والذهن والخارج باعتباره حقيقة أخرى.

إضافة إلى ما أشرنا إليه من أنّ اختلاف وجهات نظر وآراء البشر بخصوص الكثير من الموجودات والحقائق الخارجية يرجع إلى الكيفيات والخصوصيات المكتنفة لها لا إلى نفس وجودها وتحققها الخارجي.

وهكذا في جميع الحالات التي نسب فيها الخطأ للحواس، إذ الخطأ لم يقع في الحس وإنما يقع الاختلاف والخطأ في كيفية المحسوس بعد افتراضه.

وفي بعض الموارد يعود الخطأ إلى حكم الذهن وتشخيصه، فالإنسان بعدما يدرك موجوداً خارجياً عن طريق حواسه يحكم عليه من خلال صورة غير صورته الموجودة خطأ فيعتقدها حقيقة أخرى، كمن يرى سراياً من بعيد يحكم بأن ما يراه ماء بدل أن يحكم عليه بأنه سراب.

وفي بعض الحالات أيضاً لا يقع الخطأ أساساً في كيفيات الوجود الخارجي ولا في الحكم عليها وإنما ينشأ الخطأ من إيكال مهمة تتعلق بحاسة ما إلى قوة حسية أخرى. طبقاً لهذا التوضيح الإجمالي عندما تكون الحقائق الواقعية الخارجة عن أذهاننا ممكنة الإدراك، فبلا شك سنتشأ المجموعة الأولى من المدركات والمفاهيم الذهنية التي يصطلح عليها في المنطق والفلسفة بالبدئيات، من خلال المعلومات التي اكتسبناها عن الأشياء الخارجية عبر حواسنا الظاهرية، وما نجده في أذهاننا بالفطرة.

هذه المدركات غير القابلة للإنكار (البدئيات) بإمكانها أن تصبح الركيزة لغيرها

من الإدراكات والأساس لمعرفة الحقائق المشكوكة والمجهولات الأخرى، وبمواصلة الإنسان المفكر سيره على هذا الطريق سيتمكن من اكتساب حقائق جديدة وواقعيات كثيرة، وبهذه الصورة سينخفض حجم مجهولاته ومشكوكاته ويزداد علمه وتتسع معلوماته، أي يوسع من مستوى ارتباطه بعالم الخارج.

وهذا النوع من التفكير والاستنتاج سيكون مصوناً حينما تكون جميع المطالب والمدركات التي تمثل المركز والأساس المعتمد سالمة من الاشتباه والخطأ ومطابقة للواقع الخارجي مائة بالمائة، إضافة إلى عدم وقوع انحراف في نمط وطريقة التفكير والاستنتاج. وهذا يفسر ما نشاهده من أخطاء واشتباها في بعض الاستنتاجات العلمية والفلسفية، وما يبيده العلماء والمفكرون من آراء ونظريات متعارضة^(١).

لزوم إجابة الدعوة بالحق

يتبين أيضاً من الثواب الذي ورد ذكره في الحديث السابق للإمام الحسين عليه السلام وجوب استجابة الضالين لدعوة الحق والالتزام بلوازم الحق بعد معرفته. يقول تبارك وتعالى:

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ السُّوءُ الْحَسَابِ وَمَأْوَنُهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ اللَّهُ لَهُمُ الْوَسِيلَ﴾^(٢).

القلب مركز التمييز بين الحق والباطل

روي أن أهل البصرة كتبوا إلى الإمام الحسين عليه السلام يسألونه عن الصمد، فكان مما كتبه إليهم:

﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ لم يتولد من شيء، ولم يخرج من شيء، كما يخرج الأشياء الكيفية

(١) عميد الزنجاني، عباس علي، بيوند مذهب وانسان (أصرة المذهب والإنسان): ص ٢٠-٢٣.

(٢) الرعد: آية ١٨.

مِنْ عَنَّا صِرْهَا، كَالشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ، وَالِدَّابَّةِ مِنَ الدَّابَّةِ، وَالنَّبَاتِ مِنَ الْأَرْضِ، وَالْمَاءِ مِنَ
الْيَنَابِعِ، وَالتَّمَارِ مِنَ الْأَشْجَارِ، وَلَا كَمَا يُخْرَجُ الْأَشْيَاءُ اللَّطِيفَةُ مِنْ مَرَازِهَا، كَالْبَصْرِ مِنَ
الْعَيْنِ، وَالسَّمْعِ مِنَ الْأُذُنِ، وَالشَّمِّ مِنَ الْأَنْفِ، وَالذُّوقِ مِنَ الْفَمِ، وَالْكَلَامِ مِنَ اللِّسَانِ،
وَالْمَعْرِفَةِ وَالتَّمْيِزِ مِنَ الْقَلْبِ، وَكَالنَّارِ مِنَ الْحَجَرِ»^(١).

حيث يتضح من عبارة «وَالْتَّمْيِزِ مِنَ الْقَلْبِ» أنّ القلب هو مركز تشخيص الحق
عن الباطل.

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه دعا الله سبحانه قائلاً:
«اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا نَابِتًا حَافِظًا [حَفِيزًا] مُنِيبًا يَعْرِفُ الْمَعْرُوفَ فَيَتَّبِعُهُ،
وَيُنْكِرُ الْمُنْكَرَ فَيَجْتَنِبُهُ، لَا فَاجِرًا وَلَا شَقِيًّا وَلَا مُرْتَابًا»^(٢).

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:
«فَبِالْعَقْلِ عَرَفَ الْعِبَادُ خَالِقَهُمْ... وَعَرَفُوا بِهِ الْحَسَنَ مِنَ الْقَبِيحِ»^(٣).
وقد تطرق القاضي سعيد القمي إلى هذا الأمر موضحاً بقوله:

«اعلم أنّ مصطلح الأخبار والمعروف عند الأبرار أنّ (القلب) هو اللطيفة الإلهية
والقوة العقلية القدسية، لكن باعتبار تطورها بالأطوار الهيولانية، وتقلبها في الصور
الجسمانية يسمّى (قلبا). ومن البين أنّ المعرفة تطلق كثيرا على إدراك الجزئيات، فعلى
هذا ف(التمييز) عبارة عن العلم بالأمور الكلية والمعقولات - وهو عندي أصحّ
التعريفات للعلم موافقا لهذا الخبر والأخبار الأخر - فالعلم هو التمييز بمعنى تمييز
متعلّقه عن الغير فهو يتوقّف على الغير وإن كان بحسب الوجود العقلي»^(٤).

(١) ابن بابويه، محمد بن علي، التوحيد: ص ٩٠-٩١، حديث ٥.
(٢) ابن طاووس، علي بن موسى، مهج الدعوات ومنهج العبادات: ص ٩٩.
(٣) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٢٩، حديث ٣٥.
(٤) القاضي سعيد القمي، محمد سعيد بن محمد مفيد، شرح توحيد الصدوق: ج ٢، ص ٧٨-٧٩.

تجلي القول بالحق من صاحب الحق

ذكر ابن أعثم في (الفتوح):

«وَأَصْبَحَ الْحُسَيْنُ مِنَ الْعَدِ خَرَجَ مِنْ مَنْزِلِهِ لِيَسْتَمَعَ الْأَخْبَارَ، فَإِذَا هُوَ بِمَرَوَانَ بْنِ الْحَكَمِ قَدْ عَارَضَهُ فِي طَرِيقِهِ، فَقَالَ: أَبَا عَبْدِ اللَّهِ إِنِّي لَكَ نَاصِحٌ فَأَطِئْنِي تُرْشِدَ وَتُسَدِّدُ. فَقَالَ الْحُسَيْنُ: وَمَا ذَلِكَ؟ قُلْ حَتَّى أَسْمَعَ. فَقَالَ مَرَوَانُ: أَقُولُ إِنِّي أَمْرُكَ بِبَيْعَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدَ؛ فَإِنَّهُ خَوْلُكَ فِي دِينِكَ وَدُنْيَاكَ.

قَالَ: فَاسْتَرْجَعَ الْحُسَيْنُ، وَقَالَ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، وَعَلَى الْإِسْلَامِ السَّلَامُ، إِذْ قَدْ بُلِيَتْ الْأُمَّةُ بِرَاعٍ مِثْلِ يَزِيدَ.

ثُمَّ أَقْبَلَ الْحُسَيْنُ عَلَى مَرَوَانَ وَقَالَ: وَيْحَكَ! أَتَأْمُرُنِي بِبَيْعَةِ يَزِيدَ وَهُوَ رَجُلٌ فَاسِقٌ؟! لَقَدْ قُلْتَ شَطَطًا مِنَ الْقَوْلِ يَا عَظِيمَ الزَّلَلِ، لَا أَلُومَكَ عَلَى قَوْلِكَ؛ لِأَنَّكَ اللَّعِينُ الَّذِي لَعَنَكَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَأَنْتَ فِي صُلْبِ أَبِيكَ الْحَكَمِ بْنِ أَبِي الْعَاصِ؛ فَإِنَّ مَنْ لَعَنَهُ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لَا يُمَكِّنُ لَهُ وَلَا مِنْهُ [إِلَّا] أَنْ يَدْعُوَ إِلَى بَيْعَةِ يَزِيدَ.

ثُمَّ قَالَ: إِلَيْكَ عَنِّي يَا عَدُوَّ اللَّهِ؛ فَإِنَّا أَهْلُ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وَالْحَقُّ فِينَا، وَبِالْحَقِّ تَنْطِقُ أَلْسِنَتُنَا، وَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: (الْخِلَافَةُ مُحَرَّمَةٌ عَلَى آلِ أَبِي سُفْيَانَ وَعَلَى الطُّلُقَاءِ أَبْنَاءِ الطُّلُقَاءِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مُعَاوِيَةَ عَلَى مِنْبَرِي فَافْقُرُوا بَطْنَهُ)، فَوَاللَّهِ لَقَدْ رَأَى أَهْلُ الْمَدِينَةِ عَلَى مِنْبَرِ جَدِّي فَلَمْ يَفْعَلُوا مَا أُمِرُوا بِهِ، فَابْتَلَاهُمْ اللَّهُ بِابْنِهِ يَزِيدَ زَادَهُ اللَّهُ فِي النَّارِ عَذَابًا»^(١).

يفهم من جملة «وَالْحَقُّ فِينَا، وَبِالْحَقِّ تَنْطِقُ أَلْسِنَتُنَا» أنَّ صاحب الحق لا يقول جزافاً ولا يصدر منه غير الكلام بالحق.

(١) ابن أعثم الكوفي، أحمد، الفتوح: ج ٥، ص ١٦-١٧.

روي عن رسول الله ﷺ قوله:

«رَحِمَ اللهُ عَلِيًّا، اللَّهُمَّ أَدْرِ الْحَقَّ مَعَهُ حَيْثُ دَارَ»^(١).

لزوم إحياء معالم الحق

ذكر الدينوري في الأخبار:

«وَقَدْ كَانَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام كَتَبَ كِتَابًا إِلَى شِيعَتِهِ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ مَعَ مَوْلَى لَهُ يُسَمَّى (سَلْمَانَ)، تُسَخِّتُهُ:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ إِلَى مَالِكِ بْنِ مِسْمَعٍ، وَالْأَخْنَفِ بْنِ قَيْسٍ، وَالْمُنْذِرِ بْنِ الْجَارُودِ، وَمَسْعُودِ بْنِ عَمْرٍو، وَقَيْسِ بْنِ الْهَيْثَمِ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكُمْ إِلَى إِحْيَاءِ مَعَالِمِ الْحَقِّ وَإِمَاتَةِ الْبِدْعِ، فَإِنِ تُحِبُّوا تَهْتَدُوا سُبُلَ الرَّشَادِ، وَالسَّلَامِ»^(٢).

«معالم» جمع «معلم» بمعنى علامة العلم، ومن إضافتها إلى «الحق» يتضح أن للحق علامات يجب أن يتم إحيائها. جاء في دعاء الندبة:

«أَيُّنَ الْمُؤْمَلُ لِإِحْيَاءِ الْكِتَابِ وَحُدُودِهِ، أَيُّنَ مُحِبِّي مَعَالِمِ الدِّينِ وَأَهْلِيهِ»^(٣).

أنواع الصواب

ذكر ابن أعثم في (الفتوح):

«فَلَمَّا جَاءَ إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ عليه السلام قَالَ: يَا أَخِي، فَدَتَكَ نَفْسِي، أَنْتَ أَحَبُّ النَّاسِ

(١) الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الأوسط: ج٦، ص٩٥، حديث ٥٩٠٦.

(٢) الدينوري، أحمد بن داود، الأخبار الطوال: ص٢٣١.

(٣) ابن المشهدي، محمد بن جعفر، المزار الكبير: ص٥٧٩.

إِلَيَّ وَأَعَزُّهُمْ عَلَيَّ، وَلَسْتُ وَاللَّهِ أَدَّخِرُ النَّصِيحَةَ لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ، وَلَيْسَ أَحَدٌ أَحَقُّ بِهَا مِنْكَ، فَإِنَّكَ كَنَفْسِي وَرُوحِي وَكَبِيرُ أَهْلِ بَيْتِي وَمَنْ عَلَيْهِ اعْتِمَادِي وَطَاعَتُهُ فِي عُنُقِي؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ شَرَّفَكَ وَجَعَلَكَ مِنْ سَادَاتِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُشِيرَ عَلَيْكَ بِرَأْيِي فَأَقْبَلْهُ مِنِّي.

فَقَالَ لَهُ الْحُسَيْنُ: قُلْ مَا بَدَأَ لَكَ. فَقَالَ: أُشِيرُ عَلَيْكَ أَنْ تَنْجُو نَفْسَكَ عَنْ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ وَعَنِ الْأَمْصَارِ مَا اسْتَطَعْتَ، وَأَنْ تَبْعَثَ رُسُلَكَ إِلَى النَّاسِ وَتَدْعُوهُمْ إِلَى بَيْعَتِكَ، فَإِنِّي إِنْ بَايَعَكَ النَّاسُ وَتَابَعُوكَ حَمِدْتُ اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ، وَقُمْتَ فِيهِمْ بِمَا يَقُومُ فِيهِمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ الْمُهْدِيُّونَ مِنْ بَعْدِهِ، حَتَّى يَتَوَفَّاكَ اللَّهُ وَهُوَ عَنكَ رَاضٍ، وَالْمُؤْمِنُونَ كَذَلِكَ، كَمَا رَضُوا عَنْ أَبِيكَ وَأَخِيكَ، وَإِنْ أَجْمَعَ النَّاسُ عَلَى غَيْرِكَ حَمِدَتِ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ، وَإِنِّي خَائِفٌ عَلَيْكَ أَنْ تَدْخُلَ مِصْرًا مِنَ الْأَمْصَارِ أَوْ تَأْتِيَ جَمَاعَةً مِنَ النَّاسِ فَيَقْتَتِلُونَ فَتَكُونَ طَائِفَةً مِنْهُمْ مَعَكَ وَطَائِفَةٌ عَلَيْكَ فَتَقْتُلُ مِنْهُمْ.

فَقَالَ لَهُ الْحُسَيْنُ: يَا أَخِي، إِلَى أَيِّنَ أَذْهَبُ؟ قَالَ: أُخْرَجُ إِلَى مَكَّةَ، فَإِنْ اطْمَأَنَّتَ بِكَ الدَّارُ فَذَلِكَ الَّذِي تُحِبُّ وَأُحِبُّ، وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى خَرَجْتَ إِلَى بِلَادِ الْيَمَنِ، فَإِنَّهُمْ أَنْصَارُ جَدِّكَ وَأَخِيكَ وَأَبِيكَ، وَهُمْ أَزَافُ النَّاسِ وَأَرْقُهُمْ قُلُوبًا، وَأَوْسَعُ النَّاسِ بِلَادًا، وَأَرْجَحُهُمْ عُقُولًا، فَإِنْ اطْمَأَنَّتَ بِكَ أَرْضُ الْيَمَنِ وَإِلَّا لَحِقْتَ بِالرَّمَالِ وَشُعُوبِ الْجِبَالِ، وَصِرْتَ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ لَتَنْظُرَ مَا يُوُولُ إِلَيْهِ أَمْرُ النَّاسِ، وَيُحْكَمَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ.

فَقَالَ لَهُ الْحُسَيْنُ: يَا أَخِي، وَاللَّهِ لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا مَلْجَأٌ وَلَا مَأْوَى لَمَا بَايَعْتُ وَاللَّهِ يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ أَبَدًا، وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اللَّهُمَّ لَا تُبَارِكْ فِي يَزِيدَ).

قَالَ: فَقَطَعَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ الْكَلَامَ وَبَكَى، فَبَكَى مَعَهُ الْحُسَيْنُ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: جَزَاكَ اللَّهُ - يَا أَخِي - عَنِّي خَيْرًا، وَلَقَدْ نَصَحْتَ وَأَشْرْتَ بِالصَّوَابِ، وَأَنَا أَرْجُو أَنْ يَكُونَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ رَأْيُكَ مُوَفَّقًا مُسَدَّدًا، وَإِنِّي قَدْ عَزَمْتُ عَلَى الْخُرُوجِ إِلَى مَكَّةَ، وَقَدْ تَهَيَّأْتُ لَذَلِكَ

أَنَا وَإِخْوَتِي وَبَنُو إِخْوَتِي وَشِيعَتِي، وَأَمْرُهُمْ أَمْرِي، وَرَأْيُهُمْ رَأْيِي. وَأَمَّا أَنْتَ يَا أَخِي، فَلَا عَلَيْكَ أَنْ تُقِيمَ بِالْمَدِينَةِ فَتَكُونَ لِي عَيْنًا عَلَيْهِمْ، وَلَا تُخْفِ عَلَيَّ شَيْئًا مِنْ أُمُورِهِمْ»^(١).

بها أن الإمام عليه السلام خاطب محمد بن الحنفية بقوله: «ولقد نصحت وأشرت بالصواب...» مع أن نصيحة ابن الحنفية لإمامه لا معنى لها يتبين أن للصواب أنواعاً منها:

١- الظاهري، وهو ما كان طبق معادلات الظاهر.

٢- الواقعي، وهو ما كان على أساس معادلات الواقع.

فالإمام بهذا الكلام وبهذا التعبير حكم على ظاهر الفرد وأثنى عليه. قال الإمام زين العابدين عليه السلام:

«... وَحَقُّ النَّاصِحِ أَنْ تُلَيِّنَ لَهُ جَنَاحَكَ، وَتُصَغِّيَ إِلَيْهِ بِسَمْعِكَ، فَإِنْ أَتَى الصَّوَابَ حَمَدْتَ اللَّهَ عز وجل، وَإِنْ لَمْ يُوَافِقْ رَحْمَتَهُ، وَلَمْ تَنْهَمْهُ، وَعَلِمْتَ أَنَّهُ أَخْطَأَ، وَلَمْ تُؤَاخِذْهُ بِذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُسْتَحِقًّا لِلتَّهْمَةِ، فَلَا تَعْبَأْ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى حَالٍ»^(٢).

أولوية الله سبحانه بالحق

قال ابن أعثم في (الفتوح):

«وَصِيَّةُ الْحَسَنِ عليه السلام لِأَخِيهِ مُحَمَّدٍ عليه السلام:

فَكَتَبَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا مَا أَوْصَى بِهِ الْحَسِينُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ لِأَخِيهِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ الْمَعْرُوفِ وَوَلَدِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام:

إِنَّ الْحَسِينَ بْنَ عَلِيٍّ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، جَاءَ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِهِ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ

(١) ابن أعثم الكوفي، أحمد، الفتوح: ج ٥، ص ٢٠-٢١.

(٢) ابن بابويه، محمد بن علي، الخصال: ج ٢، ص ٥٧٠.

فِيهَا، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ، وَإِنِّي لَمْ أَخْرُجْ أَشْرًا وَلَا بَطْرًا، وَلَا مُفْسِدًا وَلَا ظَالِمًا، وَإِنَّمَا خَرَجْتُ لِطَلَبِ النَّجَاحِ وَالصَّلَاحِ فِي أُمَّةٍ جَدِّي مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أُرِيدُ أَنْ أَمُرَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَسِيرَ بِسِيرَةِ جَدِّي مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَسِيرَةَ أَبِي عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَسِيرَةَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهَدِيِّينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَمَنْ قَبِلَنِي بِقَبُولِ الْحَقِّ فَاللَّهُ أَوْلَى بِالْحَقِّ، وَمَنْ رَدَّ عَلَيَّ هَذَا أَصْبِرُ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَ الْقَوْمِ بِالْحَقِّ، وَيَحْكُمَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ، هَذِهِ وَصِيَّتِي إِلَيْكَ يَا أَخِي، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَعَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ»^(١).

يفهم من جملة «فإن الله أولى بالحق» أن الله سبحانه أليق بالحق وأولى به.

يقول تبارك وتعالى:

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُنَبِّعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ ط فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾^(٢).

ضرورة معرفة الحق لأهله

ذكر الشيخ المفيد في (الإرشاد):

«... فَلَمَّا كَانَ وَقْتُ الْعَصْرِ أَمَرَ الْحَسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَتَهَيَّؤُوا لِلرَّحِيلِ فَفَعَلُوا، ثُمَّ أَمَرَ مُنَادِيَهُ فَنَادَى بِالْعَصْرِ وَأَقَامَ، فَاسْتَقَامَ الْحَسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَصَلَّى بِالْقَوْمِ ثُمَّ سَلَّمَ وَأَنْصَرَفَ إِلَيْهِمْ بِوَجْهِهِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّكُمْ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ وَتَعَرَّفُوا الْحَقَّ لِأَهْلِهِ يَكُنْ أَرْضَى اللَّهُ عَنْكُمْ، وَتَحْنُ أَهْلُ بَيْتِ مُحَمَّدٍ، وَأَوْلَى بِوَلَايَةِ هَذَا الْأَمْرِ عَلَيْكُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُدَّعِينَ مَا لَيْسَ لَهُمْ، وَالسَّائِرِينَ فِيكُمْ بِالْجُورِ وَالْعُدْوَانِ، وَإِنْ

(١) ابن أعثم الكوفي، أحمد، الفتوح: ج ٥، ص ٢١.

(٢) يونس: آية ٣٥.

أَبَيْتُمْ إِلَّا كَرَاهِيَةً لَنَا وَالْجَهْلَ بِحَقَّتَنَا، وَكَانَ رَأْيُكُمْ الْآنَ غَيْرَ مَا أَتَيْتَنِي بِهِ كُتُبِكُمْ وَقَدِمْتُمْ بِهِ عَلَيَّ رُسُلَكُمْ، أَنْصَرَفْتُ عَنْكُمْ»^(١).

يستنتج من جملة الإمام «فَأَنَّكُمْ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ وَتَعْرِفُوا الْحَقَّ لِأَهْلِهِ» أنَّ معرفة حق الأشخاص واجبة على الجميع، كما يجب إعطاء صاحب الحق حقه، وتقف التقوى وراء هذه المعرفة.

قال الإمام علي عليه السلام:

«اعْرِفُوا الْحَقَّ لِمَنْ عَرَفَهُ لَكُمْ، صَغِيرًا كَانَ أَوْ كَبِيرًا، وَضَعِيفًا كَانَ أَوْ رَفِيعًا»^(٢).

لوازم الحق

روى الحلواني عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قد قال:
«إِصْبِرْ عَلَى مَا تَكَرَّرَ فِيهَا يَلْزِمُكَ الْحَقُّ، وَاصْبِرْ عَمَّا تُحِبُّ فِيهَا يَدْعُوكَ إِلَيْهِ الْهَوَى»^(٣).
يتبين من الجملة الأولى أنَّ للحق لوازم ينبغي الالتزام بها وإن كانت غير محبة
لنفس الإنسان، وغير مبهجة ومرضية له.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«إِصْبِرْ عَلَى الْحَقِّ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَصْبِرْ أَحَدٌ قَطُّ عَلَى الْحَقِّ إِلَّا عَوَّضَهُ اللَّهُ مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ»^(٤).

لزوم الصبر على لوازم الحق

كذلك يستنتج من وصية الإمام الأولى في الحديث السابق للإمام الحسين عليه السلام وجوب الالتزام بلوازم الحق، وإن كان فيها ما هو غير محبب للإنسان فعليه أن يكون صبوراً.

(١) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد: ج ٢، ص ٧٨-٨٠.

(٢) الآمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ١٥٧، حديث ٨٦.

(٣) الحلواني، الحسين بن محمد، نزهة الناظر وتنبية الخاطر: ص ٨٥، حديث ١٨.

(٤) ورام، مسعود بن عيسى، تنبيه الخواطر ونزهة النواظر المعروف بمجموعة ورام: ج ١، ص ١٧.

وبلسان الأنبياء ورد قوله سبحانه:

﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نَنوَكَل عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصِيرِكَ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فليَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾^(١).

حاجة الإنسان للطف الله سبحانه للتسليمه مقابل الحق

روي عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام بصدد قول الله العزيز الجبار: ﴿وَإِذْ أَخَدْنَا مِنْتَقَمِكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقِكُمْ الطُّورَ خُدُوءًا مَاءً آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَذَكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ثم تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ^(٢)، أنه قال:

«قَالَ اللَّهُ ﷻ [لَهُمْ]: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ يَعْنِي تَوَلَّى أَسْلَافِكُمْ ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ عَنِ الْقِيَامِ بِهِ، وَالْوَفَاءِ بِمَا عُوْهُدُوا عَلَيْهِ ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ يَعْنِي عَلَى أَسْلَافِكُمْ، لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِإِمْفَالِهِ إِيَّاهُمْ لِلتَّوْبَةِ، وَإِنْظَارِهِمْ لِحُجُوبِ الْخَطِيئَةِ بِالْإِنَابَةِ ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الْمَغْبُوبِينَ، قَدْ خَسِرْتُمْ الْآخِرَةَ وَالْأُولَى؛ لِأَنَّ الْآخِرَةَ [قَدْ] فَسَدَتْ عَلَيْكُمْ بِكُفْرِكُمْ، وَالْأُولَى كَانَ لَا يَحْصُلُ لَكُمْ نَعِيمُهَا لِاخْتِرَامِنَا لَكُمْ، وَتَبَقَى عَلَيْكُمْ حَسْرَاتُ نَفُوسِكُمْ وَأَمَانِيكُمْ الَّتِي قَدْ اقْتَطَعْتُمْ دُونَهَا.

وَلَكِنَّا أَمَهَلْنَاكُمْ لِلتَّوْبَةِ، وَأَنْظَرْنَاكُمْ لِلْإِنَابَةِ، أَي فَعَلْنَا ذَلِكَ بِأَسْلَافِكُمْ فَتَابَ مَنْ تَابَ مِنْهُمْ، فَسَعَدَ، وَخَرَجَ مِنْ صُلْبِهِ مَنْ قَدَّرَ أَنْ يُخْرَجَ مِنْهُ الذَّرِيَّةُ الطَّيِّبَةُ الَّتِي تَطَيَّبَ فِي الدُّنْيَا [بِاللَّهِ تَعَالَى] مَعِيشَتِهَا، وَتَشَرَّفَ فِي الْآخِرَةِ - بِطَاعَةِ اللَّهِ - مَرْتَبَتِهَا.

وَقَالَ الْحَسِينُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَمَا إِيَّاهُمْ لَوْ كَانُوا دَعَوْا اللَّهَ بِمُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ بِصِدْقٍ مِنْ نِيَّاتِهِمْ، وَصِحَّةِ اعْتِقَادِهِمْ مِنْ قُلُوبِهِمْ أَنْ يَعْصِمَهُمْ حَتَّى لَا يُعَانِدُوهُ بَعْدَ مُشَاهَدَةِ

(١) إبراهيم: آية ١٢.

(٢) البقرة: آية ٦٣-٦٤.

تِلْكَ الْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ، لَفَعَلَ ذَلِكَ بِجُودِهِ وَكَرَمِهِ، وَلَكِنَّهُمْ قَصَّرُوا، وَاتَّرَوُا الْهُوَى بِنَا وَمَضَبُوا مَعَ الْهُوَى فِي طَلَبِ لَذَائِهِمْ»^(١).

الحاصل من مضمون هذا الكلام أن الإنسان بحاجة ماسة للطف الإلهي ليعيش التسليم للحق، وهذا اللطف له أسبابه ومناشئته ومنها معاجز الأنبياء والرسل.

قال الإمام علي عليه السلام:

«الْحَقُّ كُلُّهُ ثَقِيلٌ، وَقَدْ يُحْفَفُهُ اللَّهُ عَلَى أَقْوَامٍ طَلَبُوا الْعَاقِبَةَ فَصَبَرُوا نَفْسَهُمْ، وَوَقَّعُوا بِصِدْقِ مَوْعُودِ اللَّهِ لِمَنْ صَبَرَ وَاحْتَسَبَ، فَكُنْ مِنْهُمْ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»^(٢).

وجوب قبول قول الحق

جاء عن ابن أعثم في (الفتوح):

«قَالَ: ثُمَّ أَقْبَلَ ابْنُ عُمَرَ عَلَى الْحَسَنِ، فَقَالَ: أَبَا عَبْدِ اللَّهِ! مَهْلًا عَمَّا قَدْ عَزَمْتَ عَلَيْهِ، وَارْجِعْ مِنْ هُنَا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَادْخُلْ فِي صَلْحِ الْقَوْمِ، وَلَا تَغِبْ عَنَّا وَطَنِكَ وَحَرَمِ جَدِّكَ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وَلَا تَجْعَلْ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا خَلَقَ لَهُمْ عَلَى نَفْسِكَ حُجَّةً وَسَبِيلًا، وَإِنْ أَحْبَبْتَ إِلَّا تَبَايَعْتَ فَانْتِ مَثْرُوكٌ حَتَّى تَرَى بِرَأْيِكَ، فَإِنَّ يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ - لَعَنَهُ اللَّهُ - عَسَى أَلَّا يَعِيشَ إِلَّا قَلِيلًا، فَيَكْفِيكَ اللَّهُ أَمْرَهُ».

فَقَالَ الْحَسِينُ: أُمَّ هَذَا الْكَلَامِ أَبَدًا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، أَسْأَلُكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ، أَنَا عِنْدَكَ عَلَى خَطَا مِنْ أَمْرِي هَذَا؟ فَإِنْ كُنْتُ عِنْدَكَ عَلَى خَطَا فَرُدِّني، فَإِنِّي أَخْضَعُ وَأَسْمَعُ وَأَطِيعُ.

فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: اللَّهُمَّ لَا، وَلَمْ يَكُنِ اللَّهُ تَعَالَى يَجْعَلُ ابْنَ بِنْتِ رَسُولِهِ عَلَى خَطَا، وَلَيْسَ مِثْلَكَ مِنْ طَهَارَتِهِ وَصَفْوَتِهِ مِنَ الرَّسُولِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عَلَى مِثْلِ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام: ص ٢٦٧، حديث ١٣٥.

(٢) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ١٤٢.

- لَعَنَهُ اللهُ - بِاسْمِ الْخِلَافَةِ، وَلَكِنْ أَحْسَى أَنْ يُضْرَبَ وَجْهَكَ هَذَا الْحَسَنُ الْجَمِيلُ بِالسُّيُوفِ، وَتَرَى مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ مَا لَا تُحِبُّ، فَارْجِعْ مَعَنَا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَإِنْ لَمْ تُحِبَّ أَنْ تُبَايِعَ، فَلَا تُبَايِعْ أَبَدًا وَاقْعُدْ فِي مَنْزِلِكَ»^(١).

يفهم من قوله عليه السلام: «فَإِنْ كُنْتُ عِنْدَكَ عَلَى خَطَأٍ...» أن قادة الدين ينبغي عليهم تقبل قول الحق إذا صدر من الناس وعدم التعالي عليه.
وذكر الخوارزمي أيضاً:

«فَقَالَ عَمْرُ بْنُ سَعْدٍ: وَيَلَكُمْ كَلْمُوهُ فَإِنَّهُ ابْنُ أَبِيهِ، وَاللَّهِ، لَوْ وَقَفَ فِيكُمْ هَكَذَا يَوْمًا جَدِيدًا لَمَا قَطَعَ وَلَمَا حَصَرَ، فَكَلَّمُوهُ، فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ شِمْرُ بْنُ ذِي الْجَوْشَنِ، فَقَالَ: يَا حُسَيْنُ، مَا هَذَا الَّذِي تَقُولُ؟ أَفَهَمْنَا حَتَّى نَفْهَمَ؟

فَقَالَ عليه السلام: أَقُولُ لَكُمْ: اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ وَلَا تَقْتُلُونِ، فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكُمْ قَتْلِي وَلَا انْتِهَاكُ حُرْمَتِي، فَإِنِّي ابْنُ بِنْتِ نَبِيِّكُمْ، وَجَدَّتِي خَدِيجَةُ زَوْجَةُ نَبِيِّكُمْ، وَلَعَلَّهُ قَدْ بَلَغَكُمْ قَوْلَ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله: الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَا خَلَا النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ، فَإِنْ صَدَقْتُمُونِي بِمَا أَقُولُ، وَهُوَ الْحَقُّ، فَوَاللَّهِ مَا تَعَمَّدْتُ كَذِبًا مُنْذُ عَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ يَمُقُّتُ عَلَيْهِ أَهْلَهُ...»^(٢).

إذ يفهم من جملة «فَإِنْ صَدَقْتُمُونِي بِمَا أَقُولُ، وَهُوَ الْحَقُّ» وجوب تصديق القول بالحق.

عن الإمام علي عليه السلام أن نبي الله صلى الله عليه وآله قال:

«السَّابِقُونَ إِلَى ظِلِّ الْعَرْشِ طُوبَى لَهُمْ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ هُمْ؟ فَقَالَ صلى الله عليه وآله: الَّذِينَ يَقْبَلُونَ الْحَقَّ إِذَا سَمِعُوهُ، وَيَبْذُلُونَهُ إِذَا سَأَلُوهُ، وَيَحْكُمُونَ لِلنَّاسِ كَحُكْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ هُمْ السَّابِقُونَ إِلَى ظِلِّ الْعَرْشِ»^(٣).

(١) ابن أعثم الكوفي، أحمد، الفتوح: ج ٥، ص ٢٥.

(٢) أخطب خوارزم، الموفق بن أحمد، مقتل الحسين عليه السلام: ج ١، ص ٣٥٧-٣٥٨.

(٣) الراوندي الكاشاني، فضل الله بن علي، النوادر: ص ١٥.

لزوم نية الحق

نقل ابن أعثم:

«قَالَ: وَسَارَ الْحَسِينُ حَتَّى نَزَلَ الشُّقُوقَ، فَإِذَا هُوَ بِالْفَرَزْدَقِ بْنِ غَالِبِ الشَّاعِرِ قَدْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ، فَسَلَّمَ، ثُمَّ دَنَا مِنْهُ فَقَبَّلَ يَدَهُ.

فَقَالَ الْحَسِينُ: مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ يَا أَبَا فِرَاسٍ؟ فَقَالَ: مِنَ الْكُوفَةِ يَا بَنَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ، فَقَالَ: كَيْفَ خَلَفْتَ أَهْلَ الْكُوفَةِ؟ فَقَالَ: خَلَفْتُ النَّاسَ مَعَكَ، وَسُيُوفَهُمْ مَعَ بَنِي أُمِّيَّةَ، وَاللَّهُ يَفْعَلُ فِي خَلْقِهِ مَا يَشَاءُ.

فَقَالَ: صَدَقْتَ وَبَرَّرْتَ، إِنَّ الْأَمْرَ لِلَّهِ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَرَبُّنَا تَعَالَى كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ، فَإِنَّ نَزَلَ الْقَضَاءُ بِمَا نُحِبُّ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى نِعْمَائِهِ، وَهُوَ الْمُسْتَعَانُ عَلَى آدَاءِ الشُّكْرِ، وَإِنْ حَالَ الْقَضَاءُ دُونَ الرَّجَاءِ فَلَمْ يَعْتَدِ مَنْ كَانَ الْحَقَّ نِيَّتَهُ»^(١).

حيث يستتج من ذيل كلام الإمام عليه السلام أن على الإنسان أن ينوي الحق في أعماله دوماً، ومتى ما كان الشخص هكذا لن يتجاوز على حقوقه أبداً.

روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ، وَنِيَّةُ الْكَافِرِ شَرٌّ مِنْ عَمَلِهِ، وَكُلُّ عَامِلٍ يَعْمَلُ عَلَى نِيَّتِهِ»^(٢).

ضرورة النهضة إحياءاً للعالم الحق

ذكر الدينوري:

«وَسَارَ الْحَسِينُ عليه السلام مِنْ بَطْنِ الرُّمَّةِ، فَلَقِيَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُطِيعٍ، وَهُوَ مُنْصَرِفٌ مِنَ الْعِرَاقِ، فَسَلَّمَ عَلَى الْحَسِينِ، وَقَالَ لَهُ: يَا بَنِي أُمِّي يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ، مَا أَخْرَجَكَ مِنْ حَرَمِ اللَّهِ وَحَرَمِ جَدِّكَ؟

فَقَالَ: إِنَّ أَهْلَ الْكُوفَةِ كَتَبُوا إِلَيَّ يَسْأَلُونَنِي أَنْ أَقْدَمَ عَلَيْهِمْ، لِأَنَّ رَجَوا مِنْ إِحْيَاءِ مَعَالِمِ

(١) ابن أعثم الكوفي، أحمد، الفتوح: ج ٥، ص ٧١.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٨٤، حديث ٢.

الحق، وإِمَانَةِ الْبِدْعِ.

قَالَ لَهُ ابْنُ مُطِيعٍ: أَنْشُدَكَ اللَّهَ أَلَا تَأْتِي الْكُوفَةَ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ أَتَيْتَهَا لَتُقْتَلَنَّ.

فَقَالَ الْحُسَيْنُ عليه السلام: لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا. ثُمَّ وَدَّعَهُ وَمَضَى ^(١).

من خلال التأمل في قوله عليه السلام: «أَنْ أَقْدَمَ عَلَيْهِمْ لِمَا رَجَوْا مِنْ إِحْيَاءِ مَعَالِمِ الْحَقِّ»

يتحصل وجوب الثورة واتخاذ خطوات عملية إحياءاً لمعالم الحق.

روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«قُمْ بِالْحَقِّ وَلَا تَعْرِضْ لِمَا نَابَكَ، وَاعْتِزِلْ عَمَّا لَا يَعْنِيكَ» ^(٢).

لزوم متابعة الحق في جميع الأحوال

قال الإمام الحسين عليه السلام لأرينب من أجل إرجاعها لزوجها السابق عبدالله بن سلام:

«قَدِمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ وَهُوَ يُحْسِنُ الشَّنَاءَ عَلَيْكَ، وَيَحْمِلُ النَّشْرَ عَنْكَ فِي حُسْنِ

صُحْبَتِكَ، وَمَا أَنْسَهُ قَدِيمًا مِنْ أَمَانَتِكَ فَسَرَّنِي ذَلِكَ وَأَعْجَبَنِي، وَذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ اسْتَوَدَعَكَ

مَالًا قَبْلَ فِرَاقِهِ إِيَّاكَ، فَأَدِّي إِلَيْهِ أَمَانَتَهُ، وَرُدِّي عَلَيْهِ مَالَهُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ إِلَّا صِدْقًا، وَلَمْ

يَطْلُبْ إِلَّا حَقًّا» ^(٣).

إذ يشير قوله عليه السلام: «وَلَمْ يَطْلُبْ إِلَّا حَقًّا» إلى ضرورة طلب الحق واتباعه في جميع

الظروف وشتى الأحوال.

قال تبارك وتعالى:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ

وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوْا أَوْ

تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ^(٤).

(١) الدينوري، أحمد بن داود، الأخبار الطوال: ص ٢٤٦.

(٢) المفيد، محمد بن محمد، الاختصاص: ص ٢٣٠.

(٣) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، الإمامة والسياسة: ج ١، ص ٢٢٢-٢٢٣.

(٤) النساء: آية ١٣٥.

ضرورة الميزان بين الحق والباطل

عبدالله بن حمزة بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال:

«إِنَّ الْحَسِينَ بْنَ عَلِيٍّ - عليه السلام - قَالَ لِمَعَاوِيَةَ: (أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ نَارَعْتَ عَلِيًّا فَتَوَرَّطْتَ النَّارَ، وَفَارَزَ بِالْحَنَّةِ، إِنَّ عَلِيًّا - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ - كَانَ عِلْمًا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَكَانَ نُورَ اللَّهِ ﷺ يُسْتَضَاءُ بِهِ مِنْ ظُلْمِ الضَّلَالَةِ، فَكَيْفَ تَرَى فَضْلَ عَلِيٍّ - عليه السلام - وَهُوَ السَّابِقُ إِلَى الْفَضَائِلِ، وَالْمَوْفِيُّ بِالذِّمَّةِ، وَوَصِيُّ نَبِيِّ اللَّهِ - ﷺ - وَأَنْتَ طَلِيقُ ابْنِ طَلِيقٍ؟!)، فَقَامَ الْحَسَنُ - عليه السلام - فَأَخَذَ بِيَدِهِ، وَكَانَ إِذَا أَمَرَهُ الْحَسَنُ اتَّمَرَّ لَهُ، وَأَطَاعَهُ، وَلَمْ يَعْصِهِ»^(١).

الحاصل من مضمون قوله عليه السلام: «إِنَّ عَلِيًّا - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ - كَانَ عِلْمًا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ» أن فهم الحق والباطل والتمييز بينهما بحاجة ملحة إلى ميزان ومعيار وهو شخص المعصوم عليه السلام.

نقل عن ابن عباس أنه قال:

«سَمِعْتُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عَلِيٍّ عليه السلام: هَذَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِي، وَأَوَّلُ مَنْ يُصَافِحُنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ فَارُوقُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ»^(٢).

لزوم العمل بالحق

قال الإمام الحسين عليه السلام أثناء مسيره إلى كربلاء:

«إِنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا قَدْ تَغَيَّرَتْ وَتَنَكَّرَتْ، وَأَدْبَرَ مَعْرُوفُهَا، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الْإِنَاءِ، وَخَسِيسٌ عَيْشٌ كَالْمَرْعَى الْوَيْبِلِ، أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ الْحَقَّ لَا يُعْمَلُ بِهِ، وَأَنَّ الْبَاطِلَ لَا يُتَنَاهَى عَنْهُ؟! لِيَرْغَبَ الْمُؤْمِنُ فِي لِقَاءِ اللَّهِ مُحَقَّقًا، فَإِنِّي لَا أَرَى الْمَوْتَ إِلَّا سَعَادَةً، وَلَا الْحَيَاةَ مَعَ الظَّالِمِينَ إِلَّا بَرَمًا. إِنَّ النَّاسَ عِبِيدُ الدُّنْيَا، وَالَّذِينَ لَعِقُوا عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، يَحْطُوتُونَهُ مَا دَرَّتْ مَعَايِشُهُمْ، فَإِذَا مُحْصُوا بِالْبَلَاءِ قَلَّ الدِّيَانُونَ»^(٣).

(١) المنصور بالله، عبدالله بن حمزة، الشافي: ج ٣، ص ٢٨٥.

(٢) ابن بابويه، محمد بن علي، معاني الأخبار: ص ٤٠١-٤٠٢، حديث ٦٤.

(٣) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٤٥.

من ملاحظة قوله عليه السلام: «أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ الْحَقَّ لَا يُعْمَلُ بِهِ» يفهم ضمناً لزوم العمل بالحق وطبقاً له عندما يكون الحق واضحاً للعيان على الجميع، كما يستشف من هذه الجملة ضمناً إمكان الوصول للحق وبلوغه.

قال الإمام الباقر عليه السلام:

«إِصْبِرْ نَفْسَكَ عَلَى الْحَقِّ؛ فَإِنَّهُ مَنْ مَنَعَ شَيْئاً فِي حَقِّ أُعْطِيَ فِي بَاطِلٍ مِثْلِيهِ»^(١).

لزوم النهي عن الباطل

من لوازم قول الإمام الحسين عليه السلام: «وَأَنَّ الْبَاطِلَ لَا يُتَنَاهَى عَنْهُ» يستنتج أن النهي عن الباطل واجب على الجميع حينما يكون الباطل بيناً واضح المعالم. وأيضاً روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال:

«اعْتَبِرُوا أَيُّهَا النَّاسُ بِمَا وَعَظَ اللَّهُ بِهِ أَوْلِيَاءَهُ مِنْ سُوءِ ثَنَائِهِ عَلَى الْأَحْبَارِ إِذْ يَقُولُ: ﴿لَوْلَا يَتَّبِعُهُمُ الرِّبِّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ﴾^(١)، وَقَالَ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(٢) إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَيْتَسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾^(٣) وَإِنَّمَا عَابَ اللَّهُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَرُونَ مِنَ الظُّلْمَةِ الَّذِينَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمُ الْمُنْكَرَ وَالْفَسَادَ فَلَا يَنْهَوْنَهُمْ عَنْ ذَلِكَ رَغْبَةً فِيمَا كَانُوا يَنَالُونَ مِنْهُمْ وَرَهْبَةً بِمَا يَحْدُرُونَ وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿فَلَا تَخْشَوْا الْتَكَاثُفَ وَالْأَخْشُونَ﴾^(٤) وَقَالَ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(٥)»^(٦).

(١) المصدر السابق: ص ٢٩٦.

(٢) المائة: آية ٦٣.

(٣) المائة: آية ٧٨.

(٤) المائة: آية ٧٩.

(٥) المائة: آية ٤٤.

(٦) التوبة: آية ٧١.

(٧) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٣٧.

يقول تبارك وتعالى:

﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١).

وضوح الحق

قال الإمام الحسين عليه السلام:

«الْحَقُّ أَبْلَجٌ لَا يَزِيغُ سَبِيلَهُ، وَالْحَقُّ يَعْرِفُهُ ذَوُو الْأَلْبَابِ»^(٢).

يتبين من جملة «الْحَقُّ أَبْلَجٌ» أنّ الحق واضح شفاف لا إبهام فيه.

قال الإمام علي عليه السلام:

«الْحَقُّ أَبْلَجٌ مُنَزَّهٌ عَنِ الْمَحَابَةِ وَالْمَرَايَةِ»^(٣).

عدم انحراف طريق الحق

يفهم أيضاً من الحديث السابق قوله عليه السلام: «الْحَقُّ أَبْلَجٌ لَا يَزِيغُ سَبِيلَهُ» أنّ طريق

الحق لا انحراف فيه.

قال الإمام علي عليه السلام:

«الْحَقُّ مَنْجَاةٌ لِكُلِّ عَامِلٍ»^(٤).

سبيل الحق

يشير قوله عليه السلام: «الْحَقُّ أَبْلَجٌ لَا يَزِيغُ سَبِيلَهُ» إلى أنّ هناك سبيلاً وطريقاً للحق.

(١) آل عمران: آية ١٠٤.

(٢) ابن عربي، محمد بن علي، محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار في الأدبيات والنوادر والأخبار: ج ١، ص ٢٢٠.

(٣) الأمدى، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٩٤، حديث ١٨٠٠.

(٤) المصدر السابق: ص ٧٧، حديث ١٤٨٣.

قال الإمام علي عليه السلام:

«أَلَا وَإِنَّ الْحَقَّ مَطَايَا ذُلٍّ، رَكِبَهَا أَهْلُهَا وَأَعْطُوا أَرْمَتَهَا، فَسَارَتْ بِهِمُ الْهُوَيْنَا حَتَّى أَتَتْ بِهِمْ ظِلًّا ظَلِيلًا»^(١).

ضرورة امتلاك المعرفة بالحق

يفهم ضمناً من جملة «وَالْحَقُّ يَعْرِفُهُ ذَوُو الْأَلْبَابِ» لزوم امتلاك المعرفة بالحق.

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«إِنَّ دِينَ اللَّهِ لَا يُعْرَفُ بِالرِّجَالِ بَلْ بِآيَةِ الْحَقِّ، فَاعْرِفِ الْحَقَّ تَعْرِفَ أَهْلَهُ»^(٢).

إمكان الوصول للحق

يفهم من مضمون قول الامام عليه السلام: «وَالْحَقُّ يَعْرِفُهُ ذَوُو الْأَلْبَابِ» أن الحق يمكن

الوصول إليه في بعض الظروف والأحوال.

قال الإمام علي عليه السلام:

«الْحَقُّ أَوْسَعُ مِنَ الْأَرْضِ»^(٣).

النطق بالحق مرّ أحياناً

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال:

«كَانَ أَبِي عَلِمًا لَمِنَ جَهْلٍ، مُدَكَّرًا لَمِنَ عَفَلٍ، لَا يَلْفِظُ إِلَّا الْحَقَّ وَإِنْ أَمَرَ، وَلَا يُسِغُ الْبَاطِلَ وَإِنْ حَلَا، شَدَّ عَضُدَهُ، وَجَاهَدَ وَحَدَهُ، وَأَزَرَ أَخَاهُ، وَقَتَلَ عِدَاهُ، وَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ الْكُرْبَاتِ، وَخَاضَ دُونَهُ الْعَمَرَاتِ، فَلَمَّا اخْتَارَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ دَارَ أَنْبِيَائِهِ، كَرِهَتْهُ قُرَيْشٌ، فَأَهْمَلَهُمْ إِهْمَالَ الرَّاعِي لِإِبِلِهِ»^(٤).

(١) الناطق بالحق، يحيى بن الحسين، تيسير المطالب في أمالي أبي طالب: ص ٢٧٠.

(٢) المفيد، محمد بن محمد، الأمالي: ص ٥.

(٣) السبزواري، محمد بن محمد، جامع الأخبار: ص ٣٨٣، حديث ١٠٧١.

(٤) ابن طاووس، علي بن موسى، التشریف بالمتن في التعريف بالفتن: ص ٣٦٣، حديث ٥٣٤.

يستنتج من قوله عليه السلام: «لَا يَلْفِظُ إِلَّا الْحَقَّ وَإِنْ أَمَرَ» أن قول الحق والتلفظ به أحياناً ما يكون مرّاً بالنسبة لبعض الأفراد.

وأيضاً نقل أبو حمزة عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«لَمَّا حَضَرَتْ أَبِي عَلِيٍّ بَنَ الْحُسَيْنِ عليه السلام الْوَفَاةُ صَمَمَنِي إِلَى صَدْرِهِ وَقَالَ: يَا بُنَيَّ، أَوْصِيكَ بِمَا أَوْصَانِي بِهِ أَبِي حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، وَبِمَا ذَكَرَ أَنَّ أَبَاهُ أَوْصَاهُ بِهِ: (يَا بُنَيَّ، اصْبِرْ عَلَى الْحَقِّ وَإِنْ كَانَ مُرّاً)»^(١).

قال الإمام علي عليه السلام:

«اصْبِرْ عَلَى مَضَضِ مَرَارَةِ الْحَقِّ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَتَخَدَّعَ لِحَلَاوَةِ الْبَاطِلِ»^(٢).

لزوم الإصرار على النطق بالحق

كما يستنتج من قول الإمام الحسين عليه السلام: «لَا يَلْفِظُ إِلَّا الْحَقَّ وَإِنْ أَمَرَ» وجوب وضرورة قول الحق والإصرار على النطق به من قبل القادة الإلهيين حتى لو كان مرّاً.

قال الإمام علي عليه السلام:

«بِلِزُومِ الْحَقِّ يَحْصُلُ الْإِسْتِظْهَارُ»^(٣).

وقال عليه السلام أيضاً في عهده لملك الأشر:

«أَلِزِمِ الْحَقَّ مَنْ لَزِمَهُ مِنَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، وَكُنْ فِي ذَلِكَ صَابِراً مُحْتَسِباً، وَإِقِعْ ذَلِكَ مِنْ قَرَابَتِكَ وَ[خَوَاصِّكَ] خَاصَّتِكَ حَيْثُ وَقَعَ، وَابْتِغِ عَاقِبَتَهُ بِمَا يَنْقُلُ عَلَيْكَ مِنْهُ، فَإِنَّ مَعَبَّةَ ذَلِكَ مُحْمُودَةٌ»^(٤).

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٩١، حديث ١٣.

(٢) الأمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ١٤٩، حديث ٢٤٦.

(٣) المصدر السابق: ص ٣٠٥، حديث ١٧٥.

(٤) نهج البلاغة: رسالة ٥٣.

وجود الحق والباطل

ويفهم كذلك من قول الإمام الحسين عليه السلام: «لَا يَلْفِظُ إِلَّا الْحَقَّ وَإِنْ أَمَرَ، وَلَا يُسِغُ الْبَاطِلَ وَإِنْ حَلَا» أَنَّ هُنَاكَ حَقًّا وَبَاطِلًا، وَيَنْبَغِي الدُّنُو إِلَى الْحَقِّ وَالِاقْتِرَابَ مِنْهُ وَالِابْتِعَادَ عَنِ الْبَاطِلِ وَاجْتِنَابَهُ.

قال الإمام علي عليه السلام:

«حَقٌّ وَبَاطِلٌ وَلِكُلِّ أَهْلٍ»^(١).

لقد فصل عباس علي عميد الزنجاني الكلام حول ذلك مبيناً:

«إِنَّ أَوَّلَ بَحْثٍ يَطْرَحُ عَادَةً فِي مَسْتَهْلِ الأَبْحَاثِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِمَعْرِفَةِ الدِّينِ وَسَبْرِ الْحَقَائِقِ الدِّينِيَةِ هُوَ مَسْأَلَةُ (أَصَالَةِ الْحَقِيقَةِ) وَتَحْقِيقِهَا وَوُجُودِ حَقَائِقِ خَارِجِ إِطَارِ ذَهْنِ الْإِنْسَانِ وَفَعَالِيَاتِهِ الذَّهْنِيَةِ وَالفِكْرِيَةِ.

لأننا في دراستنا للحقائق الدينية نبحت عن مطلبٍ - وهو الدين والذي ثبت بمقتضى ما نقيمه من الأدلة والبراهين - لا يمكن إنكار وجوده العيني وواقعه خارج حدود أذهاننا وأطرنا الفكرية.

بلا شك أن هكذا بحث يجب أن يركز على قبول حقيقي لأصالة الواقع وتحققها؛ إذ ما لم يثبت واقع خارج أذهاننا وتفكيرنا لن يقوم أي استدلال وبرهان في مجال المعرفة لأي موضوع من الموضوعات على أساس وقاعدة، ولا يثمر أي نتيجة...

حينما نتصفح تاريخ الفلسفة نجده يعدّ سفسطائي اليونان القديم مؤسسي مدرسة ونظرية تحصر الواقع والحقائق فيما كان ضمن إطار مدركات الإنسان وتفكيره فقط، وتنكر كل ما خرج عن حدود فكره وتشكك فيه، وتضيف إلى ذلك بعدها كل ما وصف على أنه حقيقة خارجية بأنه من صنع فكر ابن آدم ونتاج خياله.

واختصاراً يمكننا وضع الأفكار الفلسفية التي تتبناها هذه الجماعة تحت شعار

(١) المصدر السابق: خطبة ١٦.

فلسفي - نقل عن (بروتاغورس) أكبر سفسطائيي اليونان القديم - وهو (أنّ الإنسان مقياس كل شيء).

لو استقرأنا تاريخ المدارس الفلسفية يظهر لنا أنّ هذه النظرية المدعى فلسفتها غابت عن ساحة الآراء الفلسفية لقرون مديدة، وتمّ تأييدها وإحيائها من قبل بعض علماء الغرب لكن هذه المرّة بوجه آخر وألبسوها قناعاً جديداً. وما يثير العجب أنّ المدرسة الشيعوية قد استفادت منها بدهاء في موسوعتها وكشكولها الفلسفي، واستخدمتها كحربة صدأة لإنكار الحقائق التي يثقل هضمها على القناة الفكرية للشيعويين. رغم أنّها آلت إلى الأفول مرّة أخرى قبل أن تجد لنفسها بريقاً كافياً في العيون لتغور في الأفق المدهم للنظريات الفلسفية، ولكنها منحت قوة لتلك الشبهة الضاربة في القدم، وصبغت الشك بلون غربي، وألبسته قناعاً خداعاً.

واضطراباً لا بدّ هنا من التذكير بمجموعة من المسائل الواضحة وغير القابلة للإنكار ليتبين بشكل واضح أنّ هذا الإشكال (السفسطة) غير قائم على أساس ولا ركيّة:

١- شهادة الفطرة والوجدان: إنّ الاعتراف بواقعية بعض الأشياء التي ندرکها في أذهاننا وأفكارنا أمر فطري ووجداني، والشك فيها أو إنكارها لا يستقيم؛ وذلك أنّ التشكيك في التفكير والفكر والتعقل أو الإنكار، وهكذا التشكيك في وجود المفكر أمر مرفوض أساساً ولا يلتفت إليه. ومما لا شك فيه أنّ الاعتراف بهذا المقدار من الواقع يشكل ركيّة وأساساً ومنطلقاً لإدراك حقائق مشكوكة أخرى.

ويعدّ المنطق العقلاني والفطرة والوجدان غير القابلين للإنكار دليلاً رصيناً قوياً لإثبات بطلان رأي السفسطائيين، وهذا يفسر ما نلاحظه من عدم قدرة هذه النظرية على عطف نظر العلماء إليها رغم ظهور وشيوع نظريات فلسفية أكثر خرافية منها، فليس سوى عدد قليل جدّاً ممن يتظاهر بالفلسفة من علماء الغرب مال إليها بدافع المصلحة في الأغلب وطلباً للمنافع الوهمية واستغلالاً للمبادئ.

وعليه فليس هناك أيّ إبداع للشيوعية حتّى تدعي أنّها الأكثر قاطعية وواقعية بين مدارس الفكر البشري؛ لأنّها ستصطدم بباب مؤصد أو تحبس في عنق زجاجة البحث العلمي وتظهر خجلها من رأي هؤلاء السفسطائيين وفلسفتهم وصعوبة الرد عليها لسخفها.

٢- إنّ قبول هذه النظرية والاعتراف بواقعتها ليس أكثر من وجهة نظر وفكرة خير دليل على بطلانها وشاهد على عدم كليتها وإطلاقها، وعدم شموليتها. عبارة أوضح: قبول هذه النظرية والاعتراف بواقعتها يستلزم ضمناً إنكارها؛ لأنّ هكذا قبول واعتراف سيؤدّي إلى الإقرار بحقائق عينية كثيرة أخرى.

٣- من الممكن عدّ الأدلة التي تثبت خطأ الحواس الظاهرية في بعض الحالات وبطلان بعض الاستنتاجات الفكرية والعقلية شواهد على تحقق واقع عيني خارج دائرة الفكر؛ لأنّه لو لم يكن هناك واقع كيف نستطيع اكتشاف الخطأ أو بطلان أمر ما. وما يبعث على الدهشة قيام بعض القائلين بنظرية التشكيك في الواقع بجعل خطأ الحواس هذا مبرراً وشماحة ودليلاً على إثبات نظريتهم، ولم يلتفتوا إلى أنّ الخطأ الأنف الذكر يصدق في كيفية وطبيعة المحسوسات لا غير، إذ لا يقع الخطأ أو الاختلاف في أصل وجود المحسوسات أبداً، وستعرّف فيما بعد أكثر على هذه الحقيقة.

مما تقدّم أصبح معلوم تماماً أنّ اختلاف البراهين والآراء الفكرية والتضاد بين المدارس الفلسفية لا يصلح أن يكون دليلاً على التشكيك وإنكار الواقع وحسب، وإنّما يعدّ وثيقة ودليلاً على ردّ هذه النظرية السالفة.

٤- ما نحسّ به من ارتباط واقتران دائم للنظم بل وهيمته على الموجودات والظواهر وحتّى أفعال الإنسان الإرادية، كل ذلك لا يمكن تصوره ولا تبريره دون الاعتراف بأصالة الواقع.

وإذا ما أردنا بيان هذه المسألة بصورة مبسطة يجب علينا أن نقول:
 هل رأيت يوماً ما إنساناً طبيعياً - ولو كان سفسطائياً - بدل أن ينام يأكل، أو
 عندما يريد التحدّث يستخدم أذنه، وبدل أن يأكل يتناول سماً قاتلاً، أو يقوم بعملية
 التنفس بعينه وأذنه، ولالتقاط الأشياء يستخدم رأسه وشحمة أذنه؟!
 وهل رأيت أن زجاجة ما أصيبت بحجر كبير فتحوّلت إلى موجود آخر بدل أن
 تتحطم وتتكسر أو أنّها تكسرت وهي في وضعها الطبيعي دون أن تتلقى أدنى صدمة أو
 تأثير مؤثر؟!
 وبشكل عام إنّ نظام العالم المتناسق وما يحمله من أسرار مذهلة يسير وفق قوانين
 وسنن معيّنة وثابتة، لا يمكن أن تكون من صنع ذهن الإنسان ونتاج قدراته
 الفكرية»^(١).

حسن قول الحق

قال الكراجكي في (كنز الفوائد):

«وَمِنْ كَلَامِ الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْلُهُ يَوْمًا لِابْنِ عَبَّاسٍ: يَا بْنَ عَبَّاسٍ، لَا تَكَلِّمَْنَّ فِيمَا لَا
 يَعْنِيكَ فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ فِيهِ الْوِزْرَ، وَلَا تَكَلِّمَْنَّ فِيمَا يَعْنِيكَ حَتَّى تَرَى لِلْكَلامِ
 مَوْضِعًا، فَرُبَّ مُتَكَلِّمٍ قَدْ تَكَلَّمَ بِالْحَقِّ فَعِيبَ»^(٢).

حيث يشير مضمون هذا الحديث إلى حسن قول الحق.

يقول تبارك وتعالى:

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾^(٣).

(١) عميد الزنجاني، عباس علي، بيوند مذهب وانسان (آصرة المذهب والإنسان): ص ١٥-٢٠.

(٢) الكراجكي، محمد بن علي، كنز الفوائد: ج ٢، ص ٣٢.

(٣) البقرة: آية ٨٣.

ويقول أيضاً:

﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ
عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾^(١).

قبح القول بالباطل

يستفاد كذلك من مضمون الحديث المتقدم للإمام الحسين عليه السلام أن التكلم بالباطل والتحدّث به قبيح.

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام:

«سُنَّةُ اللَّئَامِ قُبْحُ الْكَلَامِ»^(٢).

وروي عنه عليه السلام كذلك:

«إِيَّاكَ وَمَا يُسْتَهْجَنُ مِنَ الْكَلَامِ؛ فَإِنَّهُ يَجْبَسُ عَلَيْكَ اللَّئَامُ، وَيُنْفَرُ عَنْكَ الْكِرَامُ»^(٣).

(١) الإسراء: آية ٥٣.

(٢) الآمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٣٩٨، حديث ٢.

(٣) المصدر السابق: ص ١٧٢، حديث ٩١.

ب) الهرمنيوطيقا

يعود سبب ذكر بحث «الهرمنيوطيقا» في هذا الموضوع إلى ارتباطه الوثيق ببحث «الحق والباطل» من جهة، ولأنه يعدّ أساس التعددية المعرفية والدينية من جهة أخرى، وسنسلط الضوء فيما بعد على مبحث «التعددية» ونقدها. و«الهرمنيوطيقا»^(١) مفردة يونانية، وتعني «فن التفسير» أو «تفسير النص»، وأحياناً يقال: إنّ هذه المفردة بلحاظ جذرها اللغوي لا تخلو عن الارتباط بـ«هرمس» نبي الآلهة، وفي الحقيقة أنّ «المفسر» يقوم بنفس عمل «هرمس»؛ إذ يسعى لبيان معنى الحديث وكشفه، تماماً مثلما كان هرمس رسول ومفسر رسالة الآلهة^(٢).

تعريف الهرمنيوطيقا

نرى من المناسب في هذا المقام أن نذكر مجموعة من التعريفات المطروحة حول مصطلح «الهرمنيوطيقا»:

١- «يوهان مارتن شلينيوس»^(٣) (١٧١٠-١٧٥٩م)، يعتقد بأن العلوم الإنسانية تركز على «فن التفسير» والهرمنيوطيقا الاسم الآخر لهذا الفن، حيث يصيب الغموض والإبهام فهم بعض العبارات الشفهية والتحريرية ما يحول دون تحقق الإدراك الكامل والدقيق لتلك العبارات، فالهرمنيوطيقا هي فن الوصول إلى

(1) Hermeneutics.

(٢) السبحاني التبريزي، جعفر، هرموتيك (الهرمنيوطيقا): ص ٧.

(3) Johann Martin Chladenius.

الفهم الكامل والتام للعبارات الشفهية والتحريرية.

٢- «فريدريك أوقست وولف»^(١) (١٧٥٩-١٨٢٤م)، يعرف الهرمنيوطيقا بأنها: «العلم بالقواعد التي بواسطتها يدرك معنى الرموز والعلائم»، والهدف من هذا العلم استيعاب الأفكار الشفهية والتحريرية للقائل أو الكاتب كما أراد هو بالضبط. إن هذا الفهم للتفسير ولوظيفة الهرمنيوطيقا يحتم معرفة لغة النص وظروفه التاريخية بشكل وافٍ.

٣- «فريدريك دانيال إرنست شليرماخر»^(٢) (١٧٦٨-١٨٣٤م)، ينظر إلى الهرمنيوطيقا على أنها «فن الفهم»، وقد ركز على قضية سوء الفهم مؤكداً أن تفسير النصوص دائماً ما يكون عرضة لسوء الفهم؛ لذلك وجب استخدام الهرمنيوطيقا بمثابة مجموعة من القواعد المنهجية والأساليب التعليمية للاحتراز من هذا الخطر، ومن دون هكذا فن لا سبيل لحصول الفهم.

٤- «فيلهلم دلتاي»^(٣) (١٨٣٣-١٩١١م)، يرى أن الهرمنيوطيقا علم يتولى تقديم مناهج للعلوم الإنسانية، والغاية القصوى من الجهد الهرمنيوطيقي هو الرفع من قيمة ومكانة العلوم الإنسانية، وجعلها على قدم المساواة مع العلوم التجريبية^(٤).

وللهرمنيوطيقا بلحاظ الواقع تفسيران مختلفان:

أ) الهرمنيوطيقا المنهجية.

ب) الهرمنيوطيقا الفلسفية.

(1) Friedrich August Wolf.

(2) Friedrich Daniel Ernst Schleiermacher.

(3) Wilhelm Dilthey.

(٤) الواعظي، أحمد، درآمدي بر هرمنوتيك (مدخل إلى الهرمنيوطيقا): ص ٢٦-٢٨.

الهرمنيوطيقا المنهجية

إنّ النص الذي يخلقه المؤلّف يحمل رسالة للجيل الحاضر والمستقبل، وبالطبع سيكون هدف المفسر له كشف واقع مراد المؤلّف منه، جاء في القرآن الكريم:

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾^(١).

لقد ذكر العلماء شروطاً لتفسير القرآن؛ باعتباره تغطي عليه الجنبه الأسلوبية لا الفلسفية، وفي ظل تلك الشروط قد يهتدي الإنسان إلى المقاصد الإلهية.

- ١- معرفة الألفاظ (علم اللغة).
- ٢- معرفة علاقة بعض الألفاظ ببعضها (الاشتقاق).
- ٣- معرفة عوارض الألفاظ (علم الصرف والنحو).
- ٤- معرفة القراءات المختلفة.
- ٥- معرفة شأن نزول الآيات (علم الآثار والأخبار).
- ٦- الاطلاع على توضيحات النبي ﷺ في تفسير الآيات.
- ٧- معرفة الناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، والمسائل الإجماعية والخلافية (الأصول).
- ٨- معرفة المسائل الفرعية (علم الفقه).
- ٩- معرفة المسائل العقلية (علم الكلام).
- ١٠- العلم موهبة قد خصّ بها الله سبحانه أشخاصاً يعلمون ويعملون، ويتحقق ذلك في ظل القيام بالأعمال الصالحة^(٢).

يقول عزّ وجلّ:

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾^(٣).

(١) النساء: آية ٨٢.

(٢) السبحاني التبريزي، جعفر، هرموتيك (الهرمنيوطيقا): ص ١١-١٤.

(٣) محمد: آية ١٧.

وبصدد شرح الحديث ذكروا شروطاً أيضاً من جملتها:

- ١- صدور الحديث عن المعصوم بسند صحيح.
- ٢- أن يفسر النص وفقاً لاستخدام القواعد النحوية وغيرها من الشروط التي ذكرت في علم الحديث^(١).

الهرمنيوطيقا الفلسفية

يعدّ «شلير ماخر» مؤسساً لهرمنيوطيقا جديدة، إذ لديه نظرية ينبغي أن يطلق عليها الهرمنيوطيقا الفلسفية، حيث تدور أفكاره حول محورين:

- ١- الاطلاع على الثقافة والظروف الحاكمة على المؤلّف عند تدوينه النص.
- ٢- الاطلاع على الذهنية الخاصّة للمؤلّف.

بخصوص المحور الأوّل نقول: إنّ هذا الكلام لا يصدق على الوحي الإلهي بأيّ نحو من الأنحاء؛ لأنّ الأنبياء قد تلقّوا سلسلة من الحقائق الغيبية التي ليس لها ارتباط ببيئتهم والثقافة الحاكمة عليها.

بعبارة أخرى: إنّ القرآن في بيانه المعارف والعقائد والأحكام والقوانين والأخبار والتوضيحات لم يتأثر أبداً بالأفكار والعادات الشائعة آنذاك، ما عدا انتقاده لجانب منها في بعض المواضع.

وحتىّ إذا قبلنا كلام «شلير ماخر» فمجاله يختص بالكتب التي يؤلّفها البشر، حيث تدوّن وفقاً للأسس الثقافية والعادات والمعارف الحاكمة يومها، وليس له آية مصداقية بخصوص الوحي الإلهي وأحاديث المعصومين عليهم السلام المفاضة من عالم أرفع وأسمى، لا من فكر البشر حتىّ تطرح قضية ذهن الإنسان^(٢).

(١) السبحاني التبريزي، جعفر، هرمونيك (الهرمنيوطيقا): ص ١٦.

(٢) المصدر السابق: ص ٥٣-٦٢.

طبقاً لهذا فإن «شليمر ماخر» وقع تحت تأثير «إيمانويل كانت»^(١) (١٧٢٤ - ١٨٠٤ م) الذي قد أسس لنفسه أصلاً للعلوم النظرية، وهو أن للمعرفة ركنين:

١- المادّة: ما يكتسبه الإنسان عن طريق الحس.

٢- الصورة: ويراد بها المقولات الذهنية، والتي هي من لوازم ذات الإنسان وتعدّ من خصائص ولوازم عقله، ووفقاً لهذه النظرية فإن الاستنتاجات الخارجة عن ذهن من يتصدى للعملية المعرفية لن يكون لها حظ في تفاسيره، ونتيجة هذه النظرية ستكون كالتالي:

أ) دخالة ذهنية المفسّر حقيقة لا يمكن تجنبها.

ب) عدم إمكان الفهم العيني والواقعي للنص.

ج) هناك تفاسير مختلفة للنص متكررة بعدد الأفراد نتيجة افتراضاتهم.

د) ليس هناك فهم ثابت ونهائي للنص.

هـ) بما أن تفسير النص عبارة عن مزيج من الأحكام المسبقة للنص؛ لذا فإنّ المفسّر لا شأن له بقصد المؤلّف ومنوياته.

و) ليس هناك معيار للحكم ولتقييم التفسير المعتمد وتمييزه عن غيره.

والنتيجة: ليس هناك فهم أفضل من فهم.

وفي ردّ هذا الادعاء نقول:

إنّ المبادئ والفروض تقع على أقسام:

١- المشتركة:

في تفسير كل نص أو ظاهرة لا بدّ من تكريس الاهتمام بالفرضيات المسبقة ليعبّد الطريق أمام تفسير الظاهرة، ومنها ما لو كان:

(1) Immanuel Kant.

- كاتب النص عاقل حكيم.
- وما ينقله في النص من منويات ومنقولات لها جذور في إرادته الجدّية.
- لا يعتمد التورية في منقولاته ومدوّياته.
- وبما أنّه حكيم سوف لن يأتي بعمل يتنافى مع غرضه.
- لا يدوّن شيئاً على خلاف القواعد اللغوية.
- يستخدم كل مفردة بمعناها الحقيقي، ومتى ما استعملها في غير ذلك لا بدّ أن ينصب قرينة على ذلك.

هذه الأحكام المسبقة لم تكن يوماً ما محل إنكار، وكل من أراد التفسير يجب عليه اعتماد هذه الأصول، وهذا النوع من الأحكام لا أنّه لا يمنع من فهم الحقيقة وحسب وإنّما بواسطته يفهم مراد الكاتب.

٢- غير المشتركة:

نتيجة لتقدّم العلم وتطوره صار تفسير كل ظاهرة من الظواهر يعتمد على سلسلة من القواعد التي يقبلها ويسلّم بها الجميع، وأصبحت موضوعية وواقعية؛ إمّا للبراهين العقلية أو التجارب المورثة لليقين.

٣- التطبيقية:

نجد أحياناً مفسراً يعتبر مجموعة من الأسس والقواعد موضوعية وحقيقية ويقوم بتطبيقها خلال قيامه بعملية تفسيره للنصوص الدينية، رغم أنّها تمّ إثباتها في العلوم الطبيعية أو الفلكية تبعاً لمعايير غير قطعية، وهذا العمل في الحقيقة مزج للقرآن مع تصوراته الذهنية، وهكذا مفسر لن يصل للواقع أبداً. وإذا كان تفكير مثل هؤلاء تفكيراً صحيحاً، فسيصدق عليه ما ورد التعبير عنه في الروايات بـ«التفسير بالرأي»، والذي ورد التشديد بالنهاي عنه، أمّا المبادئ المشتركة وغير المشتركة فليست كذلك^(١).

(١) السبحاني التبريزي، جعفر، هرموتيك (الهرمنيوطيقا): ص ٦٥-٧٣.

نعم إن كان اختلاف الفتوى منشأه الاستنتاج من الآيات والنصوص الدينية، فهذا لا ربط له بتعدد القراءات وإنما يعود إلى عدم رعاية قواعد التفسير.

نتائج الهرمنيوطيقا الفلسفية

هناك نتائج وآثار سيئة كثيرة للاعتقاد بالهرمنيوطيقا الفلسفية، نشير أدناه إلى بعضها:

١. شيوع النسبية

لاقت مسألة السفسطة رواجاً في المجتمع قبل ظهور الفلاسفة الواقعيين أمثال: سقراط وأفلاطون وأرسطو، وتمت السيطرة عليها بمجيء هؤلاء الفلاسفة، ولكن حالياً وبعد قرون عادت تلك المدرسة من بعيد مرتدية ثوباً آخر؛ لتحيي الشكوكية بلباس النسبية، التي لا طائل من ورائها سوى ترسيخ الجهل وتصحيح مجهولات الإنسان^(١).

٢. انتحار النظرية

نجد أن بعض النظريات يكون فداؤها الأول هو ذاتها، ونظرية المعتقدين بالهرمنيوطيقا من هذا القبيل^(٢)؛ لأن نظريتهم نفسها ستقع تحت تأثير معتقدتهم هذا، وتغدو موضعاً للشك والتردد.

٣. تنمية الشك

ليس لنظرية «كانت» نتيجة أخرى سوى الشك، مع أنه يدّعي «الواقعية»^(٣)،

(١) المصدر السابق: ص ٧٣-٧٤.

(٢) المصدر السابق: ص ٧٥-٧٦.

(3) Realism.

ولذا انجر نتيجة ذلك إلى «المثالية»^(١)، وهذا ممّا أشكل به «فريدريك نيتشه»^(٢) (١٨٤٤-١٩٠٠ م) و«هيجل»^(٣) (١٧٧٠-١٨٣١ م) على «كانت».

٤- معارضة العلوم الحقيقية

حيث إنّ هناك علوماً إنسانية لا يكتسب أيّ إنسان من خارج إطاره، مثل: امتناع اجتماع النقيضين، وامتناع اجتماع الضدّين، وبطلان الدور والتسلسل، وحاجة كل ممكن الوجود للعلة، وهذه العلوم الحقيقية تتنافى مع نتائج هذه النظرية.

٥- استحالة إدراك الحقيقة المطلقة

إذا كانت الحقيقة المطلقة ليست بمتناول أيّ شخص، وكلُّ يرى الحقيقة من خلال وجهات نظره وطريقته الخاصّة به، يجب القول: إنّ البشرية منذ خليقتها لم تصل إلى الحقيقة في أيّ وقت مضى وسيبقى الحال هكذا إلى يوم القيامة.

٦- حدود النظرية

هذه النظرية على فرض صحتها، قد تبرر التعددية الدينية في الجوانب العقدية لا غير، ولا تطال يدها التعاليم والأحكام العملية والأخلاقية.

نقد نظرية الهرمنيوطيقا في كلمات الإمام الحسين عليه السلام

عندما نتأمل في كلمات الإمام الحسين عليه السلام حول هذه النظرية نجدها قد ألفتت إلى ما قد يرد عليها من نقد ومناقشة.

(1) Idealism.

(2) Friedrich Nietzsche.

(3) Hegel.

معرفة الحق من قبل أصحاب العقول

قال الإمام الحسين عليه السلام:

«الْحَقُّ أَبْلَجٌ لَا يَزِيغُ سَبِيلَهُ، وَالْحَقُّ يَعْرِفُهُ ذُوو الْأَلْبَابِ»^(١).

حيث يتحصل ضمناً من جملة «وَالْحَقُّ يَعْرِفُهُ ذُوو الْأَلْبَابِ» بطلان نظرية الهرمنيوطيقا المبتنية على عدم إمكان إدراك الحق.

قال الإمام علي عليه السلام:

«إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ أَنْارَ سَبِيلَ الْحَقِّ، وَأَوْضَحَ طُرُقَهُ، فَشِقْوَةٌ لَازِمَةٌ أَوْ سَعَادَةٌ دَائِمَةٌ»^(٢).

وقال أيضاً:

«قَدْ وَضَحَتْ مَحَبَّةُ الْحَقِّ لِطَلَابِهَا»^(٣).

إمكان إدراك الحق المطلق

نقل الطبري في تاريخه أنه:

«جَاءَ حَنْظَلَةُ بْنُ أَسْعَدَ الشَّبَامِيِّ، فَقَامَ بَيْنَ يَدَيْ حُسَيْنٍ، فَأَخَذَ يُنَادِي: ﴿يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ * مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ * وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّادِ * يَوْمَ تُولُونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾^(٤)، يَا قَوْمِ تَقْتُلُوا حُسَيْنًا فَيُسْحِتْكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ * وَقَدْ

(١) ابن عربي، محمد بن علي، محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار في الأدبيات وال نوادر والأخبار: ج ١، ص ٢٢٠.

(٢) الأمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٢٣٦، حديث ٢٠٧.

(٣) المصدر السابق: ص ٤٩٢، حديث ٦٥.

(٤) غافر: آية ٣٠-٣٣.

حَابَ مَنِ افْتَرَى ﴿١﴾. فَقَالَ لَهُ حُسَيْنٌ: يَا بْنَ أَسْعَدَ، رَحِمَكَ اللَّهُ، إِنَّهُمْ قَدْ اسْتَوْجَبُوا الْعَذَابَ حِينَ رَدُّوا عَلَيْكَ مَا دَعَوْتَهُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ، وَمَهَضُوا إِلَيْكَ لِيَسْتَبِيحُوكَ وَأَصْحَابَكَ، فَكَيْفَ بِهِمُ الْآنَ وَقَدْ قَتَلُوا إِخْوَانَكَ الصَّالِحِينَ؟! قَالَ: صَدَقْتَ جُعِلْتُ فِدَاكَ! أَنْتَ أَفْقَهُ مِنِّي وَأَحَقُّ بِذَلِكَ، أَفَلَا تَرُوحُ إِلَى الْآخِرَةِ وَتَلْحَقُ بِإِخْوَانِنَا؟ فَقَالَ: رُحْ إِلَى خَيْرٍ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَإِلَى مُلْكٍ لَا يَبُلَى. فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ أبا عَبْدِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ، وَعَرَفَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ فِي جَنَّتِهِ. فَقَالَ: آمِينَ آمِينَ، فَاسْتَقَدَّمَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ ﴿٢﴾.

يتضح من كلام الإمام عليه السلام مع حنظلة حول دعوته القوم إلى الحق أن الإنسان قادر على إدراك الحق كما هي الحال بالنسبة لإمكانية الدعوة للحق.

روى الإمام علي عليه السلام أن نبي الله صلى الله عليه وآله لما قال:

«السَّابِقُونَ إِلَى ظِلِّ الْعَرْشِ طُوبَى لَهُمْ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ هُمْ؟ فَقَالَ صلى الله عليه وآله: الَّذِينَ يَقْبَلُونَ الْحَقَّ إِذَا سَمِعُوهُ، وَيَبْدُلُونَهُ إِذَا سَأَلُوهُ، وَيَحْكُمُونَ لِلنَّاسِ كَحُكْمِهِمْ لِأَنفُسِهِمْ هُمْ السَّابِقُونَ إِلَى ظِلِّ الْعَرْشِ» ﴿٣﴾.

إمكان معرفة الحق والباطل

نقل عبدالله بن حمزة بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام:

«إِنَّ الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ - عليه السلام - قَالَ لِمُعَاوِيَةَ: (أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ نَارَعْتَ عَلِيًّا فَتَوَرَّطْتَ النَّارَ، وَفَارَزَ بِالْجَنَّةِ، إِنَّ عَلِيًّا - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ - كَانَ عَلَمًا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَكَانَ نُورَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يُسْتَضَاءُ بِهِ مِنْ ظُلْمِ الضَّلَالَةِ، فَكَيْفَ تَرَى فَضْلَ عَلِيٍّ - عليه السلام - وَهُوَ السَّابِقُ إِلَى الْفَضَائِلِ،

(١) طه: آية ٦١.

(٢) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، ج ٥، ص ٤٤٣.

(٣) الراوندي الكاشاني، فضل الله بن علي، النوادر: ص ١٥.

وَالْمَوْفِي بِالذِّمَّةِ، وَوَصِيَّ نَبِيِّ اللَّهِ - ﷺ - وَأَنْتَ طَلِيقُ ابْنِ طَلِيقٍ؟!»، فَقَامَ الْحَسَنُ - ﷺ - فَأَخَذَ بِيَدِهِ، وَكَانَ إِذَا أَمَرَهُ الْحَسَنُ اتَّمَرَ لَهُ، وَأَطَاعَهُ، وَلَمْ يَعُصِهِ^(١).

يفهم ضمناً من قول الإمام الحسين ﷺ: «إِنَّ عَلِيًّا - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ - كَانَ عَلِمًا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ» أن هناك حقاً وباطلاً، وأن معرفتهما ميسرة أيضاً.

يقول زيد بن علي بن الحسين ﷺ:

«قَالَ الْحَسِينُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَنْ دَعَا عَبْدًا مِنْ ضَلَالَةٍ إِلَى مَعْرِفَةِ حَقٍّ فَأَجَابَهُ، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ كَعَتَقِ نَسَمَةٍ»^(٢).

يستفاد ضمناً من قول الإمام الحسين ﷺ: «مَنْ دَعَا عَبْدًا مِنْ ضَلَالَةٍ إِلَى مَعْرِفَةِ حَقٍّ» إمكان معرفة الحق والوصول اليه.

نقل أبو بكر الهذلي:

«دَخَلَ الْحَارِثُ بْنُ حَوْطِ اللَّيْثِيِّ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا أَرَى طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ وَعَائِشَةَ احْتَجُّوا إِلَّا عَلَى حَقٍّ، فَقَالَ: يَا حَارِثُ، إِنَّكَ إِنْ نَظَرْتَ تَحْتَكَ وَلَمْ تَنْظُرْ فَوْقَكَ جُرْتَ عَنِ الْحَقِّ، إِنَّ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ لَا يُعْرِفَانِ بِالنَّاسِ، وَلَكِنْ اعْرِفِ الْحَقَّ بِاتِّبَاعِ مَنْ اتَّبَعَهُ، وَالْبَاطِلَ بِاجْتِنَابِ مَنْ اجْتَنَبَهُ»^(٣).

(١) المنصور بالله، عبدالله بن حمزة، الشافعي: ج ٣، ص ٢٨٥.

(٢) البغدادي، عبد العزيز بن إسحاق، مسند الإمام زيد: ص ٤٨٣.

(٣) الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي: ص ١٣٤، حديث ٢١٦.

ج) التعددية الدينية

يجدر بنا بداية وقبل ذكر كلمات الإمام الحسين عليه السلام المتعلقة بهذا الموضوع الإتيان بنبذة مختصرة حوله ليطلع القراء الكرام ولو بصورة إجمالية على زواياه ومسائله وأبحاثه.

تعريف الدين

قال العلامة الجعفري في تعريفه العام للـ«دين»:

«هناك اختلاف في وجهات النظر حول تعريف الدين، مثل الحقائق المتعلقة بقيم الإنسان العقلانية، إذ ينشأ ذلك عادة نتيجة الأحكام الذهنية والمعلومات المسبقة لدى المعرفين للدين ومختصاته. ولا نرى في هذا المقام ضرورة في بحث ودراسة اختلاف وجهات النظر والأسباب والعلل ونتائجها، ولهذا سنتطرق لبيان الجامع المشترك لتعاريف الدين التي قدّمها الفقهاء والمنظرون.

إنّ الدين عبارة عن: الاعتقاد بوجود إله واحد، عالم، قادر، غني، عادل مطلق وجامع لكل الصفات الكمالية، وقد خلق العالم على أساس الحكمة والعدل، وحث الإنسان على الحركة في ميدان السباق وصولاً للكمال. إنّ مبدأ ومقصد هذه الحركة، كما تدعو إليه فطرة الإنسان السليمة، جاء في آية من القرآن المجيد قوله عز وجل: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(١).

فالعقل والضمير الإنساني والأنبياء الإلهيون هم الأدلاء والمنظمون لهذه الحركة، قد بعثهم الله عزّت أسماؤه بين الناس، وبعدهم أوصياؤهم العلماء الربانيون الذين يديمون زخم حركتهم ويواصلون طريقهم.

فأول نبي هو آدم أبو البشر عليه السلام وآخرهم النبي محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله، وكتابه

السمائي، أي القرآن المجيد خالد دون أن يعتره نقص أو زيادة.

فما يمكنه أن يجعل حياة الإنسان ذات معنى وفلسفة وهدفية في عالم الوجود هو الدين، ويعني ذلك: من خلال ملاحظة جميع الأبعاد المرتبطة بوجود الإنسان وما أدرج حتى الآن من رؤى حول الهدف والفلسفة من حياة الإنسان، وليس لأي أحد ولا لأي مدرسة فكرية القدرة على تعيين هدف وفلسفة معقولة ومقنعة للحياة دون تقديم إجابة شافية للمسائل الأربع التالية:

١- علاقة الإنسان بنفسه.

٢- علاقة الإنسان بالله سبحانه.

٣- علاقة الإنسان بعالم الوجود.

٤- علاقة الإنسان بنوعه.

بحسب ما قبلناه من تعريف للدين نجد أنه قد تضمن إجابات عقلانية لكيفية تحقيق هذه العلاقات الأربع، وحدد هدفاً مقنعاً وفلسفة حكيمة لحياة الإنسان^(١).

تعريف التعددية

لفظة التعددية (Pluralism) مشتقة من مفردة (Plural) التي تعني بالإنجليزية الجمع، ومعناها لغوياً التعدد والتكثُر. وكان يطلق في الكنيسة (تعددي) على الشخص الذي يؤدّي عدّة مهام وأعمال في نفس الوقت.

ولهذا المصطلح معانٍ متعددة ومتنوعة ممّا صعب الخروج بقدر مشترك من مجملها. وعلى أي حال فإنّ المعنى المشهور له تعدد وتكثُر الأديان الحقّة، وللخروج من هذا النفق قالوا: يجب إطلاق شريعة التعدد على هذا المصطلح، وبهذا يصبح

(١) الجعفري التبريزي، محمد تقي، تكاوي اندیشهها (تجوال الأفكار)، مجموعة آثار: العدد ٢، ص ١٩٩-٢٠١.

هناك نوع من التناسب بين المعني الاصطلاحي واللغوي لهذه المفردة (الجمع)^(١).

تاريخ التعددية

يقال: إنّ اصطلاح التعددية جاء استخدامه أوّل مرّة من قبل الفيلسوف والعالم الطبيعي «هيرمان لوتز»^(٢) (١٨١٧-١٨٨١ م) سنة ١٨٤١ في كتابه «ما وراء الطبيعة»^(٣) قاصداً إبراز كثرة العناصر والعوامل في الطبيعة، ويكون بذلك أوّل من أوردته للفلسفة الغربية. فقد كان يعتقد أنّ الأشياء مع كثرتها في العالم إلاّ أنّ بينها حالة من الفعل والانفعال والتأثير والتأثر، إذن فهي ليست مستقلة عن بعضها؛ إذ لا معنى لأن يؤثر المستقل بآخر مستقل عنه دونما يكون بينهما نحو من الارتباط المعنوي.

بدأت التعددية الدينية في الغرب بحركة تدريجية من أقرب الصور وأكثرها ملاءمة (التعددية المعيارية والأخلاقية) وانسحبت حتّى بلغت اليوم أوجها وصارت معروفة بتعدد الأديان الحقّة.

الخطوة الثانية في تطور نظرية التعددية ما طرحه شخص البابا سنة ١٨٥٤ م من نجاة ومعذورية الجهّال من أتباع الأديان غير المسيحية، وتمّ الإعلان عن اعتبار المسلم المعذور موحداً في المجلس الثاني للفاثيكان في سنة ١٩٦٣-٥.

وأما «جون هيك»^(٤) (١٩٢٢-٢٠١٢ م) والذي يعدّ من أشهر المنظرين

(١) الهاشمي، حسين، «قرآن وكثرت گرايي ديني (پلوراليسم) مباني، زمينهها وانگيزهها» (القرآن والتعددية الدينية، الأسس والمجالات والدوافع)، مجلة پژوهش هاي قرآني (دراسات قرآنية): العدد ٣١، ١٣٨١ هـ. ش، ص ٥٦.

(2) Hermann Lotze.

(3) Metaphysics.

(4) John Hick.

المعاصرين للتعددية، يرى أنّ الخطوة التي قام بها الفاتيكان مهمّة وقيّمة لكنها ما تزال غير تامة؛ لأنّ ذلك الإعلان لا يشمل غير المسلمين، ولا المسلمين غير المعذورين. وسعيّاً منه لكسر جدران الاحتكار الديني أسس لآخر وجوه نظرية التعددية المعروفة بتعدد الحقيقة المعرفية، وتعني (تمتّع جميع الأديان بالحقانية والفلاح).

ووجدت أفكار التعددية طريقها بعد الغرب وعالم المسيحية إلى العالم العربي وشبه القارة الهندية. ويعبّر المفكرون العرب عن فكرة التعددية بـ«العلمانية» وانقسموا إلى طائفة موافقة وأخرى مخالفة، فكان مثل «حسن حنفي» و«نصر حامد أبو زيد» من الشخصيات المعاصرة المدافعة والمنظرة في بيان فكرة التعددية الدينية والحقيقة المعرفية وبسطها في العالم العربي.

ولأسباب مختلفة ودواعي متعددة ليس محل طرحها وبيانها هنا واجهت ترحيباً في شبه القارة الهندية أكثر من العالم العربي، وحاول خريجوا تيارات الفكر التعددي في النصف الأوّل من القرن العشرين من أمثال: «رادكرشينان» و«رويندو» التلفيق بين الديانة الهندية والمسيحية والخروج بمذهب أعم وتحصل عن ذلك ولادة مذهب جديد.

ويعود تاريخ الفكر التعددي في إيران إلى منتصف القرن السابق ولكن لم يكن تحت عنوان التعددية أو عناوين أخرى مثل الصراط المستقيمة أو... وإنّما تحت يافطة تعدد الأديان الحقّة وانحصار ذلك بالإسلام أو عدمه، وبرز أشخاص من قبيل: «الشيخ مجتبي القزويني» وبعده «العلامة الطباطبائي» و«المهندس بازرگان» و«الشهيد مطهري» ينظرون إلى الأديان الموجودة في العالم من نافذة وحدة الدين الحق.

طبعاً إن أردنا توجيه الأنظار للمسألة من داخل الدين، فإنّ أحقية الإسلام قد

جاء بيانها في القرآن بأوضح صورة، حيث عدّ الإسلام آخر رسالة سماوية في سلسلة الأديان الإلهية^(١).

استخدامات التعددية

ورد استعمال التعددية في مواضع متنوعة:

أ) التعددية السلوكية.

ب) تعددية الخلاص والفلاح.

ج) التعددية المعرفية التي تفترض حقانية جميع الأديان والمذاهب.

وهذا الفرض له ثلاث صور:

الأولى: أنّ الأديان تشتمل على الحق في مقام الثبوت والواقع ونفس الأمر.

الثانية: أنّها تشتمل على الحق في مقام الإثبات والخارج.

الثالثة: أنّها حق في مقام الثبوت والإثبات.

التعددية في مجال نظرية المعرفة

تمت المحافظة في هذا الإطلاق على وحدة الدين، وأعيد السبب وراء ما

حصل من التعدد إلى تنوع تأويلات الأنبياء الإلهيين، وبعبارة أخرى: إنّ ذلك

التعدّد لم يكن معلولاً لتأويل الأنبياء وإنّما جعله الله طبقاً للقدرات البشرية.

ووفقاً لهذا المعنى، سيكون الواقع مغايراً لما عندنا كما لم تنله يد أبداً ولن يصل

إلينا، فإنّ الحس عندما يلج في جهاز الإدراك يتأطر بمجموعة من التصورات

الذهنية المسبقة ويصطبغ بها، ولهذا لا يستطيع الإنسان أن يبلغ الواقع كما هو في أيّ

وقت من الأوقات.

(١) الهاشمي، حسين، «قرآن وكثرت گرایي ديني (پلوراليسم) مباني، زمينهها وانگیزهها» (القرآن

والتعددية الدينية، الأسس والمجالات والدوافع): ص ٥٦-٥٩.

بالطبع هذا الحكم يسري - بحسب ما ذهب إليه القائلون بهذه النظرية - إلى الأنبياء أيضاً فأولئك يبينون ما يتلقونه من الشهود المطلق متأثرين بالعوامل الأربعة، وحتماً سيكون تلقي كل واحد منهم مختلفاً عما يتلقاه الآخر. ومن هذا الطريق برز تعدد الدين وتكثره، وهذا ما جعل ثوب الحق والباطل لا يتناسب مع أيّ منها. هذه نتيجة تفسير التعددية وفق معطيات نظرية المعرفة وهو ما يصرح به المؤمنون بهذه النظرية.

الاتجاهات والأيدولوجيات المختلفة

هناك عدّة اتجاهات وأيدولوجيات متنوعة في التعددية الدينية والمعرفية، منها:

١- تبادل وجهات النظر والحوار بين الأديان

وقد فسر هذا التوجه بعدة تفسيرات:

أ) يجب أن يقوم المتدينون بدراسة الأسس الدينية لجميع الأديان متبعين بذلك المنهج العقلي والمنطقي، ويستمعون إلى سائر الأديان بشفافية ويحكمون المعايير والضوابط العقلانية حتى يتعرفوا إلى الدين الأصح.

هذا الاتجاه مقبول من المنظور القرآني:

قال عز من قائل:

﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ ﴿١﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢﴾﴾^(١).

ب) تبادل وجهات النظر والحوار بين الأديان من منظور علمي النفس والاجتماع، بمعنى أن يجلس المتدينون ومعتنقو المذاهب المختلفة للحوار مع بعضهم إحساساً بالحاجة لتألف القلوب وتقاربها.

(١) الزمر: آية ١٧-١٨.

يقول سبحانه وتعالى:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُم بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١).

وقال أيضاً:

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٢).

(ج) الحوار بين الأديان انطلاقاً من التشكيك في معتقداتهم الدينية. وهذا التفسير إضافة إلى أنه يهدم نظام الحوار يتنافى كذلك مع ما يوصي به مذهب أهل البيت عليه السلام وما أنتجه من ثمرات ومكتسبات.

قال الإمام علي عليه السلام:

«أَفْضَلُ السَّعَادَةِ اسْتِقَامَةُ الدِّينِ»^(٣).

وقال أيضاً:

«مَا آمَنَ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ مَنْ سَكَنَ الشُّكَّ قَلْبُهُ»^(٤).

٢. النسبية والتشكيك المعرفي

طبقاً لهذه النظرية، هناك تمايز واختلاف بين الواقع في نفسه والواقع عندنا بنحو غير قابل للحل، بحيث تنتهي هذه النظرية إلى نوع من النسبية والشكاكية.

وهذا الاتجاه لا يسلم من الإشكال من نواحي عدّة منها:

(أ) هذه النظرية لا يمكنها تبرير فكرة الصراط المستقيمة، هذا إن لم يلزم منها اعتبار جميع التفاسير الدينية صراطاً غير مستقيمة ومعارف غير صحيحة.

(ب) عند التأمل في الآيات القرآنية نلاحظ الرفض الإلهي لهذا الاعتقاد، وهذا

(١) النحل: آية ١٢٥.

(٢) العنكبوت: آية ٤٦.

(٣) الأمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ١٨٦، حديث ٤١.

(٤) المصدر السابق: ص ٦٨٧، حديث ٨٠.

ما يشير إليه استخدام مفردة «بينات» في الردّ على ما يسوقه المشككون من أعذار ومبررات. والمتحصل من هذا أن الوصول للحق والحقيقة أمر ممكن وليس محالاً. فقد جاء في بعض الآيات القرآنية الكريمة عتاب وتوبيخ لمن امتلأت قلوبهم شكاً، كقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاحْتَلَفَ فِيهِ^١ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ^(١)﴾.

وقوله أيضاً:

﴿قَالَتْ رَسُولُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ^(٢)﴾.

٣. التعددية الدينية وفقاً لأسس الهرمنيوطيقا الجديدة

يرى هذا الاتجاه أن النصوص الدينية صامته وخالية من المعنى، ومؤداه أن كل معرفة دينية ذاتية مائة بالمائة.

هذه الفكرة ترد عليها عدّة إشكالات نشير إلى نوعين منها:

(أ) من خارج الإطار الديني:

ويتضح الإشكال من خلال ذكر مجموعة من المقدمات، وهي:

- لم يتبع الله سبحانه وتعالى لبيان معارفه لساناً جديداً ومستقلاً.

- الهدف من الخلقة هو الوصول إلى الكمال المطلق.

- يُبَيِّن في القرآن الكريم سبيل الوصول للكمال المطلق.

- طريق الوصول لمعارف القرآن يتم عبر الاستفادة من نصوصه وظهوراته

دون فروض مسبقة.

(١) هود: آية ١١٠.

(٢) إبراهيم: آية ١٠.

- الرجوع إلى القرآن الكريم دون فروض مسبقة أمر ممكن وإلا لزم منه التعليق على المحال.

- الحق هو بلوغ الواقع وإدراك نفس الأمر.

النتيجة: إمكانية إدراك الحقائق القرآنية.

(ب) من داخل الإطار الديني:

يرد على هذا الاتجاه أيضاً إشكالات من داخل الإطار الديني، حيث تخالفه ظواهر القرآن والنصوص الروائية.

فخالفه القرآن حيث بين الميزان للوصول إلى الحق وإدراكه، حيث جاء فيه:

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾^(١).

قال الإمام علي عليه السلام:

«فَالْقُرْآنُ أَمْرٌ رَاجِحٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ، حُجَّةٌ اللهُ عَلَى خَلْقِهِ»^(٢).

٤. الاتجاه الديني القائل بأحقية جميع الأديان الإلهية وشبهها

وفقاً لهذا الاتجاه لا يتصور أي فرق معرفي بين الأديان فيما بينها سواء الإلهية منها أم البشرية.

المؤاخذات العقلية على التعددية الدينية

بعد الرجوع إلى العقل وقواعده الثابتة نكتشف مجموعة من الإشكالات ترد على الاعتقاد بهذه النظرية، ومنها:

(١) النحل: آية ٨٩.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ١٨٣.

١. التعددية واجتماع النقيضين

عند مراجعتنا لما تضمّنته الأديان من اعتقادات وقناعات وأفكار نكتشف أنّ هناك الكثير من التناقض فيما بينها، والقول بالتعددية يخالف ما نعلمه من أنّ النقيضين لا يمكن أن يكون كلاهما على حق؛ وذلك لاستحالة حمل عدّة محمولات متناقضة على موضوع واحد، ومن الأمثلة على ذلك: الاعتقاد بالتوحيد والثنوية والثلاثية.

٢. التعددية والتهديم الذاتي

بما أنّ التعددية هي واحدة من النظريات الثلاث المطروحة في مسألة كثرة الأديان ووحدتها، ويقع في مقابلها النظرة الانحصارية؛ لذا فإنّ مقتضى هذا الاعتقاد يتم على مدعيه أن لا يصروا على أحقية رأيهم والقول ببطلان الآراء الأخرى.

٣. التعددية وامتناع الإيمان

وفقاً للأسس التي قامت عليها التعددية الدينية يصبح جميع ما نمتلكه عن الدين من مفاهيم وما نستوعبه من مبادئه لا يتعدّى قشوره ولا ينفذ إلى بطونه ولبّه؛ لأنّ الأفهام كلّها من الممكن أن تكون على خطأ وليس هناك فهم صادق مصدّق، ودائماً ما يمثّل فهمنا الحاصل المشترك لما نتلقاه من المحيط الخارجي ودوافعنا الداخلية.

وفي النتيجة: يغدو الإنسان غير قادر على الإيمان بشيء؛ لأنّ الإيمان عقد قلبي يقوم على اليقين، ولذا قال الإمام علي عليه السلام:

«الْإِيْمَانُ شَجَرَةٌ أَصْلُهَا الْيَقِيْنُ»^(١).

(١) الأمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٩٥، حديث ١٨١١.

٤. التعددية تقتضي عدم حجية النصوص

عطفاً على الإشكال المتقدم، ستسقط جميع النصوص الدينية وظواهرها عن الحجية؛ لأنّ ما نتوصل إليه - طبقاً لرأيهم - شيئاً غير الواقع وغير ما أراده المتكلم، بينما لا يخامر أحد الشك في حاجة البشرية للوحي وبيانه وشرحه من قبل النبي ﷺ، وهذا لا يتمّ إلا بالنصوص الدينية.

٥. التعددية ولفوية الإيمان والإطاعة

بما أنّ التعددية تعني تباين الثقافات والأديان، وأنّ الجميع من أهل الفلاح والصلاح، فهل يمكن للإنسان في هذه الحالة أن يؤمن بتلك المعتقدات المتعارضة من قبيل: عقيدة التوحيد والثنوية والتثليث، والجبر والتفويض، وينقاد لما يترتب عليها من آثار ويعمل طبقاً لها.

٦. التعددية وإنكار دور الدين الإرشادي

إنّ ما اقتضته هداية الحق سبحانه وتعالى هي أن ينسخ الدين الحاضر السابق انطلاقاً من ضرورة موازنة التكامل التدريجي للبشرية بما يتلاءم مع سعة الأفهام وسدّ حاجات الإنسان المعاصر المتنوعة، حتّى يأتي بدين جامع متكامل يزخر بالمؤهلات التي تمكنه من تدبير ومسيرة تنوع الظروف واختلاف العصور وبلوغ الحياة الإنسانية غايتها القصوى في التطور واستمرار حركة البشر التكاملية. فإنّ الإصرار على كفاية وصحة الإيمان بالأديان المنسوخة والمحرفّة و... سعي لإفشال برامج الهداية الإلهية ومعارضة السنّة ومشية التاريخ الإلهي.

مخالفة القرآن للتعددية الدينية

بعدما نراجع آيات القرآن الكريم نلاحظ المخالفة الصريحة والواضحة لهذه

النظرية من قبل الشرع والدين الاسلامي. وهنا سنذكر آيات قرآنية في مجموعات مختلفة تثبت هذا المطلب:

١. أخذ العهد والميثاق على الأمم السابقة

أخذ الله سبحانه العهد والميثاق على جميع الأنبياء والأمم السابقة بوجوب اتباع دين النبي محمد صلى الله عليه وآله والإيمان به حين ظهوره. جاء في القرآن الكريم:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾^(١).

٢. القرآن كتاب مهيمن وناسخ

قال تعالى:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾^(٢).

٣. النبي محمد صلى الله عليه وآله رسول عالمي

قال سبحانه وتعالى:

﴿بَارِكْ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾^(٣).

(١) آل عمران: آية ٨١.

(٢) المائدة: آية ٤٨.

(٣) الفرقان: آية ١.

٤. القرآن كتاب عالمي

يقول عزّ من قائل:

﴿بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾^(١).

٥. البشارة بالإسلام في التوراة والإنجيل

يقول عزّ من قائل:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾^(٢).

٦. دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام وتوبيخهم

ورد في القرآن الكريم:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٣).

وجاء فيه أيضاً:

﴿وَمَا آمَنُوا بِمَا أَنْزَلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾^(٤).

(١) الفرقان: آية ١.

(٢) الصف: آية ٦.

(٣) المائدة: آية ١٥-١٦.

(٤) البقرة: آية ٤١.

٧- الأمة الإسلامية أفضل الأمم

ورد في القرآن الكريم:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾^(١).

وجاء أيضاً:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾^(٢).

٨- غلبة الإسلام على الأديان الأخرى

جاء في القرآن الكريم:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾^(٣).

٩- الإسلام شرط اهتداء أهل الكتاب

ورد في القرآن الكريم قوله تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دَخَلْنَا لَهُمُ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾^(٤).

١٠- أمر أهل الكتاب بالإيمان

لقد ورد في القرآن الكريم:

﴿وَأْمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِئِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيتِي تَمَنَّا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ﴾^(٥).

(١) البقرة: آية ١٤٣.

(٢) آل عمران: آية ١١٠.

(٣) الفتح: آية ٢٨.

(٤) المائدة: آية ٦٥.

(٥) البقرة: آية ٤١.

١١- النهي عن تغيير الدين

حيث جاء في القرآن الكريم:

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فِرْقَاءَ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾^(١).

وجاء أيضاً:

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ وَلَئِن آتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾^(٢).

١٢- الوعد بالعذاب لعدم الإيمان بالدين الجديد

ورد في القرآن العزيز:

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۗ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾^(٣).

١٣- وقوع التحريف في كتب الأديان الأخرى

لقد جاء في القرآن الكريم:

﴿أَفَنظَمُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٤).

١٤- وحدة الصراط المستقيم

هناك الكثير من الآيات القرآنية الشريفة قد تناولت الصراط واصفة إياه بأوصاف من قبيل: «مستقيم» أو «سوي»، وتشير إلى نوع خاص من الصراط، وذلك بإضافته إلى مفردات مثل: «رَبِّي» و«رَبِّكَ»، و«العزیز»، و«الحمید»، و«الله»،

(١) آل عمران: آية ١٠٠ .

(٢) البقرة: آية ١٢٠ .

(٣) النساء: آية ٤٧ .

(٤) البقرة: آية ٧٥ .

«ياء المتكلم»، وتعدّ الطرق الأخرى منحرفة.

قال سبحانه وتعالى:

﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١).

وقال أيضاً:

﴿وَمِنَ آيَاتِهِمْ وَذَرَيْنَهُمْ وَإِخْوَانَهُمْ وَأَحْبَبَيْنَهُمْ وَهَدَيْنَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٢).

١٥. الدعوة إلى الإسلام

ترى بعض الآيات والروايات وجوب دعوة الناس إلى الإسلام، وهذه الدعوة لا تخص المشركين وإنما تعمّ حتى أهل الكتاب كاليهود والنصارى أيضاً.

فقد نقل عن ابن عباس في تفسير الآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ

نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾^(٣) أنه قال:

«دَعَا النَّبِيُّ عليه السلام الْيَهُودَ إِلَى الْإِسْلَامِ فَقَالُوا: بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا؛ فَهُمْ كَانُوا

أَعْلَمَ مِنَّا، فَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ»^(٤).

١٦. نقد عقائد أهل الكتاب

هناك نصوص كثيرة انتقدت عقائد وتصرفات اليهود والنصارى، وعدّتها

بصراحة باطلة وغير مصيبة. وأدناه نشير إلى بعضها:

- ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ

يَشَاءُ﴾^(٥).

(١) البقرة: آية ١٤٢.

(٢) الأنعام: آية ٨٧.

(٣) البقرة: آية ١٧٠.

(٤) الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن: ج ١، ص ٤٦١.

(٥) المائدة: آية ٦٤.

- ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيهِمْ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَا لَهُمُ اللَّهَ أَنْفٌ يُؤْفَكُونَ ﴾^(١).

- ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾^(٢).

- ﴿ يَتَّاهَلُ الْكُتَّابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ يَتَّاهَلُ الْكُتَّابُ لِمَ تَلْبُسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾^(٣).

- ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثُلَاثَةٍ وَمَنْ مِنْ آلِهِ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾^(٤).

مخالفة الأحاديث للتعددية الدينية

عند ملاحظتنا الأحاديث الإسلامية الواردة عن النبي الأكرم ﷺ وأهل بيته عليهم السلام نستكشف أنهم لم يعتقدوا بالتعددية الدينية أبداً ويرفضونها بشكل تام. وهنا نذكر مجموعة من الروايات في هذا الصدد:

١- جاء في الحديث القدسي أن الله تعالى قال:

«حَقَّ عَلَيَّ أَنْ أُظْهِرَ دِينَكَ عَلَى الْأَدْيَانِ، حَتَّى لَا يَبْقَى فِي شَرْقِ الْأَرْضِ وَغَرْبِهَا دِينٌ إِلَّا دِينِكَ، وَيُؤَدُّونَ إِلَيَّ أَهْلَ دِينِكَ الْجَزِيَّةَ»^(٥).

(١) التوبة: آية ٣٠.

(٢) التوبة: آية ٣١-٣٢.

(٣) آل عمران: آية ٧٠-٧١.

(٤) المائدة: آية ٧٣.

(٥) الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج ١، ص ٢٢٢.

٢- يقول رسول الله ﷺ:

«... لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَتْبَاعِي»^(١).

٣- وقال كذلك:

«إِنَّ اللَّهَ ﷻ جَعَلَ كِتَابِي الْمَهِيمِينَ عَلَى كُتُبِهِمِ النَّاسِخَ هَا»^(٢).

٤- وقال أيضاً:

«مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَأَقْتُلُوهُ»^(٣).

٥- وقال كذلك:

«إِذَا اخْتَلَفَ النَّاسُ، كَانَ ابْنُ سُمَيَّةَ مَعَ الْحَقِّ»^(٤).

٦- وقال ﷺ:

«لَا يَمْنَعَنَّ أَحَدَكُمْ مَخَافَةَ النَّاسِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِحَقِّ عِلْمِهِ»^(٥).

٧- وقال ﷺ:

«اقْبَلِ الْحَقَّ مِمَّنْ أَتَاكَ بِهِ مِنْ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ وَإِنْ كَانَ بَغِيضاً أَوْ بَعِيداً، وَارْذُدِ الْبَاطِلَ

عَلَى مَنْ جَاءَ بِهِ مِنْ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ وَإِنْ كَانَ حَسِيباً قَرِيباً»^(٦).

٨- وقال الإمام علي عليه السلام:

«مَنْ صَارَعَ الْحَقَّ صُرَعًا»^(٧).

(١) ابن بابويه، محمد بن علي، معاني الأخبار: ص ٢٨٢.

(٢) الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج ٦١، ص ٥٠.

(٣) ابن حيون، النعمان بن محمد، دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام: ج ٢، ص ٤٨٠.

(٤) الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء: ج ١، ص ٤١٦.

(٥) المصدر السابق: ج ١١، ص ٢٣٢.

(٦) الديلمي، شيرويه بن شهردار، الفردوس بمأثور الخطاب: ج ١، ص ٤٣٣، حديث ١٧٦٢.

(٧) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد: ج ١، ص ٣٠٠.

٩- كذلك قال:

«حَقٌّ وَبَاطِلٌ وَلِكُلِّ أَهْلٍ»^(١).

١٠- وقال أيضاً:

«مَنْ أَبَدَى صَفْحَتَهُ لِلْحَقِّ هَلَكَ»^(٢).

١١- وقال عليه السلام:

«رَأْسُ الْحِكْمَةِ لِرُؤْمِ الْحَقِّ»^(٣).

١٢- كذلك قال عليه السلام:

«عَلَيْكُمْ بِمُوجِبَاتِ الْحَقِّ فَالزُّمُوهَا»^(٤).

١٣- قال عليه السلام:

«الْحَقُّ مَنْجَاةٌ لِكُلِّ عَامِلٍ»^(٥).

١٤- قال عليه السلام:

«قَلِيلُ الْحَقِّ يَدْفَعُ كَثِيرَ الْبَاطِلِ، كَمَا أَنَّ الْقَلِيلَ مِنَ النَّارِ يُحْرِقُ كَثِيرَ الْحَطَبِ»^(٦).

١٥- كذلك قال عليه السلام:

«إِصْبِرْ عَلَى مَضَضِ مَرَارَةِ الْحَقِّ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَنْخَدِعَ لِحَلَاوَةِ الْبَاطِلِ»^(٧).

١٦- قال عليه السلام:

«الْحَقُّ سَيْفٌ عَلَى أَهْلِ الْبَاطِلِ»^(٨).

(١) نهج البلاغة: خطبة ١٦.

(٢) المصدر السابق: الكلمات القصار ١٨٨.

(٣) الآمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٣٧٦، حديث ٢.

(٤) المصدر السابق: ص ٤٤٨، حديث ٥.

(٥) المصدر السابق: ص ٧٧، حديث ١٤٨٣.

(٦) المصدر السابق: ص ٤٩٨، حديث ٢٣.

(٧) المصدر السابق: ص ١٤٩، حديث ٢٤٦.

(٨) المصدر السابق: ص ٧٧، حديث ١٤٨٢.

١٧- قال عليه السلام:

«لَا دَلِيلَ أَنْصَحُ مِنْ اسْتِئَاعِ الْحَقِّ»^(١).

١٨- وكذلك قال عليه السلام للحارث بن حوط:

«إِنَّ دِينَ اللَّهِ لَا يُعْرَفُ بِالرَّجَالِ بَلْ بِآيَةِ الْحَقِّ، فَأَعْرِفِ الْحَقَّ تَعْرِفْ أَهْلَهُ»^(٢).

١٩- قال الإمام الباقر عليه السلام:

«إِصْبِرْ نَفْسَكَ عَلَى الْحَقِّ، فَإِنَّهُ مَنْ مَنَعَ شَيْئاً فِي حَقِّ أُعْطِيَ فِي بَاطِلٍ مِثْلِيهِ»^(٣).

٢٠- قال الإمام الصادق عليه السلام:

«لَيْسَ مِنْ بَاطِلٍ يَقُومُ بِإِزَاءِ الْحَقِّ إِلَّا غَلَبَ الْحَقُّ الْبَاطِلَ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ عز وجل: ﴿

نَقَذُفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَعُهُ، فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾»^(٤)^(٥).

٢١- وقال أيضاً:

«الْعِزُّ أَنْ تَدُلَّ لِلْحَقِّ إِذَا لَزِمَكَ»^(٦).

٢٢- قال الإمام الكاظم عليه السلام لهشام:

«لَوْ كَانَ فِي يَدِكَ جَوْزَةٌ وَقَالَ النَّاسُ: فِي يَدِكَ لَوْلُؤَةٌ، مَا كَانَ يَنْفَعُكَ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهَا

جَوْزَةٌ، وَلَوْ كَانَ فِي يَدِكَ لَوْلُؤَةٌ وَقَالَ النَّاسُ: إِنَّهَا جَوْزَةٌ، مَا ضَرَّكَ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهَا لَوْلُؤَةٌ»^(٧).

فيتضح جلياً من هذه الروايات وغيرها أن الحق واحد وفي متناول يد الإنسان.

(١) الكراجكي، محمد بن علي، كنز الفوائد: ج ٢، ص ١٨٢.

(٢) المفيد، محمد بن محمد، الأمالي: ص ٥، حديث ٣.

(٣) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٩٦.

(٤) الأنبياء: آية ١٨.

(٥) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٨، ص ٢٤٢، حديث ٣٣٤.

(٦) المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: ج ٧٥،

ص ٢٢٨، حديث ١٠٥.

(٧) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٣٨٦.

الدين في كلمات الإمام الحسين عليه السلام

في روايات الإمام الحسين عليه السلام تعرضت لأصل الدين والأبحاث المتعلقة به.

العافية في الدين

طلب الإمام الحسين عليه السلام من الله سبحانه العافية في دعاء عرفة، حين قال:

«عَافِنِي فِي بَدَنِي وَدِينِي»^(١).

حيث يستفاد من هذا الدعاء أن على الإنسان أيضاً الاهتمام بالسلامة في الدين والتفكير بها ومن أين يحصل عليها ومن، كما يعيش دائماً مشغول البال بطلب العافية في البدن ويوليها اهتماماً بالغاً.

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«إِنَّ الْعَافِيَةَ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا لِنِعْمَةٍ جَمِيلَةٍ وَمَوْهَبَةٍ جَزِيلَةٍ»^(٢).

تأثير التدين في الحيلولة دون قتل المظلوم

ذكر البلاذري في (أنساب الأشراف):

«قَالُوا: ثُمَّ إِنَّ شِمْرَ بْنَ ذِي الْجَوْشَنِ أَقْبَلَ فِي عَشْرَةٍ أَوْ نَحْوِهِمْ مِنْ رِجَالِ أَهْلِ الْكُوفَةِ قَبْلَ مَنْزِلِ الْحُسَيْنِ الَّذِي فِيهِ ثِقْلُهُ وَعِيَالُهُ، فَمَسَى نَحْوَهُمْ فَحَالُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَحْلِهِ، فَقَالَ لَهُمْ: وَيْحَكُمْ! إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ دِينٌ فَكُونُوا فِي أَمْرِ دُنْيَاكُمْ أَحْرَاراً، ائْتَعُوا أَهْلِي مِنْ طَغَامِكُمْ وَسُقْمَائِكُمْ»^(٣).

وذكر الإربلي:

«فَصَاحَ الْحُسَيْنُ عليه السلام: وَيْحَكُمْ يَا شَيْعَةَ الشَّيْطَانِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ دِينٌ وَلَا تَخَافُونَ

(١) الكفعمي، إبراهيم بن علي، البلد الأمين: ص ٢٥٨.

(٢) الأمدى، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٢٥٤، حديث ٣٢٨.

(٣) البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج ٣، ص ٤٠٧.

المَعَادَ فَكُونُوا أَحْرَاراً وَارْجِعُوا إِلَى أَنْسَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ أَعْرَاباً كَمَا تَزْعُمُونَ، أَنَا الَّذِي أَقَاتِلُكُمْ فَكُفُّوا سُفْهَاءَكُمْ وَجَهَالَكُمْ عَنِ التَّعَرُّضِ لِحَرَمِي، فَإِنَّ النِّسَاءَ لَمْ يُقَاتِلْنَكُمْ»^(١).

وقال الخوارزمي:

«ثُمَّ إِنَّهُ عليه السلام دَعَا النَّاسَ إِلَى الْبِرَازِ، فَلَمْ يَزَلْ يَقْتُلُ كُلَّ مَنْ دَنَا إِلَيْهِ مِنْ عُيُونِ الرَّجَالِ، حَتَّى قَتَلَ مِنْهُمْ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً، فَحَالُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَحْلِهِ، فَصَاحَ بِهِمْ: وَيَحْكُمُ يَا شَيْعَةَ آلِ أَبِي سُفْيَانَ، إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ دِينٌ وَكُنْتُمْ لَا تَخَافُونَ الْمَعَادَ فَكُونُوا أَحْرَاراً فِي دُنْيَاكُمْ هَذِهِ، وَارْجِعُوا إِلَى أَحْسَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ عُرْباً كَمَا تَزْعُمُونَ.

فَنَادَاهُ شِمْرٌ: مَا تَقُولُ يَا حُسَيْنُ؟ فَقَالَ: أَقُولُ: أَنَا الَّذِي أَقَاتِلُكُمْ وَتُقَاتِلُونِي، وَالنِّسَاءَ لَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ، فَاْمْنَعُوا عُنَاتِكُمْ وَطُغَاتِكُمْ وَجَهَالِكُمْ عَنِ التَّعَرُّضِ لِحَرَمِي مَا دُمْتُ حَيًّا. فَقَالَ لَهُ شِمْرٌ: لَكَ ذَلِكَ يَا بَنَ فَاطِمَةَ، ثُمَّ صَاحَ شِمْرٌ بِأَصْحَابِهِ: إِلَيْكُمْ عَنْ حَرَمِ الرَّجُلِ، وَأَقْصِدُوهُ بِنَفْسِهِ، فَلَعِمْرِي هُوَ كُفُوٌ كَرِيمٌ»^(٢).

إذ يتبين بوضوح من خطاب الإمام لشبيعة آل أبي سفيان أن للتدين آثاراً من بينها الامتناع عن قتل المظلوم.

عن أبي الصباح الكناني أنه قال:

«قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ: إِنْ لَنَا جَاراً مِنْ هَمْدَانَ يُقَالُ لَهُ: الْجَعْدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ يَسُبُّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أَقْتُلَهُ؟ قَالَ: إِنَّ الْإِسْلَامَ قَيْدُ الْفَتَكِ، وَلَكِنْ دَعُهُ فَسْتُكْفِي بِغَيْرِكَ...»^(٣).

تأثير حب الدنيا في ضياع القيم الدينية والعرفية

يتضح كذلك من مضمون خطاب الإمام عليه السلام لشبيعة آل أبي سفيان أن جيش عمر

(١) الإربلي، علي بن عيسى، كشف الغمة في معرفة الأئمة: ج ٢، ص ٥٠-٥١.

(٢) أخطب خوارزم، الموفق بن أحمد، مقتل الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ٣٨.

(٣) ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب عليهم السلام: ج ٤، ص ٢٣٩.

بن سعد قد تركوا القيم والمبادئ الدينية والعرفية خلف أظهرهم، وتعرضوا للنواميس والمقدسات الإلهية بالإساءة، وبلغ بهم الأمر أن يقتلوا إمامهم، ويعود ذلك كله إلى حبهم الدنيا وطمعهم بها، وعمر بن سعد من النماذج البارزة على هذه الحقيقة.

قال الإمام علي عليه السلام:

«حُبُّ الدُّنْيَا يُفْسِدُ الْعُقْلَ، وَيُصِمُّ الْقَلْبَ عَنْ سَمَاعِ الْحِكْمَةِ، وَيُوجِبُ أَلِيمَ الْعِقَابِ»^(١).

تأثير عدم الدين في الخروج على الإمام بالحق

حيث يدل مضمون الحديث الأخير للإمام الحسين عليه السلام من جملة «إن لم يكن لكم دين...» بأن كل شخص متدين متقٍ لن يقدم على ارتكاب الجرائم ولن يخرج على الإمام بالحق.

قال الإمام علي عليه السلام:

«الَّذِينَ يَعْصِمُ»^(٢).

ارتباط الإنسان بالآخرة عن طريق الدين

يتحصل من مضمون الحديث الأخير للإمام الحسين عليه السلام من قوله: «إن لم يكن لكم دين...» أن الإنسان يمكنه أن ينال التقوى ويرتبط بالآخرة بواسطة الدين.

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«إِنَّ صَاحِبَ الدِّينِ فَكَّرَ فَعَلَّتْهُ السَّكِينَةُ، وَاسْتَكَانَ فَتَوَاضَعَ، وَقَنَعَ فَاسْتَغْنَى، وَرَضِيَ بِمَا أُعْطِيَ، وَأَنْفَرَدَ فَكُفِيَ الْإِخْوَانَ، وَرَفَضَ الشَّهَوَاتِ فَصَارَ حُرًّا، وَخَلَعَ الدُّنْيَا فَتَحَامَى الشُّرُورَ، وَاطَّرَحَ الْحَسَدَ فَظَهَرَتِ الْمَحَبَّةُ، وَلَمْ يُخَفِ النَّاسَ فَلَمْ يَخْفَهُمْ، وَلَمْ يُذْنِبِ إِلَيْهِمْ فَسَلِمَ مِنْهُمْ، وَسَخَتْ نَفْسُهُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ فَفَارَزَ وَاسْتَكَمَلَ الْفَضْلَ، وَأَبْصَرَ الْعَاقِبَةَ فَأَمِنَ النَّدَامَةَ»^(٣).

(١) الأمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٣٤٨-٣٤٩، حديث ١٢.

(٢) المصدر السابق: ص ١٧، حديث ١.

(٣) المفيد، محمد بن محمد، الأمالي: ص ٥٢، حديث ١٢.

لزوم العمل بالدين

قال الإمام الحسين عليه السلام أثناء مسيره إلى كربلاء:

«إِنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا قَدْ تَغَيَّرَتْ وَتَنَكَّرَتْ، وَأَدْبَرَ مَعْرُوفُهَا، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الْإِنَاءِ، وَخَسِيسُ عَيْشٍ كَالْمَرْعَى الْوَيْبِلِ، أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ الْحَقَّ لَا يُعْمَلُ بِهِ، وَأَنَّ الْبَاطِلَ لَا يُتَنَاهَى عَنْهُ؟! لِيَرَعَبَ الْمُؤْمِنُ فِي لِقَاءِ اللَّهِ مُحَقَّقًا، فَإِنِّي لَا أَرَى الْمَوْتَ إِلَّا سَعَادَةً، وَلَا الْحَيَاةَ مَعَ الظَّالِمِينَ إِلَّا بَرَمًا. إِنَّ النَّاسَ عَبِيدُ الدُّنْيَا، وَالَّذِينَ لَعَنُوا عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، يَحْوِطُونَهُ مَا دَرَّتْ مَعَايِشُهُمْ، فَإِذَا مُحْضُوا بِالْبَلَاءِ قَلَّ الدِّيَانُونَ»^(١).

يستفاد من ذيل هذا الحديث ضرورة العمل بالدين ووجوبه على الجميع.

نقل عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«إِنَّمَا الْمُسْتَحْفَظُونَ لِذِينَ اللَّهِ هُمُ الَّذِينَ أَقَامُوا الدِّينَ وَنَصَرُوهُ، وَحَاطُوهُ مِنْ كُلِّ جَوَانِبِهِ، وَحَفِظُوهُ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ وَرَعَوَهُ»^(٢).

حرمة إفساد الدين

روى الكليني بسنده عن أبي سعيد أنه قال:

«مَرَرْتُ بِالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا وَهُمَا فِي الْفُرَاتِ مُسْتَنْفَعَانِ فِي إِزَارَيْنِ، فَقُلْتُ لَهُمَا: يَا ابْنَي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكُمَا الْإِزَارَيْنِ، فَقَالَا لِي: يَا أَبَا سَعِيدٍ، فَسَادْنَا لِلْإِزَارَيْنِ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ فَسَادِ الدِّينِ، إِنَّ لِلْمَاءِ أَهْلًا وَسُكَّانًا كَسُكَّانِ الْأَرْضِ، ثُمَّ قَالَا: إِلَى أَيْنَ تُرِيدُ؟ فَقُلْتُ: إِلَى هَذَا الْمَاءِ، فَقَالَا: وَمَا هَذَا الْمَاءُ؟ فَقُلْتُ: أُرِيدُ دَوَاءَهُ أَشْرَبُ مِنْ هَذَا الْمَرِّ لِعَلَّةِ بِي، أَرْجُو أَنْ يَخْفَ لَهُ الْجَسَدُ وَيُسَهِّلَ الْبَطْنَ، فَقَالَا: مَا نَحْسَبُ أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ فِي شَيْءٍ قَدْ لَعَنَهُ شِفَاءً، قُلْتُ: وَلِمَ ذَلِكَ؟ فَقَالَا: لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمَّا أَسَفَهُ قَوْمُ نُوحٍ عَلَيْهِ فَتَحَ السَّمَاءَ بِمَاءٍ مِنْهُمِ وَأَوْحَى إِلَى الْأَرْضِ فَاسْتَعْصَمَتْ عَلَيْهِ عِيُونُ مِنْهَا فَلَعَنَهَا وَجَعَلَهَا مِلْحًا أَجَاجًا، وَفِي رِوَايَةِ مُحَمَّدَانَ بْنِ سُلَيْمَانَ أَنَّهَا عَلَيْهِ السَّلَامُ

(١) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٤٥.

(٢) الأمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٢٧٦، حديث ٥٣.

قَالَا: يَا أَبَا سَعِيدٍ، تَأْتِي مَاءٌ يُنْكِرُ وَلَا يَتَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَرَضَ وَلَا يَتَنَا عَلَى الْمِيَاهِ فَمَا قَبِلَ وَلَا يَتَنَا عَذْبٌ وَطَابٌ، وَمَا جَحَدَ وَلَا يَتَنَا جَعَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُرًّا أَوْ مِلْحًا أَجَاًّا»^(١).

فيدلنا مضمون هذا الكلام على مدى قبح إفساد الإنسان لدينه.

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«فَإِذَا حَضَرَتْ بَلِيَّةٌ فَاجْعَلُوا أَمْوَالَكُمْ دُونَ أَنْفُسِكُمْ، وَإِذَا نَزَلَتْ نَارِلَةٌ فَاجْعَلُوا أَنْفُسَكُمْ دُونَ دِينِكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْهَالِكَ مَنْ هَلَكَ دِينُهُ، وَالْحَرِيبَ مَنْ حُرِبَ دِينُهُ»^(٢).

وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه يقول حين المصيبة:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَجْعَلْ مُصِيبَتِي فِي دِينِي، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَوْ شَاءَ أَنْ يَجْعَلَ مُصِيبَتِي أَعْظَمَ مِمَّا كَانَتْ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى الْأَمْرِ الَّذِي شَاءَ أَنْ يَكُونَ فَكَانَ»^(٣).

معالم دين الله

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال في إحدى خطبه:

«اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ لَمْ يَكُنْ مَا كَانَ مِنَّا تَنَافُسًا فِي سُلْطَانٍ وَلَا التَّيَاسًا مِنْ فَضُولِ الْحَطَامِ، وَلَكِنْ لِنُرِيَ الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ وَنُظْهِرَ الْإِصْلَاحَ فِي بِلَادِكَ وَيَأْمَنَ الْمُظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ وَيَعْمَلَ بِفَرَائِضِكَ وَسُنَنِكَ وَأَحْكَامِكَ، فَإِنْ لَمْ تَنْصُرْنَا وَتَنْصِفُنَا قَوِي الظَّلْمَةِ عَلَيْنَا وَعَمِلُوا فِي إِطْفَاءِ نُورِ نَبِيِّكُمْ. وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْهِ أُنْبَأْنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ»^(٤).

كلمة «معالم» جمع «معلم» مشتقة من مادة «علم»، والمقصود منها دليل الناس ومرشدهم، ومن إضافتها إلى دين الله سبحانه ينتج أن لدين الله معالم يجب على

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٦، ص ٣٨٩-٣٩٠، حديث ٣.

(٢) المصدر السابق: ج ٢، ص ٢١٦، حديث ٢.

(٣) المصدر السابق: ج ٣، ص ٢٦٢، حديث ٤٢.

(٤) ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم): ص ٢٣٩.

أولياء الله إرشاد الناس إليها وبيانها لهم حتى يهتدوا بها إلى الجادة الصواب، وعلائم الله ماثورة في القرآن والسنة.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«مَنْ دَخَلَ فِي هَذَا الدِّينِ بِالرَّجَالِ أَخْرَجَهُ مِنْهُ الرَّجَالُ كَمَا أَدْخَلُوهُ فِيهِ، وَمَنْ دَخَلَ فِيهِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ زَالَتِ الْجِبَالُ قَبْلَ أَنْ يَزُولَ»^(١).

الفهم الديني

نقل الخزاز القمي بسنده عن إسماعيل بن عبد الله عن الإمام الحسين عليه السلام قال:
 «لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾^(٢) سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله عَنْ تَأْوِيلِهَا، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا عَنَىٰ غَيْرِكُمْ، وَأَنْتُمْ أَوْلُو الْأَرْحَامِ، فَإِذَا مِتُّ فَأَبُوكَ عَلِيٌّ أَوْلَىٰ بِي وَبِمَكَانِي، فَإِذَا مَضَىٰ أَبِيكَ فَأَخُوكَ الْحَسَنُ أَوْلَىٰ بِهِ، فَإِذَا مَضَىٰ الْحَسَنُ فَأَنْتَ أَوْلَىٰ بِهِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَنْ بَعْدِي أَوْلَىٰ بِي؟ فَقَالَ: ابْنُكَ عَلِيُّ أَوْلَىٰ بِكَ مِنْ بَعْدِكَ، فَإِذَا مَضَىٰ فَابْنُهُ مُحَمَّدٌ أَوْلَىٰ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ، فَإِذَا مَضَىٰ فَابْنُهُ جَعْفَرٌ أَوْلَىٰ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ بِمَكَانِهِ، فَإِذَا مَضَىٰ جَعْفَرٌ فَابْنُهُ مُوسَىٰ أَوْلَىٰ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ، فَإِذَا مَضَىٰ مُوسَىٰ فَابْنُهُ عَلِيُّ أَوْلَىٰ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ، فَإِذَا مَضَىٰ عَلِيُّ فَابْنُهُ مُحَمَّدٌ أَوْلَىٰ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ، فَإِذَا مَضَىٰ مُحَمَّدٌ فَابْنُهُ عَلِيُّ أَوْلَىٰ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ، فَإِذَا مَضَىٰ عَلِيُّ فَابْنُهُ الْحَسَنُ أَوْلَىٰ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ، فَإِذَا مَضَىٰ الْحَسَنُ وَقَعَتِ الْغَيْبَةُ فِي النَّاسِ مِنْ وُلْدِكَ، فَهَذِهِ الْأُمَّةُ التَّسْعَةُ مِنْ صُلْبِكَ، أَعْطَاهُمْ عِلْمِي وَفَهْمِي، طَيَّبْتُهُمْ مِنْ طَيِّبِي، مَا لِقَوْمٍ يُؤْذُونِي فِيهِمْ؟! لَا أَنَاهُمْ اللَّهُ شَفَاعَتِي»^(٣).

يتحصل من ذيل هذا الحديث أن دين ولسان نبيه صلى الله عليه وآله بحاجة إلى فهم خاص، ومفتاحه بيد أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام.

(١) النعماني، محمد بن إبراهيم، الغيبة: ص ٢٢.

(٢) الأنفال: آية ٧٥.

(٣) الخزاز الرازي، علي بن محمد، كفاية الأثر في النص على الأئمة الاثني عشر: ص ١٧٥-١٧٦.

نقل علي بن أبي حمزة حول أبي بصير قال:

«سَمِعْتُهُ يَسْأَلُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام، فَقَالَ لَهُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ أَخْبِرْنِي عَنِ الدِّينِ الَّذِي افْتَرَضَ اللَّهُ عز وجل عَلَى الْعِبَادِ مَا لَا يَسْعُهُمْ جَهْلُهُ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ غَيْرُهُ مَا هُوَ؟ فَقَالَ: أَعِدْ عَلَيَّ، فَأَعَادَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَحِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَصَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ. ثُمَّ سَكَتَ قَلِيلًا، ثُمَّ قَالَ: وَالْوَلَايَةُ مَرَّتَيْنِ»^(١).

تأثير الدين في عدم الانغماس بالدنيا

نقل أبو بكر الجوهري بسنده عن ابن عباس أنه قال:

«لَمَّا أُخْرِجَ أَبُو ذَرٍّ إِلَى الرَّبْدَةِ أَمَرَ عُثْمَانُ فَنُودِيَ فِي النَّاسِ: أَلَا يُكَلِّمُ أَحَدٌ أَبَا ذَرٍّ وَلَا يُشِيَعُهُ، وَأَمَرَ مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ أَنْ يُخْرِجَ بِهِ، فَخَرَجَ بِهِ، وَتَحَامَاهُ النَّاسُ إِلَّا عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام وَعَقِيلًا أَخَاهُ وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا عليهما السلام وَعَمَّارًا، فَإِنَّهُمْ خَرَجُوا مَعَهُ يُشِيَعُونَهُ، فَجَعَلَ الْحَسَنُ عليه السلام يُكَلِّمُ أَبَا ذَرٍّ، فَقَالَ لَهُ مَرْوَانُ: إِيهَاءَ يَا حَسَنُ، أَلَا تَعْلَمُ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ نَهَى عَنْ كَلَامِ هَذَا الرَّجُلِ؟! فَإِنْ كُنْتَ لَا تَعْلَمُ فَأَعْلَمْ ذَلِكَ، فَحَمَلَ عَلِيٌّ عليه السلام عَلَى مَرْوَانَ فَضْرَبَ بِالسُّوْطِ بَيْنَ أُذُنَيْ رَاحِلَتِهِ وَقَالَ: تَنَحَّ لِحَاكِ اللَّهِ إِلَى النَّارِ.

فَرَجَعَ مَرْوَانُ مُغْضَبًا إِلَى عُثْمَانَ، فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ، فَتَلَطَّى عَلَى عَلِيٍّ عليه السلام، وَوَقَفَ أَبُو ذَرٍّ فَوَدَّعَهُ الْقَوْمَ، وَمَعَهُ ذِكْوَانُ مَوْلَى أُمِّ هَانِي بِنْتِ أَبِي طَالِبٍ.

قَالَ ذِكْوَانُ: فَحَفِظْتُ كَلَامَ الْقَوْمِ - وَكَانَ حَافِظًا - فَقَالَ عَلِيٌّ عليه السلام: يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ غَضِبْتَ لِلَّهِ، إِنَّ الْقَوْمَ خَافُوكَ عَلَى دُنْيَاهُمْ، وَخَفْتَهُمْ عَلَى دِينِكَ، فَأَمْتَحَنُوكَ بِالْقَلَا، وَنَفُوكَ إِلَى الْفَلَا، وَاللَّهُ لَوْ كَانَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ عَلَى عَبْدٍ رَتَقًا، ثُمَّ اتَّقَى اللَّهُ لَجَعَلَ لَهُ مِنْهَا مَخْرَجًا، يَا أَبَا ذَرٍّ لَا يُؤْنِسُنَا إِلَّا الْحَقُّ، وَلَا يُوحِشُنَا إِلَّا الْبَاطِلُ، ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ:

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٢٢، حديث ١١.

وَدَّعُوا عَمَّكُمْ، وَقَالَ لِعَقِيلٍ: وَدَّعْ أَحَاكَ.

فَتَكَلَّمَ عَقِيلٌ، فَقَالَ: مَا عَسَى أَنْ نَقُولَ يَا أَبَا ذَرٍّ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّا نُحِبُّكَ، وَأَنْتَ تُحِبُّنَا فَاتَّقِ اللَّهَ، فَإِنَّ التَّقْوَى نَجَاةٌ، وَاصْبِرْ فَإِنَّ الصَّبْرَ كَرَمٌ، وَاعْلَمْ أَنَّ اسْتِثْقَالَكَ الصَّبْرَ مِنَ الْجَزَعِ وَاسْتِثْبَاءَكَ الْعَافِيَةَ مِنَ الْيَأْسِ، فَدَعِ الْيَأْسَ وَالْجَزَعَ.

ثُمَّ تَكَلَّمَ الْحَسَنُ، فَقَالَ: يَا عَمَّاهُ، لَوْ لَا أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْمَوَدِّعِ أَنْ يَسْكُتَ، وَلِلْمَشِيعِ أَنْ يَنْصَرِفَ لِقُصْرِ الْكَلَامِ وَإِنْ طَالَ الْأَسْفُ، وَقَدْ آتَى الْقَوْمُ إِلَيْكَ مَا تَرَى، فَضَعْ عَنْكَ الدُّنْيَا بَتَدَكُّرِ فَرَاغِهَا، وَشِدَّةِ مَا اسْتَدَّتْ مِنْهَا بِرِجَاءِ مَا بَعْدَهَا، وَاصْبِرْ حَتَّى تَلْقَى نَبِيَّكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَنْكَ رَاضٍ.

ثُمَّ تَكَلَّمَ الْحَسَيْنُ عليه السلام، فَقَالَ: يَا عَمَّاهُ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَادِرٌ أَنْ يُعَيِّرَ مَا قَدْ تَرَى، وَاللَّهُ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ، وَقَدْ مَنَعَكَ الْقَوْمُ دُنْيَاهُمْ، وَمَنَعْتَهُمْ دِينَكَ، فَمَا أَغْنَاكَ عَمَّا مَنَعُوكَ، وَأَحْوَجَهُمْ إِلَى مَا مَنَعْتَهُمْ، فَأَسْأَلُ اللَّهَ الصَّبْرَ وَالنَّصْرَ، وَاسْتَعِذُّ بِهِ مِنَ الْجَشَعِ وَالْجَزَعِ، فَإِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الدِّينِ وَالْكَرَمِ، وَإِنَّ الْجَشَعَ لَا يُقَدِّمُ رِزْقًا، وَالْجَزَعَ لَا يُؤَخِّرُ أَجَلًا^(١).

يتبين من خطاب الإمام عليه السلام لأبي ذر رضي الله عنه أن الدين قادر على منع الإنسان من الانغماس في وحل الدنيا والغرق في مستنقعها.

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال:

«الدِّينُ يَعْصِمُ»^(٢).

حاجة طلاب الدنيا لدين الأولياء

يتحصل كذلك من تسليية الإمام الحسين عليه السلام لأبي ذر مدى ما يعيشه طلاب الدنيا والطامعون بملذاتها من حاجة لدين الأولياء ودين المتدينين، ولهذا لا ينبغي

(١) الجوهري البصري، أحمد بن عبد العزيز، السقيفة وفدك: ص ٧٦-٧٧.

(٢) الأمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ١٧، حديث ١.

من المتدين الواقعي إظهار الحاجة لدنيا الأشخاص الدينيين.

قال الله تعالى:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۗ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (١).

عوامل ضياع دين الإنسان

نقل عن الإمام الحسين عليه السلام أنه كتب في جواب رسالة معاوية:

«... فَأَبَشِّرْ يَا مُعَاوِيَةَ بِالْقِصَاصِ، وَأَيِّقِنِ بِالْحِسَابِ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ كِتَابًا لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا، وَلَيْسَ اللَّهُ بِنَاسٍ لَكَ أَخَذَكَ بِالظَّنَّةِ، وَقَتَلَكَ أَوْلِيَاءَهُ عَلَى الشُّبْهَةِ وَالْتِهَمَةِ، وَأَخَذَكَ النَّاسَ بِالْبَيْعَةِ لِابْنِكَ غُلَامٍ سَفِيهِه يَشْرَبُ الشَّرَابَ وَيَلْعَبُ بِالْكِلَابِ، وَلَا أَعْلَمُكَ إِلَّا خَسِرْتَ نَفْسَكَ، وَأَوْبَقْتَ دِينَكَ، وَأَكَلْتَ أَمَانَتَكَ، وَغَشَشْتَ رِعِيَتَكَ، وَتَبَوَّأْتَ مَقْعَدَكَ مِنَ النَّارِ، فَ﴿بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾» (٢) (٣).

إذا لاحظنا قول الإمام عليه السلام: «وَأَوْبَقْتَ دِينَكَ» مخاطباً معاوية، مفرعاً ذلك على الإجراءات التي قام بها معاوية يتحصل ما مفاده أن هناك أموراً تؤدّي إلى هدم دين الإنسان وتضييعه، ويمكن خلاصتها في ظلم الناس ومحاربة الدين، وهي نفسها التي قد اجتمعت في شخص معاوية.

روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ فَإِنَّهُ يُحَرِّبُ قُلُوبَكُمْ» (٤).

(١) الشورى: آية ٢٠.

(٢) هود: آية ٤٤.

(٣) البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج ٥، ص ١٢٨-١٣٠.

(٤) الفتال النيسابوري، محمد بن الحسن، روضة الواعظين: ج ٢، ص ٤٦٦.

لزوم نصره دين الله

سبط ابن الجوزي ذكر في كتابه (تذكرة الخواص):

«وَأَمَّا الْحُسَيْنُ عليه السلام، فَإِنَّهُ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ سَابِعَ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةَ سِتِّينَ، فَلَمَّا وَصَلَ بُسْتَانَ بَنِي عَامِرٍ، لَقِيَ الْفَرَزْدَقَ الشَّاعِرَ وَكَانَ يَوْمَ التَّرْوِيَةِ، فَقَالَ لَهُ: إِلَى أَيْنَ يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ؟ مَا أَعْجَلَكَ عَنِ الْمَوْسِمِ؟ قَالَ: لَوْ لَمْ أَعْجَلْ لِأُخِذْتُ أَخْذًا، فَأَخْبِرَنِي يَا فَرَزْدَقُ عَمَّا وَرَاءَكَ؟ فَقَالَ: تَرَكْتُ النَّاسَ بِالْعِرَاقِ قُلُوبَهُمْ مَعَكَ، وَسُيُوفُهُمْ مَعَ بَنِي أُمِّيَّةَ، فَاتَّقِ اللَّهَ فِي نَفْسِكَ وَارْجِعْ.

فَقَالَ لَهُ: يَا فَرَزْدَقُ، إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَزِمُوا طَاعَةَ الشَّيْطَانِ، وَتَرَكَوا طَاعَةَ الرَّحْمَنِ، وَأَظْهَرُوا الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ، وَأَبْطَلُوا الْحُدُودَ، وَشَرَبُوا الْخُمُورَ، وَاسْتَأْثَرُوا فِي أَمْوَالِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ، وَأَنَا أَوْلَى مَنْ قَامَ بِنُصْرَةِ دِينِ اللَّهِ، وَإِعْزَازِ شَرْعِهِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا. فَأَعْرَضَ عَنْهُ الْفَرَزْدَقُ وَسَارَ»^(١).

يستنتج من المدلول التضمني لإجابة الإمام عليه السلام عما أخبره به الفرزدق أن نصره دين الله من الأمور الواجبة واللازمة ولا سيما على القادة الربانيين، إذ قد تجب النهضة أحياناً في سبيل هذا الهدف الرفيع.
يقول تبارك وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾^(٢).

لزوم إعزاز شرع الله

يستنتج كذلك من مضمون جواب الإمام عليه السلام وردّه على ما أخبره به الفرزدق أن شرع الله بحاجة إلى الإعزاز، وهذا ما أوجبه على كل المسلمين وخصوصاً أئمة

(١) ابن الجوزي، يوسف بن قزأوغلي، تذكرة الخواص: ص ٢١٧-٢١٨.

(٢) محمد: آية ٧.

الدين، فعليهم أن ينهضوا ويثوروا في سبيله.

يقول ربّ العزة والجلالة:

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾^(١).

الفرق بين الشرع والدين

يتحصل كذلك من حديث الإمام الحسين عليه السلام من قوله: «وأنا أولى من قام بُنْصَرَةَ دِينِ اللَّهِ، وإِعْزَازِ شَرْعِهِ» وجود فرق بين الدين والشرع، فالشرع طريق للوصول إلى دين الله، وإن اختلف الشرع والشرعية لكن الدين عند الله واحد وهو الإسلام.

يقول تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(٢).

ويقول أيضاً:

﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمَنْهَاجًا﴾^(٣).

وذكر أبو هلال العسكري في الفرق بين الشريعة والدين:

«إِنَّ الشَّرِيعَةَ هِيَ الطَّرِيقَةُ الْمَأْخُودَةُ فِيهَا إِلَى الشَّيْءِ، وَمِنْ ثَمَّ سَمِّيَ الطَّرِيقُ إِلَى الْمَاءِ شَرِيعَةً وَمَشْرَعَةً، وَقِيلَ: الشَّارِعُ؛ لِكَثْرَةِ الْأَخْذِ فِيهِ. وَالدِّينُ مَا يَطَاعُ بِهِ الْمَعْبُودُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مَتَا دِينٍ، وَلَيْسَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مَتَا شَرِيعَةٍ، وَالشَّرِيعَةُ فِي هَذَا الْمَعْنَى نَظِيرُ الْمَلَّةِ إِلَّا أَنَّهَا تَفِيدُ مَا يَفِيدُهُ الطَّرِيقُ الْمَأْخُودُ مَا لَا تَفِيدُهُ الْمَلَّةُ، وَيُقَالُ: شَرَعَ فِي الدِّينِ شَرِيعَةً كَمَا يُقَالُ:

(١) الشورى: آية ١٣.

(٢) آل عمران: آية ١٩.

(٣) المائدة: آية ٤٨.

طرق فيه طريقاً، والملة تفيد استمرار أهلها عليها»^(١).

رفعة الأمر الإلهي بنصرة الله

كما يستنتج أيضاً من جواب الإمام الحسين عليه السلام أن الإنسان يمكنه إكبار وإجلال أمر الله ورفعته وتعظيمه، وذلك حين قيامه بنصرة دين الله عز وجل.

وروي أيضاً عن الإمام الحسين عليه السلام أنه يقول:

«مِنَّا اثْنَا عَشَرَ مَهْدِيًّا أَوْ هُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَأَخْرَهُمُ النَّاسُ مِنْ وُلْدِي، وَهُوَ الْإِمَامُ الْقَائِمُ بِالْحَقِّ، يُحْيِي اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَيُظْهِرُ بِهِ دِينَ الْحَقِّ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ»^(٢).

يقول سبحانه وتعالى:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾^(٣).

عدم وجود النقص في دين الله

نقل الإربلي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال:

أَبِي عَلِيٍّ وَجَدِّي خَاتَمَ الرُّسُلِ وَالْمُرْتَضَوْنَ لِدِينِ اللَّهِ مِنْ قَبْلِي
وَاللَّهُ يُعَلِّمُ وَالْقُرْآنُ يَنْطِقُ بِهِ أَنَّ الَّذِي بِيَدِي مَنْ لَيْسَ يَمْلِكُ لِي
مَا يُرْتَجَى بِأَمْرِي لَا قَائِلٍ عَذْلًا وَلَا يَزِيغُ إِلَى قَوْلٍ وَلَا عَمَلٍ
وَلَا يَرَى خَائِفًا فِي سَرِّهِ وَجِلًّا وَلَا يُحَاذِرُ مِنْ هَفْوٍ وَلَا زَلٍّ

(١) العسكري، الحسن بن عبدالله، الجزائر، نور الدين، معجم الفروق اللغوية: ص ٢٩٩-٣٠٠.

(٢) ابن بابويه، محمد بن علي، كمال الدين وتمام النعمة: ج ١، ص ٣١٧، حديث ٣.

(٣) التوبة: آية ٣٣.

يَا وَيْحَ نَفْسِي مِمَّنْ لَيْسَ يَرْحُمُهَا أَمَالَهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنْ مَثَلِ
 أَمَالَهُ فِي حَدِيثِ النَّاسِ مُعْتَبَرٌ مِنَ الْعَمَالِقَةِ الْعَادِيَةِ الْأُولِ
 يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمَغْبُونُ شِيمَتُهُ إِنِّي وَرِثْتُ رَسُولَ اللَّهِ عَنْ رَسُولِ
 أَنْتَ أَوْلَى بِهِ مِنْ آلِهِ فَجِئَا تَرَى اعْتَلَّكَ وَمَا فِي الدِّينِ مِنْ عِلَلٍ^(١).

من المصراع الأخير يتبين خلو تشريع دين الله عن أي نقص.
 يقول سبحانه وتعالى:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّتْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٢).

ضرورة التحدث بنعمة الدين للناس

روى البرقي بسنده عن عمر بن أبي نصر قال:

«حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ قَالَ: رَأَيْتُ الْحَسِينَ بْنَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعَبَدَ اللَّهُ بَنَ عُمَرَ
 يَطُوفَانِ بِالْبَيْتِ فَسَأَلْتُ ابْنَ عُمَرَ، فَقُلْتُ: قَوْلُ اللَّهِ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾^(٣)؟ قَالَ:
 أَمْرُهُ أَنْ يُحَدِّثَ بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ إِنِّي قُلْتُ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:
 ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾؟ قَالَ: أَمْرُهُ أَنْ يُحَدِّثَ بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ دِينِهِ»^(٤).

والمراد من هذا التفسير أنّ على علماء الدين التحدث للناس عن نعمة الدين
 ولزوم ذلك عليهم.

يقول الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«إِذَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدِهِ بِنِعْمَةٍ فَظَهَرَتْ عَلَيْهِ سُمِّيَ حَبِيبَ اللَّهِ مُحَدِّثًا بِنِعْمَةِ اللَّهِ، وَإِذَا

(١) الإربلي، علي بن عيسى، كشف الغمة في معرفة الأئمة: ج ٢، ص ٣٧-٣٨.

(٢) المائدة: آية ٣.

(٣) الضحى: آية ١١.

(٤) البرقي، أحمد بن محمد، المحاسن: ج ١، ص ٢١٨، حديث ١١٥.

أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ بِنِعْمَةٍ فَلَمْ تَظْهَرْ عَلَيْهِ سُمِّيَ بِغِيضِ اللَّهِ مُكَذِّباً بِنِعْمَةِ اللَّهِ»^(١).

رعاية الاعتدال في الدين

وفي (الفاضل) قال المبرد:

«وَقِيلَ لِلْحَسَيْنِ: مَا الْمُرُوءَةُ؟ قَالَ: الدِّينُ الْمُتَوَسِّطُ.

وَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: عَلَّمَنِي دِينًا وَسُوطًا، لَا ذَاهِبًا فُرُوطًا، وَلَا سَاقِطًا هُبُوطًا.

فَقَالَ: نَعَمْ، خَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَطُهَا»^(٢).

يتحصل من إجابة الإمام أعلاه لزوم رعاية الاعتدال في الدين على الجميع،

ووجوب اجتناب الإفراط والتفريط.

قال الإمام علي عليه السلام:

«خَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَطُهَا»^(٣).

وقال أيضاً:

«خَيْرُ الْأُمُورِ النَّمَطُ الْأَوْسَطُ، إِلَيْهِ يَرْجِعُ الْعَالِي، وَبِهِ يَلْحَقُ النَّالِي»^(٤).

بطلان التعددية الدينية في كلمات الإمام الحسين عليه السلام

عندما نتأمل في كلمات الإمام الحسين عليه السلام حول هذه النظرية نجدها قد ألفتت

إلى ما قد يرد عليها من نقد ومناقشة.

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٦، ص ٤٣٨، حديث ٢.

(٢) المبرد، محمد بن يزيد، الفاضل: ص ٧.

(٣) الليثي الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ: ص ٢٤٠، حديث ٤٥٨١.

(٤) الآمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٣٦٢، حديث ٢٢.

نفي التعددية الدينية

قال الشيخ المفيد في (الإرشاد):

«وَتَلَاَقَتِ الرَّسُلُ كُلُّهَا عِنْدَهُ، فَقَرَأَ الْكُتُبَ، وَسَأَلَ الرَّسُلَ عَنِ النَّاسِ، ثُمَّ كَتَبَ مَعَ

هَانِيءِ بْنِ هَانِيءٍ وَسَعِيدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَكَانَا آخِرَ الرَّسُلِ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنَ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ إِلَى الْمَلَأَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ.
 أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ هَانِيئًا وَسَعِيدًا قَدِمَا عَلَيَّ بِكُتُبِكُمْ، وَكَانَا آخِرَ مَنْ قَدِمَ عَلَيَّ مِنْ رُسُلِكُمْ،
 وَقَدْ فَهَمْتُ كُلَّ الَّذِي اقْتَصَصْتُمْ وَذَكَرْتُمْ، وَمَقَالَةُ جُلُكُمُ: أَنَّهُ لَيْسَ عَلَيْنَا إِمَامٌ فَأَقْبَلُ
 لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَجْمَعَنَا بِكَ عَلَى الْهَدَى وَالْحَقِّ. وَإِنِّي بَاعِثٌ إِلَيْكُمْ أَخِي وَابْنَ عَمِّي وَثِقَتِي مِنْ
 أَهْلِ بَيْتِي، فَإِنْ كَتَبَ إِلَيَّ أَنَّهُ قَدِ اجْتَمَعَ رَأْيُ مَلِيكِكُمْ وَذَوِي الْحِجَا وَالْفَضْلِ مِنْكُمْ عَلَى
 مِثْلِ مَا قَدِمْتَ بِهِ رُسُلِكُمْ وَقَرَأْتُ فِي كُتُبِكُمْ، أَقْدَمَ عَلَيْكُمْ وَشَيْكَاً إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فَلَعَمْرِي
 مَا الْإِمَامُ إِلَّا الْحَاكِمُ بِالْكِتَابِ، الْقَائِمُ بِالْقِسْطِ، الدَّائِنُ بِدِينِ الْحَقِّ، الْحَابِسُ نَفْسَهُ عَلَى
 ذَاتِ اللَّهِ، وَالسَّلَامُ»^(١).

حيث يستفاد من كلمة «الدَّائِنُ بِدِينِ الْحَقِّ» أن الاعتقاد بالتعددية الدينية
 والصرط المستقيمة باطل ومجانب للواقع.

ومما نقله ابن شهر آشوب:

«النَّظَنِيُّ فِي الْخِصَائِصِ: لَمَّا جَاؤُوا بِرَأْسِ الْحَسَنِ وَنَزَلُوا مَنْزِلًا يُقَالُ لَهُ: قِنْسَرِينُ،
 أَطَّلَعَ رَاهِبٌ مِنْ صَوْمَعَتِهِ إِلَى الرَّأْسِ، فَرَأَى نُورًا سَاطِعًا يُخْرِجُ مِنْ فِيهِ وَيَصْعَدُ إِلَى
 السَّمَاءِ، فَأَتَاهُمْ بِعَشْرَةِ آلَافٍ دِرْهَمٍ وَأَخَذَ الرَّأْسَ، وَأَدْخَلَهُ صَوْمَعَتَهُ، فَسَمِعَ صَوْتًا وَلَمْ يَرَ
 شَخْصًا، قَالَ: طُوبَى لَكَ وَطُوبَى لِمَنْ عَرَفَ حُرْمَتَهُ، فَرَفَعَ الرَّاهِبُ رَأْسَهُ وَقَالَ: يَا رَبِّ،
 بِحَقِّ عَيْسَى تَأْمُرُ هَذَا الرَّأْسَ بِالتَّكَلُّمِ مَعِي، فَتَكَلَّمَ الرَّأْسُ وَقَالَ: يَا رَاهِبُ، أَيُّ شَيْءٍ

(١) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد: ج ٢، ص ٣٨-٣٩.

تُرِيدُ؟ قَالَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا ابْنُ مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى وَأَنَا ابْنُ عَلِيٍّ الْمُرْتَضَى وَأَنَا ابْنُ فَاطِمَةَ الرَّهْرَاءِ وَأَنَا الْمُقْتُولُ بِكَرْبَلَاءَ أَنَا الْمَظْلُومُ أَنَا الْعَطْشَانُ، فَسَكَتَ، فَوَضَعَ الرَّاهِبُ وَجْهَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَقَالَ: لَا أَرْفَعُ وَجْهِي عَنْ وَجْهِكَ حَتَّى تَقُولَ: أَنَا شَفِيعُكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَتَكَلَّمَ الرَّأْسُ فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى دِينِ جَدِّي مُحَمَّدٍ عليه السلام، فَقَالَ الرَّاهِبُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَقَبِلَ لَهُ الشَّفَاعَةَ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَخَذُوا مِنْهُ الرَّأْسَ وَالذَّرَاهِمَ، فَلَمَّا بَلَّغُوا الْوَادِيَّ نَظَرُوا الذَّرَاهِمَ قَدْ صَارَتْ حِجَارَةً»^(١).

يتبين أن الدعوة للدين الإسلامي إن كانت لازمة وواجبة ستعارض مع فكرة التعددية الدينية، وتتنافى معها بصورة صريحة؛ لأن التمسك بهذه الفكرة يرفض دعوة الناس للحق من أصلها.

وذكر ابن شهر آشوب أيضاً:

«رَوَى أَبُو خَنِيفٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ أَنَّهُ صُلِبَ رَأْسُ الْحُسَيْنِ بِالصَّيَارِفِ فِي الْكُوفَةِ، فَتَنَحَّحَ الرَّأْسُ وَقَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾^(٢)، فَلَمْ يَزِدْهُمْ ذَلِكَ إِلَّا ضَلَالًا. وَفِي أَثَرٍ: أَنَّهُمْ لَمَّا صَلَبُوا رَأْسَهُ عَلَى الشَّجَرَةِ سَمِعَ مِنْهُ: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾^(٣)، وَسَمِعَ أَيْضًا صَوْتَهُ بِدِمَشْقَ يَقُولُ: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾^(٤)، وَسَمِعَ أَيْضًا يَقْرَأُ: ﴿أَنْ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا﴾^(٥) فَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ: أَمْرُكَ أَعْجَبُ يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ»^(٦).

(١) ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب عليهم السلام: ج ٤، ص ٦٠.

(٢) الكهف: آية ١٣.

(٣) الشعراء: آية ٢٢٧.

(٤) الكهف: آية ٣٩.

(٥) الكهف: آية ٩.

(٦) ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب عليهم السلام: ج ٤، ص ٦١.

عندما نلاحظ حالة التقابل بين ما عليه معسكر الإمام الحسين عليه السلام من الهداية وما عليه معسكر عمر بن سعد من الضلالة ندرك بوضوح بطلان التعددية الدينية والمذهبية. قال الإمام الحسين عليه السلام:

«الْحَقُّ أَبْلَجُ لَا يَزِيغُ سَبِيلُهُ، وَالْحَقُّ يَعْرِفُهُ ذُوو الْأَلْبَابِ»^(١).

من مضمون قوله: «وَالْحَقُّ يَعْرِفُهُ ذُوو الْأَلْبَابِ» يستنتج بطلان نظرية التعددية المعرفية التي شيدت على عدم المعرفة بالحق.

يقول زيد بن علي بن الحسين عليه السلام:

«قَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام: مَنْ دَعَا عَبْدًا مِنْ ضَلَالَةٍ إِلَى مَعْرِفَةِ حَقِّ فَأَجَابَهُ، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ كَعَتِقِ نَسَمَةٍ»^(٢).

يستفاد ضمناً من قول الإمام الحسين عليه السلام: «مَنْ دَعَا عَبْدًا مِنْ ضَلَالَةٍ إِلَى مَعْرِفَةِ حَقِّ» إمكان معرفة الحق والوصول اليه، وبالتالي بطلان نظرية التعددية المعرفية.

يقول عزّ من قائل:

﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَلُ﴾^(٣).

بطلان نظرية الصراط المستقيمة

مما قاله الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفه داعياً متضرعاً لله سبحانه:
«أَنْتَ كَهْفِي حِينَ تُعِينِي الْمَذَاهِبُ فِي سَعَتِهَا»^(٤).

(١) ابن عربي، محمد بن علي، محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار في الأدبيات والنوادر والأخبار: ج ١، ص ٢٢٠.

(٢) البغدادي، عبد العزيز بن إسحاق، مسند الإمام زيد: ص ٣٤٨.

(٣) يونس: آية ٣٢.

(٤) الكفعمي، إبراهيم بن علي، البلد الأمين: ص ٢٥٤.

يأخذ المدلول التضمني لهذا الدعاء بأفهامنا إلى إدراك حقيقة هي أن الطريق المستقيم لبلوغ الحق ومعرفة الواقع في الحياة المادية والمعنوية واحد لا غير، وما يقال من تعدد الصراط المستقيمة ليس إلا هراء وباطل؛ لأنّ انتخاب المسير الصحيح يتطلب من الإنسان العناء والصعوبة، أما اختيار الطريق من بين عدّة طرق فإنّه أمر لا يقتضي عناء ولا يستلزم صعوبات.

يقول تبارك وتعالى:

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١).

نقل أحمد بن حنبل بسنده عن جابر أنّه قال:

«كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَخَطَّ خَطًّا هَكَذَا أَمَامَهُ، فَقَالَ: (هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ)، وَخَطَّيْنِ عَنِ يَمِينِهِ، وَخَطَّيْنِ عَنِ شِمَالِهِ قَالَ: (هَذِهِ سَبِيلُ الشَّيْطَانِ)، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي الْخَطِّ الْأَوْسَطِ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾»^(٢).

معوقات الحيرة الدينية والمذهبية المدمرة

جاء في دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام قوله متضرعاً إلى الله العزيز:

«أَنْتَ كَهْفِي حِينَ تُعِينِي الْمَذَاهِبُ فِي سَعَتِهَا، وَتَضِيقُ بِي الْأَرْضُ بِرُحْبِهَا، وَلَوْ لَا رَحْمَتُكَ لَكُنْتُ مِنَ الْهَالِكِينَ»^(٣).

بما أنّ الحديث قد تقدّم عن حيرة الإنسان حينها يقف في مفترق طرق المذاهب

(١) الأنعام: آية ١٥٣.

(٢) ابن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل: ج ٢٣، ص ٤١٧-٤١٨، حديث ١٥٢٧٧.

(٣) الكفعمي، إبراهيم بن علي، البلد الأمين: ص ٢٥٤.

المتعددة يتحصل من هذا الدعاء أنّ للحيرة في المسائل الدينية والمذهبية صعوبات وموانع مهلكة ومدمرة تقود الإنسان إلى مصير مظلم.

قال الإمام علي عليه السلام:

«إِلَهِي إِنْ لَمْ تَبْتَدِئْ بِي الرَّحْمَةُ مِنْكَ بِحُسْنِ التَّوْفِيقِ، فَمَنْ السَّالِكُ بِي إِلَيْكَ فِي وَاضِحِ الطَّرِيقِ؟!»^(١).

وجاء في مناجاة المريدين للإمام السجاد عليه السلام قوله:

«سُبْحَانَكَ مَا أَضْيَقَ الطُّرُقَ عَلَيَّ مَنْ لَمْ تَكُنْ دَلِيلَهُ، وَمَا أَوْضَحَ الْحَقَّ عِنْدَ مَنْ هَدَيْتَهُ سَبِيلَهُ!»^(٢).

(١) المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: ج ٩١،

ص ٢٤٣-٢٤٤، حديث ١١.

(٢) المصدر السابق: ج ٩١، ص ١٤٧.

د) التعددية المذهبية

هناك من ذهب إلى الاعتقاد بالتعددية المذهبية معتبراً جميع المذاهب طرقاً موصلة إلى الدين، فكما أنّ العامّة لديهم طريقتهم نحو الدين نحن كذلك لدينا طريق آخر يوصلنا إلى الدين أيضاً، بمعنى أنّ طرق الاجتهاد واستنباط الأحكام الشرعية مختلفة فقط.

وفي الجواب لا بدّ من القول:

أولاً: أنّ هذه النظرية مخالفة للعقل؛ لأنّ الحق هو المطابق للواقع، والواقع واحد لا يقبل التعدد، إضافة إلى أنّه ممكن المنال، ومن أجل بلوغه قد بيّن الطريق وعبد السبيل، وحينما نلاحظ النصوص والأدلة المعتبرة نجدتها عيّنت وحددت الطريق الوحيد إلى الحق والحقيقة ألا وهو طريق أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام.
ثانياً: هذه النظرية مخالفة لآيات القرآن الكريم، فيما أنّ الحق واحد فالطريق إليه واحد كذلك.

قال سبحانه وتعالى:

﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾^(١).

وقال الإمام علي عليه السلام:

«حَقٌّ وَبَاطِلٌ وَلِكُلِّ أَهْلٍ»^(٢).

(١) يونس: آية ٣٢.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ١٦.

وقال أيضاً:

«عَلَيْكُمْ بِمُوجِبَاتِ الْحَقِّ فَالزُّمُوهَا»^(١).

ثالثاً: هذه النظرية مخالفة لما ورد في الروايات عن النبي صلى الله عليه وآله.

نقل الحاكم النيسابوري بسنده عن حنش الكناي:

«سَمِعْتُ أَبَا ذَرٍّ يَقُولُ وَهُوَ آخِذٌ بِبَابِ الْكُعْبَةِ: أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ عَرَفَنِي فَأَنَا مَنْ عَرَفْتُمْ، وَمَنْ أَنْكَرَنِي فَأَنَا أَبُو ذَرٍّ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي مَثَلُ سَفِينَةِ نُوحٍ مَنْ رَكِبَهَا نَجَا، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ»^(٢).

من خلال ملاحظة تعبير الرواية حيث إنَّها وصفت أهل البيت عليهم السلام بسفينة نوح والتي قد رهنت النجاة بها يوم الفيضان، فهكذا أهل البيت عليهم السلام في الأمة الإسلامية هم سبيل نجاتها الوحيد، ويتم عبر الاقتداء بهم عليهم السلام واتباعهم.

رابعاً: هذه النظرية مخالفة لروايات أهل البيت عليهم السلام.

قال الإمام الباقر عليه السلام:

«أَمَا لَوْ أَنَّ رَجُلًا قَامَ لَيْلَهُ وَصَامَ نَهَارَهُ وَتَصَدَّقَ بِجَمِيعِ مَالِهِ وَحَجَّ جَمِيعَ دَهْرِهِ وَلَمْ يَعْرِفْ وَلَايَةَ وَلِيِّ اللَّهِ فَيَوَالِيَهُ وَيَكُونُ جَمِيعَ أَعْمَالِهِ بِدَلَالَتِهِ إِلَيْهِ، مَا كَانَ لَهُ عَلَى اللَّهِ جَلٌّ وَعَزٌّ حَقٌّ فِي ثَوَابِهِ وَلَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ»^(٣).

ونقل عن الإمام الصادق عليه السلام أنه يقول:

«إِنَّهُ يَأْتِي عَلَى الرَّجُلِ سِتُونَ وَسَبْعُونَ سَنَةً مَا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ صَلَاةً. قُلْتُ: وَكَيْفَ ذَاكَ؟ قَالَ: لِأَنَّهُ يَغْسِلُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِمَسْحِهِ»^(٤).

(١) الأمدى، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٤٤٨، حديث ٥.

(٢) الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله، المستدرک على الصحيحين: ج ٢، ص ٣٧٣، حديث ٣٣١٢.

(٣) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ١٨-١٩، حديث ٥.

(٤) المصدر السابق: ج ٣، ص ٣١، حديث ٩.

وأيضاً نقل عنه عليه السلام قوله:

«إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْبُدُ اللَّهَ أَزْبَعِينَ سَنَةً وَمَا يُطِيعُهُ فِي الْوُضُوءِ؛ لِأَنَّهُ يَغْسِلُ مَا أَمَرَ اللَّهُ عز وجل بِمَسْحِهِ»^(١).

وقال أيضاً:

«إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرَدَّ اللَّهُ كُلَّ شَيْءٍ إِلَى شَيْئِهِ، وَرَدَّ الْجُلْدَ إِلَى الْغَنَمِ، فَتَرَى أَصْحَابَ الْمَسْحِ أَيْنَ يَذْهَبُ وَضُوءُهُمْ؟!»^(٢).

المذهب في كلمات الإمام الحسين عليه السلام

في روايات الإمام الحسين عليه السلام تعرضت لأصل المذهب والأبحاث المتعلقة به.

سعة المذاهب

قال الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة متضرعاً إلى الحق سبحانه:

«أَنْتَ كَهْفِي حِينَ تُعِينِي الْمَذَاهِبُ فِي سَعَتِهَا»^(٣).

حيث تشير كلمة «المذاهب» التي جاءت بصيغة الجمع إلى كثرة الطرق والسبل التي يدعى أنها موصلة للحق، كما يدل هذا الدعاء بقريظة قوله عليه السلام: «أنت كهفي» و«تُعِينِي» على أن المقصود من «المذاهب» هذا المعنى لا مطلق الطرق الموصلة للمقاصد والأهداف.

نقل علي بن محمد الخزاز بسنده عن الإمام علي عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:
«سَتَقَرُّقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، مِنْهَا فِرْقَةٌ نَاجِيَةٌ وَالْبَاقُونَ هَالِكَةٌ،
وَالنَّاجِيَةُ الَّذِينَ يَتَمَسَّكُونَ بِوَلَايَتِكُمْ وَيَقْتَسِمُونَ مِنْ عِلْمِكُمْ وَلَا يَعْمَلُونَ بِرَأْيِهِمْ،

(١) ابن بابويه، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه: ج ١، ص ٣٦، حديث ٧٣.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٣٥٠، حديث ٦.

(٣) الكفعمي، إبراهيم بن علي، البلد الأمين: ص ٢٥٤.

قَوْلِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ. فَسَأَلْتُ عَنِ الْأَيْمَةِ، فَقَالَ: عَدَدَ نَقَبَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ»^(١).

سعة المذاهب تعيي الإنسان أحياناً

يتبين من تعبير «تُعِينِي» الوارد في دعاء الإمام الحسين عليه السلام والمشتق من «الإيعاء» بمعنى الإعجاز أن سعة المذاهب في الدين تؤدي أحياناً إلى تعجيز الإنسان وعدم تمكنه من انتخاب المسير الحق واختيار الطريق الصائب.

لقد ورد عن الإمام السجاد عليه السلام في الدعاء العشرين من الصحيفة السجادية، قوله متضرعاً إلى الله عز وجل:

«وَوَقَّفَنِي إِذَا اشْتَكَلْتُ عَلَيَّ الْأُمُورُ لِأَهْدَاها، وَإِذَا تَشَابَهَتِ الْأَعْمَالُ لِأَرْكَأها، وَإِذَا تَنَاقَضَتِ الْمَلَلُ لِأَرْضَاهَا»^(٢).

لزوم اختيار مذهب من المذاهب

يستفاد أيضاً من مضمون دعاء الإمام الحسين عليه السلام عندما تتكثر المذاهب الدينية وتتنوع ينبغي منا أن نختار واحداً منها، ولا بد أن يقع اختيارنا على المذهب الحق ونعمل وفقاً له وطبقاً لمؤداه.

نقل أحمد بن حنبل بسنده عن جابر أنه قال:

«كُنَّا جُلُوساً عِنْدَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَخَطَّ خَطًّا هَكَذَا أَمَامَهُ، فَقَالَ: (هَذَا سَبِيلُ اللهِ)، وَخَطَّيْنِ عَنِ يَمِينِهِ، وَخَطَّيْنِ عَنِ شِمَالِهِ قَالَ: (هَذِهِ سَبِيلُ الشَّيْطَانِ)، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي الْخَطِّ الْأَوْسَطِ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ ذَلِكَ لَكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ»^(٣).

(١) الخزاز الرازي، علي بن محمد، كفاية الأثر في النص على الأئمة الاثني عشر: ص ١٥٥.

(٢) الصحيفة السجادية: ص ١٠٠.

(٣) ابن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل: ج ٢٣، ص ٤١٧-٤١٨، حديث ١٥٢٧٧.

يقول الإمام علي عليه السلام:

«الْيَمِينُ وَالشَّمَالُ مَضَلَّةٌ، وَالطَّرِيقُ الْوُسْطَى هِيَ الْجَادَّةُ، عَلَيْهَا بَاقِي الْكِتَابِ وَأَثَارُ النَّبُوَّةِ، وَمِنْهَا مَنْفَعُ السُّنَّةِ، وَإِلَيْهَا مَصِيرُ الْعَاقِبَةِ»^(١).

بطلان التعددية المذهبية في كلمات الإمام الحسين عليه السلام

ذكر الشيخ المفيد في (الإرشاد):

«وَحَمَلَتِ الْجَمَاعَةُ عَلَى الْحُسَيْنِ عليه السلام فَعَلَبُوهُ عَلَى عَسْكَرِهِ، وَاشْتَدَّ بِهِ الْعَطْشُ، فَرَكِبَ الْمَسْنَاءَ يُرِيدُ الْفُرَاتَ وَيَبِينُ يَدَيْهِ الْعَبَّاسُ أَخُوهُ، فَأَعْتَرَضَتْهُ حَيْلُ ابْنِ سَعْدٍ وَفِيهِمْ رَجُلٌ مِنْ بَنِي دَارِمٍ فَقَالَ لَهُمْ: وَيَلَكُمْ حَوْلُوا بَيْنَهُ وَيَبِينَ الْفُرَاتِ وَلَا تُمَكِّنُوهُ مِنَ الْمَاءِ، فَقَالَ الْحُسَيْنُ عليه السلام: اللَّهُمَّ أَظْمِئْهُ. فَغَضِبَ الدَّارِمِيُّ وَرَمَاهُ بِسَهْمٍ فَأَثْبَتَهُ فِي حَنْكِهِ، فَانْتَزَعَ الْحُسَيْنُ عليه السلام السَّهْمَ وَبَسَطَ يَدَهُ تَحْتَ حَنْكِهِ فَاثْتَلَأَتْ رَاحَتَاهُ بِالْدَمِ، فَرَمَى بِهِ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ مَا يُفْعَلُ بِابْنِ بِنْتِ نَبِيِّكَ. ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَكَانِهِ وَقَدْ اشْتَدَّ بِهِ الْعَطْشُ. وَأَحَاطَ الْقَوْمُ بِالْعَبَّاسِ فَاقْتَطَعُوهُ عَنْهُ، فَجَعَلَ يُفَاتِلُهُمْ وَحَدَهُ حَتَّى قُتِلَ - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ - وَكَانَ الْمُتَوَلَّى لِقَتْلِهِ زَيْدُ بْنُ وَرْقَاءَ الْحَنْفِيُّ وَحَكِيمُ بْنُ الطُّفَيْلِ السَّنْسَبِيُّ بَعْدَ أَنْ أَثَخَنَ بِالْجِرَاحِ فَلَمْ يَسْتَطِعْ حَرَكَاً.

وَلَمَّا رَجَعَ الْحُسَيْنُ عليه السلام مِنَ الْمَسْنَاءِ إِلَى فُسْطَاطِهِ تَقَدَّمَ إِلَيْهِ شَمْرُ بْنُ ذِي الْجَوْشَنِ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَأَحَاطَ بِهِ، فَاسْرَعَ مِنْهُمْ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: مَالِكُ بْنُ النَّسْرِ الْكِنْدِيُّ، فَشَتَمَ الْحُسَيْنَ وَضْرَبَهُ عَلَى رَأْسِهِ بِالسَّيْفِ، وَكَانَ عَلَيْهِ قَلَنْسُوءَةٌ فَقَطَعَهَا حَتَّى وَصَلَ إِلَى رَأْسِهِ فَأَذْمَاهُ، فَاثْتَلَأَتْ الْقَلَنْسُوءَةُ دَمًا، فَقَالَ لَهُ الْحُسَيْنُ: لَا أَكَلْتَ بِيَمِينِكَ وَلَا شَرِبْتَ بِهَا، وَحَشَرَكَ اللَّهُ مَعَ الظَّالِمِينَ. ثُمَّ أَلْقَى الْقَلَنْسُوءَةَ وَدَعَا بِخِرْقَةٍ فَشَدَّ بِهَا رَأْسَهُ وَاسْتَدَعَى

(١) نهج البلاغة: خطبة ١٦.

فَلَنْسُوهُ أُخْرَى فَلَيْسَهَا وَعَتَمَ عَلَيْهَا، وَرَجَعَ عَنْهُ شِمْرُ بْنُ ذِي الْجَوْشَنِ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ إِلَى مَوَاضِعِهِمْ، فَمَكَثَ هُنَيْهَةً ثُمَّ عَادَ وَعَادُوا إِلَيْهِ وَأَحَاطُوا بِهِ.

فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام - وَهُوَ غُلَامٌ لَمْ يُرَاهِقْ - مِنْ عِنْدِ النِّسَاءِ يَشْتَدُّ حَتَّى وَقَفَ إِلَى جَنْبِ الْحَسَنِ فَلَحِقَتْهُ زَيْنُبُ بِنْتُ عَلِيٍّ عليها السلام لِتَحْسِبَهُ، فَقَالَ لَهَا الْحَسِينُ: أَحْسِبِيهِ يَا أُخْتِي. فَأَبَى وَامْتَنَعَ عَلَيْهَا امْتِنَاعاً شَدِيداً وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أُفَارِقُ عَمِّي. وَأَهْوَى أَبِجْرُ بْنُ كَعْبٍ إِلَى الْحَسَنِ عليه السلام بِالسَّيْفِ، فَقَالَ لَهُ الْغُلَامُ: وَيَلَلَك يَا بَنَ الْخَيْثَةِ أَتَقْتُلُ عَمِّي؟! فَضْرَبَهُ أَبِجْرُ بِالسَّيْفِ فَاتَّقَاهَا الْغُلَامُ بِيَدِهِ فَاطَّيَبَهَا إِلَى الْجِلْدَةِ فَإِذَا يَدُهُ مُعَلَّقَةٌ، وَنَادَى الْغُلَامُ: يَا أُمَّتَاهُ، فَأَخَذَهُ الْحَسِينُ عليه السلام فَضَمَّهُ إِلَيْهِ وَقَالَ: يَا بَنَ أَخِي، اصْبِرْ عَلَى مَا نَزَلَ بِكَ، وَاحْتَسِبْ فِي ذَلِكَ الْخَيْرَ، فَإِنَّ اللَّهَ يُلْحِقُكَ بِآبَائِكَ الصَّالِحِينَ.

ثُمَّ رَفَعَ الْحَسِينُ عليه السلام يَدَهُ وَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ مَتَّعْتَهُمْ إِلَى حِينٍ فَفَرِّقْهُمْ فِرْقاً، وَاجْعَلْهُمْ طَرَائِقَ قِدَاداً، وَلَا تُرْضِ الْوَلَاةَ عَنْهُمْ أَبَداً، فَإِنَّهُمْ دَعَوْنَا لِيَنْصُرُونَا، ثُمَّ عَدُوا عَلَيْنَا فَقَتَلُونَا^(١).

يتحصل من عبارة الإمام عليه السلام «وَاجْعَلْهُمْ طَرَائِقَ قِدَاداً» التي قالها في مقام الدعاء على مستحلي دمه الشريف أن نظرية التعددية المذهبية باطلة؛ لأننا لو افترضنا أن جميع الطرق مستقيمة وموصلة للحق ودالة عليه فلا يبقى معنى لدعاء الإمام عليهم، ويعد لغوياً.

وأيضاً نقل عن عمران بن ميثم قال:

«دَخَلْتُ أَنَا وَعَبَايَةُ الْأَسَدِيُّ عَلَى امْرَأَةٍ مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهَا: حَبَابَةُ الْوَالِيبِيَّةِ، فَقَالَ لَهَا عَبَايَةُ: تَدْرِينَ مَنْ هَذَا الشَّابُّ الَّذِي مَعِي؟ قَالَتْ: لَا، قَالَ: مَهْ ابْنُ أَخِيكَ مَيْثَمٌ، قَالَتْ إِي وَاللَّهِ إِي وَاللَّهِ، ثُمَّ قَالَتْ: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ بِحَدِيثٍ سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام؟ قُلْنَا: بَلَى، قَالَتْ: سَمِعْتُ الْحَسِينَ بْنَ عَلِيٍّ عليه السلام يَقُولُ: نَحْنُ وَشِيعَتُنَا عَلَى

(١) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد: ج ٢، ص ١٠٩-١١١.

الْفِطْرَةَ الَّتِي بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهَا مُحَمَّدًا ﷺ، وَسَائِرُ النَّاسِ مِنْهَا بَرَاءٌ»^(١).

ونقل عبدالله بن حمزة في (الشافعي):

«وَقَالَ الْحَسِينُ عليه السلام: وَاللَّهِ مَا أَجِدُ عَلَى مِلَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَّا أَنْتُمْ يَا مَعْشَرَ الشَّيْعَةِ،

وَالنَّاسُ مِنْهَا بَرَاءٌ»^(٢).

إذ يتأتى من ملاحظة الحصر المشار إليه في هذه الأحاديث أن نظرية التعددية المذهبية القائلة بأن جميع المذاهب موصلة إلى الحق على اختلافها باطلة، والمذهب الوحيد القائم على الحق هو مذهب شيعة أهل البيت عليهم السلام، وهذا المعنى قد دللت عليه الكثير من الروايات، منها:

ما نقله مسلم بسنده عن زيد بن أرقم:

«قَامَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَوْمًا فِينَا خَطِيبًا بِمَاءٍ يُدْعَى حُمًّا، بَيْنَ مَكَّةَ

وَالْمَدِينَةِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَوَعَّظَ وَذَكَرَ، ثُمَّ قَالَ: (أَمَّا بَعْدُ، أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّمَا

أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأَجِيبَ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوْلَهُمَا كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ

الهُدَى وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ)، فَحَتَّ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَرَعَبَ فِيهِ، ثُمَّ

قَالَ: (وَأَهْلُ بَيْتِي، أَذْكَرُكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أَذْكَرُكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أَذْكَرُكُمْ اللَّهُ فِي

أَهْلِ بَيْتِي)»^(٣).

كما نقل الحاكم النيسابوري بسنده عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بِأَبْهَامَا، فَمَنْ أَرَادَ الْمَدِينَةَ فَلْيَأْتِ الْبَابَ»^(٤).

(١) الطوسي، محمد بن الحسن، اختيار معرفة الرجال المعروف برجال الكشي: ص ١١٤، حديث ١٨٢.

(٢) المنصور بالله، عبدالله بن حمزة، الشافعي: ج ٣، ص ٢٨٥.

(٣) القشيري النيسابوري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم: ج ٤، ص ١٨٧٣، حديث ٢٤٠٨.

(٤) الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله، المستدرک على الصحيحين: ج ٣، ص ١٣٧، حديث ٤٦٣٨.

ونقل كذلك الترمذي بسنده عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:
«أَنَا دَارُ الْحَكْمَةِ وَعَلِيٌّ بِأُجْمَةٍ»^(١).

ونقل الحاكم النيسابوري بسنده عن حنش الكناي قال:
«سَمِعْتُ أَبَا ذَرٍّ يَقُولُ وَهُوَ آخِذٌ بِبَابِ الْكَعْبَةِ: أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ عَرَفَنِي فَأَنَا مَنْ
عَرَفْتُمْ، وَمَنْ أَنْكَرَنِي فَأَنَا أَبُو ذَرٍّ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: مَثَلُ
أَهْلِ بَيْتِي مَثَلُ سَفِينَةِ نُوحٍ مَنْ رَكِبَهَا نَجَا، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا عَرِقَ»^(٢).

كما نقل الحاكم النيسابوري بسند صحيح عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:
«النُّجُومُ أَمَانٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ مِنَ الْعَرَقِ، وَأَهْلُ بَيْتِي أَمَانٌ لِأُمَّتِي مِنَ الْإِخْتِلَافِ،
فَإِذَا خَالَفَتْهَا قَبِيلَةٌ مِنَ الْعَرَبِ اخْتَلَفُوا فَصَارُوا حِزْبَ إِبْلِيسَ»^(٣).

وروى علي بن محمد الخزاز بسنده عن الإمام علي عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:
«سَتَفَرَّقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، مِنْهَا فِرْقَةٌ نَاجِيَةٌ وَالْبَاقُونَ هَالِكَةٌ،
وَالنَّاجِيَةُ الَّذِينَ يَتَمَسَّكُونَ بِوَلَايَتِكُمْ وَيَقْتَسِمُونَ مِنْ عِلْمِكُمْ وَلَا يَعْمَلُونَ بِرَأْسِهِمْ،
فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ. فَسَأَلْتُ عَنِ الْأُمَّةِ، فَقَالَ: عَدَدَ نُقَبَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ»^(٤).

ونقل الشيخ المفيد بسنده عن أبي عقيل أنه قال:
«كُنَّا عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَقَالَ: لَتَفَرَّقَنَّ هَذِهِ
الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ الْفِرْقَ كُلَّهَا صَالَةٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَنِي
وَكَانَ مِنْ شِيعَتِي»^(٥).

(١) الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي: ج ٥، ص ٦٣٧، حديث ٣٧٢٣.

(٢) الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله، المستدرک على الصحيحين: ج ٢، ص ٣٧٣،
حديث ٣٣١٢.

(٣) المصدر السابق: ج ٣، ص ١٦٢، حديث ٤٧١٥.

(٤) الخزاز الرازي، علي بن محمد، كفاية الأثر في النص على الأئمة الاثني عشر: ص ١٥٥.

(٥) المفيد، محمد بن محمد، الأمالي: ص ٢١٢-٢١٣، حديث ٣.

فهرس المصادر

* القرآن الكريم.

١. إبراهيميان، حسين، معرفت شناسي از دیدگاه برخي از فلاسفه اسلامي وغربي (نظرية المعرفة في آراء بعض الفلاسفة الإسلاميين والغربيين)، قم - إيران، مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي، ١٣٧٨ هـ.ش.
٢. ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٨٥ هـ.ق.
٣. ابن أعثم الكوفي، أحمد، الفتوح، بيروت - لبنان، دار الأضواء، ١٤١١ هـ.ق.
٤. ابن الأثير، المبارك بن محمد، النهاية في غريب الحديث والأثر، قم - إيران، مؤسسة إسماعيليان، ١٣٦٧ هـ.ش.
٥. ابن الأثير، علي بن محمد، الكامل في التاريخ، بيروت - لبنان، دار الكتاب العربي، ١٤١٧ هـ.ق.
٦. ابن الأشعث، محمد بن محمد، الجعفریات (الأشعثيات)، طهران - إيران، مكتبة نينوى الحديثة، بلا تاريخ.
٧. ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، بستان الواعظين ورياض السامعين، بيروت - لبنان، مؤسسة الكتب الثقافية، بلا تاريخ.
٨. ابن الجوزي، يوسف بن قزأوغلي، تذكرة الخواص، قم - إيران، الشريف الرضي، ١٤١٨ هـ.ق.

٩. ابن العديم، عمر بن أحمد، بغية الطلب في تاريخ حلب، بيروت - لبنان، دار الفكر، بلا تاريخ.
١٠. ابن المشهدي، محمد بن جعفر، المزار الكبير، قم - إيران، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية بقم، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤١٩ هـ.ق.
١١. ابن بابويه، محمد بن علي، الأمالي، طهران - إيران، مؤسسة البعثة، ١٤٣٥ هـ.ق.
١٢. ابن بابويه، محمد بن علي، التوحيد، قم - إيران، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية بقم، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٣٩٨ هـ.ق.
١٣. ابن بابويه، محمد بن علي، ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، قم - إيران، الشريف الرضي، ١٤٠٦ هـ.ق.
١٤. ابن بابويه، محمد بن علي، علل الشرائع، قم - إيران، مكتبة الداوري، ١٣٨٥ هـ.ق.
١٥. ابن بابويه، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا عليه السلام، طهران - إيران، جهان، ١٣٧٨ هـ.ق.
١٦. ابن بابويه، محمد بن علي، الخصال، قم - إيران، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية بقم، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٣٦٢ هـ.ش.
١٧. ابن بابويه، محمد بن علي، كمال الدين وتمام النعمة، طهران - إيران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٩٥ هـ.ق.
١٨. ابن بابويه، محمد بن علي، معاني الأخبار، قم - إيران، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية بقم، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤٠٣ هـ.ق.
١٩. ابن بابويه، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه، قم - إيران، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية بقم، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤١٣ هـ.ق.

٢٠. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم، مجموع الفتاوى، المدينة - السعودية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤١٦ هـ.ق.
٢١. ابن حنبل، أحمد بن محمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، بيروت - لبنان، مؤسسة الرسالة، ١٤٢١ هـ.ق.
٢٢. ابن حيون، النعمان بن محمد، دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام، قم - إيران، مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، ١٣٨٥ هـ.ق.
٢٣. ابن حيون، النعمان بن محمد، شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، قم، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية بقم، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤٠٩ هـ.ق.
٢٤. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، تاريخ ابن خلدون، بيروت - لبنان، دار الفكر، ١٤٠٨ هـ.ق.
٢٥. ابن سعد، محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، الطبقة الخامسة من الصحابة، الطائف - السعودية، مكتبة الصديق، بلا تاريخ.
٢٦. ابن سينا، حسين بن عبد الله، الشفاء (الإلهيات)، قم - إيران، المكتبة العامة لسماحة آية الله العظمي المرعشي النجفي، ١٤٠٤ هـ.ق.
٢٧. ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليهم)، قم - إيران، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية بقم، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤٠٤ هـ.ق.
٢٨. ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب عليه السلام، قم - إيران، العلامة، ١٣٧٩ هـ.ق.

٢٩. ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال، طهران - إيران، دار الكتب الإسلامية، ١٤٠٩ هـ.ق.

٣٠. ابن طاووس، علي بن موسى، التشرية بالمنن في التعريف بالفتن، قم - إيران، مؤسسة صاحب الأمر عليه السلام الثقافية، ١٤١٦ هـ.ق.

٣١. ابن طاووس، علي بن موسى، جمال الأسبوع بجمال العمل المشروع، قم - إيران، الشريف الرضي، ١٣٣٠ هـ.ق.

٣٢. ابن طاووس، علي بن موسى، مهج الدعوات ومنهج العبادات، قم - إيران، دار الذخائر، ١٤١١ هـ.ق.

٣٣. ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله، جامع بيان العلم وفضله، الدمام - العربية السعودية، دار ابن الجوزي، ١٤١٤ هـ.ق.

٣٤. ابن عربي، محمد بن علي، محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار في الأدبيات والنوادر والأخبار، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٢ هـ.ق.

٣٥. ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق، بيروت - لبنان، دار الفكر، ١٤١٥ هـ.ق.

٣٦. ابن فارس، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، قم - إيران، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٤ هـ.ق.

٣٧. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، عيون الأخبار، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، ١٤١٨ هـ.ق.

٣٨. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، الإمامة والسياسة، بيروت - لبنان، دار الأضواء، ١٤١٠ هـ.ق.

٣٩. ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات، النجف الأشرف - العراق، المطبعة المرتضوية، ١٣٥٦ هـ.ق.

٤٠. ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ.ق.
٤١. ابن ماجة، محمد بن يزيد، سنن ابن ماجة، القاهرة - مصر، دار إحياء الكتب العربية، بلا تاريخ.
٤٢. ابن ميثم، ميثم بن علي، شرح نهج البلاغة، طهران - إيران، دفتر نشر الكتاب، بلا تاريخ.
٤٣. ابن نها، جعفر بن محمد، مثير الأحزان، قم - إيران، مدرسة الإمام المهدي عليه السلام، ١٤٠٦هـ.ق.
٤٤. أبو الفرج الإصفهاني، علي بن الحسين، مقاتل الطالبين، بيروت - لبنان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤١٩هـ.ق.
٤٥. أبو يعلى الموصلي، أحمد بن علي، مسند أبي يعلى، دمشق - سورية، دار المأمون للتراث، ١٤٠٤هـ.ق.
٤٦. الآبي، منصور بن الحسين، نثر الدر في المحاضرات، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ.ق.
٤٧. أخطب خوارزم، الموفق بن أحمد، مقتل الحسين عليه السلام، قم - إيران، أنوار الهدى، ١٤٢٣هـ.ق.
٤٨. الإربلي، علي بن عيسى، كشف الغمة في معرفة الأئمة، تبريز - إيران، بني هاشمي، ١٣٨١هـ.ق.
٤٩. الألوسي، محمود بن عبد الله، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ.ق.
٥٠. الأمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم، قم - إيران، دار الكتاب الإسلامي، ١٤١٠هـ.ق.

٥١. البرقي، أحمد بن محمد، المحاسن، قم - إيران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٧١هـ.ق.

٥٢. البغدادي، عبد العزيز بن إسحاق، مسند الإمام زيد، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، بلا تاريخ.

٥٣. البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف، بيروت - لبنان، دار الفكر، ١٤١٧هـ.ق.

٥٤. الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي، القاهرة - مصر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٩٥هـ.ق.

٥٥. التفتازاني، مسعود بن عمر، شرح المقاصد، قم - إيران، الشريف الرضي، ١٤٠٩هـ.ق.

٥٦. التلمساني، محمد بن أبي بكر، الجوهرة في نسب الإمام علي وآله عليهم السلام، قم - إيران، أنصاريان، بلا تاريخ.

٥٧. الجرجاني، علي بن محمد، شرح المواقف، قم - إيران، الشريف الرضي، ١٣٢٥هـ.ق.

٥٨. جعفر بن محمد عليه السلام، مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة، ترجمة: حسن مصطفوي، طهران - إيران، انجمن اسلامي حكمت وفلسفه ايران (الاتحاد الإسلامي للحكمة والفلسفة في إيران)، ١٣٦٠هـ.ش.

٥٩. جعفر طياري دهاقاني، مصطفى، وصادقي، هادي، «تأثير گناه بر معرفت به قبح فعل قبيح از منظر قرآن» (تأثير الذنب في معرفة قبح الفعل

- القبیح من منظور القرآن)، مجلة پژوهش نامه اخلاق (الأخلاق العلمية)، العدد ١٤، الصفحة ١٠٩-١٣٤، ١٣٩٠ هـ.ش.
٦٠. الجعفري التبريزي، محمد تقي، تكاپوي انديشهها (تجوال الأفكار)، مجموعة آثار، العدد ٢، طهران - إيران، مؤسسة تدوين ونشر آثار العلامة الجعفري، ١٣٩٢ هـ.ش.
٦١. الجعفري التبريزي، محمد تقي، معرفت شناسي (نظرية المعرفة)، مجموعة آثار، العدد ٤، طهران - إيران، مؤسسة تدوين ونشر آثار العلامة الجعفري، ١٣٩٣ هـ.ش.
٦٢. الجوهري البصري، أحمد بن عبد العزيز، السقيفة وفدك، طهران - إيران، مكتبة نينوى الحديثة، بلا تاريخ.
٦٣. الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله، المستدرک علی الصحیحین، بیروت - لبنان، دار الکتب العلمیة، ١٤١١ هـ.ق.
٦٤. الحر العاملي، محمد بن الحسن، تفصیل وسائل الشیعة إلى تحصیل مسائل الشریعة، قم - ایران، مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، ١٤٠٩ هـ.ق.
٦٥. الحسن بن علي عليه السلام، التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام، قم - إيران، مدرسة الإمام المهدي عليه السلام، ١٤٠٩ هـ.ق.
٦٦. الحسيني الأفغاني، جمال الدين، وعبد، محمد، العروة الوثقى، الآثار الكاملة ١، القاهرة - مصر، مكتبة الشروق الدولية، ١٤٢٣ هـ.ق.
٦٧. الحلواني، الحسين بن محمد، نزهة الناظر وتنبیه الخاطر، قم - إيران، مدرسة الإمام المهدي عليه السلام، ١٤٠٨ هـ.ق.
٦٨. الحميري، عبد الله بن جعفر، قرب الإسناد، قم - إيران، مؤسسة آل

- البيت عليه السلام لإحياء التراث، ١٤١٣هـ.ق.
٦٩. الخزاز الرازي، علي بن محمد، كفاية الأثر في النص على الأئمة الاثني عشر، قم - إيران، بیدار، ١٤٠١هـ.ق.
٧٠. الديلمی، الحسن بن محمد، إرشاد القلوب، قم، الشريف الرضي، ١٤١٢هـ.ق.
٧١. الديلمی، الحسن بن محمد، أعلام الدين في صفات المؤمنين، قم - إيران، مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، ١٤٠٨هـ.ق.
٧٢. الديلمی، شيرويه بن شهردار، الفردوس بمأثور الخطاب، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ.ق.
٧٣. الدينوري، أحمد بن داود، الأخبار الطوال، قم، الشريف الرضي، ١٣٧٣هـ.ش.
٧٤. الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، بيروت - لبنان، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ.ق.
٧٥. الراغب الإصفهاني، الحسين بن محمد، الذريعة إلى مكارم الشريعة، القاهرة - مصر، دار السلام، ١٤٢٨هـ.ق.
٧٦. الراغب الإصفهاني، الحسين بن محمد، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، بيروت - لبنان، دار الأرقم بن أبي الأرقم، ١٤٢٠هـ.ق.
٧٧. الراغب الإصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن، دمشق - بيروت، دار القلم - الدار الشامية، ١٤١٢هـ.ق.
٧٨. الراوندي الكاشاني، فضل الله بن علي، النوادر، قم - إيران، دار الكتاب، بلا تاريخ.
٧٩. الرباني الكلپايگاني، علي، معرفت ديني از منظر معرفت شناسي (المعرفة

- الدينية في مرأى نظرية المعرفة)، طهران - إيران، مؤسسه فرهنگي دانش
وانديشه معاصر (مؤسسة الثقافية للعلم والفكر المعاصر)، ١٣٧٨ هـ.ش.
٨٠. الرفيعي القزويني، أبو الحسن، غوصي در بحر معرفت (غوص في بحر
المعرفة)، طهران - إيران، إسلام، ١٣٧٦ هـ.ش.
٨١. السبحاني التبريزي، جعفر، هرموتيك (الهرمنوطيقا)، قم - إيران،
مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، ١٣٨١ هـ.ش.
٨٢. السبزواري، محمد بن محمد، جامع الأخبار، بيروت - لبنان، مؤسسة آل
البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ١٤١٣ هـ.ق.
٨٣. السبزواري، هادي بن مهدي، شرح المنظومة، طهران - إيران، نشر ناب،
١٣٦٩ هـ.ش.
٨٤. سجادي، جعفر، فرهنگ معارف اسلامي (معجم المعارف الإسلامية)،
طهران - إيران، كوش، ١٣٧٣ هـ.ش.
٨٥. سعادت پرور، علي، نور هدايت (نور الهداية)، طهران - إيران، إحياء
كتاب، ١٣٨٦ هـ.ش.
٨٦. الشهيد الثاني، زين الدين بن علي، منية المرید في أدب المفيد والمستفيد،
قم، مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٩ هـ.ق.
٨٧. صدر الدين الشيرازي، محمد بن إبراهيم، الحكمة المتعالية في الأسفار
العقلية الأربعة، بيروت - لبنان، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨١ م.
٨٨. الصفار، محمد بن الحسن، بصائر الدرجات في فضائل آل محمد (صلوات
الله عليهم أجمعين)، قم - إيران، مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي،
١٤٠٤ هـ.ق.

٨٩. الصفائي الحائري، علي، چهل حديث از امام حسين عليه السلام (أربعون حديثاً للإمام الحسين عليه السلام)، قم - إيران، ليلة القدر، ١٣٨٠ هـ.ش.
٩٠. الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، بيروت - لبنان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٣٩٠ هـ.ق.
٩١. الطباطبائي، محمد حسين، نهاية الحكمة، قم - إيران، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية بقم، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤١٦ هـ.ق.
٩٢. الطبراني، سليمان بن أحمد، الدعاء، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، ١٤١٣ هـ.ق.
٩٣. الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الأوسط، القاهرة - مصر، دار الحرمين، بلا تاريخ.
٩٤. الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، القاهرة - مصر، مكتبة ابن تيمية، بلا تاريخ.
٩٥. الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج، مشهد المقدّسة - إيران، نشر المرتضى، ١٤٠٣ هـ.ق.
٩٦. الطبرسي، الحسن بن الفضل، مكارم الأخلاق، قم - إيران، الشريف الرضي، ١٤١٢ هـ.ق.
٩٧. الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، طهران - إيران، ناصر خسرو، ١٣٧٢ هـ.ش.
٩٨. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، بيروت - لبنان، دار التراث، ١٣٨٧ هـ.ق.
٩٩. الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تفسير القرآن، بيروت - لبنان، دار المعرفة، ١٤١٢ هـ.ق.

١٠٠. الطوسي، محمد بن الحسن، اختيار معرفة الرجال المعروف برجال الكشي، مشهد المقدسة - إيران، جامعة مشهد، كلية الإلهيات والمعارف الإسلامية، مركز البحوث والدراسات، ١٤٠٩ هـ.ق.
١٠١. الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي، قم - إيران، دار الثقافة، ١٤١٤ هـ.ق.
١٠٢. الطوسي، محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام، طهران - إيران، دار الكتب الإسلامية، ١٤٠٧ هـ.ق.
١٠٣. الطوسي، محمد بن الحسن، مصباح المتهدج، بيروت - لبنان، مؤسسة فقه الشيعة، ١٤١١ هـ.ق.
١٠٤. العسكري، الحسن بن عبدالله، والجزائري، نور الدين، معجم الفروق اللغوية، قم - إيران، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية بقم، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤١٢ هـ.ق.
١٠٥. عفيفي، أبو العلاء، التصوف: الثورة الروحية في الإسلام، بيروت - لبنان، دار الشعب، بلا تاريخ.
١٠٦. علي بن أبي طالب عليه السلام، نهج البلاغة، قم - إيران، مؤسسة دار الهجرة، ١٤١٤ هـ.ق.
١٠٧. علي بن الحسين عليهما السلام، الصحيفة السجادية، قم - إيران، نشر الهادي، ١٣٧٦ هـ.ش.
١٠٨. علي بن موسى عليهما السلام، الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا عليه السلام، قم - إيران، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ١٤٠٦ هـ.ق.
١٠٩. عميد الزنجاني، عباس علي، بيوند مذهب وانسان (أصرة المذهب والإنسان)، طهران - إيران، برهان، ١٣٦٦ هـ.ش.

١١٠. الفاضل المقداد، مقداد بن عبدالله، الأنوار الجلالية في شرح الفصول النصيرية، مشهد المقدّسة - إيران، العتبة الرضوية المقدّسة، مجمع البحوث الإسلامية، ١٤٢٠هـ.ق.

١١١. الفتال النيسابوري، محمّد بن الحسن، روضة الواعظين، قم - إيران، الشريف الرضي، بلا تاريخ.

١١٢. فخر الرازي، محمّد بن عمر، التفسير الكبير، بيروت - لبنان، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ.ق.

١١٣. فروغي، محمّد علي، سير حكمت در ارويا (مسار الحكمة في أوروبا)، طهران - إيران، منشورات زوار، ١٣٤٤هـ.ش.

١١٤. فعالی، محمّد تقی، درآمدي بر معرفت شناسي ديني ومعاصر (مدخل للمعرفة الدينية والمعاصرة)، قم - إيران، نهاد نهایندگی مقام معظم رهبري در دانشگاهها (مؤسسة ممثلة المرشد الأعلى في الجامعات)، ١٣٧٧هـ.ش.

١١٥. القاضي سعيد القمي، محمّد سعيد بن محمّد مفيد، شرح الأربعين، طهران - إيران، مركز تحقيق ميراث مكتوب، ١٣٧٩هـ.ش.

١١٦. القاضي سعيد القمي، محمّد سعيد بن محمّد مفيد، شرح توحيد الصدوق، طهران - إيران، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، مكتب الطباعة والنشر، ١٤١٥هـ.ق.

١١٧. القاضي عبد الجبار بن أحمد، شرح الأصول الخمسة، بيروت - لبنان، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٢هـ.ق.

١١٨. القرطبي، محمّد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، القاهرة - مصر، دار الكتب المصرية، ١٣٨٤هـ.ق.

١١٩. القشيري النيسابوري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، القاهرة - مصر، دار إحياء الكتب العربية، بلا تاريخ.
١٢٠. قطب الدين الراوندي، سعيد بن هبة الله، الخرائج والجرائح، قم، مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام، ١٤٠٩ هـ.ق.
١٢١. قطب الدين الراوندي، سعيد بن هبة الله، الدعوات، قم - إيران، مدرسة الإمام المهدي عليه السلام، ١٤٠٧ هـ.ق.
١٢٢. القمي، شاذان بن جبرئيل، الفضائل، قم، الشريف الرضي، ١٣٦٣ هـ.ش.
١٢٣. القمي، عباس، نفس المهموم في مصيبة سيدنا الحسين المظلوم، قم - إيران، المكتبة الحيدرية، ١٤٢١ هـ.ق.
١٢٤. القمي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي، قم - إيران، دار الكتاب، ١٤٠٤ هـ.ق.
١٢٥. القندوزي، سليمان بن إبراهيم، ينابيع المودة لذوي القربى، قم - إيران، منظمة الأوقاف والشؤون الخيرية، دار الأسوة للطباعة والنشر، ١٤٢٢ هـ.ق.
١٢٦. القيصري، داود بن محمود، شرح فصوص الحكم، طهران - إيران، شركة انتشارات علمي وفرهنگي (شركة المنشورات العلمية والثقافية)، ١٣٧٥ هـ.ش.
١٢٧. كاپلستون، فردريك چارلز، تاريخ فلسفه (تاريخ الفلسفة)، ترجمة: جلال الدين مجتبوي، طهران - إيران، شركة انتشارات علمي وفرهنگي (شركة المنشورات العلمية والثقافية)، ١٣٨٠ هـ.ش.

١٢٨. الكراجكي، محمد بن علي، كنز الفوائد، قم - إيران، دار الذخائر، ١٤١٠هـ.ق.

١٢٩. الكربلائي، جواد بن عباس، الأنوار الساطعة في شرح الزيارة الجامعة، قم - إيران، مؤسسة دار الحديث الثقافية والعلمية، مؤسسة الطباعة والنشر، بلا تاريخ.

١٣٠. الكفعمي، إبراهيم بن علي، البلد الأمين، طهران - إيران، مكتبة الصدوق، بلا تاريخ.

١٣١. الكفعمي، إبراهيم بن علي، مصباح الكفعمي، قم - إيران، دار الرضي - زاهدي، ١٤٠٥هـ.ق.

١٣٢. الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، طهران - إيران، دار الكتب الإسلامية، ١٤٠٧هـ.ق.

١٣٣. الليثي الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ، قم - إيران، مؤسسة دار الحديث العلمية الثقافية، مؤسسة الطباعة والنشر، ١٣٧٦هـ.ش.

١٣٤. المبرد، محمد بن يزيد، الفاضل، القاهرة - مصر، دار الكتب المصرية، ١٤٢١هـ.ق.

١٣٥. المتقي الهندي، علي بن حسام الدين، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، بيروت - لبنان، مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ.ق.

١٣٦. المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي، جلاء العيون: تاريخ چهارده معصوم (تاريخ الأربعة عشر معصوماً)، قم - إيران، سرور، ١٣٨٢هـ.ش.

١٣٧. المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، بيروت - لبنان، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٣هـ.ق.

١٣٨. المجلسي، محمد تقي بن مقصود علي، روضة المتقين في شرح من لا يحضره الفقيه، قم، مركز الثقافة الإسلامية للحاج محمد حسين كوشانپور، ١٤٠٦ هـ.ق.

١٣٩. مدكور، محمد سلام، مباحث الحكم عند الأصوليين، مطبعة لجنة بيان العربي، بلا تاريخ.

١٤٠. المدني، علي خان بن أحمد، رياض السالكين في شرح صحيفة سيّد الساجدين (صلوات الله عليه)، قم - إيران، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية بقم، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤٠٩ هـ.ق.

١٤١. مصباح اليزدي، محمد تقي، آموزش فلسفه (تعليم الفلسفة) (مشكات)، قم - إيران، نشر مؤسسة الإمام الخميني البحثية والتعليمية، ١٣٩٤ هـ.ش.

١٤٢. المصطفوي، حسن، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، طهران - إيران، مركز نشر آثار العلامة المصطفوي، ١٣٨٥ هـ.ش.

١٤٣. مطهري، مرتضي، مجموعه آثار استاد شهيد مطهري (مجموعة آثار الأستاذ الشهيد مطهري)، طهران - إيران، صدرا، ١٣٧٧ هـ.ش.

١٤٤. المظفر، محمد رضا، أصول الفقه، قم - إيران، إسماعيليان، ١٣٧٥ هـ.ش.

١٤٥. معلمي، حسن، «معيار سنجش وتمييز شهود رحماني از شهود شيطاني» (معيار مقارنة وتمييز الشهود الرحماني عن الشهود الشيطاني)، مجلة مطالعات معنوي (دراسات معنوية)، العدد ٤ و ٥، صفحة ١٢٥-١٤٤، ١٣٩١ هـ.ش.

١٤٦. معلمي، حسن، معرفت شناسي (نظرية المعرفة)، قم - إيران، مركز المصطفى عليه السلام الدولي للترجمة والنشر، ١٣٩٦ هـ.ش.
١٤٧. مغنية، محمد جواد، عقليات إسلامية، بيروت - لبنان، مؤسسة عز الدين، ١٤١٤ هـ.ق.
١٤٨. مغنية، محمد جواد، فضائل الإمام علي عليه السلام، قم - إيران، دار الكتاب الإسلامي، ١٣٩٦ هـ.ش.
١٤٩. المفيد، محمد بن محمد، الاختصاص، قم، المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، ١٤١٣ هـ.ق.
١٥٠. المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، قم - إيران، المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، ١٤١٣ هـ.ق.
١٥١. المفيد، محمد بن محمد، الأمالي، قم - إيران، المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، ١٤١٣ هـ.ق.
١٥٢. المفيد، محمد بن محمد، النكت الاعتقادية، قم - إيران، المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، ١٤١٣ هـ.ق.
١٥٣. المنصور بالله، عبدالله بن حمزة، الشافي، صعدة - اليمن، مكتبة أهل البيت عليهم السلام، ١٤٢٩ هـ.ق.
١٥٤. الناطق بالحق، يحيى بن الحسين، تيسير المطالب في أمالي أبي طالب، صنعاء - اليمن، مؤسسة زيد بن علي الثقافية، ١٤٢٢ هـ.ق.
١٥٥. النصيبي الشافعي، محمد بن طلحة، مطالب السؤول في مناقب آل الرسول، بيروت - لبنان، مؤسسة البلاغ، ١٤١٩ هـ.ق.
١٥٦. النعماني، محمد بن إبراهيم، الغيبة، طهران - إيران، مكتبة الصدوق، ١٣٩٧ هـ.ق.

١٥٧. الهاشمي، حسين، «قرآن وكثرت گرابي ديني (پلوراليسم) مباني، زمينهها وانگيزهها» (القرآن والتعددية الدينية، الأسس والمجالات والدوافع)، مجلة پژوهش هاي قرآني (دراسات قرآنية)، العدد ٣١، صفحة ٥٤-٧٥، ١٣٨١هـ.ش.

١٥٨. الهلالي، سليم بن قيس، كتاب سليم بن قيس الهلالي، قم، نشر الهادي، ١٤٠٥هـ.ق.

١٥٩. الواعظي، أحمد، درآمدي بر هرمنوتيك (مدخل إلى الهرمنيوطيقا)، طهران - إيران، پژوهشگاه فرهنگ واندیشه اسلامي (مركز الثقافة والفكر الإسلامي)، ١٣٨٠هـ.ش.

١٦٠. ورام، مسعود بن عيسي، تنبيه الخواطر ونزهة النواظر المعروف بمجموعة ورام، قم - إيران، مكتبة الفقيه، ١٤١٠هـ.ق.

١٦١. اليعقوبي، أحمد بن إسحاق، تاريخ اليعقوبي، بيروت - لبنان، دار صادر، بلا تاريخ.

الفهرست

٩.....	توطئة
١١.....	المقدمة
١١.....	مفهوم المعرفة
١٣.....	المعرفة الحقيقية
١٣.....	إمكان المعرفة الحقيقية
١٤.....	١- السفسطائية ^٥
١٤.....	المناقشة
١٥.....	٢- الشكوكية ^٥
١٧.....	نظرية المعرفة
١٧.....	موضوع نظرية المعرفة
١٧.....	الغاية من نظرية المعرفة
١٨.....	أهمية البحث حول نظرية المعرفة
١٩.....	إطلالة تاريخية حول نظرية المعرفة
١٩.....	أ) نظرية المعرفة في اليونان القديم
٢١.....	ب) نظرية المعرفة في القرون الوسطى
٢١.....	ج) نظرية المعرفة في الفلسفة الحديثة
٢٢.....	د) نظرية المعرفة في الفلسفة الإسلامية

٢٤..... علاقة نظرية المعرفة بالعلوم الأخرى.....

الأول: حقيقة المعرفة

٢٩..... المعرفة هي الهدف من التغيير والتبدل في العالم.....

٣١..... الفرق بين العلم والمعرفة.....

٣١..... معرفة الصفات بأضدادها.....

٣٤..... المعرفة شيء لطيف.....

٣٥..... القلب مركز المعرفة.....

٣٨..... المعارف المطمئنة لقلب الإنسان.....

٣٩..... المعارف تُعرف بالله.....

٤٠..... ضرورة إزالة حجب الغفلة عن القلب.....

الثاني: المعارف الإلهية

٤٥..... وجوب المعرفة الإلهية.....

٤٥..... أنوار المعرفة الإلهية.....

٤٧..... ضرورة المعرفة بالله سبحانه.....

٤٨..... علة الخلق هي معرفة الله.....

٤٨..... عبادة الله علة معرفته.....

٤٩..... يعرف الله بمعرفة الإمام المفترض الطاعة.....

٤٩..... معرفة الإمام الواقعية بالله تعالى.....

٥٠..... وظيفة الإنسان تجاه المعارف الإلهية.....

٥١..... ما يجب على الجميع معرفته من الحقائق.....

٥٢..... إنكار الناس للمعارف الإلهية أحياناً.....

٥٣..... الإنسان مختار في اكتساب المعارف الإلهية.....

٥٣..... جهل الناس بالمعارف الإلهية أحياناً.....

- العاشر: الموانع النظرية للمعرفة ٥٥٧
- رفع الجهل عن المعارف الإلهية من أبرز مهام الحاكم ٥٤
- الحكومات المخالفة للمعارف الإلهية ٥٤
- حرمة إنكار المعارف الإلهية والجهل بها ٥٥

الثالث: مصادر المعرفة وأدواتها

- أ) الوحي ٦١
- تحقق الإيمان بسماع الحقائق الوحيانية ٦٣
- ما ينبغي تبليغه وحيًا ٦٤
- ضرورة معرفة الله عن طريق الوحي ٦٥
- وصفُ الله سبحانه نفسه بالوحي ٦٦
- ب) الإلهام ٦٩
- المعرفة الإلهية إلهامية ٧١
- الإلهامات الإلهية للإنسان ٧١
- إتمام الحجّة على الإنسان بإلهامه معرفته سبحانه ٧٢
- إلهام الإنسان المعرفة بالله بعونه سبحانه ولطفه ٧٢
- لله المنّة على الإنسان بإلهامه معرفته ٧٣
- ج) العقل ٧٥
- ذوو العقول ٨١
- تأثير حوادث الدهر في اعتبار ذوي العقول ٨٤
- جعل عقول الأولياء مراكز الأوامر والنواهي الإلهية ٨٤
- الفرق بين العقل والقلب ٨٥
- عقول إلهية ٨٦
- الحقائق النورية التي تعين العقل على بلوغ مراد الله سبحانه ٨٧

- ٨٨..... عدم إمكان تمثيل الحق سبحانه بالعقل
- ٨٩..... حيلة العاقل عند الابتلاء الشديد
- ٨٩..... طريقة مواجهة العقلاء للبلايا
- ٩٠..... بعد نظر العاقل
- ٩٠..... إبعاد العاقل الحزن عن نفسه بالاستفادة من عقله
- ٩٠..... إنقاذ العاقل نفسه من البلاء بالاستفادة من عقله
- ٩١..... درجات العقل
- ٩١..... العقل التجريبي
- ٩٢..... ضرورة مجالسة العقلاء
- ٩٢..... العقل منطلق العلم والإدراك
- ٩٥..... الفرق بين اللبّ والفكر
- ٩٨..... احتجاب الله عن عقول البشر
- ٩٩..... عدم إمكان معرفة الله بواسطة المعلومات الفردية
- ١٠١..... نقصان العقل ابتداءً
- ١٠٢..... إمكان بلوغ العقل للكمال
- ١٠٣..... السبيل الوحيد لكمال العقل
- ١٠٣..... دور العمل في تكامل عقل الإنسان
- ١٠٣..... نقصان عقول أتباع الباطل
- ١٠٤..... من علامات الحمق
- ١٠٤..... من علامات العقلاء
- ١٠٦..... لزوم الجمع بين العقل والحلم
- ١٠٧..... زينة العقل
- ١٠٨..... أنواع الزينة

العاشر: الموانع النظرية للمعرفة	٥٥٩
علامة العقل	١٠٨
عقلانية بعض القوانين الدينوية.....	١٠٩
معرفة ذوي العقول للحق.....	١١٠
إمكانية بلوغ الحق بواسطة العقل	١١١
العاقل أهل للعمل.....	١١١
المدافعة في حساب العاقل	١١٢
العقل حجة باطنية.....	١١٢
من علامات العقل	١١٣
الحسن والقبح العقليان	١١٣
(د) الحكمة	١٢٤
ينابيع الحكمة.....	١٢٦
الحكمة مدعاة لرفي الحياة المعنوية	١٢٧
ضرورة صيانة الحكمة في القلوب	١٢٧
تنفجر ينابيع الحكمة من قلب الإنسان أحياناً.....	١٢٨
آثار ينابيع الحكمة وبركاتها	١٢٩
ترسيخ ينابيع الحكمة في قلوب المرضيين من العباد	١٣٠
تألؤلؤ نور الهداية بالحكم الحسينية	١٣١
(هـ) التجربة	١٣٣
كسب التجربة بالعمل	١٣٤
كثرة التجارب.....	١٣٥
اللطف الإلهي في تجربة الإنسان	١٣٥
تأثير التجربة الطويلة في قوة عقل الإنسان	١٣٦

١٣٧ (و) التاريخ

١٣٩ الغاية من ذكر حوادث التاريخ المبررة

١٤٠ ضرورة الاعتبار من الازدراء واللوم الإلهي لعلماء اليهود

١٤١ ضرورة الاعتبار بالقصص القرآني

١٤٣ (ز) الفطرة

١٤٤ فطرية المعرفة الإلهية

١٤٤ كمال فطرة الإنسان بإلهامه المعرفة بالله

١٤٥ مكنونات الإنسان بعد اكتمال فطرته واعتدال قواه

١٤٧ فطرية التدين

١٤٨ تنوع الحقائق في مكنون ضمير الإنسان

١٤٩ الهداية الفطرية للإنسان من الله تبارك وتعالى

١٥٠ بعثة النبي صلى الله عليه وآله على الفطرة

١٥١ ولاية أهل البيت عليهم السلام من مقتضى الفطرة

١٥٣ (ح) الكشف والشهود

١٥٥ الحاجة إلى التمييز بين الحق والباطل في المكاشفات

١٥٧ المعيار في تمييز المكاشفات الرحمانية عن الإلقاءات الشيطانية

١٥٧ إمكان معرفة الله عن طريق الغيب

١٥٩ المعارف النفسانية للمؤمن

١٦١ المعرفة الإشراقية

١٦٥ (ط) الطبيعة

١٦٧ إمكان كسب المعرفة عن طريق الآثار

١٦٩ (ي) الحس

١- النظرية الحسية: ١٧١

٢- النظرية العقلية: ١٧١

٣- نظرية الفلاسفة الإسلاميين: ١٧٢

الإدراك الناشئ من القوة الباصرة ١٧٢

١٧٥ (ك) الهداية

هداية الله المعنوية للإنسان ١٧٧

الله تعالى هو الهادي الحقيقي ١٧٧

الهداية الإلهية بأسبابها ١٧٨

البصيرة منشأ الهداية ١٧٨

الهداية بالرجوع إلى الآثار ١٧٩

حاجة الإنسان لهداية الله في الوصول إليه ١٧٩

أنواع النور ١٨٠

نور الهداية المعنوي ١٨٠

أنواع النور الإلهي ١٨١

هداية الناس باستبانة المعالم ١٨٢

إمكان هداية الإنسان للكمال ١٨٣

اهتداء الإنسان بنور الهداية الإلهية ١٨٤

إرشاد الله يتم بأوامره سبحانه ١٨٤

حزن الأولياء لعدم اهتداء البشر ١٨٤

النجاة من نار جهنم بالإرشاد الإلهي ١٨٥

حاجة النفس لمعرفة هداها ١٨٦

- ١٨٦..... الهداية هي الهدف من خلقه الإنسان
- ١٨٧..... هداية الأولياء من قبل الله سبحانه
- ١٨٧..... ضرورة سلوك طريق الهداية
- ١٨٨..... ضرورة طلب الهداية إلى الحق
- ١٨٩..... أهل الهدى
- ١٩٠..... توفيق أهل الهدى
- ١٩٠..... تأثير الهداية في التوفيق
- ١٩٢..... اكتمال التوفيق عند أهل الهدى
- ١٩٣..... الهداية للإسلام من الله عز وجل
- ١٩٣..... نعمة الهداية
- ١٩٤..... حسن الاستشهاد بالقرآن والأحاديث للهداية من الضلال
- ١٩٥..... علم الإمام بهدائته
- ١٩٥..... قبح الجدال والنزاع عند أهل الهدى
- ١٩٦..... أئمة الهدى
- ١٩٨..... ضرورة امتثال دعوة أئمة الهدى
- ١٩٨..... حجب الهداية عن المستضعفين من قبل الأعداء
- ١٩٩..... عدم الاهتداء بغير الإمام الحق
- ٢٠٠..... عدم شمول الهداية الإلهية لأتباع الشيطان
- ٢٠١..... تجلي الهداية الإلهية في السنة النبوية
- ٢٠٢..... أنواع الرايات
- ٢٠٣..... إمكان الهداية بالرجوع للنفس
- ٢٠٤..... حرمة قتل الدعاة للهدى
- ٢٠٤..... هداية أفراد المجتمع بقبولهم دعوة أولياء الله

العاشر: الموانع النظرية للمعرفة	٥٦٣
المأيوس من هدايتهم	٢٠٥
سلام الله وأوليائه على أتباع الهدى	٢٠٧
طريق الإمام الحسين <small>عليه السلام</small> سبيل الهداية	٢٠٨
وجوب أتباع الهدى	٢٠٨
ضرورة هداية الناس إلى طريق الهدى	٢٠٩
الهداية رهن إطاعة الإمام الحق	٢١١
الحاجة لإظهار المعجزة أمام العدو لتنتيجه للهدى	٢١١
هداية الإنسان بيد الله تعالى	٢١٢
نور الهداية في الحكمة	٢١٣
زوال الضلال بنور هدى الإمام	٢١٤
سعي الجاحدين لإطفاء نور الهداية	٢١٤
هداية الله للحسنات	٢١٥
درجات الهداية	٢١٥
الهداية بالإيصال إلى المطلوب	٢١٦
الإنسان مخير في اختياره طريق الهدى	٢١٧
وجوب الاستماع للدعاة إلى الهدى	٢١٩
القلوب التي لن تهتدي أبداً	٢١٩
لزوم العمل على أساس الهداية الإلهية	٢٢٠
حسن لقاء المنحرفين رجاء هدايتهم	٢٢٢
ضرورة رفع أعلام الله من قبل أوليائه	٢٢٣
حياة الإنسان المعنوية رهن هدايته	٢٢٣
ل) الفكر	٢٢٥
أهل التفكير	٢٢٨

- الفكر من أدوات الإدراك ٢٢٩
- قصور الفكر عن فهم الذات الإلهية المقدّسة ٢٢٩
- حدود إصابة الفكر ٢٣٠
- استحالة معرفة حقيقة صفات الله جلّ وعلا ٢٣١
- تأثير التفكير في تغيير مصير الإنسان ٢٣٢
- إمكان بلوغ النتائج المرجوة بالفكر والتأمل ٢٣٤
- دور الفكر في إطفاء نار الضغينة ٢٣٥
- فنون النظر ٢٣٦
- حقائق فنون النظر ٢٣٧
- م) البصيرة ٢٣٩**
- أسباب البصيرة ٢٤٢
- ضرورة تحصيل البصيرة من الأسباب المؤدّية لها ٢٤٢
- سلوك طريق الكمال عن بصيرة ٢٤٣
- وجوب البصيرة بالدين ٢٤٣
- قيح الجدال والشجار من قبل ذوي البصيرة ٢٤٤
- اعتبار أولي الأبصار ٢٤٤
- علامة البصيرة ٢٤٦
- ن) تزكية النفس ٢٤٩**
- ضرورة السيطرة على النفس ٢٥٠
- حسن مجاهدة النفس ٢٥١
- حسن ترويض النفس ٢٥١

الرابع: درجات المعرفة

- ٢٥٥ (أ) العلم
- ٢٥٧ أنواع العلم
- ٢٥٨ لا قيمة للعلم العرضي مقارنة بالعلم الذاتي
- ٢٥٨ العلوم التي لا تتطابق مع الواقع
- ٢٥٩ ضرورة عدم تعلق الإنسان بعلومه
- ٢٦٠ لزوم طلب العلم
- ٢٦٠ أهل العلم
- ٢٦١ ما يلزم العلم به
- ٢٦١ الأمور التي يحسن تعلمها
- ٢٦٢ أفضلية أهل العلم والمعرفة
- ٢٦٣ المكانة الرفيعة للعلم
- ٢٦٤ حسن التبجيل لأجل العلم
- ٢٦٥ لزوم تشجيع العالم
- ٢٦٥ تأثير العلم في المعرفة
- ٢٦٥ بسط العلم من الله سبحانه
- ٢٦٦ ضرورة عرض الإنسان آراءه للنقد من قبل العلماء
- ٢٦٦ ضرورة اطلاع العلماء على فنون النظر والاستدلال
- ٢٦٨ اختلاف متعلقي العلم والمعرفة
- ٢٦٩ ضرورة مجالسة العلماء
- ٢٧٠ ترك الإنسان العمل بعلمه أحياناً
- ٢٧١ الطائفة المشهورة بالعلم
- ٢٧٢ العلماء الذين يكرمهم الضعفاء

- ٢٧٣ عدم أداء بعض العلماء للكثير من الحقوق الإلهية.
- ٢٧٣ خشية الأولياء من أمانى العلماء التي في غير محلها.
- ٢٧٤ العلماء بالله.
- ٢٧٤ العلماء بالله أمناء على حلاله وحرامه.
- ٢٧٥ يعزل العلماء عن مرجعيتهم السياسية أحياناً.
- ٢٧٥ يعزل العلماء عن مرجعيتهم العلمية أحياناً.
- ٢٧٦ وجوب الصبر على الأذى من قبل العلماء بالله.
- ٢٧٦ يسلم العلماء الأمور الإلهية للحكام الظلمة أحياناً.
- ٢٧٨ آفات فرار العلماء من الموت.
- ٢٨٠ آفات تعلق العلماء بالدنيا.
- ٢٨٠ تهاون بعض العلماء تجاه مفاسد الحكام الظلمة.
- ٢٨١ وعاظ البلاط.
- ٢٨١ أثر تهاون بعض العلماء في تسلط الحكام الظلمة.
- ٢٨٢ قائمة بمهام القادة الدينيين.
- ٢٨٣ ١- إظهار معالم الدين للناس.
- ٢٨٣ ٢- إظهار الإصلاح في البلاد.
- ٢٨٣ ٣- توفير الأمن لعباد الله.
- ٢٨٤ ٤- العمل بالفرائض والسنن الإلهية.
- ٢٨٤ مهمة الأولياء في الدعوة إلى سبيل الرشاد.
- ٢٨٥ إمكان إصابة العالم بالعجب.
- ٢٨٥ أثر العجب في العالم.
- ٢٨٦ معنى العالم.
- ٢٨٦ الفرق بين العالم والمعصوم.

العاشر: الموانع النظرية للمعرفة	٥٦٧
المكانة الرفيعة لمعلم الدين	٢٨٦
عدم أداء حق معلم الدين بالأموال	٢٨٨
حسن احترام معلم الدين وتبجيله	٢٨٨
الجود على الأستاذ عند إقبال الدنيا على التلميذ	٢٨٨
مسؤولية العلماء تجاه أيتام آل محمد <small>عليهم السلام</small>	٢٨٩
إكرام الله تعالى للعلماء	٢٩٠
الأجر اللائق للعلماء الواقعيين	٢٩٠
الذين لا يعملون بعلمهم	٢٩١
عظمة العلم	٢٩٢
العلم من مظاهر جلال العظمة الإلهية	٢٩٣
الفرق بين الفهم والعلم	٢٩٣
تأثير العلم واليقظة في الابتعاد عن الذنب	٢٩٤
تأثير الاطلاع على عواقب الأعمال القبيحة في تركها	٢٩٥
حسن المداخلة في البحث العلمي بين العلماء	٢٩٧
ضرورة تجنب العلماء هتك الحرمات	٢٩٨
تأثير العلم في العمل بأحكام الشريعة	٢٩٩
ضرورة تبرير العلماء لتصرفاتهم	٣٠٠
لزوم تصحيح أقوال الناس من قبل العلماء	٣٠١
لزوم خضوع قادة الدين علمياً	٣٠١
مسؤولية العالم بالنسبة للنهي عن المنكر	٣٠٢
تأثير العلم في الفرح	٣٠٣
تأثير العلم في العمل	٣٠٤
ضرورة العمل بالعلم	٣٠٥

- ٣٠٥ تأثير العلم في الصبر
- ٣٠٦ وجوب الشفافية أحياناً عند بيان المصداق
- ٣٠٧ الأسرار التي يجب أن لا يطلع عليها أحد
- ٣٠٨ نظام الأسباب والمسببات في الأمور المعنوية
- ٣٠٩ (ب) اليقين
- ٣١٠ عدم وجود الشك في العلم اليقيني
- ٣١١ العمل اليقيني
- ٣١١ حسن اليقين
- ٣١٢ ضرورة التيقن بالوعد الإلهية
- ٣١٣ ما يورث اليقين
- ٣١٣ الفرق بين الإيمان واليقين
- ٣١٤ تأثير المراثيات في يقين الإنسان
- ٣١٥ اليقين الناشئ من فطنة الإيمان
- ٣١٥ المؤمن الواقعي من أهل اليقين
- ٣١٦ معرفة الناس القلبية بلزوم البيعة لأمير المؤمنين عليه السلام
- ٣١٧ وجوب الاعتقاد القلبي الصحيح
- ٣١٨ من الأمور التي لا تقبل الشك

الخامس : خلفيات المعرفة ومؤهلاتها

- ٣٢٣ (أ) التقوى
- ٣٢٣ تأثير التقوى في تطور حياة الإنسان
- ٣٢٤ تأثير ارتقاء التقوى في سمو روح الإنسان
- ٣٢٥ (ب) الإيمان

العاشر: الموانع النظرية للمعرفة ٥٦٩

معارف المؤمن النفسية ٣٢٦

اليقين الناشئ من الإيمان ٣٢٧

السادس: أنواع المعرفة

أنواع المعرفة ٣٣١

المعرفة الإشرافية ٣٣٢

عدم اكتسابية المعرفة الإشرافية ٣٣٢

المدركات عن طريق العين ٣٣٢

السابع: آثار المعرفة

الرؤية الناشئة عن المعرفة ٣٣٧

المعرفة مقدّمة على الطاعة ٣٣٧

تأثير العقيدة والمعرفة في سلوك الإنسان ٣٣٨

تأثير المعرفة في إدراك عظمة بعض الأمور ٣٣٩

الثامن: طريق المعرفة

سبيل الرشد والمعرفة ٣٤٣

دعوة الإمام لسبيل الرشاد ٣٤٤

الإمام المعصوم المعرف الواقعي لله تعالى ٣٤٤

الإمام المعصوم عليه السلام مبيّن للمسائل العقائدية ٣٤٥

المسائل التي بحاجة لشرح الإمام ٣٤٩

الطريق الذي خطه الحق سبحانه لوصول الإنسان إلى هدفه ٣٤٩

انتشار العلم بواسطة أهل البيت عليه السلام ٣٤٩

ضرورة تعلّم المعارف من أهل البيت عليه السلام ٣٥٠

معرفة الإمام بالله جل وعلا ٣٥١

اتّضح المعارف بأهل البيت عليه السلام ٣٥٢

وجوب الاستضاءة بنور أمير المؤمنين عليه السلام ٣٥٤

عدم الانحراف في الطريق الشفاف الواضح ٣٥٥

التاسع: الموانع العملية للمعرفة

أ) أتباع الهوى ٣٥٩

أتباع الهوى سبب تكذيب الدين ٣٦٠

ب) الجهل ٣٦٣

الفرد الجاهل ٣٦٣

اطلاع الإنسان على جهله أحياناً ٣٦٤

الله سبحانه يعرف الجاهل ٣٦٤

جهالة الإنسان ٣٦٥

الجهل قبال المعرفة ٣٦٥

مفارقة الجهل بالله الهدف من الخلق ٣٦٥

لطف الله على الموجودات لإزالة الجهل عنها ٣٦٦

إزالة الجهل بالمعرفة ٣٦٦

لزوم إرشاد الجاهل ٣٦٧

تأثير الحمق في قتل الإمام ٣٦٨

المتلثون حماقة ٣٦٨

بُعد المملوء حماقة عن الله جل وعلا ٣٦٩

أسباب الجهل ٣٧٠

علامات أسباب الجهل ٣٧٠

طلب الدين من قبل الجهلة ٣٧١

مناظرة الجهال من الممارسة ٣٧٢

العاشر: الموانع النظرية للمعرفة	٥٧١
قبح المنافسة مع الجهلة	٣٧٣
تشجيع الشيطان على المناظرة مع الجهلة	٣٧٣
المسكين معرفياً	٣٧٣
إنقاذ المسكين معرفياً أحب من إنقاذ المستضعف بدنياً	٣٧٤
ضرورة دعوة العالم للجاهل للانتفاع من علمه	٣٧٥
ضرورة عدم انزعاج العلماء من سوء أدب الجهلاء	٣٧٦
الجهل سبب عدم المعرفة بالله والإمام	٣٧٦
يجب إقحام الجاهل في التفكير أحياناً	٣٧٨
من صفات أهل الجهل	٣٨٠
لزوم إرشاد الجاهل في الأمور المادية	٣٨١
الجهل من عوامل ظلم الآخرين	٣٨٣
معدورية الجاهل القاصر	٣٨٤
لزوم إرشاد الجاهل في التمييز	٣٨٥
لزوم المبادرة لإرشاد الجاهل	٣٨٦
مطية الجهل	٣٨٦
جهل الساعي	٣٨٩
حاجة الجهلاء للقدوة الصحيحة	٣٩٠
تأثير القدوة في رفع الجهل عن المجتمع	٣٩٠
تأثير الجهل في معاداة الإمام الحق	٣٩١
الجهل مدعاة للكراهية	٣٩١
ج) الشك والشبهة	٣٩٥
يقع الإنسان في الشك والشبهة أحياناً	٣٩٧
نجاسة وقذارة الشك والشبهة	٣٩٨

٥٧٢ الموسوعة العلمية من كلمات الإمام الحسين <small>عليه السلام</small> / الجزء الثاني (المعرفة)
٣٩٨ ضرورة النقاء من الشك قبل الموت
٣٩٩ ضرورة الإجابة عن أسئلة الناس
٣٩٩ لزوم محبة الإجابة عن الشبهات
٤٠٠ ضرورة تحصين المستضعف العقائدي ضدّ الشبهات
٤٠١ هلاك المستضعفين فكرياً بشبهات المخالفين
٤٠١ سيف الشبهات القاطع
٤٠٢ لزوم عدم التردد في العقائد
٤٠٥ ضرورة توضيح الأمور المشتبهة على الناس
٤٠٦ لزوم رفع الإبهام والغموض عن عقائد الناس
٤٠٧ قبح الأخذ بالظنّة
٤٠٩ (د) الذنوب
٤١٢ النفس رهن لكل ذنب
٤١٣ الذنب سبب تسافل الإنسان
٤١٣ أولئك الذين هلكوا بذنوبهم
٤١٤ ضرر الذنب على نفس الإنسان
٤١٥ (هـ) التخيل والتوهم
٤١٦ تصوّر الموجودات في مخيلة الإنسان
٤١٧ عدم إمكان تصوّر الله بقوة الخيال
٤١٩ (و) السفاهة
٤٢٠ تأثير السفاهة في العجلة
٤٢٠ من علائم السفاهة
٤٢٣ تأثير السفاهة في محاربة الإمام بالحق

العاشر: الموانع النظرية للمعرفة ٥٧٣

٤٢٥ (ز) الضلال

٤٢٥ الضلال سبب الجهالة بالله والإمام

٤٢٦ يتعلق القضاء الإلهي بضلالة قوم أحياناً

٤٢٨ ظلمات الضلال

٤٢٩ النواصب بصدد إضلال المساكين عقائدياً

٤٣٠ المركوس في الضلالة طوال حياته

٤٣١ (ح) الغفلة

٤٣٣ الغفلة آفة الحياة

٤٣٤ أولئك الذين أزاخوا حجب الغفلة

٤٣٥ حاجة الغافل للتذكير

٤٣٦ ضرورة تذكير الغافل من قبل القادة الربانيين

٤٣٧ (ط) حبّ الدنيا

العاشر: الموانع النظرية للمعرفة

٤٤١ (أ) إمكان معرفة الحق

٤٤٤ علائم الحقيقة

٤٤٤ تظهر علامات الحقيقة لبعض الأفراد أحياناً

٤٤٥ عدم ردّ قول الحق

٤٤٥ عدم تبدل الحق والحقيقة

٤٤٦ نور الحق لا تُطفئه ظلمات الكفر

٤٤٦ ضرورة الصبر والثبات على الحق

٤٤٧ مظان الحق

٤٤٨ ضرورة متابعة الحق في مظانه

- ٤٤٨ وجوب توظيف الفكر للخلاص من الباطل
- ٤٤٨ عوامل هزيمة الحق
- ٤٤٩ وجوب الاتفاق على الحق
- ٤٥٠ وجوب اتباع الحق
- ٤٥٠ لزوم دعوة الضال إلى معرفة الحق
- ٤٥١ تأثير معرفة الحق في قبوله
- ٤٥١ قبح الإكراه في قبول الحق
- ٤٥٢ إمكان معرفة الحق وبلوغه
- ٤٥٤ لزوم إجابة الدعوة بالحق
- ٤٥٤ القلب مركز التمييز بين الحق والباطل
- ٤٥٦ تحيّي القول بالحق من صاحب الحق
- ٤٥٧ لزوم إحياء معالم الحق
- ٤٥٧ أنواع الصواب
- ٤٥٩ أولوية الله سبحانه بالحق
- ٤٦٠ ضرورة معرفة الحق لأهله
- ٤٦١ لوازم الحق
- ٤٦١ لزوم الصبر على لوازم الحق
- ٤٦٢ حاجة الإنسان للطف الله سبحانه للتسليم مقابل الحق
- ٤٦٣ وجوب قبول قول الحق
- ٤٦٥ لزوم نية الحق
- ٤٦٥ ضرورة النهضة إحياءً لمعالم الحق
- ٤٦٦ لزوم متابعة الحق في جميع الأحوال
- ٤٦٧ ضرورة الميزان بين الحق والباطل
- ٤٦٧ لزوم العمل بالحق

العاشر: الموانع النظرية للمعرفة	٥٧٥
لزوم النهي عن الباطل	٤٦٨
وضوح الحق	٤٦٩
عدم انحراف طريق الحق	٤٦٩
سبيل الحق	٤٦٩
ضرورة امتلاك المعرفة بالحق	٤٧٠
إمكان الوصول للحق	٤٧٠
النطق بالحق مرّ أحياناً	٤٧٠
لزوم الإصرار على النطق بالحق	٤٧١
وجود الحق والباطل	٤٧٢
حسن قول الحق	٤٧٥
قبح القول بالباطل	٤٧٦
ب) الهرمنيوطيقا	٤٧٧
تعريف الهرمنيوطيقا	٤٧٧
الهرمنيوطيقا المنهجية	٤٧٩
الهرمنيوطيقا الفلسفية	٤٨٠
نتائج الهرمنيوطيقا الفلسفية	٤٨٣
١- شيوع النسبية	٤٨٣
٢- انتحار النظرية	٤٨٣
٣- تنمية الشك	٤٨٣
٤- معارضة العلوم الحقيقية	٤٨٤
٥- استحالة إدراك الحقيقة المطلقة	٤٨٤
٦- حدود النظرية	٤٨٤
نقد نظرية الهرمنيوطيقا في كلمات الإمام الحسين <small>عليه السلام</small>	٤٨٤
معرفة الحق من قبل أصحاب العقول	٤٨٥

- ٤١٥..... إمكان إدراك الحق المطلق
- ٤١٦..... إمكان معرفة الحق والباطل
- ٤٨٩** (ج) التعددية الدينية
- ٤٨٩..... تعريف الدين
- ٤٩٠..... تعريف التعددية
- ٤٩١..... تاريخ التعددية
- ٤٩٣..... استخدامات التعددية
- ٤٩٣..... التعددية في مجال نظرية المعرفة
- ٤٩٤..... الاتجاهات والأيدولوجيات المختلفة
- ٤٩٤..... ١- تبادل وجهات النظر والحوار بين الأديان
- ٤٩٥..... ٢- النسبية والتشكيك المعرفي
- ٤٩٦..... ٣- التعددية الدينية وفقاً لأسس الهرمنيوطيقا الجديدة
- ٤٩٧..... ٤- الاتجاه الديني القائل بأحقية جميع الأديان الإلهية وشبهها
- ٤٩٧..... المؤاخذات العقلية على التعددية الدينية
- ٤٩٨..... ١- التعددية واجتماع النقيضين
- ٤٩٨..... ٢- التعددية والتهديم الذاتي
- ٤٩٨..... ٣- التعددية وامتناع الإيمان
- ٤٩٩..... ٤- التعددية تقتضي عدم حجية النصوص
- ٤٩٩..... ٥- التعددية ولغووية الإيمان والإطاعة
- ٤٩٩..... ٦- التعددية وإنكار دور الدين الإرشادي
- ٤٩٩..... مخالفة القرآن للتعددية الدينية
- ٥٠٠..... ١- أخذ العهد والميثاق على الأمم السابقة
- ٥٠٠..... ٢- القرآن كتاب مهيمن وناسخ
- ٥٠٠..... ٣- النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم رسول عالمي

العاشر: الموانع النظرية للمعرفة	٥٧٧
٤- القرآن كتاب عالمي	٥٠١
٥- البشارة بالإسلام في التوراة والإنجيل	٥٠١
٦- دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام وتوبيخهم	٥٠١
٧- الأمة الإسلامية أفضل الأمم	٥٠٢
٨- غلبة الإسلام على الأديان الأخرى	٥٠٢
٩- الإسلام شرط اهتداء أهل الكتاب	٥٠٢
١٠- أمر أهل الكتاب بالإيمان	٥٠٢
١١- النهي عن تغيير الدين	٥٠٣
١٢- الوعد بالعذاب لعدم الإيمان بالدين الجديد	٥٠٣
١٣- وقوع التحريف في كتب الأديان الأخرى	٥٠٣
١٤- وحدة الصراط المستقيم	٥٠٣
١٥- الدعوة إلى الإسلام	٥٠٤
١٦- نقد عقائد أهل الكتاب	٥٠٤
مخالفة الأحاديث للتعددية الدينية	٥٠٥
الدين في كلمات الإمام الحسين <small>عليه السلام</small>	٥٠٩
العافية في الدين	٥٠٩
تأثير التدين في الحيلولة دون قتل المظلوم	٥٠٩
تأثير حب الدنيا في ضياع القيم الدينية والعرفية	٥١٠
تأثير عدم الدين في الخروج على الإمام بالحق	٥١١
ارتباط الإنسان بالآخرة عن طريق الدين	٥١١
لزوم العمل بالدين	٥١٢
حرمة إفساد الدين	٥١٢
معالم دين الله	٥١٣
الفهم الديني	٥١٤

٥١٥	تأثير الدين في عدم الانغماس بالدنيا
٥١٦	حاجة طلاب الدنيا لدين الأولياء
٥١٧	عوامل ضياع دين الإنسان
٥١٨	لزوم نصره دين الله
٥١٨	لزوم إعزاز شرع الله
٥١٩	الفرق بين الشرع والدين
٥٢٠	رفعة الأمر الإلهي بنصرة الله
٥٢٠	عدم وجود النقص في دين الله
٥٢١	ضرورة التحدث بنعمة الدين للناس
٥٢٢	رعاية الاعتدال في الدين
٥٢٢	بطلان التعددية الدينية في كلمات الإمام الحسين <small>عليه السلام</small>
٥٢٣	نفي التعددية الدينية
٥٢٥	بطلان نظرية الصراط المستقيمة
٥٢٦	معوقات الحيرة الدينية والمذهبية المدمرة
٥٢٩	(د) التعددية المذهبية
٥٣١	المذهب في كلمات الإمام الحسين <small>عليه السلام</small>
٥٣١	سعة المذاهب
٥٣٢	سعة المذاهب تعمي الإنسان أحياناً
٥٣٢	لزوم اختيار مذهب من المذاهب
٥٣٣	بطلان التعددية المذهبية في كلمات الإمام الحسين <small>عليه السلام</small>
٥٣٧	فهرس المصادر
٥٥٥	الفهرست